د. منذر الحايك



العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية

الجزء الأول

تقديم أ. د. سهيل زكار

قرؤوا فوصلوا

لنقرأ حتّى نصل

الطّبعة الأولى

آب 2006م

الإشراف الفنّي: يزن يعقوب

الإخراج الفنّي: فؤاد يعقوب

تصميم الغلاف: عبد القادر إدريس

التّدقيق والمُراجعة: إسماعيل الكُردي

الكتاب: العلاقات الدّوليّة في عصر الحُرُوب الصّليبيّة

تأليف : د. مُنذر الحايك

النّاشر : **الأوائل** للنّشر والتّوزيع

سُوريّة . دمشق . الإدارة : ص . ب3397

هــاتــف :00963 11 44676270/1/2

فــاكس :00963 11 44676273/4/5

البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org

التّوزيع : دمشق ص . ب10181

هاتف : 0096301102233013

البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com

جـــوّال : 00963 93 418181

00963 93 411550

موقع الدّار على الإنترنت :

www.daralawael.com

الدُّكتور مُنذر الحايك

العلاقات الدّوليّة في عصر الحُرُوب الصّليبيّة

الجُزء الأوّل

العلاقات بين القوى والدُّول الإسلاميّة

تقديم : أ. د. سهيل زكّار

الأوائل

2006

قرؤوا فوصلوا ، لنقرأ حتَّى نصل

تنويهٌ هامٌ

من أجل تواصُل أكثر مع السَّادة القُرَّاء ، فقد خَصَّصنَا آخر (32) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدّار ؛ حيثُ يجد السَّادة القُرَّاء قائمة بمنشورات الدّار ، ولمحة إلى كُلِّ كتاب أصدرتْهُ الدّار.

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عاماً عمّا تنشُرُهُ الدّار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامّةً إلى الخطِّ الذي تنتهجُه الدّار ، وهذا - بلا شَكٍّ - سيجعل التَّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السَّادة القُرَّاء قراءة هذه الصَّفحات بتأنٍّ وتدبُّر، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحظاتكُم واستفساراتكُم عن الكُتُب التي تنشُرُها الدار.

الإهداء

إلى فراس

الذي تابع السَّيرَ على الدَّرب

وحقّق كثيراً من الآمال...

صفحات محبَّة ودليل تفاؤل . .

بأنَّ العزيمة باقية

وأنَّ المضيَّ قُدُماً لم يتوقَّف..

أبو فراس

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس



تقديم: أ.د. سُهيل زَكَّار

تعدَّدت مذاهب تعليل التاريخ وتفسيره، وطرائق مُعالجة أحداثه، وغالباً ما جاءت المذاهب انعكاساً لتيَّارات العصر السِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وغير ذلك، وانطبق هذا التعامل مع أحداث قرنَيْ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ففي عصر الاستعمار الأُورُبي، ولا سيما الفرنسي، رأى عدد كبير من الباحثين الفرنسيين في أحداث الحُرُوب الصَّليبيَّة رسالة الأُمَّة الفرنسيَّة، التي جاء الوقت - بعد الحَرْب الكونية الأُولى - إلى إعادة حملها إلى بلاد الشَّام. ومع قيام مدارس التفسير الاقتصادي، جرى تفسير دوافع الصليبيين بأنَّها كانت اقتصاديَّة، وفي بعض الأحيان امتزج التفسير الاقتصادي بالتفسير القومي.

وقُبيل نهاية القرن الماضي، مع انتهاء الحَرْب الباردة، وقيام تحكُّم القُطب الواحد، شهدنا ظُهُور تيَّارات جديدة، كان من أبرزها: صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، والعولمة، وفكرة الإمبراطُوريَّة العالمية الديمقراطية، ومشروع الشَّرْق الأوسط الكبير، وأطرُوحات أُخرى كثيرة، وامتازت هذه المُدَّة الزمانية بظُهُور التيَّارات الدِّينيَّة، أو ما أُطلق عليه - أحياناً - اسم: "تيَّارات اليمين"، ومعها رسخ في عُقُول الكثيرين في أنحاء العالم أن القُطب الواحد هدفه القضاء على الإسلام، مثلما قضى - من قبلُ - على الماركسية، وسلاح هذا القُطب هُو التعصُّب الكَنَسي، وهذا ما وضح لدى إعادة انتخاب الرئيس بُوش لولاية ثانية، فالرئيس بُوش ينتمي إلى حَرَكَة المُتطهِّرين الجُدُد، واستخدم مراراً اصطلاح: "صليبية" في أحاديثه عن غزو أفغانستان، واستخدمه أكثر في أحاديثه عن احتلال العراق. ودفع هذا بقُوَّة القيام بتفسير دوافع أحداث الحُرُوب الصَّليبيَّة على أنَّها كانت دينيَّة بالمقام الأوَّل، ولم يقبل بعض الباحثين، ولا سيما بقايا اليسار القومي العَرَبي، بهذا التفسير، وشاهدوا في أحداث أفغانستان والعراق مع أحداث أُخرى كثيرة نوعاً من أنواع العلاقات بين الكيانات، ولم تتَّضح هذه الأطرُوحة كثيراً بعد.

وأَخْذاً بمبدأ العلاقات، أَقْدَمَ د. مُنذر الحايك على مُعالجة أحداث الحُرُوب الصَّليبيَّة، لا سيما بعد صلاح الدِّين، وطبعاً؛ الصراعات السِّياسيَّة والعسكريَّة هي علاقات، لكنَّ المُشكلة هُنا: هل الصراعات الدّاخليَّة بين أفراد البيت الأيُّوبي، وتمزيق وحدة الدولة الكُبْرَى ـ التي أسَّسها صلاح الدِّين ـ هي علاقات محضة؟ أو بعبارة أُخرى: هل الوحدة التي أقامها صلاح الدِّين شكَّلت حالة استثناء، والتمزُّق هُو القاعدة، لأن دولة صلاح الدِّين كانت إمبراطُورية، وطبعاً؛ هذا أمر خطير، تقبله ـ الآن ـ العقلية العَرَبيَّة الراضخة للأنظمة، والتي استَبْعَدَت من حساباتها الدعوة إلى الوحدة، ثُمَّ الدعوات إلى التآلف وتوحيد الموقف، وهذا واضح تمام الوُضُوح من المواقف تجاه العراق.

واقع التاريخ يُحدِّثنا بأنَّ الحملة الصَّليبيَّة الأُولى حقَّقت نجاحاتها بسبب التمزُّق العَرَبي، ولا سيما على أرض الشَّام؛ مثلما حدث بعد وفاة صلاح الدِّين، وأخبار التاريخ تُحدِّثنا ـ أيضاً ـ أن معركة حطِّين وتحرير القُدْس جاءت نتيجة للوحدة التي أسَّسها صلاح الدِّين، وأنَّه لولا الوحدة لما تحقَّق النصر في عَيْن جالُوت، وفي معارك صَدِّ موجات الاجتياح المغولي، وفي الوقت نفسه؛ تصفية الوُجُود الصليبي كُلِّيّاً من على أرض الشَّام.

أنا لا أُريد مُطلقاً اتِّهام د. مُنذر الحايك بعدم التنبُّه إلى هذه الأُمُور، هُو تنبَّه لها تماماً، فلدى حديثه عن زنكي، أوضح أن ثمار الوحدة الصغيرة التي حقَّقها زنكي كانت تحرير الرُّهَا، وإزالة الكيان الصليبي الأوَّل الذي تأسَّس في المشرق، وأظهر وعياً مشكوراً تجاه أهمِّيَّة الجزيرة، فمن المَوصل حقَّق زنكي الوحدة بين الجزيرة وأعالي بلاد الشَّام، وبعد اغتياله، تمكَّن ابنه محمود من توحيد الشَّام الشمالي مع الجنوبي، وأحبط خُطط الصليبيين في الاستيلاء على مصر، المهمَّة التي تابعها صلاح الدِّين بعده، وقطف ثمارها.

وأوضح د. مُنذر الحايك في دراسته الموثَّقة أنَّه قامت علاقات بين الكيانات الصَّليبيَّة والكيانات الأيُّوبيَّة وتحالفات، ذلك أن الصليبيين تورَّطوا ـ مُنْذُ أيَّام الحملة الأُولى ـ في صراعات حُكَّام الشَّام الدّاخليَّة، وطبعاً؛ كانت هذه التحالفات ذات دوافع سُلطوية، لكنْ؛ على الرّغم من هذا التورُّط، فالأمر لم يتعدَّ الاستثناء، ولم يُشكِّل القاعدة.

ومُنْذُ احتلال الصليبيين للقُدْس أقلقت قضيَّة التمزُّق السِّياسي المُفكِّرين، وظهر هذا واضحاً عند السلمي في كتابه عن الجهاد، الذي هُو أوَّل مُؤلَّف من نوعه، وقد دعا فيه حُكَّام أيَّامه إلى تأجيل خُصُوماتهم، وتوحيد جُهُودهم، إلى أن يتمَّ اقتلاع المُحْتَلِّ الصليبي، وتحرير القُدْس، ومثل هذه الدعوة رائجة هذه الأيَّام، لكنَّها لم تنجح إلَّا بالاعتراف بإسرائيل، وبمنحها تنازلات مُتواصلة.

هذا؛ ويُلاحَظ أنَّه عندما تحقَّقت الوحدة أيَّام صلاح الدِّين، أعادت توحيد العَرَب، ودفعتهم إلى نسيان خلافاتهم القديمة، من صفِّين، إلى كربلاء، فالحرَّة، وغير ذلك، وهذا ما نراه عند الوهراني في واحد من مناماته؛ حيثُ كان الشُّفعاء يوم القيامة ـ بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ـ الإمام عليّ مع السِّبْطَيْن، لكنْ؛ كان لمُعاوية وابنه يزيد دور في منح الشفاعة أيضاً.

وحقيقة الحال إن العمل الذي أُقدِّم له، وأعدَّه د. مُنذر الحايك، من أهمِّ ما كُتب بالعَرَبيَّة حديثاً حول الحُرُوب الصَّليبيَّة، وأشهد أنَّه عالج جوانب هذه الحُرُوب بنجاح ودقَّة، ولولا أنَّه تملَّك في ذهنه ـ بوُضُوح ـ صُورة جميع جوانب هذا الموضوع الشائك لما حالفه النجاح. لقد أوضح ـ مُنْذُ البداية ـ أن قيام الإسلام ونجاح حَرَكَة الفُتُوحات الكُبْرَى، قسَّم عالم حوض البحر المُتوسِّط إلى عالمَيْن مُتصارعَيْن: واحد مُسلم، وآخر مسيحي، وفي العالم المسيحي كان للكَنيسة الكاثوليكية نُفُوذها الكبير، لذلك استجاب الأُورُبيون لنداء البابا أُورُبان الثَّاني في العام **1095**م، فحملوا الصليب، وتوجَّهوا ـ على شكل أمواج بشرية ـ يُريدون القُدْس. وعندما وصلت جُمُوع الصليبيين إلى القسطنطينيَّة نجح الإمبراطُور ألكسيوس كومينوس في التعامل معها، ونقلها إلى البرِّ الآسيوي، وبذل سلاجقة الرُّوم جُهُودهم ضدَّ الصليبيين، فأخفقوا، ولم تتوفَّر لهم التعزيزات والنجدات، لأن السلاجقة كانت دولتهم تُعاني من التمزُّق، ومن الصراعات بين أبناء ملكشاه، وحاصر الصَّليبيُّون أنطاكية، وصمدت في وجههم طويلاً، لكنْ؛ لم يأت جيش كبير للتفريج عنها، وحين وصل جيش والي المَوصل كانت الفُرصة قد ضاعت. والمُثير للدهشة أن السُّلطات التي كانت تتحكَّم بالقاهرة قامت بالتفاوض مع الصليبيين، ثُمَّ التعاهد، فاستولت جُيُوشها على القُدْس عام **1098**م، القُدْس التي حُوصرت بعد وقت قصير من قبَل الصليبيين، ولم يأت أحد للتفريج عنها من القاهرة، ولا من غيرها.

وتنبَّه د. الحايك إلى أن العلاقات تنشأ عنهـا مُعاهـدات، واتِّفاقـات، وهُـدَن، ولـذلك تتـوفَّر خدمات للبريد، وكذلك سُفراء، ورُسُل، ومراسم، وفي حُرُوب الكيانات؛ تنشط المشاريع والأفكار، ولا سيما الزيجات "الدّبلُوماسيَّة"، فهذا وَضحَ أثناء تصدِّي صـلاح الـدِّين للحملـة الثَّالثـة، ولكنَّـه استُخدم أكثر بين الأيُّوبيِّيْن، وأيضاً؛ بين الصليبيين.

وفي أثناء القرن الثَّالث عشر، وقـت الـصراعات الأيُّوبيَّـة، ربـح الـصَّليبيُّون كثـيراً مـن هـذه الصراعات، ونالوا ـ بالُمعاهدات، والهُدَن ـ ما لم يستطيعوا نيلـه عـسكريَّاً، وصـحيح أن أفـراد البيـت الأيُّوبي انغمسوا في صراعاتهم الدّاخليَّة، لكنَّ أوضـاعهم كانـت صـعبة جـدَّاً، فقـد واجهـوا ثـلاث حملات كبيرة مع عدد من الحملات الفرعية، وكانت أُورُبا تُرسل ـ بلا انقطاع ـ الحُجَّاج، والأسـلحة، والخُيُول، والأعتدة، واضطرَّ بعض الحُكَّام الأيُّوبيِّيْن إلى الاستعانة بالُمرتزقـة، وسـواهم، خاصَّـة فئـة الخَوَارزميَّة، ونظراً لأن ولاء الُمرتزقة والخَوَارزميَّة اعتمد على المال، كان هذا مُرهقاً اقتصادياً وسياسـياً وعسكريَّاً. وقد احتاج الأيُّوبيُّون ـ مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين ـ إلى شراء الرقيق مـن الفتيـان، وتـدريبهم، وتعاظم هذا أيَّام الصَّالح أيُّوب، وتوفَّرت المادة البشرية، ولا سيما مـن القفجـاق؛ بـسبب الـضربات الشديدة التي تعرَّضت قبائلهم لها على أيدي المغول.

وهُنا؛ تكرَّر حُـدُوث مـا لابـدَّ منـه، فبعـد اغتيـال زنكـي في العـام **1146**، وانقـسام دولتـه إلى قسمَيْن: جزري، وشامي، وجد نُور الدِّين نفسه بحاجـة إلى الطاقـة البـشرية، ورأى أن الـتُّركمان ضعف وُجُودهم في الشَّام الشمالي؛ لانشغالهم في الأناضول، وفي الجزيرة. وكانت أحداث الـصراعات التركمانية، واجتياح التُّركمان للأناضول قد تسبَّبت ـ ضمن عوامل عديدة ـ في دَفْع أعـداد كبـيرة مـن الأرمن والأكراد على الهجرة، كما أيقظت الكرج، أو الجورجيين، وقاد هذا إلى تأسـيس دولـة أرمينيـا الصُّغرَى في كليكية، وإلى التحاق أعداد كبيرة من الأكراد بنُور الدِّين، ولذلك عندما مات نُور الـدِّين ورثه صلاح الدِّين، والآن؛ بعد وفاة الصَّالح أيُّوب أثناء التّـصدِّي للحملـة الأُولى للقـدِّيس لـويس، ورث مماليكُهُ السُّلطةَ، ووُلِدَتْ دولةُ المماليك.

وكان للكرج أدوارهم في أحداث الجزيرة، وقد قادوا عدَّة حمـلات صـليبية خاصَّـة بهـم، ولكـن دور أرمن كليكية كان أشدَّ خُطُورة في الشَّام الشمالي، وعنـدما قـدم المغـول تحـالف الكـرج والأرمـن مـع

المغول، وشاركوا في جميع حملات المغول ضدَّ بلاد الشَّام، من عَيْن جـالُوت حتَّـى شـقحب، ولحُسْن الحظِّ أن باحثنا أجاد البحث في هذا الجانب، وغطَّاه، كما تعرَّض إلى دور الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة.

واستعرض مسألة التحالف بين فردريك الثَّاني والأيُّـوبيين، ولا سـيما مـع الكامـل، ثُـمَّ ابنـه أيُّوب من بعده، وهذه قضيَّة خطيرة تحتاج إلى أُطرُوحة قائمـة بـذاتها، فـنحنُ ـ مثـل جُـلّ مُعـاصري الكامل ـ ساءنا تسليم الكامل القُدْس لفردريك الثَّاني، لكنْ؛ هل كان لدى الكامل مشروعه الخاصّ، أو مخاوفه ممَّا كان يجري في أُورُوبا من تحضيرات لحملـة جديـدة، فـأراد اسـتغلال سُـوء العلاقـة بـين فريدريك والبابويَّة، وكذلك مع الجنوية، وغيرهم؟

إن العمل الذي قام به باحثنا يفتح آفاقاً جديـدة للبحـث والتقـصِّي، خاصَّـة في الجُـزء الثَّـاني؛ حيثُ أجد أن عُنوان "العلاقات الآسيوية الأُورُوبيَّة" مُسوَّغ تمام التسويغ.

والعمل الذي أُقدِّم له اليوم شكَّل لديَّ بارقة أمل، أن الضعف اللامحدود الـذي ألمَّ بدراسـات التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق، سوف يجـري تداركـه في حمـص، وربَّـما في حلب، والـضعف في دراسات التاريخ الإسلامي هُو مأسوي، ومـردُّه إلى أن الُمعيـدين الـذين جـرى تعيينـهم في العقـدَيْن الماضيَيْن اختيروا للونهم السِّياسي، ولم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي؛ مثل الُمقـابلات، واستـشارة الأساتذة، وبذلتُ كُلَّ جهد مُستطاع حتَّى أجعل من هؤلاء الذين هُـم ـ الآن ـ يتحمَّلـون المـسؤولية أكاديميين، فكان النجاح مجزوءاً، وهذا ـ بالفعل ـ أمر محزن، لابدَّ من إيجاد حلٍّ له.

الذي أتمنَّاه أن يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدُّكتُور مُنذر الحايك، والذي أُقدِّم له، بداية لمزيد من الأبحاث في ميدان الحُرُوب الصَّليبيَّة، والميادين الأُخـرى في تـاريخ العَـرَب والإسـلام، ولا سيما بعد اكتمال مشروع الموسوعة الشاملة، والقادم منها سوف يُعينه إنْ شاء الله، ويزيد معلوماته.

له أتمنَّى التوفيق والنجاح، والحمد لله أوَّلاً، وآخراً، والصلاة والسلام على نبيِّه الُمصطفى، وعلى آله، وصحبه، وسلَّم.

أ. د. سُهيل زَكَّار

دمشق: الخميس **8**/ ذي القعدة/ **1426** هـ الُموافق **8**/ كانون الأوَّل/ **2005**م

استهلال

مُنْذُ أن وُجدَت الدُّول بأبسط أشكالها السِّياسيَّة كانت العلاقات - فيما بينها - تشغل الحيِّزَ الأكبر من اهتمامها، فهذه العلاقات هي التي تُحدِّد توجُّهات دولة نحو الأُخرى، بما فيها حالتَيْ الحَرْب، والسِّلْم. ويُعَدُّ تاريخ العلاقات بين المُجتمعات والدُّول تاريخاً للإنسانيَّة كُلِّها، فمُنْذُ القِدَم تعيش البشرية في احتكاك دائم، ومُتنوِّع، يشمل كُلَّ المجالات العسكريَّة والسِّياسيَّة والحضارية، وعلى أساس هذه العلاقات قامت إمبراطُوريات امتدَّت فوق دُول، وشُعُوب، وأُخرى اندثرت، وتلاشت.

ورُبَّما كان أشهر ما في العلاقات الدّوليَّة على مرِّ العُصُور هي العلاقات التي ترتَّبت على ما سُمِّيَ الصراع بين الشَّرْق والغَرْب، وقد بدأت هذه القضية في وقت مُبكِّر من تاريخ العلاقات، ففي القرن الخامس قبل الميلاد انشقَّت أُورُوبا الهلنية عن آسيا الكنعانية الفارسية، فظهرت تلك القضية من خلال إثارة مُشكلة الحُدُود بين الفُرْس واليونان، أو بين آسيا وأُورُوبا. وكان كُلُّ هَمِّ الدُّول المُتعاقبة في الضفَّتَيْن كلتَيْهما أنْ تُحاول حلَّ هذه المُشكلة، كُلّ منها على طريقتها الخاصَّة، عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل.

تُعدُّ الحُرُوب الميدية بين الفُرْس والإغريق بداية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب، فقد بدأت بهُجُوم الفُرْس على بلاد اليونان، بتصوُّر فارسي لحَلٍّ شرقي للقضية. لكنَّها انتهت بهُجُوم الإسكندر اليوناني، واحتلاله لمُعظم بلاد الشَّرْق، فارضاً الحَلَّ الأُورُوبي بالقُوَّة، ولَمَّا ظهرت قُوَّة الرُّومان، وتوسَّعوا في أُورُوبة، ورثوا الإغريق، وحَلَّهم لقضية الصراع مع الشَّرْق، وذلك عندما احتلُّوا الدُّول التي قامت على أنقاض إمبراطُورية الإسكندر في الأناضول، وسُورية، ومصر.

وحتَّى هذه المرحلة من الزمن بقي الصراع بين الشَّرْق والغَرْب صراعاً عسكريَّاً وسياسياً، ولم يحمل أيَّ صبغة دينيَّة. لكنْ؛ بعد اعتناق أُورُوبا للمسيحية بإعلان قسطنطين المَسيحيَّة ديناً للدولة الرُّومانيَّة، بدأ الصراع بين الشَّرْق والغَرْب يأخذ شكله الدِّيني، وقد انفجر هذا الصراع عندما بدأت نهضة دينيَّة جديدة تعمُّ بلاد الفُرْس، وهي التي دفعت الملك الفارسي شاهبور الأوَّل من الأُسرة الساسانية، فهاجم إقليم سُورية الرُّوماني، وأسر إمبراطُور الرُّومان فاليريان، واحتلَّ أقسام واسعة من

شرق وشمال سُورية، وتابع الملك خسرو ـ عام 614 م ـ مُحاولة إمضاء الحَلِّ الفارسي، فهاجم سُورية من جديد، واستولى على القُدْس، وأخذ منها خشبة الصليب المُقدَّس. لكنَّ الرَّدَّ الأُورُوبي لم يتأخَّر، فقد قام الإمبراطُور الرُّوماني هرقل عام 7 هـ 628 م بهزيمة الفُرْس، واستردَّ خشبة الصليب، وفرض الحَلَّ البيزنطي لقضية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب[1].

وهُنا ـ أيضاً ـ لم يتأخَّر الرَّدُّ الشَّرقي طويلاً، فقد أُعلِن الحَلُّ العَرَبي لقضية الصراع؛ بإقامة إمبراطُورية آسيوية واسعة، ثُمَّ الهُجُوم على أُورُوبا من محورَيْن، القسطنطينيَّة وجنوب فرنسا بعد احتلال الأندلس.

ومُنْذُ هذا التاريخ؛ انقسم العالم إلى شرق مُسلم، وغرب مسيحي، ومع أن العداء بين الشَّرْق والغَرْب عداء تقليدي وقديم، لكنْ؛ زاده حدَّة هذا الانقسام الدِّيني، فالحُرُوب الدِّينيَّة تكون ـ عادةً ـ من أقسى الحُرُوب؛ لاعتقاد كُلِّ فريق بأنَّه يُنفِّذ إرادة الإله على الأرض، ويُؤدِّي واجباً مُقدَّساً انتدبه الرَّبُّ للقيام به. ورُبَّما تكون دوافع الحَرْب ـ في الأصل ـ دينيَّة، ولكنْ؛ لا يلبث الناس أن ينسوا الدِّين، وتُصبح أهدافُ الحَرْب السيطرةَ والاستغلالَ واستعبادَ الآخرين، والذي لا يتغيَّر ـ فقط ـ هُو العداء الموروث، والجُهُود المُستمرَّة التي يبذلها كلُّ فريق لإذلال الفريق الآخر.

وعلى هذا الأساس الدِّيني جاء الحَلُّ الأُورُوبي في العُصُور الوُسْطَى لقضية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب بما عُرِفَ باسم الحُرُوب الصَّليبيَّة، وكانت هذه الحُرُوب تمتاز بأنَّها حرب جامعة، قام بها الغَرْب المسيحي ضدَّ الشَّرْق المُسلم، وقد اعتقدت جُمُوع الصليبيين ـ وقتها ـ بأنَّها حرب مُقدَّسة لغرض مقدس، وهي تتمُّ بتوجيه من الله، الذي أوكل الإشراف عليها إلى البابا؛ خليفته على الأرض. وعلى الدوام كان الحلُّ بالعنف يُولِّد ردَّ فعل عنيف، فالهُجُوم الفرنجي أيقظ رُوح الجهاد لدى المُسلمين، وولَّد حَرَكَة إحياء ثقافية تدعم الجهاد، وتحضُّ عليه، كانت إحدى صورها ظُهُور كُتُب الجهاد، وكُتُب فضائل البُلْدان، وكُتُب الزيارات[2].

1 - للتوسُّع راجعْ: الحضارة في الميزان، أرنولد توينبي، ترجمة: محمود أمين الشريف، 162.
2 - راجعْ: الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، سوريال عطية، 7.

وكان للحُرُوب الصَّليبيَّة في كلِّ عصر تفسير ومعاني، فكُتَّاب عصر النهضة عَدُّوها تعبيراً عن رُوح التعصُّب والحماس والغيرة العمياء. أمَّا الكُتَّاب المُعاصرون ـ وبتأثير أفكار المدرسة الاقتصاديَّة ـ؛ فقد وصفوها بأنَّها مرحلة من مراحل التوسُّع الأُورُوبي في الشَّرْق، أخذت في العُصُور الوُسْطَى شكلاً استعمارياً بسبب زيادة عدد السُّكَّان في فرنسا، وما جاورها، ونقص الموارد فيها. وهُنا يبدو أنَّه كُلَّما لمست أُورُوبا من نفسها قُوَّة هاجمت الشَّرْق، طمعاً بأراضيه للاستيطان، وبخيراته للاستغلال، وبموقعه الاستراتيجي عسكريَّاً وسياسياً.

حالة الشَّرْق العَرَبي قُبيل الغزو الفرنجي:

في أوائل القرن الرَّابع الهجري كانت قوى الإمبراطُوريَّة العَرَبيَّة قد بدأت بالانهيار، وأخذت أطرافها بالانسلاخ عنها شيئاً بعد شيء، وكذلك فقد سقطت الدولة الأموية في الأندلس، لتخلفها دُويلات الطوائف المُتصارعة التي سهَّلت حرب الاسترداد. وبقيام الخلافة الفاطمية، وسيطرتها على مصر أُعيد الأمل ببناء قُوَّة عربية إسلامية خاصَّة في البحر المُتوسِّط، لكنَّ الفاطميين سُرعان ما أُنهكوا في صراعهم حول الشَّام، إضافة إلى الصراعات الدِّينيَّة والسِّياسيَّة مع الدولة العبَّاسيَّة.

في الوقت نفسه؛ كان أعداء العَرَب يستعيدون قُوَّتهم، ويُحقِّقون نجاحات عسكريَّة مُتتالية، فقد تقدَّم البيزنطيون ليُحطِّموا دفاعات ثُغُور الشَّام، ويحتلُّوا أجزاء مُهمَّة من شماله وساحله، ولم يُوقف التقدُّم البيزنطي ـ الذي بدا وقتها وكأنَّه حرب استرداد مُنظَّمة للشام بأكمله ـ إلَّا تدفُّق الشُّعُوب التُّركيَّة إلى الأراضي الإسلاميَّة من منطقة ما وراء النهر؛ حيثُ تمكَّن السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان من أَسْر الإمبراطُور البيزنطي رُومانُوس ديجانس في معركة ملاذ كُرد قُرب بُحَيْرة وان عام 463 هـ 1071م، بعد إبادة شبه كاملة للقُوَّات البيزنطيَّة. لكنَّ السلاجقة لم يستثمروا نصرهم، الذي أرعب أُورُوبا، وانقسموا إلى إمارات مُتصارعة، وصحيح أن بيزنطة تمكَّنت من تجاوز محنتها، لكنَّها فشلت في صَدِّ تدفُّق التُّركمان على الأناضول؛ حيثُ قامت دولة سلاجقة الرُّوم الذين اتَّخذوا من نيقية قُرب القسطنطينيَّة عاصمة لهم.

وقام التُّركمان ـ الذين دمَّروا المُؤسَّسات البيزنطيَّة، واحتلُّوا أرض الأناضول ـ بالعمل نفسه في الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ تعطَّل كلُّ نشاط اقتصادي، وبلغت البلاد حالة مزرية من الضعف،

وتحوَّلت إلى إمارات وإقطاعات مُتصارعة، لا يهمُّ حُكَّامها إلَّا توسيع نطاق السيطرة، والحُصُول على أكبر قدر من المغانم. في هذه الحالة المُتردِّية للشام، حالة الدمار والفقر الكامل والحُكَّام الغُرباء المُتصارعين، فُوجِئت البلاد بجحافل الفرنجة تحتلُّ أنطاكية، ثُمَّ الرُّهَا، ثُمَّ بلاد الساحل، وكانت الطامة الكُبْرَى في احتلالها البيت المُقدَّس، مع كُلِّ ذلك لم يستفق حُكَّام الشَّام من غفلتهم، واستمرُّوا في صراعاتهم[1].

العلاقات الدّوليّة في العصر الأيُّوبي:

تكاد تكون مُعظم العلاقات الدّوليَّة في هذا العصر قد تمحورت حول الحُرُوب بين المُسلمين وفرنجة الشَّرْق المدعومين من كُلِّ القوى السِّياسيَّة والعسكريَّة الأُورُوبيَّة، فقد تمثَّلت في هذه الحُرُوب مُعظم قوى العالم في وقتها؛ حيثُ شاركت فيها غالبية الشُّعُوب والدُّول الأُورُوبيَّة، بينما في الطرف الإسلامي نجد أن مُعظم الدُّول الإسلاميَّة لم تُشارك في الحَرْب ضدَّ الفرنجة، لكنَّ هذه الدُّول الإسلاميَّة واجهت جميعها مُصيبة التَّتار. وبذلك نجد إنْ كان الأمر في الحَرْب ضدَّ الفرنج، أو في الحَرْب ضدَّ التَّتار، فقد التقت أمم الأرض في حُرُوب دامية، وكان أتون هذا الصراع يرتكز على أرض الشَّام ومصر.

ويُمكن - نظرياً - تقسيم مراحل الصراع بين الفرنج والمُسلمين إلى ثلاثة أدوار رئيسة هي:

1 - **دور القُوَّة الفرنجيَّة:** حيثُ كان واضحاً ضعف المُسلمين، بسبب تجزئة بلادهم، وتبعثر قواهم، وقد تأسَّست - خلال هذا الدور - مملكة القُدْس والإمارات الفرنجيَّة الأُخرى في الشَّرْق.

2 - **دور تعادل القوى:** بدأه عماد الدِّين زنكي بمشروع الوحدة في الشَّام، وتمكُّنه من استرداد الرُّهَا. وأكمل هذا الدَّورَ نُورُ الدِّين بن زنكي، الذي حقَّق الوحدة مع مصر.

3 - **دور الضعف الفرنجي:** وقد تحقَّق عندما تمكَّن صلاح الدِّين من قلب ميزان القوى بعد نصر حطِّين، وانشغال أُورُوبا عن فرنج المشرق بمُشكلاتها الدَّاخليَّة. لكنَّ انقسام الممالك الأيُّوبيَّة بعد وفاة صلاح الدِّين أجَّلَ إنهاء الحَرْب حتَّى عودة الوحدة بين سُورية ومصر بقيام دولة المماليك.

---

1 - راجعْ: ما كتبه د. سُهيل زَكَّار في تقديمه لكتاب الإعلام والتبيين للحريري.

دولة صلاح الدِّين

في حياة السُّلطان نُور الدِّين محمود بن زنكي تمَّ عمل سياسي وعسكري نادر عندما ضمَّت مصر إلى دولة نُور الدِّين القائمة في الشَّام[1]، وقد تحقَّق ذلك عبر حملات أسد الدِّين شيركوه، التي مكَّنته من حُكْمها كقائد أتابكي ووزير فاطمي، ثُمَّ خلفه ابن أخيه صلاح الدِّين الذي ألغى الخلافة الفاطمية رَسْمِيَّاً، بعد أن كانت مُلغاة فعليَّاً مُنْذُ أيَّام الوزراء من آل الجمالي[2]، وحكم مصر حُكْماً مُباشراً نيابة عن نُور الدِّين، الذي غدا سُلطان الشَّام ومصر. وبعد وفاة نُور الدِّين محمود قام صلاح الدِّين حاكم مصر بالسيطرة على كامل الدولة عن طريق القُوَّة العسكريَّة، لكنَّه بقي مسكوناً بأخلاقيات نُور الدِّين، فأعلن أنَّه الوريث الحقيقي له ولمشروعه في الوحدة والجهاد[3]، وقد أثبتت الأيَّام صحَّة ادِّعائه. وساعد صلاح الدِّين على تحقيق مشروعه كونه من رجال العالم الإسلامي القلائل الذين كانوا قادرين على تكوين دولة مركزية، من خلال ضبط وتوحيد عدد كبير من الحُكَّام المُتفرِّقين بطبعهم، وبمصالحهم الشخصية المُتنافرة. ومُعظم هؤلاء كانوا من الأُسرة الأيُّوبيَّة ذات الأصل الكُردي، ولكن الأيُّوبيِّين - في الواقع - كانوا مُختلفين - في كثير من الأُمُور - عن الحُكَّام السلاجقة، حتَّى في خلافاتهم وانقساماتهم، فقد ظلُّوا يرفعون راية الجهاد، ولهم في ذلك، بالرَّغم من كلّ ما قيل، مواقف لا يُمكن لأحد أن يتجاهلها. ومع أصلهم الكُردي، فقد عدُّوا أنفسهم عرباً مُسلمين، إنْ لم يكن بنسبهم، فبثقافتهم، وقيَمهم، ومُحيطهم، لقد نشؤوا على أرض عربية، فتكلَّموا لُغتها، وأحبُّوا آدابها، وعُلُومها، ورعوها، وحفلت مجالسهم بالعُلماء والأدباء[4].

---

1 - جرت العادة أن الدُّول الكُبْرَى التي تقوم في مصر تزحف إلى الشَّام، وتضمُّها كبلاد تابعة، واستمرَّ ذلك مُنْذُ أيَّام الفراعنة وحملاتهم على سُورية، وحتَّى قيام الدولة الفاطمية.

2- قام أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بالحجر على الخليفة، وقطع الخطبة للفاطميين، وخطب لنفسه، كما ألغى من الأذان شعار العلويين: حَيٍّ على خير العمل، ثُمَّ قُتل أبو علي من قبَل غلمانه، فأخرج الحافظ من السجن، وبُويع له بالخلافة. (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 5) .

3 - السُّلطان نُور الدِّين، نيكيتا أليسيف، ترجمة: سليم قندلفت، 410 .

4 - وفي ذلك قال الرشيد النابلسي يمدح الملك العادل:

يا آل أيُّوب الأولى لولاهم   عفت العُلُوم وعيفت الأشعارا

عندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين في السَّابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ترك لأولاده دولة مُوحَّدة مُنتصرة قويَّة، ولم يقسمها بينهم كما قيل[1]، بل كانوا فيها وُلاةً ونُوَّاباً وأصحاب إقطاع، وهُو الشائع في حُكْم البلاد في ذلك العصر، ويُؤكِّد لنا ذلك رَدُّ السُّلطان صلاح الدِّين على أخيه العادل عندما أراد أنْ يُوليه حلب، فسأله العادل "أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البيع والشراء. فامتنع السُّلطان، وقال: إنَّما تكون حلب إقطاعاً، ولمَّا اجتمعا قال له السُّلطان: أَظننتَ أن البلاد تُباع؟ أَوَ ما علمتَ أن البلاد لأهلها المُرابطين بها؟ ونحنُ خَزَنَةٌ للمُسلمين، ورُعاة للدِّين، وحُرَّاس لأموالهم"[2]. إضافة إلى ذلك؛ فإن اختيار صلاح الدِّين لآل بيته ليتولّوا إقطاعات الدولة وولاياتها كانت له جوانب عسكريَّة واضحة، فقد اختار الأقوياء الأكفَّاء؛ ليُواجهوا عُتاة قادة الفرنج وأُمرائهم، فندب لحمص ابن عمِّه ناصر الدِّين بن أسد الدِّين ليكون بمُواجهة أمير طرابلس، واختار لحماة ابن أخيه تقي الدِّين بن شاهنشاه لمُواجهة الاسبتاريَّة في قلعة الحصن، ووضع ابنه الأكبر الأفضل علي في دمشق أمام ملك القُدْس في عكَّا، وولَّى ابنه الظَّاهر غازي على حلب ليكون في مُواجهة أمير أنطاكية[3]. ومات السُّلطان، ولم يقسم البلاد، ولم يُسمِّي وُلاته من آل بيته بالمُلُوك ما كان حياً.

والمُشكلة - إذنْ - لم تكن في انقسام البلاد، بل في انقسام الوُلاة، فقد ترك صلاح الدِّين في الدولة، التي جهد أن تكون واحدة، أبناء مُنقسمين، لا يجدر بأيٍّ منهم إرث هذا الأب العظيم، كُلٌّ منهم كان طامعاً بما بيد أخيه، فتشتَّتوا، وفقدوا دولة أبيهم[4]، وآل الأمر إلى عمِّهم العادل؛ حيثُ

1 - يقول أحمد البيسومي في تقديمه لكتاب عُيُون الرَّوضَتَيْن: "إن صلاح الدِّين - بعد أن أكمل إشادة دولته، ووحَّد أجزاءها - حتَّى شرع في تفتيتها؛ حيثُ وزَّعها إلى إقطاعات على بعض جُنده وأهل بيته". (عُيُون الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، تحقيق: أحمد البيسومي، 1/ 6).

2 - الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 18 / 478.

3 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 322 ، وسنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 163، والكامل، ابن الأثير، أحداث عام 574 هـ.

4 - قال العماد الأصفهاني في مطلع قصيدة له يرثي السُّلطان صلاح الدِّين:

شمل الهدى والمُلك عمَّ شتاته   والدهر ساء وأقلعت حسناته

بالله أين النَّاصر الملك الذي لله خالصة صفت نيَّاته (الأنس الجليل، العليمي، 1/ 395).

وكأنَّه كان يتوقع ما سيؤول إليه الحال. وكذلك قال القاضي الفاضل في رسالة يُعزِّي فيها الظَّاهر غازي بفقد أبيه السُّلطان: "إنْ وقع بينكم اتِّفاق فما عدمتُم إلَّا شخصه الكريم، وإنْ كان غيره فالمصائب المُستقبلة أهونها موته، وهُو الأعظم". (البستان الجامع، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 11/ 386)، وكان الأمر الذي خشي منه.

استقرَّت له السَّلطنة. وبالتَّأكيد؛ كان وَرَثَةُ العادل كحُكَّام وقادة عسكريين أفضل من وَرَثَة صلاح الدِّين، لكنَّهم أخذوا من أبناء عُمُومتهم الطمع والتآمر والتناحر فيما بينهم، ممَّا صبَّ - في النتيجة - في مصلحة القوى الأُخرى، وفي مُقدِّمتها الفرنج.

ولكنْ؛ لا نستطيع أن نُنكر أن الانقسام الذي حصل لدولة صلاح الدِّين بعد وفاته تمَّ وُفق توزيعه للولايات بين أفراد أسرته، وهذا التوزيع الغريب غير المنطقي كما يبدو، كان يعتمد على أُسُس وأعراف قديمة جدَّاً: فمصر - على سَعَتها، وأهمِّيَّتها، وعَظَمَة ثرواتها، كانت لواحد من أبناء صلاح الدِّين، بينما قُسِّمت الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة بينهم رُقعاً صغيرة. وهذا ما يدعونا للاعتقاد أن صلاح الدِّين كان يُدرك أن مصر لا يُمكن أن تنقسم، أو تتجزَّأ، لطبيعة أرضها، وللتاريخ الطويل من الحُكْم المركزي المُوحَّد فيها، فمصر وحدة سياسيَّة وإدارية واحدة مُنْذُ أن وحَّدها الفرعون مينا، وهُنا؛ نجد أن استمرار هذه الوحدة جعل من مصر أكبر قوى الممالك الأيُّوبيَّة، وانعكس ذلك على مُلُوكها، الذين كانوا - غالباً - سلاطين الممالك الأيُّوبيَّة. أمَّا الشَّام؛ فالأمر يختلف فيها تماماً، فقد حكم فيها الأيُّوبيُّون - بعد صلاح الدِّين - بنوع من اتِّحاد الممالك، التي كان كُلٌّ منها يتمركز حول مدينة يحكمها عُضو من العائلة، وهُو يدين بولاء شكلي لأقوى فرد فيها، الذي هُو - عادةً - صاحب أكبر مملكة. ونُلاحظ هُنا أن تقسيم الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام يكاد يكون تطبيقاً حرفيَّاً لواقع ولسياسة ممالك المُدُن الآرامية القديمة، فكُلُّ مدينة - تقريباً - تُشكِّل دولةً مع ما حولها من الأراضي، وقد انطبق ذلك حتَّى على دمشق، مع أنَّه تبع لها قسماً كبيراً من جنوب الشَّام.

وليستمرَّ حُكْم هذه الممالك كانت تحتاج إلى المال لدفع نفقات المملكة التي كانت رواتب وأعطيات الجُند تُشكِّل قوامها الأعظم، ولانعدام الصناعة، ولتردِّي حال الزراعة في مُعظم الأيَّام كان اعتماد الممالك الأيُّوبيَّة في تحصيل الموارد يقوم - بشكل رئيس - على التجارة، فلا يُوجد منهم مَنْ لم يحتكر، أو في أحسن الأحوال، مَنْ لم يُوظِّف أموالاً طائلة في التجارة. وبعد المال؛ تأتي الشرعية التي كانت أهون ما يكون على صاحب السُّلطة؛ حيثُ يحصل عليها ببعض الهدايا إلى الخليفة، ويُكرِّسها فُقهاء وقُضاة يحتاجون إلى العمل في وظائف المملكة، في الإفتاء والتدريس والقضاء.

أمّا شمال الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة؛ فقد كانت هُناك فُسيفساء من الممالك والإمارات والمُدُن المُستقلَّة، بل وحتَّى القلاع المُستقلَّة، منها ما هُو تابع للبيت الأيُّوبي، ومنها ما هُو لحُكَّام من خارج البيت، منها ما هُو مُحالف، ومنها ما هُو مُعاد لهم. وقد ساهمت - في تشكيل تلك المنظومة الفُسيفسائية العجيبة - عدَّة أُمُور، منها: الطبيعة الجبلية للمنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي، وكونها ممرّاً للتجارة بين الشَّرْق والغَرْب، ثُمَّ تنوُّع سُكَّانها العجيب دينياً وعرْقياً، إضافة إلى عامل سياسي آخر هُو وُقُوع هذه المناطق بين عدَّة قوى سياسيَّة وعسكريَّة كُبْرَى، فالأيُّوبيون في الشَّام، ولهم مُمتلكات هامَّة في الجزيرة، ومملكة أتابكة المَوصل التي انقسمت وعاشت على أمجادها السابقة، ومن المُلفت للنظر أنَّه مع قيام دُول إسلامية قويَّة على الحُدُود الأيُّوبيَّة، لكنَّ قواها شكَّلت تهديداً للسَّلطنة الأيُّوبيَّة، وتهديداً لعُمقها، بدلاً من أن تدعمها في حربها ضدَّ الفرنج، ومنها: الدولة الخَوَارزميَّة، وبشكل خاصٍّ؛ دولة سلاجقة الرُّوم، الذين كانوا يمدُّون أنظارهم نحو الجزيرة، وربَّما عبرها نحو الشَّام، فكان تدخُّلهم فيها ليس دفاعياً فقط؛ لتكون حاجزاً ضدَّ الخطر الأيُّوبي، بل هُجُومياً؛ لضمِّها لدولتهم، والتحرُّك منها نحو الشَّام.

وكذلك؛ فإن الوضع الداخلي للممالك الأيُّوبيَّة وعلاقاتها مع فرنج الساحل الشَّامي كان له - بالتَّأكيد - انعكاساته السلبية والإيجابية على العلاقات الخارجيَّة مع الدُّول الأُورُوبيَّة بشكل خاصٍّ، ودول عالم العُصُور الوُسْطَى بشكل عامٍّ. وكذلك أثَّرت السَّلطنة الأيُّوبيَّة وتأثَّرت بالعلاقات والصراعات الأُورُوبيَّة الدَّاخليَّة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك دور السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الصراع بين البابويَّة والإمبراطُورية الجرمانية المُقدَّسَة. لكنْ؛ بشكل عامٍّ، كان الهُجُوم على الشَّرْق الإسلامي هاجساً مُشتركاً لكُلِّ الدُّول الأُورُوبيَّة على كُلِّ ما بينها من اختلافات عرْقية ومذهبية وسياسيَّة، بما فيها الدُّول الإمبراطُوريَّة القديمة التي انتقلت من أحلام السيطرة على العالم إلى حقيقة تأكيد وُجُودها في العالم، ومنها: بيزنطة، الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسَة، و الدولة البابويَّة، والدُّول التي حصلت على تكوين قومي أولي، وأخذت تشعر بوُجُودها الدولي، وتُريد إيجاد مكان لها في العالم الجديد،، ومنها: فرنسا، إنكلترا، ودول أُخرى شبه قومية اعتنقت المَسيحيَّة بوقت مُتأخِّر، وتُريد أن تُبرهن على حُسْن إيمانها، مثل: هنغاريا، بينما لم يُشارك الإسبان بقيَّة شُعُوب أُورُوبا في حُرُوبهم الصَّليبيَّة في الشَّام؛ لأنَّهم كانوا مُنهمكين في حربهم الصَّليبيَّة الخاصَّة، وهي حرب الاسترداد ضدَّ العَرَب المُسلمين في الأندلس.

ولا يخفى في هذه العلاقات أثر النُّمُوِّ التِّجاري، الذي حقَّقته الجُمهُوريات الإيطالية، والصراع التِّجاري فيما بينها، ودور ذلك في العلاقات مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة، ومُنعكساته على النشاط البحري التِّجاري والعسكري.

وفي خارج أُورُبا قامت دُول قومية مسيحيَّة شرقية، ساهمت كلّ منها على طريقتها في الحَرْب الأُورُوبيَّة الصَّليبيَّة، عبر مُحاولات التوسُّع نحو شمال الشَّام، فقد قامت في كيليكيا مملكة أرمينيا الصُّغرَى، وعلى مقربة منها كانت مملكة الكرج، والتي كان يجمعها مع الأرمن - عدا الديانة المَسيحيَّة - الطمع الدائم بالمزيد من أراضي الجزيرة.

لقد انهارت كلُّ هذه العلاقات الدّوليَّة إثر هُجُوم التَّتار على المنطقة، واجتياحها، وحتَّى بعد تراجع التَّتار لم تعدْ العلاقات كما كانت، ولا الدُّول كما كانت، فقد بدأ عصر جديد، وربَّما كان عالماً جديداً؛ إذ انتهت - إلى الأبد - السَّلطنة الأيُّوبيَّة، وقامت على أنقاضها دولة المماليك الفتية، وأصبح الوُجُود الفرنجي في الشَّرْق والقضاء على دولة الأرمن في كيليكيا مسألة وقت سيُنجزها السلاطين المماليك.

إشكالية التاريخ في عصر الحُرُوب مع الفرنجة:

من المعروف أن مصادر ومراجع دراسة العصر الأيُّوبي تتوفَّر بشكل كاف لإنجاز أيِّ بحث فيه، وخاصَّة بعد أن أصدر الأُستاذ الدُّكتور سُهيل زَكَّار الموسوعة الشاملة، التي وفَّرت للمكتبة العَرَبيَّة سفراً هامّاً، يُحيط بكُلِّ جوانب الحُرُوب مع الفرنجة، وخاصَّة بما قدَّمه من مصادر فرنجية أصيلة كَتَبَهَا مُعاصرون، أتاحت لنا التعرُّف على وجهة نظر الآخر. وبذلك؛ لا يُعدُّ توفُّر المادة الأولية هي الإشكالية هُنا، فالإشكالية هي في التوفيق بين مصادر مُتنوِّعة مُختلفة، تختلف في التفاصيل أكثر من اتِّفاقها في العموميات، فاختلاف هويات المؤرِّخين، واختلاف انتماءاتهم الفكرية والسِّياسيَّة والمذهبية الدِّينيَّة، كلُّ ذلك يفرض رؤيا مُختلفة للحدث ذاته بين مؤرِّخ وآخر، ممَّا يفرض - بدوره - مهمَّة إضافية على الباحث، تقتضي الرُّجُوع إلى بيئة المؤرِّخ، وثقافته، ومصادره؛ للتعرُّف على وجهة نظره، وطريقة تفكيره، ومن ثَمَّ؛ أُسلُوب صياغته للحدث. كما أنَّنا - أحياناً - نجد أن بعض المؤرِّخين، من أصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة، تتبدَّل مواقفهم وُفقاً للاعتبارات الجديدة الطارئة، كما هي حال شيخ مؤرِّخي العَرَبيَّة ابن الأثير، الذي كان له موقف متحامل على السُّلطان

صلاح الدِّين في أوَّل أمره، فقد كان ابن الأثير يعدُّه غاصباً لبلاد الأتابكة، الذين كان يعيش ابن الأثير وأسرته في كنفهم، لكنْ؛ بعد تخاذل الأتابكة، وخلافاتهم، وانتصارات صلاح الدِّين، وتحريره القُدْس، نجد أن صورته وصُورة أبنائه وخلفائه قد تحسَّنت ـ بشكل كبير ـ في مرويات ابن الأثير، بل دافع عنهم، ومدح أعمالهم، مع أنَّه لم يكن تحت سُلطانهم[1].

كما أن موضوع البحث في العلاقات يحتاج إلى الرُّجُوع لمصادر ومراجع عديدة ومنوَّعة، وكُلَّما كانت أكثر كانت الرؤيا في البحث شمولية أكثر، وأقرب إلى الموضوعية والحقيقة. ولكنَّها تُصبح بحاجة إلى تنسيق غاية في الدقة لفرز ما يحتاجه البحث منها، ثُمَّ مُعالجة كلّ نص من نُصُوصها المُختارة، مع عدم إغفال الحيِّز العام الذي ورد فيه، وعلاقته بما حوله من أحداث، أو ما سبقه، أو ما سيتلوه. أمَّا المراجع الحديثة والمُعاصرة؛ فكثير منها قد كتب بإملاء الهوى، أو استحوذت على الكاتب فكرة افترضها سابقاً، فنراه يجول في خضمِّ الأحداث لاهثاً خلفها، وقلَّما يُدركها، فمع ضرورة الاطِّلاع على كلِّ ما كُتب حول موضوع البحث، هُناك ضرورة الانتباه لشرك الإسقاطات السِّياسيَّة والمذهبية الحديثة على الأحداث التاريخية.

وممَّا زاد من صُعُوبة الركون لرأي المصادر القديمة أنَّها كانت مُنقسمة بين مدرستَيْن: العَرَبيَّة الإسلاميَّة، والفرنجية الأُورُوبيَّة، فلكلّ منها عقائدها، وتراثها، وحضارتها المُختلفة، وقد تعمَّق الخلاف بينهما عندما عُمِّد بالدم على أرض فلسطين. فكانت لكلٍّ منهم وجهة نظره التي دعمها، وسعى لتسويقها. ولكنْ؛ لابُدَّ أن نشهد هُنا بامتياز المؤرِّخين المُسلمين، وموضوعيَّتهم، فقد مدحوا الفرنج، وأشادوا بشجاعتهم في كثير من المواطن، بينما كان المُسلمون ـ بالنِّسبَة للمؤرِّخين الفرنج على الدوام ـ برابرة همج، لا يستحقُّون الحياة.

مقاربة حول منهج البحث ودوافعه:

لقد كانت وقائع العصر الأيُّوبي مجالاً خصباً، في خصوصياتها، وعمومياتها، لكثير من الباحثين الذين قتلوها بحثاً، وتمحيصاً، حتَّى إنَّه أصبح من النادر أن نجد موضوعاً لم يكن مادَّة لأكثر من باحث، لكنَّنا قلَّما نجد بحثاً رابطاً بين هذه البحوث، شاملاً للعصر من إحدى جنباته، يخرج

1 -راجعْ ما قاله ابن الأثير عن مُلُوك بني أيُّوب في كتابه: الكامل في التاريخ، 12/ 352.

بنتائج عامَّة تصلح لأن تكون أساساً لنظرة عربية حديثة لما مضى من تاريخنا، وهُو ما سعيتُ إليه من خلال هذا البحث الذي سيكون جديداً في مضمونه، وجديداً في منهجه، فمنهج العمل هُنا لم يقم على كتابة تاريخ للعصر الأيُّوبي، وما كان هدفه تدوين أحداث مُتسلسلة، أو مُتفرِّقة، بل كان أساس منهج عمله رصد الأحداث التاريخية، والتعرُّض لكُلٍّ منها في سياقه وُفقاً لخُطَّة البحث، التي تُعنى بالعلاقات الدّوليَّة السِّياسيَّة منها والعسكريَّة بين الدُّول والقوى المُختلفة. إضافة إلى تحليل الحدث التاريخي، والإشارة إلى دلالاته في سياق العلاقات الدّوليَّة، ثُمَّ استخلاص نتيجة منطقية بدلالة الأحداث نفسها.

ونظراً لطبيعة البحث ولخُطَّة العمل التي وضعتُها له، كنتُ مُضطرّاً لاتِّباع أُسلُوب مُختلف بعض الشيء عمَّا جرت به العادة، فلم يكن هُناك تسلسل للأحداث التاريخية في البحث بشكل عامٍّ إلَّا بما يخدم خُطَّة العمل، ولكني حرصتُ على تسلسل الأحداث ما أمكن ضمن كُلِّ مبحث. ورغبتُ أن تكون ساحة البحث واسعة لتكون الرؤيا شمولية؛ للحُصُول على نتائج أكثر عُمُومية بقدر المُستطاع، لتتناسب مع شُمُولية الموضوع، واتِّساع آفاقه.

ومن خلال كُلِّ ذلك عملتُ لتكوين وجهة نظر مُفترضة حول طبيعة العلاقات الدّوليَّة في ذلك العصر، من خلال العلاقات الدّوليَّة التي كانت سائدة. إن وجهة النظر هذه ستُمكِّننا من المُساهمة في تكوين الصُّورة العامَّة للعصر الأيُّوبي وفلسفته في الحياة بشكل عامٍّ. كما أن الواقع الذي يعيشه العَرَب اليوم، في منطقة البحث نفسها، أراه شديد الشبه بذلك العصر، فعسى أن تفيد هذه الدراسة في استخلاص العبر؛ لتُنير لنا درب المُستقبل.

وبهذا؛ أرجو أن أكون قد وُفِّقتُ في اختيار بحوث هذا الكتاب، وفي صنعته، وأُقدِّم اعتذاري سلفاً ليسبق كلّ تقصير حاصل، فالكمال لله وحده.

د. مُنذر مُحمَّد الحايك

حمص الشَّام: الخميس 1/ ذي القعدة 1426 هـ المُوافق 1/ كانون الأوَّل 2005 م

الجُزء الأوَّل

العلاقات بين القوى والدُّول الإسلاميَّة

القسم الأوَّل

الحياة العامَّة في العصر الأيُّوبي

الفصل الأوّل

العلاقات السِّياسيَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة

تمهيد:

كانت العلاقات السِّياسيَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة تنقسم إلى قسمَيْن، أولهما: العلاقات السِّياسيَّة الدّاخليَّة، وتشمل العلاقات ضمن المملكة الواحدة، أو ضمن الدولة الأيُّوبيَّة بشكل عامٍّ، وثانيهما: السياسة الخارجيَّة، أو العلاقات الخارجيَّة مع الممالك الإسلاميَّة الأُخرى، أو الدُّول غير الإسلاميَّة. ويبدو - بوُضُوح - أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت استمراراً لسياسة الأتابكة الزنكيين بخُطُوطها العامَّة، فمع أنَّها كانت تُراعي الشرع الإسلامي بشدَّة، لكنْ؛ في الوقت نفسه كانت تُدرك أن أحكام السياسة شيء، والشرع شيء آخر، وهذا ما عبَّر عنه المقريزي بقوله: "اعلم أن الناس في زماننا يرون أن الأحكام على قسمَيْن: حُكم الشرع، وحُكم السياسة، فالشريعة هي ما شرع الله، وأمر به، والسياسة رسمت بأنَّها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال"[1]. ويتضح لنا التطبيق الأيُّوبي للسياسة الدّاخليَّة من خلال وصية السُّلطان صلاح الدِّين لولده الظَّاهر عند مسيره لتولِّي حلب، فقد قال له: "أوصيكَ بتقوى الله تعالى، فإنَّها رأس كل خير، وآمركَ بما أمر الله به فإنَّه سبب نجاتكَ، وأُحذِّركَ من الدماء، والدُّخُول فيها، والتقلُّد بها، فإن الدم لا ينام، وأُوصيكَ بحفظ قُلُوب الرعية، والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأُوصيكَ بحفظ قُلُوب الأُمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغتُ ما بلغتُ إلَّا بمُداراة الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي على أحد"[2]. من هذه الوصية نستنتج القواعد الأساسية للسياسة الدّاخليَّة التي طبَّقها صلاح الدِّين مُؤسِّس الدولة، والتزم بها مَنْ جاء بعده من آل بيته، إنَّها - باختصار - السياسة في ظلِّ الشرع الإسلامي.

---

1 - خُطط الآثار، المقريزي، 3/ 60.

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، 241.

المبحث الأوّل:

المُعاهدات الدّوليّة

لقد أجاز الشرع الإسلامي مبدأ المُعاهدات حتّى مع الأعداء في حالتَيْ السِّلْم والحَرْب، وأمضى الخُلفاء الراشدون مُعاهدات صُلح عديدة، وحرصوا على الالتزام ببُنُودها، وحذّروا من الغدر بالأعداء، فالوفاء بالعهد صفة مُلازمة لإيمان المُسلم[1]. وقد حضّ الإسلام على الالتزام بالمُعاهدات، والوفاء بالعُهُود، من خلال آيات قُرآنيّة عديدة منها: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾[2]، ﴿ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ﴾[3]. وقد عد الإسلام أن مَنْ يعاهد فهُو يُعاهد الله، وأن العهد هُو عهد الله، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[4]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾[5].

ولطبيعة العلاقات العسكريّة التي دامت قرابة القرنَيْن من الزّمان بين المُسلمين والفرنج، وللعلاقات العسكريّة التي - غالباً - ما كانت مُتوتّرة مع المالك والدُّول الإسلاميّة، وغير الإسلاميّة المُجاورة للمالك الأيُّوبيّة، وأيضاً؛ بسبب العلاقات العسكريّة التي لم تكن - دائماً - وُدّيّة بين المالك الأيُّوبيّة نفسها، فقد كان من الطبيعي جدّاً أن يتخلّل العلاقات المُتوتّرة فترات من السلام، تنشأ نتيجة لمُفاوضات يعقبها اتّفاق سلام كان يُسمّى غالباً: مُعاهدة، أو هُدنة، أو عهد صُلح. وهذه الاتّفاقيات كانت في - الأعمّ الأغلب - ثُنائية بين طرفَيْن، مع أنّنا شهدنا اتّفاقيات تنسحب على أطراف أُخرى مُوالين للطرفَيْن، أو لأحدهما. وفي عصر الحُرُوب مع الفرنجة تتالت المُعاهدات بين الأيُّوبيّين والفرنج، حتّى إنّه يُمكننا القول بأنّ سلسلة من المُعاهدات بينهما، مُنْذُ مُعاهدة صلاح الدِّين مع ريتشارد، أو ما يُعرَف بصُلح الرملة، قد أمّنت سلاماً مُتّصلاً دام حوالي أربعين عاماً[6]، وبالتّأكيد؛ كانت هُناك بعض المُناوشات تقطع هذا السلام، لكنّها لم تبلغ حَدَّ الحَرْب الشاملة، التي جرت أيّام صلاح الدِّين.

1 - العلاقات الدّوليّة، وهبة الزحيلي، 131.
2 - سُورة الإسراء، الآية: 34.
3 - سُورة الأنعام، الآية: 152.
4 - سُورة النحل، الآية: 91.
5 - سُورة الرعد، الآية: 20.
6 - الحُرُوب الصّليبيّة، باركر، 105.

قواعد المعاهدات:

كانت هُناك قواعد وشُرُوط لإبرام المُعاهدات، منها ما ينطبق على جلسة الإبرام، التي كانت تضمُّ المُلُوك، أو مَنْ ينوب عنهم، ولترفُّع الملك أو السُّلطان عن مُباشرة تقرير البُنُود بنفسه كان الأيُّوبيُّون يُسمّون أحد مُلوك الأُسرة مُقرِّراً لجلسة الصُّلح، فبعد هزيمة الفرنج في دمياط واتِّفاقهم مع السُّلطان الكامل على الصُّلح، وتسليم دمياط، "كان المُقرِّر لهذا الصُّلح الملك المُجاهد شيركوه باتِّفاق المُلوك"[1]، فوقَّع المُجاهد صاحب حمص نُسخة الصُّلح نيابة عن المُسلمين، ممَّا اقتضى جلوسه كمُقرِّر على يمين سُلطان المُسلمين الملك الكامل، ودونه بقيَّة المُلوك حسب مراتبهم[2]. وإضافة إلى المُقرِّر كان يُوقِّع الاتِّفاقية عدد من الحاضرين كشهود[3]. ويُمكن بحالة عدم الثقة ولضمان تنفيذ نصّ اتِّفاقية السلام، وخاصَّة في الاتِّفاقيات التي تعقب أعمالاً حربية كبيرة، كان الجانبان يُسلِّمان رهائن لتأكيد صحة التزامهم بشُرُوط الاتِّفاق، وقد سلم السُّلطان الكامل ابنه الصَّالح أيُّوب واحداً من الرهائن للفرنج بعد توقيع اتِّفاقه معهم في نهاية الحملة الخامسة، وهُم - بالتَّالي - سلَّموا رهائنهم، وكان فيهم ملك عكَّا حنَّا برين، والنائب البابوي بيلاجيوس، ودُوق بافاريا، وغيرهم[4].

وكانت هُناك شُرُوط وقواعد يلتزم بها الأيُّوبيُّون - غالباً - في كتابة نصّ مُعاهداتهم، منها:

1 - كان نصُّ المُعاهدات يُصاغ بالنثر المُرسَل، ومع إيجاز النَّصّ، فقد كان يحرص الكُتَّاب على توضيح الشُّرُوط المُتَّفق عليها.

2 - يذكر نصُّ المُعاهدة أسماء الملكَيْن المتعاهدَيْن، ويحدِّد أطرافها، وشُرُوطها، وأسماء الشهود، ومدَّة المُعاهدة، وتاريخ بدء سريانها، وذكر البلاد والممالك التي تسري عليها، ثُمَّ نصّ الأيمان المحلوفة؛ للالتزام بها، وتطبيقها. وعادةً؛ كان يبدأ النصُّ بعبارة: "استقرَّت الهُدنة بين . . . ."، ويُختتم بعبارة: "وهذا ما وقع الاتِّفاق عليه، وحُلف عليه، والله المُوفِّق".

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 92.
2 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 - 620/ 27.
3 - النُّظم الدبلُوماسيَّة، صلاح المُنجِّد، 174.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 98.

3 - عادةً؛ كان يورد كاتب المُعاهدة بعضَ الآيات القُرآنيَّة في مَتْن النصّ، وذلك وُفقاً لما يتناسب مع حالتها، فإن كانت بين طرفَيْن مُسلمَيْن كانت الآية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾[1]، وإن كانت بين طرف مُسلم وآخر غير مُسلم كانت الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2].

4 - يُركِّز نصُّ المُعاهدة على أن الطرفَيْن كليْهما كان راضياً عن المُعاهدة، مُصمِّماً على تنفيذ شُرُوطها.

5 - يكون نصُّ اليمين الذي حُلِف به للالتزام بالمُعاهدة، والوفاء بشُرُوطها، جُزءاً منها، وأحياناً؛ يكون مُفرداً عنها بورقة خاصَّة، تُرفَق بنص المُعاهدة.

6 - تُكتَب المُعاهدات إذا كانت بين المُسلمين على نسختَيْن باللُّغة العَرَبيَّة، وإذا كانت بين المُسلمين والفرنج، فتكون نُسخة باللُّغة العَرَبيَّة، ونُسخة مُترجمة عنها بلُغة الملك الفرنجي، ويُوقِّع، ويختم كُلُّ طرف النُّسخة المكتوبة بلُغته، ويُسلِّمها للطرف الآخر؛ ليحتفظ بها.

7 - كانت مُدَّة المُعاهدات تُحسَب بالشُّهُور الشمسية، وتُدوَّن بالقمرية، لذلك كانت كُلُّ المُعاهدات تتضمَّن حساب مُدَّتها بالسنوات والأشهر والأيَّام، ويُذكَر بدء سريان المُعاهدة وتوقيتها بالتاريخ الهجري، وإذا كانت المُعاهدة مع الفرنج يُذكَر بعده التاريخ الميلادي.

وكانت هُناك شُرُوط شرعية حرص المُسلمون في العصر الأيُّوبي أشدّ الحرص على مُراعاتها في مُعاهداتهم، منها:

1 - عدم وُجُود شرط مُخالف للشرع الإسلامي، أو يُعطِّل واحداً من حُدُوده.

2 - التفريط بمال المُسلمين، أو أرضهم، أو حُقُوقهم، ما لم تكن هُناك ضرورة مُوجبة لذلك.

3 - أنْ لا تزيد مُدَّة المُعاهدة عن عشر سنوات، وهي مُدَّة مُعاهدة الرسول ﷺ لأهل مكَّة في صُلح الحديبية[3].

1 - سُورة الحجرات، الآية: 9.
2 - سُورة الأنفال، الآية، 61.
3 - راجعْ: النُّظُم الدبلُوماسيَّة، صلاح المُنجِّد، 174 - 181.

المبحث الثّاني:

المُراسلات الدّبلوماسيّة

لأهمّيّة الرسائل في العلاقات السّياسيّة للممالك الأيّوبيّة فقد أفرد لها ديوان خاصٌّ هُو ديوان الرسائل، وله مُتولٍّ، أو رئيس، واشترط فيه شُرُوطاً عدَّة، لأنّه يتولّى الكتابة عن الملك، وبلسانه، منها أن يكون: "ذا دين وورع وأمانة، فإنَّه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة، يتحكّم بها في أرواح الناس، وأموالهم"[1]. وقد اشترط ابن الصيرفي في قانون ديوان الرسائل أن يكون مُتولّيه مُسلماً، ودعم شرطه بالآية القُرآنيّة:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[2]، علماً أنّه قد تولّى الوزارة للمُلُوك الأيّوبيّة عدد كبير من الذّمّيّن، خلافاً لشرط ابن الصيرفي. ولطبيعة العلاقات الخارجيّة المُتعدّدة للدُّول الأيّوبيّة فقد كانت المُشكلة الكُبْرَى لديوان الرسائل هي تعدُّد اللُّغات التي ترد فيها الرسائل، فقد كانت من مُلُوك وأُمراء أرمن وفرنج وروم وغيرهم كثر، فلذلك وُجد في ديوان الرسائل مُترجمون للُغات عدَّة. وتمَّ ضبط موضوع الترجمة، والحرص على عدم التلاعب بها عن طريق آلية دقيقة لعملية الترجمة، فكان يُسلّم الكتاب الأعجمي الوارد إلى الديوان إلى مُترجم يفهم لغته، وعليه أن يكتب ترجمة الكتاب "في ظهره، أو على ورقة تُجعَل تلوه"[3]، ثُمَّ يذكر اسمه وتاريخ ترجمته، ويُشهد على ذلك شاهدَيْن بأنَّ ما ذكره هُو تفسير الكتاب، بلا زيادة، ولا نُقصان، ويُقال له إنَّ غيره سيحضر لتفسير الكتاب، فيخاف، ويُؤدّي الأمانة، وذلك لأن "أكثر مَنْ يُترجم على مذهب صاحب الخطّ"[4]، وبذلك يضمنون صحّة الترجمة.

وكانت الرسائل تُرسَل إلى المُلُوك، وترد منهم مكتوبة على طرس، وهُو صحيفة كبيرة من الورق[5]، أو على قرطاس من ورق البردي، وهُو صحيفة عريضة، أو على الكاغد، وهُو صُحُف غلاظ من القنّب، وكان كُلُّ ذلك قبل ظُهُور الورق السمرقندي، وهُو صُحُف رقيقة

1 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7.
2 - سُورة المائدة / 51. (القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7).
3 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 33.
4 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 34.
5 - رُسُوم دار الخلافة، الصابئ، 126.

لطيفة تُعدُّ أصل الورق الحالي، وكانت الرسائل تُلَفُّ بعد كتابتها، ويُعقَد حولها شرابة ابرسيم سوداء غالباً، ويُختَم عليها بالمسك والعنبر مخلوط بطين أسود. ثُمَّ يُوضع الكتاب في غلاف كان يُسمّى خريطة، وهُو من ديباج أسود، "ويُشدُّ رأس الخريطة بشرابة أُخرى في أشريجة مختومة"[1].

وكانت الرسائل نادراً ما تُتبادل مكتوبة بين المُلُوك، إلّا في حالات خاصّة، فغالباً كان الرُّسُل يحملون رسائل شفهية، خوف وُقُوع الرسالة بيد عدوٍّ، أو تغيّر الأحداث بسُرعة لا تتناسب مع سُرعة وُصُول الرسالة، فالرسول ـ بهذه الحالة ـ يستطيع تلافي الأمر.

رسائل الحمام الزاجل:

كان الحمام الزاجل هُو الوسيلة المُعتمَدَة لإيصال رسالة مُستعجلة تُنذر بخطر، أو تُبشّر بحدث، وكان الحمام طريقة قديمة جدّاً للتراسل، ففي عصر الدولة العَرَبيّة الإسلاميّة استُخدمت هذه الطريقة، ثُمّ توقّفت، إلى أن أعاد إحياءها نُور الدِّين محمود بن زنكي، فهُو أوّل مَن اعتنى بالحمام، ونقله من المَوصل إلى الشّام، وفي سنة 565 هـ بنى له الأبراج في كُلِّ المناطق التي كانت تتبع له في الشّام[2]، وركّز نُور الدِّين محمود على إقامة أبراج الحمام "على الطُّرُق بين المُسلمين والفرنج، وجعل فيها مَنْ يحفظها، ومعهم الطُّيُور الهوادي، فإذا رأوا من العدوّ أحداً أرسلوا الطُّيُور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم"[3]. فكانت هُناك مَسَارب للحمام الزاجل تُغطّي كافّة أطراف الشّام، فكانت تُطلَق الحمامة، وقد رُبطت برجلها رسالة من دمشق، فتحطّ في أبراج قارة، ومنها تُؤخذ الرسالة، وتُربَط برجل حمامة أُخرى، تنطلق حتّى تحطّ في حمص، وهكذا إلى حماة، أو تنطلق من دمشق، أو حمص، إلى القريتَيْن، ثُمَّ منها إلى تدمر[4].

ورسائل الحمام كانت تُؤمّن أخباراً سريعة جدّاً، ورُبَّما هي أسرع من أيّ وسيلة في ذلك العصر، ولكنْ؛ كان لها عدَّة مُشكلات: فصغر حجم الحمامة وقلّة تحمُّلها كان يفرض شكلاً خاصّاً للرسائل، فهي تحتاج إلى ورق رقيق جدّاً، يُكتَب عليه بخط دقيق، ويُقال إنَّه لكتابة رسائل الحمام

1 - أشريجة أو أسريجة من سَرَّج أي شد العرى. (رُسُوم دار الخلافة، الصابئ، 127).
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 2/ 90.
3 - عُيُون الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 1/ 369.
4 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 14/ 393.

الزاجل اخترع خط الغُبار. كذلك هُناك خطر وُقُوع الرسالة بين الأعداء، فأوجدوا رموزاً خاصّة اصطلحوا عليها، يقول العماد الكاتب: أنّه في حصار عكّا "كُنّا نكتب إليهم، ويكتبون إلينا، على أجنحة الحمام الزاجل بالترجمة المُصطلح عليها سرّ الأُمُور"[1]. وكان لأبراج الحمام مُتولّيها، من حيثُ التربية والتدريب، ويكون في كل منزلة معتمدة، حتّى إنّه قد يُرافق العَسْكَر بأقفاص فيها الحمام المُدرَّب لاستخدامه عند الحاجة.

ويبدو أن البريد السريع اتّخذ شكلاً آخر في عهد سلطنة المماليك، فقد أوجدوا خيل البريد، وأقاموا لها محطّات؛ حيثُ كانت تنطلق الرسالة من مصر، وفي كُلِّ محطّة تُبدّل الخيل بأُخرى مُستريحة، حتّى تصل إلى مقصدها.

الرُسُل والسُفراء:

كان إرسال السُّفراء هُو الشكل الأعمّ للاتّصالات السِّياسيّة بين الدُّول والممالك والإمارات، ولذلك؛ شكّل السُّفراء عاملاً مُهمّاً في تاريخ العلاقات السِّياسيّة الدّوليّة. وقد تفاوت السُّفراء، كُلٌّ وفق مؤهّلاته الشخصية، وإعداده، وخبرته، في تأثيرهم على العلاقات الدّوليّة في ذلك العصر، فلم تكن السِّفارة لتأدية رسالة فحسب، بل لكَشْف أحوال البلاد، وصاحبها. كَتَبَ نظام الملك في كتابه سياسة نامة: "يجب أن يعلم المُلُوك أنّ بإرسالهم السُّفراء لا يقصدون تسليم رسالة، أو نقل سفارة فقط، بل هُناك مئات الأغراض يبغونها، فهُم ـ في الحقيقة ـ يُريدون أن يعلموا حالة الطُّرُق، والآبار. وقُوّة الجيش، ومُؤنته . . وكيف يعيش الأمير . . وأن يعرفوا تنظيمات بلاطه، حتّى إذا رغبوا في مُهاجمته يوماً، أو أرادوا نقض خُططه كانوا مُطّلعين مُدركين، يضعون المحاسن والمساوئ نصب أعينهم، وينهجون بحسبها"[2].

لكُلّ هذا حرص مُلُوك الأيُّوبيّة في مصر والشّام على أن تكون رُسُلُهُم من طبقة القُضاة، أو الفُقهاء، ممّن يتّصفون بالخبرة والدراية بشُؤون الحُكم والدُّول، فكانت رُسُلُهُم من القُضاة؛ مثل القاضي والمؤرّخ ابن واصل الحموي، والقاضي محيي الدّين بن الذكي[3]، وقاضي العَسْكَر نجم الدّين

1 - الفَتْح القِسّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 13/ 245.
2 - النُّظُم الدّبلوماسيّة، صلاح المُنجّد، 104.
3 - الوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 170.

خليل بن المصمودي[1]، وقاضي حماة عماد الدّين بن القطب[2]، والقاضي هبة الله إسماعيل بن نبهان بن المقنشع[3]، والقاضي بهاء الدّين مروان بن قابيا[4]، وغيرهم كثير. ومن الفُقهاء الذين ترسّلوا للمُلُوك الأيُّوبيّة، الكمال بن المُهاجر الموصلي[5]، وشيخ الشُّيُوخ صدر الدّين بن حموية[6]، وخطيب جامع دمشق جمال الدّين مُحمّد الدولعي الشافعي[7]، ورُبّما كان أشهرهم رسول دار الخلافة الشّيخ نجم الدّين البادرائي مدرّس النِّظاميّة[8]، وشيخ الصُّوفيّة شهاب الدّين السهروردي[9]. ومن الوُجهاء والرُّؤساء الذين قاموا بالسِّفارات: الشهاب عبد السلام بن أبي عصرون، الذي ترسّل عن مُلُوك بني أيُّوب إلى دار الخلافة[10]، ومن كبار مُوظّفي الدولة، ترسّل الدكز العادلي أُستاذ دار الملك العادل[11]، وكُلّ هؤلاء وأمثالهم لم تكن لتنقصهم الخبرة، أو التجربة، أو العلم، أو قُوّة الشخصية، فالرسول إذا لم يكن يتمتّع بالكفاءة اللازمة والدراية والحنكة، فقد يضرُّ مصلحة مخدومه، كما فعل رسول الملك الظّاهر صاحب حلب، فقد وردت إلى الملك الظّاهر عام **613** هـ **1216**م، رسالة عزّ الدّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم يطلب فيها خُرُوج الظّاهر بجيشه ليقصدا معاً مملكة الأرمن، فحمل ردّ الرسالة عبد الرحمن المنجي، ويبدو أن الرّدّ كان شفهياً كالعادة، فلمّا أدّى الرسالة، "حرّف فيها، وزاد شُرُوطاً تضرُّ الملك الظّاهر وتُوافق عزّ الدّين كيكاوس، لعدم كفايته"[12].

كما كانت أهمّيّة الرسول تُشير إلى أهمّيّة موضوع رسالته من جهة، وإلى أهمّيّة المُرسَل إليه من جهة أُخرى، لذلك؛ عندما أرسل السُّلطان صلاح الدّين يُبشّر الخليفةَ بنصر حطّين مع مُتطوّع

1 - الجامع المُختصر، ابن الساعي، 259.
2 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 330.
3 - بغية الطلب، ابن العديم، 10/ 4581.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 261.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 133. الكمال بن المُهاجر: تُوفّي عام 634 هـ، راجعْ ترجمته في: البداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 146 والوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 172.
6 - ذَيْل الرّوضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 194.
7 - ذَيْل الرّوضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 210.
8 - ذَيْل الرّوضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 391.
9 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180.
10 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149.
11 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180.
12 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.

بغدادي من العامَّة اسمه رشيد البوشنجي، غضب الخليفة، وأهان الرسولَ، وأرسلَ يعاتب صلاح الدِّين، وقامت أزمة سياسيَّة فعليَّة بين الطرفَيْن[1]. وبالمُقابل؛ كان استقبال السفير يليق بمَنْ أرسله، فكان يحصل على أفضل ضيافة واستقبال وتكريم بالهدايا والعطايا، ولذلك أُحدثت وظيفة متأخِّرة في بلاطات المُلوك الأيُّوبيَّة، ونمت، وتطوّرت في عهد الدولة المملوكية، هي وظيفة المهمندار، الذي كانت مهمّته استقبال السُّفراء، وسُؤالهم عن موجب حُضُورهم، وتسليم ما بيدهم إلى كاتم أسرار السُّلطان، ثُمَّ يُهيِّئ دُخُولهم على السُّلطان[2]، وإذا كان السفير قادماً في أمر خطير، أو من قبَل ملك، أو سُلطان كبير، فإن السُّلطان، أو الملك، يخرج لتوديعه بنفسه، كما فعل السُّلطان العادل، بخُرُوجه لوداع المُؤرِّخ ابن العديم قاضي وسفير مملكة حلب عام 637هـ-1240م[3]. وأيضاً؛ يخرج الملك لاستقبال بعض كبار السُّفراء، وكانت عادة الاستقبال هذه خاصَّة لسُفراء الخليفة؛ حيثُ تستقبلهم المُلوك الأيُّوبيَّة خارج المُدُن، ويعودون معهم، فقد خرج السُّلطان صلاح الدِّين بنفسه لاستقبال رُسُل الخليفة النَّاصر، وترجَّل لهم، وقبَّل الأرض[4]. وكانت الرُّسُل تحصل على منح وجوائز قيِّمة، فمنهم مَنْ يحتفظ بها، ومنهم مَنْ يُوزِّع جوائزه على الناس، وقد وزَّع أحمد بن عبد الرحيم القاضي الفاضل، الذي كان رسول الملك الكامل إلى الخليفة في بغداد، كُلَّ ما حصل عليه من الخليفة من جوائز وعطايا قبل أن يخرج من بغداد[5]، أمَّا سفير صاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ إلى الشَّام الكمال بن المُهاجر؛ "فلم يقبل شيئاً من أحد،ولا أكل طعامه[6]".

وإذا اقتضت الحاجة، فقد يصطحب السفير معه الرسالة الجوابية[7]. وأحياناً؛ قد يُخطئ السفير، فيُسيء إلى مُرسله، فيُعاقَب عند عودته كما حدث مع الصلاح الأربيلي، وكان أديباً شاعراً، عندما أوفده الملك الكامل إلى أخيه المُعظَّم بدمشق، فاستماله المُعظَّم ضدَّ الكامل، وبلغ الكامل ذلك، فلمَّا عاد حبسه في الجبِّ عدَّة سنين[8]. وإذا كانت العلاقات السِّياسيَّة سيِّئة بين مملكتَيْن،

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، 184.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 701. ـ مهمندار: كلمة فارسية من مقطعَيْن: مهمان ـ ضيف، ودار ـ حافظ.
3 - الجامع المُختصر، ابن الساعي، 262.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 181.
5 - الوافي بالوفيات، الصفدي، 8/ 57.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 133.
7 - الجامع المُختصر، ابن الساعي/ 62.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 286.

وأوفد أحدهما رسولاً، فقد يُمنَع من الوُصُول، ولا تُقبَل رسالته، فعندما أرسل الملكُ الظَّاهر صاحبُ حلب وزيرَهُ علمَ الدِّين قيصر إلى عمِّه الملك العادل في مصر، وكانت بينهما وحشة، فمنع العادلُ السفيرَ من الوُصُول إلى القاهرة، واحتجزه في بلبيس، وطلب منه تسليم الرسالة إلى قاضي بلبيس[1].

كذلك قام الملك العادل بالامتناع عن قبول رسالة ابن أخيه الملك الظَّاهر التي يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، ولم يكتف بذلك، بل أغلظ القول للسُّفراء[2]، وكان الملك الظَّاهر قد زوَّد سُفيرَيْه بتعليمات تُنفَّذ على التوالي، فقد أمرهما إذا لم يقبل العادلُ الشفاعةَ ـ ويبدو أنَّه كان يتوقَّع ذلك ـ أن يأمرا العَسْكَر الحلبي الموجُود في حملة العادل أن يترك الحصار، ويلتحق بحلب، وفعلاً؛ تمَّ ذلك، ولم يكتف الرسولان بهذا، بل نفَّذا المرحلة الثَّالثة من تعليمات الظَّاهر، فقد "دسَّ الرسولان إلى أصحاب العادل دسائس أفسدت أحواله"[3]، وبالفعل؛ كان لرُسُل الظَّاهر دور هامٌّ في إفشال حصار الملك العادل لسنجار، بالرّغم من القوى العسكريَّة الكبيرة التي تجمَّعت لديه في حصارها.

وكانت أكثر السِّفارات التي تجوب البلاد الإسلاميَّة هي سفارات الخُلفاء العبَّاسيين، فباعتبار الخليفة الحاكم الأعلى للممالك والدُّول الإسلاميَّة، فقد كانت رسائله ورُسُله متواترة إلى المُلُوك والحُكَّام في أُمُور مُختلفة ومُتعدِّدة، منها للإصلاح والتوسّط فيما بينهم، ومنها لتبليغهم أُمُور جرت في عاصمة الخلافة، أو منحهم التقليد والتشريف إلخ . . وأشهر مَنْ ترسَّل عن دار الخلافة كان محيي الدِّين ابن الجوزي[4]، الذي اشتهرت سفارته للصُّلح بين أولاد الملك العادل: الملك الكامل والملك المُعظَّم عام 629هـ 1232م[5]، وسفارته عام 636هـ 1238م للصُّلح بين أولاد الكامل: الصَّالح أيُّوب وأخيه العادل الثَّاني. وكذلك كان حال السفير نجم الدِّين البادرائي[6].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 154.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 196.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 197/ 3.
4 - ابن الجوزي: يُوسُف بن عبد الرحمن بن علي (580 ـ 656 هـ 1185 ـ 1258م)، أُستاذ دار الخليفة المُستعصم، ومُدرِّس المدرسة المُستنصرية ببغداد، أنشأ المدرسة الجوزية بدمشق، أديب وشاعر وفقيه، قتله التَّتار شهيداً صبراً، راجعْ ترجمته في: النُّجُوم الزَّاهرَة، 7/ 66، وشذرات الذهب، 5/ 286، والبداية والنِّهاية، 13/ 203، والدارس في تاريخ المدارس، 2/ 62، وذيل المرآة، 1/ 332.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 257.
6 - البادرائي: 594 ـ 655 هـ نجم الدِّين مُحمَّد بن الحَسَن بن عبد الله درس في النِّظاميَّة ببغداد، وبمدرسته التي أنشأها بدمشق، راجعْ ترجمته في : ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 391.

الرُّسُل إلى الممالك الخارجيَّة:

لطبيعة العلاقات السِّياسيَّة بين الـدُّول الأيُّوبيَّـة والممالـك الأُخـرى، وتنوُّعهـا، فقـد نـشطت الرُّسُل بينهم، وكان من أكثر الممالك الإسلاميَّة مُراسـلة للأيُّـوبيين مملكـة الخَوَارزميَّـة. فقـد تـردَّدت الرُّسُل بين خوارزم شاه علاء الدِّين مُحمَّد بن تكش والملك العـادل، فوصـلت رُسُـلُ الخـوارزمي إلى العادل وهُو بمرج الصفر عام **615** هـ **1218**م، فأجاب العادل على الرسالة مع رسولَيْن، لمَّا وصـلا همدان، وجدا التَّتار قد هزموا الخوارزمي، فاجتمعا بولده جلال الدِّين، فأخبر جـلال الـدِّين الرُّسُـل بوفاة الملك العادل[1]. ثُمَّ تردَّدت رُسُل جلال الدِّين، السُّلطان الجديد للدولة الخَوَارزميَّـة، إلى الملـك الأشرف بن العادل وإلى مُعظم مُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام[2]، وكانت علاقته مُتميِّزة بالملك المُعظَّم عيسى صاحب دمشق، ولابُدَّ أن مُراسلات عديدة سبقت التحالف المشهور بينهما.

وكذلك لوُجُـود علاقـات سياسـيَّة نـشطة بـين الممالـك الأيُّوبيَّـة وسـلطنة سـلاجقة الـرُّوم، فقد تواترت الرُّسُل بينهما بمُناسبات مُختلفة. ففـي عـام **624** هــ **1227**م، أرسـلت مُعظـم الممالـك الأيُّوبيَّة رُسُلَها إلى سُلطان سلاجقة الرُّوم كَيْقُبَاذ، واجتمعت عنده[3]، وذلك ردَّاً على ما حمله رسـوله كمال الدِّين كيهار قاضي أرزنجان من رسائل إليهم[4]. وتكرَّر قُدُوم رسـول الـسُّلطان كَيْقُبَـاذ في عـام **630** هـ **1233**م؛ حيثُ عرج على مُعظم المُلُوك الأيُّوبيِّين، وأبلغهم رسائل من مخدومه[5].

أمَّا مع الدُّول غير الإسلاميَّة؛ فقد كانت ممالك وإمـارات الفـرنج عـلى الـساحل الـسوري في مُقدِّمة هذه البُلدان من حيثُ تبادل السِّفارات مع الممالك الأيُّوبيَّة.

وذلك للاحتكاك العسكري والسِّياسي الدائم بينهما، ويبدو أنَّه كان لدى الفرنج أشخاص قـد تخصَّصوا بأدوار الرُّسُل، فرسول بيت الاسبتار سيمون كـان مـشهوراً ومعروفـاً في الممالـك الأيُّوبيَّـة،

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 210.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 150.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 143.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 141.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

وبالتَّأكيد؛ كان يجيد اللُّغة العَرَبيَّة[1]. واستخدم بعض المُلُوك الأيُّوبيَّة رُسُـلاً مـن الفرنجـة في مهـمَّات خاصَّة لهم في أُورُبة، كما فعل الملك الكامل عـام **629** هــ **1232**م عنـدما أرسـل مـسيو ريمـون إلى جزائر البحر - أُورُبا - ليشتري له صقراً[2]، ويبدو أن مهمَّة شراء الصقر هي ما أُشيع لإخفـاء حقيقـة سفارته التي قد تكون ذات شأن سياسي كبير يقتـضي الـسِّرِّيَّة[3]. أمَّـا رُسُـلُ المُـدُن الإيطاليـة: جنـوة والبُنْدُقية وبيزا، ورُسُل الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة؛ فلم تكن لتنقطع عـن أبـواب سـلاطين بنـي أيُّوب[4]، وذلك لطبيعة العلاقات التِّجاريَّة بين دولهم والممالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة مصر.

خيانة الرُّسُل:

كان أخطر ما في المُراسلات هُو خيانة الرُّسُل وتحريفهم للرسائل وُفقاً لأهـوائهم، فمُعظـم المُراسلات كانت شفهية يحملها الرسول فَهْمَاً في عقله، ويُؤدِّيها مُشافهةً بالثقة والأمانـة المطلوبـة منـه، لكنَّ بعض الرُّسُل تجاوزوا ذلك، واعتبروا أن مهمَّتهم سياسيَّة، وفي السياسة؛ كُلُّ شيء وارد. فعنـدما اعتقل النَّاصر داودُ عام **637** هـ **1240**م، الملكَ الصَّالح أيُّوبَ، أرسل العادل الثَّـاني صـاحب مـصر يطلب من داود أن يُرسل أسيره الصَّالح أيُّوب إليه في مصر، وبعث في الرسالة علاء الـدِّين النابلـسي، الذي كان هواه مع أيُّوب، وقد اعترف الرسول - فيما بعد - بخيانته للرسالة، فقد قال: "لمَّا اجتمعـتُ بالناصر أكَّدتُ معه في الباطن أنْ لا يُجيب إلى مـا طلبـه العـادل"[5]، فكانـت نتـائج ذلـك في مُنتهـى الخُطُورة على العادل الثَّاني، وتسببت في نزعه عن ملك مصر، فعدم انتقـاء العـادل لرسـول ثقـة أمـين أدَّى إلى تمسُّك داود بأيُّوب، وعدم تسليمه، وبالتَّأكيد؛ فإن الرسول الخائن قد أكَّـد لـداود عـدم تمـتُّع العادل بتأييد الأُمراء، وزيَّن له - بالمُقابل - استخدام ورقة أيُّوب للوُصُـول إلى حُكْـم مـصر، مُبيِّنـاً لـه تأييد أُمراء العَسْكَر لأيُّوب، واستعدادهم لتوليته بدل أخيه العادل، وهذا ما تمَّ فعلاً.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 203.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.
3 - رُبَّما كانت هذه المهمَّة تتعلَّق باستعداد الكامل لتنفيذ مشروعه بالاستيلاء على مملكة سلاجقة الرُّوم، ونقل إخوتـه وأبنـاء عمّه مُلُوك بني أيُّوب من الشَّام إليها، لينفرد بحُكْم مصر والشَّام بكاملها، وقد دفعنا إلى هذا الافتراض قيادة الكامل لجُيُوشه في العام التالي 930 هـ 1233م، والتوجُّه نحو كيليكيا لتنفيذ مشروعه. راجعْ: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 244.

ودعم هذا الموقف بموقف رسول آخر حرَّف الرسالة، وخان مخدومه، وعمل لأهوائه السِّياسيَّة، فعندما قبض داودُ على أيُّوب كان معه قاضي سنجار بدر الدِّين، وهُو من أكثر المُقرَّبين إليه، فخاف بدر الدِّين على نفسه، وآثر السلامة، وذهب إلى دمشق، وتقرَّب إلى الملك الصَّالح إسماعيل، الذي استولى على دمشق من أيُّوب، وقام الصَّالح إسماعيل بما عُرف عنه من سُوء تدبير باختيار بدر الدِّين، قاضي سنجار ومُستشار أيُّوب السَّابق، ليؤدِّي رسالة منه إلى سُلطان سلاجقة الرُّوم كيخسرو، "فخان الرسالة، وتحدَّث باسم أيُّوب ، ووفَّق بينه وبين كيخسرو"[1]، وهذا ـ أيضاً ـ ساهم في إنجاح مساعي أيُّوب للوُصول إلى السَّلطنة من قلب محنة السجن والأسر. وساعد على تقويض جُهُود عدوَّيْه الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق والعادل الثَّاني سُلطان مصر. وما كلّ ذلك إلَّا بسبب اعتماد المُلُوك على الرسائل الشفهية التي تقتضي ثقة مطلقة وأمانة تامَّة من الرُّسُل، وهذا ما لم يتوفَّر دائماً؛ بسبب عدم تدقيق صاحب الرسالة في مُيُول وولاء الرسول، وقبول ما يعرضه من ولاء زائف له.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 251.

الفصل الثَّاني

دور السُّكَّان في العلاقات الدّوليَّة

المبحث الأوَّل:

سُكَّان الممالك الأيُّوبيَّة

كانت تعيش في البلاد الدّاخليَّة التي تُسيطر عليها الممالك الأيُّوبيَّة تركيبة عجيبة من السُّكَّان، من حيثُ الانتماء العرْقي والدِّيني على السواء، فقد كان فيها العَرَب والأتراك والأكراد والزنوج، ومماليك من كُلِّ أصقاع الدُّنيا، ومُهاجرين من المغرب العَرَبي، أو من بلاد فارس، أو من القفقاس. وصحيح أن مُعظم السُّكَّان كانوا من المُسلمين، لكنَّهم كانوا يتوزَّعون على مذاهب شتى[1]، ومع أن الغالبية تتبع المذهبَ السُّنِّيَّ، فقد كان قسم مُهمٌّ منهم يلوذ بمذهب التشيُّع بفرَقه المُختلفة، من اثني عشرية، وإسماعيليَّة، والعلويين النصيرية، وفي حين تركَّز المذهب السُّنِّيُّ في المُدُن الكُبْرَى، فقد كان الشيعة موزَّعين على الجبال والأرياف[2]. ولا ننسى وُجُود مجموعة من الدُّرُوز تمركزت جنوب شرق جبال لُبنان.

ونتيجة للأوضاع الأمنية، فقد انقسمت المُدُن في الدولة الأيُّوبيَّة إلى أحياء شبه مُسوَّرة، لها بوَّاباتها التي تحرس ليلاً، وظهرت لها زعامات محلِّيَّة[3]. وكان تأثير هذه الفئات وزعاماتها في العلاقات الخارجيَّة، السِّياسيَّة أو العسكريَّة. ولكنَّنا نستطيع أن نتلمَّس بعض الأدوار لبعض الفئات السُّكَّانية التي استطاعت أن تتميَّز في علاقاتها ضمن الدولة الأيُّوبيَّة، ومنها:

المسيحيُّون المحلِّيُّون:

عاش المُسلمون والمسيحيُّون في الشَّرْق العَرَبي قبل الغزو الفرنجي بحالة فريدة من الانسجام، لا تُعكِّرها إلَّا بعض المواقف الشاذَّة، هُنا، أو هُناك، فطالما عدَّ المُسلمون والمسيحيُّون أنفسهم فرعَيْن

1 - من التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 116.
2 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 1/ 75.
3 - تاريخ السلاجقة، أحمد إسماعيل، 64.

لحضارة شرقية واحدة، وكان لديهم إحساس واضح بالانتماء إليها[1]. وقد كان يُوجد بين سُكَّان الدولة الأيُّوبيَّة عُنصُر واضح من المسيحيين، يتوزَّعون على عدَّة طوائف أبرزها: الرُّوم الأرثوذكس، أو الملكانيون، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وتجدر الإشارة إلى وُجُود بعض الفرنجة المستأمنين، وهم ـ غالباً ـ من الكاثوليك، وكانوا يُقيمُون بشكل شبه دائم خاصَّة في المُدُن السَّاحليَّة لمزاولة الأعمال التِّجاريَّة، ومنهم مَنْ كان مُستوطناً ممَّنْ قدم مع الحملات، أو وُلد في الشَّرْق، وقد فضَّل بعضهم الاستمرار في العيش في المُدُن المحرَّرة، فدخل في عقد الذِّمَّة[2]، علماً أن الإقامة بين المُسلمين والخُضُوع لهم كان أمراً مُحرَّماً من قبَل البابا، مع أقسى العُقُوبات كالحرمان الكَنَسي، واللعن، والطرد كُلّيّاً من الكَنيسَة[3].

لقد سعى الفرنجة ـ بعد تأسيس إماراتهم في سُورية ـ إلى استمالة المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة، فلمّا استولوا على القُدْس، وأبادوا سُكَّانها، حاول بلدوين الأوَّل سدَّ الفراغ السُّكَّاني باستقدام أعداد من المسيحيين السوريين من شرقي الأردن[4]، ولكنْ؛ على ما يبدو لم تُثمر عملية استمالة الفرنج لمسيحيِّيْ سُورية؛ إذْ إن هُناك الكثير من الدلائل على تنامي الكراهية المُتبادلة بين الجانبَيْن[5]، فالتسامح الذي كان يعاملهم به المُسلمون كان دافعاً قوياً لمسيحيِّيْ الشَّرْق؛ كي يُبعدهم عن الفرنجة الذين يتبعون كَنيسَة غربية لها طقوس مُختلفة. ويُذكر أنَّه عندما حرّر السُّلطان صلاحُ الدِّين القُدْس عرض المسيحيُّون الأرثوذكس المُساعدةَ من الداخل[6]، كذلك تلقَّى السُّلطان صلاح الدِّين تهاني حامي الكَنيسَة الأرثوذكسية الإمبراطُور البيزنطي اسحاق أنجيلوس – **Isaac Angelus** على استرداده للمدينة المُقدَّسَة.

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 256.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 159.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 / 1142.
4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 91 و 55.p **A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr,**
و **Prewar, The Settlement of the Lateens in Jerusalem, P.**497
5 - **Diogil, La Croisades de Luis, P.** 314
6 - **Runciman, A History of Crusades ,P.** 465

وبالمُقابل؛ نستطيع أن نقول إن المسيحيين في بلاد الشَّام لم يتعرَّضوا لأي اضطهاد، أو خطر حقيقي على وُجُودهم، أو أنَّهم مُنعوا من مُمارسة طقوس عباداتهم طوال حقبة العُصُور الوُسْطَى من قبَل إخوانهم وجيرانهم المُسلمين، ولذلك نجد أن الكَنيسَة الأرثوذكسية اليونانية، وسائر المذاهب المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة، قد هلَّلت لتحرير المُسلمين لمناطق الاحتلال الفرنجي، وخاصَّة بيت المَقْدس. ولقد كانت لهم دوافعهم القويَّة في ذلك، فقد جرَّبوا التسامح الدِّيني للمُسلمين، كما لمسوا ـ بشكل مُباشر، بواسطة الوُجُود الفرنجي في الشَّرْق ـ ما يعنيه العداء بين كَنيسَة رُوما وكَنيسَة القسطنطينيَّة. وهذا كُلُّه دعا الإمبراطُور البيزنطي آندرونيكوس كومنين للسعي وراء تحالف يربطه بالمُسلمين ضدَّ الفرنجة[1]. وممَّا يُذكَر هُنا ما قام به عماد الدِّين زنكي عندما حرَّر الرُّهَا من الفرنج عام **539** هـ **1144**م، فمع أنَّه لم يرحم الفرنجة فيها فقد عامل المسيحيين المحلِّيِّيْن بمُنتهى الرأفة، وزار كنائسهم، وكانت له علاقة حميمة مع المطران اليعقوبي للرُّهَا متى الرهاوي[2].

وبالنتيجة؛ نرى أنَّه على الرّغم من رابط العقيدة الواحدة بين المسيحيين السوريين والفرنجة إلَّا أن روابط التاريخ واللُّغة والعيش المُشترك مع المُسلمين كانت أقوى، فمع أن المسيحيين السوريين لم يُقاتلوا الفرنجة عنوة، ولم يكونوا مصدر إزعاج حقيقي لهم، إلَّا أنَّهم ـ أيضاً ـ لم يستغلّوا الظُّرُوف الصعبة التي مرّ بها المُسلمون، فلم يُقاتلوهم، ولم يُثيروا القلاقل، أو يُشكّلوا عقبات أمامهم. ومع أنَّه تمَّ طرح كثير من النظريات حول تعاون وثيق بين مسيحيِّيْ سُورية والفرنجة، لكنَّها ـ بمُعظمها ـ تعتمد على أحداث محدَّدة وتخمينات وتعميمات، فالنُّصُوص التاريخية تذكر أن قُوَّات المُشاة في الإمارات الفرنجيَّة كانت تُشكَّل من السُّكَّان المحلِّيِّيْن غالباً، وهذا صحيح، ولكنْ؛ ليس بالضرورة أن تكون من المسيحيين، فقد كانت تضمُّ أتراكاً وأكراداً وعرباً، وإذا كان جُلُّها من المسيحيين، فهم من الأرمن. أمّا تعاون المسيحيين المحلِّيِّيْن مع الفرنجة، فقد تقتصر أمثلته على ما قام به الموارنة، إضافة إلى حوادث فردية قد تُثير الاستغراب أكثر ممَّا تُعدُّ دلائل على وجهة نظر محدَّدة، ومنها الرواية التي أوردها أبو شامة على ذمَّة مَنْ أبلغه، يقول: "بلغني أن النصارى ببعلبك سخموا وسوّدوا وُجوه الصُّور في كَنيسَتهم على ما جرى على الفرنج، فعلم الوالي، فجناهم جناية شديدة، وأمر اليهود

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 84.
2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 94.

بصفعهم، وضربهم، وإهانتهم"[1]، هذا الحدث الذي لا ندري في أيّ كَنيسَة تمَّ في بعلبك، وقد تكون للموارنة، ورُبَّما ليس في مدينة بعلبك نفسها، بل في منطقتها؛ حيثُ ينتشر بعض الموارنة في غربها، ورُبَّما كانت القصة ردّاً لتبرير ما قام به المُسلمون في دمشق، فبعد هزيمة لويس وأسره في دمياط عام 648 هـ 1250م، أرسل المُعظَّم تُورانشاه ملابس الملك لويس الأسير إلى واليه على دمشق جمال الدِّين ابن يغمور، " فدخل الناسَ كَنيسَةَ مريم بفرحة وسرور، ومعهم المغاني، ويطربون فرحاً بما جرى، وهمّوا بهدم الكَنيسَة"[2]، وبما أن أبو شامة مُؤرِّخ رصين، ولم يُجرَّب عليه أيُّ تلفيق، ولذلك نميل للاعتقاد بأنَّ ما تمَّ قد يكون في كَنيسَة مارونية في جنوب البقاع، فصلات الموارنة بالملك لويس كانت وثيقة[3].

وبشكل عامٍّ؛ كان المسيحيُّون الشرقيون في مصر والشَّام يشعرون بارتباط ما بالمُسلمين، إن لم يكن للجيرة والمُعاملة الحَسَنة التي يلقونها منهم، فللإحسان المرجو، فقد كان مُعظم الكَتَبَة في مصر والشَّام خلال العصر الأَيُّوبي من المسيحيين، وخير دليل على ذلك هُو ابن الميقاط الذي كان يُلقَّب بالشيخ أبي الفتوح، الذي كان كاتبَ جُيُوش الملك العادل، وكان لديه في ديوانه "جماعة من الكُتَّاب مسيحيين أقباط"، وكان ابن الميقاط في سفره بين الشَّام ومصر مُرافقاً للسُّلطان العادل، يصحب حاشيته القبطية معه، ويقومون بطقوس عباداتهم في الطريق بكل حُرِّيَّة، وقد اصطحب معه القسَّ داود بن يُوحنَّا بن لقلق؛ ليُصلِّي بهم[4].

ولكن هؤلاء الكَتَبَة المسيحيين بالرّغم من ارتقائهم في مناصب الدولة، وتمتُّعهم بالسُّلطة والمال والجاه في ظلِّ المُلُوك الأَيُّوبيَّة، فقد كانوا يدفعون ـ في بعض الأحيان ـ ثمناً غالياً لذلك، وخاصَّة عندما يموت الملك الذي يعملون في ظلِّه، أو يتغيَّر عليهم. ورُبَّما كان خير مثال على ذلك هُو ابن هبة الله، الذي تولَّى خزانة السُّلطان المُعظَّم في دمشق، ووليها في عهد ابنه النَّاصر داود، وصال

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 365 وقد نقلها عنه: النويري، نهاية الأرَب، 92 ـ359، وابن كثير، البداية والنِّهاية، 13/ 178.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 365. والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 223 . ثُمَّ يُتابع أبو شامة مُباشرة: "وبلغني أن النصارى ببعلبك ..."
3 - العُدوان الصليبي على مصر ، جوزيف نسيم يُوسُف، 67 —68.
4 - أخبار الأَيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 6.

وجال في عهدَيْها، فقد "تمكّن من المُسلمين، وآذاهم، ورفع منار النصارى"[1]، ولكنْ؛ ما إن استولى الأشرف مُوسى على دمشق، حتَّى عزله، وحبسه عام 626 هـ 1229م، ثُمَّ علّقه على باب كَنيسَة مريم، وطالبه بأموال عظيمة، مع ذلك؛ فهذا يُعَدُّ من الحوادث الفردية والعادية في ذلك الزمن، والذي كان يُصيب المُسلمين والمسيحيين، ولهذا؛ استمرَّ المسيحيُّون الشرقيون بولائهم المعلن للممالك الأَيُّوبيَّة مُقابل عداء ظاهري واضح نحو الفرنج.

لكنَّ الفرنج حصلوا على بعض التسهيلات من قِبَل أفراد من السُّكَّان المحلِّيِّيْن باعوا نُفُوسهم بالمال، أو من مجموعات كان لها دوافع عرْقية، أو طائفية. فيُذكَر أنَّه كان لدى مُعظم الإمارات الفرنجيَّة مُتطوِّعة من السُّكَّان المحلِّيِّيْن في جُيُوشهم، منهم المسيحيُّون المحلِّيُّون والأتراك المُسلمون، كما استغلَّ البدو معرفتهم بطبيعة الأرض، وخاصَّة البوادي والصحارى، فعمل بعضهم أدلاء وجواسيس للفرنجة مُقابل المال والأعطيات. أمَّا الدُّرُوز المُقيمون في وادي التيم؛ فيبدو أنَّهم تصرَّفوا بدهاء سياسي؛ حيثُ أرضوا الطرفَيْن من مُسلمين وفرنجة، فقد عملوا جواسيس للطرفَيْن[2].

الموارنة:

كان الموارنة يُشكِّلون طائفة دينيَّة صغيرة في العصر الأَيُّوبي، وقد سكنوا بعض سُفُوح جبال لُبنان الغَرْبيَّة، وكانوا مُنعزلين ـ تماماً ـ عن المُسلمين، وعن الطوائف المَسيحيَّة الأُخرى، فهُم سريان، لكنَّهم لا ينتهجون العقيدة الأرثوذكسية، وبالوقت نفسه؛ لا يتبعون كَنيسَة رُوما الكاثوليكية، بل يتفرَّدون بعقائدهم. لكنَّ وُصُول قُوَّات الفرنج إلى الساحل الشَّامي دفع الموارنة ـ بالرّغم من استعرابهم باللُّغة ـ لاعتبار الفرنجة أقرباء لهم، وأنَّهم سيكونون مُخَلِّصين[3]، فأحسنوا استقبالهم، وكانوا أوَّل المُرحِّبين بهم. ثُمَّ أرسلوا وُفُودهم إلى رُوما، وانضمُّوا ـ رَسْميَّاً، وشرعياً ـ إلى كَنيسَتها الكاثوليكية، وكان كلّ ذلك على يد إيمري بطريرك اللاتين في أنطاكية، فقد "أعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طويلة"[4].

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 303.
2 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 114.
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 99.
4 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 444.

واندفع الموارنة لدعم الفرنجة في معاركهم، وكان لهم دور مُؤثِّر أحياناً، يقول وليم الصُّوري عن الموارنة: "لم يكن هؤلاء الناس قليلي العدد، وقُدِّروا بأنَّهم أكثر من أربعين ألفاً، وكانوا شعباً قوي البنية، ومُقاتلين شُجعاناً، قدَّموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مراراً مع العدو"[1]. وردّاً لجميل الموارنة قام الفرنج أثناء احتلالهم للساحل الشَّامي "بمنح موارنة لُبنان جميع الحُقُوق الكَنَسية والمدنية التي كانت لأبناء الكَنيسَة الرُّومانيَّة الكاثوليكية"[2]. ويُقال إن عدداً من موارنة لُبنان قد شاركوا الملك الفرنسي لويس التَّاسع في حملته على مصر، وكانت جُمُوع منهم في استقباله أثناء عودته إلى عكَّا من الأسر، "وأرسل لهم لويس خطاباً خاصَّاً يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له"[3]. كما ارتفعت ـ في ذلك الوقت ـ أصوات كثيرة في أُورُوبة تُطالب بضمِّ الموارنة باعتبارهم جُزءاً من العالم المسيحي الغربي[4].

اليهُود:

في العصر الأيُّوبي كانت تُوجد جالية بسيطة من اليهُود مُوزَّعة على المُدُن الكُبْرَى في الممالك الأيُّوبيَّة[5]، وهي تتألَّف من مجموعات صغيرة تتوزَّع في كلّ مكان تقريباً؛ وخاصَّة في المُدُن، وذلك وُفقاً لإحصاء بنيامين التطيلي لأعداد اليهُود في مناطق الشَّام ومصر[6]، ويتَّضح من ما ذكره بنيامين أن اليهُود غير موجُودين ـ تقريباً ـ في فلسطين والساحل الجنوبي للبحر المُتوسِّط، فأعدادهم في القُدْس **200** شخص، وفي عكَّا **200** أيضاً[7]، وممَّا يُلاحَظ أنَّه من الساحل ونحو الداخل تبدأ بالازدياد أعداد السُّكَّان اليهُود، لنُلاحظ كثافة نسبية في دمشق **3000** ثلاثة آلاف شخص، وفي حلب ألف وخمسمائة شخص[8]، وكُلَّما توغَّلنا شرقاً نحو العراق وفارس ارتفعت هذه الأعداد.

---

1 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 444.
2 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، 2/ 262.
3 - العُدوان الصليبي على مصر ، جوزيف نسيم يُوسُف، 67 —68.
4 - استرداد الأرض المُقدَّسَة، بيير دوبوا، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 37 / 144.
5 - من التاريخ الشَّامي ، شاكر مُصطفى، 117.
6 - زار اليهوديُّ الأندلسي بنيامين بن بونة التطلي بلادَ الشَّام ما بين عام 561 ـ 569هـ/ 1165 - 1173م.
7 - رحلة بنيامين، 92، ولا ندري هل هذا النقص بأعداد اليهُود له علاقة بابتعادهم عن مناطق الحُرُوب، فمُعظم اليهُود تُجَّار وحرفيون، وأعمالهم لا تزدهر إلَّا في مناطق يسود فيها السلام، أو أن لهذا النقص علاقة بإساءة الفرنجة لهم، وتسخيرهم للقيام بالأعمال الشاقَّة مع الأسرى (كلستان، سعدي الشيرازي، 144)، أو أن اليهُود ابتعدوا تاريخياً عن القُدْس وفلسطين مُنْذُ الفتح العَرَبي لها وُفقاً لنصِّ العُهدة العُمَرية التي أعطاها عمر بن الخطَّاب لبطريرك القُدْس عند تسليمها، والتي تنصُّ: "ولا يسكن بإلياء معهم أحد من اليهُود". (تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، الطبري، 3/ 609).
8 - رحلة بنيامين التطلي، 122.

ويبدو أن المذبحة التي تعرَّض لها اليهُود في القُدْس، عندما دخلها الفرنجة وإحراقهم داخل الكَنيس، الذي التجؤوا إليه[1]، قد جعلتهم يفرُّون من مناطق فلسطين والساحل نحو بُلدان الداخل الإسلاميَّة، أمَّا مَنْ بقي منهم، وتمكَّن الفرنجة من القبض عليه؛ فقد عُدَّ أسيراً، وأُحيل للعمل الشاقِّ في بناء التحصينات، وحَفْر الخنادق[2].

وقد تمكَّنتْ الجاليات اليهودية في البُلدان الإسلاميَّة من أن تُحقِّق ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً كبيراً نتيجة التسامح الإسلامي السَّائد، ولذلك؛ تآلف اليهُود مع الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة[3]. وإن أعداد اليهُود القليلة في أراضي الدولة الأيُّوبيَّة لم تكن لتسمح لهم بلعب أيِّ دور مُؤثِّر في الصراع الدائر بسبب الغزو الفرنجي[4]. ولكنْ؛ بشكل عامٍّ، فقد "كان اليهُود يعدُّون أنفسهم رعايا أوفياء للدولة الإسلاميَّة، وأن الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق كانت محنة مُؤلمة بالنِّسبَة لهم"[5].

هذا؛ مع أنَّنا نفترض أن اليهُود في المشرق العَرَبي لم يتحْ لهم معرفة المذابح التي قام بها الحُجَّاج الفرنجة قبل توجُّههم إلى الشَّرْق في مُعظم مناطق أُورُبة، فقد كانت فكرة الأُورُبيين في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة عن اليهُود بأنَّهم "ملعونون إلى حَدِّ الشقاء، ممقوتون في جميع أنحاء الدُّنيا، ويُعَدُّون لاشيء"[6]. إن نظرة الفرنج هذه لليهود تُبرِّر اندفاعهم لذَبْح هذه الطائفة، وتُقرِّبهم ـ بذلك ـ إلى الله قبل قيامهم بالحجِّ، وغزو المناطق المُقدَّسَة في فلسطين، فحملة الحُجَّاج التي عبرت ألمانيا ذبحت اليهُود في مدينتي مينز، وكُولن[7]. ثُمَّ قامت الحملة الفرنجيَّة التَّالية التي انطلقت من بريطانيا بالهُجُوم على اليهُود، وذبحهم في ستامفورد، وسانت أدموند، ثُمَّ حاصروهم في يُورك، فلمَّا أيقن اليهُود بالهلاك ذبحوا أولادهم وزوجاتهم، وأشعلوا النار، فاحترقوا جميعاً، فما كان من الحُجَّاج إلَّا أن نهبوا أموالهم، وانطلقوا في حَجِّهم[8].

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 115.
2 - يذكر سعدي الشيرازي أنَّه عندما أسره الفرنج قُرب القُدْس، ساقوه إلى طرابلس، وأجبروه على العمل مع اليهُود في حَفْر خندقها. (روضة الورد، سعدي الشيرازي، 114).
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 30.
4 - لم يذكر المُؤرِّخون ولا الرَّحَّالة المُسلمون مثل ابن بطُّوطة وابن جُبَيْر شيئاً عن اليهُود في القُدْس، أو في فلسطين في عصر الدولة الأيُّوبيَّة، إنَّما يتحدَّث ابن جُبَيْر عن مجموعة من اليهُود السامرة في مدينة نابلس (الرحلة، 272).
5 - كلود كاهن، الشَّرْق والغَرْب، 115.
6 - جولات ورحلات، فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1195.
7 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 24.
8 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 352.

طائفة العامَّة:

تكاد تكون المعلومات نادرة عن وضع العامَّة في المالك الأيُّوبيَّة، ولكنَّنا نعرف أن هذه الطبقة كانت تضمُّ فئات واسعة من المُجتمع: جُنُود، حِرَفيين، زراع، صغار التُّجَّار، والمُوظَّفين، وهؤلاء هُم دافعو الضرائب، ومُجنَّدو السُّخرة، وهم أوَّل مَنْ تُصيبه النكبات. وكانت حياتهم - في تلك الأيَّام - في غاية القسوة، خاصَّة في أيَّام الحُرُوب والحصار. وكان مُعظم أفراد طبقة العامَّة يعملون حرفيين في محلاتهم، أو أُجَرَاء لدى الغير، كما كان قسم آخر من السُّكَّان يخرج يومياً من المُدُن للتجارة التبادلية مع القرى القريبة، أو للعمل الزراعي في بساتين المُدُن، أو كُرُومها.

وكانت هُناك طبقة تلحق - عادةً - بطبقة العامَّة، لكنَّها تتميَّز عنها، وهي:

طائفة العبيد: ويبدو أن هذه الفئة كانت محدودة جدّاً في المملك الأيُّوبيَّة، فمُعظم العامَّة كانوا من صغار الكَسَبَة والعُمَّال، وجُلُّهم من الفقراء، وهم يعجزون عن إعالة العبيد والإماء، فبقي امتلاكهم وقفاً على الأغنياء القلَّة في المُجتمع الأيُّوبي، وعلى الأُسرة الحاكمة. ويجدر الإشارة إلى نقص موارد العبيد في الشَّام عموماً في ذلك العصر بسبب الحُرُوب مع الفرنجة، التي حدَّت - بشكل كبير - من تجارة العبيد. أمَّا أسرى الفرنج؛ فلم يكن يصيبهم الرِّقُّ غالباً، فقد اعتُبروا أسرى حرب، كان يتمُّ سجنهم لحين تبادل الأسرى[1].

دور العامَّة:

شهد العصر الأيُّوبي اضمحلالاً شديداً لدور السُّكَّان المحلِّيِّين في الحياة العامَّة بشكل عامٍّ، وبتأثيرهم بالعلاقات الخارجيَّة بشكل خاصٍّ، فتوالي الغُزاة والمصائب عليهم، وظُلم الحُكَّام وتجبُّرهم، سلبهم جُزءاً كبيراً من شعورهم الوطني، وأوهن عزائمهم، فاتَّصفت مواقفهم - بشكل عامٍّ - بالسلبية، واللامُبالاة[2]. وبلغ الأمر ببعض ضعاف النُّفُوس حَدَّ الانضمام إلى الفرنج في هجماتهم على إخوانهم من المُسلمين[3].

1 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 331.
2 - العلاقات بين العَرَب والفرنج، زكي نقَّاش، 78.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 420.

ومن أهمِّ ما يُلاحَظ في العصر الأيُّوبي غياب التنظيمات الشَّعْبيَّة المحلِّيَّة التي نشطت وتشعَّبت في العُصُور السابقة، فلم نعد نسمع بأيِّ دور فاعل لتنظيمات الأحداث، التي كانت سابقاً قد بلغت شأواً عظيماً، ويبدو أن هذا الغياب كان بسبب وُجُود دولة مركزية قويَّة كان حُكْمها مُباشراً من خلال ملك يتربَّع على العرش في كلّ مدينة من مُدُن الشَّام، كما أن قُوَّات الدولة النِّظاميَّة قد حلَّت مكان التنظيمات الشَّعْبيَّة، التي تظهر - عادةً - في غياب سُلطة قويَّة ذات تنظيم عسكري وإداري فاعل.

فالدور المتعاظم لتنظيمات الأحداث في دمشق وصور في العصر الفاطمي وفي حلب السلجوقية زمن الملك رضوان، قد انتهى، ورافق ذلك هُدُوء شعبي داخلي، واستقرار اقتصادي ومعاشي قد نراه لا يتناسب - نظرياً - مع مرحلة الحُرُوب والفتَن التي شهدها ذلك العصر، فكانت الحالة في مصر والشَّام - بالرّغم من الفتَن والمجاعات وانعدام الأمن - أشبه ما تكون باستسلام شعبي كامل، فلم تُسجَّل أية ثورة داخلية، أو حتَّى أيّ تحرُّك شعبي مُؤثِّر، مع كلّ ما كانت تتعرَّض له العامَّة من ظُلم واستغلال وجشع الحُكَّام، وقسوة الضرائب والسّخرة.

وبدا كأن الرُّوح المعنوية للشعب قد ماتت تماماً، ولا ندري هل كان مردُّ ذلك إلى حالة الجهاد والإجماع الشَّعْبي عليه ضدَّ الفرنجة أوَّلاً، ثُمَّ ضدَّ التَّتار ثانياً؟ أم إلى طبيعة الحياة الجديدة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي فرضها النظام العسكري الإقطاعي؟ فلم يعد هُناك بطَّالون يدورون في الأزقَّة لالتقاط عيشهم، وهم - عادةً - عماد الشغب والفتَن، وكانوا قوام تنظيم الأحداث والفتيان.

إضافة إلى ذلك؛ فتنظيمات الأحياء الشَّعْبيَّة الجديدة حصرت الفتَن بين أهل الأحياء، فكان - غالباً - ما يندلع القتال بين سُكَّان الأحياء[1]، وهذا ممَّا فتَّت قُوَّة المُدُن الشَّعْبيَّة، وأطمع المُلُوك في بسط يدهم بأموال الشعب، فتفنَّنوا في استخلاص الأموال من الناس[2].

ولكنْ؛ مع كُلِّ ذلك لابُدَّ أن نُسجِّل بعض الأحداث المُتفرِّقة التي شارك فيها العامَّة بالأحداث السِّياسيَّة والعسكريَّة، فعند الحاجة كان المُلُوك من بني أيُّوب يلجئون للعامَّة، ويستنجدون بهم لنصرتهم في حُرُوبهم ضدَّ بعضهم البعض، فقد قام أهل دمشق مع النَّاصر داود

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 178.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 158، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 391 - 349.

عندما حاصره أعمامه الأشرف والكامل عام 626 هـ1229م، وخرج أهل البلد مع العَسْكَر، وحاربوا[1]. وعندما تعرَّض الملك الصَّالح إسماعيل للحصار بدمشق عام 634 هـ 1237م، خرج بفرقة من العامَّة يُسمِّيهم ابن العماد الحنبلي: الحرافشة[2].

وفي عام 659 هـ عندما توجَّه التَّتار نحو حماة، "أراد ملكها المنصُور مُحمَّد الرحيل إلى دمشق، فمنعته العامَّة من ذلك، حتَّى استوثقوا منه أنَّه يعود إليهم عن قريب"[3]. إن كلَّ هذه الأدوار البطولية للعامَّة لم تُسفر عن أيِّ نتائج سياسيَّة، أو عسكريَّة، فالملك الصَّالح ترك دمشق، والنَّاصر داود سلَّمها للأشرف، وكذلك ملك حماة لم يقف بتراجعه أمام التَّتار، حتَّى دخل مصر، وترك حماة لمصيرها مع التَّتار، ممَّا يجعلنا نستنتج عدم فعالية العامَّة، أو حتَّى عدم وُجود أيِّ تأثير لهم في العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة في العصر الأيُّوبي، وذلك لعدم خُضُوعهم لأيِّ شكل من التنظيم.

1 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.
2 ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 318.
3 ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 441.

المبحث الثَّاني:
دور رجال الدِّين في العلاقات السِّياسيَّة

في ظلِّ حُكم الأُسرة الأيُّوبيَّة، التي كانت تحرص على صفتها الإسلاميَّة، لم يكن لرجال الدِّين دور بارز في الأُمُور العامَّة، ومُجرياتها، وعلى العكس من ذلك، كان لهم تأثير كبير على طبقة العامَّة.

وكان رجال الدِّين من فُقهاء وقُضاة يحظون بِرِضا المُلُوك الأيُّوبيَّة طالما اكتفوا بالوعظ الدِّيني، ويحصلون على المناصب والأموال إنْ قاموا بمُباركة أفعال المُلُوك، وتبرير ما يرتكبون من مُخالفات للشرع وللمصلحة العامَّة. لكنْ؛ في كثير من الحالات التي تصدَّوا فيها لظُلم بني أيُّوب كانت الويلات والمصائب تحلُّ بهم، وأقلّها العَزْل من المناصب الدِّينيَّة، التي كانت تعني المال والجاه.

وكان المُلُوك الأيُّوبيُّون حريصين على إظهار اهتمامهم بالدِّين ورجاله، كحُضُورهم مجالس الوعظ والإرشاد، التي يعقدها كبار العُلماء، فقد حضر الملك المُعظَّم صاحب دمشق عام 600 هـ 1204م "مجلس الحافظ أبو مُحمَّد عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدسي الجماعيلي بجامع دمشق"[1]، كذلك حضر المُعظَّم درس القاضي جمال الدِّين المصري[2] مُدرِّس المدرسة العادلية بدمشق، ومعه أركان دولته من القُضاة والفُقهاء[3]، وهذا يدلُّ على حرص المُعظَّم وغيره من المُلُوك الأيُّوبيَّة على مجالس العلم، واهتمامهم بالعُلماء. وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يُحبُّ الشَّيخ عبد الله اليُونيني أسد الشَّام، وكان يزوره، "وكان الشَّيخ يُهينه، فما قام له يوماً قطُّ، وكان يقول له: يا مجيد؛ أنت تظلم، وتفعل، وتصنع، وهُو يعتذر إليه"[4].

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20/ 93. راجعْ ترجمة الحافظ في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 46.
2 - هُو القاضي جمال الدِّين أبو الفضائل يُونُس بن بدران بن فيروز الشافعي المعروف بالمصري، استقل بقضاء دمشق عام 619 هـ، وصار يُدعى قاضي القُضاة، تُوفِّي عام 622 هـ.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 256. راجعْ ترجمة جمال الدِّين في ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20/ 258. ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 171.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20 / 241.

وعندما ضرب الملكُ العادلُ القراطيسَ بدمشق، قال الشَّيخ عبد الله اليونيني: "انظروا إلى هذا الشَّيخ الفاعل الصانع يُفسد على الناس مُعاملاتهم، وبلغ العادل، فأبطلها"[1].

وكان لابن الجوزي مكانة رفيعة بين عُلماء دمشق، وتربطه علاقات جيِّدة مع أبناء الملك العادل، وخاصَّة الملك الأشرف والملك المُعظَّم، لكنَّ علاقته بالأشرف فسدت، عندما سلَّم الملكُ الكاملُ مدينةَ القُدْس إلى الإمبراطُور فريدريك، فعدَّ ابن الجوزي ذلك خيانةً، وألَّب الناس على فعلة الكامل، وحرَّضهم بخطبة بليغة في جامع دمشق؛ افتتحها بقوله: "أحسنَ الله عزاءَ المُؤمنين، يا خَجلة مُلُوك المُسلمين"، ثُمَّ أفتى بشرعية قتال الكامل والأشرف بسبب هذا العمل[2].

وفي عام 607 هـ 1210م، عندما خاف المُلُوك والأُمراء من سطوة الفرنج، بلغ من قُوَّة رجال الدِّين أنَّ سبط ابن الجوزي قام بجَمْع حملة شعبية من مُسلَّحي العوامّ ومُتطوِّعة المُجاهدين في دمشق، وما حولها، وقادهم نحو مناطق سيطرة الفرنج في فلسطين، ممَّا اضطرَّ الملك المُعظَّم صاحب دمشق للخُرُوج بجُنده، ودعمهم في غزوتهم، حتَّى دخلوا بلاد الفرنج، فأسروا، وقتلوا، وأقاموا أيَّاماً، ولم يجرؤ الفرنج على التَّصدِّي لهم، ثُمَّ عادوا[3]. وفي عام 638 هـ 1241م، عندما سلَّم الصَّالح إسماعيلُ صاحبُ دمشق حصنَ شقيف أرنون وصفد للفرنج، مُقابل تحالفهم معه ضدَّ الصَّالح أيُّوب صاحب مصر، تصدَّى له الشَّيخ عزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام، خطيب جامع دمشق الشافعي، وسانده الشَّيخ جمال الدِّين أبو عمر بن الحاجب المالكي، فأنكرا على الصَّالح فعلتَهُ، وبسطا لسانَيْهما فيه، وأكثرا من التشنيع عليه، فغضب عليهما، ففارقا دمشق[4].

الدِّين والسياسة:

كان الأيُّوبيُّون رجال دولة ورجال حرب، تولَّوا القيادات العسكريَّة والإداريَّة هُم وأُسرهم وأقرباؤهم ومماليكهم، لكنَّهم ابتعدوا عن مُباشرة الوظائف التي لها صفة دينيَّة، كالقضاء والإفتاء والتدريس والخطابة ومشيخة الشُّيُوخ. واعتمد المُلُوك والأُمراء ـ بشكل كامل ـ على رجال الدِّين من

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20 / 241.
2 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 15/ 7 ـ 6.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 135.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 302 وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 334.

فُقهاء وقُضاة في تولِّي المهامّ الدّبلُوماسيَّة للممالك الأيُّوبيَّة، فكانوا المُفاوضين والرُّسُل والسُّفراء والوُسطاء، وذلك لشُعُور القادة الأيُّوبيِّين الأوائل بغُربة لُغوية وثقافية تُعيقهم عن هذه الأعمال، وكذلك لإحساسهم بقُصُور المُحاربين عن الدهاء السِّياسي.

ولكنَّ الأجيال اللاحقة للأسرة الأيُّوبيَّة تمكَّنت من تجاوز كلّ ذلك، فبرعوا في الفقه والحديث واللُّغة والشعر، وظهر منهم ساسة مُحنَّكون، لكنَّ رجال الدِّين كانوا قد سيطروا على بعض المناصب الدّبلُوماسيَّة، واختصّوا بها كالرُّسُل والسِّفارات. وكانت هذه فُرصة ليحظى بهذه الوظائف الأكفَّاء من أهل البلاد.

وقد انفرد شُيُوخ بعض المذاهب الإسلاميَّة بمواقف سياسيَّة مع هذا الملك ضدَّ ذاك، فمن المعروف أن الحنابلة بدمشق قاموا بفتح باب السلامة لجُيُوش الملك الأفضل والملك العزيز المُحاصرين للملك العادل فيها عام 635 هـ 1238م[1].

ولعظيم تأثير الفُقهاء والقُضاة بالعامَّة، فقد كان من المُتوقَّع أن يتولّوا الدفاع عن هذه الطبقة، لكنَّنا لم نلحظ لهم أيّ موقف من هذا، وكُلّ المواقف التي سُجِّلَتْ للفُقهاء في معارضة المُلُوك الأيُّوبيَّة هي مواقف تجاوز فيها المُلُوك حَدَّ الشرع، وانتهكوا حُرماته. فعندما سلَّم الملكُ الكاملُ البيتَ المُقدَّس إلى فريدريك لم يتصدَّ للتشنيع على هذه الفعلة إلَّا فُقهاء دمشق، لأن ملكها النَّاصر داود كان مُعادياً للكامل، "فجلس الحافظ شمس الدِّين سبط ابن الجوزي بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المَقْدس"، فاحتشد الناس، وعلت أصواتهم بالصراخ والبكاء[2].

ولكنْ؛ يُسجَّل للشيخ عزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام موقفه من الملك الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق، الذي سمح للفرنج بدُخُول دمشق، وشراء السلاح منها، ليدعموه في حربه ضدَّ الصَّالح أيُّوب، فقام الشَّيخ عزّ الدِّين، وأفتى في جامع دمشق بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع خطبة الصَّالح، فما كان من الصَّالح إلَّا أن عزله من خطبة الجامع، واعتقله[3].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 141.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 302، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 334.

إن هذا النوع من رجال الدِّين المُواجهين للباطل، المُتصدِّين لتجاوزات المُلوك، لم يكن مرغوباً فيه، رغم ندرته في ذلك العصر. فالمُلوك كانوا يرغبون في رجال دين لا يهتمُّون بالسياسة، لذلك انصرف الأيُّوبيُّون لتشجيع شُيُوخ الطُّرُق الصُّوفيَّة، وبناء الخوانق، والزوايا لهم، فهم لا يتدخَّلون في شُؤُون الحياة الدُّنيا، ويتفرَّغون للعبادة والتقشُّف، فغدت الشَّام في العصر الأيُّوبي مملكة الصُّوفيَّة[1].

دور القُضاة:

كان القاضي في المالك الأيُّوبيَّة من كبار مُوظَّفي الدولة، وأعمدتها، ولذلك كان احتكاك القُضاة بالمُلوك الأيُّوبيَّة أمراً مُحتَّماً، بل وشبه يومي، وتباينت العلاقة بينهما سلباً وإيجاباً، فكان يحظى - أحياناً - بعض القُضاة بمحبَّة ودعم الملك الأيُّوبي، فيقوى مركزه، وقد تزداد ثقة الملك به، فيُرسله في سفاراته، وكانت السِّفارات كلّها من نصيب القُضاة تقريباً، وذلك لعلمهم، وإمكانياتهم الشخصية، واختلاطهم بالحُكَّام والمُلوك، فامتلكوا ميِّزات أهَّلتْهُم لهذا العمل الدبلوماسي الكبير الأهمِّيَّة للمملكة وللملك، وبرز منهم قُضاة ترسَّلوا في سفارات كانت ذات أثر بارز في العلاقات بين الدُّول الأيُّوبيَّة، وبينها وبين الدُّول الأُخرى.

ونستطيع أن نعدَّ القاضي بدر الدِّين يُوسُف بن الحَسَن الزرزاري من القُضاة المُقرَّبين من المُلوك الأيُّوبيَّة، فقد اتَّصل بالملك الأشرف، الذي نقله إلى قضاء بعلبك، بعد أخذه لدمشق عام 635 هـ 1238م، "وكان يسلك من التجمُّل وكثرة المماليك والدوابّ وحُسْن الزِّيّ ما لم يسلكه وُزراء المالك الكبار"[2].

وفي عام 629 هـ 1232م قدم قاضي الرقَّة على السُّلطان الكامل، وذكر له ظُلم الملك الجواد لأهلها، فرفع الكاملُ يدَ الجواد عنها، وسلَّمها إليه[3].

وفي سنجار؛ استطاع القاضي بدر الدِّين أن يحصل على ثقة الملك الصَّالح أيُّوب عندما كان في الجزيرة، فولاه قضاء سنجار، واعتمد عليه، فأدَّى القاضي إلى أيُّوب خدمة العُمر؛ إذْ إنَّه عندما حاصر الملك الرحيم لُؤلُؤ سنجار حلق القاضي لحيته، وتدلَّى من السُّور، واجتاز المحاصِرين، ولحق

1 - ابن جُبَيْر، الرحلة، 256.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 244.

بالخَوَارزميَّة، وتمكَّن بدهائه من إقناعهم لتأييد الصَّالح أيُّوب، فقدموا معه، وفكّوا الحصار عن الصَّالح بسنجار، وهاجموا لُؤلُؤاً، ونهبوا جيشه، وهزموه، "وقلّد - بذلك - الملكَ الصَّالح منَّة عظيمة، كانت سبب سعادته لَمَّا مَلَكَ الصَّالح مصرَ"[1].

ولكن أشهر قُضاة العصر الأيُّوبي بلا مُنازع كان ابن شدَّاد[2]، الذي بدأ عهده مع السُّلطان صلاح الدِّين، فكان قاضي العَسْكَر، وبعد وفاة السُّلطان، التحق ابن شدَّاد بالظاهر غازي بن صلاح الدِّين، وعاش عنده في حلب، وعندما قدم ابن شدَّاد على الملك الظَّاهر في حلب، "ولاه قضاءها، ووُقُوفها، وحلَّ عنده في رُتبة الوزارة والمشورة"[3]. وبعد وفاته؛ كان مع ابنه العزيز بن الظَّاهر، "مُحترماً مُكرَّماً مُتولِّياً الحُكْمَ في جميع ممالك حلب"[4].

وكان لمنصب القاضي من المكانة السِّياسيَّة والرفعة الاجتماعيَّة، وارتفاع الدخل ما جعله حلماً يتطاول إليه أكابر الأعيان، فبعد وفاة القاضي الفاضل ابن شدَّاد "كان كمال الدِّين عمر بن العجمي، وهُو من أكابر حلب وأعيانها، متطاولاً إلى منصب القضاء، فبذل للعزيز ستِّين ألف درهم، وكُلّ سنة خمسين ألف درهم"[5].

ولكنْ؛ لم تكن حياة القُضاة كُلّها سعادة ورفعة، فقد واجه بعض القُضاة مُشكلات حقيقيَّة مع المُلوك، ففي عام 629 هـ 1232م، قبض الملك الأشرف على القُضاة بدمشق، وصادر منهم أموالاً عظيمة[6].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187.
2 - القاضي ابن شدَّاد: بهاء الدِّين أبو المحاسن يُوسُف بن رافع بن تميم، تُوفِّي بحلب عام 632 هـ.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 603.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 89.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 92.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 123، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 172.

المبحث الثَّالث:

دور المرأة في العلاقات السِّياسيَّة

لم يكن للنساء المُسلمات في عصر الحُرُوب مع الفرنجة أيّ دور عسكري، وبالتَّالي؛ لم يكن لهـنَّ دور سياسي يُذكَر. وبشكل عامٍّ؛ فإنَّه لم يكن للمرأة في هذا المُجتمع أيُّ دور في الحياة العامَّة، حتَّى وإن كانت من بنات الأُسرة الأيُّوبيَّة الحاكمة، ونادراً ما كانت تُعرَف إحدى النساء، فإن حصل هذا، فبعلم حصَّلتْهُ، أو بفضل قدَّمتْهُ.

وإذا استثنينا بعض صفقات الزواج السِّياسي ما بين أميرات وأُمراء الأسرات الحاكمة، والتي لم يكن للزوجات رأي فيها، فإنَّنا نجد أنَّه قد برزت بعض الحالات التي تستحقّ الوُقُوف عندها في هذا المجال، فقد كان يتمُّ استخدام بعض نساء الأُسرة الأيُّوبيَّة في استعطاف الملك المُنتصر لتخفيف وقع الهزيمة على قريب له، أو للحُصُول على بعض المكاسب الإضافيَّة من ملك لآخر، وهذه العادة، مع أنَّها كانت شائعة، وتعدَّدت حالاتها، ولكنْ؛ نادراً ما كان يُجاب طلب النسوة، أو يُقبل توسُّلهنَّ، وغالباً ما كُنَّ يُردُّنَّ خائبات. ويبدو أن عادة شفاعة النساء كانت عادة تُركية قديمة، أخذها الأيُّوبيُّون عن الأتابكة الزنكيين، فعندما حاصر السُّلطان صلاح الدِّين المَوصل خرجت إليه نساء البيت الأتابكي، ومعهم بنت نُور الدِّين يستشفعنَ لفكِّ حصاره عن المَوصل، فردَّهنَّ صلاح الدِّين خائبات[1]. ولم يطل الأمر، فبعد وفاة صلاح الدِّين انتزع أخوه الملك العادل مملكة دمشق من الأفضل بن صلاح الدِّين، ونفاه إلى الجزيرة، فأرسل الأفضل والدته عام **599** هـ **1203**م، إلى عمِّه العادل، لتشفع له، ليُبقي عليه العادل بعض البلاد، فلم يُجبها[2]، ويُعلِّق ابن كثير على ذلك قائلاً: "عُوقب البيت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم لمَّا خرجت إليه نساء البيت الأتابكي وبنت نُور الدِّين، فَرَدَّهُنَّ، فجرى ذلك لابنه"[3].

1 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11/ 512.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 104 وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 223.
3 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11/ 512.

وفي عام **635** هـ **1238**م، احتلَّ الملكُ الكاملُ دمشقَ إثر موت شقيقه الملك الأشرف، وأخذ يتجهَّز لقصد حمص، "فأرسل إليه صاحبها الملك المُجاهد بنسائه، ودخلنَ على الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك"[1]. وعندما انتهت دولة بني أيُّوب، وقامت دولة المماليك بقي الملك المُغيث عُمر بن العادل الثَّاني مُحاصراً في الكَرَك، وكان يخاف من الظَّاهر بيبرس سُلطان المماليك، فأرسل المُغيث والدته في عام **661** هـ **1263**م لمُلاقاة بيبرس في غزَّة، فاستقبلها، واستعطفتْهُ على ابنها، فوعدها خيراً، وطلب نُزُوله إليه، ولمَّا نزل أعدمه[2].

أمَّا في مجال الحُكْم والسياسة؛ فكانت النساء الأيُّوبيات بعيدات عنها تماماً، على عادة ذلك الزَّمان، ولكن هذا لم يمنع من ظُهُور علامات فارقة بينهنَّ، مثل: ضَيْفَة خاتُون بنت العادل، التي تمكَّنت من حُكْم حلب لفترة طويلة وصيَّةً على حفيدها النَّاصر. ومع أنَّه يُفترَض أن كثيرات من بنات المُلوك الأيُّوبيَّة كُنَّ في أوضاع أُسرية تُتيح لهنَّ مُمارسة السِّياسيَّة لو كُنَّ قد أُعْدِدن لها، فالسُّلطان صلاح الدِّين خلَّف سبعة عشر ولداً ذَكَرَاً، ولم يُخلِّف سوى بنت واحدة هي مُؤنسة خاتون، تزوَّجها ابن عمِّها الملك الكامل بن العادل[3]، ويبدو أنَّها كانت من بين أصغر أولاده، ولم نسمع أنَّها قامت بأيِّ دور سياسي، أو حتَّى اجتماعي، لا في مملكة أبيها، ولا في مملكة زوجها، مع أنَّها ابنة سُلطان، وزوجة سُلطان. كذلك كان للملك الأشرف ابن العادل ابنة وحيدة هي ملكة خاتون، ولم يكن له أيُّ ابن ذَكَر، ولم يُفكِّر الأشرف في إعدادها للحُكْم، ولم يخصّها بشيء من ملكه، واكتفى بأنْ أوصى لها بماله، وببعض الأوقاف، ومع وُجُود المال الكثير لدى هذه الأميرة الأيُّوبيَّة، وعيشها في كنف أبيها، الذي هُو من أشهر وأقوى مُلُوك عصره، ومن ثَمَّ؛ لدى زوجَيْهَا: ابن عمّها الملك الجواد يُونُس بن ممدود ابن العادل، الذي بعد أن طلَّقها تزوَّجها ابن عمِّها الآخر المنصُور بن الصَّالح إسماعيل بن العادل، وهي أمّ ولدَيْه[4]، ومع ذلك؛ فلم تقمْ بأيِّ دور سياسي، أو اجتماعي واضح، ممَّا يدلُّ على عدم تقبل المُلُوك الأيُّوبيَّة لفكرة تسلُّم المرأة لأيِّ عمل سياسي.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 161، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 231.
2 - زبدة الفكرة، الدَّوادار، 80، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 216.
3 - مُنتخبات التواريخ، صاحب حماة، 309، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 271.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

ولكنَّنا لا نعدم بعض النساء الأيُّوبيات اللواتي لعبنَ أدواراً سياسيَّة، أو اجتماعيَّة، مُتنوِّعة، ومُتفاوتة التأثير لسبب، أو لآخر، وممَّنْ يُشار إليهنَّ في هذا السياق:

ضَيْفَة خَاتُون بنت الملك العادل[1]:

بعد وفاة الملك العزيز بن الظَّاهر غازي صاحب حلب عام **634** هـ **1237**م، عهد بالملك لولده النَّاصر يُوسُف، وكان عمره نحو سبع سنين، فتولَّت الوصاية عليه جدَّته لأبيه ضَيْفَة خَاتُون[2] أمّ الملك العزيز، فكانت المرجع في الأُمُور كلّها[3]. ومع أن ضَيْفَة خَاتُون حكمت بشكل مُباشر، لكنَّها فضَّلت أن تكون هُناك واجهة من الرجال تُمارس سُلطتها من خلفهم، فشكَّلت ما يُشبه مجلس حُكْم لمملكة حلب، مُؤلَّف من الأمير شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني، والأمير عزّ الدِّين عمر بن محلى، ووزير الدولة جمال الدِّين القفطي، إضافة إلى مُتولِّي القلعة، التي تضمُّ خَزْنَةَ المملكة، وأموالها[4]. وكان الواسطة بين مجلس الحُكْم وضَيْفَة خَاتُون، هُو طواشيها جمال الدولة إقبال الخاتوني، الذي "يحضر بينهم للمُشاورة، فإذا اتَّفقوا على شيء دخل إلى جَدَّة النَّاصر، والدة العزيز، وعرَّفها ما اتَّفق عليه الجماعة، فتأذن في فعله"[5]. ولم تكتف ضيفة، بالإشارة بفعل الأُمُور واتّخاذ القرار الأخير، بل كانت "العلامات على التواقيع والمُكاتبات إليها وحدها، فهي التي تمضيها بخاتمها"[6]، "فكانت الأُمُور كلها منوطة بها"[7]. وأُضيفت إلى اسمها الألقاب الرفيعة، فكانت

1 - ضَيْفَة خَاتُون: 582 ـ 640 هـ، توفِّيت في قلعة حلب، ودُفنت فيها تجاه الصّفة التي دُفن فيها ولدها الملك العزيز، ولم تُدفَن في التربة التي بَنَتْهَا في منطقة الفردوس خارج باب المقام، وهي من روائع الأبنية الأيُّوبيَّة، وأكبرها، فيها مسجد ورباط. (أحياء حلب وأسواقها، خير الدِّين الأسدي، 299).

2 - ممَّا يُلاحَظ هُنا أنَّه عندما تُوفِّي زوج ضَيْفَة خَاتُون، الملك الظَّاهر غازي، وترك ابنه الصغير مُحمَّد ولياً لعهده، تشكَّل مجلس للوصاية، لم يكن فيه لضيفة وُجُود، وتمَّ تجاهلها تماماً على العادة السائدة، ولكنَّها كانت الشخصية الأقوى والمرجع الأخير في حالة الوصاية على حفيدها، فلماذا لم تأخذ الدور نفسه في الوصاية على ابنها؟! هل كان ذلك لوُجُود شخصية طَغْريل القويَّة؟! وهُو مُتولِّي القلعة والمُتحكِّم بالسلاح والأموال، أم لعدم نُضج ضيفة بما يكفي لتولِّي هكذا مهامّ؟! ونحنُ نرجِّح الاحتمال الثَّاني.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 118.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 118.

تُخاطَب: "بالسّتر العالي الخاتوني"[1]، ولكن تسميتها الشائعة كانت: الصاحبة[2]، وهي اختصار لصاحبة الستر العالي.

ونستطيع القول إن الصاحبة أصبحت حاكمة حلب الفعليَّة، فعندما أشار الملكُ الكاملُ صاحب مصر بتولية الصَّالح بن الظَّاهر على عسكر حلب، وأرسل إليه خلعة دليل تقديمه له، رفضت الصاحبة تسليمه الخلعة، وأَبْعَدَتْهُ خارج حلب، فقد استشعرت منه خطراً؛ لأنَّه الابن الأكبر لزوجها الملك الظَّاهر، ولم ترضخ لمشيئة أخيها الكامل سُلطان بني أيُّوب وقتها[3]. وكذلك لم ترضخ لضغط الجار القوي، كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، الذي سعى ليكون الأفضل بن صلاح الدِّين أتابكاً للملك النَّاصر، وقد أيَّد هذا الرأيَ عددٌ كبيرٌ من كبار أُمراء العَسْكَر الحلبي[4]، لكنَّ الصاحبة تصدَّت لأُمراء العَسْكَر، وشَتَّتَت شملهم، ولم تلتفت لطلبات سُلطان السلاجقة، ولم ينسَ كيكاوس هذا الرفض لضَيْفَة خَاتُون، لكنَّه أجَّل أمرها حتَّى تورَّطت في الهُجُوم على حماة عام **635** هـ، فعندما كانت مُعظم عساكر حلب تُحاصر مدينة حماة، أرسل كيكاوس إليها يطلب إقامة الخطبة، وضرب السّكَّة باسمه، فلم تقبل الصاحبة، وأرادت أن لا تستجيب له، لكنَّ المُستشارين نصحوها بالقبول، فَوَضْعُ حلب العسكري في غاية الخُطُورة، فلم تتشدَّد في رأيها عندما اقتنعت، ووافقت على طلبات كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم[5].

وظهرت رباطة جأش الصاحبة عندما هُزمت جُيُوش حلب أمام فرقة الخَوَارزميَّة، الذين اندفعوا نحو حلب، فتصدَّت الصاحبة لتنظيم عملية الدفاع عن حاضرة ملكها، وأعطت تعليماتها إلى مُقدَّمي البلد، ووزَّعت عليهم المهامَّ لحفظ الأسوار والأبواب[6]. ويبدو أن الصاحبة قد انخرطت في العملية السِّياسيَّة تماماً، وتصرَّفت كملكة حقيقيَّة لمملكة حلب، حتَّى إنَّها كانت في الأزمات تُحلِّف

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 119 ـ 190، 428 ـ 288 .

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 339.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 284.

الناس والمُلُوك المُجاورين "لها ولابن ابنها النَّاصر صلاح الدِّين"، فيحلفون[1]. ولم تُسلِّم ضَيْفَة خَاتُون الحُكْمَ لابن ابنها طوال حياتها، فحكمت ستَّ سنوات، واستمرَّت في ملكها حتَّى ماتت عام 640 هـ 1242م، فاستردَّ حفيدُهَا عرشَهُ، وحَكَمَ مُستقلاً، وكان عُمره نحو ثلاث عشرة سنة[2].

غازية خاتون بنت الكامل:

عندما تُوفِّي الملك المُظفَّر محمود صاحب حماة عام 642 هـ 1244م، خلفه ابنه المنصُور مُحمَّد، وله من العُمر عشر سنين، فتولَّت الوصاية عليه والدته غازية خاتون، التي شكَّلت مجلس وصاية مُؤلَّفاً من سيف الدِّين طَغْريل، وشيخ الشُّيُوخ شرف الدِّين بن مُحمَّد، والطواشي مُرشد، والوزير بهاء الدِّين بن التاج، وكان جميعهم يرجعون إليها[3]، وحفظت المُلكَ لابنها حتَّى بلغ أشدَّه، فسلَّمتْهُ مقاليدَ الأُمُور، "وكانت من أحسن الناس سيرة وزُهداً وعبادة"[4]. ثُمَّ توفيت في قلعة حماة عام 656 هـ 1258م.

السِتّ السوداء:

وتُعرَف ببنت الفقيه نصر[5]، ويبدو أن السواد اسم فقط، ولا يدلُّ على سواد بشرتها؛ إذْ لم يُشِرْ أحد إلى ذلك، وهي جارية تزوَّجها الملك الكامل، وأنجبت له ابنه العادل الثَّاني أبا بكر[6]، وكان لها دور كبير في نزع الصَّالح أيُّوب الابن الأكبر للملك الكامل من ولاية العهد، وتولية ابنها العادل مكانه؛ حيثُ سَلْطَنَهُ أبوه في حياته عام 630 هـ 1233م، "وكان الكامل يُحبُّه، ويُحبُّ أمَّه حُبّاً زائداً"[7]. وعندما أرسل الملك العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد إلى الملك الكامل عام 626 هـ 1229م، يطلب منه أن يُزوِّجه إحدى بناته، وافق الكامل على تزويجه

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 313.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 173.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 196.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 142.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367.

بابنته فاطمة خاتون[1]، وفاطمة أمها السِتّ السوداء[2]، وهذه المُصاهرة لا يُمكن أن تكون بعيدة عن تدبير ومآرب السِتّ السوداء، أحبّ زوجات الملك الكامل إلى قلبه.

ويبدو أن السِتّ السوداء ظلَّت تتدخَّل في الحياة السِّياسيَّة في أيَّام حُكْم ابنها في مصر، كما كانت تفعل في عهد زوجها الكامل، فعندما أمسك النَّاصر داودُ الصَّالح أيُّوبَ، واعتقله في الكَرَك، وهُو مُنافس ابنها العادل، وكان مُتوجِّهاً لأخذ مصر منه، عملت والدة العادل وليمة عظيمة، "عمل فيها ألف رأس غنم"[3]. وعندما عاد داود، وأطلق الصَّالح أيُّوب من سجنه، "عظم ذلك على العادل، وعلى والدته"[4]. وبمُقابل الدور الفعَّال للسِتّ السوداء؛ نُلاحظ على العكس من ذلك أن أمّ الملك الصَّالح أيُّوب، وهي جارية سوداء اسمها ورد المُنى[5]، لم يكن لها أيُّ تأثير على الملك الكامل، وبالتَّالي؛ لم يكن لها أيُّ ذكْر خلال سلطنة ابنها الصَّالح أيُّوب.

ستّ الشَّام:

بنت أيُّوب وأُخت السُّلطان صلاح الدِّين، كانت مُتزوِّجة من عُمر بن لاجين، وهُو من رجال دولة السُّلطان صلاح الدِّين، وقد أنجبت له حُسام الدِّين مُحمَّد، الذي تُوفِّي في حياتها. وبعد وفاة زوجها عمر طلبها ابن عمِّها ناصر الدِّين مُحمَّد، وتزوَّجها، فأقامت في حمص حتَّى وفاته. برزت ستُّ الشَّام بالخدمة الاجتماعيَّة، فقد كانت كثيرة البرّ والإحسان، بابها ملجأ للقاصدين، ويُعمَل بدارها من أنواع الأدوية كلّ سنة بألوف الدنانير لتُفرِّقها على الناس، كما بَنَتْ مدرستَيْن بدمشق، وأوقفت عليهما أوقافاً كثيرة. تُوفِّيَتْ بدمشق عام 616 هـ 1219م، ودُفنَتْ بتُربتها الحسامية[6].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 665.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 142.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 373.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 166.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180. وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 367/ 7. ويُقال بأنَّها كانت مُولَّدة سمراء، اسمها ورد الندى.(مرآة الجنان، اليافعي،4/ 73).
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 119.

أمة اللطيف:

"الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الشَّيخ الناصح الحنبلي"[1]، زوجة الملك الأشرف مُوسى صاحب حمص، وهي إحدى شهيرات عصرها بالعلم، فقد "كانت فاضلة، ولها تصانيف"[2]، ومن آثارها مدرسة دار الحديث بدمشق، التي وَقَفَتْهَا على الحنابلة[3]. وبعد أن تزوَّجها الأشرف أُخذت منه حمص، فسافر بها إلى تلّ باشر والرحبة، فتُوفِّيت هُناك عام 653 هـ ـ 1255م[4]. ورُبَّما كان زواجه بها له علاقة بأموالها أكثر من علاقته بعلمها، فبعد موتها ظهر لها من الأموال ما يُساوي ستّمائة ألف دينار، غير الأملاك والأوقاف[5].

المُصاهرات السِّياسيَّة:

يبدو أن عادة التقارب بين الأُسر عن طريق المُصاهرة كانت تُطبَّق ـ أيضاً ـ في عالم السياسة، فكثيراً ما أحكمت العلاقات السِّياسيَّة بعض الزيجات، وينطبق ذلك داخل تفرُّعات الأُسرة الأيُّوبيَّة، أو بينها وبين الأُسر المالكة التي تربطها بها علاقة تحتاج إلى توطيد، وطالما كان عقد الزواج يدلُّ على الوُدِّ المُتبادل بين مملكتَيْن، أو يطلبه ملك من ملك أقوى منه ليضمن دعمه،أو ليتَّقي مطامعه. ولم يكن هُناك شرط مُحدَّد لإتمام المُصاهرة بين البُيُوتات المالكة، وأُمرائها، إلَّا شرط الإسلام، فكلّ أصهار الأُسرة الأيُّوبيَّة من خارج أبنائها كانوا مُسلمين، أمَّا إصهار الأيُّوبيَّة إلى بُيُوت مالكة أُخرى؛ فكان لا ينطبق عليه هذا الشرط وُفقاً لتعاليم الشرع الإسلامي. فقد قام الملك العادل بالتفاوض مُطوَّلاً مع ملك إنكلترا ريتشارد من أجل الزواج بأُخته[6]. وكذلك تزوَّج الملك الأوحد بن العادل صاحب خِلاط ابنة ملك الكرج إيواني، وهي مسيحيَّة، وبعد وفاته؛ تزوَّجها أخوه الملك الأشرف[7].

---

1 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 182.

2 - الدارس، النعيمي، 2/ 63 و87.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 182.

4 - الدارس، النعيمي، 2/ 63.

5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 230. ويذكر الحنبلي أن أمة اللطيف كانت مختصَّة بخدمة ربيعة خاتون بنت أيُّوب، وحصل لها منها أموال عظيمة، ولمَّا توفيت ربيعة عام 643 هـ وقعت أمة اللطيف بالمُصادرة، وحُبست بالقلعة ثلاث سنين، ثُمَّ أُطلقَتْ، فتزوَّجها الأشرف مُوسى صاحب حمص عام 646 هـ، قُبيل أخذ حمص منه بقليل. راجعْ: (شفاء القُلُوب، 230).

6 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 13/ 377.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20 / 131 ـ 146.

المُصاهرات السِّياسيَّة داخل البيت الأيُّوبي:

كان من أشهر المُصاهرات التي جرت بين بُيُوتات الأُسرة الأيُّوبيَّة:

المُصاهرة بين العادل والظاهر:

أوثق السُّلطان صلاح الدِّين صلته بأخيه العادل، فزوَّج ابنه الظَّاهر غازي من غازية خاتون ابنة العادل[1]، ولكن غازية خاتون مالبثت أنْ ماتت، وصادف أنْ ساءت العلاقة بين الظَّاهر غازي وعمّه العادل، وجرت بينهما حُرُوب ومُناوشات وحصار بدمشق، ثُمَّ استتبَّ الأمر للعادل، وبرز كأكبر قُوَّة أيُّوبية بعد استيلائه على مصر ودمشق والكرك وبعض الجزيرة، وخاف الظَّاهر أن يفعل به عمُّه ما فعله بأخيه الأفضل صاحب دمشق، ويسلبه مُلكه، فأرسل يطلب منه المُوادعة، واعترف له بالسَّلْطَنَة، وكإقرار على صفاء النُّفُوس؛ أرسل الظَّاهر قاضي عسكر السُّلطان صلاح الدِّين السَّابق وقاضي حلب الحالي ابن شدَّاد إلى عمِّه العادل ليخطب له ابنته ضَيْفَة خَاتُون عام 608 هـ، فوافق العادل "وزوَّجها، وزال ما بينهما من الإحن"[2].

مُصاهرات الملك الكامل:

كان للسُّلطان الملك الكامل عدداً من البنات، كُنَّ مجالاً رحباً لمُناوراته السِّياسيَّة مع مُلُوك وأُمراء آل بيته، وذلك من خلال تزويجهنَّ، أو الوعد بذلك. وكان أوَّل مَنْ طلب وُدَّ الملك الكامل عن طريق مُصاهرته هُو الملك العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، فقد سيَّر القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد إلى الملك الكامل وهُو على حصار دمشق عام 626 هـ 1232م؛ ليطلب منه يد ابنته فاطمة خاتون، فوافق الملك الكامل، وتمَّ عقد النكاح[3].

وبعد أَخذ الملك الكامل لدمشق من أبن أخيه النَّاصر داود بن المُعظَّم سار إلى حماة، وسلَّمها إلى الملك المُظفَّر، بعد أن نزع أخيه عنها، وانطلق الكامل إلى بلاد الجزيرة، فلحقه المُظفَّر، وطلب منه

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 327.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 114، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 20/ 632 ـ 633، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 328.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 665.

يد ابنته غازية خاتون[1]، فوافق الكامل، وعقد له[2]، وتبدو هذه المُصاهرة في ظاهرها نوع من رَدّ الجميل، ولكنّها - في حقيقة الأمر - تأكيداً لأمر المُظفَّر، ودعماً له بتقرُّبه من سُلطان البيت الأيُّوبي.

أمّا ابنة الملك الكامل الثّالثة؛ فهي عاشوراء خاتون، وكان الملك النّاصر داود قد طلبها من عمِّه الكامل، فوافق، وكتب له عليها، وعندما كان الكامل في حملته ضدّ سلاجقة الرُّوم شعر أن إخوته وآل بيته من بني أيُّوب قد تآمروا عليه، فعاد وقد نقم على داود لاعتقاده بأنّه كان صاحب دور كبير في تأليبهم عليه، فأجبره على طلاق ابنته، فطلّقها داود[3]. ولمّا اكتمل تحالف ممالك الشّام عام 634 هـ 1237م ضدّ الملك الكامل صاحب مصر، بقي النّاصر داود متأرجحاً بولائه، فحاول الملك الأشرف زعيم حلف الشّام أن يستميله، فعرض عليه أن يزوِّجه ابنته الوحيدة، وأن يجعله وَليَّ عهده، لكنّ داود رفض العرض، وذهب إلى مصر، "فَسُرَّ به الكامل، وجدّد عقده على ابنته عاشوراء، التي طلّقها منه"[4].

وهكذا يتّضح أن مُعظم المُصاهرات ضمن الأُسرة الأيُّوبيّة كانت نابعة من مصالح سياسيّة وأغراض لمصلحة الأب، أو الزوج، أو كليْهما معاً أحياناً.

المُصاهرة بين بيتَيْ حماة وحلب:

في عام 643 هـ 1246م، أرسل الملكُ المنصُورُ صاحبُ حماة رُسُلَهُ إلى حلب، يطلب العقد على ابنة خالته عائشة خاتون بنت العزيز مُحمَّد بن الظّاهر[5]، أُخت الملك النّاصر الثّاني. وفي عام 645 هـ 1247م، أرسل المنصُور رُسُلَهُ لاصطحاب عروسه إلى حماة، فوصلتها، ومعها أمّها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل[6]، وهذه المُصاهرة هي تقوية لمركز حماة، فمملكة حلب الأيُّوبيّة هي - الآن - أكبر قُوّة في الشّام، وتقوية الأواصر مع بيتها الحاكم فيه الكثير من الدعم لمملكة حماة.

1 - غازية: شقيقة المسعود صاحب اليمن، ووالدة المنصُور صاحب حماة، وأخيه الأفضل ابن المُظفَّر.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 145.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 159.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 357.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 422، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.

المُصاهرات الأيُّوبيَّة خارج الأُسرة:

كان أوَّل مَنْ أصهرَ إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة من حُكَّام شمال العراق هُو مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، فقد طلب يدَ ربيعة خاتون أُخت السُّلطان صلاح الدِّين، فزُفَّت إليه، وقد أنجبتْ له بنتاً، تزوَّجها - فيما بعد - زنكي بن أرسلان شاه الأتابكي[1]. في عام 607 هـ 1210م، طلب صاحب المَوصل الأتابك نُور الدِّين أرسلان شاه يد ابنة الملك العادل، وتزوَّجها[2].

ويبدو أن زواج المُلُوك الأيُّوبيَّة من خارج الأُسرة، وإصهارهم إلى أسر حاكمة أُخرى كان قليلاً جدّاً، أو شبه معدوم، وذلك بسبب سيطرة الأُسرة الأيُّوبيَّة على أغنى الممالك، وأقواها. ولكن الخلافات بين مُلُوك البيت الأيُّوبي دفعت ببعضهم للتحالف مع أسر حاكمة أُخرى، وتقوية هذا التحالف بالتزوّج منهم، كما كان حال الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق، الذي تزوّج أُخت ناصر الدِّين أرتق صاحب ماردين عام 620 هـ 1223م[3]، والتزاوج بين الأُسرة الأيُّوبيَّة وبني أرتق يعود إلى عصر السُّلطان صلاح الدِّين، الذي زوَّج ابنة أخيه العادل إلى قُطب الدِّين سقمان بن نُور الدِّين مُحمَّد صاحب ماردين[4].

ولعدم وُجُود بنات مُؤهَّلات للزواج لدى السُّلطان صلاح الدِّين، عند تأسيسه لدولته، فإنّه كان يُزوِّج بنات أخيه العادل من أبناء الأسر الحاكمة التي يُريد توثيق الصلة بها، فبعد تزويجه ابنة العادل لصاحب ماردين زوَّج ابنة أُخرى للعادل إلى قيصر شاه بن قليج أرسلان سُلطان سلاجقة الرُّوم، وذلك عندما قدم على السُّلطان عام 587 هـ 1191م. وأنجبت هذه الزوجة لقيصر شاه ابناً أصهر هُو - بدوره - إلى خاله الملك الأشرف، وكتب له الأشرف عليها بحران عام 629 هـ 1232م[5]، ويبدو أنّه مات عنها، أو طلّقها؛ لأنّها رافقت أبيها الأشرف إلى دمشق، وتزوّجت هُناك ابن عمِّها الملك الجواد يُونُس بن ممدود.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 121.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن ،أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 147.
3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 315، والمنصُوري، ابن نظيف، 97.
4 - لقد وهم ابن شدَّاد في حديثه عن الملك المسعود رُكن الدِّين مودود بن محمود بن مُحمَّد بن قرا أرسلان، عندما قال: "كان والده مُزوَّجاً بابنة السُّلطان الملك العادل، فلمّا مات والده أساء إليها". (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 520)، والصحيح أن قُطب الدِّين الذي تزوَّج ابنة العادل هُو عمّه، وليس أباه.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 235

واستمرّ سلاجقة الرُّوم في طلب مُصاهرة الأُسرة الأيُّوبيَّة، فقد كانت الأسرتان تُشكِّلان أكبر قُوَّتَيْن في المنطقة، فأرسل غياث الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى ضَيْفَة خَاتُون صاحبة حلب يطلب منها أن تُزوِّجه غازية خاتون بنت الملك العزيز، التي هي أُخت الملك النَّاصر وَلِيِّ العهد، على أن يتزوَّج الملك النَّاصر أُخت غياث الدِّين[1]. وفي عام 652 هـ 1254م، تمَّ الزواج. فقدمت ملكة خاتون، بنت كَيْقُبَاذ وأُخت كيخسرو صاحب الرُّوم، إلى زوجها الملك النَّاصر صاحب حلب[2]، وهي ابنة خالة والده العزيز[3]، وبالوقت نفسه وصلت غازية خاتون بنت الملك العزيز مُحمَّد إلى بلاد الرُّوم، وتزوَّجها كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم[4].

وعندما استمال الملكُ الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب الخوارزميَّةَ، وهُو في الجزيرة أراد ربط الأواصر معهم، فزوَّج مُقدَّمهم بركة خان بأُخته من أمِّه. ولجأ الخَوَارزميَّة إلى الأُسلُوب نفسه، فعندما خرجوا على أيُّوب، عام 643 هـ 1246م بعد تملُّكه مصر، كاتبوا مملوكه وقائد جُيُوشه رُكن الدِّين بيبرس، واتَّفقوا معه، ولتأكيد الاتِّفاق زوَّجوه منهم. كذلك عندما اتَّصل الخَوَارزميَّة بالناصر داود بن المُعظَّم صاحب الكَرَك، ووافقهم على أن يكون معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب، ولتأكيد التعاون بينهم زوَّجوه منهم[5].

وبعد أن قامت دولة المماليك بمصر، وقضوا على حُكْم الأيُّوبيِّيْن فيها، أراد الأمير فارس الدِّين أقطاي الجمدار، أكبر المماليك، وأقواهم، والمُتطلِّع إلى السُّلطة، أن يُصهر إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة، ليدعم مركزه في مصر في صراع قدَّر أنَّه واقع لا محالة من أجل الانفراد بالسَّلْطَنَة، وهكذا زواج سيُؤمِّن له غطاء شرعياً، سيكون مُنافسوه محرومين منه، فطلب يد أُخت الملك المنصُور صاحب حماة، وهي بنت الملك المُظفَّر محمود، وتمَّت المُوافقة، وخرجت العروس من حماة صوب مصر، "ممَّا جعل المعزّ أيبك مُنافسه على السُّلطة يُعجِّل بقتله"، وعادت العروس إلى حماة[6].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 422.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.
6 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 58.

المبحث الرَّابع:

سُكَّان المناطق الفرنجيَّة في ساحل الشَّام

لم تكن الحُدُود السِّياسيَّة في الشَّرق العَرَبي زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة لها أيّ معنى ديني، أو عرْقي، حتَّى إنَّه لم يكن هُناك خطّ حُدُود واضح، أو محدّد على الأرض، وعلى العموم؛ كان الفرنج - في غالبية أيَّامهم - محصورين في شريط ساحلي ضيِّق ومُتقطِّع أحياناً.

كما أن الفرنج لم يُشكِّلوا في مناطقهم أكثرية سُكَّانية، فقد كان مُعظم السُّكَّان من المُسلمين والمسيحيين المحلِّيِّيْن، الذين استمرُّوا في تعاطي أعمالهم السابقة، وخاصَّة زراعة الأرض. بينما عاش الفرنج كسادة إقطاعيين، أو فُرسان مُقاتلين في المُدُن والحُصُون، التي شكَّلت نقاط تحكُّم وسيطرة. فعندما لا تكون لهم قُوَّات في الميدان نراهم يعيشون خلف أسوارهم[1].

كان المُسلمون يُسمّون شريط الساحل الشَّامي الطراز الأخضر، وذلك لارتفاع مُعدَّل أمطاره، وخُصُوبة أرضه[2]، وحتَّى ضمن هذا الشريط، فَلَمْ يُكوِّن الفرنجُ دولةً واحدةً، بل انقسموا - بعد استيطانهم مُباشرة - إلى وحدات سياسيَّة، فالحملات الفرنجيَّة جمعت جُنُوداً من أُصُول مُختلفة، ظلَّت مُتمايزة، وأسَّست دُولاً مُنفصلة، بل ومُتعارضة المصالح والأهواء في كثير من الأحيان. وصحيح أنَّهم تمتَّعوا بوحدة دينيَّة، لكنَّهم كانوا من عناصر قومية وعرْقية شتَّى، لكُلّ منهم لُغته وعاداته، فقد غلب على سُكَّان مملكة القُدْس البرغنديون، وعلى إمارة أنطاكية النورمان، وعلى إمارة طرابلس البروفنسيون، وقد انتقلت خلافات المُؤسِّسين إلى أبنائهم، ومن ثَمَّ؛ إلى أحفادهم. ويبدو أن الانقسام والتجزئة بين المُسلمين قد انتقلت بعدوى الجوار إلى الفرنجة، حتَّى إن أُمراء ومُلُوك من الفرنجة قد تحالفوا مع أُمراء ومُلُوك من المُسلمين ضدَّ حلف مُقابل من فرنجة ومُسلمين.

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 109 و486.p ,A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr
2 - قال الحريري يصف وضع الشَّام قبل معركة حطِّين: "هذا؛ وسواحل لشام كلّها بيد الفرنج، وهُو الطراز الأخضر، وهُو ما بين جبل لُبنان وبحر الرُّوم". (الإعلام والتبيين، 97).
وقال الوزير العزيزي يُوسُف بن المُجاور يمدح السُّلطان صلاح الدِّين:
هذا الطراز الأخضر استفتحته، فزهى بثوب من علاك مسجف (عُيُون الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 178).
ورُوي - أيضاً - أن أحدهم قال: وسيفتح البيت المُقدَّس بعدما يطوى الطراز، ويقتل قيصرا.
والطراز هُو بلاد الساحل المُصطفَّة على البحر من الداروم جنوباً حتَّى بلاد أنطاكية شمالاً. (عُيُون الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 179).

ولم يكـن الانقسـام الـسِّياسي للكيانـات الفرنجيَّـة في الـشَّرق هُـو الأسـاس لتوزيـع القـوى العسكريَّة فيها، فقد كانت الطوائف العـسكريَّة مُتعـدِّدة ومُتنوِّعـة الـولاءات، فـأيّ مملكـة أو إمـارة فرنجية لم تكن تُسيطر على كلّ القوى العسكريَّة المُتواجدة على أراضيها، فالملـك أو الأمـير لـه قُوَّاتـه الخاصَّة، وهُناك قُوَّات أُخرى تُقيم على أراضيه بشكل دائم أو مُؤقَّت، فمن القُوَّات الدائمة الطوائـف الرُّهبانية المُقاتلة؛ مثل: الاسبتاريَّة، والدَّاويَة، والتِّيُوتُون، وغيرهم.

كذلك كانت تُقيم في المُدن السَّاحليَّة الكُبْرى الجاليـات التِّجاريَّـة؛ مثـل: البنادقـة، والجنويـة، والبيازنة، والتي كانت تُشارك في القتال لدعم الفرنجة بشكل فعَّال، لكنَّها كانت مُتصارعة مُتنافسة، بل ومُتحاربة فيما بينها، ولا تخضع لسُلطة البلد الـذي تُقيم فيـه، فقـد حمـتهم الامتيـازات والحُقُـوق الخاصَّة، التي ـ غالباً ـ ما حصلوا عليها. أمَّا القُوَّات المُؤقَّتة؛ فهم الحُجَّاج المُقاتلون المتـدفِّقون فُـرادى وجماعات، فقد شكَّلوا قـوى عـسكريَّة لا يُستهان بهـا في كثـير مـن الأحيـان، لهـا قادتهـا، ونُظُمهـا، واستراتيجيَّتها الخاصَّة، وأهمُّ ميزاتهم الحماسة الدِّينيَّة، والاندفاع للقتال.

كما أن مملكة القُدْس لم يكن لها إلَّا سيادة اسمية على الإمارات الأُخـرى، إضـافة إلى اسـتقلال طائفتَيْ الدَّاويَة والاسبتاريَّة عن أيّ سُلطة حتَّى سُـلطة ملـك القُـدْس، وانـتمائهم إلى البابـا مُبـاشرة، وإعلانهم بأنَّهم لا يخضعون إلَّا لأوامره، وقد أدَّى صراع هاتَيْن الطائفتَيْن فيما بينهما[1] وصراعاتهما على السيطرة التي بلغت حدَّ الاقتتال الداخلي أحيانـاً، إلى وُقُـوعهما في كثـير مـن الانتكاسـات الـسِّياسيَّة والعسكريَّة، وكانت من عوامل نهاية سيطرتهم في الشَّرق.

التقسيمات الاجتماعيَّة للفرنج في سُورية:

عندما وصلت الحملة الفرنجيَّة الأُولى إلى بلاد الشَّام كانت تضمُّ جمعاً واحداً من النـاس، وإنْ اختلفت أُصُولهم، لكنَّ أهدافهم واهتماماتهم واحدة، وبتعاون كبير وانسجام فائق بيـنهم تمكَّنـوا مـن احتلال مناطق واسعة من بلاد الشَّام، لكنْ؛ مـا إنْ أقـاموا فيهـا حتَّـى أُصـيبوا بعـدوى التَّمـزُّق مـن

1 - العلاقات بين العَرَب والفرنج، زكي نقَّاش، 31.

جيرانهم، وأعدائهم المُسلمين، فانقسموا إلى إمارات، ودُويلات، وفئـات، وطوائـف[1]، وقـد يكـون لطبيعة أرض الشَّام وتباينها الجَغرافي دور مهمّ في هذا الانقسام بين الفرنجة.

وبتقادم الزمن ظهر جيل فرنجي جديد، له صفات خاصَّة، ورُبَّما كان مـن أهـم ميزاتـه زوال رُوح التعصُّب الأعمى، الذي ميَّز رجال الحملة الأُولى، ولأن تدفُّق الحُجَّـاج المُقـاتلين الوافـدين مـن أُورُوبا لم ينقطع، فقد انقسم المُجتمع الفرنجي في الشَّام إلى طبقتَيْن كبيرتَـيْن مُتمايـزتَيْن[2]، مـع وُجُـود طبقة صغيرة، لكنَّها كانت واضحة، وهي طبقة الفقـراء3، والتـي لم تكـن تهـتمّ ـ عـلى الأغلـب ـ إلَّا بتأمين قُوتها، وهي خليط من الطبقتَيْن التاليتَيْن:

1 ـ **الوافدون:** وهم القادمون الجدد، وغالباً؛ هُم مـن الحُجَّـاج المتـأجِّجين بالحماسـة الدِّينيَّـة، والراغبين في القتال، لكنْ؛ ـ في الغالب ـ تكون إقامتهم مُؤقَّتة.

2 ـ **البلديون:** أو البوليانز، وهم أبناء الجيل الثَّاني والثَّالث وما بعدهم، ممَّـنْ وُلـد عـلى أرض الشَّام، وتأثَّر بعادات أهلها، وتقاليدهم، وحضارتهم. وقد انتشرت فكرة خاطئة مفادهـا أن البوليـانز هُم أبناء زيجات مُختلطة بين الفرنج والسُّكَّان المحلِّيِّيْن من مـسيحيين ومُـسلمين، ولكـن ذلـك تنفيـه إشارات واضحة من مُؤرِّخي الحملات المُعاصرين لها، والتي تؤكِّد بأنَّ البوليانز تحدَّروا مـن صـليبيين أصليين، وهم جيل صليبي جديد، وأن تسمية البوليانز مشتقَّة من كلمة فرنسية تعني صـغير الحيـوان (pullus - Polain)[4].

لقد بلغ الخلاف بين البلديين والوافدين إلى درجة العداء الصريح، فبعد تتويج ملـك فرنجـي على مملكة القُدْس من الوافدين انتشرت أنشودة تقول:

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار من الموسوعة الشاملة، 1 / 11 ـ حـول الاسـتيطان الفرنجـي، راجـعْ: Prawer. Colonization activities in the Latin kingdom of Jerusalem, P.P.:1063 -1108.

2 - المصدر السَّابق، الصفحات نفسها.

3 - المصدر السَّابق، الصفحات نفسها، كانت تُسمَّى طبقة الفقراء: Tafurs. قارنْ بها كلمة: طفـر وطفـران باللّهجـة العامِّيَّة في بلاد الشَّام.

4 - راجعْ: دراسة مرغريت مُورغان لذيول وليم الصُّوري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 8/ 239.

"على الرّغم من البلديين
لدينا ملك من الوافدين
إن هذا البغض وهذا الحقد
سيجعلنا نفقد مملكة القُدْس"[1].

وقد أحسَّ العَرَب بهذا الانقسام في مُجتمع الفرنجة، فكانوا يُسمُّون الوافدين: الغربا[2]، وأحياناً؛ البَحْريين[3]، نظراً لقُدُومهم من البحر. ولكن العَرَب المُسلمين لم يستفيدوا مُطلقاً من هذا الانقسام، فلا شيء كان يُوحِّد البلديين والوافدين مثل عداوتهم للمُسلمين.

كذلك كان البلديون يشعرون بحاجتهم الماسَّة لقُوَّة الوافدين لاستمرار الحَرْب المُقدَّسَة، فالوافدون هُم وقودها، وهذا ما ساعد على استمرار الحياة المُشتركة بينهما، وحال دُون حُدُوث انعزال إمارات الفرنج عن أُورُبا نهائيّاً، فكُلّما أحدق الخطر بالإمارات الفرنجيَّة زادت التصاقاً بأُورُبا، ويقيناً بأهمِّيَّة الوافدين.

لذلك؛ عندما تكوَّن مُجتمع فرنجي جديد يضمُّ الأجيال التي وُلدت في سُورية لم ينفصل عن أُورُبا، ولم يندمج في الشَّرْق الإسلامي، بل كانت استمرَّت الهُوَّة الواسعة بالفصل بينهما؛ بحيثُ لا يُمكن لأحد أن يربط بين طرفَيْها[4]. ورُبَّما كان من مُكرِّسات هذا الانفصال بقاء الفرنجة في سُورية طبقة حاكمة، وبقاء مُعظم السُّكّان السوريين مسيحيين ومُسلمين الخاضعين لحُكم الفرنجة مُتمتِّعين بكلِّ مُقوِّمات وُجُودهم من حيثُ اللُّغة، والدِّين، والعادات، وكانت مسألة تبعيَّتهم إلى الفرنجة مسألة الوقت الذي يحتفظ فيه الفرنجة بقُوَّتهم، وبكُلِّ بساطة؛ كانت تعود المياه إلى مجاريها بالنِّسبَة للسُّكّان عندما يُهزَم الفرنجة، وتنسحب قُوّاتهم.

1 - ذيل وليم الصُّوري، مخطوطة ليون/ 828 (1184 ـ 1197)، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 8/ 300.
2 - راجعْ: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 140.
3 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 15/ 222.
4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 88.

أمّا عن استشراق الفرنجة البلديين؛ فهُو أمر طبيعي جدّاً، تفرضه طبيعة الحياة في الشَّرْق، فقد استخدموا الأطبّاء والطبّاخين والخَدَم والحرفيين من أهل البلاد، كما لبسوا الثياب الفضفاضة المحلِّيَّة في بُيُوتهم، وزيَّنوا قُصُورهم بالفسيفساء والزُّجاج المُلوَّن، وصدحت فيها الأطيار، وتخلَّلتها النوافير، واستخدموا الصابون للنظافة، والسُّكَّر للتحلية، واستساغوا الأطباق الشَّرْقيَّة[1]، وأتقن قسم منهم ـ وفيهم بعض الأُمراء ـ اللُّغةَ العَرَبيَّة، فكانوا يُترجمون بين الوافدين والمُسلمين[2].

ونُلاحظ أن العديد من الصداقات قد عُقدت بين رجال من الفرنج البلديين وبين المُسلمين، ورُبَّما من أشهرها ما تحدَّث عنه أُسامة بن مُنقذ من صداقات له مع أُمراء وفُرسان من الفرنج[3].

ولكن كل ذلك ما كان ليجعل الفرنج البلديين سوريين، أو يُبعدهم عن أُورُوبيَّتهم، وما كان استشراق البلديين وصداقاتهم مع أندادهم من المُسلمين إلّا حوادث فردية وقضايا سطحية[4]، فلا الفرنج امتلكوا الجرأة لينعتقوا من رُوحهم الصَّليبيَّة نهائيّاً، ولا المُسلمين قبلوهم كأمر واقع، أو مُحتمل وُجُوده، بل رفضوهم على الدوام، ولم يعترفوا بوُجُودهم في أيّ حال من الأحوال، وخير مثال هُنا على عدم قبول المُسلمين للفرنجة ـ رغم اضطرارهم للخُضُوع لهم بالقُوَّة أحياناً ـ هُو موقف قاضي مدينة جبلة منصُور بن نبيل الذي كان مُقرَّباً لبوهيموند أمير أنطاكية، ومحلّ ثقته، ومع ذلك؛ فما إنْ لاحت قُوّات صلاح الدِّين على مقربة من مدينته، حتَّى خرج إليه، وساعده على تحريرها، ويقول ابن الأثير مُعلِّلاً موقفه: "فَحَمَلَتْهُ الغَيْرَةُ للدِّين على قَصْد السُّلطان"[5].

ومع كلّ الاتِّفاقيات والهُدنات والمُفاوضات والتبادل التِّجاري، فقد ظلَّت النظرة الإسلاميَّة للفرنج على أنَّهم غرباء، احتلّوا بلاد المُسلمين، ويجب طردهم، وبالرغم من فترات الضعف التي مرَّ بها المُسلمون، إلّا أنَّهم ـ في النتيجة ـ حصدوا ثمار رفضهم، وعدم قبولهم للأمر الواقع، وطردوا الفرنجة نهائيّاً من الأرض العَرَبيَّة.

1 - Monro, The Kingdom of Crusaders p.p.: 105-120.
2 - ابن شدَّاد، النَّوادر السُّلطانيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 15/ 222+ 198.
3 - أُسامة بن مُنقذ، كتاب الاعتبار، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 12/ 246+240+192.
4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 85.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 7.

السُّكَّان المحلِّيُّون تحت سُلطة الفرنجة:

يُعتَقَد - حتَّى الآن - بأنَّ الغالبية العُظْمَى من السُّكَّان في الإمارات أو الممالك الفرنجيَّة التي تأسَّست في سُورية، كانوا من العَرَب المسيحيين، أو من المُسلمين، فالفرنجة كانوا - بغالبيَّتهم - فُرساناً ومُقاتلين شكَّلوا طبقة حاكمة إقطاعية، كان وُجُود الفلاحين المحلِّيِّيْن ضروريّاً لوُجُودها. وحتَّى في حال توفُّر أعداد من السُّكَّان الفرنجة، كما في حالة المُدُن، فوُجُود السُّكَّان المحلِّيِّيْن ليقوموا بالأعمال اليومية ضروري، لأن الفرنجة كانوا - غالباً - مشغولين في الحُرُوب التي تقتضي منهم حشد كلّ طاقاتهم البشرية المُقاتلة. كلّ ذلك دفع الحُكَّام الفرنجة لترك حيِّز واسع من حُرِّيَّة العمل، وربَّما الإدارة الذاتية، فضلاً عن قيامهم بشعائرهم الدِّينيَّة، ومُمارسة عاداتهم وتقاليدهم بكلّ تسامح. إن هذا التسامح الفرنجي، والجهد الواضح من قبلهم لإقامة علاقات حسنة مع السُّكَّان المحلِّيِّيْن، ما كان - أبداً - بدوافع إنسانيَّة محضة، بل كان - واضحاً تماماً - أنَّه من أجل تنشيط الحَرَكَة الاقتصاديَّة في إماراتهم، وبالتَّالي؛ زيادة مواردهم المالية[1]. لكنْ؛ مع كلّ ذلك ظلَّ السُّكَّان المحلِّيُّون - مُسلمون ومسيحيُّون - ينظرون إلى الفرنجة كغُرباء، وقد أظهرت الأحداث أنَّهم - دائماً - كانوا ينتظرون ميلان كفَّة المُسلمين؛ ليتحرَّكوا معهم. وصحيح أن السُّكَّان المحلِّيِّيْن كانوا عُنصراً اقتصاديّاً مُؤثِّراً في دعمه لآلة الحَرْب الفرنجيَّة، لكنْ؛ عندما كان يتمكَّن قائد مُسلم من إحسان الاستفادة منهم، فإنَّهم كانوا يُشكِّلون خطراً مُميتاً على الفرنج، ولذلك قال عنهم وليم الصُّوري: "ما من عدوٍّ أسوأ من العدوِّ المُقيم بين ظهرانيك"[2].

1- Couiton. Medieval Panorama. P: 322 وراجع ما كتبه ابن جُبَيْر الذي زار أراضي الفرنجة ومُدُنهم عام 1184م، الرحلة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 58.

2 - العبارة اللاتينيَّة هي:

"nulla enim pestis efficacior ad nucen dum quam fam liaris inimicas"

(A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p.109)

المُسلمون تحت حُكْم الفرنجة:

لم يُحاول الفرنجة - بشكل جدِّيٍّ - تحويل المُسلمين عن دينهم، مع أنَّهم قد أغلقوا مُعظم المساجد الإسلاميَّة[1]، وظلّت اللُّغة العَرَبيَّة مُتداولة في كُلِّ المناطق الفرنجيَّة، وحتَّى في المُدُن، ولم تترك اللُّغات الأُورُبيَّة - اللاتينيَّة، أو الفرنسيَّة، أو غيرها - أيَّ أثر في السُّكَّان المحلِّيِّيْن، كما أن الموارنة - الذين كانوا أقرب السُّكَّان إلى اللاتين - فقد ظلُّوا يتكلَّمون العَرَبيَّة.

ويبدو أن اللُّغات كانت مُتعدِّدة في مناطق السيادة الفرنجيَّة، ولم تتفوَّق إحداها على الأُخرى، حتَّى إنَّنا نسمع أن الفرنجي كان يحتاج إلى ترجمان في طرابلس[2]، وكان كتاب ديوان التجارة في عكَّا "يكتبون بالعَرَبيَّة، ويتكلَّمون بها"[3].

وبشكل عامٍّ؛ نستطيع أن نقول إن السُّكَّان المحلِّيِّيْن لم يذوبوا في المُجتمع الفرنجي، وبالوقت نفسه، لم يكن لهم أيّ تأثير في الحياة العامَّة للممالك الفرنجيَّة، ولا في العلاقات بين الممالك الأيُّوبيَّة والإمارات الفرنجيَّة[4].

الفلاحون المُسلمون:

يصف ابن جُبَيْر في رحلته - التي اجتاز فيها بلاد الشَّام من دمشق إلى عكَّا - حال الفلاحين المُسلمين تحت حُكْم الإقطاعيين الفرنجة، يقول: "رحلنا من تبنين وطريقنا كلّه ضياع مُتَّصلة، وعمائر مُنتظمة، سُكَّانها كُلُّها مُسلمون، وهُم مع الإفرنج على حال ترفيه . . . وذلك أنَّهم يُؤدُّون لهم نصف الغلَّة عند أوان ضمِّها، وجزية عن كُلِّ رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يُؤدُّونها، ومساكنهم بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، وكلّ ما بأيدي الفرنج من المُدُن بساحل الشَّام على هذه السبيل، رساتيقهم كلّها للمُسلمين، وهي القرى والضياع. . . . ونزلنا ضيعة من ضياع عكَّة على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من

---

1 - كان الفرنجة يُسمّون المسجد: ماهومري، نسبة إلى النبي مُحمَّد (ص)، وحوَّلوا الكثير من المساجد في المناطق التي احتلُّوها إلى كنائس، ولكنْ؛ فيما بعد، أُعيد افتتاح بعضها، أو على الأقلِّ، مسجد في كُلِّ مدينة كبيرة لصلاة الجالية الإسلاميَّة التِّجاريَّة، وبعض السُّكَّان المحلِّيِّيْن من المُسلمين.

2 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 216.

3 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.

4 - يصف ابن جُبَيْر علاقة المُسلمين المحلِّيِّيْن بالفرنجة في منطقتي عكَّا وصور فقط.

المُسلمين مُقدَّم من جهة الإفرنج على مَنْ فيها من عُمَّالها مـن المُسلمين، فأضـاف جميـع أهـل القافلـة ضيافة مُقبلة"[1].

ونستنتج ممَّا ذكره ابن جُبَيْر:

1 ـ أن الفرنجة حرصوا على عمارة الأرض واستثمارها، يقول: "طريقنا كُلُّـه ضيـاع مُتَّـصلة، وعمائر مُنتظمة".

2 ـ أن كُلّ الفلاحين في أراضي الفـرنج مـن المُسلمين، ورُبَّـما هُـم فلاَّحـو الأرض القُـدماء، وجدهم الفرنج فيها، فاحتفظوا بهم، يقول: "رساتيقهم كُلُّها للمُسلمين، وهي القُرى والضياع".

3 ـ حرص الفرنج على استقرار الفلاحين في الأرض، والاعتناء بهم، "وهُم مع الأفرنج عـلى حال ترفيه".

4 ـ لم يفرض الفرنجُ ضرائبَ باهظةً، بل كانـت ضرائـبهم مُعتدلـة، يـتمكَّن الفلاحـون مـن تأديتها بسُهُولة ويُسر.

5 ـ لم يتدخَّل الفـرنجُ بالـشُّؤُون الدّاخليَّـة للرعايـا المُسلمين، "مـساكنهم بأيـديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم".

6 ـ وضع الفرنج لكُلّ قرية مسؤولاً من أهلها، "الناظر فيها مـن المُسلمين مُقـدَّم مـن جهـة الإفرنج". ويبدو أن أحوال هؤلاء الرُّؤساء كانت جيِّدة جدًّا، ولهم حُرِّيَّة واسـعة في التـصرُّف، فقـد استضاف مسؤول قرية صغيرة قريبة من عكّا قافلةً إسلاميةً، دُون أن يتحرَّج من السُّلطات الفرنجيَّة، وكان غنياً لدرجة أنَّه تمكَّن من القيام بواجب الضيافة نحوهم جميعـاً، "فأضـاف جميـع أهـل القافلـة ضيافة مُقبلة، وأحضرهم صغيراً وكبيراً".

1 ـ الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 61.

ولكنْ؛ لنا أيضاً مُلاحظات على ما ذكره ابن جُبَيْر، منها:

1 ـ هل كان كُلُّ المُسلمين يلقون المُعاملة نفسها في كُلّ ممالـك الفـرنج؟! يبـدو أن هـذا الأمـر مشكوك فيه[1].

2 ـ هل ذكر ابن جُبَيْر ما ذكره عن حال الفلاحين المُسلمين لدى الفرنج لتمجيـد الفـرنج؟ أم لغرض آخر؟ أم لمُجرَّد الذِّكْر؟

في الحقيقة؛ لا يُمكن الجزم بأيِّ جواب، لكنْ؛ بالتَّأكيد، لم يكن ابن جُبَيْر يقصد مـدح مُعاملـة الفرنج، وليس هُو من السذاجة؛ بحيثُ يُؤكِّد على تلك المعلومات لمُجرَّد ذكْر حَدَث سيخدم الفرنج، بشكل، أو بآخر، وهُو التّقيّ المُؤمن الداعي للجهاد ضدَّ الفرنج، المُحرِّم للتعامل معه[2].

وعلى الأغلب؛ كانت معلومات ابن جُبَـيْر صـحيحة في مكانهـا، لكنَّـه ذَكَرَهَـا لتنبيـه حُكَّـام المُسلمين لحُسن مُعاملة الفلاحين، وعدم فرض الضرائب الباهظة، وليُنَبِّه لفوائد ذلـك عـلى الدولـة، وعلى السُّكَّان. لذلك؛ يذكر ابن جُبَيْر أن مُعظم الفلاحين المُـسلمين في بـلاد الفرنجـة قـد اسـتهواهم عَدْلُ الفرنج، يقول: "وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يُبصرون عليه إخوانهم من أهل رسـاتيق المُسلمين، وعُمَّالهم، لأنَّهم على ضدَّ أحوالهم من الترفيـه والرفـق، وهـذه مـن الفجـائع الطارئـة عـلى المُسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي من جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدّه وعدوِّه المالك لـه من الإفرنج، ويأنس بعدله"[3].

المسيحيُّون المحلِّيُّون في إمارات الفرنجة:

لم يتمكَّن الفرنجة من احتواء نصارى المنطقة من عرب وسريان وأرمـن وغـيرهم، فقـد كـان الفرنجة يعدُّون أنفسهم، كما قـال ولـيم الـصُّوري: رعايـا المسيح، ويعـدُّون الأُمـم الأُخـرى أبنـاء الضلال[4]، وهذا الضلال ينسحب ـ أيضاً ـ على المسيحيين الشرقيين في سُورية، الذين احتكّوا بكثـرة

1 ـ الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 216.
2 ـ الرحلة، ابن جُبَيْر، 280.
3 ـ الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 61.
4 ـ نقلاً عن وليم الصُّوري (الحُرُوب الصَّليبيَّة – روايات شهود عيان، د. سُهيل زَكّار 401).

بالفرنجة، من خلال تواجدهم في مُعظم مناطق السيطرة الفرنجيَّة، وفي مناطق القتال بينهم وبين المُسلمين.

لكنْ؛ بشكل عامٍّ، كان دور المسيحيين الشرقيين في الحُرُوب مع الفرنجة هامشياً ضعيفاً، وذلك لوُجُود فواصل مُهمَّة بينهم وبين الفرنجة، الذين نظروا إليهم ـ في أحسن الأحوال ـ على أنَّهم مسيحيين هراطقة مُستعربين، ولم يعدُّوهم بأفضل من المُسلمين، فإذا قدروا على قَتْلهم كان به، وإلَّا فَسَلْبُ كنائسهم وأراضيهم لا بأس به[1].

وقد نظر الفرنجة إلى مسيحيِّي الشَّرْق نظرة دونية، وعدُّوهم شعباً غير مُحبٍّ للقتال[2]، ووصف وليم الصُّوري السريان بقوله: "هُو شعب نعتبره ضعيفاً، ومُخنَّثاً"[3]، مع العلم أن وليم ليس من الوافدين، فقد وُلد في سُورية، ومع ذلك؛ بقيت لديه نزعة التفوُّق كفرنجي. لكنْ؛ من كلِّ ذلك يجب أن نستثني حالة المسيحيين الأرمن والمسيحيين الموارنة، والتي عالجنا كلاً منها على حدة في هذا الكتاب.

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 97.
2 - A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, P. 109 وفنُّ الحَرْب، سميل، 97.
3 - تاريخ الأعمال المُنجَزة فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 7/ 459.

المبحث الخامس:

العلاقات بين السُّكَّان عبر الحُدُود

العلاقات التِّجاريَّة:

قال ابن جُبَيْر في رحلته: "ومن أغرب ما يحدث في الدُّنيا، أن قوافل المُسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المُسلمين"[1]، وهذا دليل واضح على تقديم المنفعة الناتجة عن التبادل التِّجاري على الخلافات السِّياسيَّة والعسكريَّة؛ حيثُ يبدو أن المُسلمين والفرنج قد توصَّلوا إلى اتِّفاقيات كان الالتزام بتطبيقها أقوى من الالتزام السِّياسي، أو العسكري، وهذا دليل على ترسُّخ قيَم للتعامل القائم على المنفعة المُتبادلة لم يَعْتَد عليها ذلك العصر، بدليل استغراب ابن جُبَيْر لما يحصل، ونسب ذلك إلى "الاعتدال في السياسة"[2].

لقد كان حجم التبادل التِّجاري كبيراً جدَّاً، في مقاييس ذلك الزَّمان، بين الإمارات الفرنجيَّة ومملكة القُدْس، التي كانت تُشكِّل الواجهة البَحْريَّة، وتضمُّ الموانئ التِّجاريَّة لبلاد الشَّام، وبين بلاد المُسلمين، التي تُشكِّل العمق الاقتصادي، والمنفذ المفتوح باتِّجاه بلاد الشَّرْق الأقصى، ودليلنا على ذلك هُو تدفُّق الدراهم الفرنجيَّة الكبير على دمشق، يقول أبو شامة في أحداث عام 658 هـ 1260م: "وابتلى الناس في هذه السنة بغلاء شديد، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليَافيَّة، وكانت كثيرة الغشِّ، وكثرت في البلد كثرة عظيمة"[3].

وبالتَّأكيد؛ فإن كثرة الدراهم اليافية جاءت ثمن بضائع بيعت للفرنج. كما يُشير إلى ذلك كون كُتَّاب ميناء عكَّا من الفرنج النصارى "يكتبون العَرَبيَّة، ويتكلَّمون بها"[4].

وكان الفرنج يتساهلون في فرض الضرائب على التجارة الداخلة إلى أراضيهم، فهي عماد حياتهم الاقتصاديَّة، فالضريبة كانت ديناراً صوريَّاً وقيراطاً على كل شخص يعبر الحُدُود إلى مناطق

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 58.
2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 59.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20 / 179.
4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 275.

سيطرة الفرنجة، وهُو مبلغ معقول جدّاً بالنِّسبَة لرُسُوم ذلك الزّمان، كما يقول ابن جُبَيْر[1]. كذلك يُؤكِّد ابن جُبَيْر على حسن المُعاملة، فكان للتُّجّار في مناطق السيطرة الفرنجيّة حُرِّيّة التّصرُّف والتنقُّل والإقامة؛ حيثُ أحبّوا، فيقول: "طلب رحل مَنْ لا سلعة لـه، لـئلا يحتـوي عـلى سـلعة مخبـوءة فيـه، وأطلق سراحه، فنزل حيثُ شاء، وكلّ ذلك برفق وتؤدة، دُون تعنيف، ولا حمل"[2].

علماً أنّنا لا نعتقد بأنّ البابوات كانوا يستثنون إمارات الفرنجة في الشّرق من تحريماتهم المشدّدة للتجارة مع المُسلمين[3]، ولكنْ؛ حتّى بين أُورُوبا نفسها وبين المَمالك الأيُّوبيّـة كانـت التجـارة تـسير بدُون عوائق، فواردات سُورية عبر الإمارات اللاتينيّة كانت لا تنقطع عن أُورُوبا[4].

كذلك لم تتوقّف عن التـدفُّق إلى أُورُوبـا مُنتجـات مـصر مـن الكتّـان والـسُّكّر والحريـر[5]، والبهارات من الشّرق الأقصى عبر مصر[6]، وبالطريقة نفسها؛ كانـت واردات أُورُوبـا تتـدفّق عـلى مصر وسُورية[7].

المناصفات:

كانت كثير من المناطق في أراض فلسطين تُسمّى المناصفات، أو المثالثات، وهي مناطق مُتنازَع عليها بين المُسلمين والفرنج، ولم يستطع أيٌّ منهم السيطرة العـسكريّة عليهـا بـشكل نهـائي، وحتّـى يستفيد الطرفان، اتّفقا على السماح بعمارة الأرض، واقتسام منتوجاتهـا، مُناصـفة، أو مُثالثـة، وكانـت مدينة صيدا وما حولها من أكبر المُناصفات بين المُسلمين والفـرنج، وقـد اجتـاز ابـن جُبَـيْر في رحلـه بطرف إحدى هذه المُناصفات، وهي أراضي بانياس، فيقول: "وعمالـة تلـك البطحـاء بـين الإفـرنج وبين المُسلمين، لهم في ذلك حَدٌّ يُعرَف بحَدِّ المُقاسمة، فهم يتشاطرون الغلّة على اسـتواء، ومواشـيهم

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 60.
2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 62.
3 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو ـ تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُـهيل زَكّـار 38 / 17 – 76– 79 – 81، وجولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار40 / 359.
4 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 38 / 71 – 145.
5 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 38 / 69.
6 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 38 / 68.
7 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 38 / 71.

مُختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"[1]. ويقول وليم الصُّوري: "إن عـادة اقتـسام الـسُّلطة بـشكل مُتماثل بين المسيحيين والكَفَرَة قد سادت لسنوات كثيرة، وكانت مـاتزال تُطبَّـق في هـذا الوقـت، كـما قُسمت الضرائب والجزية بشكل مُتماثل بينهما أيضاً"[2].

إن هذه المُناصفات والمُثالثات تُشكِّل دليلاً على حسٍّ عال بالواقعية لدى الفريقَيْن، فلولا هكذا اتّفاق لبقيت مساحات واسعة من الأراضي مُعطَّلة عن الإنتاج، وتشرَّد فلاحوها، وتبعثروا؛ ليُشكِّلوا عبئاً على هذا الفريق، أو ذاك. ولذا؛ نجد أن منطقاً خاصّـاً في بعـض الأصـعدة كـان يـسود مُجريـات الأحداث، فبالرغم من الحُرُوب التي لم تنقطع لـسنوات، ومـا رافقهـا مـن إغـارات، وكَـرٍّ، وفَـرٍّ، وتحرُّكات عسكريّة كُبْرَى وصـغرى، فقـد اسـتمرّ الفلاحـون في زراعـة الأرض، ودفـع الـضرائب، كما كانوا يفعلون دائماً؛ فالحُرُوب هُنا، مع تعدُّدها، لم يُسجّل أنّها سبَّبت مجاعة، وبشكل عامٍّ؛ لم يرافقها عمليات نهب كُبْرَى كالتي ترافق مُعظم الحُرُوب.

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 60.
2 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 7/ 458.

القسم الثّاني

مراكز القوى الدّاخليّة
ودورها في العلاقات الخارجيّة

الفصل الأوَّل

دور أرباب السيف
ورجال الإدارة في العلاقات الدّوليّة

المبحث الأوَّل:
طوائف العَسْكَر

كان كلّ الأُمراء وقادة الجُند في حياة مُؤسِّس الدولة الأيُّوبيَّة السُّلطان صلاح الدِّين، بمَنْ فيهم أفراد عائلة السُّلطان، مُجرَّد أعوان، مع أن بعضهم لم يُخفِ نواياه في التطلُّع إلى السُّلطة العليا في الدولة، أو الاستقلال بما تحت يده من البلاد.

لكنَّ وُجُود شخصية القائد الذي التفَّ الجميع تحت لوائه منعت أصحاب المطامع من تحقيق آمالهم. وكان من الطبيعي أن يختلف الأمر بعد موت صلاح الدِّين؛ حيثُ ظهرت طموحات كثير من الشَّخصيَّات العسكريَّة، الذين كانوا قادة في الجيش، أو نُوَّاباً في بعض الإقطاعات، أو كانوا زعماء لبعض طوائف الجُند، أو المجموعات القَبَلية، وخاصَّة من الأكراد، الذين اعتبروا أن دولة صلاح الدِّين هي دولتهم. ولغياب شخصية السُّلطان القويَّة، التي كانت تُسيطر على كلّ ما حولها، بدأت -بعد موته- تتشكَّل مراكز قوى حول هؤلاء الأُمراء، حيناً ضمن بوتقة العشائرية، وحيناً آخر من خلال الولاء لشخص، مثل طوائف المماليك الأَسَديَّة والنَّاصريَّة. ولكن هؤلاء الأُمراء عملوا مُنفردين في كثير من الأحيان، ثقة بنفسهم، وبماضيهم العسكري والسِّياسي مع السُّلطان صلاح الدِّين، الشيء الذي يُعطيهم -وُفقاً لرأيهم- الحقّ في اقتسام التركة الصَّلاحيَّة. فأخذوا يتجمَّعون حول أولاده أوَّلاً، وفيما بعد؛ ضدهم مع عمِّهم العادل، ثُمَّ ظهر منهم مَنْ عمل لنفسه بشكل مُباشر. ممَّا يجعلنا نعتقد أن نظام الإدارة في الدولة الأيُّوبيَّة كان يمنح قدراً كبيراً من الحُرِّيَّة للأمراء في إقطاعاتهم، وولاياتهم، مع اشتراط الولاء للسُّلطان. لكنْ؛ بعد تجزئة الدولة بوفاة السُّلطان صلاح الدِّين ترسَّخ الاستقلال الإداري للحُكَّام، وأصبح الولاء لسُلطان البيت نسبياً ورمزياً، ورُبَّما توقَّف

عند حُدُود الخطبة والسّكّة، وكانت أحسن حالات الولاء للسُّلطان تُترجَم بدعمه بفرقة من العَسْكَر عند الحاجة.

عندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين كان أُمراء دولته في دمشق، من خارج العائلة، قد التقوا لُمبايعة وَصيِّه وابنه الأكبر الملك الأفضل، ومنهم:

حُسام الدِّين بشارة، مُقدَّم الجميع. وبدر الدِّين مودود، شحنة دمشق، وأخيه سعد الدِّين. وناصر الدِّين منكورس بن خمارتكين، أمير صهيون وبرزية. وسابق الدِّين عُثمان بن الداية، أمير شيزر وأبو قبيس. وعزّ الدِّين إبراهيم بن شمس الدِّين بن المُقدَّم، أمير بغراس وكفر طاب وفامية. وبدر الدِّين دلدرم بن بهاء الدِّين ياروق. وكلّ من: خشترين بن حسين الهكاري، أنوشروان الزرزاري، ميمون القصري، عزّ الدِّين أُسامة الجبلي، شمس الدِّين سنقر الكبير، سنقر المشطوب، آيبك الأفطس، علكان، وملكان، وكلّ هؤلاء كانوا لا خُبز لهم[1]، ممَّا يعني أنَّهم بدُون إمارات أو مناطق يحكمونها لحساب دولة السُّلطان صلاح الدِّين.

انقسمت دولة صلاح الدِّين بعد وفاته سياسياً وعسكريَّاً بين ثلاثة من أبنائه؛ سمَّاهم هُو قبل موته، وتوقَّع أنَّهم الأفضل للحفاظ عليها، وألحق بقيَّة إخوتهم بهم كأمراء صغار. فكان الأفضل في دمشق، والعزيز في مصر، والظاهر في حلب. ورافق انقسام الدولة انقسام ولاء أُمراء الجيش وقُوَّاده، فظهرت ـ على الفور ـ طوائف كانت معروفة أثناء حياة السُّلطان، لكنَّها كانت جُزءاً من هيكلية دولته، دُون أن يكون لها مواقف مُنفردة. وكان المسوّغ الشرعي لسُلطة هذه الطوائف هُو الجهاد، أمّا المسوغ القانوني؛ فهُو تكليف السُّلطان. ومن أهمّ هذه الطوائف، طائفتا الأَسَديَّة والصلاحية:

آ . الأَسَديَّة: هُم مماليك أسد الدِّين شيركوه، وحواشيه الأكراد[2]، ويُمكن أن نُضيف لهم بعض المُتحالفين معهم، والمُنضمِّين إليهم، وقد كان مع أسد الدِّين شيركوه ثمانية آلاف مُقاتل لدى استقراره بمصر، خمسمائة منهم يُشكِّلون فرقة الأَسَديَّة[3]، وهؤلاء الخمسمائة هُم من مماليك أسد

1 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 248، ومُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أيُّوب،311، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 197.
2 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.

الدِّين، ومن مُتطوِّعة الأكراد، وكانوا قوام الفرقة المطلوبة منه مُقابل إقطاع حمص في دولة السُّلطان نُور الدِّين محمود[1]. وبعد وفاة أسد الدِّين الكبير تبرز مُلاحظتان على الفرقة الأَسَديَّة:

1 ـ لم ينتقل ولاء الأَسَديَّة كما هُو مفروض إلى أولاد أسد الدِّين، وخاصَّة أنَّه كان منهم أمير كبير مُتشوِّف للسَّلطنة هُو الملك القاهر مُحمَّد بن أسد الدِّين شيركوه، فلم يلتفت إليه الأَسَديَّة، ويبدو أن القاهر ـ بالمُقابل ـ لم يتوجَّه نحوهم بأيِّ بادرة لاستقطابهم، ممَّا يدلُّ على أن ولاءهم بالكامل انتقل إلى صلاح الدِّين، كما انتقلت إليه خلافة أسد الدِّين في مناصب مصر، ورُبَّما لأن الأَسَديَّة هُم مَن اختار صلاح الدِّين، ودعمه في حُكْم مصر.

2 ـ بسبب شخصية السُّلطان صلاح الدِّين، أو رُبَّما بسبب ظُرُوف الحَرْب الطويلة التي عاشها خلال حياته السِّياسيَّة كلّها، لم تظهر الأَسَديَّة كقُوَّة مُنفصلة، أو ذات شأن في تقرير أيِّ من أُمُور الدولة الصَّلاحيَّة، مع أنَّهم كان من المُمكن أن يُشكِّلوا قُوَّة لا يُستهان بها بحال تجمُّعهم في بدايات حُكْم السُّلطان صلاح الدِّين، بل إنَّنا نستطيع القول إنَّهم القُوَّة الكُبْرَى التي قامت عليها دولته، فهم الأُمراء والقادة، قبل أن يُنشئ صلاح الدِّين مماليكه الصَّلاحيَّة ورجال دولته الخاصِّين به. ولكنْ؛ لُمجرَّد غياب شخصية السُّلطان المتميِّزة الآسرة، ظهرت الأَسَديَّة تُحاول أن تحقِّق مكانة مُتميِّزة في الدولة، من خلال اللعب على حبال الخلافات بين كبار الوَرَثَة أبناء صلاح الدِّين وعمّهم العادل.

وكان من قوى الأَسَديَّة ورجالهم بعد وفاة صلاح الدِّين:

آ . المماليك الأَسَديَّة:

1 . **سيف الدِّين يازكوج:** وهُو مُقدَّم الأَسَديَّة، وكبيرهم[2]، كان يتولى منصب الحاجب بدمشق في دولة صلاح الدِّين[3].

2 . **أبو الهيجاء السمين**[4]**:** من كبار مُقدَّمي الأَسَديَّة، وكان صلاح الدِّين قد ولاَّه القُدْس بعد تحريرها، واستمرَّ بها حتَّى عَزَلَهُ الملك العزيز بن صلاح الدِّين صاحب مصر عام **589** هـ **1193**م.

1 - الشَّرْق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 155.
1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 88، والروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19 / 468.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
4 - راجعْ ما وَرَدَ عنه في بحث أُمراء العَسْكَر، من هذا الكتاب.

3. **عزّ الدِّين جرديك**: مُقدَّم الأَسَديَّة بعد أبو الهيجاء السمين[1].

4. **مرزوق الطشتدار**: وكان كما يظهر من اسمه يتولَّى منصب الطشتدار للسُّلطان صلاح الدِّين في دمشق، وقد حجَّ عام **607** هـ[2].

5. **أزكش**: وكان يختصُّ بأبي الهيجاء السمين.

ب. أُمراء الأكراد:

وهم بقايا ضُبَّاط جيش أسد الدِّين شيركوه الكبير، وغالباً؛ هُم من جُنُود الحلقة غير المماليك، وقد ظهر منهم: ابن كهدان، وفخر الدِّين البانياسي، ومثقال الجمدار، وبهرام التاجي[3].

ونُلاحظ أن الأَسَديَّة، في دولة صلاح الدِّين ودول أولاده وعمّهم، قد أصبحوا جيلاً قديماً من الأُمراء الكبار، وغالباً ما كانت شُهرتهم العسكريَّة السابقة هي سبب تمتُّعهم بالقُوَّة السِّياسيَّة، ورُبَّما بسبب خبراتهم الكبيرة المُكتَسَبَة، بينما ـ عددياً ـ هُم أقلّ بكثير من مُنافسيهم الصَّلاحيَّة، وذلك بسبب موتهم بالحُرُوب، وبعامل السِّنِّ. بينما امتازت الفرقة الصَّلاحيَّة بعديدها الأكبر، وبتحكُّم أكثر وأهمّ بمناصب الدولة التي حظاهم بها السُّلطان، وبكونهم شُبَّاناً أكثر من الأَسَديَّة، وبالتَّالي؛ امتلاكهم للقُوَّة، ولرُوح المُغامرة.

ب. الصَّلاحيَّة: وهم مماليك صلاح الدِّين، وأُمراء دولته، وقد أخذ صلاح الدِّين بتشكيل فرقة خاصَّة به مُنْذُ أن حكم مصر، وكان قوامها ـ في البداية ـ ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس[4]، ومنهم:

1. **فخر الدِّين جهاركس**، مُقدَّم الطائفة الصَّلاحيَّة، وكبيرهم[5]. كان أحد حُجَّاب دمشق في حياة السُّلطان صلاح الدِّين[6]، تُوفِّي عام **607** هـ **1210**م[7]، أو **608** هـ **1211**م في دمشق،

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 87، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 149.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 9.
4 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 711 ـ208.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 5. وغالباً ما كانت وظيفة حاجب تعني أحد قادة الحامية بدمشق.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

ودُفن في سفح جبل قاسيون، ويُقال له: جهاركس، أو إياز جركس، وكان يتولَّى بانياس والشقيف وهونين للعادل[1].

2. **فارس الدِّين ميمون القصري**: " منسوب إلى قصر الخُلفاء بمصر، أخذه صلاح الدِّين من هُناك"[2]، وكان يتولَّى نابلس[3]، وكان الملك الظَّاهر بن صلاح الدِّين يُعظِّمه، ويحترمه أكثر من بقيَّة الصَّلاحيَّة، لذلك نقموا على الظَّاهر بسببه[4]. عاش ميمون بقيَّة حياته في بلاط الظَّاهر بحلب، وهُو آخر مَنْ بقي من كبار الصَّلاحيَّة؛ إذْ تُوفِّي عام **610** هـ **1213**م بحلب[5]، وخلَّف أموالاً كثيرة[6].

3. **فخر الدِّين ألطنبا الجحَّاف**[7]: كان من كبار الصَّلاحيَّة المُؤيِّدين للأفضل بن صلاح الدِّين ضدَّ عمِّه العادل[8]، ولكنَّه كان يشكُّ بنوايا الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين، فعمل له دعوة، ولمَّا شرب علم من فلتات لسانه سُوء نيَّته تجاهه، فهرب الجحَّاف من مُعسكر الأفضل والظاهر، وهم يُحاصرون دمشق، وانضمَّ إلى عمِّهما العادل[9].

4. **ألبكى الفارس**: قَبَض عليه الأفضل بمصر بعد هرب الصَّلاحيَّة منها، كان جريئاً، له مواقف تُذكَر، فقد واجه الظَّاهر غازي، واتَّهمه بالغدر علانية، وضرب أُسامة الصلاحي الذي خان طائفته، وانضمَّ للعادل[10].

5. **زين الدِّين قراجا**: من مُقدَّمي الصَّلاحيَّة، "كان أميراً أديباً خيِّراً عاقلاً[1]، تُوفِّي بدمشق عام **604** هـ **1207**م، ودُفن بسفح جبل قاسيون"[2].

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 159.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 115.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 88.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 18.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 115.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 220.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 41 ـ20، أصل الاسم تركي من مقطعَيْن، ألتون: الذهب، بغا: ثور. وقد ذكره ابن واصل باسم الجحاد. (مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 91).
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 14.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 20
10 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

6. **علاء الدِّين شقير:** وكان من الصَّلاحيَّة، الذين قبض عليهم الأفضل بعد هرب زملائهم من مصر[3].

7. **أسد الدِّين قرا سنقر**[4]: ويُقال له تحريفاً سرا سنقر، وكان من حُجَّاب دمشق في عهد صلاح الدِّين[5].

8. **مُبارز الدِّين سنقر:** وكان يُميَّز عن قرا سنقر بإضافة الحلبي إلى اسمه، أو بتسمية سنقر الكبير، وكان ـ أيضاً ـ من حُجَّاب دمشق في عهد صلاح الدِّين، وله ولد عُرف باسم الظهير بن سنقر، تُوفِّي سنقر الكبير الحلبي عام 620 هـ 1223م[6].

9. **طَغْريل المهراني:** وهُو ـ كما يدلُّ اسمه ـ من الأكراد المهرانية، وقد انسحب من جيش الأفضل خلال حصاره دمشق، والتحق بالعادل[7].

10. **آيبك فطيس:** وهُو من الصَّلاحيَّة، الذين قبض عليهم الأفضل بمصر.

11. **بهرام الرُّومي، وبهرام القارصي:** وهُما من الصَّلاحيَّة، الذين هربوا من عند الأفضل بمصر.

12. **عزّ الدِّين أُسامة الجبلي:** كان من حُجَّاب دمشق أيَّام صلاح الدِّين[8]، "ومن أجلاء الأُمراء الصَّلاحيَّة"[9]. بعد وفاة صلاح الدِّين، وتسلُّم ولده الأفضل حُكْم دمشق، فارقه عزّ الدِّين أُسامة إلى مصر، لأُمور نقمها عليه، فاستقبله الملك العزيز، وأكرمه، فأخذ أُسامة يُحرِّضه ضدَّ الأفضل[10]، وقرَّب الملك العزيز إليه عزّ الدِّين أُسامة حتَّى أصبح صاحب سرِّه وحاجبه والواسطة بينه وبين عمِّه العادل[11].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 121.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 91.
4 - اسم تركي من مقطعَيْن، قره: أسود، سنقر: صقر.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 258.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 9.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 39.
10 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 39.
11 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 55.

وبعد استتباب الأمر للعادل في الشَّام، كان أُسامة من جُملة أُمرائها، فسلَّمه العادل بيروت، فحصَّن قلعتها عام 593 هـ 1197م، وترك بها جماعة من الجُند[1]، فخافوا من الفرنج، وانهزموا، وبقيت القلعة خالية، فأخذها الفرنج، "فأخذ الناس يلعنون أُسامة لتفريطه فيها، قال عماد الدِّين الكاتب:

إن بيع الحُصُون من غير حرب ... سُنَّة سَنَّها ببيروت سامة[2]

وقال بعضهم والفرنج يُحاصرون حصن تبنين يُذكِّر بما فعله أُسامة:

سلِّم الحصن ما عليك ملامة ... ما يلام الذي يروم السلامة
فعطاء الحُصُون من غير حرب ... سُنَّة سَنَّها ببيروت سامة[3]

ولمَّا وصل الأفضل إلى حُكْم مصر، وهرب منها الصَّلاحيَّة، انضمَّ إليهم في القُدْس أُسامة، وكاتبوا العادل[4]. وفي عام 596 هـ 1700م، كان أُسامة أميراً للحجِّ الشَّامي بتكليف من الملك العادل. وفي عام 597 هـ 1701م، التقاه الملك الأفضل وهُو منفي في صرخد، فدعاه لمُوافقته، فوافق معه أُسامة، وحلف له، فعرفه الحال، والاتِّفاق بينه وبين جماعته من الصَّلاحيَّة، فكتب أُسامة مُباشرة إلى العادل، فأخذ حذره[5]. وبذلك ؛نجد أن أُسامة قد خرج على طائفة الصَّلاحيَّة التي ينتمي إليها، وخان قضيَّة رفاقه مع الأفضل، وانتقل إلى جانب العادل، ويبدو أن فراسته واستقراءه للأُمُور قد أوحيا له بأنَّ الفوز للعادل.

ولمَّا نَدَبَ العادلُ أُسامة لمُفاوضة الصَّلاحيَّة تصدَّى له ألبكى الفارس الصلاحي، وأغلظ له القول، وضربه[6]، وكادت الصَّلاحيَّة أن تفتك به، لولا أنَّه استجار بميمون القصري، وما ذلك

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 74، رُبَّما كانت ضرورة الشعر في هذا البيت التي حوَّلت اسم أُسامة إلى سامة هي التي جعلت كثير من المُؤرِّخين المُتأخِّرين يُطلقون عليه اسم: سامة.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 233.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 92.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

إلَّا حنقاً من الصَّلاحيَّة على خيانته لهم، وهُو منهم. وبعد استتباب الأمر للعادل في مصر والشَّام استقرَّ أُسامة في حُكْم قلعة كوكب، وبلدة عجلون[1] التي بنى فيها قلعة[2].

وكان من المفروض أن يكون أُسامة رجل دولة العادل الأوَّل، ولكنَّنا نجد أن سُوء التفاهم قد استفحل بين أُسامة وبين الملك المُعظَّم بن العادل والي دمشق، فترك أُسامة الشَّام عام **607** هـ **1210**م، وذهب إلى مصر لعند العادل "ليستريح من معاندة المُعظَّم له"[3]. وبدلاً من تكريمه وحمايته طلب منه العادل تسليم حصني كوكب وعجلون، فرفض أُسامة، ثُمَّ مالبث المُعظَّم أن وصل إلى مصر عام **608** هـ **1211**م، فخاف أُسامة، وهرب في البرِّيَّة نحو قلاعه في الشَّام، فتبعه المُعظَّم، وأمسكه، وسجنه في قلعة الكَرَك[4]، وتسلَّم المُعظَّمُ حُصُونَهُ، وخرَّب قلعة كوكب.

الصراع السِّياسي بين الأَسَديَّة والصلاحية:

كانت الطائفة الأَسَديَّة ومَنْ ينضمُّ إليهم من الأكراد يكرهون العادل، لكنْ؛ دعتهم الضرورة إليه[5]، فالصلاحية كانوا مُؤيِّدين للأفضل في صراعه مع عمِّه العادل. ففرضوا ـ بذلك ـ موقفاً على الأَسَديَّة لا يرغبون به، فمن المعروف أن "الفرقة الأَسَديَّة والأكراد كانوا مُحبِّين للملك الأفضل"[6]، ولكنْ؛ في الحقيقة، ونتيجة لاستقراء الأحداث، نجد أنَّهم ـ جميعاً ـ كانت محبَّتهم الأُولى وولاؤهم الأوَّل لأنفسهم، فقد كانوا يميلون حيثُ تميل المصالح والمكاسب، وكان تجمُّعهم ضمن طائفتَيْ الأَسَديَّة والصلاحية لتشكيل قوى كُبْرَى، أوَّلاً للتصدِّي للطائفة المُنافسة، ومن ثَمَّ؛ لإحداث تأثير أقوى، وتحقيق مكاسب أكثر.

فعزّ الدِّين أُسامة رأى أن مصالحه مضمونة أكثر مع العادل، فخرج عن الصَّلاحيَّة، وأيَّد العادل، بل إنَّنا نستطيع أن نقول إنَّه كان سبباً قوياً من أسباب تفوُّق العادل على أبناء أخيه. واشترط

1 - مُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أيُّوب، 311.
2 - تقع عجلون على جبل عوف، نسبة لقبيلة عوف من جرم من قضاعة (إمارة الكَرَك، يُوسُف غوانمة،184).
3 - المنصُوري ، ابن نظيف، 62.
4 - المنصُوري، ابن نظيف،76 ـ68 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 209.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 87.

جهاركس على الأفضل أربعين ألف دينار، قبض منها ثلاثين ألف، ولم يقبل قراجا بأقلَّ من أخذ صرخد من الأفضل ثمناً لتأييدهما له في حربه ضدَّ عمِّه عام **597** هـ **1201**م[1].

ولكنْ؛ من ناحية أُخرى، نجد أن الواقع السِّياسي المُمزَّق من جهة، وشخصيَّات أبناء صلاح الدِّين الذين لم يكن بينهم مَنْ يرقى لخلافة والده من جهة أُخرى، كان لهما دور مُهمّ في تصرُّفات الأَسَديَّة والصلاحية غير المُلتزمة، أو التي تتَّصف بعدم الوفاء. فقد كان الملك العزيز عُثمان بن صلاح الدِّين ضعيف الشخصية، حتَّى تمكَّن جهاركس مُقدَّم الصَّلاحيَّة من السيطرة عليه، فغدا الحاكم الفعلي للدولة، ممَّا أدَّى إلى نقمة الأَسَديَّة، الذين انفصلوا عن جيش العزيز أثناء تحرُّكه نحو الشَّام لأَخْذها من أخيه الأفضل، والتحقوا بدمشق.

وبعد موت العزيز صاحب مصر استدعت الأَسَديَّة الملك الأفضل لحُكْمها، فهرب الصَّلاحيَّة من مصر، وعادوا مع العادل إليها، على أن يكون أتابكاً للمنصُور بن العزيز، فقام الأَسَديَّة بالمُزاودة على الصَّلاحيَّة، وحسَّنوا للعادل عَزْلَ المنصُور، والاستقلال بالأمر تقرُّباً إليه، وإبعاداً للصلاحية، فخلعه العادل، وتسلطن، ولمَّا دعا ميمونُ القصري جماعتَهُ للوُقُوف ضدَّ العادل أجابوه: "إنَّنا قد افتُضحنا بين الناس بأنَّنا نُقيم في كُلّ يوم ملكاً، ونعزل ملكاً، ثُمَّ إلى مَنْ تُسلِّم الأمر؟ الأفضل ما فيه رجاء، وباقي إخوته غير الظَّاهر ليست لهم في النفس عظمة، والظاهر فما يُمكنه أن يُخلي بلاده، ويصير إلينا"[2].

وانتهى أمر الطائفة الصَّلاحيَّة، بموت مُقدَّميها الكبار قراجا وجهاركس وأُسامة، "وصفت حُصُونهم للملك العادل والمُعظَّم من بعده"[3].

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 16.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 117.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 209. وراجع: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 293.

المبحث الثّاني:

أُمراء العَسْكَر

ساهم عدد من قادة الجُند و أُمراء العَسْكَر - بشكل أو بآخر - في العلاقات الدّوليّة للسّلطنة الأيّوبيّة، وكان من أكثرهم تأثيراً:

1. أبو الهيجاء السمين:

كُنيته أبو الهيجاء[1]، ولقبه حُسام الدِّين، ولكنَّه اشتُهر بالسمين؛ " لأنَّه كان كثير السمن"[2]، فقد قيل إنَّ بطنه إذا ركب يصل إلى عُنق الفَرَس[3]. وينتسب أبو الهيجاء إلى قبيلة من الأكراد تُسمَّى المهرانية[4]، التي كانت مساكنها بالقُرب من بلدة إربل[5]، واستطاع أبو الهيجاء أن يكون مُقدَّم طائفة الأكراد بكاملها في الجيش الأيُّوبي[6]، وحليفاً قوياً لأُمراء الطائفة الأَسَديَّة[7]، ثُمَّ مُقدَّماً لها[8].

رافق أبو الهيجاء السُّلطانَ صلاح الدِّين في حُرُوبه مُنْذُ أن دخل الشَّام، وكان معه في الجزيرة عام **578** هـ **1191**م، عندما ضمَّ مُعظم مُدُنها وقلاعها إلى دولته. ولمَّا فتح صلاح الدِّين بلدة: حديثة نصيبين، ولَّى عليها أبو الهيجاء السمين، وتابع تقدُّمه نحو المَوصل، "ولمَّا عاد إليها لقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظُلمه، فأنكر عليه ظُلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه"[9]، وإنْ دلَّت هذه الحادثة على شيء فإنَّها تدلُّ على أن أبي الهيجاء شخصية عسكريَّة، يعرف بشُؤون القتال،

1 - ويجعلها الراوندي:" أبو الهيج"، وهُو تصحيف، ورُبَّما كان ذلك بفعل الترجمة، راجعْ: راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 141.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل،3/ 47، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2،5/ 605.ويقول ابن الأثير إنَّه من الأكراد الحكمية، راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 605 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل ، 3/ 47.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
9 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 488، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 124.

ولا علاقة له بأُمُور الحُكْم وسياسة الرعية، ويبدو أنَّه تصرَّف مع أهل حديثة نصيبين كأنَّهم مجموعة من الجُند بإمرته، ممَّا دفعهم للتظلُّم إلى السُّلطان، الذي أدرك الخطأ بتعيينه، فعزله، وأعاده إلى صُفُوف الجيش، وهُو مكانه الطبيعي.

ونستنتج أن أبا الهيجاء كان شخصية عسكريَّة قاسية، وهذا سرُّ نجاحه في الجيش وتزعُّمه لطائفة مُحاربة، أمَّا في الإدارة؛ فالأمر يحتاج لمواهب أُخرى يبدو أنَّها لم تكن متوفِّرة لدى أبي الهيجاء. لكنَّ هذه التجربة الإدارية لن تكون الأخيرة، فبعد موت السُّلطان صلاح الدِّين في دمشق عام **589** هـ **1193**م، استمرَّ أبو الهيجاء أميراً من أُمراء الجيش، الذي انتقلت قيادته إلى أولاد صلاح الدِّين، وانضمَّ أبو الهيجاء إلى الملك العزيز بن صلاح الدِّين صاحب مصر، فقد بايعه بعد وفاة والده، وحلف له، ووثق به الملك العزيز، "وما كان يظنُّ أنَّه يحنث في يمينه، وأنَّه تصدر منه مخامره عليه، واجتمعت عليه الأُمراء الأَسَديَّة، وخوَّفوه من الملك العزيز، ولم يزالوا به حتَّى أجابهم إلى مُفارقته، والانضمام إلى الملك العادل والملك الأفضل"[1].

دخل أبو الهيجاء بقُوَّة في الصراع على السُّلطة، فقد كاتب الملك الأفضل، وطلبه مع عمِّه العادل إلى مصر، بعد أن عمل هُو والأَسَديَّة على تفريق العَسْكَر عن العزيز حتَّى تخلَّى عنه الأُمراء[2]. ولمَّا تحرَّك الأفضل من قاعدة حُكْمه دمشق، لأخذ مصر من أخيه العزيز ومعه عمّه العادل عام **591** هـ، وصل الأفضل إلى القُدْس، وكانت مع العزيز، فعزل نائب العزيز فيها عزّ الدِّين جرديك، وولَّى عليها أبو الهيجاء السمين[3]. وهذه الولاية لأبي الهيجاء على القُدْس، المدينة ذات الأهمِّيَّة الاستثنائية في الدولة، دليلاً على تقدُّمه وعُلُوِّ منصبه، وفي الحقيقة؛لم نتمكَّن من سماع أيّ أخبار عن كيفية إدارة أبي الهيجاء للقُدْس الشريف، لأنَّه كان مشغولاً عنها بالصراع بين الأفضل والعزيز وعمّهما، فقد رافق جيش الأفضل والعادل إلى مصر، تاركاً القُدْس مع نُوَّابه[4]. وبعد الاتِّفاق بين العادل والعزيز عاد الأفضل من مصر ومعه أبو الهيجاء السمين[5]، الذي بقي في القُدْس مقرّ ولايته الجديدة.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 51.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 52.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 52.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 606.

وفي العام **592 هـ 1196م**، وبعد فشل الأفضل في أخذ مصر، وعودته إلى دمشق، تحرَّك العزيز من مصر في هجمة مُعاكسة على دمشق، وكانت معه الطائفة الصَّلاحيَّة مُنافسو الأَسَديَّة، "ولَمَّا وصل الملك العزيز إلى القُدْس وبه أبو الهيجاء السمين، وكان خائفاً من الملك العزيز الذي "عزم على منازلته"، فطلب أبو الهيجاء تسليم القُدْس "على أن يرحل بماله، فأُجيب إلى ذلك، وتسلَّم الملكُ العزيزُ منه القُدْسَ" [1]، "فرحل أبو الهيجاء السمين والمهرانيَّة والأَسَديَّة، وساروا إلى دمشق"[2].

وفي عام **592 هـ 1196م**، تمكَّن العزيز من أخذ دمشق من أخيه الأفضل، وكان ذلك انتصاراً للطائفة الصَّلاحيَّة، التي التفَّت حول العزيز وعمّه العادل، على الطائفة الأَسَديَّة، التي التفَّت حول الأفضل، ويبدو أن أبا الهيجاء عرف أن أيَّام عزِّه قد ولَّت مع نَفْي الأفضل إلى صرخد، وقرَّر مُفارقة الشَّام، فتوجَّه شرقاً، وعبر الفُرات نحو المَوصل، وهُناك طلبه ديوان الخلافة إلى بغداد، فسار نحوها، ووصلها في عام **593 هـ 1197م**.

"قدم حُسام الدِّين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه، ودخل أبو الهيجاء في زيّ عظيم، فرتّب الأطلاب على ترتيب الشَّام، وكان في خدمته عدَّة من الأُمراء، وكان معه ولد أخيه عزّ الدِّين كور الفرس، وجاء هُو بعد الكُلِّ في العدَّة الكاملة والسلاح التَّام، وخرج ـ أيضاً ـ أهل بغداد للقائه، وكان رأسه صغيراً، وبطنه كبيراً جدّاً؛ بحيثُ كان بطنه على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز، فعمل في الساعة كُوزاً من طين على هيئته، وسبقه، فعلَّقه في السُّوق، فلمَّا اجتاز به ضحك، ثُمَّ عمل ـ بعد ذلك ـ أهل بغداد كيزاناً سمّوها: أبو الهيجاء السمين على صُورته.

وأكرمه الخليفة، وأقام له الضيافات، ثُمَّ أمره أن يُجرِّد جماعة من أصحابه مع عسكر الخليفة إلى همذان، فجرَّد جماعة، فلمَّا بعدوا عن بغداد، نهبوا خزانة الخليفة، وقتلوا جماعة من عسكره، ومضوا إلى المَوصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، فنقل الخليفةُ أبا الهيجاء إلى دار عند النِّظاميَّة كانت لسُلطان دمشق مُجير الدِّين آبق، ووكّل به. ثُمَّ خلع عليه بعد ذلك" [3]، "وأكرم إكراماً كثيراً،

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 70.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 605.
3 - ذَيل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 141.

ثُمَّ جُهز مُقدَّماً على العساكر البغدادية إلى همذان، فسار إليها" [1]. وكان قد "طلب أمير العلم في بغداد وحسام الجاندار ومعين الكاشي نائب الوزير إلى الخليفة أن يُكلّف أبا الهيجاء السمين بالقُدُوم إلى همذان"[2]، فقد كانت الاضطرابات تعمُّها، والقوى المُتصارعة على السُّلطة فيها كلّ يوم لهم موقعه. فكتب الخليفة إلى أبي الهيجاء "رسالة للسير إلى همذان، وطرد الجمع هُناك"[3]، إن هذا الطلب الشخصي لأبي الهيجاء دليل على شُهرته العسكريَّة الواسعة، التي وصلت بغداد، وجعلت المُتسلِّطين على الخليفة فيها يُقنعونه بطلبه لإنهاء الاضطرابات في همذان. ولم يتخلَّف أبو الهيجاء عن الطلب، وتوجَّه على الفور من بغداد إلى همذان على رأس جيش الخليفة.

إن هذه المُوافقة الفورية لأبي الهيجاء، والتحرُّك الفوري بدُون أيِّ استطلاع للمنطقة التي سيقود العمليات العسكريَّة فيها، أو أيِّ دراسة للقوى المُتواجدة هُناك، إن كان ذلك يعتبر دليلاً على ثقة قويَّة بالنفس وشجاعة نادرة، لكنَّه لن يكون تصرُّف قائد مُحنَّك، ولن يكون محمود العواقب.

" فلمَّا وصل أبي الهيجاء مع جُنُوده إلى همذان، حاصروا الملك أوزبك، واستولوا على همذان بلحظة واحدة "[4]، وخمدت الفتنة[5]، وهذا النصر الخاطف لا شكَّ أن عامل المُفاجأة قد لعب فيه دوراً حاسماً، إضافة إلى شجاعة قائد الحملة، لكنَّ الأُمُور بخواتيمها، فقد "هجم مياجق على همذان، واشتبك مع أبي الهيج السمين، ودارت الحَرْب مُدَّة يومَيْن، وهرب أبو الهيج"[6]، ونتيجة لهذه الهزيمة، التي كلَّفت ديوان الخلافة مبالغ كبيرة مع عدد لا يُستهان به من جندها، ساء موقف أبي الهيجاء تجاه الديوان والخليفة، "فخاف أبو الهيجاء من الديوان، ولم يُمكنه المقام، فعاد يُريد إربل؛ لأنَّه من بلدها، فتُوفِّي قبل وُصُوله"[7]، في عام **594 هـ 1198م**، "وكان أميراً شُجاعاً مقداماً عارفاً مُتجمِّلاً سيوساً"[8]. ولم يختر أبو الهيجاء لنهايته سوى بلاده ومسقط رأسه، ومع كُلِّ الأمجاد،

1 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 125.
2 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
3 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
4 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
5 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 541.
6 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 542.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 145.

التي كانت له في الشّام، فلم يقصدها؛ لأنّه يُدرك أن قاعدته السِّياسيَّة فيها قد انتهت مع نهاية الملك الأفضل، الذي كان يُمثِّل الظلَّ الباهت لأبيه السُّلطان صلاح الدِّين.

2. ابن المشطوب:

هُو عماد الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن سيف الدِّين علي بن أحمد بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن أبي الخليل مرزبان الهكاري[1]، فهُو كُردي من الأكراد الهكارية[2]، "كان أميراً كبيراً وافر الحُرْمة عند المُلوك، وكان عالي الهمَّة، غزير الجُود، واسع الكرم، شُجاعاً، أبيَّ النَّفْس، تهابه المُلوك، له وقائع مشهورة في الخُرُوج عليهم"، ويُعدُّ واحداً من أبرز أُمراء السُّلطان صلاح الدِّين[3]، كما كان سيِّد الأكراد الهكارية، وزعيماً مُطاعاً لهم، حتَّى لُقِّب بملك الهكارية[4]. وقد ولد ابن المشطوب سنة **575** هـ **1179**م؛ تقديراً[5].

والمشطوب هُو والده أبو الحُسَيْن سيف الدِّين علي، لشطبة كانت بوجهه، "وكان أميراً شُجاعاً، صابراً في الحُرُوب، مُطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدِّين شيركوه إلى مصر في المرَّات الثلاث، ثُمَّ عاد بعد سلطنة صلاح الدِّين إلى البلاد الشَّاميَّة "[6]، فأصبح من أكابر أُمراء السُّلطان صلاح الدِّين، "وكان يُسمَّى في الدولة الصَّلاحيَّة بالأمير الكبير، ولم يُشاركه أحد في هذا الاسم"، وقد رتَّبه صلاح الدِّين في عكَّا لمَّا خاف عليها من الفرنج مع بهاء الدِّين قراقوش، وبعد استيلاء الفرنج عليها تخلَّص من الأَسْر، والتحق بالسُّلطان، ولكنَّه تُوفِّي في العام نفسه **588** هـ **1197**م، وصُلِّي عليه في المسجد الأقصى[7].

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 720.
2 - الهكارية: جبال فوق المَوصل (المُنتظم، ابن الجوزي، 17 / 7). ـ ويقول ياقوت: بلدة وناحية في جزيرة ابن عمر، يسكنها أكراد يُقال لهم هكارية. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: الهكارية).
3 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 343، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 584، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180، والمواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 120، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 16، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 117، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 198.
5 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.
6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 117.
7 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 117، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.

ظهر ابن المشطوب على ساحة الأحداث السِّياسيَّة، مثل مُعظم أُمراء العَسْكَر، بعد وفاة السُّلطان، وبدء الخلافات بين أولاده وعمّهم العادل على اقتسام التركة. كان الأمير عماد الدِّين أحمد بن المشطوب قد ورث إقطاع ثلثَيْ نابلس، وذلك بعد وفاة والده الأمير سيف الدِّين عليّ، الذي كان له إقطاع نابلس بكاملها، لكنْ؛ بعد وفاته قام السُّلطان صلاح الدِّين برَصْد ثُلث إقطاعها لمصالح القُدْس الشريف، وأقطعَ الباقي إلى عماد الدِّين أحمد[1]، وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين كانت نابلس تتبع مملكة الملك الأفضل، الذي استقلَّ بدمشق.

ويبدو أن ابن المشطوب بدأ مُغامراته السِّياسيَّة باكراً، فعندما كان الملك العزيز يقود حملة مصر عام **594** هـ **1198**م، لنجدة عمِّه السُّلطان العادل بمُواجهة الفرنج المُحاصرين لحصن تبنين، بلغ العزيز أن مجموعة من أُمراء الجُند بينهم ابن المشطوب قد عزموا على قتله، ممَّا اضطرَّه إلى العودة مُسرعاً نحو مصر[2]. وسكت عليها الملك العزيز، حتَّى سنحت له فُرصة الانتقام من ابن المشطوب، فعندما وقع الخلاف بين الملك العزيز وأخيه الأفضل صاحب دمشق قام العزيز بإقطاع نابلس، وهي إقطاع ابن المشطوب كما أنَّها تتبع الأفضل صاحب دمشق، فامتنع ابن المشطوب من تسليمها لمقطعها الجديد، "فوقع الشَّرُّ بين الأفضل والعزيز"[3]، ولمَّا انتهى الصراع بين الأخوَيْن، بطرد الأفضل من دمشق، فضَّل ابن المشطوب الالتحاق بخدمة العادل، لذلك كان ضمن قُوَّاته على حصار ماردين عام **595** هـ **1199**م، ولمَّا اضطرَّ العادل لترك الحصار بسبب توجُّهه إلى مصر ترك ابنه الكامل لمُتابعة الحصار، ورتَّب معه عدداً من الأُمراء من بينهم ابن المشطوب[4]، ولمَّا فشل الحصار، وعاد الجيش، رجع ابن المشطوب ليُشارك ـ من جديد ـ في الأحداث السِّياسيَّة والعسكريَّة بين أبناء صلاح الدِّين وعمِّهم العادل.

فبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين نجد أن ولاء ابن المشطوب للملك الأفضل هُو امتداد لولائه لوالده السُّلطان، ولذلك شارك ابن المشطوب مع ميمون القصري وقراجا بالاجتماع الذي

1 - التاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 524، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
2 - من عقد الجمان، العيني، أحداث عام 594 هـ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59/ 12.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 8.

عُقد عام 596 هـ 1200م، واتَّفقوا فيه وحلفوا على تولية الأفضل في مصر[1]. ورُبَّما كان لدَعْم ابن المشطوب للأفضل دور حاسم، وذلك لأهمِّيَّة موقع وقُوَّة ابن المشطوب في الدولة، التي تجزَّأت، وانقسم أُمراؤها شيعاً وأحزاباً.

وعندما سار الأفضل عام 597 هـ 1201م، بقُوَّاته لأخذ دمشق، قاعدته القديمة من عمِّه العادل، كان ابن المشطوب يُقاتل بكُلِّ حمية واندفاع على باب الحديد[2]. ولمَّا شعر الأفضل بتغيُّر نية أخيه وشريكه في حصار دمشق الظَّاهر غازي، اتَّصل سرَّاً بعمِّه العادل، ويبدو أن ذلك كان بتدبير ومشورة ابن المشطوب، فهُو الوحيد الذي حضر اجتماعهم السِّرِّيّ قُرب دمشق؛ حيثُ اتَّفقا على إنهاء الحصار مُقابل إقطاعات في الجزيرة يُعطيها العادل لابن أخيه الأفضل[3]. ولكنَّ الغريب أن نجد ابن المشطوب بعد فشل حصار دمشق يسير مع الظَّاهر غازي، الذي يبدو أنَّه استماله، فقد وعده بأنْ يُقطعه منبجَ وقلعةَ نجم، ولمَّا كانت منبج لا تخضع لسُلطان الظَّاهر، فقد سيَّر ابن المشطوب نُوَّابه لاستلام قلعة نجم، فما سلَّموها إليهم[4].

وفي عام 598 هـ 1202م، بعد وُصُول ابن المشطوب مع الظَّاهر إلى حلب، أخذ يُطالبه بتنفيذ وعده بإقطاع منبج، والقيام "بحصارها، وأخذها له"[5]، ويبدو أن الظَّاهر كان في موقف حرج أمام وعده، فهُو يرغب في كسب ابن المشطوب إلى جانبه في الصراع القريب المُتوقَّع ضدَّ عمِّه العادل؛ لأنَّه يعرف أن ابن المشطوب من الذين يُعتمَد عليهم في هذا الصراع، ولا يُريد ـ في الوقت نفسه ـ أن يُحكِّمه في شيء من البلاد، رُبَّما لشُكُوك في نفسه، أو لخوفه من شخصية ابن المشطوب القويَّة. ولكنْ؛ في النتيجة، نفَّذ الظَّاهر وعده لابن المشطوب، وأخذ منبج، وأقطعها له[6]، لكنَّ شكَّ الظَّاهر بابن المشطوب لم يتبدَّد، فلخوفه من أن يتمرَّد في منبج، ويعصى عليه في قلعتها، قام بهَدْم القلعة،

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 13.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 18.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 17.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 20 ـ 21.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 21.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 131.

وتخريب أسوارها، قبل أن يُسلِّمها إليه[1]. ويُقال إن الملك الظَّاهر ـ بعد تسليمه منبج لابن المشطوب ـ قد بلغه أنَّه ينوي العصيان، فسار إليه بالعسكر، وهدم قلعة منبج، وسُورَهَا، فغضب ابن المشطوب، وترك خدمة الظَّاهر، وسار نحو الشَّرْق[2].

وعندما سوَّى الظَّاهر أُمُوره مع عمِّه العادل، واصطلحا، وتعاهدا، كان من جُملة الأُمُور التي اتَّفقا عليها أن يطرد الظَّاهر ابن المشطوب، وحلف أن لا يستخدمه أبداً. وقصد ابنُ المشطوب الملكَ العادلَ، فما قبله، ولكنَّه سمح لابنه الأوحد أيُّوب صاحب مَيَّافارقين أن يستخدمه عنده، فما وقع بينهما اتِّفاق، فقرَّبه الأشرف بن العادل، وأحسن إليه، وأرضاه[3].

ويبدو أن الملك الأشرف رغب باستخدام ابن المشطوب؛ لأنَّه كان يستعدُّ للتحرُّك في الجزيرة، فَحَمْلَتُهُ على ماردين كانت وشيكة، لذلك؛ أرسل في عام 599 هـ 1203م، ابن المشطوب رسولاً إلى الملك الأفضل في سُمَيساط، ليدعوه إلى الحُضُور بقُوَّاته للمُشاركة في الحملة على ماردين، وشارك ابن المشطوب مع الأشرف في الحملة، فأقطعه الأشرف رأس عين الخابور[4] مكافأة على جُهُوده ظاهراً، وبالتَّأكيد؛ كان للأشرف من وراء ذلك هدف خفيّ، فالكُلُّ يعرف أن ولاء ابن المشطوب القديم كان للأفضل، ورأس عين كانت من جُملة البُلدان التي أعطيت للأفضل في التسوية بينه وبين عمِّه، ثُمَّ أخذت منه، فأراد الأشرف الإيقاع بين ابن المشطوب وبين الأفضل بمنحه بلدة يعتقد الأفضل أنَّها من حُقُوقه المسلوبة.

ولمَّا تحركت قُوَّات أتابك المَوصل نحو الجزيرة للتصدِّي للأشرف، أرسل ابن المشطوب إلى والده العادل يستشيره فيما يفعل[5]، وأعاد العادل ابن المشطوب بسُرعة إلى ولده الأشرف مشيراً بعدم المُجازفة بقتال الأتابك، ولكن المعركة وقعت في العام نفسه 599 هـ 1203م، ولابُدَّ أن ابن المشطوب كان أحد أبطالها، ولحقت بجيش الأتابك هزيمة شنيعة[6].

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 101.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 25.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 38 ـ 39.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 40.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 40 ـ 41.

وفي عام 601 هـ 1205م بعد انتصار الأشرف "خاف الظَّاهر غازي من قُوَّة عمِّه في الشَّام، فسيَّر إلى البلاد، وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب" [1]. ولكنْ؛ سُرعان ما عادت الأُمُور إلى نصابها، فلم نُلاحظ أيَّ تحرُّك لابن المشطوب، وإن كان هذا يدلُّ على استعداده الدائم للعمل ضدَّ العادل، وربَّما الخُرُوج على أيِّ نظام أيُّوبي بشكل عامٍّ، بعدما رأى من صراعهم على الحُكْم.

وفي عام 605 هـ 1208م، "مات الأمير جناح الدِّين الهكاري أخو المشطوب، وتغيَّرت أحوال عماد الدِّين المشطوب"[2]، ولابُدَّ أنَّه كان عَوْناً كبيراً له حتَّى تغيَّرت أحواله بعد موته، ولكن ذلك لم يُسبِّب تغيُّر موقفه من الدولة، أو تغيُّر موقف الدولة منه، فبعد مُدَّة بسيطة كان ابن المشطوب يُشارك في حملة العادل على سنجار، وحصارها، "فلمَّا أخذ العادل بلاد الخابور أعطى إلى ابن المشطوب بلدة المجدل"[3].

مُحاولة ابن المشطوب خلع السُّلطان الكامل:

نزل الفرنج على دمياط لأَخْذها، من أجل السيطرة على مصر، في أواخر أيَّام الملك العادل، وكان نائبه في مصر ابنه الملك الكامل، الذي سارع بجمع العَسْكَر، ونزل مُقابل الفرنج لدفعهم عن دمياط، وكان العادل في الشَّام يجمع الجُيُوش، ويُسيِّرها إلى مصر، ولكنَّه تُوفِّي فجأة قُرب دمشق عام 615 هـ 1218م. ولَمَّا وصلت أخبار وفاته إلى مُعسكر الكامل عند دمياط كان ابن المشطوب أحد كبار أُمراء العَسْكَر، فاعتقد أن الفُرصة قد لاحت له لتحقيق مشروع رُبَّما كان يحلم به من سنوات طويلة، وهُو الوُصُول إلى قمَّة السُّلطة في الدولة، فعندما بلغه موت العادل عزم على خلع الملك الكامل من السَّلطنة وتولية أخيه الفائز إبراهيم[4].

وكان ابن المشطوب يعتمد على كونه "من أجَلِّ الأُمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه، ويطيعونه"[5]، واتَّفق مع مجموعة من الأُمراء[6]، منهم الأمير عز الدِّين

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 52.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 57 ، ولا ندري هل هُو عمُّه أم أخوه؟ فأخو المشطوب تعني أنَّه عمّه، ثُمَّ يعود لينعت عماد الدِّين بالمشطوب، فربما كان يقصد أن المُتوفَّى أخوه.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 60.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 120. والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
6 - المواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405.

الحميدي، والأمير أسد الدِّين الهكاري، والأمير مُجاهد الدِّين[1]، كذلك أفسد قلوب جماعة من الجُند[2]، "وكان عسكر مصر أكثره من الأكراد وابن المشطوب ملكهم"[3]، فاجتمع مع مَنْ وافقه، وقال لهم عن الملك الكامل: "هذا صبيّ خفيف، ولا يأتينا منه خير"[4]، "فلمَّا بلغ الكامل دخل عليهم، فإذْ هُم مُجتمعون وبين أيديهم المُصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه، تفرَّقوا، فخشي على نفسه منهم، فخرج"[5].

مشروع ابن المشطوب:

1 - فضَّل ابن المشطوب سلوكَ التآمر ليحقِّق هدفه بالوُصُول إلى السُّلطة، وبالتَّأكيد؛ كان يُقَدِّر أنَّه مع شخصية قويَّة كالكامل لن يكون إلَّا واحداً من الأُمراء في أحسن الأحوال، لذلك فكَّر بتبديل السُّلطان، واختار أخاه الفائز لتقديره - أيضاً - أنَّه سيكون أسهل قياداً، ومطيَّة مُناسبة لحُكم الدولة بواسطته، أو حتَّى بدونه بعد مُدَّة، فهدفه من العملية هُو أن "يصير له التحكُّم في المملكة"[6].

2 - اختار ابنُ المشطوب أسوأ الأوقات بالنِّسبَة للدولة وللأُمَّة، فقد مات السُّلطان العادل، والفرنج يرابطون بقُوَّات عظيمة أمام دمياط، وبالتَّأكيد؛ كقائد عسكري كان يعرف معنى الانقلاب السِّياسي الذي كان ينوي تنفيذه في مثل تلك الظُّرُوف، وانعكاسه على الموقف العسكري، وهذا ما تمَّ فعلاً، مع أن المُؤامرة قد انكشفت للكامل الذي هرب من المُعسكر إلى إشموم طناح، لأنَّه لم يعد يعرف مَنْ معه ومَنْ هُو ضدَّه من العَسْكَر، فلمَّا أصبح الجيش، ولم يجدوا الملك الكامل، تركوا مُعسكرهم في العادلية بما فيه، ولحقوا بالكامل، ممَّا مكَّن الفرنج من أخذ المُعسكر بما فيه، والعُبُور إلى ضفَّة دمياط، ومُحاصرتها من البرِّ والبحر، ولو تابع الكامل هربه من مصر لكانت بكاملها لقمة سائغة للفرنج[7].

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
2 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 16.
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك 7/ 198.
4 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 158.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 314، والمواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 16.

3 ـ إن التصرُّف غير المُتوقَّع من الكامل، بدُخُوله المُفاجئ على المتآمرين وهم يتعاهدون، ويُقسمون، ثُمَّ مُغادرته المُفاجئة للمُعسكر، أربكَ ابنَ المشطوب وجماعته، وأفشل الخُطَّة بكاملها، ولكن الذي قلب ميزان القوى، ومنع من تجديد محاولة ابن المشطوب مرَّة أُخرى، هُو وُصُول الملك المُعظَّم إلى أخيه الكامل في مُعسكره الجديد بإشموم طناح.

نفي ابن المشطوب من مصر:

علم الملك المُعظَّم من أخيه الكامل ما يُحاوله ابن المشطوب، فتكفل له بتسوية الموضوع، وحلف المُعظَّم أنْ لا ينزل عن فرسه حتَّى ينفيه من الديار المصريَّة[1]، وركب المُعظَّم إلى خيمة ابن المشطوب، فذُهل، "وأدهشه وُقُوف المُعظَّم ببابه"[2]، "فاستدعاه ليركب معه، ويسايره"[3]، "فاستمهله، حتَّى يلبس خُفَّيْه وثيابه، فلم يُمهله، فركب معه وهُو آمن"[4]، "وسايره إلى أن خرج من المُعسكر"[5]، وكان المُعظَّم قد أعدَّ خمسين مملوكاً من خيرة مماليكه، ووضع عليهم عشرة من آل أيُّوب، على أن يلحقوا به إذا خرج من المُعسكر، فلمَّا وصلوا إليه التفت المُعظَّم إلى ابن المشطوب، وقال له: "يا عماد الدِّين، هذه الديار المصريَّة لنا أو لك؟ فقال: الله، الله، يا خوند، أنا مملوك بني أيُّوب، فقال المُعظَّم: نحنُ ما عُدنا نريدكَ، تبلى بغيرنا، ولا تبلى بنا"[6]، ثُمَّ سلَّمه إلى أصحابه، وأمرهم بإخراجه من مصر، ونفيه إلى الشَّام[7] "فما وجد سبيلاً للامتناع، ولا قدر على المُدافعة،" فساروا به إلى الشَّام[8].

كانت خُطَّة المُعظَّم في غاية البساطة، مع أنَّها تحتاج إلى الكثير من الجُرأة، فقُوَّة ابن المشطوب تكمن بكونه بين أتباعه ومُؤيِّديه في المُعسكر، ومتى عُزل عنهم لا يُمكنه إلَّا التسليم. ويبدو أن المُعظَّم قد فضَّل نَفْيَهُ على قَتْله، مع أنَّه كان يُمكنه ذلك بعد إخراجه من المُعسكر، لأن القتل لن يُبرَّر أمام

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 198.
2 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 343.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 315.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 18.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 199.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.
8 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 315.

مُؤيِّديه، الذين قد يقومون بعمل ما، في وقت لا يحتمل أي خلاف في صُفُوف جيش يواجه الأعداء. أمَّا نفيه؛ فقد يكون له ألف تبرير، وربَّما تنكشف الحقيقة تكون الأُمُور قد هدأت.

ابن المشطوب في الشَّام:

كانت أوَّل محطَّة لابن المشطوب في الشَّام هي حماة، ولابُدَّ أنَّه أمضى وقته في الطريق وهُو يفكِّر في الانتقام، وفي مشروع بديل عن مشروعه المُخفق للسيطرة على مملكة مصر. وبالفعل؛ نستطيع أن نرى فيما قام به ابن المشطوب ملامح مشروع حاول تنفيذه في الشَّام أوَّلاً، وفي الجزيرة ثانياً.

فعندما وصل ابن المشطوب إلى حماة كان مُجرَّداً من جميع ماله، سوى نفقة الطريق التي أعطاها له الملك المُعظَّم، ومن جميع رجاله سوى أربعة مماليك[1]. ويبدو أنَّ قَصْدَ حماة كان اختياراً من ابن المشطوب، بدليل نتائج توقُّفه فيها، فعند وُصُوله إلى حماة تلقَّاه صاحبها المنصُور، فأكرمه، وقام بضيافته[2]، ممَّا يجعلنا نُرجِّح أن هُناك مُراسلات سابقة بينهما، أو على الأقلِّ أن المنصُور طَلَبَهُ إليه وهُو في الطريق من مصر، ووعده بالدَّعْم والنصرة. ولم يُضيِّع ابن المشطوب وقته؛ إذْ سُرعان ما أخذ بجَمْع الرجال في حماة، وكان من الطبيعي أن تنضمَّ إليه جُمُوع الأكراد فيها، وفي ما جاورها من البُلْدان، واستخدم غيرهم من المُرتزقة الذين وصفهم ابن العديم بأنَّهم "أرباب الفساد"[3]، حتَّى صار جمعه حوالي ثمانمائة فارس، وألفا راجل[4].

وبالتَّأكيد؛ كان ابن المشطوب ـ خلال عملية جمع الرجال ـ يُتابع مُشاوراته مع الملك المنصُور صاحب حماة، الذي "ساعده بالمال والرجال على ذلك"[5]. ولكنْ؛ كان لكُلٍّ من الرجلَيْن أهدافه المُختلفة، فابن المشطوب كان هدفه الواضح هُو تشكيل إمارة خاصَّة لنفسه، تعفيه من تحكُّم مُلُوك بني أيُّوب، وذلك بأنْ "يتغلَّب على بعض الأطراف"[6].

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 77.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29 ، بينما يقول ابن نظيف إنَّه رحل عن حماة بسبعمائة فارس فقط.(المنصُوري، 77).
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

أمَّا المنصُور؛ فيبدو أنَّه كان يرغب في زعزعة مُلك أبناء العادل، وتحريض الأفضل، ودعمه لاستعادة البلاد، أو بعضها منها، وبالتَّأكيد؛ فإن مصلحته في هذه العملية هي كسر طوق أبناء العادل، الذي يزداد إحكاماً حوله من الجنوب والشمال. وبحال نجاح الأفضل وابن المشطوب فستكون له اليد الطولى عليهما، ويكون قد ضمن دوراً أقوى لمملكة حماة في الصراعات السِّياسيَّة والعسكريَّة التي قدَّر أنَّها ستقوم بعد وفاة العادل، ومع اختلاف الأهداف البعيدة بين المنصُور وابن المشطوب فقد تمَّ الاتِّفاق على الشكل الأوَّلي للتَّحرُّك.

فبعد المُساهمة الكبيرة للمنصُور في إعداد القُوَّة العسكريَّة التي ستُرافق ابن المشطوب لابُدَّ أنَّه قد وجَّه، أو شجَّع على الأقلِّ، انضمام قاضي حماة الشَّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن الشَّيخ شرف الدِّين بن عصرون إلى حاشية ابن المشطوب[1]، حتَّى يُشكِّل الجانب الإداري والغطاء الشرعي في مُرافقته لهذا المُغامر، والتي كان المنصُور يُرجِّح نجاحها، فالشيخ نجم الدِّين هُو الأداة التي أمل أن تكون فعَّالة للسيطرة على نزوات ابن المشطوب، وتوجُّهه وُفق رغبة المنصُور، ويدلُّنا على ذلك ما شرطه الشَّيخ نجم الدِّين على ابن المشطوب، الذي وعده بأنْ "يُحكِّمه فيما يملكه من البلاد، وأنَّه لا يخرج عن رأيه"[2]، فالشيخ شرف الدِّين سيكون قاضي الإمارة المُنتظَرَة، ومُستشاراً، ووزيراً ناصحاً، ومُوجِّهاً لابن المشطوب، وهذا أمر شائع في الممالك الأيُّوبيَّة، وربَّما كان أبرز أمثلته القاضي الفاضل في دولة السُّلطان صلاح الدِّين.

ولابُدَّ أن الحليفَيْن قد اتَّصلا بالملك الأفضل، الذي شرط المنصُور على ابن المشطوب أن تكون الحَرَكَة لصالحه، وباسمه، وطلب منه "أن يمضي بمَنْ جمعه من العساكر إلى الأفضل"[3]. وكان الأفضل في هذا الوقت قد اتَّفق مع سُلطان سلاجقة الرُّوم على أن يحتلا حلب، وتُسلَّم إلى الأفضل، وبلاد الأشرف، ويأخذها السُّلطان الرُّومي.

ونستنتج من مُجريات الأحداث أن الأفضل وسُلطان الرُّوم قد راسلا المنصُور، وربَّما اتَّفقا معه، وتحالفوا، وأن دعم المنصُور لابن المشطوب جاء في سياق هذا الحلف، فهُو -رَسْمِيّاً- يضمن

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 249.

الحذر بعدم مُشاركته المُباشرة ضدَّ مملكة حلب والملك الأشرف، فالنتائج غير مضمونة، وبالوقت نفسه؛ يُقدِّم الدعم السِّرِّيَّ للأفضل وحليفه الرُّومي بتجهيز ابن المشطوب ماديّاً وعسكريّاً، وتوجيهه نحوهما، فعندما طلب المنصُور من ابن المشطوب التوجُّه نحو الأفضل أبلغه -صراحة- أنَّه هُو وسُلطان الرُّوم كيكاوس سيقومان معه، ويُساعدانه[1].

ويبدو أن هذا المشروع قد طرق أسماع الملك الأشرف، الذي سارع إلى مُراسلة ابن المشطوب لإفساد حَرَكَته، التي قدر أنَّها ستكون مُؤثِّرة جدّاً، وخاصَّة ضمن الأحداث المتلاحقة ضدَّ أبناء العادل، فالفرنج يُطبقون على دمياط، وسلاجقة الرُّوم يُهاجمون الجزيرة مع حليفهم الأفضل، فكتب الأشرف إلى ابن المشطوب وهُو بحماة يعده بإقطاع يُرضيه، فامتنع عن القبول، لأن الاتِّفاق تمَّ بينه وبين الأفضل وكيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه، "وكانت مُراسلته لهما قد سبقت عرض الأشرف"[2]. لقد جاء عرض الأشرف مُتأخِّراً، لكنَّه -بالتَّأكيد- لاقى هوىً في نفس ابن المشطوب، لأن الإمارة تأتيه بالراحة، ولكن المُشكلة هي اتِّفاقه المُسبق مع أعداء الأشرف، وخاصَّة كونه في حماة، وتحت يد صاحبها، الذي لا يميل لهكذا اتِّفاق، فقد دفع الأموال، وقدَّم الرجال لتحقيق مشروع ضدَّ الأشرف.

وفي عام **616 هـ 1219م**، تحرَّك ابن المشطوب مع عساكره من حماة، وقد أعلن أن "وُجهته نحو الأفضل في سُمَيساط، ليتَّفق معه ومع سُلطان الرُّوم كيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه"[3]، ولكن ابن المشطوب بدلاً من أن يتحرَّك بسرِّيَّة، ويعبر بلاد حلب بسُرعة لينضمَّ إلى حُلفائه الأفضل وكيكاوس، نجد أنَّه بحَرَكَة رعناء لا تدلُّ على أيِّ حنكة عسكريَّة، يخترق عَلَناً -وبصُورة استعراضية- أراضي حلب، مُجتازاً قنسرين باتِّجاه نهر الساجور؛ حيثُ وجد خيل جند حلب ترعى في المروج، فاستاقها، وأقام عند الساجور[4] بدلاً من أن يتحرَّك بسُرعة شمالاً نحو سُمَيساط.

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 30.

وهُنا؛ لابُدَّ أن نتساءل، هل ابن المشطوب بهذه السذاجة العسكريَّة التي ظهر بها؟ إن كان الجواب بالنفي، فلابُدَّ أن الأمر مرسوم ومُدبَّر، وأنَّه يتحرَّك وُفقاً لخُطَّة حاكها بسرِّيَّة تامَّة مع الأشرف.

وجاء تصرُّف الأشرف ليُفسِّر سبب حَرَكَة ابن المشطوب غير المُتوقَّعة، فنظراً لتفرُّق عساكر الأشرف في السُّهُول والمروج لرَعْي خُيُولهم، كما هي العادة في كلّ ربيع، نفترض أنَّه كان في قلَّة من جُنده، "فأركب الأشرف مَنْ بحضرته من العَسْكَر خلف ابن المشطوب، فقبضوا عليه على الساجور، ومعه الشَّيخ ابن أبي عصرون، وساقوهما إلى الأشرف، فعفا عنهما، وأقطع عماد الدِّين رأس عين"[1]، وأعطاه زلبيا ملكاً[2]. إن ما قام به الأشرف يدلُّ على أن حَرَكَة ابن المشطوب للاستيلاء على خيل حلب هي مسرحية لتبرير ما يليها، فالمُراسلات بين الأشرف وبين ابن المشطوب كُلِّلَتْ بالنجاح قبل أن يغادر حماة، واتَّفقا فيها على إخراج الأمر بهذا الشكل، فابن المشطوب خرج لينضمَّ لحُلفائه، لا ليقوم بنهب الخُيُول كفعل بعض اللُّصُوص، ثُمَّ إنَّه حتَّى لم يتصرَّف كاللصوص الذين يهربون بالغنيمة بأقصى سُرعة، فقد أقام ينتظر على ضفاف الساجور.

وماذا فعل الفُرسان والمشاة الذين كانوا معه، والذين يُشكِّلون قوام جيش لا بأس به في المعايير العسكريَّة لذلك الزَّمان؟ لم نسمع عن أيِّ مُقاومة لهم مُقابل شرذمة من جُنُود الأشرف جُمعت على عجل، وتمكَّنت من القبض على قائدهم ابن المشطوب ومُستشاره الشَّيخ نجم الدِّين بسُهُولة فائقة، ثُمَّ يأتي العفو السريع للأشرف عن ابن المشطوب، ويزيده إقطاعاً مُهمَّاً هُو رأس عين، كُلُّ ذلك يزيدنا يقيناً أن كلَّ شيء كان مدروساً ومُخطَّطاً ومُتَّفقاً عليه، وبأنَّ جُهُود الملك المنصُور صاحب حماة قد باءت بالفشل، ولابُدَّ أنَّه تحسَّر كثيراً على ما دفعه لابن المشطوب، ورُبَّما علَّل نفسه بفُرصة أُخرى.

وهُنا؛ لابُدَّ من مُلاحظة ما يلي:

كان ابن المشطوب ـ وإنْ جاء عابراً ـ جُزءاً من حَرَكَة كيكاوس لاحتلال الجزيرة وحلب، مُوظِّفاً الملك الأفضل كواجهة شرعية لأخذ البلاد باسمه، وبالتَّأكيد؛ كان ابن المشطوب يعي دوره في العمليَّة، ويأمل بالكسب الكبير منها، فالوُعُود كانت تنهال عليه بلا حساب، لكنْ؛ لماذا تجاوب مع

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 30، راجعْ أيضاً: زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 77. الإقطاع يُعطى مُقابل تقديم عدد مُحدَّد من المُقاتلين عند الحاجة، ويُمكن استرداده، أمَّا الملك؛ فلا يُمكن نزعه من صاحبه إلَّا بالحَرْب.

الأشرف، وترك حُلفاء أقوياء، تُناسبه تطلُّعاتهم ضدَّ أبناء العادل، يبدو أن غدر كيكاوس بالأفضل قد بلغ ابن المشطوب، إن لم تكن هزيمته أمام الأشرف هي السبب المُباشر في هذا التحوُّل بموقف ابن المشطوب، فاستجاب لدعوة الأشرف، واتَّفق معه على إخراج عملية الانضمام إليه بشكل يحفظ له ماء وجهه، وينفي عنه صفة الغدر أمام صاحب حماة أوَّلاً، وأمام الأفضل وصاحب الرُّوم ثانياً.

ابن المشطوب في الجزيرة:

لم يطلْ استقرار ابن المشطوب في إقطاعه، ولتطلُّعه إلى تحقيق مركز أكبر، أو "لما في نفسه من الغدر والفساد"[1]، قام في عام 616 هـ 1219م، بالخُرُوج على الأشرف، وانضمَّ إلى أعدائه، الذين شكَّلوا حلفاً ضدَّه. فقد اتَّفق ابن المشطوب مع صاحب ماردين، وهُو من الأعداء الدائمين للأشرف، من أجل الخُرُوج على الملك الأشرف[2]، وسلَّمه ابن المشطوب رأس عين، فعوَّضه عنها بإقطاع أرجيش، وبقيت زلبيا ملكاً له[3].

وفي عام 617 هـ 1220م، راسل مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحبُ إربل مُلُوكَ الأطراف يستميلهم إليه ضدَّ الملك الأشرف وحليفه بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، فأجابه ابن المشطوب[4]، "وجمع جمعاً كثيراً من الأكراد والمُفسدين"[5]، فطلب منه كوكبوري التحرُّك إلى ماردين للاجتماع مع صاحبها ومع صاحب آمد، لمنع الأشرف من العُبُور نحو المَوصل لمُساعدتها ضدَّ هُجُوم كوكبوري عليها[6]، فكان اللقاء عند دنيسر قُرب ماردين. ولكنَّ تحرُّك الأشرف السِّياسي كان كفيلاً بزعزعة الحلف قبل تحرُّكه العسكري، فقد اتَّصل بصاحب آمد، وهُو أكثر الحُلفاء عرضة للإغراء، وأعطاه بلد حاني وجبل جور، ووعده بتسليم دارا له، فترك الحُلفاء، وانضمَّ للأشرف، فانحلَّ الحلف، واستتبَّ الأمر للأشرف من جديد[7].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 70.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 651، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، / 121.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 78.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 242.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 70.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442.

لكنّ ابن المشطوب أصرّ على عصيانه، فقاد عسكره، واتّجه صوب نصيبين في جمع قليل، على أمل أن يحقّق نصراً بمُفرده، ولكنّه واجه هزيمةً غير مُتوقَّعة من والي نصيبين ابن صبره، فتفرّق جنده، وهرب. وعندما كان يسير فارّاً على طُرُق سنجار خرج صاحبها الأتابكي، وكان مُوافقاً للأشرف، فقبض على ابن المشطوب[1]. ولكن الغريب في الأمر أن أفكار ابن المشطوب لاقت قبولاً عند صاحب سنجار، فقد استطاع إقناعه بالخُرُوج على الأشرف، ولمّا طلبه الأشرف منه امتنع من تسليمه، وأطلقه[2]، فعاد ابن المشطوب من جديد حُرّاً، "فجمع معه مَنْ يُريد الفساد"[3]، ويبدو أنّهم كانوا كُثُراً وجاهزين دوماً للانضمام لكُلّ خارج على النظام، فسار بهم نحو المَوصل، وأخذ بنهب بلادها، وعاد إلى سنجار، ثُمّ خرج منها ثانية للإغارة، ويبدو أن صاحب المَوصل كان قد استعدّ له، وجهّز عسكراً هزموه، فهرب ابن المشطوب ليتحصّن في تلّ أعفر، فحاصروه، فحضر لُؤلُؤ، وعرض عليه النُّزُول بالأمان، فنزل، وأكرمه لُؤلُؤ، وأخذه إلى المَوصل؛ حيثُ كان موقف العامّة مُفاجئاً، فعندما دخل ابن المشطوب إلى المَوصل، "فرح الناس به، ودعوا له لمحبّتهم له"[4]، إن هذه المحبّة تُحيّر الباحث، فرجل مثل ابن المشطوب خارج على القانون أغار على بلاد المَوصل، ونهبها، وقاتل عسكرها، وتهدّدها، فلماذا تُحبُّه العامّة؟!

وهُنا؛ لا نجد إلّا التخمين، فلا نعتقد أن خُرُوجه على النظام هو السبب، ولا تحدّيه للمُلُوك الذين هُم ـ غالباً ـ مكروهون من العامّة، ولكن؛ على الغالب، إن الصفات التي تمتّع ابن المشطوب، وما شاع عنه من بطولة وشجاعة وذكر مُغامراته العسكريّة، التي من المُحتمل أنّها قد تضخّمت عدّة مرّات، هي سبب هذه المشاعر من الناس نحوه.

ولكن بدر الدِّين لُؤلُؤ لم يقدّر شعور الناس، ولم يهتمّ به على الإطلاق، بل كانت حساباته السِّياسيَّة هي الأهمّ، فقد غدر بابن المشطوب، وألقى القبض عليه، واعتقله، ورُبّما كان ذلك بطلب من الأشرف الذي أرسل الحاجب عليّ، وهُو من أكبر أصحابه، ليطلبه من بدر الدِّين، ويأتيه به،

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 71 ـ 72.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 72.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 343.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 72.

فسلّمه لُؤلُؤ إلى الحاجب، الذي حمله إلى الأشرف في حَرَّان[1]، فأمر الأشرف بإلقائه في جُبّ بقلعة حَرَّان عام **617 هـ 1220م**[2]. وبقي ابن المشطوب في سجنه الرهيب مُدّة عامين، حتّى تُوفّي عام **619 هـ 1222م**[3] من القمل، ومن الجوع، ومن ضغط القيود عليه[4].

وكان موت ابن المشطوب بهذه الصُّورة المُرعبة هي نتيجة لأفعاله بحسب رأي بعض المُؤرّخين، فأبو الفداء يرى أنّه "لقي بغيه، وخُرُوجه مرّة بعد أُخرى"[5]، وابن واصل يقول: "لقّاه الله عاقبة ما فعله بالمُسلمين في دمياط، وسعيه الرديء، إلى أن كادت ديار مصر تُنزَع من أيدي المُسلمين"[6]. ودُفن ابن المشطوب في حَرَّان، حتّى " بنت له ابنته قبّة على باب مدينة رأس عين، ونقلته من حَرَّان إليها"[7].

أمّا الشّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن شرف الدِّين بن عصرون، قاضي حماة السّابق، ومُرافق ابن المشطوب، فقد عانى من الاعتقال حتّى مات ابن المشطوب، فشفع فيه لدى الملك الأشرف، فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ أثناء سفارته للملك الكامل، فقبلت شفاعته، وأطلقه من سجنه[8].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180،وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 121، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 333، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180، والمُختصر، أبو الفداء،3/ 125.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة،121.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.
7 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76 ـ كان الشَّيخ أبو البركات نجم الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون عمّ والدة فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ، فقد تزوَّج والد فخر الدِّين الشَّيخ صدر الدِّين مُحمَّد ابن عماد الدِّين عُمر بن حمويه بابنة شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون، وأنجبت له فخر الدِّين وإخوته. ووالدتهم هي ابنة أخ لنجم الدِّين صاحب ابن المشطوب، وهي التي أرضعت الملك الكامل، فكان ذلك سبب تقدُّم أولادها عنده. راجعْ: دُرَر العقود الفريدة، المقريزي 2/ 313، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 1/ 193.

المبحث الثّالث:

رجال الدولة

كان هُناك عدد من الرجال العظام من خارج البيت ومماليكه اعتمد عليهم الأيُّوبيُّون، منهم رجال دين، أو وزراء، ومنهم الحُجّاب، أو الخُدّام، وكان لكُلٍّ من هؤلاء الرجال علاقة بواحد من مُلوك الأيُّوبيّة، أو أكثر، وقد ترتَّب على هذه العلاقة مواقف سياسيَّة وعسكريَّة في حياة منطقة معيَّنة، أو الدولة بشكل عامّ.

أولاد شيخ الشُّيُوخ:

مع أن الدِّين الإسلامي لم ينصّ على وُجود مراتب دينيَّة، فإنّنا نجد أن بعض الوظائف الدِّينيَّة قد فرضت نفسها مع الزمن، ومن حاجة الناس إليها. وبذلك اكتسبت كلمة الشَّيخ معنى دينياً؛ حيثُ أصبحت تُطلَق على الفُقهاء، أو القُضاة، بمعنى صاحب العلم، ولكنّها بعد انتشار الطُّرُق الصُّوفيَّة اكتسبت معنى جديداً، فالشيخ هُو رئيس وقائد الطريقة الصُّوفيَّة، وله أتباع ومُريدون وتلاميذ. ثُمَّ وُجد للطُّرُق الصُّوفيَّة منصب شيخ الشُّيُوخ، "الذي وُجد - أوَّل الأمر - في بغداد"[1]، وأُطلق على مَنْ يتولَّى نظر الزوايا والخانقاوات[2] الصُّوفيَّة في البلاد.

وأوَّل مَنْ تولَّى مشيخة شُيُوخ الصُّوفيَّة في الشّام هُو الشَّيخ عماد الدِّين أبي الفتح عُمر بن علي ابن مُحمَّد بن حمويه، الذي "قدم إلى الشّام في الأيّام النورية، ففوّض إليه الشهيد نُور الدِّين مشيخة الصُّوفيَّة بالشام، وجعل إليه نظر الخانكاهات بها"[3]، وكان نُور الدِّين يحترمه، ويحبُّه4، والشيخ عماد الدِّين هُو "ابن الفقيه أصيل خراسان أبي الحُسَيْن عليّ ابن الإمام الزاهد علم الزهّاد أبو عبد الله مُحمَّد بن حمويه الحمشوني الجويني الشافعي"[5]، فأبناء شيخ الشُّيُوخ من آل حمويه أو الجويني هُم من

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 26.
2 - الزاوية أو الخانقاه، ويُقال لها الخانكاه: هي مكان مُمارسة الصُّوفيَّة لطقوسهم التعبُّدية.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 338، وكذلك انظر : مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 193.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار،20/ 240.
5 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

أُصُول فارسية، انتهجت طريق العلم والفقه والصُّوفيَّة، وموطنهم القديم "من بحر آباد من رستاق جوين"[1]، ويُقال إن حمويه بن علي جدّهم "من ولد رزم بن يونان أحد قُوَّاد كسرى أنو شروان، وتولَّى حمويه قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان، ودبَّر دولته"[2].

بقي الشَّيخ عماد الدِّين عُمر في مشيخة شُيُوخ الصُّوفيَّة حتَّى دُخُول صلاح الدِّين دمشق، فأقرّه عليها حتَّى تُوفِّي عام 577 هـ1181م، فولَّى صلاح الدِّين صدر الدِّين مُحمَّد بن عماد الدِّين مكان والده في المشيخة بدمشق[3]. وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً[4]، وتزوَّج صدر الدِّين مُحمَّد بابنة القاضي شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن أبي عصرون، فأنجبت له عشرة أولاد[5].

وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين وتولِّي أخيه الملك العادل في مصر والشّام "كان صدر الدِّين جليلاً مُعظَّماً عند العادل"[6]، وكان هُو الرسول المُعتمَد للملك العادل إلى دار الخلافة، فقد ترسَّل عنه إلى الخليفة النّاصر أكثر من مرَّة[7]، في مهمّات الأُمُور[8]. وامتدَّت مشيخة صدر الدِّين ليُصبح شيخ الشُّيُوخ في مصر والشّام[9]، وولاه العادل المناصب الشرعية في الجزيرة، ثُمَّ استدعاه من دمشق إلى مصر ليُولِّيه التدريس بالمدرسة الشافعية فيها[10]، وليتولَّى مشيخة خانقاه الصُّوفيَّة سعيد السعداء[11].

1 - ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 3/ 453.
2 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 240، وخطط الآثار، المقريزي، 2/ 346، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 193، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.
4 - شفاء القُلُوب، الحنبلي، 300.
5 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 194، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.
8 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 1/ 193، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 91.
10 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 19/ 477.
11 - سعيد السُّعداء: خانقاه للصُّوفيَّة في شارع الجمالية في القاهرة، كانت داراً لسعيد السُّعداء الأُستاذ قنبر أحد الأُستاذَيْن المُحنَّكَيْن في قصر الخليفة المُستنصر الفاطمي، قتله الخليفة المُستنصر، ورمى برأسه من القصر عام 544 هـ. وكانت الدار تقع مُقابل دار الوزارة، ولمَّا تولَّى صلاح الدِّين حُكْمَ مصر عمل هذه الدار برسم الصُّوفيَّة الواردين من البلاد، ووقفها عليهم، فعُرفَتْ بالخانقاه الصَّلاحيَّة، أو النَّاصريَّة، وكان يُنعَتُ شيخُهَا بشيخ الشُّيُوخ، ولا يتولَّى

وعندما وُلد الكامل مُحمَّد بن الملك العادل **573** هـ**1177**م، كانت ولادته قريبة من ولادة أحد أبناء صدر الدِّين، وللعلاقة الوثيقة بين صدر الدِّين والملك العادل، قامت زوجة صدر الدِّين بنت أبي عصرون بإرضاع الملك الكامل[1]، وهذه عادة كانت شائعة بين الأسر حتَّى زمن ليس ببعيد، وذلك في حال نقص حليب الأمّ، أو لزيادة الاهتمام بالمولود، وبهذه الحالة؛ يُصبح الرضيع أخاً لكُلِّ أولاد المرأة المُرضعة، وهكذا أصبح الكامل أخاً بالرضاع لأولاد صدر الدِّين[2]، لذلك؛ تقدَّموا في دولة الكامل، وكانت لهم إمرة السيف والقلم[3].

ولَمَّا نزل الفرنج على دمياط، وأخذوا بُرج السلسلة عام **615** هـ **1218**م، أرسل الكامل نائب مصر إلى أبيه العادل في الشَّام شيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين رسولاً لطلب النجدات[4]. وكذلك أرسله الكامل عام **617** هـ عندما احتلَّ الفرنج دمياط إلى الخليفة النَّاصر يستنجده، فمرض صدر الدِّين، ومات في المَوصل "وعُمره ثلاث وسبعون سنة "[5]، ويقول ابن واصل إن مهمَّته كانت إلى بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل6، ورُبَّما وفاته في المَوصل هي التي أوهمت ابن واصل.

وبعد وفاة صدر الدِّين بدأ نجم أولاده بالصُّعُود، وأخذت أسماؤهم تظهر في دولة الكامل، وهُم:

1. **عماد الدِّين عُمر**[7]: (581، 636 هـ 1185، 1239م):

وُلد عماد الدِّين بدمشق عام **581** هـ **1185**م، وعندما استدعى الملك العادل والده صدر الدِّين من دمشق إلى مصر، رافقته أُسرته، وأولاده، فنشأ عماد الدِّين في مصر[8]، وكان مُقرَّباً للملك

مشيختها إلَّا الأكابر والأعيان. (المواعظ والاعتبار، المقريزي، 3 / 401)، وقد تحوَّلت ـ فيما بعد ـ إلى مسجد سعيد السُّعداء (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 4/ 8 ـ 50 ـ 148 وخُطط الآثار، المقريزي، 2/ 415).

1 - لبعد تاريخ ولادة الكامل عن تاريخ ولادة أيّ من أولاد صدر الدِّين الذُّكُور الأربعة، فلابُدَّ أن أُمَّهم أرضعته مع إحدى بناتها.

2 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

4 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 222.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 240.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 91.

7 - ترجمته في: شذرات الذهب 5/ 181، والتَّكملة لوفيات النَّقَلَة، المنذري، 3/ 506.

8 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

الكامل، حتَّى غدا رجل دولته الأوَّل، فاستخدمه في وظيفة أبيه صدر الدِّين، فكان رسوله إلى الخليفة في بغداد. وفي عام **633** هـ **1236**م "جمع له رئاسة العَلَم والقلم، ولم يُجمع ذلك لأحد قبله"[1]، وتنقَّل عماد الدِّين في عدَّة ولايات، ثُمَّ تولَّى مشيخة الشُّيُوخ بالخانقاه الصَّلاحيَّة سعيد السعداء[2]، وتولَّى التدريس في المدرسة النَّاصريَّة.

وكان عماد الدِّين مع الملك الكامل في حملته على دمشق. ولَمَّا تُوفِّي الكامل أقام عمادُ الدِّين الملكُ الجوادُ يُونُسَ بن ممدود، ابن أخي الكامل نائباً عن الملك العادل بن الكامل الذي تولَّى السَّلطنة بمصر بعد وفاة والده، ثُمَّ عاد إلى مصر، فوجد الأمر على غير ما يُحبُّ[3]، فالملك العادل قد قبض على أخيه فخر الدِّين يُوسُف، ولَمَّا قابل عمادُ الدِّين الملكَ العادلَ حَمَّله مسؤولية تسليم دمشق للجواد، وَهَمَّ بالقبض عليه، فهوَّن الأمر على العادل، وتعهَّد له بإحضار الجواد إلى القاهرة، فسمح له بالسير إلى دمشق، ولَمَّا وصلها وهُو مُطمئنٌّ إلى سُلطته على الجواد، طلب منه تسليم دمشق، ومُرافقته إلى القاهرة، "وماطله الجواد، فأحضر الوُلاة الشادين، وأبلغهم عزل العادل للجواد عن دمشق"[4]، والتفت عماد الدِّين إلى الملك المُجاهد صاحب حمص حليف الجواد القوي[5]، والذي ما إنْ سمع بقصد عماد الدِّين دمشق حتَّى سبقه إليها[6]، داعماً للجواد[7]، وأقنعه بالتماسك والتحالف معه ضدَّ ابنَيْ الكامل الصَّالح أيُّوب صاحب الجزيرة، والعادل الثَّاني صاحب مصر[8]، وتمكَّن المُجاهد من السيطرة على الجواد الذي "بقي لا يفعل شيئاً إلَّا برأي صاحب حمص"[9].

وأراد عماد الدِّين الضغط على المُجاهد، فطلب من الجواد إخراجه من دمشق، وطالب المُجاهد بدفع ما كان قد عرضه من أموال على الملك الكامل قبل وفاته[10]، واعتمد عماد الدِّين على

---

1 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

2 - الخانقاه الصَّلاحيَّة: هي خانقاه سعيد السعداء التي سبق تعريفها.

3 - شفاء القُلُوب، الحنبلي، 389.

4 - دُرر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

5 - السُّلُوك، المقريزي، ، 1/ 276.

6 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 721.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 195.

8 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 20.

9 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 173.

10 - التاريخ الصالحي، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 604.

قُوَّة العادل الثَّاني سُلطان مصر، الذي اعتبر نفسه نائباً عنه في دمشق، وعلى ضعف الملك الجواد، لكنَّه لم يأخذ بالحسبان ردَّة فعل المُجاهد سيِّد دمشق الفعلي، والذي سيفعل المُستحيل للحفاظ على نُفُوذه فيها، فطلب المُجاهد من عماد الدِّين، مُلَوِّحاً بالوُعُود والوعيد، أن يكتب للعادل الثَّاني ينصحه بترك دمشق، فراوغ عماد الدِّين، وقال: إنَّه سيكتب بعد أن يُصلِّي خارج دمشق، فأدرك المُجاهد أنَّه سيهرب إلى بعلبك[1]، فقرَّر المُجاهد مع الجواد قتل عماد الدِّين ابن الشَّيخ اغتيالاً، ونفَّذا ذلك. وهُناك خلاف على شخصية مُنفِّذ هذا الاغتيال السِّياسي، فابن تغري بردي يقول: إن المُجاهد "أمر بعض نصارى قارا بقتله"[2]، بينما يقول ابن العميد والمقريزي: إنَّهم اتَّفقوا مع نُوَّاب الإسماعيليَّة، فقتلوه مُقابل مال[3]، بينما لا يُحدِّد أبو شامة هُويَّة مَنْ قتله[4]، وقد نُفِّذَتْ عملية الاغتيال داخل قلعة دمشق عام 636 هـ 1239م، وكان ممَّنْ حضر الصلاة عليه المُؤرِّخ أبو شامة[5].

2. مُعين الدِّين حسن (588، 643 هـ 1192، 1246م)[6]:

كان مُعين الدِّين وريث المشيخة أوَّل الأمر، فقد ولي منصب أباه في مشيخة الشُّيُوخ بمصر، ثُمَّ استخدمه الملك الكامل في الرسالة إلى الخليفة في بغداد، وأقامه - بعدها - نائباً للوزارة في مصر، حتَّى مات الكامل عام 635 هـ 1238م. وفي عام 637 هـ 1240م لمَّا استتبَّ الأمر للصَّالح أيُّوب في سلطنة مصر "استوزر الصَّالح مُعين الدِّين الحَسَن، ومكَّنه وفوَّض إليه تدبير المملكة، فقام بوزارة الصَّالح أحسن قيام"[7]. ثُمَّ قدَّم الصَّالح أيُّوب مُعين الدِّين على العَسْكَر[8]، فبعد معركة غزَّة وانتصار الخَوَارزميَّة حُلفاء أيُّوب على الفرنج وحُلفائهم أُمراء الشَّام، وجَّه أيُّوب جُيُوش مصر بقيادة

1 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 20.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 314.
3 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 24 ودُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 315.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 329. راجعْ مناقشة ذلك في مبحث العلاقات مع الإسماعيليَّة.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 329.
6 - ترجمته في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 48، والعبر، الذهبي، 5/ 175، ودول الإسلام، القدسي، 2/ 112، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 352، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 218، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 755.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.
8 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

مُعين الدِّين لإنهاء المعارضة في الشَّام. وفي عام 642 هـ 1244م خرج مُعين الدِّين بالعسكر من مصر "ومعه الدهليز السُّلطاني والخزائن، وأقامه السُّلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على راس السماط، ويركب كعادة المُلُوك، وأن يقف الطواشي الاستدار على خدمته على السماط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يدَيْه كعادتهم في خدمة السُّلطان، وكتب للخَوَارزميَّة ليسيروا في خدمته"[1].

إن هذا التكريم من الصَّالح أيُّوب لمُعين الدِّين يدلُّ على مدى اعتماده عليه، وثقته به، ومُساعدةً وتسهيلاً لمهمَّته في الشَّام، التي كان أيُّوب يُدرك - تماماً - مدى صُعُوبتها، فالشام بكاملها من المُلُوك الأيُّوبيَّة حتَّى الفرنج مُتَّحدون جميعاً ضدَّه، لكنَّ الصَّالح أحسن استغلال نصره في غزَّة عليهم، وأسرع لجني ثمار هذا النصر على يد مُعين الدِّين.

وصل مُعين الدِّين إلى دمشق، وألقى عليها الحصار، فأرسل إليه الصَّالح إسماعيل "سجَّادة وإبريقاً وعكَّازاً، وقال له: اشتغالكَ بهذا أَوْلَى، فأرسل له طبلاً وزمراً وغلالة حرير"[2]، وكانت رسالة إسماعيل تقول: إنكَ فقيه تهتمُّ بأُمور الصلاة والوضوء، وشيخاً يحتاج لعكَّاز، والحَرْب ليست لكَ. فردَّ على الصَّالح إسماعيل يقول برسالته: إنكَ لا تُحسن إلَّا عمل المغاني، ولبس الحرير، ولن يكون لكَ مصلحة في القتال. وبالفعل؛ أثبتت الحوادث أن مُعين الدِّين رجل سيف وقلم، فقد تمكَّن من فرض الاستسلام على دمشق، ودخلها عام 643 هـ 1246م[3]. وبعد دُخُول دمشق، أقدم مُعين الدِّين على القيام بعمل سياسي سيكون له نتائج كبيرة، فقد منع الخَوَارزميَّة، أصحاب نصر غزَّة ومُساعديه في حصار دمشق، من دُخُول المدينة التي كانوا يُمنّون نُفُوسهم بأسلابها، ولمُكافأتهم على أتعابهم أقطعهم الساحل الشَّامي بمناشير كَتَبَهَا لهم[4].

لم يمنع مُعين الدِّين الخَوَارزميَّة من خراب دمشق، ولم يحمها منهم فقط، بل حافظ على الشَّام لملكه أيُّوب، وتصرَّف بمسؤولية القائد، كما أن اختياره الساحل لإقطاع الخَوَارزميَّة كان على ما يبدو يقصد منه عدَّة أُمور، رُبَّما كان منها: تقديره لقُوَّة الخَوَارزميَّة وقُدرتهم على حماية الساحل، الذي استعاد

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 420.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 421.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 344.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 423.

الأيُّوبيُّون أجزاء مُهمَّة منه، لكنَّها لم تعد لحالتها السابقة، لتكرار هجمات الفرنج عليهـا، فهي مكشوفة أمام البحر. وبطبيعة الحال؛ لم يُعجب ذلك الخَوَارزميَّة، فشقّوا عصا الطاعة، فهم ليسوا رجال إعمار وزرع أو استقرار، ولا يناسبهم إلَّا مكاسب النهب السريعة، فارتدُّوا على دمشق يُحاصرونها.

وأثناء الحصار تُوفِّي مُعين الدِّين ابن الشَّيخ في دمشق عام 643 هـ 1246م "عن ستٍّ وخمسين سنة "[1]، "وكان بين بُلُوغ أُمنيَّته وحُلُول منيَّته أربعة أشهر ونصف، وكان جواداً كريماً "[2]، وصُلِّي عليه بجامع دمشق، ودُفن بجبل قاسيون، عند أخيه عماد الدِّين عمر[3].

3. كمال الدِّين أحمد (584/639 هـ 1188 ـ 1241م):

عندما أخذ الكامل بلاد الجزيرة كلَّف كمال الدِّين بالنيابة فيها، ثُمَّ طلبه إلى مصر لتولِّي تدريس الفقه الشافعي في مدارسها[4]. وبقي كمال الدِّين على منزلته ومكانته في أيَّام العادل الثَّاني بن الكامل[5]. وفي عهد الملك الصَّالح أيُّوب قدَّمه على الجُيُوش غير مرَّة[6].

وفي عام 639 هـ 1241م، جعله الصَّالح أيُّوب مُقدَّم حملته على الشَّام لقتال النَّاصر داود صاحب الكَرَك وحليفه الملك الجواد صاحب دمشق، فاشتبك معهم قُرب القُدْس، فهزموه، وأسروه، وقام النَّاصر داود بإطلاق سراحه، فتوجَّه إلى مصر، ولمَّا بلغ غزَّة تُوفِّي فيها، وكان ذلك في العام نفسه 639 هـ 1241م[7]، وبنى أخوه مُعين الدِّين على قبره هُناك قبَّة[8].

1 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 218.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 200.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 349.
4 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 347.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.
6 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 347.
7- واختلف في سنة وفاته بين 639 هـ و640 هـ، فهي عند أبي شامة (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 7)، وابن تغري بردي (النُّجُوم الزَّاهرَة، 7) في عام 640 هـ. بينما يقول ابن واصل (مُفرِّج الكُرُوب، 7)، والمقريزي (السُّلُوك، 7)، إن وفاته كانت عام 639 هـ.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 345، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 300 ـ 301.

4. فخر الدِّين يُوسُف[1]:

كانت ولادة يُوسُف بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة 580 هـ 1184م [2]، وقُتل عام 647 هـ 1249م شهيداً بدمياط. بعد تولِّي الكامل سلطنة مصر، أمَّره، وجعله نديماً له، وبعثه رسولاً إلى الفرنج، وإلى إخوته في الشَّام، وإلى الخليفة في بغداد، وسلَّمه قيادة الجيش وتدبير المملكة[3]، فخلع العمامة وهي شعار الفُقهاء، ولبس الشربوش وهُو لباس الأُمراء[4]، وكان "عظيماً في الدولة الكاملية" [5]. ويبدو أن ثقة الكامل بفخر الدِّين كانت بلا حُدُود، واعتماده عليه كان كبيراً، فقد كان رسوله الخاصّ إلى الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، وهُو الذي أشرف على تنفيذ اتِّفاقية تسليم القُدْس لفريدريك، ورافق الإمبراطُور في زيارته لها، ممَّا جعل صداقته مع الإمبراطُور تتعمَّق إلى درجة تبادل الرسائل معه[6]، ويُقال بأنَّ فريدريك قد منحه رُتبة فارس[7].

واستمرَّ على وضعه المُميَّز في الدولة أيَّام العادل الثَّاني ابن الكامل فقد "كان الأمير فخر الدِّين ابن شيخ الشُّيُوخ من أجَلِّ الأُمراء، وأعظمهم عند العادل، ويقتاد به جماعة من الأُمراء والجُند"[8]، وكان رئيساً مُحتشماً[9]، لكنَّه واجه محنة شديدة بعد مقتل أخيه عماد الدِّين بدمشق. ورُبَّما اعتبر فخر الدِّين أن السُّلطان العادل الثَّاني مسؤولاً عن مقتل أخيه عماد الدِّين بإرساله إلى حتفه في دمشق، فأراد الانتقام منه، ورُبَّما كان هذا سبباً مُباشراً حرَّك لدى فخر الدِّين نيَّة مبيَّتة ضدَّ السَّلطنة الأيُّوبيَّة، التي كان فخر الدِّين من أكثر الناس معرفة بالفساد، الذي أصبح عليه مُلُوكها وأُمراؤها.

1 - ترجمته في : تلخيص محمع الآداب، ابن الفوطي، 3/ 453.
2 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 238.
3 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.
4 - الشربوش: قلنسوة طويلة مثلثة الشكل، كان يستعمله أرباب السيف من الأُمراء (المُعجم المفصل بأسماء الملابس عند العَرَب، رينهارت دوزي، ترجمة د. أكرم فاضل)، والكلمة معربة عن سربوس الفارسية، وتعني غطاء الرأس. (الألفاظ الفارسية المعرَّبة، السَّيِّد أدي شير، مادَّة: سربوس).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 190 ـ 194 ـ يُورد ابن نظيف نصَّ رسالتَيْن من فريدريك إلى فخر الدِّين.
7 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 82.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 215.
9 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 238 ـ 239.

وبعد أن سيطر الصَّالح أيُّوب بن الكامل على دمشق في تحدٍّ كبير لسلطنة أخيه العادل في مصر، وجد فخر الدِّين الطريق لإزاحة العادل من السَّلطنة، وبالتَّأكيد؛ كان فخر الدِّين يعتقد أن مصالحه مع أيُّوب ستكون أفضل ممَّا هي عليه مع أخيه العادل، فكاتبه، "واستحثَّه على سُرعة القُدُوم إلى مصر، واطَّلع النَّاصر داود على ذلك، فأطلع العادل، فقبض عليه، واعتقله في قلعة الجبل[1]، عام 641 هـ 1243م، وأقام فخر الدِّين في سجنه ثلاث سنين؛ حيثُ "لاقى شدائداً وضرَّاً"[2]، "وما كان يُمكنه النوم من القمل"[3].

ولمَّا دخل الصَّالح أيُّوب مصر بعد أن قبض على أخيه العادل أخرج فخر الدِّين من سجنه، فغادر السجن في موكب عظيم "اجتمع له خلق من الرعية، ودعوا له، لأنَّه كان مُحبَّباً إلى الناس لكرمه وحُسن سيرته، فبلغ الصَّالح ذلك، فاستشعر منه، ولم يُعجبه، وأمره بلزوم بيته، فلزم بيته غير مضيق عليه"[4].

إن ما جرى، من سجن فخر الدِّين بسبب أيُّوب، ثُمَّ الإقامة الجبرية بأمر من أيُّوب، يدل على علو همة هذا الأمير الذي وجد نفسه قادراً على التدخل في أمر السَّلطنة والصراع عليها، فإنْ صحَّ اتِّصاله بأيُّوب[5] فهُو دليل على وُجُود مشروع لديه لدُخُول لعبة السُّلطة، ودعمه لوُجُود سُلطان يناسب مصالحه ضدَّ سُلطان لا يناسبها، ولم يكن فخر الدِّين لينسى بناء القاعدة الشَّعْبيَّة لمشروعه المُستقبلي، فالأعداد الكبيرة من الناس التي احتفلت يوم خُرُوجه من السجن كانت من الضخامة والفاعلية؛ بحيثُ أخافت السُّلطان الجديد أيُّوب، فألزمه بيته حتَّى عام 643 هـ 1246م، حيثُ جاءته الضارَّة النافعة، فقد تُوفِّي أخوه مُعين الدِّين، ولم يبقَ من أولاد الشَّيخ غير فخر الدِّين يُوسُف، "فأفرج عنه السُّلطان أيُّوب، وخلع عليه، وأمَّره، وقدَّمه، وبالغ في الإحسان إليه"[6].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 200.
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 755، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، أحداث عام 643.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276
5 - وهذا أمر مُرجَّح، لأن خُرُوج أيُّوب من دمشق نحو مصر قد تمَّ بدعوة من أُمرائها، ولابُدَّ أن فخر الدِّين كان أبلغهم تأثيراً في قرار التحرُّك نحو مصر قبل أن يثبت أيُّوب أقدامه في الشَّام.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 424.

وتابع فخر الدِّين مُباشرة مهمَّة أخيه المُتوفَّى، فقاد العَسْكَر نحو الشَّام، وحاصر النَّاصر داود، أحد أطراف التحالف مع الفرنج ضدَّ الصَّالح أيُّوب، حتَّى أجابه إلى ما طلبه منه[1]. وفي عام 645 هـ 1247م، حاصر طبرية، وفتحها، ثُمَّ "حاصر عسقلان، وقاتل عليها قتالاً عظيماً، وفتحها"[2]، وكانتا قد سُلِّمتا للفرنج عام 641 هـ 1243[3].

وفي سنة 646 هـ 1257م، هاجم سُلطان حلب النَّاصر الثَّاني حمص، وتمكَّن من إجبار صاحبها الأشرف مُوسى حليف النَّاصر أيُّوب على التسليم[4]. كان النَّاصر أيُّوب مشغولاً بمرضه عن إنجاد حليفه ملك حمص[5]، لكنَّه مع ما هُو عليه من الضعف تحرَّك إلى الشَّام، وأقام بدمشق، وأرسل جيشه مع نائبه[6] في دمشق فخر الدِّين بن الشَّيخ لاستنقاذ حمص من يد الحلبيين[7]، فأحكم فخر الدِّين حصار حمص، ورماها بالمجانيق[8]، ولمَّا أرسل النَّاصر الثَّاني النجدات من حلب لفكِّ حصار حمص تصدَّى لها فخر الدِّين، وأوقع بهم خسائر كبيرة[9]، وشدَّد فخرُ الدِّين الحصارَ على حمص، حتَّى أشرف على أخذها[10].

وفي هذه الأثناء وصل إلى السُّلطان أيُّوب بدمشق الخبر بأنَّ "الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص لقصد الديار المصريَّة "[11]، فترك حصار حمص، وسحب قُوَّاته، وتوجَّه نحو مصر[12]. ويبدو أن السُّلطان كان يملك معلومات عن مكان إنزال الحملة الفرنجيَّة، وعرف أن دمياط هدف لويس، فشحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة، وعهد لبني كنانة وهُم مشهورون بالشجاعة والإقدام

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري/ 203.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري/ 216، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.
4 - العبر، الذهبي، 5/ 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 328، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 177.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 379.
7 - العبر، الذهبي، 5/ 188.
8 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.
9 - العبر، الذهبي، 5/ 188.
10 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 431.
11 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 6/ 259.
12 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 379، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 177.

لحماية المدينة من الداخل[1]، ثُمّ أمر السُّلطان نائبه في القاهرة ابن أبي علي بتجهيز الأُسطُول، وتسييره في النيل نحو دمياط[2]، واستكمل أيُّوب استعداداته العسكريَّة بتوجيه نخبة قُوَّاته مع قائد جيشه ورجل دولته الأوَّل فخر الدِّين يُوسُف إلى دمياط للتصدِّي للحملة المُتوقَّع وُصُولها من البحر. وتمركز فخر الدِّين بقُوَّاته على الساحل في جيزة دمياط من الغَرْب، وأصبح فرع النيل المُسمَّى دمياط يفصل بينه وبين المدينة[3]، وهُو موقع استراتيجي أثبت نُزُول الحملة الفرنجيَّة أمامه أنَّه كان مُوفَّقاً باختياره، فقد حَصَرَ بقُوَّاته جيشَ الفرنج، الذي تمكَّن من النُّزُول إلى البرِّ بين فرع دمياط وساحل البحر، وسدَّ عليهم طريق التقدُّم البرّيّ نحو الداخل.

ويصف شاهد عيان فرنجي رافق حملة لويس ما وجده الفرنج ساعة وُصُولهم ساحل مصر يقول: "وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمُسلمين على الخُيُول، وعلى الأقدام، وكان مصبُّ النيل في الوقت نفسه مُغطًّى بالسُّفُن العازمة على إعاقة هُجُوم شعبنا"[4] "ونزل الفرنج في البرّ الذي عسكر فيه المُسلمون، فناوشهم المُسلمون، واستشهد بعضهم. ولمَّا أمسى الليل رحل فخر الدِّين بمَنْ معه من العساكر... وخلا البرّ الغربي للفرنج"[5]، ولم يُقتَل من العَسْكَر أحد، سوى شيخ من المُتطوِّعة جاء من الكَرَك، واستشهد في هذه المُناوشات[6].

ويبدو أن فخر الدِّين لم يُحاول منع إنزال الفرنجة على البرّ المصري بشكل جدِّيٍّ، ولم يتصدَّ للحملة في وقت حرج جدّاً للغُزاة هُو ساعة تدافعهم نحو البرّ لإقامة رأس جسر لهم فيه، فلو فعل ذلك مع استعداداته الكُبْرَى، وفُقدان الفرنجة لعامل المُفاجأة، أو سرِّيَّة الحملة، وقتاله على أرضه وبين شعب يدعمه، فعلى الأقلّ؛ كان قد أوقع خسائر جسيمة في صُفُوف حملة لويس التَّاسع، ولكان أجبره على تغيير مكان الإنزال، إنْ لم نقل منعه نهائيّاً، ولكنَّنا نجد أن فخر الدِّين على عكس كُلِّ التوقُّعات والاحتمالات العسكريَّة التي يملك زمامها، قام بسحب قُوَّاته بعد مُناوشات بسيطة، بدت

1 - البيان والإعراب، المقريزي، 20 ـ 21، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 178.
2 - البيان والإعراب، المقريزي، 21.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1177.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219.

استعراضية أكثر منها حربية، وعبر نحو دمياط مُخْلِياً الساحة للفرنج لإتمام إنزالهم، وفتح ـ عامداً، أو مُهملاً ـ طريقَ دمياط أمام الفرنجة بأهون الأسباب، وأسهلها، علماً أن الفرنج لم يضغطوا عسكريّاً عليه لإجباره على الانسحاب، ولم يُشكِّلوا تهديداً حقيقيّاً لقُوَّاته.

كان انسحاب فخر الدِّين مُثيراً لدهشة الجُند والسُّكَّان والفرنجة على السواء. فلماذا انسحب خارقاً كُلَّ التَّقاليد العسكريَّة، وضارباً عرض الحائط بمصير دمياط، بل الديار المصريَّة، والدولة كُلّها؟!.

كان فخر الدِّين أكثر المُقرَّبين من السُّلطان أيُّوب، وحضر معه من الشَّام إلى مصر، وكان رفيقه ونديمه في الطريق، لذلك كان يُدرك فخر الدِّين مدى استفحال مرض السُّلطان، ورُبَّما كان يتوقَّع موته بين لحظة وأُخرى، ووريث المملكة الوحيد في أقصى الشَّام، إنَّها على ما يبدو الفُرصة التي انتظرها فخر الدِّين طويلاً، فالمعركة مع الفرنج يُمكن أن تطول على أسوار دمياط، لكنَّ المعركة على السُّلطة ستُحسم بشكل سريع إذا مات السُّلطان، فقرَّر الانسحاب نحو المُعسكر، لكنَّ النتائج المُفجعة لانسحابه رُبَّما كانت أكثر بكثير ممَّا توقَّع.

فانسحاب كُتلة الجيش الكُبْرَى بدُون قتال، دفعت حامية دمياط بقيادة الأُمراء الكنانيين للانسحاب منها، "فلمَّا رأى أهل دمياط رحيل العَسْكَر، خرجوا، ولم يبقَ بالمدينة أحد"[1]، وعندما تقدَّم الفرنج نحو المدينة، وجدوا الأبواب مُفتَّحة، وليس بها أحد، فاعتقدوا أنَّها مكيدة، وأحجموا عن دُخُولها أوّل الأمر[2]، ثُمَّ دخلوها، وتملَّكوا ما بها من السلاح والمُؤن والذخائر صفواً عفواً[3]. "وعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدِّين من أقبح ما يشنع به"[4]، وعدَّها بعض المُؤرِّخين سُوء تدبير[5]، أو قبيح رأي[6]، ولكنَّها تبقى بدُون تفسير مُقنع إلَّا إذا اعتبرنا أن السعي للسُّلطة كان من أهمِّ دوافع فخر الدِّين، والأحداث التَّالية تُؤكِّد ذلك:

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.
5 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 369.
6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 330.

لَمّا وصل فخر الدِّين وعساكره، وخلفهم الأُمراء الكنانيون، وأهل دمياط إلى مُعسكر السُّلطان في أشموم طناح، أمر السُّلطان بشنق الأمراء الكنانيين[1]، "وكانوا نيّفاً وخمسين أميراً[2]، وتغيَّر السُّلطان على الأمير فخر الدِّين، وقال: أما قدرتُم تقفون ساعة بين يدَيْ الفرنج؟! وقامت الشناعة من كُلِّ أحد على الأمير فخر الدِّين"[3].

وهُنا؛ نجد تناقضاً كبيراً في موقف السُّلطان أيُّوب، فقد نتفهَّم إعدامه للأمراء الكنانية بأنَّه تدبير عسكري أثناء الحَرْب لمنع غيرهم من التهاون، لكنْ؛ ما هُو مُبرِّر تغاضيه عن فخر الدِّين، وهُو السبب الرئيس لضياع دمياط، خاصَّة وأن مُخالفته للأوامر العسكريَّة بالانسحاب دُون قتال جليّة واضحة؟! فهل كان السُّلطان - حقّاً - غير قادر على عُقُوبته، أو على الأقلّ مساءلته، أو أنَّه كان رجل الجيش القوي؟! فإن لم نقل: إن السُّلطان خاف منه، فقد نقول: إنَّه كان بأمسِّ الحاجة إليه في مثل تلك الظُّرُوف، وربَّما كان ردّ فعله القوي تجاه الكنانيين لعدم قدرته على التصرُّف مع فخر الدِّين. ويُبرِّر المقريزي بعبارة دبلوماسية جدّاً موقف السُّلطان تجاه فخر الدِّين؛ حيث يقول: "وكان الوقت لا يتَّسع إلَّا للصبر والتغاضي"[4]، ولكنْ؛ حتَّى هذا التغاضي لم يُعجب أُمراء العَسْكَر، وخافوا أن يكون السُّلطان قد بيَّت لهم الغدر، فَهَمُّوا بقتله، لكنَّ فخر الدِّين أشار عليهم بالصبر، حتَّى يتبيَّن أمر السُّلطان، "وقال لهم: إنَّه على فراش الموت، وإلَّا فهُو تحت أيديكم؛ فتركوه"[5].

فهل نستشفُّ بوادر انقلاب عسكري على السُّلطان؟ وإن كان ذلك حقيقة فيبدو لنا أن التاريخ يُعيد نفسه، ففي الظُّرُوف نفسها والمكان نفسه كان ابن المشطوب يُدبِّر مُؤامرة لخلع الكامل، وها هُو فخر الدِّين ومعه مجموعة من أُمراء العَسْكَر يُريدون الإطاحة بأيُّوب ابن الكامل.

وكما فعل الكامل من قبل أسرع أيُّوب مُغادراً أشموم طناح نحو المنصُورة، ولكن المرض كان قد نال منه، وانتظار موته بالمرض هُو الذي دفع عنه الموت بسُيُوف أُمراء الجُند الموالين لفخر الدِّين.

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.
2 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
5 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 237، - وانظر أيضاً: المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 216، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

وبالفعل؛ لم تطلْ حياة السُّلطان، فتوفي بعد وُصُوله المنصُورة، دُون أن يوصي بخلافته إلى أحد، ولا حتَّى لولده تُوران شاه، فهُو يعرف أنَّه لا يصلح للحُكْم[1]، فظهرت على الفور ثلاث شخصيَّات كلّ منها يتشوَّف للسَّلطنة، وكالعادة؛ لم يختلفوا أوَّل الأمر، بل اتَّفقوا، ورتَّبوا أُمُور الدولة بعد وفاة سُلطانها أحسن ترتيب، وهُم:

1. **شَجَر الدُّرّ**: جارية أيُّوب وزوجته، وأمّ ولده خليل المُتوفَّى، وأقرب الناس إليه، وقد أخذت زمام المُبادرة واستدعت كلاً من:
2. **الطواشي جمال الدِّين مُحسن**، وكان أقرب الناس إلى السُّلطان، وأكثرهم مُلازمة له.
3. **الأمير فخر الدِّين**: مُقدَّم الجيش، والأمير الأكثر شعبية بين الناس، وقد عرف الفرنج مكانته، قال عنه جوانفيل: "كان فخر الدِّين أعظم الناس مكانة في العالم الإسلامي"[2].

واتَّفقت معهم على تدبير المملكة[3]، وشكَّلوا ما يُشبه مجلس حُكْم انتقالي، يتَّضح فيه جناحان، **الأوَّل**: سياسي، وتُمثِّله شَجَر الدُّرّ، **والثاني**: عسكري، ويُمثِّله فخر الدِّين. وكانت أُولى خطوات مجلس الحُكْم هذا أنْ طلب الأُمراء والقادة والوُلاة والجُند ليحلفوا، وأداء القَسَم هُو الضمان الشرعي لولاء الناس، وكان نصُّ القَسَم الذي أُملي على الناس يتضمَّن الولاء للسُّلطان؛ فهم لم يعلنوا موته بعد، ومن ثَمَّ؛ لابنه تُوران شاه، ولفخر الدِّين قائداً عامّاً للجيش، وأتابكاً لتُوران شاه، ومُدبِّراً لدولته[4]، وكتبوا إلى نائب القاهرة ابن أبي علي ليحلف الناس على ذلك[5].

من ذلك كُلِّه؛ يبدو لنا أن الأمير فخر الدِّين هُو رجل الدولة الأقوى، الذي يُسيطر على الجيش، مع أن مماليك السُّلطان أيُّوب يُشكِّلون قُوَّة قتالية كبيرة فيه، لكنْ؛ على ما يبدو، لم يكونوا قد وصلوا إلى التحكُّم بالقيادات العُليا، ولم تبرز كفاءتهم وأهليَّتهم للقيادة بعد، ولن يتمّ ذلك حتَّى تجري معركة المنصُورة. ونستطيع أن نتوقَّع أن فخر الدِّين رضي أن يكون الرجل الثَّاني اسميَّاً، بعد تُوران شاه بن أيُّوب، لعدَّة أسباب:

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
2 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 36/ 83.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.

1 ـ تأمين غطاء شرعي تتمُّ الدعوة له، بعد إعلان موت أيُّوب، فالدعوة المُباشرة لنفسه ستُواجه معارضة شديدة من الأطراف كُلِّها.

2 ـ كان فخر الدِّين يشكُّ بإمكانية وُصُول تُوران شاه إلى مصر، ففي الشَّام أعداء كُثُرٌ لتُوران شاه يتربَّصون به، وسيتكفَّلون بمنعه من إتمام سفره، إضافة إلى مخاطر الطريق الأُخرى من أقاصي شمال الشَّام حتَّى مصر[1].

3 ـ مُوافقة فخر الدِّين على سلطنة تُوران شاه تهدئة فعَّالة لمعارضيه المُتوقَّعين، وأولهم شَجَر الدُّرِّ التي تتمتَّع بولاء مماليك أيُّوب وهم جمرة الجيش، وأخطرهم ابن أبي علي نائب السُّلطان في القاهرة.

أمَّا على أرض الواقع؛ فقد سبقت الأفعال النوايا، فالوقت لا يكاد يتَّسع لتردُّد مُتردِّد، ولا لتأنِّي مُتأنٍّ، فمُباشرةً؛ أخذ الأمير فخر الدِّين بالتصرُّف بالمملكة، وتدبير أُمُور الدولة والجيش، وأعاد إقطاع البلاد بمناشير جديدة[2]، "وأخذ فخر الدِّين بالاستبداد والاستقلال بالمملكة، وصار يركب في موكب عظيم، وجميع الأُمراء في خدمته" [3].

وقد وصلت أصداء ذلك إلى مُعسكر لويس التَّاسع، واعتقدوا بأنَّ فخر الدِّين قد خلف السُّلطان رَسْميّاً، ويُؤكِّد ذلك جوانفيل، مُرافق الملك، الذي كتب يقول: "اختار المُسلمون مكان السُّلطان، الذي مات واحداً اسمه فخر الدِّين، وحمل على رايته التي تألَّفت من ثلاثة أقسام:

على القسم الأوَّل، رنك الإمبراطُور فريدريك. وعلى الثَّاني، رنك سُلطان حلب. وعلى الثَّالث، رنك سُلطان القاهرة " [4]. وحَمْلُ فخر الدِّين لهذه الرنوك الثلاثة ما هُو إلَّا تعبير عن التحالف الوثيق مع فريدريك، والرمز الثَّاني للشام التي تتبع لسُلطان مصر، وليس رمز حلب كما اعتقد جوانفيل.

1 ـ العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يُوسُف، 142.
2 ـ المنشور: رُقعة من الورق، يُكتَب عليها اسم الإقطاع، واسم صاحبه.
3 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 445.
4 ـ سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 82 ـ 83.

وبالمُقابل؛ كان الرجل الآخر القوي وهُو نائب القاهرة ابن أبي علي لا يُفوِّت الوقت. فقد تتالت عليه الكُتُب من المنصُورة باسم السُّلطان أيُّوب، "وشكَّ بعلامة السُّلطان، فدقَّق بأخبار المُعسكر حتَّى عرف موته، فاشتدَّ خوفه من فخر الدِّين، وخشي أن يتغلَّب على المُلك، فاحتاط لنفسه"[1]، ولمَّا كان يعرف تمام المعرفة قُوَّة فخر الدِّين، وأنَّه لا قِبَلَ له بمُنافسته، فقد تعلَّق أمله بحُضُور تُوران شاه، فأرسل قُصَّاده تترى نحو تُوران شاه لإحضاره على جناح السُّرعة، وكتب له يقول: "المصلحة في السُّرعة، ومتى تأخَّرت فات الفوت، وتغلَّب الأمير فخر الدِّين على البلاد"[2].

وكانت أخبار مصر السِّياسيَّة تصل إلى الفرنج بواسطة عُيُونهم، أو عبر الأسرى، وممَّا وصلهم ـ بشكل شبه دقيق ـ تأزُّم الوضع بين السُّلطان أيُّوب وفخر الدِّين بعد انسحابه من دمياط. أمَّا نتائج ذلك، وعلاقة فخر الدِّين بابن أبي علي نائب القاهرة؛ فقد وصلتهم مُشوَّشة في أوَّلها، ومعكوسة في آخرها، ورُبَّما كان السبب في صياغتها من قِبَل الكُتَّاب المُرافقين للحملة، والذين جعلوها تخدم أهدافهم[3].

وكانت الدلائل كُلُّها تُشير إلى تفوُّق فخر الدِّين في أيِّ صراع قادم على السُّلطة، فهُو الأفضل تجربة، والأقوى، والأكثر أتباعاً، والأشدُّ استعداداً لهذا الأمر. ولكن القدر كان له بالمرصاد، عندما أخرجه من حلبة الصراع بأهون الأسباب، فقد هاجم الفرنجُ ـ ليلاً ـ المنصُورة؛ حيثُ يُعسكر المُسلمون "الذين لم يشعروا إلَّا والفرنج معهم في المُعسكر، وكان فخر الدِّين في الحَمَّام، فخرج مدهوشاً، وركب فرسه في غير اعتداد، وليس معه سوى بعض مماليكه والأجناد، فلقيه طلب الفرنج الدواية، وكانت طلبته الفرنج، فقتلوه"[4]، "فقد طعن، ووقع ضربتان في وجهه، فسقط"[5]. جاء استشهاد فخر الدِّين في موقعة المنصُورة ليُحقِّق له ولمُنافسيه على السواء أُمُوراً عظيمة: بالنِّسبة له، فقد محا ـ باستشهاده مُدافعاً عن المنصُورة ـ عارَ تراجعه عن دمياط، وبالنسبة لمُنافسيه، فقد أزاحه الموت من أمامهم بأيسر السبل، كما

1 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
2 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 445.
3 ـ التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1124.
4 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 447.
5 ـ مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 91. ـ وينفرد صاحب مرآة الجنان بجعل وفاة فخر الدِّين عام 648 هـ، بينما هي ـ وُفقاً لتأريخ الموقعة، ولكُلِّ مَنْ ترجم له من المُؤرِّخين ـ عام 647 هـ.

أتاح استشهاد فخر الدِّين لقُوَّة جديدة بالظهور، وهي مماليك الصَّالح أيُّوب، الصالحية، أو البَحْرِيَّة، الذين تصدّوا لهُجُوم الفرنج على المنصُورة، وأوقعوا بهم خسائر فادحة، ولمع ـ من يومها ـ اسم بيبرس البندقداري، وفارس الدِّين أبو الهيجاء، وغيرهما[1]. وبموت فخر الدِّين؛ فقدت الدولة آخر رمز يُمثِّل العصر الأيُّوبي، ومهَّد موته لقيام عصر جديد؛ هُو عصر المماليك.

كان فخر الدِّين "عاقلاً جواداً ممدحاً مُدبِّراً خليقاً بالملك محبوباً إلى الناس"[2]، ويُتابع ابن تغري بردي قائلاً عنه: "ولمَّا مات الملك الصَّالح أيُّوب على دمياط نُدب للمُلك، فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه"[3]، وهذا خبر ضعيف، لا تدعمه الوقائع التي جرت، ونعتقد أن ابن تغري بردي قد وَهِمَ بذلك، ولكنَّنا نحار أمام تفسير ما حصل: "فيَوْم مقتله نهب مماليكُهُ وبعضُ الأُمراء دارَهُ، وكسروا صناديقه، وخزائنه، وأخذوا أمواله، وخُيُوله، وأحرقوا داره"[4]. هذا التصرُّف لا يتمُّ ـ عادةً ـ إلَّا ضدَّ شخص مكروه مستبدٍّ، ويأتي كانتقام لأفعال قام بها، وهُنا؛ نستبعد هذه الأسباب، وسيبقى سرُّ هذا التصرُّف لا يجد تفسيراً منطقياً إلَّا إذا حاولنا التوصُّل إلى مقاربة بالاستنتاج، فقد يكون ظرفُ الحَرْب والفَلَتَانُ الأخير بموت السُّلطان، ثُمَّ موت أقوى الرجال بعده، وعدم وُجُود أيِّ قريب لفخر الدِّين في الدولة يُخشَى منه، فهُو آخر إخوته وفاةً. لكنْ؛ يبقى التفسير ناقصاً؛ لأن مَنْ قام بالنهب والحرق هُم مماليكه، الذين هُم تربيته، وأولاد نعمته !.

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 363.
3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 363.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 448.

المبحث الرَّابع:

دور بعض الأتباع

كان من الطبيعي في نظام الحُكْم الأيُّوبي، وطريقة عمل الجهاز الإداري فيه، أن يرتقي الموهوبون من أصغر المراتب في الحاشية إلى تولِّي بعض المناصب الحكومية، وأن يصلوا إلى أعلاها في بعض الأحيان، معتمدين على شخصياتهم المتفوِّقة، وعلى مواهب إدارية مُتميِّزة، وبشكل خاصٍّ؛ على قُربهم من الملك، أو الحاكم، الذي كان في أمسِّ الحاجة إلى رجال أكفَّاء، يعرفهم، ويثق بهم. ويبدو أنَّهم لم يُدركُوا حقيقة كانت تتكرَّر أمامهم، وهي أنَّهم كُلَّما اقتربوا من الشُّهرة والنجاح أكثر اقتربوا من النِّهاية أكثر، فعلى الدوام كانت المُلُوك تبطش بعمَّالها عند اقترابهم من القمَّة، وربَّما كانت ضربة استباقية، يُوجِّهونها ضدَّ مطامع استقلالية كانوا يفترضون وُجُودها.

1. الحاجب علي:

يبدو من التسمية أنَّه كان حاجباً للملك الأشرف، وأن علاقته به كانت قديمة، حتَّى حاز على ثقته الكاملة، فكان "حُسام الدِّين الحاجب علي نائب الملك الأشرف في بلاده"[1]، ورسوله في المهمَّات من الأُمُور. فقد بعثه الأشرف بمهمَّة ديبلوماسية إلى أخيه المُعظَّم ليردعه عن الهُجُوم على حمص وحماة عام 619 هـ 1222م[2].

وكان الحاجب علي يُعدُّ من أخصِّ أصحاب الأشرف، والمُقرَّبين إليه، لذلك نجد أن الأشرف ـ بعد عصيان المُظفَّر عليه ـ أخذ منه خِلاط، وأرسل الحاجب عليّ نائباً له فيها[3]، وأهمِّيَّة خِلاط تؤكِّد لنا مدى اعتماد الأشرف على الحاجب علي. وجاءت الأحداث لتُثبت جدارة الحاجب علي، ففي عام 623 هـ 1226م، بعد أن قام شرف الملك، وزير جلال الدِّين منكبرتي ونائبه في تفليس، بنَهْب أعمال أرزن الرُّوم، مرَّ في طريق عودته بالقُرب من خِلاط ومعه قُوَّة من جيشه، فاعترضهم الحاجب عليّ "واستنقذ

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 95، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 188.

ما معهم من الغنائم، ثُمَّ عاد بعسكره سالمين"[1]. وعندما هاجم جلال الدِّين منكبرتي خِلاط في العام نفسه، وكان يتمتَّع بسُمعه مُرعبة، وجيش قوي، خاصَّة بعد أن فتح تفليس عاصمة الكرج، قام الحاجب علي بواجب الدفاع عن خِلاط بوجه هذه القُوَّة العاتية خير قيام[2]، وبعد أن تمكَّن جلال الدِّين من احتلال حاضر خِلاط، قاد الحاجب عليّ الهُجُوم المُعاكس بنفسه، "وترجَّل الحاجب عليّ، ووقف في نحر العدوِّ، وأبلى بلاءً عظيماً"[3]، حتَّى أجبر جلالَ الدِّين عن التراجع عن خِلاط[4].

وفي عام **624** هـ **1227**م، سار الحاجب عليّ، "وهُو النائب عن الملك الأشرف بخلاط، والمُقدَّم على عساكرها، إلى بلاد أذربيجان، فيمَنْ عنده من العساكر، "وتسلَّم خوى، وما جاورها من الحُصُون بالاتِّفاق مع زوجة[5] جلال الدِّين خوارزم شاه[6]، وأخذ خزائن جلال الدِّين، وعائلته، وعاد إلى خِلاط، فقيل له: "بئس ما فعلتَ، اعتديتَ عليه، لتُتلف البلادَ، فلم يُفكّر"[7]، ولذلك اتَّهمه بعض المُؤرِّخين بأنَّه سبب هُجُوم جلال الدِّين منكبرتي على خِلاط فيما بعد، وأخْذها[8].

ذلك كُلُّه يدلُّ على أن الحاجب عليّ قد امتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، تجاوزت المُتعارف عليه بالنِّسبَة لنائب في خِلاط، كما أن أعماله العسكريَّة هذه، على ما هي عليه من الخُطُورة تجاه الخَوارزميَّة، وما ستجرُّه من مُحاولات انتقامية، فإنَّها ـ في الوقت نفسه ـ فتحت عينَيْ الأشرف على هذا النائب، الذي يتصدَّى لأقوى جيش في المنطقة، ويردّه، ثُمَّ يغزوه في بلاده، ويأخذ بعضها منه، وسيجعله الأشرف يدفع ثمن هذه الظاهرة من القُوَّة والإخلاص، وإن كانت في خدمته. والغريب أن مَنْ سيتصدَّى للحاجب علي أوَّلاً هُو سيِّده الأشرف، الذي اعتبره خطراً شديداً عليه، ويبدو أن الحاجب عليّ لم تخطر على باله تلك الأُمُور كُلُّها، واعتقد أنَّه يُحسن البلاء في سبيل الملك الأشرف، فعاد،

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 456.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 136.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 461.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 190.
5 - زوجة جلال الدِّين: هي بنت جيهان خواجا وزير جلال الدِّين سُلطان الخَوَارزميَّة، أرسلها الحاجب عليّ إلى الأشرف، فانتقم جلال الدِّين بالهُجُوم على خِلاط، وفتحها، وأخذ منها ابنة ملك الكرج زوجة الأشرف. (أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 15).
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 138، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 140.
8 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 15.

"وجمع العَسْكَر لقصد الخوارزمي"[1]، لكنَّ تحرُّك علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم بالقُرب منه جعله يُؤجِّل العمل ضدَّ الخوارزمي، ويلتفت إليه، فبعد أن "استولى كَيْقُبَاذ على أرزنجان أراد التّوجُّه إلى أرزن الرُّوم، ليأخذها، وفيها ابن عمِّه طَغْريل شاه بن قلج أرسلان، فلـمَّا سمع صاحبُهَا أرسل إلى الأمير حُسام الدِّين عليّ بخلاط يستنجده، وأظهر طاعة الأشرف"[2]، وتحرَّك الحاجب عليّ لحماية أرزن الرُّوم، ورُبَّما كان يخشى بأنْ يثني كَيْقُبَاذ بخلاط بعد توسُّعه نحو أرزن الرُّوم. ولـمَّا علم كَيْقُبَاذ بتحرُّك الحاجب عليّ تراجع عن أرزن الرُّوم[3].

وهُنا؛ طار صواب الأشرف من قُوَّة الحاجب عليّ وتحكُّمه في الجزيرة، فبعد تصدِّيه للخورازمي، وأَخْذ بلاده، وخزائنه، لم يبقَ إلَّا التّصدِّي للرومي، حتَّى يُصبح الحاجب علي ملك الجزيرة، وحاكمها الحقيقي، ويبدو أن الغيرة والحسد كانا يوغران صدره على الحاجب عليّ، وكان تخوُّفه منه يزداد مع كلِّ انتصار له، ولم يُفكِّر الأشرف بأنَّ هذه الانتصارات باسمه، وتُجيَّر لحسابه، بل فوق هذا، فالناس يقولون إن واحداً من أتباع الأشرف يفعل كذا، وكذا[4].

لكنَّ المُلْك عقيم، والمُلُوك قتلوا أخوة لهم، فكيف بتابع غريب؟!

وفي عام **626** هـ **1229**م، أرسل الأشرف إلى خِلاط مملوكه عزّ الدِّين آيبك، وهُو من أكبر الأُمراء عنده[5]، وكان يتولَّى نيابة منطقة دارا للأشرف[6]، فالمهمَّة جليلة تستدعي رجلاً جليلاً للقيام بها، ويبدو أن العداء كان مُستحكماً بين عزّ الدِّين آيبك والحاجب عليّ[7]، فلذلك اختاره الأشرف.

ولـمَّا وصل آيبك إلى خِلاط، "وصله كتاب الأشرف بالقبض على الحاجب علي"[8]، فاعتقله آيبك، وبعد أيَّام وصل كتاب إلى الأشرف "بأنَّ الحاجب عليّ مات بالإسهال، وكان الأمر على غير

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 161.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.
6 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 15.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 180.

ذلك"[1]، فقد قتله آيبك غيلة[2]، ولم يعلم أحد من الناس السبب في قتله. فقيل "إن الكامل أمر أخاه الأشرف بذلك لأشياء باطنة، لم يطَّلع الناس عليها"[3]، وقد يكون للكامل المصلحة ذاتها التي للأشرف في التخلُّص من الحاجب علي، أمَّا ما عدا ذلك؛ فهي ـ غالباً ـ تكهُّنات من الناس؛ لإيجاد سبب لعمل لم يجدوا له سبباً ظاهراً.

أمَّا صاحب كتاب أخبار الأيُّوبيِّين؛ فيجعل سبب قتل الحاجب علي هُو أَخْذه لزوجة جلال الدِّين منكبرتي، الذي سبب هُجُوم جلال الدِّين على خِلاط، وأَخْذه زوجة الأشرف منها، "فَسَيَّر الأشرف إلى مملوكه عزّ الدِّين صاحب دارا في أن يقبض على الحاجب، ويقتله، فقتله"[4].

وهُنا؛ يجب أن نذكر أن هُجُوم جلال الدِّين الناجح على خِلاط، وفَتْحها، وأَخْذ زوجة الأشرف منها كان بعد قتل الحاجب علي، وأثناء ولاية عزّ الدِّين آيبك عليها.

إن كُلّ ما عرفناه عن الحاجب علي هُو أن لقبه حُسام الدِّين، وأنَّه ابن حَمَّاد[5]، وأنَّه "من أهل المَوصل، واتَّصل بخدمة السُّلطان الأشرف، وصار من أخصِّ أصحابه، وأزلامه"[6]. وقال ابن الأثير عن الحاجب علي: "كان حافظاً لصاحبه، مُشفقاً عليه، وحسن السيرة في الرعية"[7].

وقال ابن واصل عنه: "كان ـ رحمه الله ـ حسن السيرة، كريماً، كثير البرّ، والصدقات، عمَّر الخانات في طُرُق السبيل"[8]. ولم نعرف من أهله سوى أخ له اسمه بدر الدِّين عُثمان، كان قد ترقَّى في خدمة الأشرف أيضاً، حتَّى إنَّه كان رسوله إلى دار الخلافة عام 622 هـ[9]، فلمَّا سمع الأشرف بموت الحاجب علي ألقى القبض على عُثمان "وأخذ جميع ما له، واستقاله، وبقي في الاعتقال مُدَّة، ثُمَّ أطلقه"[10].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 180.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.
4 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485، والمنصُوري، ابن نظيف، 173.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263، ـ راجعْ ترجمة الحاجب علي في: شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 119.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 118، حاشية المُحقّق من تاريخ ابن الفُرات، 5 / 172.
10 - المنصُوري، ابن نظيف، 180.

ويبدو أن أبلغ رَدٍّ على الأشرف لقتله الحاجب علي، لا لذنب سوى تميُّزه، وتوفيقه، كان من جلال الدِّين الخوارزمي، الذي جاء مقتل الحاجب في مصلحته، فقد حصر خِلاط، وملكها، وأسر عزّ الدِّين آيبك النائب الجديد للأشرف بها، وقتله[1].

وجاء العدوُّ الأكبر للحاجب علي الذي هُو جلال الدِّين منكبرتي، فانتقم له من الأشرف؛ حيثُ أخذ خِلاط منه عام 627 هـ 1230م، وردَّ إلى الحاجب علي اعتباره، فقد شعر الناس بفقده، كما قام جلال الدِّين بالانتقام له من آيبك، فقتله.

2. الخادم صواب:

هُو شمس الدِّين صواب العادلي، نسبة إلى الملك العادل بن أيُّوب، فقد "كان أكبر الخُدَّام العادلية، وأوثقهم"[2]. كان صواب خادماً طواشياً[3]، تربَّى في ظلِّ الملك العادل، ولمَّا تُوفِّي العادل، انتقل للخدمة مع ابنه، ووَلِيّ عهده الملك الكامل، الذي سلَّمه قيادة الجيش، فكان يُضرَب به المَثَلُ في الشجاعة[4]، وذُكر أنَّه "أحد الفُرسان المذكورين، كان إذا حمل يقول: أين أصحاب الخصي"[5]. كان له أيَّام عزِّه أكثر من مائة خادم، وأكثرهم أصبحوا ـ فيما بعد ـ أُمراء[6]، وكان صاحب برٍّ، وصدقة، ومعروف بين الناس[7].

وفي عام 629 هـ 1232م، تحرَّك الكامل نحو بلاد الشَّرْق قاصداً آمد، فاصطحب معه ابنه الصَّالح أيُّوب، وبعد فتح آمد ولَّى الكاملُ ابنَهُ الصَّالح نائباً عنه في آمد وبلاد الشَّرْق، ولكنَّه وضع معه شمس الدِّين صواب، فكان صواب يتصرَّف في كُلِّ شيء "والصَّالح في صُورة النائب فقط"[8]، فكان لصواب النقض والإبرام في كافَّة أُمُور حُكْم بلاد الشَّرْق، أمَّا الصَّالح؛ فهُو صُورة معه[9].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 309، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.
3 - الطواشي: هُو مملوك خصي، وكان يُخصَّص للخدمة في دُور النساء.
4 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149.
5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري ، 148.
6 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149، والمُختار، ابن الجزري ، 159، ومرآة الجنان، اليافعي، 4/ 60.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 159.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17 ـ 134.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.

وفي عام 631 هـ 1234م، تحرَّك الملك الكامل من مصر ليقوم بحملته ضدَّ سلطنة سلاجقة الرُّوم، وانضمَّ إليه كُلُّ مُلُوك بني أيُّوب، وأُمرائهم، فتشكَّل لديه أكبر جيش أيُّوبي بعد عصر صلاح الدِّين[1]، وكان الخادم صواب هُو قائد مُقدِّمة الجيش "الشاليش"[2].

ولَّما عجز الكامل عن اجتياز الممرَّات الجبلية لدُخُول بلاد سلاجقة الرُّوم، شكَّل قُوَّة بقيادة المُظفَّر ملك حماة ومعه الخادم صواب، فأوقع بهم جيش علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وأسر المُظفَّر، كما أسر صواب، لكنَّ علاء الدِّين أطلقهم، وأكرمهم[3]، وعاد صواب ليُقيم في آمد نائباً كما كان.

وفي عام 632 هـ 1235م، تُوفِّي شمس الدِّين صواب في آمد وهُو نائب للكامل فيها، ودُفن بها[4]. وبعد وفاة صواب استقلَّ أيُّوب بن الكامل بحُكْم بلاد الجزيرة، وتسلَّم حصن كيفا، بما فيه من الذخائر والمال، وصار يحكم في آمد، وبلادها، وحَرَّان، والرقَّة، والرُّهَا، وسروج، ورأس عين، وما يتبع تلك المُدُن من البلاد[5].

3. الخادم طَغْرِيل:

عندما اشتدَّ المرض بالملك الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين، عهد بالمُلك لابنه الصغير مُحمَّد، ولقبه العزيز، وكان عُمره ثلاث سنين، وتجاوز ـ بذلك ـ ما جرت به العادة من تولية الابن الأكبر، وكان ذلك خوفاً منه على مُلكه من عمِّه العادل، فابنه العزيز هُو ـ في الوقت نفسه ـ ابن بنت العادل، فأمل أن يحافظ ـ بذلك ـ على المُلك في ذُرِّيَّته، ولصغر سنِّ العزيز جعل من مملوكه طَغْرِيل مُربِّياً وأتابكاً لولده، ليقوم بأمره، ريثما يبلغ أشدَّه.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 149.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 149، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.
4 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 60، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 159، ـ وينفرد ابن شدَّاد، فيذكر أن صواب تُوفِّي عام 633 هـ (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 524).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 134.

كان طَغْرِيل ـ ولقبه شهاب الدِّين[1] ـ مملوكاً للظاهر غازي من أصل رومي، وثق به، وأمل منه أن يحفظ مُلك ولده الصغير. ولَّما مات الملك الظَّاهر قام طَغْرِيل بأمر العزيز، وأمَّر مملكة حلب خير قيام، كان الملك الأشرف بن العادل يقول عنه: "إنْ كان لله وَليّ في الأرض فهُو هذا الخادم"[2].

وقد ذكره المُؤرِّخ ابن الأثير، وهُو من ناقدي البيت الأيُّوبي ومَنْ يلفُّ لفَّه، قال: "هُو من خيار عباد الله، أَحْسَنَ السيرةَ، وعَدلَ في الناس، وأزال كثيراً من السُّنن الجارية، وأعاد أملاكاً كانت قد أُخذت من أربابها، وقام بتربية الطفل أحسن قيام، وحفظ بلاده، وملك ما كان يتعذَّر على الظَّاهر مُلكه، وما أقبح بالمُلُوك وأبناء المُلُوك أن يكون هذا الرجل الغريب المُنفرد أحسن سيرة وأعفّ عن أموال الرعية وأقرب إلى الخير منهم، ولا أعلم ـ اليوم ـ في وُلاة أُمُور المُسلمين أحسن سيرة منه"[3].

وقال عنه ابن الجزري: "كان صالحاً زاهداً مُحسناً مُتصدِّقاً يُحيي ثُلث الليل صلاة، ويجالس الصالحين، وكان واسطة خير. وكان قد طهَّر حلب من الفُسق والفُجُور والمكس والخُمُور[4]".

---

1 - رسم بعض المُؤرِّخين الاسم: طغرل، وبعضهم بزيادة ياء فيه: طَغْرِيل. راجِعْ ترجمته في: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 7/ 100، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 215 ـ 216، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6 / 286، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 145.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 154.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 313.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 154.

الفصل الثَّاني

العلاقات الخارجيَّة للقبائل البدويَّة

المبحث الأوَّل:

سُلطة الدولة وقُوَّة البدو

مع أن الحُكَّام الأيُّوبيِّين كانوا أكراداً بأصلهم، فلم يُلاحَظ اهتماماً خاصَّاً منهم بالأكراد، أو بتميُّز لوضعهم، أو بتحامل على المجموعات والقوميات الأُخرى. ويُمكن أن نردَّ ذلك إلى أن الأُسرة الأيُّوبيَّة الحاكمة قد تعرَّبت تماماً بثقافتها، وتربيتها، فقد نشأ أفراد الأُسرة الأيُّوبيَّة "نشأة عربية إسلامية، وشغفوا حُبَّاً باللُّغة العَرَبيَّة، وآدابها، وعُلُومها، وقرَّبوا إليهم الشعراء، والعُلماء، والكُتَّاب"[1]، وكان لتعلُّقهم الشديد بالإسلام أكبر الأثر بسُرعة تعرُّبهم، وهذا ينطبق على كُلِّ الأكراد، وليس على الحُكَّام الأيُّوبيِّين فقط[2]، وإن الصدامات المحدَّدة التي تمَّت بين الأيُّوبيِّين وبعض القبائل العَرَبيَّة، مثل حملتهم في مصر على بني كنز الدولة، أو الجذاميين، فهي حالات خاصَّة، تمَّت تحت ضغط ظُرُوف سياسيَّة خاصَّة[3].

وعلى العكس من ذلك؛ نجد أن ما ارتقى إليه أُمراء القبائل العَرَبيَّة في مصر والشَّام في العصر الأيُّوبي فاق كُلَّ ما سبقه، وذلك نتيجة لتنامي دورهم السِّياسي والعسكري، إن كان في الصراعات الدَّاخليَّة بين مُلُوك البيت الأيُّوبي، أو في الصراع ضدَّ فرنج الساحل الشَّامي، فقد أحدث العادل منصب إمرة العَرَب في الشَّام، وقلَّده للأمير حديثة[4] بن عقبة بن فضل بن ربيعة[5]، وتوارث هذا

---

1 - في تاريخ الأيُّوبيِّين، أحمد العبادي، 2/ 94.

2 - لقد بلغ من تعرُّب الأكراد في العصر الأيُّوبي روايتهم للحديث، وتعمُّقهم في الفقه، وتذوُّقهم للشعر العَرَبي، ونظم بعضهم لبديع الشعر، انظرْ: ديوان الملك الأمجد الأيُّوبي، وكذلك قصيدة جُندي كُردي في رثاء أمّ المُظفَّر ملك حماة. (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 124).

3 - دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، 118.

4 - قبائل العَرَب، العمري، 117.

5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 206، - يقول ابن خلدون: إن الإمرة على العَرَب كانت زمن العادل لعيسى بن مُحمَّد بن ربيعة، ثُمَّ بعده لمانع بن حديثة بن عقبة بن فضل، الذي تُوفِّي عام 630 هـ، وخلفه ابنه مهنَّا، ومهنَّا بن مانع هُو الذي حضر معركة عَيْن جالُوت مع المُظفَّر قطز، وأقطعه بعدها سلمية. (العبر، ابن خلدون، 6 / 18).

المنصبَ أبناؤه، وازدادوا رفعة وعزَّة ومنعة، حتَّى أصبح الأمير منهم يُسمَّى ملكاً[1]، ولا يختلف عن المُلوك إلَّا بطريقة حياته البدويَّة[2]. وكانت رتبة الإمرة تعني منح بُوق يُضرَب على بابه، وفي تحرُّكاته، وعَلَم يرفعه أثناء مسيره[3].

وقد نظَّمت الدولة الأيُّوبيَّة - فيما بعد - علاقاتها مع أُمراء البدو من خلال ديوان خاصٍّ، يُشرف عليه موظَّف عالي المُستوى؛ يُسمَّى المهمندار، رُبَّما كانت وظيفته تُعادل مرتبة وزير لشُؤُون البدو، وكان يتمتَّع بمعرفة دقيقة لقبائلهم، وأنسابها، والعلاقات فيما بينها، "ويتلقَّى الرُّسل والعُربان الواردين على السُّلطان، ويُنزلهم دار الضيافة، ويتحدَّث في القيام بأُمُورهم"[4]. ومُعظم معلومات المُؤرِّخين عن هذه الوظيفة مُستمدَّة من مهمندار عاصر أواخر الدولة الأيُّوبيَّة وأوائل المملوكية هُو بدر الدِّين أبو المحاسن يُوسُف بن أبي المعالي بن زماخ المعروف بابن سيف الدولة، لأنَّه - فيما يقال - من ذُرِّيَّة سيف الدولة الحمداني[5]، ويُضيف ابن حَجَر عن بدر الدِّين مهمندار العَرَب: "وُلد سنة اثنتَيْن وستُّماية، وكان مُتجنِّداً - من أُمراء السيف - وله يد في النَّظْم والتاريخ، وله تصانيف في الأنساب والبديع"[6]. وعلى ما يبدو؛ لم يكن الهدف من إقامة إمرة البدو تسليط قبيلة على بقيَّة القبائل، أو رفعها فوقهم، وهذا أمر حسَّاس جدّاً في التعامل مع البدو، بل كان لاتِّساع أراضي الدولة وتداخل الحُدُود مع الدُّول المُحيطة وضمن الممالك الأيُّوبيَّة نفسها، ولعدم اعتراف البدو بهذه الحُدُود وتحرُّكهم بحُرِّيَّة كاملة عبرها، فهدفت الدولة الأيُّوبيَّة، من منصب أمير العَرَب، ضبطَ هذا التحرُّك، ورُبَّما الأهمُّ من ذلك ضبط استغلال القبائل البدويَّة للصراعات الإقليميَّة، فتقوم الدولة بدعم قبيلة قويَّة عن طريق تسمية شيخها أميراً للعرب، لتساعد الدولة في ضبط بقيَّة القبائل.

---

1 - العبر، الذهبي، 5/ 344.
2 - حول إمرة العَرَب راجعْ: العبر، ابن خلدون، 6 / 18.
3 - وهي تعادل إمرة طبلخاناة أيَّام المماليك، راجعْ: قبائل العَرَب، العمري، 16.
4 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 22.
5 - ابن حَجَر، الدُّرر الكَامنة، 5/ 231.
6 - ابن حَجَر، الدُّرر الكَامنة، 5/ 231.

ونتيجة لتنامي دور القبائل في الدولة الأيُّوبيَّة، ومن بعدها في الدولة المملوكية، نجد أن عدداً لا يُستهان به من المُؤرِّخين قد أفردوا مُؤلَّفات عن الأعراب[1]، وكُلُّ مَنْ كَتَبَ عن العصر الأيُّوبي لابُدَّ أنَّه تحدَّث عن الأعراب بقليل أو بكثير، فكان لهم - بذلك - فضل حفظ أحداث ومعلومات كانت - حتماً - ستضيع لو لم يقوموا بتدوينها في مُؤلَّفاتهم. وهُنا؛ لابُدَّ من الإشارة إلى ظاهرة بدت شبه عامَّة في الكتابة عن البدو، أو الأعراب، فقد ركَّز الكُتَّاب على مَيْل البدو للفساد والتخريب، ومع أن هذا لا يُمكن إنكاره في ذلك العصر، ولكنَّه تعميم يُخطئ أكثر ممَّا يُصيب في شموله لكُلِّ ما يقوم به الأعراب، فلم تُؤخَذ بعين الاعتبار الأُمُور التَّالية:

1 - نظرة الدولة إلى البدو، فقد كانت - غالباً - متعالية، إنْ لم نقل إنَّه كان فيها من الاحتقار للأعراب الشيء الكثير.

2 - شعور الأعراب بأنَّهم أُبعدوا - بالقُوَّة - عن مسرح السياسة في بُلدان لهم فيها أكثر بكثير ممَّا للحُكَّام الغرباء بأصلهم على الأقلّ.

3 - انعزال المُلوك والأُمراء في الدولة عن مُشكلات الشعب بشكل عامٍّ، ممَّا يستدعي - في كثير من الأحيان - ردَّ فعل شعبيّاً، إنْ كان في المُدُن، أو الأرياف، أو لدى البدو، ولكُلٍّ طريقته في التعبير عن المُطالبة بحقِّه، أو تأكيد وُجُوده.

4 - دائماً كانت الدولة تُواجه تحرُّكات الأعراب بأقصى ما تملك من العنف، الإجلاء، والقتل، والنهب، ذلك كُلُّه لابُدَّ أن يترك أحقاداً قابلة للإثارة كُلَّما سنحت الفُرصة.

ولذلك نجد أن مُعظم مَنْ كَتَبَ في ذلك العصر عن البدو قد كَتَبَ بنَفَس الدولة، وبوُجهة نظرها، وبرؤياها لقضية الأعراب. ولكنْ؛ إذا أردنا أن نكون صادقين أكثر، فإن واقع الأعراب نفسه كان يتحمَّل جُزءاً كبيراً من المسؤولية، وذلك لعدَّة أسباب، منها:

1 - اعتاد البدو على طريقة للكسب، أصبحت - مع مُرُور الوقت - مشروعة في عُرْفهم؛ وهي النهب.

---

1 - مثل: المقريزي: البيان والأعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب، والقلقشندي: قلائد الجمان، وابن فضل الله العمري: قبائل العَرَب، وغيرهم.

2 ـ ضعف الشُّعُور الوطني والدِّيني لدى البدو، نتيجة لعوامل عديدة، أدَّى لتقديم مصلحتهم الآنية على كُلِّ ما عداها في مواقفهم، وتصرُّفاتهم.

3 ـ ضغط الظُّرُوف البيئية على البدو، كسنوات الجفاف مثلاً، في ظلِّ غياب مُساندة فعَّالة، من الدولة، أو من المُجتمعات المستقرَّة في الأرياف والمُدُن، لتجاوز تلك الظُّرُوف.

4 ـ إنَّ تخلُّف مُجتمع البداوة وافتقاده للتنظيم، أقام هُوَّة بينه وبين المُجتمع الحضري، مع كُلِّ ما بينهم من احتكاك، ذلك كُلُّه جعل الأعراب هدفاً سهلاً للدولة، تستطيع التعامل معه وُفق مُقتضيات الظُّرُوف، فإمَّا قتلاً وتشريداً، وإمَّا تحالفاً واستغلالاً لقُوَّة البدو العسكريَّة.

ولكنَّنا ـ الآن ـ لا نستطيع إلَّا أن نعترف أنَّه كان للأعراب كثير من المواقف الجهادية ضدَّ أعداء الأُمَّة، ومن المواقف الوطنية التي كانت تتفجَّر عندما يُحسن القائمون على الدولة توجيهها ورعايتها. ورُبَّما كانت كُلُّ تصرُّفات البدو اللامنضبطة موجَّهة ضدَّ الدولة، فلضغطها الدائم عليهم كانوا يستغلُّون وقت حاجتها إليهم أكبر استغلال، فعندما استدعى الملك الأشرف عام **615** هـ **1218**م، الأمير مانع بن حديثة وعُربانه لمُساعدته في التّصدِّي لهُجُوم سُلطان الرُّوم كيكاوس على الجزيرة وحلب، "عاثت العَرَبان في بلد حلب، والملك الأشرف يُداريهم لحاجته إليهم"[1]. وفي عام **620** هـ **1223**م، قامت قُوَّة مُسلَّحة كبيرة من الأعراب، واعترضت قافلة الحجِّ الشَّامي، ولولا حنكة قائد القافلة أمير الحاج شرف الدِّين يعقوب بن مُحمَّد الموصلي، الذي صانع الأعراب بماله، وصان القافلة منهم، بالترغيب والترهيب[2]، وإلَّا لكانوا فتكوا بها دُون أيِّ وازع ديني، أو مُراعاة لحُرمة حُجَّاج البيت الحرام. كذلك استغلَّ الأعراب هُجُوم جلال الدِّين منكبرتي على شمال العراق عام **622** هـ **1225**م، فخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، ونهبوا القُرى[3]، وقد اعتبروا أنَّها فُرصتهم للانتقام، ولكنْ؛ ممَّنْ؟ من الضُّعفاء، والبُسطاء، وصغار التُّجَّار، وليس من الحُكَّام، أو القادة، ولكنْ؛ يبدو أن الأعراب لم يكن لديهم وعي كاف لإدراك الفرق بين الجهتَيْن.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 418.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 428.

المبحث الثَّاني:
المجال السِّياسي والعسكري للبدو

كان البدو ـ مُنْذُ قيام الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة ـ يُشكِّلون طبقة لها كيانها المُستقلّ، وقد حافظوا على هذا الكيان ماداموا مُحافظين على طبيعة حياتهم ضمن البيئة البدويَّة. وعندما بدأت سيطرة الدولة العبَّاسيَّة تتراخى، وقواها تضمحلُّ، أخذت القبائل العَرَبيَّة البدويَّة تفرض نُفُوذها، فهي مازالت قوى عسكريَّة، لها نوع من التنظيم، مكَّنها من لعب دور جديد من أدوار الصراع بين البداوة والحضر على أرض الشَّرق العَرَبي، التي طالما تصادما عليها، فكُلَّما ضعفت سُلطة الدولة الحضرية في المُدُن، ازداد نُفُوذ البدو عليها، حتَّى إنَّهم تمكَّنوا ـ في هذه المرحلة التاريخية ـ من إقامة دُول حقيقيَّة فوق مراكز حضرية مُهمَّة في شمال بلاد الشَّام. إن مرحلة شُيُوخ القبائل البدويَّة في مُدُن الشَّام، الذين كرهوا إحلال الأمن، وقاوموا مركزية الحُكْم، قد حوَّل البلاد إلى حالة من الفوضى، لا تُحسَد عليها، ممَّا فتح الباب أمام قوى التُّركمان الغريبة، ومكَّنها من التغلغل إلى البلاد بفضل القُوَّة وبعض التنظيم اللذَيْن امتلكهما حُكَّامهم السلاجقة. ولكنْ؛ لم يكن دور البدو الدائم هُو تدمير المراكز الحضرية، ففي بعض الأحيان أحيوها؛ بحيثُ تألَّقت حتَّى التوهُّج، كما في دولة بني حمدان، التي ظهرت كقُوَّة تُمثِّل العصبية العَرَبيَّة[1].

وبعد قيام الخلافة العبَّاسيَّة حدث تحوُّل كبير في طبيعة البنية العسكريَّة للدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، فقد اعتمد العبَّاسيون في تنظيمهم العسكري على جيش نظامي محترف، حلَّ محلَّ القبائل العَرَبيَّة والجُند المتطوِّعة والمُجاهدين، وبالتَّالي؛ قُطعت الصلة الرَّسْميَّة بين الدولة والقبائل عندما أُلغيت أُعطياتهم من ديوان الجُند، ولم تُحيِّد الدولةُ ـ بذلك ـ قُوَّةَ البدو العسكريَّة، بل فقدت وسيلة مُهمَّة للسيطرة على هذه القُوَّة. ومع تغلغل الضعف في الإدارة العبَّاسيَّة زحفت قبيلة خفاجة من الجزيرة العَرَبيَّة، في مطلع القرن الرَّابع الهجري، وسيطرت على الكوفة والمناطق التي حولها[2].

---

1 - ظهر الإسلام، أحمد أمين، 1/ 58، ـ وكذلك راجعْ: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زكَّار، الموسوعة الشاملة، 1/ 198.

2 - حول بني خفاجة راجعْ كتاب: بنو خفاجة، مُحمَّد عبد المنعم خفاجي.

كذلك تحرَّك بنو أسد نحو العراق، وأقاموا الإمارة المزيدية[1]، وكانوا من القُوَّة؛ بحيثُ حصلوا على اعتراف السُّلطة البويهية المُتحكِّمة في بغداد عام 403 هـ 1012 م، واستمرَّت هذه الإمارة تُسيطر على برِّ وسط العراق من البصرة حتَّى تكريت، إلى أن حلَّ السلاجقة محلَّ البهويين، فقضوا عليها تدريجياً.

كما أن عدداً من هذه الإمارات أو الدُّويلات البدويَّة تشكَّلت على الحُدُود البيزنطيَّة عندما ضعفت قُوَّة الدولة العبَّاسيَّة عن حمايتها، ودور دولة بني حمدان لا يُنكَر في ذلك، كذلك قامت إمارة آل الشَّيخ البدويَّة في آمد[2]. وعلى أنقاض الدولة الحمدانية أقام بنو كلاب إمارتَيْن مُستقلَّتَيْن؛ وهما الإمارة العقيلية التي قامت في بلاد الجزيرة[3]، والدولة المرداسية[4] في حلب. أمَّا الشكل الآخر الذي ظهرت فيه قُوَّة القبائل البدويَّة؛ فكان من خلال الصراعات بين الدُّول القائمة قُربهم، فقد كانت القوى البدويَّة المُتواجدة في المنطقة هي التي تُرجِّح كفَّة الصراع بينها، وذلك وُفقاً لمصالح القبيلة، وبغَضِّ النظر عن أيِّ اعتبار آخر، وهذا ما دفع ابن فضل الله العمري للقول: "أمَّا في الواقع؛ فكُنتُ أراهم - دائماً - مع الغالب"[5].

البدو في الدولة الأيُّوبيَّة:

عندما أرسى السُّلطان صلاحُ الدِّين قواعدَ دولته كانت القبائل العَرَبيَّة كما كانت قبل خمسمائة عام، وكما ستستمرُّ لألف عام قادمة، تجوب أرض الدولة في مصر والشَّام، وتتجوَّل على حُدُودها، دُون أن تعترف بهذه الحُدُود، فبين العراق والشَّام وبين نجد والشَّام، وبين برقة وبلاد مصر، تتحرَّك كثير من هذه القبائل، ولا يحدُّ من تحرُّكها أو يُحدِّده إلَّا عاملَيْن: الأوَّل طبيعي، وهُو وُجود الأعشاب لرعي خُيُولها ومواشيها، والثاني: سياسي، فلكُلِّ قبيلة، أو مجموعة قبلية، مناطق نُفُوذ، ومجال حيوي لا تتركه إلَّا بالقُوَّة. ولكنْ؛ غالباً ما كانت القبائل العَرَبيَّة، أو تحالُفُ هذه القبائل، يُشكِّل قُوَّة عسكريَّة وسياسيَّة ضاغطة على الدولة، فيحظون بالامتيازات والإقطاعات والمُساعدات المالية والألقاب لشُيُوخهم. وكان عدد أفراد القبيلة يعني الشيء الكثير في تحديد موقعها بالنِّسبة لبقية

1 - حول هذه الإمارة راجعْ كتاب: الإمارة المزيدية، عبد الجبَّار ناجي.
2 - مروج الذهب، المسعودي، 5 / 145.
3 - راجعْ كتاب: الإمارات العَرَبيَّة في بلاد الشَّام، مُحمَّد مرسي الشَّيخ.
4 - راجعْ كتاب: بنو مرداس الكلابيون، مُحمَّد أحمد عبد المولى.
5 - قبائل العَرَب، العمري، 13.

القبائل، أو بالنِّسبَة للدولة المُجاورة لها، فعدد الأفراد هُو عدد المُقاتلين، ومُعظم مُقاتلي البدو كانوا فُرساناً يمتازون بخفَّة المُناورة.

وكان اعتماد المالك الأيُّوبيَّة على البدو كبيراً مُنذُ أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين، ولكنْ؛ ضمن الواقع التالي:

1 - تساند القبائل العَرَبيَّة الجيش الأيُّوبي كقُوَّة مُنفصلة بتنظيماتها القبلية، ويُمكن أن تُقاتل كأحد الأجنحة المُستقلَّة للجيش، وذلك نظراً لطريقة تسليح البدو الخفيفة، وطرائقهم الخاصَّة في القتال، الذي هُو - غالباً - فردي، وغير منضبط، ضمن خُطَّة المعركة العامَّة.

2 - يندر أن نجد معركة لم يُجنِّد فيها الأيُّوبيُّون البدوَ للقتال فيها معهم، إلَّا أنَّنا نُلاحظ - دائماً - صيغة الحذر في التعامل الأيُّوبي مع البدو، وخاصَّة في الأعمال الحَرْبيَّة؛ حيثُ يُمكن أن ينقلب البدو في أيِّ لحظة لنهب أثقال الجيش الحليف إذا ما لاحت هزيمته، كما حدث في معركة دمياط عندما نهبوا مُعسكر المُسلمين[1].

3 - غالباً ما كانت تنعكس الصراعات بين المالك الأيُّوبيَّة على القبائل البدويَّة المحالفة لها، فتجري معارك بين القبائل لا مصلحة مُباشرة فيها لكلا الطرفَيْن، إلَّا إرضاء لأحد المُلُوك الأيُّوبيَّة.

4 - كُلَّما كانت الدولة أضعف وعجزت عن تجنيد الجُيُوش ازداد اعتمادها على البدو كقُوَّة عسكريَّة بديلة؛ حيثُ كانت موجُودة دائماً، ومُستعدَّة أن تُقاتل دائماً، ونادراً ما يهمُّها مع مَنْ تُقاتل، أو ضدَّ مَنْ، حتَّى شكَّل البدو - في بعض الأحيان - قُوَّة كُبْرَى لبعض الدُّول الأيُّوبيَّة، فقال عنهم ابن فضل العمري: "وهم أسوار المُدُن، وحَفَظَة الطُّرُق، ولم يزل منهم أئمَّة للطلائع، وجناح للجُيُوش"[2].

5 - مُنذُ ما قبل قيام الدولة الأيُّوبيَّة، خاصَّة القرنَيْن العاشر والحادي عشر الميلاديَّيْن، والشرق العَرَبي يشهد حالة من تعاظم الدور السِّياسي والعسكري للبدو، مع أن ذلك لم يترافق بزيادة كبيرة في أعدادهم، أو نُمُوٍّ لمواردهم الاقتصاديَّة[3]، فَتَعَامُلُ الدُّول الأيُّوبيَّة مع البدو كان تعاملاً مع واقع قائم، لكنَّ الأيُّوبيِّيْن - غالباً - ما كانوا يُسيطرون عليه.

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعةالشاملة، د. سُهيل زكَّار، 36 / 99.
2 - قبائل العَرَب، العمري، 69.
3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 31.

المبحث الثَّالث:

قبائل البدو من غير العَرَب

كانت كلمة بدو في العصر الأيُّوبي تشمل القبائل العَرَبيَّة البدويَّة ومجموعات عرْقية أُخرى، أهمّها: التُّركمان، والأكراد، وكانوا ـ بغالبيَّتهم العُظْمَى ـ من المُسلمين السُّنَّة، وقد اتَّبع التُّركمان مذهبَ أبي حنيفة، بينما اتَّبع الأكرادُ مذهبَ الشافعي[1].

آ. التُّركمان:

وهم قبيلة الأغُزْ من التُّرك، ويُعدُّون اثنَيْن وعشرين بطناً، أوَّلهم وأشهرهم: قنق، ومنها السلاطين[2]. ويقول أبو الفداء: إن الغُز، وهم طائفة من التُّرك، قصدوا خراسان، وهزموا السُّلطان سنجر، وكانوا يعيشون في بلاد ما وراء النهر، حتَّى أخرجهم منها الخطا، "وكانوا كُفَّاراً، وكان مَنْ أسلم منهم وخالط المُسلمين يصير ترجماناً بين الفريقَيْن، .. ثُمَّ قيل تركماناً بالكاف العجمية، ولَّما أسلم الغُز جميعهم قيل لهم: تراكمين"[3]، ويُؤكِّد أبو الفداء أن الغُز هُم التُّركمان، ولكنَّه لم يكن مُقنعاً في تفسيره لاسم تركمان، فالجذر ترك هُو أساس التسمية كما هُو واضح، وليس له علاقة بالترجمة.

مع امتداد دولة السلاجقة، وبعد مقتل الوزير البساسيري، بدأ الغُزّ بالانتشار في شمال الشَّام، وأخذت قُوَّتهم تتزايد فيه. ثُمَّ عرف الشَّام مجموعةً من التُّركمان باسم: الناوكية، عبرت إلى الساحل الشَّامي من الأراضي البيزنطيَّة بزعامة مُقدَّمهم: قرلو، ويبدو أن الناوكية ليس اسم عشيرة، بل هُو اسم لتجمُّع كان خارجاً على السُّلطان السلجوقي[4]. ثُمَّ تدفَّقت نحو الشَّام مجموعات مُتعدِّدة من التُّركمان، وبرزت أسماء مُقدَّميهم، مثل: جبق، وأرتق[5]، وصندق. وغدا الشَّام مجالاً للصراع بين قُوَّتَيْن بدويَّتَيْن، الأُولى من الأعراب المُتسلِّطين على مناطق واسعة من البلاد، وهم مُتشيِّعون، والثَّانية من الأتراك السُّنَّة، تُريد أن تحلَّ محلَّ الأعراب، وقد مهَّد الصراع بينهما للسيطرة السلجوقية ـ فيما بعد ـ على الشَّام[6].

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 229.
2 - ديوان لغات التُّرك، الكاشغري، 1/ 56.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 26.
4 - ناوك: كلمة فارسية تعني القوس، ورُبَّما كانت الناوكية تعني جماعة الرماة.
5 - أرتق: أسَّس الدولة الأرتقية في شمال الشَّام.
6 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 1 / 170 ـ 126.

وفي أيَّام حُكْم السلاجقة، وبعدهم الزنكيون، تدفَّقت على شمال بلاد الشَّام والجزيرة قبائل تركمانية بقضِّها وقضيضها، وهي ماتزال على حالة البداوة، وقامت بالانسياح فيها، تُمارس الرعي، وتربية الماشية، يُشتُّون في سُهُول الجزيرة، ويُصيِّفون في سُفُوح طوروس[1]، ورُبَّما كانت سُهُول حمص آخر ما وصلته القبائل التركمانية جنوباً[2]، وقد شكَّلت مصدراً كبيراً للمُتطوِّعة في الجُيُوش الأيُّوبيَّة، فالسُّلطان صلاح الدِّين ومَنْ جاء بعده من مُلُوك بني أيُّوب كانوا يقومون بحملات مُنظَّمة لجَمْع التُّركمان، ويدفعون لهم النفقات، مُقابل خدمتهم في الجيش[3].

العلاقات بين التُّركمان والممالك الأيُّوبيَّة:

ولكن هذه المجموعات القبلية التركمانية، رُبَّما لعدم توحُّدها، أو لعدم قُدرتها على تنظيم نفسها، لم تُشكِّل قُوَّة عسكريَّة أو سياسيَّة ضاغطة على الممالك الأيُّوبيَّة، فلم يكن لهم أيّ حساب في ميزان القوى الأيُّوبي إلَّا من خلال قيامهم باضطرابات وقَطْعهم الطريق عندما يضطرب الأمن، أو تسنح لهم الفُرصة[4]. ولكنْ؛ عندما تتبنَّى دولة أو تدعم جماعة مُنظَّمة قبائل التُّركمان هذه، وتُحاول تسخيرها لمصالحها، فسُرعان ما نجد أن أحد أُمراء التُّركمان قد ظهر على الساحة، ومعه قوى عسكريَّة كبيرة، تُهدِّد دُولاً وممالك قويَّة، ومثال ذلك:

1 . **قنغر التركماني**: بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب عام **634** هـ **1237**م، ظهر على الساحة أمير تركماني اسمه قنغر، يمتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، مكَّنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، "فتخوَّف أُمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرُّومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره برَدِّ ما أُخذ، فردَّ بعضه، وانكفَّ عن العيث والفساد"[5]. ويبدو أن الأمر برُمَّته كان بتوجيه من كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، بقصد توطيد هيمنته على مملكة حلب الأيُّوبيَّة، التي اعتقد أن الوقت مُناسب للتدخُّل في شُؤُونها، بعد موت ملكها، وقيام ابنه الصغير مكانه[6].

1 - روايات المُؤرِّخ ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 298.
2 - راجعْ : مملكة حمص، منذر الحايك، 247.
3 - الشَّرْق الأدنى ـ الأيُّوبيُّون، السَّيِّد الباز العريني، 165.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 327، و الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 179.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 ـ 681.
6 - راجعْ تفصيل ذلك في مبحث العلاقات مع سلاجقة الرُّوم في هذا الكتاب.

وبعد عام واحد؛ انقلبت الآية مع قنغر، ففي عام **635** هـ **1238**م، نزل السُّلطان الكامل[1] من مصر، وحاصر دمشق، وأخذها، فاستعدَّت حلب للحصار، واستقدمت المُقاتلين والمُتطوِّعة لاستخدامهم، ووصل قنغر التركماني، فاستخدم بحلب، وقُدِم على التُّركمان، ولكن القدر لم يتحْ لقنغر الدفاعَ عن حلب، فأثناء استعداد السُّلطان الكامل لغزو حلب مرض، ومات بدمشق[2]، فقام الحلبيون بالقبض على قنغر التركماني، وحبسوه بقلعة حلب، ونهبوا خيامه ودوابّه، فلم يعدْ لهم به حاجة، كذلك كان الأمر بالنِّسبَة له مع سلاجقة الرُّوم، فبعد أن استخدموه، تركوه لمصيره في حلب[3].

2 . **ابن دودي التركماني:** أثناء تحرُّك الخَوارزميَّة في الجزيرة وشمال الشَّام، ومُهاجمتهم لمملكة حلب ضمّوا إليهم جموعاً من التُّركمان المُتواجدين في المنطقة، وكانوا أعداداً كبيرة، فقد ذكر أنَّهم "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة "[4]، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التُّركمان سبعة آلاف لكانوا كثيرين. وكان يقود جُمُوع التُّركمان هذه رجل منهم اسمه ابن دودي[5]، أو ابن دودا[6].

ولكن تصدِّي المنصُور إبراهيم ملك حمص للخَوارزميَّة وحُلفائهم التُّركمان عام **640** هـ**1243** م، وإلحاقه بهم هزيمة شنيعة[7]، أدّت إلى تشتُّت قوى التُّركمان مرَّة أُخرى، وتبعثرهم في الجزيرة وشمال الشَّام. كما أن وُجود قُوَّتَيْن بدويَّتَيْن هما القبائل العَرَبيَّة والقبائل التركمانية، مع ما لهما

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 685.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 686.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 687.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 470، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 706، ـ الجفالة: هُم من جفل، أو فزع من شيء، ومضى هارباً على وجهه، أمَّا الجوابنة؛ فَجَمْعٌ مُفرده جوبان، وفيها عدَّة أقوال، فيُمكن أن تكون نسبة إلى قبيلة جوبي الكُردية (السُّلُوك، المقريزي، 1/ 4)، ونستبعد ذلك، فالحديث هُنا عن التُّركمان. ويُمكن أن تكون نسبة إلى جوبان وهي من قُرى مرو (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: جوبان). ومن الاستخدامات اللاحقة لهذه الكلمة نميل إلى الاعتقاد بأنَّه كان يقصد بالجوابنة المُقاتلين المشاة الذين لا يحترفون القتال، ثُمَّ تطور معنى الكلمة فيما بعد لتُطلَق على مَنْ يعمل برعي المواشي بالأجرة،(سيرة منكبرتي، النسوي، 107، ودراسات في تاريخ الرستن، منذر الحايك، 251).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 296، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد ، 3/ 2/ 470، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 305.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170.

من طريقة الحياة نفسها، كان لابُدَّ أن يؤدِّي إلى صدامات بينهما، ففي عام **622** هـ **1225**م، جرت معركة كبيرة بين مجموعات من القبائل العَرَبيَّة وتجمُّع لقبائل التُّركمان قُرب الرقَّة[1].

3 . **الياروقية:** وهم جماعة من التُّركمان، ينتسبون إلى ياروق، وهُو زعيم قديم لهم وجَدّ مُقدَّمهم دلدُرُم، وقد ظهرت الياروقية كمجموعة عشائرية مُقاتلة في أيَّام السُّلطان نُور الدِّين بن زنكي، وكانت حلب مقرّهم الرئيس، فقد سكنوا في ربضها؛ حيثُ عرفت محلّتهم بالياروقية[2]. وكانت إقطاعاتهم في جبل السماق وتلّ باشر وغيرها[3]، وخدموا بعد موت نُور الدِّين مع ابنه في حلب، وشاركوا مع قُوَّات الأتابكة ضدَّ توسُّع السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة[4]. وبعد أَخْذ السُّلطان صلاح الدِّين لحلب انضمُّوا إليه، وكانوا ضمن عسكر ابنه الملك الظَّاهر غازي بحلب طالما كان والده السُّلطان حيّاً، ولمَّا تُوفِّي صلاح الدِّين عام **589** هـ **1193**م، ترك الياروقية خدمة الظَّاهر، والتحقوا بعمِّه الملك العادل[5]، وكان ذلك بسبب خوفهم من انتقامه منهم، فقد "تكبَّروا، وتحامقوا على الظَّاهر، وقصَّروا في خدمته في حياة أبيه، وكانوا يُعظِّمون دلدُرُم بن ياروق، ويركبون كُلُّهم في خدمته كأنَّه السُّلطان"[6]، فلمَّا استقلَّ الظَّاهر بملك حلب اعتقل مُقدَّمهم دلدرم بن ياروق، وطرد الياروقيَّة كُلَّهم من حلب، وأخذ إقطاعاتهم، ثُمَّ شفع الملك العادل بدلدرم، فأطلقه الظَّاهر؛ حيثُ انضمَّ إلى العادل[7].

ب . الأكراد:

يقول المقريزي: "اعلمْ أن الناس قد اختلفوا في الأكراد"، وبعد أن يعدِّد أقوال لا يُعتَدُّ بها حول أصلهم، يقول: "إنَّما هُم قبيل من قبائل العجم، وهم قبائل عدَّة"[8]. وهذا هُو القول الفصل في اعتقادنا. وقد تواجدت قبائل الأكراد في المناطق نفسها من شمال الشَّام والجزيرة إلى جانب

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 112.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 647، والتاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 529.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
4 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 21/ 260.
5 - التاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 528.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 601
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602 ـ 604.
8 - الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 83.

التُّركمان، وكانت مجموعات بدوية كُردية، مُنْذُ القرن الخامس الهجري، قد هاجرت إلى تلك المناطق على دفعات، إمَّا على شكل مجموعات عسكريَّة، أو تحرُّكات قَبَلية، واستطاع بعضها تأسيس الدولة المروانية في ديار بكر[1]، لكنَّها ظلَّت أقليَّة همُّها الصراع مع المجموعات البدويَّة التركمانية على مناطق النُّفوذ، والاشتراك في أحداث الشغب كُلَّما سنحت الفُرصة. ولم يكن لها أيُّ دور سياسي أو عسكري إلَّا من خلال التطوُّع العسكري كأفراد في الجيش النظامي، أو كعشائر تُقاتل كقُوَّات مُساندة للجيش النظامي، وقد كانت عدَّة قبائل من الأكراد تُقاتل مع جيش عماد الدِّين زنكي في هُجُومه على الرُّهَا[2]. وحاول نُور الدِّين بن زنكي مُوازنة التُّركمان بالأكراد، فاستخدمهم بجيشه بكثرة، وكان الأكراد قد أخذوا بالتدفُّق على شمال العراق والشَّام بعد أن دمَّر الكرج دولة منوجهر أو بني شدَّاد الكُردية، وهذه الهجرة ستُمهِّد لانتقال السُّلطة من دولة الأتابكة التُّركمان إلى دولة الأيُّوبيِّيْن الأكراد[3]. ومع قيام الدولة الأيُّوبيَّة برزت على الساحة مجموعات من الأكراد يجمعهم الانتساب إلى بلدة واحدة، أو قرابة عائلية وعشائرية، وكان منهم:

1. **القيمرية:** وهم قوم من الأكراد، ينسبون إلى بلدة قيمر[4]، هاجروا إلى الشَّام كمجموعة قبلية، وكان زعيمهم في دمشق ناصر الدِّين أبو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري الكُردي، وكانوا حامية دمشق في عهد الملك الصَّالح أيُّوب، وهم الذين استدعوا الملك النَّاصر يُوسُف، وفتحوا له أبواب دمشق، بعد قتل المماليك للملك المُعظَّم بن الصَّالح أيُّوب في مصر[5]. وقاتلوا مع النَّاصر يُوسُف في هُجُومه على مصر ضدَّ المماليك، وثبتوا معه عند الهزيمة، وقُتل في تلك المعركة جماعة من أُمرائهم[6]. ولكنَّهم ما لبثوا أن حاولوا قلب دولة النَّاصر يُوسُف عندما كان في محنته أمام التَّتار، "فخاف النَّاصر، وتخيَّل من الأُمراء القيمرية، الذين في دمشق، فاضطرب، وتحيَّر"[7].

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 2/ 294.
2 - روايات المُؤرِّخ الرهاوي المجهول، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 63.
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 2/ 280.
4 - قيمر: قلعة في الجبال بين المَوصل وخِلاط. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قيمر).
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 463.
6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 8.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.

ويبدو أن القيمرية - مُنْذُ قُدُومهم إلى دمشق مع الملك النَّاصر يُوسُف - قد استقرُّوا فيها، وشادوا فيها من المعالم العمرانية ما خلَّد اسمهم حتَّى الآن، فَحَيُّ القيمرية الواقع شرق الجامع الأموي، والمنسوب إليهم هُو من أهمِّ معالم مدينة دمشق القديمة، وقد أخذ الحيُّ اسمَهُ من المدرسة القيمرية التي أنشأها الأمير ناصر الدِّين القيمري[1]، ومن تسمية هذا الحيِّ أُطلق اسم باب القيمرية على الباب الشرقي للجامع الأموي[2]. كما تُوجد مدرسة أُخرى باسم القيمرية، تُسمَّى القيمرية الصُّغرَى[3]. وفي دمشق - أيضاً - حارة القيمري، وهي في حيِّ الصالحية عند البيمارستان القيمري[4].

2. **الشهرزورية:**

وهم مجموعة من الأكراد، ينتسبون إلى شهرزور[5]، فرُّوا من أمام غزو هُولاكُو لشمال العراق، وقدموا إلى دمشق، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف فارس، ومعهم أولادهم ونساؤهم، فاستخدمهم الملك النَّاصر يُوسُف، وأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال والإقطاعات، وكان ذلك بطلب من القيمرية، وبتزكيتهم للشهرزورية أمام النَّاصر. ولكن الشهرزورية لم يقتنعوا بما حصلوا عليه، ولم يزدهم إحسان النَّاصر إلَّا عصياناً، ثُمَّ تركوا مُعسكر النَّاصر، والتحقوا بالملك المُغيث صاحب الكَرَك، وبعد هزيمة المُغيث أمام قُوَّات النَّاصر عام 657 هـ 1259م، طلب النَّاصر إبعاد الشهرزورية من الكَرَك، فغادروها نحو ساحل فلسطين الجنوبي، وأقاموا هُناك[6].

1- أبو المعالي ناصر الدِّين حسين بن علي، وقيل: ابن عبد العزيز القيمري الكُردي، مُقدَّم جُيُوش الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، وهُو الذي سلّمه دمشق، تُوفِّي مُرابطاً في الساحل عام 665 هـ.(الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 1/ 335).
2 - القلائد الجوهرية، ابن طولون، 1/ 91 ـ 127.
3 - الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 1/ 339.
4 - وهُو جانب جامع الشَّيخ محيي الدِّين، شُيِّد عام 656 هـ (الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 2/ 158، والمروج السندسية، ابن كنان، 34، ومُعجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهابي، 1/ 221، ومعالم دمشق التاريخية، إيبش وشهابي، 463).
5 - شهرزور: كُورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، والمدينة في صحراء، أهلها من الأكراد العُصاة، ولهم بطش وشدَّة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: شهرزور).
6 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 46، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 505.

المبحث الرَّابع:

أعراب الشَّام ودورهم السِّياسي

كانت بادية الشَّام ـ مُنْذُ القدم ـ مكاناً تنتشر فيه القبائل العَرَبيَّـة، التـي مازالـت تعـيش حالـة البداوة، وتعدُّ أن هذه البادية موطنها، وأن سُهُول الشَّام هي عُمقها الحيوي، الذي تفـزع إليـه، سـلْماً، أو حرباً، عند الخطر، وعند انعدام مصادر الحياة في البادية. وكانت ممالك الشَّام الأيُّوبيَّة تلتفُّ كقوس حول بادية الشَّام من حلب، إلى حماة، فحمص، فدمشق، فالكرك، وكُلٌّ من هـذه المُدُن كانـت تقـوم بدور البوَّابة ما بين البادية والسُّهُول السَّاحليَّة، ومن ثَمَّ؛ البحر. وكان جُـزء كبـير مـن اقتـصاد مُـدُن الشَّام، التي تُشكِّل كُلٌّ منها إحدى الدُّويلات الأيُّوبيَّة، يستند ـ بشكل كبير ـ إلى تبادل المُنتجـات مـع سُكَّان البادية، وجُزء آخر من هذا الاقتصاد يعتمد على تسيير القوافل التِّجاريَّـة عـبر الباديـة، لـذلك كانت علاقات تلك المَمالك مع البدو على غاية من الأهمِّيَّة، وللسبب نفسه؛ كان لأُمراء البدو علاقات مُتميِّزة مع مُلُوك بني أيُّوب في الشَّام.

وكان لمُلُوك الشَّام الأيُّوبيَّة أسباب أُخرى لا تقلُّ أهمِّيَّة عن الأسباب الاقتصاديَّة لإقامة أوثـق العلاقات مع البدو، فللقبائل البدويَّة طريقتها الخاصَّة في القتال، التي تعتمد على الكَرِّ والفَرِّ والسُّرعة الهائلة في التحرُّك، ولا تستطيع الجُيُوش النِّظاميَّة مجاراتها بذلك، ممَّا أجبر المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام عـلى اصطناع كُلٍّ منهم للقبائل البدويَّة التي تجاوره، لا ليأمن شرَّها فقط على أريافه وقوافله التِّجاريَّة، بـل لتكون ـ وقت الحاجة ـ رديفاً لقُوَّاته، أو طليعـة لهـا، أو للتـصدِّي لعُربـان المُلُـوك المُعـادين لـه. وقـد استخدم المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام القبائلَ البدويَّة في كُلِّ حُرُوبهم، إمَّا بـشكل قُـوَّات عـسكريَّة رديفـه لكتلة الجيش النظامي، وإمَّا على شكل كمائن، تـنقضُّ في الوقـت المُناسـب عـلى قُـوَّات العـدوِّ. كـما استخدموا القبائل البدويَّة لشنِّ الحَرْب الاقتصاديَّة في بلاد خصومهم عن طريق رعي الـزروع وقطـع الأشجار ونهب القرى[1]. وبلغ من اختصاص المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام بجماعات وقبائل من البدو أنَّه كان يُقال "عرب الملك الأشرف"[2]، "وعربِ الملك المُجاهد"[3]، "وعرب الملك المُعظَّم"[4].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 470.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.

كذلك كانت قبائل البدو تدفع الضرائب للملك الذي تعيش في جـواره، وكانـت الـضريبة المفروضة عليهم اسمها العدَّاد، ومازال هذه الضريبة مفروضة في وقتنا الحـاضر، ولهـا الاسـم ذاتـه، وهي تُحدَّد وُفقاً لعدد الأغنام أو الإبل التي يملكها كُلُّ شخص، فيقوم الوكيل ـ ويُـسمَّى عنـد البـدو العَدَّاد ـ بِعَدِّ الماشية، ويتسلَّم ضريبة كُلِّ رأس منها. ويبدو أن وُجُود أمير لعرب الشَّام لم يمنع المُلُـوك الأيُّوبيَّة من القيام بواسطة وكلائهم الخاصِّين من القيام بالعدَّاد، وأَخْذ الضريبة مُباشرة من البدو دُون واسطة أمير العَرَب[1]، فربما كانت وظيفته سياسيَّة وعسكريَّة فقط بعُرف المُلُوك الأيُّوبيِّين. ولاعـتماد البدو على تربية الماشية، فقد كان يـتمُّ في أمـاكن تواجـدهم رعـي كثيـف للأعـشاب، لـذلك كانـت السُّلطات المحلِّيَّة تُزيحهم من طريق الحمـلات العـسكريَّة، أو عـن طريـق الملـك في تنقُّلاتـه، لتـوفير الأعشاب للحملة، أو للحاشية، ودوابِّ الحمل، والركوب العديدة فيها[2].

قبائل الشَّام العَرَبيَّة:

بعد الفتح العَرَبي الإسلامي لبلاد الشَّام تدفَّقت نحوهـا القبائـل العَرَبيَّـة، وانتـشرت القبائـل الشمالية العدنانية في كافَّة مناطق الشَّام جنوباً وشمالاً ما عـدا منطقـة الوسـط، حمـص وباديتهـا، فقـد اختصَّت بها القبائل العَرَبيَّة الجنوبية اليمانية. ولكنْ؛ مع مُرُور الزمن، كانت هُناك تبدُّلات ديموغرافية كبيرة، حتَّى إنَّنا لا نكاد نرى أيَّ ملامح للتقسيم السَّابق في العـصر الأيُّـوبي، فمُنْـذُ العـصر الفـاطمي سيطرت القبائل اليمانية على جنوب ووسط الشَّام، فقد كانت ـ وقتها ـ قبيلة طيء اليمانية، بزعامـة آل الجرَّاح، أكبر القبائل في جنوب الشَّام، ووسطه.

وكانت جذام اليمانية تُسيطر على وسط وشمال فلسطين، ومنهم بنو مـرَّة، وبنـو فـيض، وبنـو شجاع، في القُدْس، وما حولها، والعناترة حول بلدة الخليل. وكان بنو نمير في الكفريـة ونمـرين[3] في حوران. وفي وسط سُورية؛ نجد بني زبيد وأبناء عمِّهم بني ربيعة من طيء اليمانية ينتشرون في غوطة

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 622.
2 - رسالة جوزيف دي كانسي، من فُرسان مُستشفى القـدِّيس يُوحنَّـا إلى الملـك إدوارد الأوَّل، الموسـوعة الـشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 369.
3 - كفرية ونمرين: لا نجد ـ الآن ـ اسم كفرية في حوران، أمَّا اسم نمرين؛ فمع عدم وُجُوده حرفياً، فإنَّ هُنـاك قُـرى في حوران تحمل أسماء: نمر ونمرة. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، 427 ـ 428).

دمشق، وشمالها. وفي جنوب فلسطين؛ انتشر بنو جرم من طيء، ويُقال لهم بنو ثعلبة[1]. ومن طيء ـ أيضاً ـ كانت قبيلة غزيه، التي انتشرت ما بين الشَّام والعراق والحجاز، ومنها البطنين. كذلك كانت بقايا قبيلة غسَّان، وهي من الأزد، من كهلان اليمانية، ومنهم طائفة في حمص. واستطاعت عدَّة بطون من طيء أن تُسيطر على مناطق واسعة جنوب فلسطين وجنوب شرقي الأردن، كذلك نجد زعماء طيء في فلسطين من آل الجرَّاح قد استولوا على الرملة[2]، وأظهرت طيء سيادتها على القبائل في جنوب الشَّام أيَّام شيخهم دغفل بن الجرَّاح وأولاده مفرج وحسَّان[3]، اللذَيْن تحالفا مع الفاطميين أوَّلاً، ثُمَّ اصطدما بهم. وانتهت سيادة آل الجرَّاح بوفاة حسَّان بن دغفل عام **433** هـ **1043**م[4]. وفي ظلِّ آل الجرَّاح كان يعيش بنو مهيد في وادي مُوسى، وكانوا يقطعون الطريق هُناك، ويخضعون لمنصُور بن دغفل[5]، وحول الكَرَك عاش بنو مهدي وبنو عقبة، وزعيمهم سابق الدِّين عيَّنه بن مهدي، الذي كلَّفه السُّلطان بيبرس بحماية الطريق حول الكَرَك[6]، وبنو مهدي هؤلاء من عذرة، من قضاعة الحميرية السبئية، ومنهم بطون كثيرة، وبنو عقبة من جذام[7]. أمَّا بنو عاملة، وهم من قبيلة سبأ اليمانية؛ فقد تواجدوا بكثافة في شمال فلسطين، حتَّى سُمِّيَتْ الجبالُ هُناك باسم جبال عاملة.

ومن قبائل عامر بن صعصعة تفرَّعت بنو هلال حول بلدة صرخد في الجولان، حتَّى سُمِّيَ جبل حوران ـ جبل الدُّرُوز الآن ـ باسم جبل هلال. وتفرَّع ـ أيضاً ـ عن عامر بن صعصعة بنو عقيل ابن ربيعة، فقد خرجوا من البحرَيْن إلى العراق، ثُمَّ إلى الجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ أسَّس زعيمهم قريش وابنه مُسلم الدولةَ العقيليةَ هُناك. ويتواجد في بلاد حلب وجبل الأحص وأطراف الجزيرة تحالف قبلي من أعراب شتَّى يُعرَفون بآل بشَّار، وهم لا ينقادون لأمير واحد، ولو اجتمعوا لما أمن شرَّهم[8].

1 - وقد نقلهم صلاح الدِّين من جنوب فلسطين إلى مصر عام 583/ 1187، لأنَّه شكَّ بتعاملهم مع الفرنج. (قلائد الجمان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 1/ 322، والروضتَيْن، أبو شامة، 2 / 526، وقبائل العَرَب، العمري، 107).
2 - ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 31.
3 - راجعْ: وفيات الأعيان، ابن خلكان، مادَّة: حسَّان بن دغفل.
4 - حول آل الجرَّاح راجعْ كتاب: الإمارة الطائية في بلاد الشَّام، مُصطفى الحياري.
5 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 12/ 158.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 492.
7 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 213 ـ 2/ 334 ـ 12/ 130
8 - قبائل العَرَب، العمري، 145.

أمَّا أشهر القبائل القيسية الشمالية في بلاد الشَّام؛ فهم بنو كلاب، وقد انتشروا شمال حلب وحتَّى سُفُوح جبال طوروس والدروب إلى بلاد الرُّوم، ويعد ضعف الدولة العبَّاسيَّة وقع على عاتقهم مهمَّة التّصدِّي للبيزنطيين، وسُجِّلَتْ مآثرهم الجهادية ضدَّ الرُّوم في السيرة الشَّعْبيَّة المعروفة باسم: الأميرة ذات الهمَّة. والمرداسيون فرع منهم أسَّس الدولة المرداسية، ما بين **415** ـ **472** هـ **1025** ـ **1080**م. واستمرَّت قبيلة كلاب وتفرُّعاتها في مواقعهم التاريخية شمال الشَّام حتَّى العصر المملوكي، ولكنَّهم لم يخضعوا لقيادة مُوحَّدة، ممَّا جعلهم يخضعون لزعامة آل فضل[1]، وقد قال عنهم الأمير علاء الدِّين ألطنبغا نائب السَّلطنة بحلب: "لو كان لهم شيخ كُفء يجمع صُفُوفهم لما استطاعت قبيلة أُخرى الوُقُوف إلى جانبهم"، وقال عنهم ابن فضل الله: "وبنو كلاب عرب أطراف حلب والروم، ولهم غزوات معلومة وغارات لا تُعدُّ، ولا تزال تُباع بنات الرُّوم وأبناؤهم من سباياهم، وهم يتكلَّمون بالتُّركيَّة ... وهم عرب غُز، رجال حُرُوب، وأبطال جُيُوش"[2].

وفي أيَّام دولة الملك الكامل بن العادل ظهر بنو كلاب على بني ربيعة، الذين اعتذروا عن حمل الغلال إلى مدينة خِلاط، فقد قال مانع بن حديثة وغنام بن طاهر للكامل: "إن الجمال غربت في البرِّيَّة، ولمَّا قام بالأمر بنو كلاب حقد الكامل على مانع وغنام، وعندما أتياه عند أَخْذه لآمد، وبَّخهما، وقال: والله؛ لولا إنكما عربيان لأفعلنَّ بكما الواجب"[3]، ونستدلُّ من قول الكامل أن صفة العُرُوبة التي يحملها الأعراب كانت من الصفات ذات التقدير الخاصّ لدى مُلُوك بني أيُّوب، واستفادت كلاب من هذه الحادثة، فتقرَّبت إلى الكامل، الذي قدَّمهم، وأكرمهم، وكذلك تقرَّبوا من الملك الأشرف، وكانوا معدودين من أتباعه[4].

وحول حمص كان هُناك بنو خالد، أو عرب حمص، وهم يدَّعون النسب إلى خالد بن الوليد[5]، "ولعلَّهم من ذوي قرابته من بني مخزوم"[6]. وهُناك بنو زبيد منتشرون في الشَّام، منهم

1 - قبائل العَرَب، العمري، 144.
2 - قبائل العَرَب، العمري، 143.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 144.
4 - قبائل العَرَب، العمري، 144.
5 - صُبح الأعشى ، القلقشندي، 4/ 214، وقبائل العَرَب، العمري، 143.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.

بصرخد، ومنهم بغوطة دمشق، "وهم جماعة نوفل الزبيدي"[1]، ونوفل كان يُشارك النَّاصر الثَّاني بحملته على مصر، ولمَّا غدر العزيزية بالناصر، وانكسر، "أخذه نوفل الزبيدي وجماعة من مماليكه وأصحابه، وعادوا به إلى الشَّام"[2]. ونوفل هُو الأمير ناصر الدِّين سيِّد عرب زبيد، كان ذا وُجهة وحُرمة ومكانة، وقد تُوفِّي عام **675** هـ **1276**م[3]. ويقول ابن العميد: "بعد تفرُّق جَمْع الملك الصَّالح أيُّوب هاجمه عند نابلس حُسام الدِّين لُؤلُؤ، وهُو من غلمان عمِّه الصَّالح إسماعيل، ومعه جُمُوع عظيمة من العَرَبان اليزيديين"[4]، وغالباً؛ فهذا تصحيف، وهم العَرَبان الزبيديون، وليس اليزيديين. ومع تعدُّد قبائل الشَّام، فقد كان بنو ربيعة هُم وُجُوهها.

بنو ربيعة:

في العصر الأيُّوبي ساد بنو ربيعة جميعَ قبائل العَرَب في الشَّام والعراق والجزيرة، ويقول عنهم ابن فضل الله العمري: "هُم مُلُوك البرِّ، وأُمراء الشَّام والعراق والحجاز"[5]. وكانوا يتبعون لأقربائهم بني الجرَّاح[6] في العصر الفاطمي، وجَدُّهم ربيعة نبغ بين قبائل العَرَب أيَّام الأتابك زنكي وولده نُور الدِّين[7]، وكان بنو ربيعة يدَّعون أن نسبهم يتَّصل بالبرامكة، لكنَّ الحمداني المهمندار نفى ذلك النسب، وقال: "الأصحُّ في نسب ربيعة إنَّه: ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جرَّاح"، ويمتدُّ في نسبه إلى طيء[8]، وطيء هي من قحطان اليمانية[9]، وقد بدأ ظُهُور بني ربيعة في القرن السَّادس الهجري ـ **12**م[10]، ومع أن الأمير مانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة كان أمير عرب الشَّام بلا مُنازع في عصر الدولة الأتابكية البورية بدمشق أيَّام طُغْتكِيْن، لكنَّه لم يُصرِّح له، ولا لغيره، من بني ربيعة بالإمرة على العَرَب بتقليد من السُّلطان، ولم يبدأ ذلك العُرْف حتَّى أيَّام الملك العادل بن

1 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
2 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 7/ 8.
3 - راجعْ ترجمته في: المنهل الصافي، ابن تغري بردي.
4 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 29.
5 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
6 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.
7 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
8 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
9 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.
10 - قبائل العَرَب، العمري، 27.

أيُّوب؛ حيثُ أمَّر منهم حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة[1]، ومنحه العادل ـ رَسْميَّاً ـ لقبَ أمير العَرَب. وفي الحقيقة؛ استمرَّ هذا اللقب طيلة العصر الأيُّوبي غير واضح المعالم، غير مُحدَّد المهمَّات والواجبات، وذلك لطبيعة الحُكْم في الممالك الأيُّوبيَّة، فصحيح هُناك سُلطان أعظم تدين له بالطاعة جميع، أو مُعظم، وأحياناً بعض، الممالك الأيُّوبيَّة، لكنَّه ـ غالباً ـ لم يكن يملك قُوَّة كافية لفرض كُلِّ ما يُريد، وسلطنته خارج مملكته كانت ـ دائماً ـ تخضع لتقييم المصالح المحلِّيَّة والسياسة الإقليميَّة، لذلك، ومع وُجُود منصب أمير العَرَب ظلَّت قبائل الشَّام البدويَّة تتحالف مع الممالك الأيُّوبيَّة، وتخوض حُرُوبها، وتلتزم بمُعاهداتها مُنفردة، فالانقسام الأيُّوبي السِّياسي حمى الانقسامات البدويَّة، ورعاها لتسخيرها وُفقاً لمصالحه، وبالتَّالي؛ لم يتمكَّن السُّلطان الأيُّوبي من إعطاء أمير العَرَب قُوَّة كافية لإخضاع كُلِّ القبائل له، ولأسرته، ولذلك؛ سيرتفع شأن منصب أمير العَرَب مع قيام دولة المماليك القويَّة المُوحَّدة.

إن ما دفع العادل لإحداث منصب رسمي لإمرة العَرَب هُو ـ بلا شكّ ـ دور القبائل العَرَبيَّة المتنامي، إن كان في الصراع ضدَّ الفرنجة، أو في الصراعات الدّاخليَّة بين ممالك البيت الأيُّوبي. ويبدو أن لقب أمير العَرَب في العصر الأيُّوبي لم يكن رتبة دائمة للشخص، فيُمكن تبديله ومنح اللقب إلى شخص آخر، كذلك لم يكن وراثياً بالضرورة، فإذا مات أمير العَرَب يعود الأمر للسُّلطان، فقد يُولِّي ابنه، إذا كان أهلاً لها، أو يُولِّي غيره. فعندما تُوفِّي حديثة أمير العَرَب قام الملك الكامل بقسمة الإمرة نصفَيْن، "نصفاً لمانع بن حديثة، ونصفاً لغنام أبي طاهر بن غنام"[2]،ثُمَّ نقل الإمرة كاملة إلى أبي بكر علي بن حديثة، وبقي فيها، حتَّى إنتزعها منه الظَّاهر بيبرس في سلطنته لأُمُور حقدها عليه، وأعطى الإمرة إلى عيسى بن مهنَّا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة. ولمَّا قصد أحمد بن طاهر بن غنام الملك الظَّاهر بيبرس، وسأله أن يُشركه في إمرة العَرَب كما كان جَدّه، لم يقبل بيبرس، ولكنَّه أرضاه بأنْ سمَّاه أميراً ببُوق وعَلَم[3]، وهي رتبة عسكريَّة.

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 206، وقبائل العَرَب، العمري، 117.
2 - قبائل العَرَب، العمري، 117.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 117.

وينقسم بنو ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ هُم المشهورون، وما عداهم أتباع، ولكُلٍّ من الثلاثة أمير مُختصٌّ به:

1 . **آل فضل**: نسبة إلى فضل بن ربيعة، وهم أعلاهم، وأرمقهم مكانة، وديارهم من حمص إلى الفُرات(1).

2 . **آل علي**: نسبة إلى علي بن حديثة بن عقبة، وقد ارتقوا لمنصب الإمرة أيّام الأشرف خليل ابن قلاوون، فبعد أن قبض على مهنّاً بن عيسى قلّد الإمرة إلى مُحمَّد بن أبي بكر بن علي، وهم أهل بيت عظيم الشأن، ديارهم مرج دمشق، وغوطتها(2).

3 . **آل مرا**: نسبة إلى مرا بن ربيعة، وهم رجال صناديد، وأبطال مناجيد، منازلهم في الجولان وحوران(3). وقد أورد عدَّة مُؤرِّخين وصف دُخول فُرسان آل مرا إلى دمشق بترتيبهم العسكري، بعد بلائهم الحَسَن في موقعة حمص ضدَّ التَّتار، قال ابن فضل الله: "أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح، على الخيل المسومة والجياد المُطهَّمة، عليهم الكزغندات الحُمر في الأطلس المعدني، والديباج الرُّومي، وعلى رُؤُوسهم البيض، مُقلَّدين بالسُّيُوف، بأيديهم الرماح، كأنَّهم صُقُور على صُقُور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب(4).

وكان بنو ربيعة في العصر الأيُّوبي "وأوائل المملوكي أكابر وسادات العَرَب ووُجُوهها، ولهم عند السلاطين حُرمة كبيرة، وصيت عظيم"(5). وتتبع لهم كُلُّ قبائل الشَّام العَرَبيَّة، وتدين لهم بالولاء بنو كلب، وبنو كلاب وآل بشّار، وبنو خالد، ومَنْ بالشام من غزية، وغيرهم، ولا يُوجد في ذلك الوقت "مَنْ لا يؤثر صُحبتهم، ويُظهر محبّتهم"(6).

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204.
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 208.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 138.
4 - قبائل العَرَب، العمري، 142، ـ وقد ورد الوصف أيضاً في: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 690، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 209.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.
6 - قبائل العَرَب، العمري، 141.

لكنَّ مواقفهم العامَّة لم تتغيَّر، ولم تتبدَّل، فالغزو والنهب كُلَّما لاحت لهم الفُرصة، ولا صديق لهم، ولا عدوّ، إلَّا من خلال مصالحهم الخاصَّة، رغبة فيه، أو رهبة منه، ولذلك قال عنهم المهمندار: "وقد رأيتهم في الوقائع مع مَنْ غَلَبَ"(1).

وهذا ما كانت عليه كُلُّ قبائل الأعراب؛ حيثُ يبدو أنَّهم متى لمسوا ضعفاً من الدولة، أو المملكة التي هُم بجوارها، أو من قبائل أُخرى اندفعوا بغريزة لا تُقاوَم، للسلب والنهب، ففي عام **624** هـ **1227**م، اندفعت غزية البطنين نحو حمص في عزِّ سطوة وقُوَّة ملكها المُجاهد، ونهبوا ما حول المدينة، "وأخذوا حتَّى غنم أهل البلد، فوقع الصوت، وركب العَسْكَر، وتبعوا العَرَبان إلى مُعظم الطريق، وكان فيهم قُوَّة ومنعة لكثرتهم، فعادوا عنهم بمُراسلة جرت بينهم، وذلك توفيقاً من الله لحقن الدماء"(2)، فقد كان فُرسان غزية يُشكّلون قُوَّة أكبر من قُوَّة عسكر حمص، لذلك؛ تمكَّنوا من الاحتفاظ بما نهبوه من حمص، ومضوا، ورجع العَسْكَر يحمدون الله على سلامتهم، وحقن دمائهم.

لكنَّنا لا نستطيع إلَّا أن نستثني كثيراً من المواقف لبني ربيعة ، فقد قاتلوا، وخاصَّة آل مرا، في معركة حمص الثَّانية ضدَّ التَّتار، "وأثّروا أثراً حسناً، وعملوا في التَّتار عملاً جيداً"(3).

كذلك شارك الأمير زامل بن علي مع فُرسان بني ربيعة في معركة حمص الأُولى مع الأشرف مُوسى صاحب حمص، وتمكَّنوا من هزيمة قُوَّة كبيرة للتَّتار عام **659** هـ **1260**م(4). وأيضاً؛ يُسجَّل لبني زبيد موقفهم مع الملك النَّاصر الثَّاني، فبعد هزيمته على أبواب مصر من قبَل جيش المماليك بقيادة آيبك، كان بنو زبيد وأميرهم ناصر الدِّين نوفل من القلَّة الذين وقفوا معه، وحموه"، وعادوا به إلى الشَّام"(5).

1 - قبائل العَرَب، العمري، 141.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 141.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 141.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442.
5 - النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 7/ 8.

المبحث الخامس:

أعراب الشَّام ودورهم العسكري

نظراً لانقسام الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام، ولقيام المُنافسة وحتَّى الحُرُوب فيما بينها، فقد استعان كُلٌّ منها بما حوله من القبائل البدويَّة، وسخَّرها لمصالحه، وجعلها سنداً عسكريَّاً في حملاته ومعاركه، إضافة للصدامات العسكريَّة مع الدُّول الأُخرى خارج البيت الأيُّوبي، ممَّا أعطى قيمة عسكريَّة كُبْرَى للبدو في بلاد الشَّام. بينما نُلاحظ أن دورهم العسكري في مصر كان ينحصر بالدفاع ضدَّ الغزوات الفرنجيَّة، أو بالقيام بثورات ضدَّ الدولة، وذلك لقيام مملكة أيُّوبية مُوحَّدة في مصر، وعدم وُجُود دُول مُجاورة تطمع في أراضيها سوى الحملات الفرنجيَّة القادمة عبر البحار.

أهمُّ الأدوار العسكريَّة التي لعبها البدو في الشَّام في العصر الأيُّوبي:

إن ما قام به بنو ربيعة بقيادة أميرهم مانع بن حديثة في التّصدِّي لحملة عزّ الدِّين كيكاوس على حلب، رُبَّما كان من أهمِّ أدوارهم، وأكثرها إظهاراً لقُوَّتهم، فقد تمكَّنوا عام **615** هـ **1218**م من هزيمة سُلطان سلاجقة الرُّوم، وردِّه إلى بلاده، بعد أن احتلَّ عدَّة بُلدان في الجزيرة، وكان كيكاوس قد تحالف مع الصَّالح صاحب آمد والأفضل بن صلاح الدِّين صاحب سُمَيساط، وتقدَّموا لاحتلال بلاد الجزيرة وحلب[1]، فجمع الأشرفُ قُوَّاته، وطلب الأمير مانع وعربانه، فأتوه بجموعهم، ولَمَّا سمع كيكاوس بتحشُّد الأشرف سير إليه "ألف فارس هُم خيار عسكره وأبطالهم"[2]، فوقع عليهم العَرَب، واحتووا عليهم، وعلى سوادهم، وركب الملك الأشرف، فوصل إليهم، وقد استباحوهم قتلاً وأسراً . . ولَمَّا سمع كيكاوس ذلك سار عن منبج هارباً" [3]، وعاد إلى بلاده مكسوراً[4]، "ولَمَّا وصل الأشرف كانت العَرَب قد فرغت منهم"[5]، لقد بدأ العَرَبُ المعركةَ ضدَّ كيكاوس، وهم الذين انتصروا فيها، إنَّها ـ بالفعل ـ معركتهم وحدهم؛ حيثُ لم يضرب فيها الأشرفُ بسيف سوى سُيُوف العَرَب.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 74.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 74.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.

وفي عام **620** هـ **1223**م، عندما خرج الملك المُعظَّم يُريد احتلال حمص وحماة أقام مُعسكره في سلمية، وقدَّم قُوَّات البدو المُرافقة له لتقطع إمداد حماة بالميرة، والتّصدِّي للنجدات القادمة إليها[1]. ثُمَّ ركَّز المُعظَّم حملته باتِّجاه حمص، فسيَّر عام **623** هـ **1226**م، جماعة من الأعراب المُرافقين له، وهم عرب دمشق، فنهبوا قرى حمص، وخرَّبوها[2]، ولَمَّا كان المُعظَّم يُحرِّك البدو لتنفيذ مخطَّطاته التوسُّعية في الشَّام، وإجهاد أعدائه، بينما قُوَّاته تستريح، فكَّر الأشرف والمُجاهد بالطريقة نفسها، فطلب المُجاهد من الأشرف تحريك بني ربيعة من شمال حلب باتِّجاهه لنجدة حمص، وبالفعل؛ أسرع مانع بن حديثة بعربانه نحو حمص، ولكن شهوة النهب اجتاحتهم في الطريق، خاصَّة أنَّهم وجدوا أمامهم قرى المعرَّة وقرى حماة والجُيُوش الأيُّوبيَّة بعيدة عنها، مشغولة ببعضها، ولن تفكِّر بمطاردتهم، بل على العكس تُريد مداراتهم للاستفادة من قُوَّتهم، فاندفعوا نحو هذه القرى العزلاء، فنهبوها، واقتسموا بيادرها، ورفضوا تأدية ضريبة العَدَّاد في ذلك العام[3].

إن البدو سلاح فتَّاك، ولكنَّه ذُو حَدَّيْن، وعلى مَنْ يُريد الاستفادة منهم أن يتحمَّل نزواتهم، ولذلك؛ لم يُحرِّك الملك الأشرف ساكناً حيالهم، وحتَّى لو أراد فإنَّه لن يتمكَّن من القيام بأيِّ عمل عسكري ضدَّهم، فقُوَّات الملك المُعظَّم تُعسكر في سلمية، وهي تترصَّد حَرَكَاته. وبعد أن حزم الملك المُعظَّم أمره، وهاجم حمص بقُوَّاته، أعاد الأشرف الاتِّصال بمانع، وطلب منه نجدة حمص، فاندفع بعربانه، "وتركوا أظعانهم بمرج دابق، وساروا جريدة إلى حمص"[4]، ويبدو أن ما تركوه في مرج دابق هي المنهوبات التي عجزوا عن السير بها. ومع كُلِّ فسادهم ونهبهم، فقد هاجم مانع بقُوَّاته الخفيفة جيشَ الملك المُعظَّم، فتصدَّت لهم عرب دمشق، وجرت بينهما عدَّة وقعات[5]، لم تكن حاسمة، ولم تُؤدِّ إلى نتيجة واضحة.

وفي عام **624** هـ **1227**م، أطلق الملكُ المُعظَّمُ أخاه الملكَ الأشرفَ، وسمح له بمُغادرة دمشق، بعد أن حلف الأيمان المُغلَّظة على الولاء، وما إنْ غادر الملك الأشرف، حتَّى رجع عن أيمانه

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 126.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.

كُلّها؛ بحُجَّة أنَّه كان مُكرهاً عليها، "فندم المُعظَّم، وسيَّر العَرَب إلى بلد حمص وحماة، فعاثوا فيها"(1)، "ونزلوا الزرَّاعة من أرض حمص، وأرض جوسيه، ومكثوا أيَّاماً يُغيرون على البلاد، ويعودون إلى منازلهم"(2)، وكان يقودهم سنجر المُلقَّب أمير العَرَب، وهُو مملوك الملك المُعظَّم(3)، ممَّا يدلُّ على قيادة مُباشرة للملك المُعظَّم لهؤلاء الأعراب. لقد جرى كُلُّ ذلك والملك المُجاهد مُهمل لهم، حتَّى أعماهم الطمع ببلاده، عندها "ركب إليهم بمَنْ معه وأولاده، وأذن لأهل بلده في النهب، وأطمعهم، فما كان بأقلَّ من نصف نهار حتَّى نهبوهم، وسبوهم، وقتلوا وجرحوا خَلْقاً"(4). وهُنا؛ نُلاحظ غياب قُوَّات بني ربيعة عن هذه الأحداث بسبب الوقعة بين الأمير مانع بن حديثة أمير آل فضل وابن عمِّه الأمير منيع قُرب بارين(5)؛ حيثُ هُزم الأمير منيع، وجُرح، وانسحب أتباعه إلى بعلبك(6)، ولكنْ؛ إن غابت جُمُوع عربان بني ربيعة، فإن أميرهم مانع لم يغبْ عن مطاردة المُجاهد لعربان دمشق، فقد حضرها مع المُجاهد، وحصل على نصيبه من الغنائم(7).

في عام **642** هـ **1244**م، أيضاً؛ اصطدم عسكر حماة بعربان بني ربيعة بغياب أميرهم مانع عند المُجاهد في حمص، وكانوا بقيادة أخيه الأمير علي، وانتصر العَرَبان "ولولا عسكر حلب لم يبقَ من عسكر حماة بقيَّة"(8). وبعد أن فتح الملكُ الكاملُ آمدَ في عام **629** هـ **1232**م، خاف مانع بن حديثة منه "وانسحب إلى العراق، وعمل معه الخليفة من المكارمة ما لا عمله مع غيره"، ثُمَّ عاد في العام نفسه من العراق "وانصلح حاله مع الملك الأشرف"(9). وفي عام **630** هـ **1233**م، كان مانع وأبناء عمِّه غنام ومنيع مُخيِّمَيْن في غوطة دمشق، ولمَّا خرج الملك الأشرف للصيد دعوه إليهم، فأقام عندهم أيَّاماً(10). وعندما توغَّلت قبيلتا خفاجة وغزية في بادية الشَّام غرباً، ونزلوا في تدمر، فخاف

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 206.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204 - 234.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 145 - 136.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 143.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 145.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 249.
10 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.

من أذاهم الملك الأشرف والملك المُجاهد فاتَّفقا مع أُمراء عرب الشَّام على قصدهم، وساروا إليهم، ونهبوهم(1). وفي عام **630** هـ **1233**م، مات الأمير حُسام الدِّين مانع ابن حديثة أمير العَرَب، فأمَّر الملك الأشرف ابنه مهنَّا بن مانع(2)، ويبدو أن تأمير مهنَّا على العَرَب كان باتِّفاق الملكَيْن الأشرف والمُجاهد معاً؛ حيثُ خلعا عليه، وحمل مانع، ودُفن في سلمية(3).

لقد كانت علاقة ممالك الشَّام الأيُّوبيَّة بالبدو علاقة في مُنتهى الحساسية، وتحتاج إلى كثير من الحنكة والدراية بتقلُّباتهم، فعندما قامت الصاحبة ضَيْفَة خاتُون الوصية على عرش حلب بتقريب أحلاف العَرَب، استوحش الأمير علي بن حديثة أمير آل فضل، واختار التوقيت الصعب بالنِّسبة حلب، فانضمَّ إلى قُوَّات الخَوَارزميَّة التي تهاجمها، وعندما التقى عسكر حلب بالخَوَارزميَّة عام **638** هـ **1241**م، كمن الأمير علي بعربانه بين البساتين، وانقض على مُؤخِّرة العَسْكَر الحلبي، ففتك بها، فانهزم الحلبيون(4)، ولكن الضربة الكُبْرَى للحلبيين جاءتهم من حُلفائهم أحلاف العَرَب، الذين كانوا يُقاتلون معهم، فما إنْ لاحت هزيمة العَسْكَر الحلبي، حتَّى انقضوا عليه، فنهبوا أثقاله، "وكانوا أشدَّ ضرراً عليه من انتهاب أموالهم من أعدائهم"(5). وبعد هذا الغدر من الأحلاف بعسكر حلب عاد الأمير عليّ عن تحالفه مع الخَوَارزميَّة، وتركهم(6)، ولكن العلاقة مع حلب كان قد تولاها ابن عمِّه الأمير طاهر بن غنام، "فقد اتَّصل بخدمة الحلبيين، وأُمِّر على سائر العَرَب، وزوَّجته الصاحبة بعض جواريها، وأقطعته إقطاعاً يُرضيه"(7).

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 368، - راجعْ ترجمة مهنَّا بن مانع في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 205، والضوء اللامع، السخاوي، 5/ 146، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 205، والأعلام، الزركلي، 7/ 317.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 254، - استمرَّ آل مهنَّا في دَفْن أُمرائهم في سلمية، وعُرفت لهم مقبرة هُناك تقع شمال السلمية بعدَّة كيلومترات تُسمَّى جبَّانة الشَّيخ فرج، وقد دُفن فيها عيسى بن مهنَّا عام 680 هـ (شذرات الذهب، ابن العماد، 6/ 22)، ومحمد بن عيسى بن مهنَّا عام 724 هـ، ومازال شاهدة قبره ماثلة هُناك.(عشائر الشَّام، أحمد وصفي زكريا، 1/ 88).
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 167، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.

المبحث السَّادس:

دور القبائل البدويَّة في مصر

لم تتوقَّف القبائل العَرَبيَّة عن قصد مصر للتوطُّن والإقامة مُنْذُ الفتح العَرَبي الإسلامي، وأوَّل المناطق التي توطَّنت فيها هذه القبائل كانت في الدلتا، ثُمَّ بدأت القبائل العَرَبيَّة تتوغَّل جنوباً في الصعيد، حتَّى جاورت النوبة، وخالطتها. وكانت قبيلة جذام قدمت إلى مصر مع عَمرو بن العاص، وهي قبيلة يمنية تنتسب إلى كهلان وسبأ، ومن جذام كان بنو زيد الذين استقرُّوا في الشَّرْقيَّة حول بلبيس، ومنها ـ أيضاً ـ بنو سعد، وكانت مناطق سُكناهم حول الفسطاط، وكان منهم شاور السعدي وزير العاضد الخليفة الفاطمي[1]. وبشكل عامٍّ؛ انتشر بنو جذام حول الدلتا في الحوف الشرقي والحوف الغربي[2]. ومن جذام كان نمي أبو خثعم من ولد مالك بن هلبا بن مالك بن سويد، الذي تقدَّم في دولة الصَّالح أيُّوب، وبلغ عنده منزلة عالية، وقد أقطعه، وأمَّره، واقتنى المماليك، وفي دولة المُعزّ أيبك قدَّمه على عرب مصر، حتَّى قتله غلمانه، فجعل المعزّ ولَدَيْه سُلمى ودَغَش مكانه[3]. وحول دمياط نزلت قبيلة سِنْبِس وهم من الغوث بن طيء، وكان لهم أيَّام الفاطميين شأن، وتجاورهم جماعة من كنانة بن خزيمة قدموا أيَّام الخليفة الفاطمي الفائز[4]، وفُرسان بني كنانة هُم الذين كلَّفهم الصَّالح أيُّوب بالدفاع عن دمياط، وانسحبوا منها، فشنقهم.

وفي صعيد مصر؛ انتشرت قبائل مُتعدِّدة، وتداخلت مناطق سُكْناها، لكنْ؛ يُلاحَظ أن قبيلة هلال قد أقامت حول أسوان، وإلى الجنوب منها. ثُمَّ قبيلة بُلِيّ، وكانوا في بلاد إضميم، وتوزَّعوا من أسيوط حتَّى عيذاب وحول سوهاج. كما كانت هُناك مجموعة من قريش أقامت في الاشمونين. أمَّا أكثر عرب الصعيد عدداً وتوزُّعاً؛ فقد كانت جهينة[5]، وهي من قضاعة، وكانت تُقيم في الأشمونين، وتنتشر ما بين منفلوط وأسيوط. ومن قضاعة كانت قبيلة كلب التي سكنت حول

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 54/ 62.
2 - قبائل العَرَب، العمري، 169.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 171.
4 - قبائل العَرَب، العمري، 156.
5 - قبائل العَرَب، العمري، 157.

منفلوط، وكذلك بهراء من قضاعة سكنت في أقصى صعيد مصر، وحتَّى بلاد الحبشة، "وكثروا هُناك، وغلبوا على بلاد النوبة، وهم يُحاربون الحبشة[1]. وفي صعيد مصر؛ كانت ـ أيضاً ـ قبيلة الكنوز، وأصلهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، قدموا إلى مصر من اليمامة زمن الخليفة العبَّاسي المُتوكِّل، وأقاموا في أعالي الصعيد، وتصدّوا لغارات البجة[2]، ثُمَّ اختلطوا بهم، وتزوَّجوا منهم، حتَّى سيطروا على بلادهم، ومنهم بنو مسروق، الذين ينتسب إليهم مُحمَّد بن علي حامي أسوان وزعيم ربيعة، ولمَّا مات؛ خلفه ابنه أبو المكارم هبة الله بن مُحمَّد بن علي، وهُو الذي ظفر بأبي ركوة الثائر الأموي الخارج على الحاكم بأمر الله، فأكرمه الحاكم، ولقَّبه كَنزَ الدولة، وأصبحوا يُعرَفون كُلُّهم بكَنز الدولة، أو الكنوز، وآخر أُمرائهم قَتَلَهُ الملك العادل عام **507** هـ عندما جمع لحرب السُّلطان صلاح الدِّين، وأخذ يدعو للأمير داود بن العاضد[3].

قبائل البربر في مصر:

بعد هجرة القبائل العَرَبيَّة نحو بلاد المغرب، اختلطت بالقبائل البربرية بالمُصاهرة والحلف والولاء، فحمل قسمٌ كبيرٌ من القبائل البربرية أنساباً عربية بالولاء، وبعد ذلك؛ انتقلوا للتعريب اللُّغوي[4]، "وذلك أن قبائل العَرَب نزلت على قبائل البربر، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المُجاورة لهم، حتَّى صاروا جنساً واحداً"[5]. وعندما قامت الدولة الفاطمية في المغرب، كانت القبائل البربرية عماد جُيُوشها. وبعد أن احتلَّ جوهر الصقلي مصر، وضمّها إلى الدولة الفاطمية، ومن ثَمَّ؛ جعلها قاعدة الدولة، أدَّى ذلك إلى هجرة جُمُوع كبيرة من قبائل البربر إلى مصر، وجاءت هذه القبائل تحمل أنساباً عربية، وتنقسم إلى يمانية، مثل قبيلة هوارة، التي انتشرت غربي النيل، وقيسية؛ مثل قبيلة لواته، التي عبرت إلى شرقي النيل[6]، فكان لهم مُعظم بلاد البهنسا، وتفرَّقوا في الجيزة والمنوفية والبُحَيْرة[7]، وقد

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 42 ـ 50.
2 - البجة: قبائل من السُّكَّان الأفارقة القدماء لشمال السودان.
3 - البيان والإعراب، المقريزي، 44.
4 - دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، مُلحق البيان والإعراب، 132.
5 - وصف أفريقية الشمالية والصحراوية، الإدريسي، 35.
6 - دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، مُلحق البيان والإعراب، 132.
7 - قبائل العَرَب، العمري، 157.

خرجت لواته على الدولة الفاطمية، فسار إلى بلادهم في الوجه البحري أمير الجُيُوش بدر الجمالي عام 567 هـ 1172م، وأوقع بهم، وهزمهم، وطهَّر البرَّ الشرقي في مصر منهم[1].

واندرجت القبائل البربرية في مصر تحت اسم العَرَب والأعراب، ورُبَّما لحياة البداوة، ولتعربهم الكامل مع بداوتهم، فكان يُطلَق عليهم اسم عرب هوارة وعرب لواته[2]. وكانت قبائل الأعراب في مصر على اختلاف أنسابها تشترك جميعاً ـ مثل عرب الشَّام ـ بحُبِّ القتال، واغتنام الفُرص للسلب والنهب، فنجدهم عوناً لكُلِّ خارج على الدولة؛ إذْ لم يتمكَّنوا هُم بأنفسهم من الخُرُوج عليها، وقتالها. وكان مُعظم قتالهم من أجل الغنائم[3]، أو للسيطرة على البلاد، فكانت الحُرُوب تقع بين القبائل البدويَّة، فتُودي بالكثير منهم، كالواقعة التي جرت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية عام 636 هـ 1238م، وقُتل فيها كثير منهم، حتَّى أرسل الملكُ العادلُ مَنْ يُصلح بينهم[4].

1 - المقفى الكبير، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 1/ 295، ـ وقد وصف الشريف أبو يعلى مُحمَّد بن مُحمَّد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم هذه الحادثة، فقال شعراً:

كان بمصر بدر　　له عليها الأمر
يقتل كُلّ ساعة　　من أهلها جماعة
ثُمَّ غزا لواته　　إذْ ظنَّهم حماته
فحين قيّد الأسرى　　قال اقتلوهم صبرا
عشرين ألفاً كانوا　　حتَّى جرى الميدان
في النيل من دمائهم　　ولج في إفنائهم

2 - المقفى الكبير، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 1/ 295.
3 - يروي أُسامة بن مُنقذ دوافعَ البدو للقتال، فيصف هُجُومهم عليه قائلاً: "فحمل عليّ العَرَب فوقعتُ . . فضربني واحد منهم ضربتَيْن بالسيف، وقال: هات الوزن . . ثُمَّ أخذ حصاني وسيفي" (كتاب الإعتبار، أُسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 12/ 157).
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 393.

المبحث السَّابع:

العلاقات الدّوليَّة لقبائل البدو

قبائل العَرَب والتَّتار:

عندما استولى التَّتار على أرمينيا والبلاد التي كانت للدولة الخَوارزميَّة في عام 629 هـ 1232م، اهتمَّ الخليفة المُستنصر غاية الاهتمام، "واستخدم عرباناً كثيرة" [1].

وفي عام 657 هـ 1259م، عندما هرب النَّاصر يُوسُف الثَّاني أمام الغزو المغولي للشام سار باتِّجاه مصر، وعندما وصل البلقاء التجأ إلى أعراب تلك المنطقة، فأجاروه[2]، عندها؛ تسحَّب أحد غلمانه، وهُو حسين الطبردار الكُردي، واتَّصل بالتتار، وأعلمهم بمكانه، فهاجمت القُوَّات المغولية أعراب البلقاء، وقبضوا على النَّاصر يُوسُف، ثُمَّ وضعوا فيهم السيف، وبعد أن "غنموا أولادهم، ونساءهم، وأنعاماً شيئاً كثيراً، واستاقوا الجميع"[3]. ومن جهة أُخرى؛ وفي العام نفسه، جرت حادثة لا نرى لها أيَّ علاقة بالحادثة السابقة، قام الأعراب بالإغارة "على خيل الجشار التي للتَّتار ومَنْ يتعلَّق بهم، فاستاقوها، وكانت ترعى بالمرج بتلّ راهط وما حوله "[4]، " فساقت وراءهم التَّتَر، فلم يُدركُوا لهم الغبار، ولا استردُّوا منهم فَرَسَاً، ولا حماراً"[5]. ومن المؤكَّد أن جوعاً كبيرة من أعراب مصر وأعراب الشَّام شاركت ضدَّ التَّتار في موقعة عَيْن جالُوت[6].

قبائل العَرَب والفرنج:

في العلاقات بين قبائل البدو والفرنج لا يُمكن أن نخرج بحُكْم مُطلق، فقبائل البدو بلغت من التفرُّق الجَغرافي والانقسام السلالي مبلغاً كبيراً، ولم يُشكِّلوا ـ في أفضل الأحوال ـ تجمُّعاً قبلياً، أو اتِّحاداً يضمُّ مُعظم العَرَبان، ولكونهم يعيشون بهذا الشكل من الانتشار الواسع والاختلاف

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 232، كذلك راجعْ: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 427، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 213، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13 / 220.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 408.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 409.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 411.

والتنازع، فمن الطبيعي أن يكون بينهم اللُّصُوص النَّهابون، وكذلك وُجُود ذوي النخوة والمروءة والكرم، ونجد مَنْ يتعامل مع الفرنجة، ويدلُّهم على عورات المُسلمين، وفي المُقابل؛ نجد المُجاهدين الذين يبلون في أعداء الأُمَّة أحسن البلاء.

مُنْذُ بدايات الغزو الفرنجي لبلاد الشَّام وجد الفرنجة مَنْ يتعاون معهم من البدو، وقد تجلَّى هذا التعاون بأوضح صُورة أمام أسوار حلب عام 518 هـ 1124م، عندما حاصر الفرنجُ المدينةَ، وبدا لهم أن سُقُوطها سيفتح أمامهم أبواب سُورية الدّاخليّة، فاتَّصلوا مع دبيس بن صدقة، صاحب الحلَّة في العراق وأمير بني أسد، واتَّفقوا معه على أن يُساعدهم لاحتلال حلب. كما اتَّفقوا مع سالم بن مالك العقيلي، سيِّد بني عقيل وصاحب قلعة جعبر، وساندت قُوَّاتُ القبائل العَرَبيَّة قُوَّات الفرنج في الهُجُوم على حلب، وارتكبوا الفظائع، ونكلوا بالموتى، حتَّى جاء البرسقي أمير المَوصل، وأنقذ حلب[1]. وكان هذا التعاون اختباراً مُفيداً للفرنج، تعرَّفوا فيه على إمكانية التعامل مع البدو، والاستفادة من قُوَّتهم العسكريَّة مُقابل بعض المكاسب.

وفي بدايات دولة صلاح الدِّين، وعندما كان مشغولاً في الجزيرة يُحاصر حَرَّان عام 578 هـ 1191م، قامت حملة فرنجية من الكَرَك، وتوجَّهت نحو الحجاز، "لينبشوا الحُجرة النبوية، وينقلوه إليهم، ويأخذوا من المُسلمين جعلاً على زيارته"[2]، وسارت الحملة في مراكب من ميناء العقبة، حتَّى وصلت ساحل المدينة، "ودلَّها على عورات الساحلين من العَرَب من أشبه ركابها في الكُفر"[3]، "وكان معهم طائفة من مُرتدَّة العَرَب"، ولمَّا كان صلاح الدِّين لا يستطيع الحَرَكَة، كلَّف نائبه بمصر سيف الدولة بن مُنقذ، فَسَيَّرَ الحاجبَ لُؤلُؤ الأرمنيَّ، "فتداركهم، وبذل الأموال، فمالت إليه العَرَب للذهب"، فاستسلم الفرنج[4]. وفي الحقيقة؛ يحار المرء أمام تفسير موقف كهذا لأعراب الحجاز، ولا يجد سبباً لتعاونهم مع الفرنج لنبش الحُجرة النبوية إلَّا السبب الذي جعلهم يتخلَّون عنهم، وهُو الذهب، والطمع بالمكاسب، ولا أدري هل نستطيع أن نجد لهم ولو عذراً بسيطاً في حالة الفقر والجوع والجهل التي كانوا يعيشونها في غالب أيَّامهم؟!

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 260 ـ 261.
2 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 88.
3 - من رسالة للعماد الأصفهاني في: الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 18/ 435.
4 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد الطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 88.

وفي أثناء حملة ملك إنكلترا ريتشارد على فلسطين، كان يُعسكر قُرب قلعة النطرون، "فوصل إليه اثنان من البدو، وأخذا من الملك الأمانَ والثقةَ، وأقسما له يميناً تعهَّدا به بأنَّهما سيخدمانه بإخلاص، وسيُطلعانه على كمائن جيش صلاح الدِّين، وعن كُلِّ ما يدور حول صلاح الدِّين وجميع أهل البلاد"[1]، إن هذا التصرُّف قد لا يُمثِّل سلوك كُلِّ بدو فلسطين، لكنْ؛ في كثير من الأحيان، كُنَّا نجد مثل هذه الحالات، فهي طريقة سهلة للعيش لضعاف النُّفُوس، خاصَّة في حال غياب أيِّ شعور ديني، أو قومي، أو وطني. ويبدو أن الملك ريتشارد قد أعجبه موضوع استخدام البدو، وأنَّه اهتمَّ بهم كأدلاء وجواسيس مأجورين، واعتمد عليهم، وسَيَّرَهُم يتسقَّطون له الأخبار، فعلم منهم بمسير قوافل مصر نحو الشَّام، "وكان العدوُّ يترقَّب أخبارهم، ويتوصَّل إليها بالعَرَب المُفسدين"[2]، واندمج الملك ريتشارد بلعبته مع البدو، ووثق بهم إلى درجة كبيرة، حتَّى إنَّه "ركب مع العَرَب بجمع يسير، وسار حتَّى أتى القفل، فطاف حوله في صُورة عربي"[3].

وبلغ تعامل البدو مع الفرنجة حدّاً أزعج صلاح الدِّين إلى درجة أنَّه قاد حملة خاصَّة عام 568 هـ 1173م، لطرد البدو من منطقة الكَرَك، لمنعهم من مُساعدة الفرنج الذين استخدموهم جواسيس وأدلاء[4]، وهي أوَّل غزوة لصلاح الدِّين من مصر، وكانت في عهد نُور الدِّين، لذلك أرسل له صلاح الدِّين رسالة من إنشاء القاضي الفاضل يشرح له فيها أسباب هذا التحرُّك العسكري، قال: "علم المملوك بما يُؤثره المولى، فإن يقصد الكُفَّار بما يقصُّ أجنحتهم، ويفلُّ أسلحتهم، ويقطع مواردهم، ويُخرِّب بلادهم، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أنْ لا يُبقي في بلادهم أحد من العَرَبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفر إلى عزِّ الإيمان، ومَنْ اجتهد فيه عامَّة الاجتهاد، وعدَّه أفضل أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يدَيْه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً"[5].

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 434.
2 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 232.
3 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 232.
4 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 206.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 225، والروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 206.

إنَّها ـ إذنْ ـ معاناة شديدة كان المُسلمون يعانون منها لتعامل البدو مع أعدائهم، وإطلاعهم على عوراتهم، لم يجِدْ لها صلاح الدِّين حلاً سوى نقل قبائل البدو من مواقع إقامتهم إلى داخل بلاده؛ لقطع اتِّصالهم بالعدوِّ الفرنجي. ثُمَّ أصبحت هذه السياسة عامَّة، يُطبِّقها صلاح الدِّين حيثما شكَّ بتعامل البدو مع الفرنجة، فبعد فَتْح صلاح الدِّين للبلاد قام عام **583 هـ 1187م**، بنقل بني ثعلبة من منطقة غزَّة إلى مصر؛ لأنَّهم كانوا يتعاملون مع الفرنج كأدلاء وجواسيس[1]، فقد "كانوا يداً مع الفرنج على المُسلمين"[2].

ومع أن صلاح الدِّين لم يتوقَّف عن الاستعانة بالبدو كقُوَّات خفيفة الحَرَكَة لمُساندة جيشه، لكنَّه تعلَّم ـ بعد هزيمة الرملة ـ أنَّهم سلاح ذو حَدَّيْن، فما إن لاحت الهزيمة حتَّى انقلبوا على جيش صلاح الدِّين ينهبون أثقاله ومتاعه[3]. وأجمع المُؤرِّخون أنَّه كان للأعراب موقف مُخزٍ في معركة دمياط عام **615 هـ 1218م**، فقد كان الملك الكامل مُرابطاً بجيش مصر أمام الفرنج الزاحفين لاحتلال دمياط، وكان أبوه الملك العادل في الشَّام يجمع النجدات، ويُوجِّهها إليه، وفي هذه الأثناء؛ مات العادل، وما كادت الأخبار تتسرَّب إلى مصر بموته "حتَّى وقع الطمع في الملك الكامل، وثارت العَرَب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم، واشتدَّ ضررهم"[4]. "ولمَّا عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العَرَب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المُجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدَّ على المُسلمين من الفرنج"[5].

مع أن تصرُّف قبائل البدو هذا لا يُمكن أن يُبرِّره أيُّ عذر نضعه لهم، لكنَّه قد يبدو ردَّ فعل على معاناة طويلة من ظُلم السُّلطة الأيُّوبيَّة، التي ما إن انشغلت عنهم بالفرنج حتَّى ثاروا عليها،

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 1/ 322، والروضتَيْن، أبو شامة، 2 / 526.
2 - قبائل العَرَب، العمري، 107، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، ـ وقد وهم عبد المجيد عابدين بتعليله نقلهم من جنوب فلسطين إلى مصر، واعتقد أنَّها مكافأة قدَّمها صلاح الدِّين لهم، يقول: "وكان لقبائل طيء فضل كبير في مُحاربة الصليبيين، فأراد صلاح الدِّين أن يكافئهم، فنقل منهم جرماً وثعلبة إلى الحوف الشرقي". (دراسات في تاريخ العُرُوبة ـ مُلحق البيان والأعراب، 116).
3 - الشَّرْق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 166.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326، وكذلك راجعْ: شفاء القُلُوب، الحنبلي، 301.

ونهبوا ما حولهم، وقد يُفسَّر الأمر بأنَّها طبيعة البدو، وفطرتهم بالسلب والنهب، فما إن وجدت لها مُتنفَّساً حتَّى إنطلقت، ولكنْ؛ مهما كان السبب فهُو غير مُهمٍّ بجانب فعلهم المُنكَر، الذي لا يُمكن تبريره إلَّا بجهلهم المطلق لأيِّ مصلحة عامَّة هي مصلحتهم فيما بعد.

وبالتَّأكيد؛ لم يكونوا ليُدركُوا حجم البلاء الذي يُسبِّبونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرَّسْمي والشعبي من البدو في تلك الآونة مبلغاً كبيراً، حتَّى إن بعض الناس ـ وقتها ـ رأوا أن الفرنج أرحم من البدو[1].

ويبدو أن بطش الملك الصَّالح أيُّوب هُو الذي منع تكرار حوادث البدو في حملة لويس التَّاسع على دمياط، واحتلاله لها. لكنْ؛ ما إن تلوح الفُرصة حتَّى يعود البدو إلى عاداتهم التي لا يُبدِّلونها، فبعد أن أحرق المُسلمون الجسورَ التي بناها لويس للعُبُور عليها من أجل الهُجُوم على المُسلمين، جاء بدوي إلى مُعسكره، وأخبره أن بإمكانه أن يدلَّه على مخاضة تُمكِّن جيشه من العُبُور إلى جهة المُسلمين، شريطة أن يُعطيه خمسمائة دينار، ودفع لويس المال، وعبر الجيش الفرنجي، وفاجؤوا المُسلمين في مُعسكرهم[2]، ويُتابع جوانفيل مُرافق الملك لويس رواية ما حدث، فيقول: "بعدما هزمنا المُسلمين، وطردناهم من خيمهم، وتركوا مُخيَّمهم فارغاً، اندفع البُداة للقيام بنهبه، ولم يترك اللُّصُوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كُلَّ شيء خلَّفه المُسلمون . . ومن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عَدَّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم"[3].

وبعد كُلِّ ما ذكرناه هل نستطيع الحُكْم على قبائل البدو بالعمالة المطلقة للفرنج؟! لا أظنُّ ذلك، فإن ما ورد هُو نصف الحقيقة، وهُو لا ينفي أنَّه كان لكثير من طوائف البدو مواقف وطنية، ووقفات يُسجِّلها التاريخ لهم، فقد كان جيش صلاح الدِّين لا يخلو من فُرسان البدو المُتطوِّعة للجهاد. فعندما كان السُّلطان مُخيِّماً في مرج عُيُون، وضع مجموعة من فُرسان بني ربيعة في كمين

1 - السُّلُوك، المقرزي، 1/ 320، ـ بعد أن احتلَّ الفرنجُ دمياطَ أرسل الكامل يجمع المُتطوِّعين من القاهرة، ولإثارة حماسة الناس أبلغوهم أن ملك الفرنج قد أقطع ديارَ مصر لأصحابه، فقال الشاعر الشَّعْبي:
يُهدِّدونا بأهل عكَّا أن يملكونا وأهل يافا
ومَنْ لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا
2 - جين جوانفيل، حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 88.
3 - جين جوانفيل، حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 99.

للفرنج، فكشفوهم، وحاصروهم، فقاتلوا، حتَّى قُتلوا عن آخرهم، وكان فيهم ثلاثة من أُمراء بني ربيعة[1]. كذلك كان السُّلطان صلاح الدِّين يعرف قيمة البدو كأدلاء، فنجدهم يتقدَّمونه في مسيره[2]، ثُمَّ يُسلِّطهم على مُعسكرات العدوِّ، فيقضُّون مضاجعهم، وينهبون ما وصلت إليه أيديهم، حتَّى إنَّهم - في أحد الأيَّام - أحضروا للسُّلطان كَنيسَة المُعسكر الفرنجي، وهي خيمة كبيرة[3]، وهذا دليل على جسارتهم على العدوِّ، واقتحامهم لمُعسكراته، حتَّى إنَّهم فكُّوا خيمة الكَنيسَة من وسط المُعسكر، وحملوها.

وعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين مُرابطاً أمام للفرنج على حصار عكَّا بلغه أن جمعاً من الفرنج يخرجون للاحتطاب وللاحتشاش من طرف النهر، "فأكمن لهم جماعة من العَرَب، وقصد العَرَب لخفَّتهم على خُيُولهم، وأمنه عليهم، فخرجوا، ولم يشعروا بهم"[4]، "وحالوا بينهم وبين خيامهم"[5]، "وهجموا عليهم، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وأسروا جماعة، وأحضروا رُؤُوساً عدَّة"[6]. وفي عام **647** هـ **1249**م، بعد أن احتلَّ الفرنج دمياط استنفر الملك الصَّالح أيُّوبُ النَّاسَ، "فوصلت عربان كثيرة جدًّا، وأخذوا في الغارة على الفرنج، ومُناوشتهم"[7]. وكُلُّ ذلك مواقف وطنية وجهادية يجب أن نتذكَّرها، إلى جانب كُلِّ ما كان يُذكَر لهم من مواقف سيِّئة.

صُورة البدو لدى الفرنج:

قبِل الفرنجُ التعاملَ مع البدو، وبلا شكٍّ؛ فقد أفادوا منهم في مواقف كثيرة، وخاصَّة للدلالة في مسالك بلاد مجهولة بالنِّسبَة إليهم، ومعروفة بدقَّة بالنِّسبَة للبدو. وبالمُقابل؛ عاش الفرنج معاناة كبيرة من البدو، فهم لم يُخلصوا لهم في يوم من الأيَّام، وكانوا - على الدوام - ينتظرون الفُرصة لينقضُّوا

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 198، - والأُمراء هُم: زامل بن تبل بن مرا بن ربيعة أمير بني ربيعة، والأمير حجي بن منصُور بن دغفل بن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرا بن ربيعة، وآخرون غيرهم.
2 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 253.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 194.
4 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 116.
5 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 207.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 294.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

عليهم، كما كانوا يفعلون بجُيُوش المُسلمين. لذلك ظلَّ الفرنج حذرين غاية الحذر في تعاملهم مع البدو، بل رُبَّما كانوا يخافون منهم، ويتَّضح هذا الخوف من خلال الصُّورة التي نقلها عن البدو مُؤرِّخو الفرنجة، فيقول عنهم بوتشارد راهب جبل صهيون:

"البدو يملكون أعداداً كبيرة من الماشية، ويقومون برعايتها، لا يمتلكون مكاناً دائماً للإقامة، يقصدون المراعي، ويُقيمُون خيامهم . . مُقاتلون مُتفوِّقون، يُحبُّون الحَرْب، ويستخدمون السيف والرّمح في المعركة، ولا يستخدمون النَّشَّاب، ويقولون إنَّها دناءة أن تنتزع حياة إنسان بواسطة سَهْم، وهُم شُجعان، ولا يرتدون إلَّا قميصاً فوقه عباءة فضفاضة، ويُغطُّون رُؤُوسهم بقطع قماش"[1].

ويقول الراهب الدومينيكاني فيلكس فايري: "إن البدو يزجُّون أنفسهم في أعظم المخاطر من دُون خوف، لاعتقادهم بأنَّ الموت أمر مَقْضي من الله لا يُمكن تجنُّبه"[2].

ويقول عنهم جين جوانفيل مُرافق الملك لويس في حملته على مصر: "ولا يعيشون في قُرى، أو مُدُن، بُيُوتهم أكوام مربوطة إلى أعمدة، عليها جلود أغنام مُعالجة بالشَّبّ، يرتدون عباءات من الصوف، يلفُّون أنفسهم بها، ويعتقدون أن الانسان لا يموت قبل اليوم المحدَّد له، فلذلك يرفضون لبس الدُّرُوع، وشتيمتهم: عليكَ اللعنة مثل فرنجي يلبس الدُّرُوع خوفاً من الموت" [3]، ويُلخِّص فيليكسُ فايري النظرةَ إلى البدو في العصر الأيُّوبي بقوله: "إن البدو مكروهون من المُسلمين والمسيحيين سواء"[4].

1 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39/ 242.
2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 / 1194.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 100.
4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1194

الفصل الثّالث

العلاقات السّياسيّة والعسكريّة

الفرقة الخَوارزميّة

المبحث الأوّل:

فرقة المُقاتلين المُرتزقة

توجّهت مُعظم عساكر جلال الدِّين الناجية من سُيوف التّتار إلى بلاد سلاجقة الرُّوم، وقصدوا السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، الذي رحّب بهم، واستخدمهم في جيشه[1]، وذُكِر أن كَيْقُبَاذ هُو الذي استدعاهم، فوافقوا على خدمته، وأقسموا له، فأقطعهم الأراضي في إرزن الرُّوم[2]. وظهرت نوايا كَيْقُبَاذ بعد استخدام الخَوارزميّة، فخاض أوّل معاركه بهم ضدّ الأيُّوبيِّين؛ حيثُ هاجم خِلاط، واحتلّها بمُساعدة فعّالة من فرقة الخَوارزميّة، كذلك هاجم عدّة مُدُن وقلاع أيُّوبية في الجزيرة[3]، ممّا دفع بني أيُّوب للتّكتُّل، وجمع قُوّاتهم، والسير بحملة عسكريّة كُبْرَى نحو الجزيرة عام 633 هـ 1236م، واسترجعت الحملة ما احتلّه كَيْقُبَاذ الذي انسحب إلى ما خلف ممرّات طوروس، أو ما كان يُعرَف بالدربندات[4].

وعندما تُوفِّي كَيْقُبَاذ، وتولّى مكانه ابنه غياث الدِّين كيخسرو[5]، "ارتاب بالخَوارزميّة، فقبض على أُمرائهم، وانفضّ الباقون عنه، وعاثوا في الجهات"[6]. وفي الحقيقة؛ كانت نقمة غياث الدِّين على الخَوارزميّة لأنّهم تلكّؤوا بمُبايعته، فحبس مُقدّمهم خير خان، الذي تُوفِّي في سجنه، وهرب الباقون نحو ملطية وخرتبرت، ثُمّ سُمَيساط، يُغيرون، وينهبون، ثُمّ انحدروا مُغيرين ما بين حَرّان والرُّها

1 - مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 4/ 325.
2 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمّد السعيد جمال الدِّين، 229.
3 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 314، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 307.
4 - مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 695، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.
5 - شذرات الذهب، أحمد الحنبلي، 5/ 168، والعبر، الذهبي، 5/ 139.
6 - العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

وسروج[1]، وعاشوا على النهب والتعرُّض للقوافل، وفرض الأتاوات على الحُكَّام. فحاول غياث الدِّين استرضاءهم، لكنَّهم لم يوافقوا على العودة إليه[2]. وشكَّل الخَوَارزميَّة مجموعات مُتنقِّلة، ارتكبت من القتل والنهب والفواحش ما فاق ارتكابات التَّتار؛ بحيثُ لن يُمكن لأحد أن يُسوِّغ وحشيَّتهم بفقر، أو عطالة[3]. وقد بلغ عدد مُقاتلي الخَوَارزميَّة في بدايات تواجدهم في الجزيرة نحو خمسة آلاف فارس[4]، ثُمَّ أخذوا بالتزايد بسبب انضمام أفراد ومجموعات إليهم، وأكبر المجموعات التي عملت معهم كانت من التُّركمان[5]، فأصبح تعدادهم ما بين عشرة آلاف فارس[6]، واثنَيْ عشر ألف[7].

ولأن الخَوَارزميَّة كانوا يعيشون عيشة العصابات، فإنَّهم لم يعودوا يخضعون لقائد واحد، بل كان لهم عدَّة مُقدَّمين، كان أكبرهم حُسام الدِّين بركة خان، الذي تمكَّن من الظهور على بقيَّة المُقدَّمين لمركزه السَّابق، "فقد كان أمير حاجب السُّلطان جلال الدِّين، وهُو شيخ داهية له رأي ورواء، ودونه يأتي عزّ الدِّين صاروخان، شحنة الجمال التي لجلال الدِّين وهُو شيخ بطين أبله، ثُمَّ بهاء الدِّين كشلو خان تربية جلال الدِّين، شابٌ عاقل وابن أُخت جلال الدِّين، وبهادر، وبكجري، وتبلو، وغيرهم"[8]. ويبدو أن مُقدَّمي الخَوَارزميَّة اعتمدوا في زعامتهم على مناصبهم القديمة في جيش جلال الدِّين.

وكان الخَوَارزميَّة يتنقَّلون ويُقاتلون مُصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم وخيامهم ومُمتلكاتهم، وعندما استولوا على بعض المُدُن والحُصُون، أو حصلوا عليها كإقطاع انتقلوا للسَّكَن بها. وقد عمل الخَوَارزميَّة في الجزيرة والشَّام كفرقة مُرتزقة حقيقيَّة، تُؤجِّر سُيُوفها ورجالها لمَنْ يدفع لها أكثر، وعندما لا يجدون مَنْ يعملون لحسابه، كانوا يعملون لحسابهم الخاصّ. وعلى هذا الأساس فلا يُمكن أن نتوقَّع منهم الالتزام بميثاق، أو الوفاء بعهد، أو الإخلاص لسيِّد مُعيَّن. ولكُلِّ هذا لا نستطيع أن نعدَّهم من المُتطوِّعة، أو من مُحترفي الجُندية، فهم مُرتزقة يحترفون الارتزاق كمجموعة واحدة.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 230، ومُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 250 ـ 251، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 283.
2 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 261 ـ 263.
3 - من ذكريات الغزو الفرنجي، د. شاكر مُصطفى، 101.
4 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640 / 32.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 296، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 476، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331.
6 - تاريخ الزَّمان، ابن العبري، 276.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل 4/ 325.
8 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 32، وأخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 32، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 353.

المبحث الثَّاني:

الصَّالح أيُّوب وفرقة الخَوَارزميَّة

في عام 634 هـ 1237م، سمع بأخبار فرقة الخَوَارزميَّة أمير حصن كيفا الصَّالح أيُّوب بن السُّلطان الكامل، وكان نائباً لأبيه في الجزيرة[1]، فأرسل يستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له[2]، فاستقدمهم أيُّوب "وأفاض عليهم الأرزاق"[3]، وأعفى جميع أُمرائه من مهامِّهم، وأعطى أخبازهم للخَوَارزميَّة[4]. ويقول ابن خلدون إن سبب استقدام أيُّوب للخورازمية "ليحسم عن البلاد ضررهم"[5]، ولكن استخدام أيُّوب للخَوَارزميَّة لا يدلُّ على ذلك أبداً، فقد تقوَّى بهم، وهاجم أعداءه، وكانوا سبب سعده وارتقائه قبل أن ينقلبوا عليه.

في المرحلة الأُولى من التعاون بين أيُّوب والخَوَارزميَّة، وهي مرحلة الجزيرة، كان معهم كراكب الأسد، تهابه الناس، وهُو لمركوبه أهيب[6]، وحتَّى يضمن ولاءهم له زوج أُخته من والدته بمُقدَّم الخَوَارزميَّة بركة خان، وزوج ابنه المُغيث عُمر من ابنة بركة خان، ومع ذلك؛ كانوا "يُظهرون طاعتهم حيناً، ويتغاضون حيناً، ويطلبون منه ما يفوق طاقته"[7]. فالخوارزمية حتَّى بعد انضمامهم لقُوَّات الصَّالح لم يتحوَّلوا إلى قطعة عسكريَّة، ولم تتركهم رُوح التمرُّد. وعندما تحرَّك الملك الكامل لحصار حمص عام 635 هـ 1238 م، طلب من ابنه أيُّوب الهُجُوم على الرحبة، التي تتبع لمملكة حمص، فسار إليها الصَّالح، وحاصرها ومعه الخَوَارزميَّة، الذين ما إن سمعوا بموت الكامل، وشعروا بحرج موقف ابنه الصَّالح، حتَّى تمرَّدوا، وحاولوا القبض على سيِّدهم الصَّالح، فهرب منهم، والتجأ إلى سنجار، فنهب الخَوَارزميَّة معدَّاته وأمواله[8]، وتفرَّقوا في البلاد الجزرية يتحكَّمون بها[9]، ويُمارسون كُلَّ ما يخطر على البال من الموبقات والأذى للناس.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 255.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 378.
3 - العبر، ابن خلدون، 5/ 355.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 311.
5 - العبر، ابن خلدون، 5/ 355.
6 - يُقال هذا التشبيه لمَنْ يُصاحب الحُكَّام (الدُّرَّة المضية، ابن صصرى، 20).
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 153.
8 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 269.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.

وانتهز هذه الفُرصة سلاجقةُ الرُّوم، فاتَّفقوا مع صاحب ماردين، وهاجموا مدينة حَرَّان، وكان بها المُغيث بن الصَّالح أيُّوب، فهرب إلى قلعة جعبر، وأكمل عليه الخَوَارزميَّة الذين وقعوا على أثقاله، فنهبوها[1]. وكذلك كان حال بدر الدِّين لُؤلُؤ، فهُو يتحيَّن الفُرص. ولَّما مات الكامل طمع لُؤلُؤ باحتلال بلاده، فبدأ بسنجار، وحاصرها، وكان بها الصَّالح أيُّوب، فطلب منه الصُّلح، فأصر لُؤلُؤ على حمله إلى بغداد في قفص[2]. ولَّما بلغت الشدَّة بأيُّوب أقصاها لم يجد منقذاً له سوى الخَوَارزميَّة، وعرف أنَّهم يُحاصرون حَرَّان[3]. وكآخر سهم في جعبة الصَّالح أطلق قاضي سنجار بدر الدِّين السنجاري نحو الخَوَارزميَّة، فقد دلاه من السور ليلاً، ومضى إلى الخَوَارزميَّة، ووافقهم على كُلِّ ما طلبوه من إقطاعات: حَرَّان، والرُّهَا، وغيرها[4]، "واستمالهم، وطيَّب خواطرهم بكثرة ما وعدهم به، فمالوا إليه"[5]، كما أطعمهم القاضي بدر الدِّين بأموال لُؤلُؤ، ووعدهم أن تكون غنيمتهم الخاصَّة[6].

وفي هذه الأثناء كان المُغيث بن أيُّوب يُحاول اللُّجُوء إلى حلب، فردُّوه، فسار نحو حَرَّان، وهُناك وصله كتاب أبيه الصَّالح أيُّوب بالاتِّفاق مع الخَوَارزميَّة، ويطلب منه القُدُوم معهم لدفع لُؤلُؤ عن سنجار، فسار المُغيث مُسرعاً نحو الخورازمية، واندفعوا جميعاً نحو سنجار[7]، وكبسوا لُؤلُؤاً، فنجا وحده، ونهبوا خزائنه وأمواله وجميع ما كان في عسكره[8]، واستغنى الخَوَارزميَّة بما سلبوه

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 1197، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299، ـ بينما يقول ابن العميد: إنَّهم كانوا "يتنقَّلون من مرج إلى مرج، ويأكلون، ويشربون". (أخبار الأيُّوبيِّيْن، 27)، وهذا وَهْمٌ؛ إذْ لا يُمكن للخَوَارزميَّة أن يُفوِّتوا هكذا فُرصة من الفوضى لجمع المكاسب.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سمباط، 12/ 315.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 269.
6 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 27، ونهاية الأرَب، النويري، 25/ 233.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299، ونهاية الأرَب، النويري، 25/ 233، وأخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 27.

من لُؤلُؤ[1]. وعاد الصَّالح أيُّوب إلى حصن كيفا مهاباً، وحوله الخَوَارزميَّة، فوجَّههم صوب آمد لطرد جيش سلاجقة الرُّوم، الذين آثروا السلامة، وانسحبوا نحو بلادهم[2].

وعادت أُمُور الصَّالح أيُّوب للانتظام مع الخَوَارزميَّة في الجزيرة، فأخذ يتطلَّع إلى الشَّام، وجاءته الفُرصة تسعى في عام 636 هـ 1239م، عندما طلب الملك الجواد يُوسُف بن ممدود بن العادل، الذي تولَّى دمشق بعد وفاة عمِّه الكامل، من الصَّالح أيُّوب أن يُبادله على دمشق بالرقَّة وسنجار وعانة، فوافق الصَّالح، وأسرع نحو دمشق، وتسلَّمها منه[3]. ورتَّب أيُّوبُ ابنَهُ المُعظَّم تُوران شاه في حصن كيفا[4]، وترك الخَوَارزميَّة في إقطاعاتهم حَرَّان والرُّهَا لحراسة مُمتلكاته في الجزيرة. ويبدو أنَّهم فرضوا سُلطتهم كأمر واقع هُناك، فقد "تسلطن الخَوَارزميَّة على بلاد الجزيرة، وبالغوا في العيث والفساد"، وخطبت المُلُوك وُدَّهم، حتَّى إن المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين تزوَّج ابنة عمِّ مُقدَّمهم بركة خان[5].

ويبدو أن أيُّوب كان ينظر لموضوع المبادلة مع الجواد بمنظار آخر، فربما كان يعتبر أن دمشق هي حقّه بالإرث عن والده الكامل، وأن الجواد مُغتصب لهذا الحقّ، لذلك عندما اتَّفق معه بيت له الغدر، وما إن سار الجواد عن دمشق حتَّى أتبعه برسول إلى الخَوَارزميَّة ليقبضوا عليه، ولكن الجواد ـ ولحُسْن حظِّه ـ كشف الرسالة، وسار في البادية مُتخفِّياً، حتَّى وصل عانة، فأقام فيها[6]. وفي عام 637 هـ، استولى لُؤلُؤ صاحب المَوصل على سنجار، وطرد الجواد منها[7]، ولم يبقَ للجواد سوى عانة، فباعها للخليفة المُستنصر، ومن غرائب الأُمُور أنَّه سار ـ بعد ذلك ـ إلى حَرَّان، وأقام بين الخَوَارزميَّة، وانضمَّ إليهم[8].

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 704، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 300.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.
3 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ640/ 20.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 691.
5 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 32.
6 - نهاية الأرَب، النويري، 29/ 244.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 2/ 166، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 320.
8 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

حصار حمص:

وصل الصَّالح أيُّوب إلى قناعة مفادها أنَّه طالما بقي الملك المُجاهد في حمص فلن يستقرَّ مُلكه في دمشق، فلم يُضيِّع أيُّوب وقتَهُ في دمشق، وجدَّد تحالف والده الكامل مع المُظفَّر في حماة، وطلب منه تحريك جُيُوشه نحو حمص، وأرسل للخورازمية يطلبهم لحصار حمص، وتحرَّك هُو بعسكر دمشق نحو حمص، حتَّى وصل إلى ثنية العقاب[1]. سبق الخَوَارزميَّة جميع القُوَّات الحليفة، وألقوا حصارهم على حمص قبل أن تصل إليها قُوَّات المُظفَّر من حماة، أو قُوَّات الصَّالح من دمشق، وهذا ما أتاح للملك المُجاهد الاتِّفاق معهم، ودفع ما يُرضيهم مُقابل انسحابهم عن مدينته[2]. وبالتَّأكيد؛ فإن تواطؤ الخَوَارزميَّة ضدَّ سيِّدهم ووَلِيِّ نعمتهم الصَّالح، الذي سلَّطهم على البلاد والعباد، لم يكن من أجل مال المُجاهد فقط، بل يبدو أنَّهم وضعوا في حسبانهم أُموراً أُخرى، رُبَّما كان المُجاهد قد لمَّح لها خلال مُفاوضته معهم، ومنها:

1 ـ خطر لقائهم بقُوَّات دمشق وقُوَّات حماة المُتحالفتَيْن، فقد يخطر ببال الصَّالح أيُّوب ـ بعد أخذ حمص، وقد توفَّرت له كُلُّ أسباب القُوَّة ـ أن يُصفِّي حسابه القديم معهم.

2 ـ إذا استولت القُوَّات الحليفة على حمص فسيكون كُلُّ شيء للصَّالح أيُّوب، فأجور الخَوَارزميَّة مدفوعة سلفاً في إقطاعات الجزيرة، وبالتَّالي؛ ستكون خسائرهم في المعركة وجُهُودهم مجانية.

4 ـ لمس الخَوَارزميَّة مدى قُوَّة تحصين حمص، وعزيمة المُجاهد الصلبة، فوضعوا احتمال عدم النجاح في أخذها، ففضَّلوا مكسباً مضموناً بلا تعب.

5 ـ أثبتت الخَوَارزميَّة أمام حمص أنَّها فرقة مُرتزقة حقيقيَّة، وأنَّها مع مَنْ يدفع، وهذه النقطة لابُدَّ أن المُجاهد كان يُدركها تماماً، وقد أجاد استخدامها.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163، و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 280.

كما يبدو أن المُجاهد ـ بطُرُقه المعهودة ـ قد شغل أفكار الخَوَارزميَّة حول أملاكهم في الجزيرة، فلمَّا تأكَّد لهم طول المقام عادوا إلى بلادهم[1].

وكان المُظفَّر صاحب حماة في طريقه إلى حمص عندما ارتدَّ الخَوَارزميَّة عنها، فخاف أن يقصدوه؛ لأنَّه يُشكِّل لهم غنيمة سهلة على الطريق، فلا قُوَّة جيشه ولا تحالفه مع الصَّالح أيُّوب يحميانه منهم، فآثر الإسراع نحو أسوار حماة يتحصَّن بها[2]. وبعد أن عرف الخَوَارزميَّة أن مُخطَّطات الصَّالح أيُّوب لامتلاك مصر قد انتهت به في سجن الكَرَك، "تحرَّكت أطماعهم، وعاثوا في بلاد الشَّرق والجزيرة"[3]. وبقدر الأعداء الذين اكتسبوهم بفسادهم اكتسبوا من الحُلفاء، فقد وجَدَ فيهم المُلُوك الحاقدون والأُمراء المنبوذون ملاذاً ومُتنفَّساً لغلِّهم على المُلُوك والممالك. فانضمَّ إليهم الملك الجواد يُونُس بن ممدود، الذي اعتقد أنَّه غُبن بتسليمه دمشق للصَّالح أيُّوب[4]. وكذلك الصَّالح إسماعيل بن المُجاهد الذي لم يحصل على نصيب من تركة أبيه في حمص[5]. وعلي بن حُذَيْفة أمير بني ربيعة الذي حقد على حلب لتقريبها أحلاف الأعراب[6]. وانضمَّ هؤلاء جميعاً إلى الخَوَارزميَّة. كما دخل حلفهم المُظفَّر شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، لأنَّه شعر بأطماع سلاجقة الرُّوم تمتدُّ إلى بلده، فأعلم الحلبيين، وطلب حلفهم، فلم يوافقوه لاتِّفاقهم المُسبق مع صاحب الرُّوم[7]، علماً بأنَّ المُظفَّر هو شقيق ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حلب. كذلك تمكَّن المُظفَّر شهاب الدِّين من استمالة التُّركمان الكرمانية بالمال والوُعُود[8]، ويُمكن أن نعزو قيام التحالف الخوارزمي ليُقابل التحالف الشَّامي حلب حمص دمشق[9].

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 280.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 369.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 501.
4 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.
5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 176، و تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 31.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 501.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 304.
8 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، 276.
9 - الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 85.

وفي عام 638 هـ1241م[1]، قام الخَوَارزميَّة وحُلفاؤهم بالضغط على الحافظ نُور الدِّين أرسلان ابن العادل صاحب بالس وقلعة جعبر، بتحريض من ابنه الذي التجأ إليهم، وطلب حصار أبيه، فقام الحافظ ـ نتيجة لعجزه عن حماية أملاكه ـ بتسليمها إليأُخته ضَيْفَة خَاتُون، الوصية على عرش حلب، فانقضَّ الخَوَارزميَّة يُغيرون على جعبر وبالس[2]، ومعهم نجدة صاحب ماردين المنصُور الأرتقي[3]. فتصدَّى لهم عسكر حلب بقيادة المُعظَّم تُوران شاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، والتقى الجمعان في وادي بزاعة قُرب البيرة، فهاجم الخَوَارزميَّة جيش حلب من أمامه، وخرج عليه علي بن حديثة بعربانه من الخلف، فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة[4]، ووقعت المُلُوك والأُمراء بين قتيل، وأسير[5]، فقد قُتل منهم: الصَّالح بن الأفضل صاحب سُمَيساط، والزاهر بن السُّلطان صلاح الدِّين، وأسر تُوران شاه، وأخيه نصرة الدِّين[6]. فاستعدَّ الحلبيون للحصار، "وتدفَّق الخَوَارزميَّة نحو حلب، وبثُّوا سراياهم حتَّى اعزاز وتل باشر وطرف العمق، وارتكبوا من الفواحش ما لم يفعله أحد من الكُفَّار"[7]؛ حيثُ انقضُّوا على منبج، واستباحوها، وفعلوا فيها فعْلَ التَّتار[8]؛ إذ "ارتكبوا الفواحش بالنساء في الجامع علانية، وقتلوا الأطفال"[9]. كذلك كان فعلهم في سرمين؛ حيثُ دخلوا دار الدعوة الإسماعيليَّة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنَّاً منهم أنَّهم لا يجسرون على قُربانها خوفاً من الإسماعيليَّة، فدخلوها قهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها[10]،

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.
2 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 3/ 733.
3 - يُقدِّر ابنُ واصل نجدةَ ماردين للخَوَارزميَّة بحوالي 12 ألف فارس، (مُفرِّج الكُرُوب، 5/ 283).
4 - يُعلِّل ابنُ شدَّاد هذه الهزيمةَ، وهُو الذي كان يكتب في بلاط حلب، بأنَّ جيش حلب كان مُشتَّتاً في عدَّة مهامّ عسكريَّة، يقول: "لَمَّا قصد الخوارزميةُ حلبَ كان عسكرها مُفرَّقاً في البلاد، بعضه بحمص لَمَّا أغار الفرنج على بلدها، وبعضه في الرُّوم صحبة الأمير حُسام الدِّين ألطاش بن تركمان، وبعضه بقلعة جعبر مع الأمير ناصر الدِّين أبي المعالي الفارسي، وبعضه بعزاز بسبب التركماني الآغا خرية، ولم يكن بحلب ـ يومئذ ـ إلَّا دُون الألف فارس، خرج بهم المُعظَّم تُوران شاه بن صلاح الدِّين". (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 465).
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 349.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 697.
8 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 504، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 284.
9 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 406، ـ وكذلك حول فظائع الخَوَارزميَّة في المعرَّة راجعْ: ما أورده ابن واصل في: مُفرِّج الكُرُوب، 5/ 285.
10 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.

ثُمَّ استباحوا المعرَّة وكفر طاب[1]، قبل أن "يرجعوا إلى بلادهم، وهي حَرَّان، وما معها، بعد أن أخربوا بلد حلب"[2]. ويُحاول بعض الدارسين لوقائع الخَوَارزميَّة أن يُبرِّر فظائعهم تلك بأنَّها نتيجة للعنف الذي تعرَّضوا له من قبَل التَّتار، وأن العنف والفظائع كادت تُصبح من سمات الحُرُوب المُتعارف عليها[3]، ولكنْ؛ نجد أنَّه من الأفضل النظر إلى حالة الخَوَارزميَّة من جميع النواحي: الاجتماعيَّة، والعسكريَّة، والاقتصاديَّة، والنفسية، إنَّها حالة لا تعرف الاستقرار بأيِّ شكل، فهم مع أيِّ كان، وضد أيِّ كان، ينقلبون على الحليف، ويحالفون العدوَّ، كُلُّ ذلك انطلاقاً من المصلحة الآنية، بدُون أيِّ استراتيجية في علاقاتهم، أو حُرُوبهم. فانقلبوا إلى فرقة من المُرتزقة، بلا مبادئ، وبلا أيِّ وازع.

وربَّما كان من أهمِّ أسباب الهُجُوم الخوارزمي على حلب:

1 ـ أخذ الحلبيون لجعبر وبالس مُبادلة، بعد أن كادت تقع بأيديهم.

2 ـ تحريض الصَّالح أيُّوب للخَوَارزميَّة ضدَّ حلب، التي شكَّلت حلفاً مُعادياً له مع حمص ودمشق.

3 ـ تحالف حلب مع غياث الدِّين كيخسرو عدوّ الخَوَارزميَّة القديم.

4 ـ غنى أرض حلب، وتفرُّق جيشها مابين نجدة كيخسرو وحماية القلاع والحُصُون.

5 ـ رفض ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حلب طلب مُحمَّد تركان بن بركة خان للزواج بإحدى بنات البيت الأيُّوبي، وإهانتها للرسول[4].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 928 ـ 290.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 167.
3 - الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 73.
4 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 143، ـ وراجعْ مناقشة أسباب العداء بين الخَوَارزميَّة والحلبيين في: الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 70 ـ 71.

المبحث الثَّالث:

المنصُور إبراهيم يتصدّى للخَوَارزميَّة

ضجَّت الشَّام بأخبار الخَوَارزميَّة، وما فعلوا بحلب، وجيشها، فوصل الخبر إلى الملك المنصُور إبراهيم صاحب حمص، وكان يستعدُّ للإغارة على معاقل الفرنج "وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس، فساق بالعسكر حتَّى وصل حلب، وأقام خارج باب الرابية يستقدم العَسْكَر"، وأرسلوا إلى الصَّالح إسماعيل، فَسَيَّرَ نجدةً أُخرى[1]، وإلى المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، فَماطَلَ، وسَوَّفَ[2].

وخرج الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني ابن العزيز صاحب حلب لاستقبال المنصُور، وكان عمره إحدى عشرة سنة[3]. وحين سمع الخَوَارزميَّة بوُصُول المنصُور إلى حلب، عادوا إلى إقطاعاتهم، وتجمَّعوا في حَرَّان للتوجُّه نحو حلب لضرب قُوَّات المنصُور قبل أن يكثر جمعه، "وظنُّوا أنَّهم يبادرون لصُلحهم، وقد انفصل عنهم علي بن حديثة"[4]، وبالمُقابل؛ قرَّبت الصاحبةُ ضَيْفَة خَاتُون الأميرَ طاهرَ بن غنام، وأَقْطَعَتْهُ وزوجته، وسَمَّتْهُ أميرَ جميع العَرَب[5].

وخرجت الفرقة الخَوَارزميَّة وأحلافها من حَرَّان عام **638** هـ، فعبروا الفُرات عند الرقَّة، وخرج الملك المنصُور إبراهيم، وعَسْكَرَ في النيرب، ولَّما وصلت الخَوَارزميَّة إلى نواحي دير حافر والجبول، ناوشتْهُم العَرَبان المُتحالفة مع المنصُور، فمضى الخَوَارزميَّة إلى سرمين، ونهبوا دار الدعوة الإسماعيليَّة فيها، ثُمَّ زحفوا إلى المعرَّة، فتحرَّك المنصُور بقُوَّاته من النيرب إلى تلِّ السُّلطان، فالحيار[6]، ومن اتِّجاه حَرَكَة المنصُور نتبيَّن أنَّه كان يقصد أن يقطع عليهم طريق العودة نحو مواقعهم في الجزيرة.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 698.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 466.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286.

4 - وكان رسول حلب هُو ابن العديم (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 287.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699، - تلّ السُّلطان: يُعرَف بالفنيدق، يبعد عن حلب نحو مرحلة على طريق دمشق. - الحيار: حيار بني القعقاع، صقع من برية قنسرين، بينه وبين حلب يومان. (ياقوت، مُعجم البُلدان، مادَّة: تلّ السُّلطان، ومادَّة: حيار).

ولَّما تبيَّن الخَوَارزميَّة نوايا المنصُور، ولمسوا فيه القُوَّة والعزيمة، اضطَرُّوا للهرب، مُتَّبعين دائرة واسعة حتَّى لا يصطدموا به، فاندفعوا نحو كفر طاب، وأحرقوها، ثُمَّ شيزر، فهاجموا ربضها، وهُناك علموا أن المنصُور يتتبَّعهم، فاتَّجهوا شرقاً نحو حماة، فاجتازوا بها دُون التعرُّض لها، بل أن بعضهم دخلها، فباع، واشترى، لانتماء صاحبها إلى الصَّالح أيُّوب[1]. ثُمَّ توجَّهوا إلى سلمية، فالرصافة، وهُناك حاول المنصُور الإيقاع بهم، فسبقتْهُ إليهم مجموعة من العَرَب المُلحقين بجيشه، فألقى الخَوَارزميَّة أثقالهم، وغنائمهم، وأسراهم، واندفعوا إلى الرقَّة، فانشغل العَرَب بالاستيلاء على الغنائم، فتمكَّن الخَوَارزميَّة من الإفلات والوُصُول إلى الفُرات مُقابل الرقَّة[2]، بينما كان المنصُور وجيشه في صفِّين، وكان جُلُّ همّه أن يسبقهم لمنع عُبُورهم الفُرات، فتأخَّر عنهم ساعة، تمكَّنوا خلالها من التحصُّن وحفر خندق دفاعي حولهم في بستان البليل، ثُمَّ تمكَّنوا من عُبُور الفُرات إلى الرقَّة، ومنها توجَّهوا إلى حَرَّان، ومن هُناك؛ توجَّهوا صوب الرُّهَا؛ حيثُ عسكروا قُربها مع مَنْ تمكَّنوا من جَمْعه من القُوَّات عند جبل يُدعى جَلْهَمَان. أمَّا المنصُور؛ فقد استمرَّ بملاحقتهم مع جيشه، ولكنَّه لم يعبر وراءهم مُقابل الرقَّة، فهي إقطاع لهم، فقد خشي من مُفاجأة فيها، لذلك ذهب شمالاً إلى البيرة، فعبر الفُرات على جسرها، وهُناك وافاه ثلاثة آلاف فارس هُم نجدة صاحب الرُّوم[3]، وعَسْكَرَ بين سروج والرُّهَا[4].

وكان هرب الخَوَارزميَّة هذا شيئاً جديداً في تكتيكهم العسكري، وهم الذين اتَّبعوا أُسلُوب المُواجهة مهما كانت النتائج، فهل كان ذلك تقديراً لقُوَّة جيش المنصُور؟ أو لسُمعته كقائد عسكري؟ أو لعدم رغبتهم في معركة لا غنيمة من ورائها؟ يبدو أن كُلَّ ذلك أجبرهم على أن يضربوا في الأرض لتجنُّب لقاء مكشوف مع المنصُور إبراهيم، وكان هدفهم اللحاق بالمُدُن والحُصُون التي سيطروا عليها في الجزيرة للتحصُّن بها.

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 366، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 244، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286 - 289.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 323.

3 - مُختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، 264.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286.

وعند جلهان داهمهم المنصُور، فلم يجدوا بُدّاً من القتال "فكثَّروا سوادهم بالجمال، وعملوا رايات من القصب، وحشدوا معهم سُكّان بعض المناطق"(1)، وما اتّباعهم لهذه الحيل إلّا دليل على خوفهم من اللقاء. وبالفعل؛ فقد كان تقديرهم لقُوّة المنصُور وجيشه صحيحاً، فعندما بدأت المعركة في 7رمضان **638** هـ **1241**م(2)، "كُسرت الخَوَارزميّة، واستُبيح عسكرهم، وهربوا حتَّى الخابور، ثُمّ التجؤوا إلى عانة لأنّها بلد الخليفة"(3). وكانوا قد مرُّوا في طريق هربهم بحران، فأخذوا نساءهم منها، وانطلقوا.

ويبدو أن المنصُور كان يُدرك أنّه ما لم يستأصل شأفتهم فلن تسكن فتنتهم، وأراد أن يُحقّق ذلك، ففوّت عليه الخَوَارزميّة الفُرصة بالتجائهم إلى مناطق سيطرة الخليفة؛ حيثُ لا تطولهم سُيُوف المنصُور. ويبدو أنّه كان مُرحَّباً بهم هُناك، فقد سار مُحمَّد تركان بن بركة خان إلى بغداد، وكان عمره نحو عشر سنين، فتلقّاه الحاجب، واستقبله الوزير، وقُلّد سيفاً، وأُسكن داراً، ثُمّ تبعه ابن كشلو خان(4). وكانت تلك الحفاوة جُزء من خُطّة الخليفة للاستعانة ببقايا الجيش الخوارزمي في محنته أمام تهديد التّتار، ففي عام **631** هـ **1234**م، استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس خوارزمي(5)، وبالتّأكيد؛ كان يأمل بانضمام الفرقة الخَوَارزميّة التي كانت في الجزيرة إليه، لذلك آواهم في عانة، واستقبل أولادهم، وأكرمهم غاية الإكرام.

وبعد هذه الضربة الكبيرة للخَوَارزميّة استولى المنصُور على مناطقهم في الخابور وقرقيسياء، وضمَّها إليه(6)، وكذلك استولى على حَرَّان دُون قلعتها(7)، وكان نائب الخَوَارزميّة فيها هُو شهاب الدِّين زندري كاتب الإنشاء في ديوان دولة الخَوَارزميّة بعهد منكبرتي، فراسله المنصُور

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 507.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 410.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 508.
4 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 144.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 176.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 411، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 508، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 245.
7 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 344.

سرّاً لتسليم القلعة(1). فسُلِّمت القلعة للحلبيين، الذين استولوا على سروج والرُّها ورأس عين وجملين والموزر والرقّة وأعمالها، وكُلُّها من مُمتلكات الصَّالح أيُّوب، كذلك سلَّم المُعظَّمُ تُوران شاه بن الصَّالح أيُّوب آمدَ إلى سلاجقة الرُّوم المدعومين بجيش حلب، بعد هُجُومهم عليها، على أن تبقى له قلعة الهيثم وحصن كيفا(2). أمّا بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل؛ فقد سار إلى نصيبين ودارا، وأخذها، وحرَّر من سجن الخَوَارزميّة في دارا المُعظَّم تُوران شاه ابنَ السُّلطان صلاح الدِّين قائد جيش حلب الأسير(3)، ولا ندري هل كان ذلك التوزيع ضمن اتّفاق عامٍّ تمَّ فيه توزيع مناطق الخَوَارزميّة؟ أم هُو تحقيق للأمر الواقع، فكُلٌّ منهم أخذ ما وصلت إليه يده؟.

استمرَّ الخَوَارزميّة في عانة تحت حماية الخليفة حتّى عام **639** هـ **1241**م، فخرجوا نحو المَوصل، فما كان من صاحبها بدر الدِّين لُؤلُؤ إلّا أن اتّفق معهم، وسلّمهم نصيبين، بعد أن تأكّد أنّه لا طاقة له بهم، وأنّه قد يستفيد من الفوضى التي يُحدثونها في الجزيرة(4)، وفي عام **640** هـ **1242**م، عادوا للاتّفاق مع حليفهم القديم المُظفَّر غازي بن العادل صاحب مَيّافارقين، لأنّه كان يخشى من هُجُوم سلاجقة الرُّوم عليه، وطلب التحالف مع حلب، فلم يحالفوه، فاضطُرَّ للتعلُّق مرَّة أُخرى بركب الخَوَارزميّة، الذين ساروا إليه للهُجُوم على آمد، فبرز عسكر حلب مع المُعظَّم تُوران شاه نحو آمد، فارتدَّ عنها الخَوَارزميّة، واعتصموا بمَيّافارقين، فحاصرهم الحلبيون(5)، وبعد عدَّة وقعات معهم جرت مُفاوضات انتهت باتّفاقهم على:

1 ـ يُقيم الخَوَارزميّة في أطراف بلاد الرُّوم، ويُعيّن لهم سُلطان سلاجقة الرُّوم إقطاعات تكفيهم.

2 ـ تعطي ضَيْفَة خَاتُون، الوصية على عرش حلب، لأخيها المُظفَّر غازي من الإقطاعات ما تختاره هي من غير شرط.

1 - مُختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 265.
2 - مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 734، ومُختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 266.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 702، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 323.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 703، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 309.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 803.

3 ـ يدخل المُظفَّر شهابُ الدِّين غازي في هذه الهُدنة، ويُسالم مَنْ يدخل بها.

4 ـ يدخل السعيد نجم الدِّين غازي صاحب ماردين في الهُدنة، ويحلف لصاحب حلب[1].

5 ـ تُطلق أسرى الخَوَارزميَّة من حلب[2].

إن هذا الصُّلح الغريب الذي يحصل فيه الجانب الأضعف، ليس على المكاسب الأكبر، بل على المكاسب كُلّها، لا يُفسِّره إلَّا ضغط التَّتار على سُلطان سلاجقة الرُّوم، وتحسبه منهم، فضغط ـ بدوره ـ على حُلفائه في حلب، وتنازلوا للخَوَارزميَّة وحُلفائهم عمَّا أرضاهم من البلاد، والإقطاعات، وغيرها، ورُبَّما لعدم قناعة الجميع، ماعدا الرُّومي، بهذه الهُدنة "فلم ينتظم من الأمر شيء "إلَّا إطلاق أسرى الخَوَارزميَّة بحلب"[3].

وبعد أن اطمأنَّ الخَوَارزميَّة لضعف أعدائهم راحوا ـ من جديد ـ يعيثون فساداً، واشتطُّوا بالطلب، فقد طلبوا من حلب زيادة إقطاعاتهم، ولمَّا رفض طلبهم هاجموا المَوصل، فاستنجد بدرُ الدِّين لُؤلُؤ بالناصر صلاح الدِّين الثَّاني صاحب حلب[4]. وطلب النَّاصر يُوسُف من الملك المنصُور إبراهيم القُدُوم لنجدته، فلبَّى مُسرعاً، ولمَّا وصل "خرج الملك النَّاصر وأكابر المدينة، والتقوه إلى ظاهر حلب"[5]. وكذلك طلب الحلبيون نجدة الرُّومي جلال الدِّين كيخسرو، فتأخَّر عن نجدتهم لغارات التَّتار على بلاده، وملكهم أرزن الرُّوم[6]. ولجأ الخَوَارزميَّة ـ هذه المرَّة ـ لتغطية جرائمهم بموقف سياسي، فأخذوا "يُظهرون للناس أنَّهم يفعلون ما يفعلونه خدمة لصاحب مصر، فإن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزباً على الصَّالح صاحب مصر"[7]، ولكن سلوكهم السَّابق واللاحق يُثبت أن ما يفعلوه طبيعة متأصِّلة فيهم، لا يتركوها، ولا تتركهم.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 306.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 703 ـ 704.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 306.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 509 ـ 510.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 303.

وبعد وُصُول المنصُور إلى حلب ضمَّ عَسْكَرَهَا إليه، ثُمَّ توجَّه إلى الجزيرة، وسار معه شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر مملكة حلب مُساعداً ومُستشاراً[1]. وتوجَّه المنصُور إلى آمد ينتظر نجدة الرُّومي لمنازلة مَيَّافارقين، لكنَّ هُجُوم التَّتار على أرزن الرُّوم جعل المنصُور ينسحب إلى رأس عين. وتحرَّك الخَوَارزميَّة بسُرعتهم المعهودة إلى دنيسر، ثُمَّ إلى إقليم الخابور، فتبعهم المنصُور، ونزل المجدل[2]. وممَّا يلفت النظر هُنا انسحاب المنصُور خوفاً من التَّتار، وانهاكه بمطاردة الخَوَارزميَّة، فالسلبية الشديدة تجاه التَّتار من قبَل مُلُوك بني أيُّوب، قبل هُجُوم التَّتار على مُمتلكاتهم وممالكهم، كانت مُدهشة، فالسُّلُوك السلبي نفسه كان للملك المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، مع أن التَّتار قد وصلوا إلى خرتبرت المُجاورة لمَيَّافارقين[3]، هذا؛ إنْ لم نذكر الخَوَارزميَّة الأعداء القدماء للتَّتار.

ولمَّا التقى المنصُورُ الخوارزميةَ عند المجدل وجد معهم جمعاً عظيماً من التُّركمان[4]، والملك المُظفَّر غازي بقُوَّاته، الذي أرسل يغلظ في الكلام للمنصُور، ويطلب النُّزُول له عن الجزيرة بكاملها، وإلَّا، فالحرب[5]. والتقى الجمعان يوم الخميس 23 صفر 640 هـ 1243م[6]. فدارت الدوائر مرَّة أُخرى على الخَوَارزميَّة، وحُلفائهم، وولُّوا "منهزمين أقبح هزيمة"[7]، "ونُهبت أموالهم، ونساؤهم"[8]، كذلك تبدَّد شمل التُّركمان، وأُسروا، ونُهبوا[9]، "ونزل الملك المنصُور في خيمة الملك المُظفَّر، واستولى على خزائنه"[10]. ثُمَّ توجَّه الملك المنصُور إلى حلب، فخرج الملك النَّاصر إلى منبج للقائه، واجتمع به، وسار معه حتَّى حلب[11]، ومن هُناك؛ عاد المنصُور إلى حمص ليُتابع الجهاد ضدَّ الفرنج[12].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 704.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 310. ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.
4 - كان مُقدَّم التُّركمان ابن دودي (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 296، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512)، وهُو ابن دودا في: (الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد 3/ 2/ 470، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 350). وذكر الحنبلي أنَّه كان معه "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة ". (شفاء القُلُوب، 331)، وأكَّد الرَّقْم ابن شدَّاد (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 470، وابن العديم، زُبْدَة الحَلَب، 2/ 706)، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التُّركمان سبعة آلاف لكانوا كثيرين.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 350، والحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 151.
9 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.
10 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 170، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
11 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.
12 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 311، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

وعلى الرّغم من هذه الضربة الموجعة للخَوَارزميَّة، ومع كُلِّ ما لحق بهم من قَتْل وأَسْر، فيبدو أنَّهم استطاعوا تجاوز محنتهم مع حلول عام 640 هـ، فجمعوا فلولهم، وعادوا لعاداتهم القديمة، فعاثوا فساداً في الجزيرة، وهاجموا الخابور ورأس عين، ونهبوهما، ونهبوا التُّركمان حُلفاء الأمس[1]، ومدُّوا أذاهم إلى ضواحي حلب. وكانت الوصية على عرش حلب ضَيْفَة خَاتُون بنت الملك العادل قد توفيت، واستقلَّ حفيدها الملك النَّاصر يُوسُف بالحُكم في حلب، فأرسل جيشها لمطاردتهم بقيادة جمال الدّولة إقبال الخاتوني، فتجمَّع الخَوَارزميَّة في ماردين، ومعهم قُوَّات المُظفَّر شهاب الدِّين صاحب مَيَّافارقين، والسعيد نجم الدِّين صاحب ماردين[2]، "واحتمَوا بالجبال، وحَصَرَهُم عَسْكَرُ حلب، وخندقوا حولهم، وجرت وقعات"[3]، ولكن جيش حلب لم يظفر منهم بطائل، فعاد إلى بلده[4]، وكانت عدَّة أسباب وراء هذه النتيجة السلبية، منها:

1 ـ غياب جيش حمص المُدرَّب، مع غياب نجدات أُخرى مُهمَّة وُجدَت في المرَّات السابقة.

2 ـ غياب شخصية القائد العسكري المُخطِّط الشجاع، التي تحقَّقت في الملك المنصُور.

وتكرَّر تدخُّل علاء الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، فَخَطَرُ التَّتار أصبح على أرض الواقع، بعد أن كان يلوح في الأفق، والقائد التتاري بايجو نوين يضرب باتِّجاهين؛ الأوَّل: نحو بُلدان الخليفة العبَّاسي، اربل، فدقوقا، والثاني، باتِّجاه مملكة سلاجقة الرُّوم، في خرتبرت، وأرزن الرُّوم[5]، ممَّا يعني حصر الجزيرة بين فكَّيْ كمَّاشة. فقام كيخسرو بإرسال "نائب المملكة شمس الدِّين الأصبهاني إلى شهاب الدِّين غازي، وإلى صاحب ماردين والخَوَارزميَّة، وأصلح بينهم"[6]، وكما في المرَّة الأُولى كانت التسوية والصُّلح من حساب حلب والرُّومي، فقد أُعطي صاحب ماردين رأس عين، والخَوَارزميَّة خرتبرت، وغيرها، والمُظفَّر غازي أُعطي خِلاط، وعاد شمس الدِّين بقسم من عسكر حلب نجدة على التَّتار[7].

1 ـ مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.
2 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 314.
3 ـ زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.
4 ـ زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 514.
5 ـ مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 280.
6 ـ زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.
7 ـ زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.

المبحث الرَّابع:
الفرقة الخَوَارزميَّة في معركة غزَّة

وفي هذه الأثناء؛ عادت أُمُور الصَّالح أيُّوب للانتظام من جديد، عندما تمكَّن من الاستيلاء على مصر، فانتعشت آمال الخَوَارزميَّة، ورُبَّما تطاولوا بمطامعهم للسيطرة على الشَّام من خلاله. ولم يجعلهم الصَّالح أيُّوب ينتظرون طويلاً، فهُو لم ينسَ دمشق التي سلبها منه عمُّه الصَّالح إسماعيل، فَكَاتَبَ أيُّوبُ الخوارزمية، واستدعاهم نحوه. ولمَّا سمع بذلك الصَّالح إسماعيل، شعر بخطر مُواجهة الخَوَارزميَّة[1]، فاتَّصل بالفرنج، وقدَّم لهم تنازلات كبيرة لعقد التحالف معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب[2]. وبالفعل؛ فقد تحرَّك الخَوَارزميَّة عام 642 هـ ـ 1245م، من الجزيرة نحو مصر، "وما مرُّوا بموضع إلَّا ونهبوه، وعاثوا فيه"[3]، وكانت قُوَّاتهم قد أصبحت أكثر من عشرة آلاف مُقاتل[4] بما انضاف إليهم من التُّركمان، كما "انضمَّ إلى الخَوَارزميَّة جماعة من القيمرية قدموا معهم من الشَّرق"[5]، كانوا بزعامة ناصر الدِّين وبهاء الدِّين القيمري[6]، فالخوارزمية لم يُشكِّلوا تكتُّلاً عِرْقياً. وكُلُّ مَنْ تستهويه حياة المُغامرة والعيش مُرتزقاً بسيفه كان بإمكانه الانضمام إليهم.

ولطبيعة التشكيلة العسكريَّة للخَوَارزميَّة بشكل عامٍّ، ولطريقة تحرُّكهم عبر البلاد، نستنتج أنَّهم لم يكونوا يحملون إلَّا الأسلحة الشخصية، فالمعدَّات الثقيلة ووسائط الحصار لم تكن من اهتماماتهم، لذلك تجنَّبوا المُدُن الحصينة، وساروا نحو الصَّالح في مصر "وهم يَقْتُلُون، ويَسْبُون، فانجفل الناس من بين أيديهم"[7]. وقد تحاشى مُلُوك الشَّام بمَنْ فيهم المنصُور إبراهيم والصَّالح

1 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 332.
2 ـ حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار ـ رواية جُون لي ميج، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.
3 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.
4 ـ حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.
5 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.
6 ـ أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 32 وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 353.
7 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

إسماعيل الصدام مع الخَوَارزميَّة، واكتفوا بالتحصُّن داخل مُدُنهم[1]، ممَّا مكَّن الخَوَارزميَّة من الوُصُول بسُرعة إلى فلسطين.

انطلق الخَوَارزميَّة من نصيبين، فقطعوا الفُرات عند الرقَّة، وانقسموا هُناك إلى قسمَيْن، قسم أخذ طريق حمص البقاع دمشق[2]، وقسم سار على البرِّيَّة حتَّى غوطة دمشق[3]، ومن هُناك؛ توجَّهوا جميعاً نحو طبرية، فاستولوا عليها، ثُمَّ اندفعوا نحو القُدْس، وهاجموها[4]. وصل الخَوَارزميَّة إلى القُدْس عام **642** هـ **1244**م، واصطدموا بالحامية الصَّليبيَّة فيها، وخاضوا معها قتال شوارع، واضطرَّت الحامية للاستنجاد بأقرب حُلفائهم في الشَّام النَّاصر داود، الذي جعله هُجُوم الخَوَارزميَّة يتحصَّن في الكَرَك، ولم يجازف بالخُرُوج لمُساعدة حُلفائه الفرنج في القُدْس، إنَّما استغلَّ وضعه الخاصّ لدى الخَوَارزميَّة[5]، وأرسل يطلب الأمان لحامية القُدْس مُقابل تسليم المدينة[6]، وخرجت الحامية من القُدْس، لكنَّ الخَوَارزميَّة خدعوهم برفع الأعلام الفرنجيَّة في القُدْس، فعادوا صوبها؛ حيثُ انقضَّ عليهم الخَوَارزميَّة، وأعملوا فيهم مذبحة لم ينجُ منها إلَّا السَّابق في الهرب[7]. ويصف ابن واصل ما فعلته الخَوَارزميَّة بعد ذلك بالقُدْس بقوله: " دخلت الخوارزميةُ القُدْسَ، وبذلوا السيف في مَنْ كان فيه من النصارى، ولم يُبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كَنيسَتهم المعروفة بقمامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنَّها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور مُلُوك الفرنج التي بقمامة، وأحرقوا عظام الموتى"[8]، " وقتلوا بطرك الرُّوم، وأحرقوا جماعة كثيرة من

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.
2 ـ تمَّ اعتراض هذه الفرقة قُرب بعلبك، وأسر قائدها. (لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 254).
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 741.
4 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 371، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أنتوني بريدج، ترجمة: أحمد غسان سبانو، 262، ـ كانت القُدْس مدينة غير مُحصَّنة وُفقاً لاتِّفاقية تسليمها لفريدريك، وقد أزال النَّاصر داود ما بقي من تحصيناتها عندما احتلَّها قبل أن يُعيد تسليمها للفرنج مُقابل التحالف معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب.
5 - كانت أمّ النَّاصر داود خوارزمية (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي،337)، وأبوه الملك المُعظَّم كان حليفاً لجلال الدِّين منكبرتي خوارزمشاه، يُقسم برأسه، ويركب بخلعته. (المنصُوري، ابن نظيف، 96)، كما زوَّج المُعظَّم ابنته، وهي أُخت النَّاصر داود، إلى منكبرتي (مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 708).
6 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، 3/ 392.
7 - راجعْ: رسالة مُقدَّم الاسبتاريَّة في القُدْس. (التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/ 624).
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 337.

النصارى في كَنيسَة القيامة"[1]، فالقُدْسُ كانت مدينة غير مُحصَّنة وُفق اتِّفاقية تسليمها من الملك الكامل إلى الإمبراطُور فريدريك[2].

وسار الخوارزميُّون إلى غزَّة، وأرسلوا يُخبرون الصَّالح أيُّوب بقُدُومهم[3]، فأكرم رُسُلَهُم، وأرسل لهم الخيل والخلع والأموال[4]، وأمرهم الانتظار في غزَّة، ووعدهم بالشام[5]. فأقاموا فيها ريثما أعاد الصَّالح أيُّوب ترتيبَ جيشه، وقدَّم عليه أخصَّ مماليكه؛ وهُو رُكن الدِّين بيبرس الصالحي، وأمره بالزحف إلى غزَّة؛ حيثُ انضمَّت إليه الخَوَارزميَّة[6].

وهُنا؛ تحرَّك المنصُور إبراهيم، فقاد جُيُوش تحالف أيُّوبية الشَّام، والتقى قُوَّات الفرنج عند عكَّا، وسار باتِّجاه مصر. وفي عام **643** هـ **1246**م، التقت قُوَّات التحالف الشَّامي ـ الفرنجي مع قُوَّات التحالف المصري – الخوارزمي. ولكن المعركة الحقيقيَّة دارت بين فريقَيْن فقط هُم الخَوَارزميَّة والفرنجة، فقد فرَّ من المعركة المصريُّون والشَّاميُّون كلاهما، "وثبتت الديوية والاسبتاريَّة، وقاتلوا إلى أن قُتلوا جميعاً، ولم يبقَ منهم إلَّا نفر يسير أسروهم"[7]، وقام الخَوَارزميَّة بتطويق الفرنج، "وأفنوهم قتلاً وأسراً"[8]. ولم يتمّ في هذه المعركة أيُّ اشتباك بين المنصُور إبراهيم والخَوَارزميَّة، الذين اختاروا الفرنج هدفاً لهُجُومهم، فالنصر هُنا خوارزمي، والهزيمة فرنجية.

وكان من الصعب على فرنج الساحل الشَّامي أن يتحمَّلوا هزيمة بهذا الحجم، فقد جرَّدتهم من مُعظم قواهم، وأصبحوا بحاجة ماسَّة إلى مُساعدات فورية[9]، وستكون هذه الهزيمة من أهمِّ دوافع الحملة الفرنجيَّة السابعة[10].

1 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 33.
2 - الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، د. حسن مبيض، محاضرة في الجمعية التاريخية السُّوريَّة، 15/ 3/ 1998.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 337.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 316.
5 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 32.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.
7 - ابن العميد، أخبار الأيُّوبيِّيْن، 33.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 338.
9 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني،118.
10 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 50.

وبعد معركة غزَّة مُباشرة أرسل الصَّالح أيُّوب وزيره مُعين الدِّين ابن الشَّيخ[1] بعسكر إلى الشَّام، وأمر الخَوَارزميَّة باتِّباع أمره، فسار حتَّى وصل دمشق عام **642 هـ 1244م**، وحاصرها[2]، "واشتدَّ الحصار على دمشق، وأسقط بيد الصَّالح إسماعيل لفناء ما عنده من الذخائر، ولقلَّة الرجال معه"[3]. وكعادتهم؛ "عاث الخَوَارزميَّة في أعمال دمشق"[4].

ولمَّا عاد المنصُور إبراهيم إلى دمشق منهزماً، "فلم يُقبل عليه الصَّالح إسماعيل كعادته، فعسر عليه ذلك" 5، وأخذ المنصُور إبراهيم المُبادرة، ويبدو أنَّه أراد أن يسبق الصَّالح إسماعيل، أو أنَّه شكَّ فيه، "فخرج من دمشق، وتحدَّث مع بركة خان مُقدَّم الخَوَارزميَّة في الصُّلح، وعاد إلى دمشق"[6]، ويُوضح الأمر ابن العميد بقوله: "وعزم الملك المنصُور أن يُسلِّم دمشق إلى الخَوَارزميَّة من باب شرقي نكاية في الملك الصَّالح إسماعيل، ثُمَّ انثنى عن هذا العزم خوفاً على المُسلمين من الخَوَارزميَّة"[7]. وكان اتِّصال المنصُور إبراهيم ببركة خان مُقدَّم الخَوَارزميَّة دليل اختيار ذكي من المنصُور، فابن الشَّيخ القائد العامّ لقُوَّات التحالف المصري - الخوارزمي يرى نفسه صاحب قضيَّة، ويُريد أن يُثبت إخلاصه لسُلطانه الصَّالح أيُّوب، بينما يعرف الجميع كيف يَرْضى بركة خان. عندها شعر ابن الشَّيخ بخُطُورة هذا الاتِّصال، فالخوارزمية لا يُوثَق بهم، وقد يبيعونه في اتِّفاق مُحتمل مع المنصُور الداهية، الذي جرَّب التعامل طويلاً مع الخَوَارزميَّة، وكذلك خاف الصَّالح إسماعيل، فأسرع بإرسال وزيره أمين الدولة[8] إلى مُعين الدِّين بن الشَّيخ[9]، فاتَّفقت المصالح كُلُّها على عقد الصُّلح، وتساهل الوزير ابن الشَّيخ، واتَّفق مع المنصُور وإسماعيل بشُرُوط مُرضية لهما.

---

1 - ابن الشَّيخ: مُعين الدِّين الحَسَن بن شيخ الشُّيُوخ، تُوفِّي عام 644 هـ 1247م، عن ستٍّ وخمسين سنة، راجعْ فقرة أولاد الشَّيخ في هذا الكتاب.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 348.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 319.

5 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 33، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 339.

6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 197، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 643، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 753.

7 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 33.

8 - أمين الدولة: أبو الحَسَن بن غزال بن أبي سعيد، كان يهودياً، وأسلم، استوزره الملك الأمجد بهرام شاه، حتَّى تُوفِّي، فاستوزره الصَّالح إسماعيل، وعندما دخل ابن الشَّيخ دمشق اعتقله، ولم يُمكنه من اللحاق بإسماعيل، وأرسله إلى مصر؛ حيثُ سُجن في قلعة الجبل لمُدَّة خمس سنوات، ثُمَّ أُعدم شنقاً. كان عالماً غزير العلم، مُتطبِّباً، له كتاب المنهاج الواضح، (طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 2/ 234 ـ 239).

9 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 621، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 753.

ووُفقاً لاتِّفاقية الصُّلح مع ابن الشَّيخ ضمن المنصُورُ لنفسه مملكة حمص كاملة، وضمن إسماعيلُ بعلبك وبصرى، وسُلِّمَتْ أبوابُ دمشق لقُوَّات ابن الشَّيخ[1].

وخرج المنصُور بجيشه سالماً نحو حمص، وتوجَّه إسماعيل نحو بعلبك[2]. وتوجَّهت شُكُوك ابن الشَّيخ نحو الخَوَارزميَّة، فمنعهم من دُخُول دمشق، بعد أن تسلَّمها عام **643 هـ 1246م**، واكتفى بمنحهم الإقطاعات في الساحل، فلم تُعجبهم، واعتبروها غير كافية[3]، وبالتَّأكيد؛ كان وراء هذا الموقف من الخَوَارزميَّة، مُقابلة مُقدَّمهم للمنصُور إبراهيم، فقد تمَّتْ اتِّفاقية الصُّلح وعملية التسليم دُون علم الخَوَارزميَّة، "الذين لم يكونوا حاضرين وقت الصُّلح، فلمَّا علموا بوُقُوع الصُّلح غضبوا"[4]، وشعروا بتغيُّر نيَّة المصريين عليهم، "وكانوا يظنُّون بأنَّ السُّلطان إذا انتصر على عمِّه الصَّالح إسماعيل يُقاسمهم البلاد. فلمَّا مُنعوا من دمشق، وصاروا في الساحل، تغيَّرت نيَّاتهم، واتَّفقوا على الخُرُوج عن طاعة السُّلطان"[5]. ولمَّا كثر فسادهم بأعمال دمشق، كتب ابن الشَّيخ بخَبَرهم إلى الملك الصَّالح أيُّوب، فطلب منه رَدْعَهم، فتنمَّروا عليه[6].

ثُمَّ نقم الصَّالح أيُّوب على مُعين الدِّين ابن الشَّيخ تسهيلَهُ خُرُوج إسماعيل سالماً من دمشق، فعزله، وكلَّف حُسامَ الدِّين بن أبي علي والياً على دمشق، ولم تطلْ أيَّام مُعين الدِّين، فقد تُوفِّي عام **643 هـ 1246م**، بعد عزله بمُدَّة وجيزة[7]. فاشتطَّ الخَوَارزميَّة على ابن أبي علي بطلب الإقطاعات والولايات، ولمَّا لم يُجبهم امتعضوا لذلك[8].

---

1 - خُطط الشَّام، مُحمَّد كُرد علي، 2/ 98ـ99.

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 324.

3 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 133.

4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

6 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 358.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 350.

8 - العبر، ابن خلدون، 5/ 358.

المبحث الخامس:

نهاية فرقة الخَوَارزميَّة

لقد انهارت أمال الخَوَارزميَّة بحليفهم أيُّوب، ولكنَّهم رأوا أن بإمكانهم تدارك الأمر، فانقلبوا عليه، وأعلنوا موقفهم منه بالهُجُوم على داريّا[1]، ونهبها[2]، وأخذوا بالاتِّصال بأعداء الصَّالح أيُّوب لتشكيل حلف جديد، غايته ضرب أيُّوب الذي استخدمهم لتنفيذ أغراضه في الجزيرة ومصر والشَّام، ثُمَّ تخلَّى عنهم. وكان أوَّل مَنْ تمَّ الاتِّصال به "الأمير رُكن الدِّين بيبرس الصالحي[3] قائد حامية غزَّة، فأصغى إليهم"، وصار معهم[4]. "وكاتبوا الصَّالح إسماعيلَ، فحالفوه على الصَّالح أيُّوب، ففرح بذلك، ونقض الصُّلحَ الذي كان قد وقع منه"[5].

وراسلوا النَّاصر داودَ صاحب الكَرَك، فحالفهم، وتزوَّج منهم، وكانت أُمُّه خوارزمية، وسارع بالاستيلاء على نابلس والقُدْس والأغوار[6]، وتحالفوا ـ كذلك ـ مع عزّ الدِّين آيبك المُعظَّمي صاحب صرخد[7].

واتَّفقت كلمة الجميع على حرب الصَّالح أيُّوب[8]، ولكنْ؛ هل حاول الخَوَارزميَّة استمالة المنصُور إبراهيم إلى حلفهم، فهُو من أبرز أعداء أيُّوب؟ أم أنَّهم لم يُحاولوا ذلك، وأبعدوه عن حلفهم عمداً؟.

ولغياب ما يُوضِّح ذلك، فالاحتمال الثَّاني هُو الأرجح، لأن العداء بين المنصُور والخَوَارزميَّة كان قد بلغ حدّاً لا رجعة فيه، حتَّى في تلك الظُرُوف المتقلِّبة الأهواء. كما يجب أن لا يغيب عن البال دور الحلبيين المُعادي للخَوَارزميَّة، وتأثيره في حليفهم المنصُور.

---

1 - داريَّا: قرية كبيرة جنوب غربي دمشق، وهي من قُرى غوطتها، راجعْ: المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري .
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، والعبر، الذهبي، 5/ 174، وتُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 133.
3 - وهُو أكبر أُمراء الصَّالح أيُّوب، وهُو غير رُكن الدِّين بيبرس البندقداري، الذي تسلطن ـ فيما بعد ـ على مصر .
4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 337، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 324.
7 - نهاية الأرَب، النويري، 29/ 314.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 423 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 351

وبقدر قلق الصَّالح أيُّوب من الخَوَارزميَّة وحلفهم الجديد كان سروره باعتزال المنصُور إبراهيم لهم، وقرَّر أن يبذل كلَّ جهده لضمِّ المنصُور إلى جانبه، لكنَّه بدأ بحليف الخَوَارزميَّة الأقرب والأخطر، "فخدع السُّلطان مملوكه رُكن الدِّين بيبرس حتَّى فارق الخَوَارزميَّة، وقدم إليه، فاعتقله" بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

وفي هذه الأثناء "عظمت مضرَّة الخَوَارزميَّة ببلاد الشَّام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمات"[1]، حتَّى سُمِّيت هذه السنة "سنة الخَوَارزميَّة"[2]، والتي انتهت بحصارهم لدمشق عام **643** هـ **1246**م[3]، وكان معهم الصَّالح إسماعيل بقُوَّات بعلبك[4]، والنَّاصر داود بقُوَّات الكَرَك[5]. ولم يترك الصَّالح أيُّوب لعمِّه إسماعيل الفُرصة لتجديد التحالف مع المنصُور إبراهيم، فقد سبقه إليه، وكاتبه[6]. "وأخذ الصَّالح نجم الدِّين في إعمال الحيَل والتدبير، ومازال بالمنصُور إبراهيم صاحب حمص حتَّى مال إليه"[7]. "وصلح ما بين الملك المنصُور صاحب حمص والسُّلطان الملك الصَّالح، وحصل بينهما التّصافي والتّوادّ"[8].

وكذلك كَتَبَ الصَّالح أيُّوب إلى الحلبيين، "هؤلاء الخَوَارزميَّة قد أخربوا البلاد، والمصلحة أن نتَّفق عليهم"، فأجابوه، وخرج شمس الدِّين لُؤلُؤ مُقدَّماً على نجدة حلب[9].

وعندما كان الخَوَارزميَّة يشدِّدون حصارهم على دمشق، "وألحُّوا في القتال، ونهب الأعمال، وضايقوا دمشق، ومنعوا عنها الميرة"[10]، بدأ المنصُور إبراهيم ـ بعد إبرام اتِّفاقه مع الصَّالح أيُّوب ـ

---

1 - المُختصر، أبو الفداء3/ 176، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 322، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 254.
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 352، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175.
6 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.
9 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 201.
10 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.

بالاستعداد لمُواجهة الخَوَارزميَّة[1]، "وشرع في جمع الجُيُوش من الحلبيين والتُّركمان والأعراب"[2]، ونجدة قدمت من حماة[3]، فبلغ الخبرُ الخوارزميةَ، وخافوا غائلة ذلك، وقالوا: "دمشق ما تفوت والمصلحة قتاله عند بلده"[4]. وترك الخَوَارزميَّة حصارَ دمشق، ممَّا مكَّن جُندها من مُغادرة المدينة، والانضمام إلى القُوَّات التي جمعها المنصُور إبراهيم[5].

ولا نستطيع أن نُفسِّر تَرْكَ الخَوَارزميَّة حصار دمشق بأنَّه لمباغتة المنصُور عند بلده، فلو كان هذا هدفهم لساروا مُباشرة نحو حمص، لكنَّ تحرُّكهم كان من دمشق نحو مرج الصُّفَّر؛ حيثُ جمعوا قُوَّاتهم مع قُوَّات الصَّالح إسماعيل صاحب بعلبك، والنَّاصر داود صاحب الكَرَك، وعزّ الدِّين آيبك صاحب صلخد[6].

وهذا ما يدلُّ على أن السبب الحقيقي لتركهم دمشق هُو خوفهم من حَضْر المنصُور لهم بين قُوَّاته وبين دمشق، لذلك انسحبوا إلى مرج الصُّفَّر؛ حيثُ تمكَّنوا من اللقاء مع حُلفائهم. وعندما تحرَّكوا نحو حمص كان المنصُور قد أنهى استعداداته، وسار جنوباً، حتَّى وصل قُرب بُحَيْرة حمص[7]، وعلم بتقدُّم الخَوَارزميَّة نحوه، فتابع مسيره حتَّى التقاهم عند القصب، أو عُيُون القصب[8]. وكانت جُمُوع الخَوَارزميَّة وحُلفاؤهم يتمتَّعون بتفوُّق عددي كبير على قُوَّات

1 - وهم ابن خلدون بقوله: " وبعث نجم الدِّين من مصر إلى يُوسُف النَّاصر يستنجده على دفع الخَوَارزميَّة عن دمشق، فسار في عساكره ومعه إبراهيم بن شيركوه ". والصحيح أن النَّاصر يُوسُف صاحب حلب لم يسر لقتال الخَوَارزميَّة، فقد كان ـ وقتها ـ صبيَّاً عمره بحُدُود خمس عشرة سنة، ولكنْ؛ سارت نجدة من قُوَّات حلب، انضمَّت إلى قُوَّات المنصُور إبراهيم، الذي كان قائد المعركة ضدَّ الخَوَارزميَّة.
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، والعبر، الذهبي، 5/ 181.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.
4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، ـ قال بهذا الرأي بركة خان كبير مُقدَّمي الخَوَارزميَّة، ويبدو أنَّه فرضه على بقيَّة الحُلفاء. (مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 760).
5 - العبر، الذهبي، 5/ 181، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13 / 179.
6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201، ـ مرج الصُّفَّر: سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها نحو 38 كم، بين قريَتَيْ الكسوة وغباغب. (دمشق الشَّام في نُصُوص الرّحّالين، أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، 1/ 74 ـ ح/ 1).
7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
8 - ذكرت عُيُون القصب في: عقد الجمان، العيني، 1/ 315، وذكرت القصب في: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 377، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175، والنُّجُوم، ابن تغري بردي، 6/ 325. وذكر أن اللقاء كان "بظاهر حمص" (السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323). وأنَّه كان "بين أرض بعلبك وحمص". (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178)، وكلُّها تدلُّ على موضع في منطقة واحدة. وقد عُرِّفَتْ عُيُون القصب أو القصب بأنَّها :

المنصُور، فقد قال شمس الدِّين لُؤلُؤ مُقدَّم نجدة حلب: "لمَّا التقينا على حمص رأيتُ الخَوَارزميَّة خَلْقاً عظيماً، وكُنَّا بالنِّسبَة إليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض"[1].

ولمَّا بدأت المعركة 643 هـ 1246م، لم تُغن كثرة جُمُوع الخَوَارزميَّة عنهم شيئاً، ولم يثبتوا أمام قُوَّات المنصُور، الذي برهن على أنَّه الوحيد بخبرته وشجاعته القادر على التعامل مع الخَوَارزميَّة عسكريَّاً. "وكُسِرت الخَوَارزميَّة أشدّ كسرة، وقُتلَتْ مُلُوكهم، وسُبيَتْ نساؤهم، وغُنمَتْ أموالهم، كسرهم الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد أسد الدِّين"[2].

وكان يوم المعركة "يوماً مشهوداً، قتل فيه عامَّة الخَوَارزميَّة"[3]، وقُتل مُقدَّمهم بركة خان[4]. "وتبدَّد فيها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة"[5]. "ولمَّا وصل خبر كسرهم إلى الملك الصَّالح أيُّوب بديار مصر[6]، فرح فرحاً عظيماً، وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك"[7]. واستطاع الملك المنصُور إبراهيم بقدراته العسكريَّة وحنكته وشجاعته أن يزيل بلاء الخَوَارزميَّة عن المُلُوك والممالك، وعن العباد والبلاد، "وكفى اللهُ النَّاس شرَّهم، فإن البلاد كانت منهم في بلاء عظيم"[8].

"مرحلة قبلي حمص" (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359). وأنَّها: "منزلة بريد من حمص من قبليها" (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 325) . وكُلُّ هذه الدلائل تُشير إلى مكان واحد يُسمَّى ـ الآن ـ عين التّنُّور، وهي عدَّة عُيُون ماء، تُشكِّل بُحَيْرة صغيرة، ينمو عليها القصب بكثرة، تبعد حوالي 10 كم جنوب بُحَيْرة حمص.
1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 357.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.
3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، ويُضيف ابن واصل: "قتله مملوك من مماليك الأمير سعد الدِّين بن الدريوش أحد أُمراء حلب الكبار". ويقول ابن الجزري: " قتل بركة خان الخوارزمي، أحد الخانات الأربعة، وكان أصلحهم في الميل إلى الخير، والرّفق بالناس، وكان الصَّالح أيُّوب قد صاهره، وأحسن إليه، ثُمَّ جرى منه ما جرى، ولمَّا قُتل انحلَّ نظام الخَوَارزميَّة ". (المُختار من حوادث الزَّمان، 205).
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.
6 - وهم د. عاشور حين ذكر: "وتمكَّن الصَّالح أيُّوب من إنزال الهزيمة بالخَوَارزميَّة بين بعلبك وحمص". (مصر والشَّام، عاشور، 116)، فمع أن هزيمتهم تصبُّ في مصلحة أيُّوب، لكنَّ المنصُور إبراهيم هُو مَنْ هزمهم.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.

وتشتَّت فلول الناجين من الخَوَارزميَّة في البلاد، والتجأت جماعة منهم مع مُقدَّمهم كشلو خان والصَّالح إسماعيل إلى حلب، فقبض عليهم صاحبها، "وملأ بهم الحُبُوس"[1]، وبعد أن أطلقهم النَّاصر يُوسُف[2] ذهبوا مع كشلوخان، والتحقوا بالمغول، فخدموهم[3]، "واندمجوا في جملتهم"[4]. وهربت مجموعة مع النَّاصر داود إلى الكَرَك، واستولوا على نابلس[5]، فأرسل النَّاصر أيُّوب جيشاً حاصر الكَرَك، حتَّى سلَّم إليه داودُ الخوارزميةَ الذين عنده[6]. وذهب قسم منهم ليخدم في مصر[7]، وخدمت جماعة منهم في الشَّام[8]، وقسم من الخَوَارزميَّة التجأ إلى صرخد مع آيبك 9، وبذلك تحوَّل الخَوَارزميَّة من فرقة مُرتزقة مُنظَّمة إلى أفراد مُرتزقة، فهم لا يعرفون سوى القتال حرفة لكسب العيش.

إن ما قامت به فرقة الخَوَارزميَّة في الشَّام والجزيرة، وما حقَّقته من انتصارات على ممالك أيُّوبية كبيرة وعريقة وعلى تحالف الفرنج في غزَّة، كُلُّ ذلك يُشير إلى محصلة واحدة هي ضعف المُؤسَّسات العسكريَّة التي أقامتها الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام ومصر، يُقابل ذلك ضعف فاضح في القوى العسكريَّة لفرنجة الساحل الشَّامي، فهزيمة غزَّة كشفت تهلهل المُؤسَّسة العسكريَّة الفرنجيَّة في الشَّرق.

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 2/ 8/ 762.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.
4 - العبر، ابن خلدون، 5/ 358.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 179.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 324.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 326.
8 - صدق الأخبار، ابن سمباط، 1/ 336، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 325.
9 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7 / 359.

القسم الثَّالث

العلاقات الدّوليَّة

لإمارات وممالك الجزيرة الشَّاميَّة

الفصل الأوَّل

الأيُّوبيُّون في الجزيرة الشَّاميَّة

المبحث الأوَّل

الجَغرافية السِّياسيَّة للجزيرة الشَّاميَّة

كانت تسمية الجزيرة تُطلَق ـ في الغالب ـ على جزيرة ابن عُمر. أمَّا الجزيرة الشَّاميَّة؛ فقد أطلق عليها الجَغرافيون والمُؤرِّخون العَرَب عدَّة تسميات، منها: البلاد الشَّرْقيَّة[1]، أو الشَّرْق[2]، وهي تسمية ـ كما هُو واضح ـ تصحُّ بالنِّسبَة لموقعها من حلب فقط، ولا تصحُّ بالنِّسبَة لدمشق مثلاً. وسُمِّيَتْ بلاد الأطراف ومُلُوكها مُلُوك الأطراف، وهي تسمية تصحُّ بالنِّسبَة للممالك والإمارات الأيُّوبيَّة، كما دُعِيَتْ بلاد الشَّرْق الفراتية[3].

ورُبَّما كانت أكثر التسميات التي تنطبق على الواقع هي تسميتها بقاطع الفُرات[4]، ولكنَّهم ـ أحياناً ـ كانوا يُسمُّونها الجزيرة بشكل عامٍّ[5].

أمَّا التسمية التي نجدها أكثر ملائمة؛ فهي: الجزيرة الشَّاميَّة، لأنَّها جزيرة بين الفُرات وروافده، ودجلة وروافده، وتقع في أعلى بلاد الشَّام.

وبذلك نستطيع أن نحدِّد أن الجزيرة الشَّاميَّة هي الأراضي الممتدَّة من نهر الفُرات غرباً حتَّى نهر دجلة شرقاً، وأعالي الفُرات وروافده شمالاً، وهذه المنطقة جبلية في الشمال عموماً، تتخلَّلها سُهُول خصبة، وتعبرها طُرُق تجارية هامَّة جدَّاً، ونجد في رحابها تسميات عديدة، مثل: ديار ربيعة، وديار بكر، وديار مضر، نسبة إلى القبائل العَرَبيَّة التي سكنتها مُنْذُ القدَم.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201.
4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 466، ـ قاطع الفُرات: الأراضي الواقعة شمال شرق الفُرات حتَّى نهر دجلة. (ابن العديم، زُبْدَة الحَلَب، 2/ 548).
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82.

ومع أن هذه الجزيرة تبدو إقليماً خاصّاً، بكُلِّ ما فيها من مُقوِّمات، لكنّها تلتصق ـ بشدَّة ـ بطرفَيْن: الشَّام من جهة، والعراق من جهة أُخرى، فهي رأس مُثلَّث، ضلعاه الشَّام والعراق، وقاعدته بوادي الشَّام والعراق، وهذا ما دفع البعض لتسمية المنطقة بكاملها بالهلال الخصيب.

كانت الجزيرة الشَّاميَّة تتمتَّع بثروات اقتصاديَّة، أتاحتها خُصُوبة أرضها، ووفرة أمطارها، وتوفُّر العديد من الموادِّ الخامِّ فيها مع كثافة سُكَّانية عالية، إضافة لموقعها التِّجاري المُتميِّز؛ حيث كانت مُعظم طُرُق التجارة الدّوليَّة تمرُّ فيها، كلُّ ذلك ساعد على نُمُوِّ أجهزة إدارية مُتطوِّرة لمالكها وإماراتها[1].

ورُبَّما لا نكون مغالين إذا قلنا إنَّه ـ غالباً، بعد حسم الصراع بين أفراد البيت الأيُّوبي على دمشق ـ تكون الأطراف هي السبب الأكبر لخلافاتهم، فالعلاقات الأيُّوبيَّة تمحورت لفترات طويلة حول مُدُن الجزيرة والشمال الشَّامي.

فشمال الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة كانا يُشكِّلان فُسيفساء من الممالك والإمارات والمُدُن المُستقلَّة، بل وحتَّى القلاع المُستقلَّة.

ولعبت في تشكيل تلك المنظومة الفسيفسائية العجيبة الطبيعة الجبلية لتلك المنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي عسكريّاً واقتصادياً، وكونها من أهمِّ ممرَّات التجارة بين الشَّرْق والغَرْب، وتنوُّع سُكَّانها العجيب ما بين مُسلمين ومسيحيين، منهم العَرَب، والمستعربون، والسريان، والفُرْس، والأتراك، والأكراد، وغيرهم، إضافة إلى عامل سياسي آخر هُو وُقُوع هذه المناطق بين عدَّة قوى سياسيَّة وعسكريَّة كُبْرَى، فالأيُّوبيون في الشَّام، ولهم مُمتلكات هامَّة في الجزيرة، وهم يتطلَّعون لمدِّ سُلطتهم نحو مملكة سلاجقة الرُّوم في آسيا الصُّغْرَى. وسلاجقة الرُّوم وهم يمدُّون أنظارهم ـ أيضاً ـ نحو الجزيرة، ورُبَّما عبرها نحو الشَّام، ولم يكن تدخُّل سلاجقة الرُّوم في الجزيرة دفاعياً فقط، لجَعْلها حاجزاً ضدَّ الخطر الأيُّوبي، بل هُجُومياً لضمِّها إلى دولتهم، والتحرُّك منها نحو الشَّام. كذلك وُجدَتْ مملكة أرمينيا الصُّغْرَى على مقربة منها، وإنْ كان توجُّهها الأساسي صوب الإمارة الفرنجيَّة في أنطاكية.

1 - الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 12.

أمَّا الفرنج، فبعد تحرير عماد الدِّين لإمارة الرُّها؛ لم يعد لهم أيُّ تأثير يُذكَر في السياسة الجزرية. ويبقى في الجنوب الشرقي أتابكة المَوصل، لكنَّهم لم يستطيعوا أن يتجمَّعوا ضمن البيت الواحد، ولا أن يتَّخذوا موقفاً مُوحَّداً دائماً، بل على العكس، كانت خلافاتهم وحُرُوبهم وتنازعهم للسيطرة على المُدُن والقلاع تستهلك قواهم باستمرار.

ولكنَّ القُوَّتَيْن الدائمتَيْن الرئيستَيْن اللتَيْن ظهرتا على مسرح الصراع هُنا في هذا العصر هما قُوَّة سلاجقة الرُّوم والقوى الأيُّوبيَّة.

ومع أن بناء دولة سلاجقة الرُّوم كان يقوم ـ أساساً ـ على توجُّه جهادي ضدَّ بيزنطة المَسيحيَّة، فقد كانت تلتفت نحو الجزيرة عندما تواجه صُعُوبات عسكريَّة على الجبهة البيزنطيَّة، لكنَّ الصراعات على السُّلطة داخل البيت السلجوقي، وابتداء الضعف في مفاصل الدولة، منع من أن يكون لهم دور حاسم في الجزيرة، ممَّا أتاح للأيُّوبيين الانفراد بالسيطرة شبه المطلقة فيها من أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين وحتَّى قُدُوم الغزو المغولي.

أمَّا القُوَّة الأيُّوبيَّة؛ فقد وُجِدت ولها توجُّه مشابه تماماً لتوجُّه السلاجقة، فالدولة الأيُّوبيَّة قامت على أساس الجهاد والتصدِّي للاحتلال الفرنجي، ولكنْ؛ لغلبة الهُدُوء على الجبهة الفرنجيَّة، بعد وفاة صلاح الدِّين، ولتشعُّب الأملاك الأيُّوبيَّة في قلب الجزيرة، وأهمِّيَّة مواردها، وموقعها، فقد كان لها الدور الأكبر في التأثير على السياسة الأيُّوبيَّة، والتأثُّر بمُجرياتها.

لذلك يُمكننا القول إن المناطق الجزرية كانت المعترك السِّياسي والعسكري الرئيس بين قوى المنطقة الكُبْرَى والصُّغْرَى.

ممالك المُدن في الجزيرة:

خِلاط: بكسر أوله، البلد العامرة المشهورة[1]، وكان يُقال لها أخلاط، ولكنْ؛ بلغة العصر الأيُّوبي كان اسمها المُتداول هُو خِلاط. وهي على الحُدُود ما بين بلاد المُسلمين والأرمن، ويتكلَّم أهلها ثلاث لغات: العَرَبيَّة والفارسية والأرمنية، ويعتقد بعضهم أنَّها سُمِّيَتْ خِلاط لاختلاط اللُّغات بها[2]، وسيرد الحديث بالتفصيل عنها في فقرة قادمة.

سُمَيساط: أولُه ضمٌّ، وفَتْح ثانيه، بلدة في أعالي الشَّام من طرف بلاد الرُّوم شرقي جبل اللكام، تقع على الشاطئ الغربي للفرات، وهُو من عندها يحمل السُّفُن والأطواف إلى بغداد[3]. دخلت في مُلك صلاح الدِّين عندما أرسى قواعد حُكْمه في الجزيرة، ثُمَّ أقطعها لأخيه العادل قبيل وفاته، ولَّما أخذ العادلُ دمشقَ من ابن أخيه الأفضل علي أقطعه سُمَيساط، وهي البلدة الوحيدة التي بقيت معه حتَّى مات عام **622** هـ **1225**م[4]، فاختلف أولاده مع عمِّهم[5]، ثُمَّ استتبَّ الأمر بينهم على تولية المُؤيَّد ناصر الدِّين مُحمَّد بن الأفضل، وأن يكون مُدبِّر دولته عمّه المُفضّل قُطب الدِّين مُوسى. وفي سنة **632** هـ **1235**م، أخذ الملك العادل منها سُمَيساط.

وبعد تراجع الكامل عن الجزيرة وتحكُّم الخَوَارزميَّة فيها، استولى علاء الدِّين كَيْقُبَاذ على سُمَيساط مع ما حولها، وظلَّت ضمن سلطنة سلاجقة الرُّوم، حتَّى استولى عليها التَّتار عام **658** هـ **1260**م[6].

البيرة، أو جسر البيرة: هي بلدة عندها جسر لعُبُور الفُرات[7]، قُرب سُمَيساط، وبها قلعة حصينة[1]. كان صاحبها شهاب الدِّين بن أرتق، ثُمَّ سلَّمها إلى السُّلطان صلاح الدِّين، فأصبحت البيرة

---

1 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خِلاط.
2 - سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الخشَّاب، 40، ـ وكانت خِلاط من أعظم الممالك، وذكر أنَّها تُقارب الديار المصريَّة في المنزلة، وأنَّها تشمل على نحو سبعين بلداً (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176)، ولذلك كانت تُسمَّى المملكة الخلاطية (راجعْ نقش قلعة دمشق في ملاحق هذا الكتاب).
3- مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سُمَيساط، وتقويم البُلدان، أبو الفداء، 267، والمسالك والممالك، ابن خُرْدَاذْبَه، 174، وبغية الطلب، ابن العديم، 1/ 634، وآثار البلاد، القزويني، 494.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 191.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 429.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 191.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 548.

من مضافات حلب، وعندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين كانت البيرة بيد ابنه الزاهر داود، فأقرَّه عليها أخوه الشقيق الظَّاهر غازي صاحب حلب[2]، وفي عام **632** هـ **1235**م، اشتدَّ مرض الزاهر، فاستدعى ابن أخيه العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، وسلَّمه البيرة، ولَّما تُوفِّي، قام العزيز بترتيب أحوالها[3].

بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقَّة، تبعد عن الضفَّة الغَرْبيَّة للفرات حوالي أربعة أميال[4]. وكانت بالس تتبع لمملكة نُور الدِّين بن زنكي، وقد أقطعها لغلامه حيدر، وملك البلد بعد وفاة حيدر أولاده، إلى أن أخذها منهم الظَّاهر غازي بعد ملكه حلب[5]، ثُمَّ أخذها منه عمُّه العادل بعد سيطرته على دمشق ومصر، فَأَقْطَعَهَا إلى ابنه الملك الحافظ أرسلان شاه مضافة لقلعة جعبر، وعندما خاف الملك الحافظ تآمر أبنائه وعلاقتهم المُريبة بالخَوَارزميَّة، راسل أُخته ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل القائمة بأُمُور حلب نيابة عن حفيدها الملك النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني، وعرض عليها تسليمها جعبر وبالس مُقابل إعزاز، فوافقت، وتمَّت المبادلة عام **638** هـ **1241**م، وبقيت بالس ضمن مملكة النَّاصر صاحب حلب، حتَّى استولى عليها المغول، فتفرَّق أهلها في البلاد[6].

بَهَسْنَا: بفتحتَيْن وسُكُون السِّين ونُون وألف، قلعة حصينة عجيبة من أعمال حلب، وهي بالقُرب من مرعش وسُمَيساط[7]، وتقع بفم الدربند، ولها ضياع كثيرة.

وكانت ضمن مملكة النَّاصر يُوسُف الثَّاني، حتَّى استولى هُولاكُو على حلب، فباعها مُتولِّيها سيف الدِّين العقرب إلى ملك الأرمن صاحب سيس[8]. وهي ـ اليوم ـ ضمن الأراضي التُّركيَّة شمال غرب عينتاب[9].

---

1 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: البيرة .
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 156، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 267، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 2/ 258.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 88.
4 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: بالس.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 21 .
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 23.
7 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: بَهَسْنَا.
8 - تاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 8/ 155.
9 - راجعْ حول بَهَسْنَا: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 121، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.

قلعة نجم: تقوم على ضفَّة الفُرات اليمنى، تُحيط بها وديان عميقة، وتبعد عن منبج 32 كم نحو الشمال الشرقي[1]. عندها جسر يُعبَر عليه يُعرَف بجسر منبج، عمَّرها نجم غلام جني الصفواني مولى ابن صفوان العقيلي[2]، وهي قلعة حصينة توالى عليها عدَّة حُكَّام، حتَّى أخذها السُّلطان صلاح الدِّين، واستقرَّت بعده بيد ابنه الظَّاهر غازي، الذي ولَّى عليها عتيقه بدر الدِّين إيدمر، فأعاد إعمارها عام **613 هـ 1216م**، ثُمَّ استردَّها منه الملك العزيز بن الظَّاهر، وكانت بيد الملك النَّاصر الثَّاني عندما استولى عليها التَّتار[3].

تلّ باشر: قلعة حصينة وكُورة واسعة شمال حلب بينها وبين حلب يومان[4]. بعد أن تسلَّمها السُّلطان صلاح الدِّين أَقْطَعَهَا إلى الأمير بدر الدِّين دلدرم بن ياروق، ولَّما تُوفِّي تولاها من بعده ابنه، ولَّما خرج عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى الجزيرة انتزعها من يد ابن دلدرم، ولكنْ؛ بعد هزيمته، استردَّها الأشرف، وسلَّمها لُمدبِّر مملكة حلب طَغْريل[5]، وبقيت تلّ باشر وقلعتها بيد الأتابك طَغْريل، حتَّى أخذها منه الملك العزيز غصباً عام **629 هـ 1232م**[6].

مَيَّافارقين: بفَتْح أوَّله، وتشديد ثانيه، أشهر مدينة في ديار بكر[7]. تسلَّمها صلاح الدِّين خلال توسُّعه في الجزيرة عام **587 هـ 1191م**، وقبيل وفاته أَقْطَعَهَا مع بُلدان الجزيرة إلى أخيه العادل. وفي عام **598 هـ 1202م**، أعطى العادلُ مَيَّافارقين لابنه الأوحد نجم الدِّين أيُّوب، وضمَّ إليها خِلاط سنة **604 هـ 1208**، وبقيت معه حتَّى مات عام **609 هـ 1212م**، فضمَّ أخوه الأشرفُ خِلاط إلى بلاده[8]، وأُضيفَتْ مَيَّافارقين إلى أخيه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي[9].

1 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، إشراف: العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: قلعة نجم.
2 - التنبيه والأشراف، القلقشندي، 331.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 473 .
4 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تل باشر
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 9.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 250.
7 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: مَيَّافارقين.
8 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453 ـ 455.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

المبحث الثَّاني

مرحلة التأسيس الأيُّوبي

صلاح الدِّين يدخل الجزيرة:

كان صاحب قلعة البيرة[1] شهاب الدِّين الأرتقي[2]، في طاعة عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل، وفي عام **577 هـ 1181م**، مات شهاب الدِّين، ومَلَكَ القلعةَ ابنُهُ، فطلب ابن عمِّه الإذنَ من صاحب المَوصل بحصر البيرة، وأَخْذها، فوافق، فاستنجد صاحبُ البيرة بالسُّلطان صلاح الدِّين، وعرض عليه أن يكون في خدمته[3].

وفي عام **578 هـ 1182م**، طلب مُظفَّرُ الدِّين كوكبوري[4] من السُّلطان صلاح الدِّين أن يعبر الفُرات إليه، فاجتمع به عند البيرة، وراسل صلاحُ الدِّين مُلُوكَ الجزيرة، فأجابه نُور الدِّين مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا على أن يفتح آمد، ويُسلِّمها له. وكان أوَّل بلد حصره صلاح الدِّين وحُلفاؤه في الجزيرة هُو الرُّهَا، التي سلَّمها صاحبها فخر الدِّين مسعود الزعفراني بالأمان، فأعطاها صلاح الدِّين إلى مُظفَّر الدِّين كوكبوري مع حَرَّان[5]. ثُمَّ سار إلى الرقَّة، فتركها قُطب الدِّين ينال بن حسان المنبجي، فأخذها صلاح الدِّين، وسار منها إلى الخابور[6]، فأخذه مع قرقيسيا وماكسين وعرابان[7]، وسار إلى صفِّين، فملكها[8]. وفي العام نفسه **578 هـ 1182م**،

1 - البيرة: قلعة مُطلَّة على الفُرات، راجعْ ما سيأتي عنها في هذا المبحث.
2 - هُو ابن عمِّ قُطب الدِّين إيلغازي بن إلبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 475 ـ 476.
4 - ابن زين الدِّين علي بن بكتكين، مُقطَع حَرَّان من قبَل الأتابك عزّ الدِّين.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 482.
6- الخابور: رافد كبير لنهر الفُرات، والمقصود هُنا الأراضي الواقعة على ضفاف الخابور، ويبدو من رسالة للقاضي الفاضل أنَّها بلاد وافرة الخصب، فيعدّها مزرعة المَوصل، ومصدر تموينها؛ إذْ يقول: "وبلاد الخابور وهي مُستغلات المَوصل"(رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167).
7 - رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167.
8 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 484.

سار صلاح الدِّين بعد امتناع المَوصل عليه إلى سنجار[1]، فسلَّمها صاحبُهَا شرفُ الدِّين أمير أميران هندو أخو عزّ الدِّين صاحب المَوصل.

وفي عام 579 هـ 1283م، حاصر صلاحُ الدِّين آمَدَ، وأخذها من حاكمها بهاء الدِّين بن نيسان، وسلَّمها إلى نُور الدِّين بن قرا أرسلان[2] حسب وعده. ولمَّا تُوفِّي نُور الدِّين عام 581 هـ 1185 أقرَّ صلاح الدِّين ولده سقمان عليها، ولقَّبه قُطب الدِّين، وكان عماد الدِّين أخو نُور الدِّين يقود عسكر آمد في خدمة صلاح الدِّين، فأراد أَخْذَ آمد، فلمَّا فاتته، أخذ حصنَ خرتبرت[3]. وتسلَّم صلاح الدِّين مَيَّافارقين بالأمان في العام نفسه581 هـ 1185م[4]. وفي عام 586 هـ 1190م، تُوفِّي زين الدِّين يُوسُف صاحب إربل، وسُرَّ أخوه مُظفَّر الدِّين بوفاته، وقدَّم خمسين ألف دينار إلى السُّلطان صلاح الدِّين حتَّى أخذ إربل، ونزل عن حَرَّان والرُّهَا وسُمَيساط[5].

تقي الدِّين في الجزيرة:

كانت حلب أكبر المَمالك الأيُّوبيَّة في شمال الشَّام، ومركز الثقل الأيُّوبي، وهي التي تُوازن بقواها وبنُفُوذها السِّياسي مملكة المَوصل الأتابكية في شمال العراق. ولقد أدرك صلاح الدِّين أهمِّيَّة حلب عندما ولَّى عليها ابنه الظَّاهر غازي. وكانت مملكة حلب تضمُّ ـ أوَّل الأمر ـ: إعزاز ومنبج، وعدد من البلدات الأصغر والقُرى الزراعية الخصبة. وفي الشمال الشرقي من حلب تقع بلاد الجزيرة الشَّاميَّة.

في عام 587 هـ 1191م، بعد أن استردَّ صلاح الدِّين البلاد الجزرية، من مُظفَّر الدِّين كوكبري، وأَقْطَعَهَا إلى ابن أخيه تقي الدِّين إضافة إلى إقطاعه، وكان يقطع هذه المَمالك، على العادة الجارية، لقُوَّاده ولأهل بيته، لتتحوَّل هذه الإقطاعات إلى عدد من الجُنُود يخدمون تحت السلاح وقت

1 - سنجار: بكسر السين وتسكين النون، وهي تعريب سنكار. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سنجار)، وهي بلدة تقع ـ الآن ـ في العراق، وهي على جبل يحمل الاسم نفسه، وتمتدُّ سُفُوحه حتَّى تدخل الحُدُود السُّوريَّة، وسنكار اسم فارسي، أصله من مقطَعَيْن سنك: الحجر وخارا: الصلد، خُفِّف إلى سنكار.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 493.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 514.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 515.

5 - التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، 521.

الحاجة. وكان تقي الدِّين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي السُّلطان صلاح الدِّين، أوَّل مَنْ أقطع في الجزيرة، فقد أعطاه عمّه مَيَّافارقين، ثُمَّ أقطعه حَرَّان والرُّهَا، إضافة لما كان معه في الشَّام.

فسار إليها تقي الدِّين بجنده من على حصار عكَّا، ولمَّا وصل مَيَّافارقين طمع فيما حولها، فاستولى على حاني في ديار بكر، واصطدم بسيف الدِّين بكتمر صاحب خِلاط، فهزمه، وفي هذا الوقت الحرج غدر الفرنج بالمُسلمين، ودخلوا عكَّا، "ونسب السُّلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره إلى الملك المُظفَّر تقي الدِّين"؛ حيثُ سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بخلاط، وغيرها[1]، وربُّما كان يُفكِّر في التوسُّع أكثر، لكنَّه أثناء حصاره لملاذ كُرد تُوفِّي فجأة، فحمله ابنه ناصر الدِّين مُحمَّد إلى مَيَّافارقين، ودفنه فيها[2]، واستولى على ما كان لوالده في الجزيرة، وراسل ناصر الدِّين مُحمَّد السُّلطان صلاح الدِّين طالباً إقراره مكان والده، فلم يرَ السُّلطان في ذلك مصلحة؛ لخُطُورة البلاد، وحداثة سنِّ طالبها، كما لم يرغب بتسليم بلاد الجزيرة، التي هي عمقه الاستراتيجي، إلى صبي غرٍّ، فتمرَّد ناصر الدِّين على السُّلطان المشغول بحرب الفرنج، فَسَيَّرَ إليه السُّلطان ابنه الأفضل لرَدْعه، وهُنا؛ تدخَّل العادل أخو صلاح الدِّين ليقطع الطريق على الأفضل، وطلب إقطاع الجزيرة من صلاح الدِّين[3]، قال العماد: "كان السُّلطان لمُلازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه"[4]، وانتهى الأمر بإبقاء ناصر الدِّين في إقطاع والده بحماة[5]، وأقطع صلاح الدِّين البلاد الجزرية إلى أخيه العادل أبي بكر، وهي حَرَّان والرُّهَا وسُمَيساط ومَيَّافارقين وحاني، وسَيَّرَهُ إلى ابن تقي الدِّين ليتسلَّم منه البلاد عام 588 هـ 1192م[6]. فحصل العادل على البلاد الجزرية الداخلة في دولة صلاح الدِّين، والتي كانت بيد تقي الدِّين، وطلب فوقها قلعة جعبر، وكانت مع الظَّاهر بحلب، فأخذها[7].

1 - التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، 522.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 62.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82، والفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466.

4 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 3.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82/ 83/ 11، والفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 83.

7 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466.

المبحث الثَّالث

الملك العادل يُوطِّد الحُكْم الأيُّوبي

تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، فخرج صاحب المَوصل عزّ الدِّين ومعه حُلفاؤه، ونزل دنيسر لاسترجاع بلاد الجزيرة، فالأتابك يعدُّون البلاد إرثاً شرعياً لهم من نُور الدِّين، غصبهم إيَّاها صلاح الدِّين، فأسرع العادلُ، ونزل حَرَّان، واستنجد بعساكر ابنَيْ أخيه الظَّاهر صاحب حلب، والأفضل صاحب دمشق، فأنجدوه، ولكن الحلف الأتابكي تفكَّك بمرض عزّ الدِّين، فاغتنم العادلُ الفُرصة، واحتلَّ سروج، ونزل إلى الرقَّة، فولَّى عليها ابن أخيه الظافر[1]. وفي عام 596 هـ 1200م، تمكَّن العادل من أخذ دمشق من ابن أخيه الأفضل، وأعطاه بدلاً عنها مَيَّافارقين وسُمَيساط وسروج[2]، ومعها رأس عين وجملين وقلعة نجم[3]. وفي عام 608 هـ 1211م، أعطى العادلُ إلى ولده المُظفَّر غازي الرُّهَا مع مَيَّافارقين[4].

آ. إقطاع الملك العادل في الجزيرة:

كان للعادل إقطاع مُعظم أراضي دولة صلاح الدِّين في الجزيرة؛ حيثُ كان يحكمها نيابة عن أخيه، وبعد وفاته استقلَّ بها، وظلَّت هذه البلاد بتصرُّف نُوَّابه حتَّى عام 598 هـ 1202م، عندما استقرَّ له سُلطان البلاد، واستولى على حُكْم مصر ودمشق، قام بتوزيع بلاده بين أولاده: فالكامل في مصر، والمُعظَّم في دمشق، وأمَّا ولايات الجزيرة؛ فقد وزعها كما يلي:

- **الأشرف مُوسى:** وعيَّن له حَرَّان والرُّهَا وسروج، وكلّ ما له في الشَّرق، ما عدا مَيَّافارقين، نيابة عن والده.
- **الأوحد نجم الدِّين أيُّوب:** اختصه بمَيَّافارقين[5]، نيابة عن والده.
- **الحافظ أرسلان شاه:** جعل له قلعة جعبر، وبلدة بالس، نيابة عن والده[6].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 444.
3 - روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 452.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 114.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.
6 - السُّلوك، المقريزي، 1/ 271.

الأحلاف السِّياسيَّة والتحرُّكات العسكريَّة في الجزيرة بعد وفاة صلاح الدِّين:

بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين انتقض الأُمراء والمُلُوك المُعاهدين على خلفائه، وكان أوَّلهم بكتمر صاحب خِلاط، ثُمَّ أيَّده صاحب ماردين، وراسلوا أتابكة المَوصل وسنجار، وتحالفوا، وأصبحت المناطق الأيُّوبيَّة مهدَّدة من الشمال ومن الشَّرْق، وتحرَّكت الجُيُوش صوبها، وأرسلوا للعادل: "أن اخرُجْ من بلادنا". وباتت السيطرة الأيُّوبيَّة في الجزيرة مهدَّدة تماماً، وكان امتحاناً مُبكِّراً يتعرَّض له العادل، بل الدولة الأيُّوبيَّة بكاملها بعد موت مُؤسِّسها. لكنَّ الإرادة الإلهية أوَّلاً، وعزيمة العادل، والتفاف الأيُّوبيَّة حوله ثانياً، حوَّلا كُلَّ ذلك إلى نصر كبير للأيُّوبية، وتأكيد على إحكام قبضتها في الجزيرة.

في مُعسكر الحُلفاء:

1 ـ كانت الضربة الأُولى التي وُجِّهَتْ للحُلفاء هي مقتل بكتمر صاحب خِلاط؛ إذْ اغتالته الباطنية وهُو في أوج تنمُّره وشماتته بموت صلاح الدِّين، فقد ظهر بشعار السَّلطنة، وتلقَّب بالملك النَّاصر، وراسل الأُمراء والمُلُوك، وعندما بدا وكأن السعد يجاريه، سقط بخناجر الباطنية، لتنهار دعامة قويَّة من الحلف المناوئ للأيُّوبية[1].

2 ـ تردَّد عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل، وتلكَّأ في التحرُّك العسكري ضدَّ الأيُّوبيَّة لاحتلال بلادهم الجزرية، وعندما تحرَّك في الجيش داهمه المرض، فعاد محمولاً في محفَّة إلى المَوصل، وتبعه جيش التحالف الأتابكي بدُون أن يُحرز أيَّ نتيجة.

3 ـ وجد صاحب ماردين نفسه وحيداً في الميدان، "فتضرَّع، وتذرَّع، وتشفَّع، حتَّى عفا عنه" العادل.

4 ـ تحرَّك العادل بسُرعة " فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم، فأنجدوه"، وتحرَّكت الفرق الأيُّوبيَّة نحو الجزيرة من كُلِّ مكان، وأوَّلها وأقربها نجدة حلب، ثُمَّ حمص وبعلبك ودمشق.

ولم يعد هذا التجمُّع الأيُّوبي بلا مكسب، فقد استغلَّ العادل تجمُّع النجدات، وتراجع الأتابكة، فأمر ابنه الظافر بقيادة الجُند، واحتلال مدينة سروج، وكانت لعماد الدِّين، فاحتلَّها، ثُمَّ احتلَّ الرقَّة، واستولى على بلاد الخابور[2].

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

وتبلور الوضع السِّياسي بعد هذا الاختبار للدولة الأيُّوبيَّة، بتأكيد سلطنة العادل على كامل أراضي الجزيرة، كما تأكَّدت على الشَّام. فمُلوك الجزيرة وأُمراؤها، إمَّا يتبعون مُباشرة لـوُلاة العادل، أو مُحالفون له، خاضعون، يخطبون له على منابرهم، ويسكُّون اسمه على نقودهم.

موقف حلب:

في عام **594** هـ **1198**م، أنجد الظَّاهر عمَّه العادلَ في هُجُومه على ماردين، ولمَّا وقع الخلافُ بينه وبين عمِّه، إثر وفاة العزيز، وتحرَّك الظَّاهر مع أخيه الأفضل لأَخْذ دمشق، دعم الظَّاهر تحالفَ أتابكة سنجار والمَوصل، فهزموا جيشَ العادل، وأجلوه عن ماردين[1]. وبعد فشل خُطَّة الظَّاهر بأَخْذ دمشق من عمِّه العادل راسلَ حُسامَ الدِّين يولق صاحب ماردين، وحاول تأليف حلف معه ومع أُمراء الجزيرة، بمَنْ فيهم أخوه الأفضل. وعندما عاد العادل للهُجُوم على ماردين عام **599** هـ **1202**م، تدخَّل الظَّاهر، إنَّما هذه المرَّة بوساطة سلمية، كانت لمصلحة كُلِّ الأطراف.

فقد سار الأشرف نائب والده العادل في حَرَّان إلى ماردين، وحاصرها عام **599** هـ، فأدرك صاحبها أنَّه سيكون الخاسر الأكبر باعتماده على حلف مُتفكِّك أصلاً، لا يجمعه إلَّا المصلحة، وتُفرِّقه المصلحة، فأرسل للظاهر صاحب حلب، الذي وافق على السعي بالصُّلح، ووافق العادل على الصُّلح مُقابل مائة وخمسين ألف دينار، وأن تُقام له الخُطبة والسِّكَّة في ماردين[2]. إن مُوافقة العادل تدلُّ على عدم تأكُّده من النجاح العسكري، فقد فشل ابنه الأشرف بتحقيق نصر عسكري تجاه ماردين[3]، ورُبَّما لا العادل ولا الأشرف كانا يتوقَّعان نصراً عسكريّاً ضدَّ بلدة محصنة كماردين، وقلعتها الشهيرة[4]. وبالمُقابل؛ ضمن العادل حُصُوله على **150** ألف دينار نقداً، والخطبة والسّكَّة في ماردين، مع نجدة عساكرها له عند الطلب. وحصل الظَّاهر على عمولة هي **20** ألف دينار، وإقطاع قرية القرادى[5] من صاحب ماردين[6].

1 - عقد الجمان 1/ 2/ 228، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 62، والعبر، ابن خلدون، 5/ 588.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103.
3 - مملكة حلب، كمال بدور، 149.
4 - راجعْ: الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 164.
5 - القرادي: قرية من أعمال شبختان (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 179).
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 213، والمنصُوري، ابن نظيف، 38، ـ بينما يقول المقريزي بأنَّ المبلغ هُو: عشرة آلاف فقط، (السُّلُوك، 1/ 161).

المبحث الرَّابع

القوى السِّياسيَّة في الجزيرة الشَّاميَّة

مُشكلة أخلاط[1]:

لم يتمكَّن صلاح الدِّين من ضمِّ أخلاط إلى مملكته[2]، فقد كانت تحت حُكْم سيف الدِّين بكتمر، الذي استولى على السُّلطة بها بعد موت مولاه شاهرمن ـ شاه أرمن ـ بن سكمان ملك أخلاط. واستطاع بكتمر حفظ مملكته من توسُّع السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة، وعرف نواياه تجاه خِلاط، لذلك حقد عليه، وعند وفاة السُّلطان أظهر الابتهاج، وتلقَّب بالملك النَّاصر، وهُو لقب صلاح الدِّين[3]. وتحالف مع أتابك المَوصل، ويُقال إن بكتمر هُو مَنْ شكَّل الحلف ضدَّ الأيُّوبيَّة، ولكنَّ قتله المُفاجىء عام **589** هـ **1193**م، بعد شهرَيْن من وفاة صلاح الدِّين بأيدي الإسماعيليَّة، أنهى كُلَّ خطر كان يُشكِّله بكتمر على الأيُّوبيِّين[4]. وهذا الاغتيال السِّياسي الأوَّل الذي نفَّذه الإسماعيليَّة بعد وفاة صلاح الدِّين، تأكيداً لتمسُّكهم بالتحالف مع خلفائه، قد وفَّر على الأيُّوبيَّة الكثير من المتاعب، وفكَّكَ ـ فعليّاً ـ تحالف مُلوك الأطراف ضدهم، بعد قتل المحرِّك والمُدبِّر والأشدّ حقداً عليهم.

فملك خِلاط بعده مملوكه آق سنقر ولقبه هزار ديناري، وتسمَّى: الملك بدر الدِّين، لكنَّه لم يعش طويلاً بعدها، فقد تُوفِّي عام **595** هـ، فولَّى الأُمراء مُحمَّد ابن صاحب خِلاط السَّابق بكتمر، وكان شابّاً فاسداً[5] جاهلاً، قتل أتابكه شجاع الدِّين قتلغ، الذي كان حَسَنَ السيرة مع الجُند والرعية، واشتغل هُو باللهو والشراب، فانتقض عليه الناس، وملَّكوا سيف الدِّين بلبان، وكان مملوكاً لشاه أرمن، وتسلَّم خِلاط[6]، فكتب جماعة ابن بكتمر للملك الأوحد ابن العادل صاحب مَيَّافارقين

1 - يُفسِّر ناصر خسرو سبب تسميتها، فيقول: هي بين بلاد المُسلمين والأرمن، ويتكلَّمون بها ثلاث لغات: "العَرَبيَّة، والفارسية، والأرمنية، وأظنُّ أنَّها سُمِّيَتْ أخلاط لهذا السبب". (سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب د. يحيى الخشَّاب، 39).
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 255.
3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 436.
4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 436.
5 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 14/ 84.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 253.

يستدعونه إلى خِلاط، فسار إليها[1]، وكان قد طلب النجدة من أبيه العادل، فأرسل له جيشاً كبيراً[2]، تمكّن بواسطته الأوحد من هزيمة بلبان[3]. لكنَّ بلبان استنجد بمغيث الدِّين طغرل شاه بن قلج أرسلان السلجوقي[4]، صاحب أرزن الرُّوم[5]، فسار إليه بنفسه ومعه العَسْكَر، فهزموا الأوحد[6]، فعاد إلى مَيّافارقين. وطمع طغرل شاه بأخلاط، وغدر ببلبان، فقتله؛ ليملك خِلاط، لكنَّ أهلها لم يُسلِّموها له، وقاوموه، فعاد إلى بلاده. واستدعوا الملك الأوحد، وسلّموه المدينة سنة **604** هـ[7].

وتخوَّف أصحاب المُدُن المُجاورة من قُوَّة الأوحد، التي تُعدُّ امتداداً لقُوَّة والده العادل وأخيه الأشرف، وهي أكبر القوى العسكريَّة والسِّياسيَّة في الجزيرة، فحاولوا النيل منه، ولكنَّ دَعْمَ أخيه الأشرف جعلهم يتراجعون[8]، واستفاد الأوحد من وُجود قُوّات أخيه الأشرف، فهاجم قلعة أوان، وهي للكرج، فملكها[9]، فخاف مُلُوك المُدُن المُجاورة، واتَّفقوا على ترك طاعة العادل، وأعلنوا طاعة خسرو شاه بن قلج أرسلان سُلطان سلاجقة الرُّوم، وخطبوا له، وراسلوا الكرج يُحرِّضونهم ضدَّ الأوحد[10]، فتحرَّك ملك الكرج عام **607** هـ **1210**م، إلى خِلاط، وحاصرها بقُوّاته، وفي إحدى الهجمات لجيش الكرج على أبواب خِلاط سقط ملكهم عن جواده، فأسرع المُدافعون عن الباب، وأسروا الملك، واقتادوه إلى الأوحد، الذي فاوضه على إطلاق سراحه مُقابل عدَّة شُرُوط، منها: تسليم بعض القلاع، وإطلاق خمسة آلاف أسير مُسلم، ودفع مائة ألف دينار، وتزويج ابنة ملك

1 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14/ 84، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 255، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، ومن عقد الجمان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، أحداث عام 995 هـ، 59/ 17.
2 - روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 5/ 459.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 272.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176.
5 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14/ 84.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، 5/ 459، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، 14/ 84، والأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 453.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، وروايات ابن العبري، ابن العبري، 5/ 459.
9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 274.
10 - ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 127، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 75.

الكرج للملك الأوحد، وإقامة هُدنة بينهما مُدَّتها ثلاث سنوات[1]، فتخاذل مُلُوك المُدن المُجاورة لخِلاط المُتحالفين ضدَّ الأوحد وأبيه العادل، وقصدوا العادل وهُو في حَرّان، واعتذروا إليه، وعادوا إلى طاعته[2].

وبعد مرض عُضال تُوفِّي الملك الأوحد نجم الدِّين أيُّوب بن العادل في مدينة ملاذ كُرد، ودُفن بها[3] سنة **605** هـ **1208**م[4]، فتسلَّمها أخوه الملك الأشرف صاحب الجزيرة، واستقرَّت في مُلكه[5]، وأُضيفَتْ مَيّافارقين إلى المُظفَّر شهاب الدِّين غازي[6]، فعظم شأن الأشرف بمُلكه خِلاط، وهي قصبة أرمينيا[7]، فعظم أمره، وتلقَّب شاهرمن[8] بعد أن ملكها. وفي عام **617** هـ **1220**م، وقُبيل توجُّه الأشرف من الجزيرة إلى مصر لنجدة أخيه الكامل ضدَّ الفرنج الذين قصدوا دمياط، أَقْطَعَ الأشرفُ أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي خِلاط ومعها كُلّ أعمال أرمينية ومَيّافارقين وحاني، وأخذ منه الرُّها وسروج، ولمّا قصدتْهُ رُسُلُ الكرج يطلبون التحالف معه ضدَّ المغول، أحالهم إلى المُظفَّر غازي[9].

وبعد عودة الأشرف من دمياط انقلبت موازين التحالفات الأيُّوبيَّة؛ حيثُ اتَّفق الأشرف مع الكامل ضدَّ المُعظَّم، فأرسل المُعظَّم للمُظفَّر غازي يستميله ضدَّ الأشرف، فمال معه، وخلع طاعة

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 274، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113.
2 - ذيل المُختصر، ابن الوردي 2/ 127، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 75.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 455، ـ الأوحد هُو: أيُّوب بن أبي بكر العادل بن أيُّوب لقبه نجم الدِّين، تُوفِّي في ملاذ كُرد، ودُفن بها. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81)، وهُو صاحب مَيّافارقين إقطاعاً من والده، واستولى على خِلاط بدعوة من أهلها. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175).
4 - انقسم المُؤرِّخون حول تحديد سنة وفاة الأوحد أيُّوب بن العادل، فهي في عام 609 هـ لدى أبي شامة، ذَيْل الرَّوضَتَيْن، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20 / 158، والحنبلي، شفاء القُلُوب، 275، وهي في عام 607 هـ لدى ابن نظيف، المنصُوري، 650، وأبي الفداء، المُختصر، 3 ـ 113، وابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3 ـ 208.
5 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار،، 14/ 84، والكامل في التاريخ، 12 / 253 ـ 272، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 158.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.
7 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 124، راجعْ أيضاً: سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الخشّاب، 39.
8 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 113، ـ شاهرمن: أو شاه أرمن؛ أيْ ملك الأرمن نسبة لعدد الأرمن الكبير في خِلاط.
9 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 399.

الأشرف[1]، ويبدو أن أهمَّ دوافع المُعظَّم تجاه المُظفَّر هي أهمِّيَّة مملكة خِلاط، واتِّساعها، وموقعها الذي يُشكِّل شوكة في جنب الأشرف تُعيقه عن الحَرَكَة، إضافة إلى كونها صلة وصل لا غنى عنها ما بينه وبين الخوارزمي حليف المُعظَّم، والتي ستُدخله إلى عالم الجزيرة، ومنها إلى الشَّام.

ففي عام **621** هـ **1224**م، قصد الأشرفُ خِلاط بجُيُوشه، وتمكَّن من هزيمة المُظفَّر عندما تصدَّى له، فهرب إلى خِلاط، لكنَّ أهلها فتحوا أبوابها للأشرف، فتحصَّن المُظفَّرُ في القلعة، وأنزله الأشرف بالأمان، وأخذ منه خِلاط، وأبقى عليه مَيَّافارقين[2]، وأرسل الأشرفُ حاجبَهُ حُسام الدِّين علي نائباً إلى خِلاط[3]، فقام بمهمَّته خير قيام[4]، ودافع عنها ضدَّ الخوارزمي وجيشه القوي، وأجبره على التراجع[5]، كما تصدَّى لكَيْقُباذ، ودفعه عن أرزن الرُّوم[6]، ممَّا جعل الأشرف يتوجَّس خيفة من قُوَّته، فأرسل مملوكه عزّ الدِّين آيبك إلى خِلاط، وأمره بقتل الحاجب علي، فقتله[7]، وتولَّى عزُّ الدِّين خِلاط، حتَّى هاجمها جلال الدِّين خوارزمشاه، وفتحها عام **627** هـ **1230**م، ولمَّا دخلها "فعل في ذلك فعْلَ التَّتَر، فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد وسبى عسكرُهُ الحريمَ، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكَفَرَة"[8]، ثُمَّ قبض على عزِّ الدِّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط، وسلَّمه إلى مملوك الحاجب علي، فقتله[9]، فقام الأشرف، وجمع عساكرَ الشَّام، وحالف علاء الدِّين كيقباد سُلطان سلاجقة الرُّوم، والتقوا جلالَ الدِّين، فهزموه، "واسترجع الأشرفُ خِلاط، وقد صارت خراباً يباباً"[10].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 134.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، 14/ 84، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 134.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 188.
4- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 136.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 190.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 295.
9 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 146.
10 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299.

الفصل الثَّاني

العلاقات الخارجيَّة للممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة

المبحث الأوَّل

الملك الأفضل في الجزيرة

كان الأفضلُ أكبرَ أولاد صلاح الدِّين، ووَلِيَّ عهده، وبعد وفاة والده كوَّن مملكة دمشق، التي كانت إقطاعاً له في حياة والده السُّلطان، وهي تمتدُّ من حُدُود حمص شمالاً إلى حُدُود العريش جنوباً، يفصلها عن بعض السواحل المناطق المحتلَّة من قِبَل الفرنج.

وفي عام **592** هـ **1196**م، تمكَّن الملك العادل من إخراج ابن أخيه الأفضل من دمشق إلى صرخد[1]، وبعد موت العزيز ابن صلاح الدِّين صاحب مصر تمكَّن الأفضل من الوُصُول إلى حُكْم مصر عام **595** هـ **1199**م، لكنْ؛ نتيجة التحاسد بين الأخوة أبناء صلاح الدِّين، وشخصية الأفضل غير القيادية[2]، فقد طُرد الأفضل من مصر عام **596** هـ **1200**م، وعاد إلى صرخد، ثُمَّ خسرها ـ أيضاً ـ بعد مُغامرته الفاشلة لأَخْذ دمشق عام **597** هـ **1201**م. وأثناء حصار الأفضل وأخيه الظَّاهر للعادل بدمشق، راسل العادلُ الأفضلَ، ووعده بالبلاد الشَّرْقيَّة، فانسحب من الحصار، وعمل على تفشيله، وسلَّمه العادل مَيَّافارقين[3] وسُمَيساط وسروج[4] وقلعة نجم[5].

1 - صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: صرخد)، ويُقال لها ـ الآن ـ صلخد، وهي مدينة في جبل العَرَب، تتبع مُحافظة السويداء السُّوريَّة. (المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة: صلخد).
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 143.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 126.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 444.
5 - المُختصر، أبو الفداء 3/ 101، ـ قلعة نجم: قلعة حصينة على الفُرات، بناها نجم غلام جني الصفواني، وكانت تتبع لبني حسَّان أصحاب منبج، وبعد وفاة حسَّان بن كمشتكين البعلبكي عام 542 هـ 1147م، أَقْطَعَ السُّلطان نُورُ الدِّين منبجَ ومعها قلعة نجم إلى ابنه قُطب الدِّين ينال ابن حسَّان. وعندما تولَّى السُّلطان صلاح الدِّين كان ينال من أشدِّ الأمراء عداوةً له، والتحريض عليه، فحاصره السُّلطان، وأسره عام 572 هـ 1176م، (الكامل، ابن الأثير، 11 / 329، زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 218)، ثُمَّ تولاها الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين مع حلب، وسلَّمها لأخيه=

ويبدو أن العادل كان يُدرك تماماً ما يفعل، فقد وضع الأفضل في الجزيرة ليبعده أوّلاً عن مراكز القوى في دمشق ومصر، وليضعه تحت إشراف ومراقبة ولده الأشرف صاحب إقطاع الجزيرة، وكانت لدى العادل مخططات أُخرى تتعلّق بالأفضل، رُبّما لم يطلع عليها سوى ابنه الأشرف الذي سيُنفِّذها لاحقا. ففي عام **599** هـ **1203**م، طلب الأشرف من الأفضل القُدُوم بعساكره للتوجه معه في الحملة ضدَّ ماردين، وبالفعل وصل الأفضل إلى حَرَّان ورافقه الأشرف الذي كان يظهر الود والاحترام للأفضل، حتّى إنّه عندما استولى على رأس عين الخابور سلمها له، وبعد الصُّلح مع ماردين والعودة إلى حَرَّان بلغ كرم الأشرف غايته مع ابن عمّه؛ حيثُ أعطاه بلدة جملين[1].

إن هذا الإكرام ـ بالتّأكيد ـ أدهش الأفضل، وجعله ينساق مع ما خطّط له العادل وابنه الأشرف، من الاعتقاد بمحبّتهما، وتقديرهما له، والتّخلّي عن كُلّ شكٍّ بهما، أو حذر منهما.

ولكن ضربهما له لم يتأخّر كثيراً، ففي العام نفسه أرسل الملك العادل عسكره ونوابه واستعاد جملين من الأفضل، وانتزع منه سروج وشبختان والموزر والسن[2]، ويُحاول ابن العديم تبرير فعل الملك العادل بقوله: "وعصى الملك الأفضل على عمّه الملك العادل في البلاد التي كان أعطاه إيّاها"[3]، فما زاد على أنْ أظهره مُتمرِّداً على عمّه صاحب الشرعية الملك العادل، سُلطان البلاد، الذي تفضّل على الأفضل بها، مع أنّه لا يُوجد دليل على عصيانه، ولا مُبرِّر لهذا العصيان المُفترض.

وقام الظّاهر أخو الأفضل بحَرَكَة مُفاجئة، رُبّما تدلُّ على تنسيق مع العادل، واقتسام سِرّيٍّ لبُلدان الأفضل بينهما، فاستولى الظّاهر على قلعة نجم[4]، وقد برّر ابن العديم ـ أيضاً ـ فعلة الظّاهر بأخيه الأفضل بأنَّ الظّاهر تخوّف من أَخْذ العادل لقلعة نجم، وهي ذات موقع استراتيجي مُهمّ بالنِّسبَة لمملكته، ويُضيف مُذكِّراً ومُؤكِّداً تبريره لأَخْذ الظّاهر قلعة نجم، فيقول: "وكان الملك

=الأفضل، لكنّه عاد، واستردّها، وأَقْطَعَهَا لعتيقه الأمير بدر الدِّين أيدمر ، حتّى نزعها منه العزيز بن الظّاهر عام 629 هـ، وفي أيّام الملك النّاصر الثّاني استولى عليها التّتار، وخرّبوها.(الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 476).

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 38.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشّاميّة، 5/ 427.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623.

4 - روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 5/ 427، والأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 475.

الظّاهر قد سلّمها للأفضل"[1]، ولكن ابن الأثير يرى الأمر من وُجهة نظر أُخرى؛ حيثُ يصف ما قام به الملك الظّاهر نحو الملك الأفضل بقوله: "وكان هذا أقبح ما سُمع عن ملك يُزاحم أخاه في مثل قلعة نجم، مع خسّتها وحقارتها وكثرة بلاده وعدمها لأخيه"[2].

ثُمّ تابع العادل وابنه الأشرف تنفيذ مُخطّطها ضدّ الأفضل، "فأخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل، وكذلك جملين، بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه، ولم يُبقوا عليه سوى سُمَيساط لا غير"[3].

كانت مُحاولة الأفضل الأخيرة، قبل أن يفقد كُلّ أمل له ضمن أُسرته الأيُّوبيّة، هي التذلُّل لعمّه العادل، واستعطافه، فأرسل والدته إلى حماة؛ ليشفع صاحبها المنصُور عند العادل لإبقاء بلاده عليه، لكنّ العادل لم يلتفت لذلك[4]، عندها؛ وجد الأفضل نفسه وحيداً ضمن البيت الأيُّوبي، فأعداؤه هُم أخوه وعمّه وأبناء عمّه، ممّا زاد الأفضل حنقاً، ودفعه باتّجاه مُعاكس، فالتفت خارج البيت ليجد كيكاوس[5] سُلطان سلاجقة الرُّوم قريباً منه، ومُرحّباً به، ورُبّما لأنّه عدوّ البيت الأيُّوبي انتمى إليه، وخطب له على منابر سُمَيساط[6]، فكان انتقام الضعيف من الأقوياء.

وعندما تُوفّي الملك الظّاهر صاحب حلب، في عام **613** هـ **1216**م، وجد كيكاوس في الأفضل ضالّته، فهُو وسيلته للسيطرة على الجزيرة، ومن ثَمّ؛ الدُّخُول إلى الشّام.

فأثار مطامع الأفضل، ووعده بأَخذ حلب، وتسليمها له، "وكان كيكاوس يُريد الملك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصُّل إليه"[7].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، كذلك راجعْ: الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 475.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 38، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 104.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 104.

5 - هُو السُّلطان عزّ الدِّين سُليمان بن قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب الرُّوم.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 5/ 427.

7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.

ففي عام 615 هـ؛ طلب كيكاوس من الأفضل أن يُكاتب أُمراء حلب الـذين يميلـون إليـه، فكاتبهم، ووعدوه[1]، وكان عدد من مُستشاري عزّ الدِّين كيكاوس قـد "حسَّنوا لـه قـصد حلـب، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنَّه في طاعتكَ، ويخطب لكَ، والناس مائلون إليه، فاستدعاه، وأكرمه، واتَّفقا على قصد البلاد، وأن حلب وأعمالها للأفضل وبلاد الأشرف لعزّ الدِّين "[2].

ساند الأفضلُ كيكاوسَ، ورافقه في هُجُومه على مُمتلكات حلب، "وساروا، فملكـوا رعبـان، وسُلِّمت للأفضل، لكنْ؛ لَمَّا مُلكَتْ تلّ باشر أخذها عزّ الدِّين كيكاوس لنفسه، وكذلك منبج، فنفـرَ الأفضل، وقال: هذا أوَّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمُلك الأفضل "[3].

"ولَمَّا تحقَّق الأفضل من سُوء نيَّة كيكاوس، أشار عليه بقصد الـبلاد، وتـأخير حلـب، لمُـرُور الزمن في غير فائدة؛ لئلا يتحصَّل لعزّ الدِّين مقصوده"[4].

وكان تراجع الأفضل عن دعم كيكاوس مـن الأسـباب القويَّـة لهزيمتـه أمـام قُـوَّات حلـب والأشرف مُوسى[5]، فقد تراجع منهزماً، واستردُّوا كُلَّ ما استولى عليه.

وعاد الأفضل ليقبع في سُمَيساط، "ولم يتحـرَّك ـ بعـدها ـ في طلـب مُلـك، إلى أن مـات عـام 622 هـ"[6] 1225م، وكان موته فجأة، وله من العمر سبع وخمسين سنة[7].

واختلف أولاده وأخوته في ملك سُمَيساط بعد موته، ولم يقوَ أحد منهم عـلى البـاقين لـيستبدَّ بالأمر[8]، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على المُؤيَّد ناصر الدِّين مُحمَّد بن الأفضل علي، وأن يكون مُدبِّر دولته عمّه

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 74، ـ وعن مُغامرة الأفضل مع كيكاوس راجعْ:
Pre Ottoman, Clud Cahen, p 123
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 119.
7 - بعد أن مات الملك الأفضل علي في سُمَيساط نُقل ليُدفَن في ظاهر حلب بالقُرب من مشهد الهروي، خارج باب المقام جنوب حلب. وهُو ـ الآن ـ في حيِّ الفردوس، قُرب مدرسة ورباط ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 155، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 429.

المُفضَّل مُوسى، واستقرُّوا بها إلى عام 632 هـ 1235م؛ حيثُ أخذها منهم الملك العادل، وعوَّضـهما عنها جملين[1].

وهكذا أكملَ العادلُ مُخطَّطه تجاه الأفضل الذي كان يتصوَّره الأقوى بين أبناء صلاح الـدِّين، ولكنَّه كان ـ على ما يبدو ـ بعيـداً عـن مغـاور الـسياسة وألاعيبهـا، بـسيطاً، مـع أنَّـه جمع الفـضائل والأخلاق الحَسَنة، وعلَّل أبو الفداء ما جرى معه بأنَّه كان "قليل الحظِّ"[2]، لكنَّ الأرجح أنَّه سُـوء تدبير أكثر منه قلَّة حظٍّ، فله من الخبرة والتجربة، في دولة أبيه، رُبَّما ما يفـوق مـا كـان لأخيـه الظَّـاهر غازي أو العزيز.

وهُنا؛ نُلاحظ أن العادل قد تجاوز صلاح الدِّين بحُسْن التدبير لتدريب أبنائه، ورُبَّما كان ذلك بسبب انشغال صلاح الدِّين الدائم بالجهاد، فقد أمضى جُلَّ عمره على صهوة جـواده، وكـان يـرى أن تحرير الأرض رسالة عليه أن يُؤدِّيها، فلم يلتفت إلى ما سـواها، بينـما التفـت العـادل لترتيـب شُـؤُون أولاده بعد موت صلاح الدِّين، وساعده على ذلك توقُّف الأعمال الحَرْبيَّة الكُبْرَى مع الفرنج.

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 195.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 135.

المبحث الثَّاني

الأشرف مُوسى ملك الجزيرة

بعد وفاة العادل عام 615 هـ 1218م، حدثت التجزئة الثَّانية للدولة الأيُّوبيَّة، وانعكست بأوضح صورها في الجزيرة، التي كانت شبه مُوحَّدة تحت سُلطة العادل وأبنائه، الذين هُم نُوَّاب له فيها، وأصبح الملك الأشرف بن العادل ملك الجزيرة بلا مُنازع، فهُو أكبر قُوَّة فيها، وصاحب مُعظم بلادها، وعلى الفُرات كان لأخيه الحافظ أرسلان شاه إمارة صغيرة تتشكَّل من قلعة جعبر وبلدة بالس[1]. ونستطيع أن نُميِّز في حُكْم الأشرف للجزيرة أربعة مراحل:

المرحلة الأُولى:

بدأت علاقة الملك الأشرف بالجزيرة الشَّاميَّة عندما وضع والده السُّلطان العادل تحت إمرته قُوَّة عسكريَّة عام 599 هـ 1203م، ووجهه لاحتلال ماردين، ومع أن الحملة لم تُضطرّ للقتال، فقد حقَّقت مكسباً كبيراً؛ إذ قام صاحب ماردين بطلب وساطة الظَّاهر غازي صاحب حلب للصُّلح مع السُّلطان العادل، وتمَّ الأمر على أن يدفع للسُّلطان مائة وخمسين ألف دينار، ويدخل تحت طاعته بإعلان الخطبة، وضرب السِّكَّة باسمه[2]. وكانت حملة الملك الأشرف أداة ضغط فعَّالة لقبول صاحب ماردين الخُضُوع للسُّلطان العادل، وبالوقت نفسه؛ مهَّدت لصعود نجم الملك الأشرف في الجزيرة.

لكنَّ السعد الحقيقي للأشرف جاء بمُبادرة منه عندما قرَّر التصدِّي لهُجُوم الأتابك نُور الدِّين صاحب المَوصل، الذي غرَّر به أُمراء الشَّام اللاجئين إليه، وهوَّنوا له أمرَ الملك الأشرف، فكان اللقاء قُرب بلدة باشزى[3]، وبالكاد؛ نجا نُور الدِّين بنفسه نحو المَوصل، وأُخذت جُنُوده ما بين أسير وقتيل، فَسَيَّرَ الملك الأشرف يعلم والده السُّلطان العادل، "فاستعظم العادلُ ذلك، وما صدَّقه"[4]. وكما برع الملكُ الأشرفُ في قيادة المعركة العسكريَّة، ضدَّ أتابك المَوصل، برع

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 80.
3 - باشزى: بليدة قُرب المَوصل بين جزيرة ابن عُمر ونصيبين، فيها سوق، وتقصدها القوافل. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: باشزى).
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 40 ـ 41.

ـ أيضاً ـ في توجيه الدقَّة السِّياسيَّة، واستغلال نتائج نصره، فقد رتَّب مُعاهدة صُلح في أوائل عام 600 هـ 1204م، مع الأتابك، وتحالفا معاً[1]، ليتحوَّل الملك الأشرف، وقبل أن يُولِّيه والده إقطاعَهُ في الجزيرة، إلى الرجل الأوَّل فيها، وإلى سُلطان حقيقي لها. وبعد استتباب الأمر للعادل وتولِّيه سلطنة الأيُّوبيَّة في الشَّام ومصر ولَّى ابنهُ الأشرفَ مُوسى على مُعظم مُمتلكاته الجزرية، وكانت قاعدتها حَرَّان، ووضع معه أخاه الأوحد في ولاية مَيَّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس[2].

المرحلة الثَّانية:

بدأت عام 598 هـ؛ حيثُ حكم نائباً عن أبيه على ولاية الجزيرة، وفيها ظهرت شخصيَّته السِّياسيَّة والعسكريَّة، وتميَّزت بالنجاح، فقد حالفه التوفيق في كُلِّ تحالفاته السِّياسيَّة ومعاركه العسكريَّة، وتُعدُّ هذه المرحلة جُزءاً من دولة العادل.

المرحلة الثَّالثة:

وهي المرحلة الأساسية والهامَّة للأشرف وللجزيرة. بدأت عام 615 هـ 1218م، وفيها انفراد بالحُكْم بعد موت والده العادل، ونشطت فيها العلاقات السِّياسيَّة والتحرُّكات العسكريَّة لدولته الجزرية مع كُلِّ الإمارات المُجاورة، إنْ كانت أيُّوبية، أو غيرها.

في عام 616 هـ 1219م، تُوفِّي نُور الدِّين صاحب المَوصل، وقام الوصي بدر الدِّين لُؤلُؤ، وخطب للسُّلطان الكامل، وللملك الأشرف[3]، بما يعني وضع نفسه تحت طاعتهما، وطلب حمايتهما له، فقد كان لُؤلُؤ يُدرك الأطماع التي سيواجهها في تدبيره لدولة صبي صغير. وفعلاً؛ فقد تحرَّك زنكي ابن عزّ الدِّين مُطالباً بأنْ يكون هُو الوصي على ابن أخيه في المَوصل، ودعمه مُظفَّر الدِّين صاحب إربل الذي رآها فُرصة طيِّبة للتدخُّل في شُؤُون المَوصل، فسارع لُؤلُؤ لطلب نجدة الملك الأشرف[4]، ولكن الملك الأشرف كان مشغولاً عن المَوصل بالحلف الذي شكَّله كوكبري ضدَّه في الجزيرة، فقد راسل مُلُوكها، وكان من أبرز مَنْ لبَّى دعوته، كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، وصاحب آمد

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 41.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.

وحصن كيفا، وصاحب ماردين، وكان الاتِّفاق بينهم على أن يكونوا في طاعة كيكاوس، ويخطبوا له، كما أكمل كوكبري الحلقةَ باتِّصاله بأُمراء جند الملك الأشرف، فانحاز إليه بعضهم، وتركوا الملك الأشرف، وساروا للقاء صاحب آمد؛ لمنع الملك الأشرف من الحَرَكة لمُساعدة المَوصل. ولكنْ؛ حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد تراجع صاحب آمد عن الحلف، وعاد إلى طاعة الملك الأشرف[1]، ولابُدَّ أن الثمن الذي حصل عليه صاحب آمد من الملك الأشرف، وهُو مدينة حاني وجبل جور، كان سبب انقلاب موقفه. ومرَّة أُخرى؛ يُثبت الملك الأشرف أنَّه ملك الجزيرة بلا مُنازع، فما يعجز عنه بالقُوَّة العسكريَّة يستطيع تحقيقه بالمُناورات السِّياسيَّة، فانحلَّ حلف كوكبري، وعاد الجميع إلى طاعة الملك الأشرف[2]، لقد وجَّه الملك الأشرف جهده السِّياسي نحو أضعف نقاط الحلف، وهُو صاحب آمد، وتمكَّن من شرائه، فضرب الحلف بأكمله.

وجاء ردُّ الملك الأشرف على الحلف السَّابق سريعاً وناجحاً، ففي مطلع عام **617** هـ **1220**م، استغلَّ لجوء ابن المشطوب إلى سنجار، وسار إليها، فتسلَّمها من صاحبها[3]، وعوَّضه الرقَّة[4]، يقول أبو الفداء: "وهذا من سعادة الملك الأشرف، فأباه نازل سنجار في جُموع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه بأهون سبب"[5]. ويقول ابن واصل: "وهذه الواقعة من جُملة سعادته الخارقة، فإن أباه العادل نازلها في جميع مُلُوك أهل بيته، فلم ينلْ منها غرضاً، وأخذها الملك الأشرف عفواً بلا تعب". ثُمَّ أخذ الملك الأشرف الرقَّة بعد ذلك[6]، وتابع زحفه نحو المَوصل لدعمها، ممَّا أجبر كوكبري لعقد الصُّلح مع صاحبها، ثُمَّ التفت الملك الأشرف إلى صاحب قرقيسيا[7]، فقبض عليه، وأخذها منه[8]. كما استولى على دنيسر[9].

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 442.
2 - الكامل، ابن الأثير، 12 / 443.
3 - كان صاحب سنجار هُو الملك الأمجد محمود بن قُطب الدِّين مُحمَّد بن عماد الدِّين زنكي بن مودود بن زنكي.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 2/ 122.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 73.
7 - قرقيسيا: مُعرَّب كركيسيا من كركيس، وتعني الحلبة، تقع على نهر الخابور قُرب الرحبة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قرقيسيا).
8 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 651.
9 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 125، ـ دنيسر: بلد مشهور من نواحي الجزيرة قُرب ماردين. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: دنيسر).

العلاقات الجزرية للأشرف مُوسى:

في عام **617** هـ **1220**م، "أَقْطَعَ الأشرفُ مُوسى مدينةَ خِلاط وجميع أعمال أرمينية ومدينة مَيَّافارقين في ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدِّين غازي، وأخذ منه الرُّها ومدينة سروج"[1]، "وجعله وَليّ عهده في البلاد، التي له جميعها، وحلَّف له النُّوَّاب والعسكر"[2].

ويبدو أن الأشرف كان يرغب في تقوية مركز أخيه شهاب الدِّين غازي، وتدريبه على الحُكْم، ورُبَّما كان ذلك إعداداً له ليكون خليفته ووريثه، فالأشرف لم ينجب خلال حياته سوى بنت واحدة، ومُشكلة الوراثة كانت مُشكلة تحتاج للكثير من التفكير والتدبير. وقد أتى هذا التدبير في وقت بالغ الحرج بالنِّسبَة للأشرف، وبالنسبة لكلِّ المَمالك الأيُّوبيَّة، فبعد تسيير الأشرف لأخيه غازي إلى خِلاط جمع عسكره، وتوجَّه إلى مصر، فدمياط كانت قد سقطت بيد الفرنج، ومصر مُهدَّدة بالسُّقُوط، وبالتَّالي؛ كامل المملكة الأيُّوبيَّة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى؛ كان هُناك خطر، رُبَّما يكون أكبر، لكنْ؛ بتقدير الأشرف كان خطراً يُمكن تأجيل مُواجهته لما بعد مُواجهة خطر الفرنج، "فلمَّا أتاه رُسُلُ الكرج يطلبون المُوافقة لردِّ التَّتَر، اعتذر بالمسير إلى مصر، وقال لهم: إني قد أَقْطَعْتُ ولاية خِلاط لأخي، وسيَّرتُهُ إليها؛ ليكون بالقُرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتُمْ إلى نصرته حضر لدفع التَّتَر"[3]. ويبدو من هذا الجواب أن الأشرف لم يكن يُقدِّر خطر التَّتار حقَّ قدره، رُبَّما لعدم وُجُود معلومات كافية لديه عن قُوَّة التَّتار، إضافة إلى أن الاحتكاك المُباشر معهم لم يكن قد حصل بعد.

وكان الأشرف في مسيره إلى مصر شبه مُجبر تجاه المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّة، وخاصَّة تجاه إلحاح أخيه المُعظَّم صاحب دمشق، الذي حضر إليه في مطلع عام **618** هـ **1221**م، واجتمع به عند حَرَّان، وأقنعه بالمُساهمة في الحملة ضدَّ الفرنج، فقد "كان الأشرف مبايناً لأخيه الكامل في الباطن"[4].

ولكنْ؛ بعودة الأشرف من غُزاة دمياط عام **620** هـ **1223**م، تغيَّر موقفه كُلِّيَّاً من اخوته؛ إذْ يبدو أن هُناك اتِّفاقاً تمَّ بعد دمياط بينه وبين الكامل صاحب مصر ضدَّ المُعظَّم صاحب دمشق، وكان

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 399.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 412.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 399.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 128.

انعكاس ذلك في الساحة الجزرية أن المُعظَّم ـ الذي وجد نفسه محصوراً بين أخوَيْه الكامل من الجنوب والأشرف من الشمال ـ بدأ التحرُّك في الجزيرة لإثارة المتاعب في وجه الأشرف. ففي عام **623 هـ 1226م**، وردَ على المُعظَّم رسول مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين كوكبوري بن علي كوجك، صاحب إربل، يغريه بغزو مُدُن الشَّام حمص وحماة، لأن مُلُوكها كانوا يداً واحدة مع الأشرف[1]، وإن مُظفَّر الدِّين سيشغل الأشرف عن الجزيرة بخُرُوجه إلى المَوصل[2].

بدأ المُعظَّم خُطَّته مع أخيه شهاب الدِّين غازي، نائب الأشرف في خِلاط، فحرَّضه على عصيان الأشرف، واستماله نحوه[3]. وحاول الأشرف تدارك الأمر، فطلبه ليُقدِّم إليه بحَرَّان، "فامتنع، وأظهر العصيان، فجمع الأشرفُ عساكرَ الشَّرْق، وسار إلى خِلاط"[4]. فخرج غازي، وقاتله، فهُزم، وهرب إلى خِلاط، التي فتحها أهلها للأشرف، فتحصَّن غازي بالقلعة، وطلب العفو من أخيه، فأجابه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط[5].

يبدو ـ للوهلة الأُولى ـ أن عصيان غازي لأخيه الأشرف حَرَكَة خرقاء لا معنى لها، ولكنْ؛ بالتَّأكيد، كان لغازي دوافعه القويَّة لهذا التصرُّف، ومرتكزات بدت له ثابتة لتأمين النجاح، إنَّه ـ بالتَّأكيد ـ كان يُدرك قُوَّة الأشرف في الجزيرة، وتحالفه مع الكامل صاحب مصر أقوى وأكبر المَمالك الأيُّوبيَّة، وقبل كلِّ ذلك فالأشرف هُو صاحب الإحسان إليه، بنيابته في خِلاط، وبجعله وَلِيّ عهده. ولكنْ؛ إذا وسَّعنا دائرة الرؤية خارج الجزيرة فإنَّنا نرى أن هُناك ما شجَّع غازي على العصيان، فالمُعظَّم ومعه قُوَّات دمشق يُشكِّلان سداً منيعاً بوجه الكامل، وقُوَّات مصر التي لن تستطيع نجدة الأشرف، الذي سيُواجه حليفهم الثَّالث مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، الذي سيتحرَّك في شمال العراق، وعلى حُدُود دولة الأشرف الشَّرْقيَّة، فيُعيقه عن مُهاجمة غازي، الذي وزَّع عسكره على الحُصُون، وانتظر تحرُّك الحُلفاء[6].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، أحداث عام: 620 هـ،20/ 257.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20 / 273.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 422.

أمَّا إنعام الأشرف عليه بولاية كبيرة وتوليته عهده؛ فإن غازي رُبَّما كان يُدرك أن الأشرف قد يستردّها منه في أيِّ وقت، ورُبَّما كان يستعجل الأُمُور، فلا يُريد أن ينتظر حتَّى وفاة الأشرف، وفي هذه الحالة ـ أيضاً ـ لا شيء مضمون، فالقُوَّة والتحالفات الجيِّدة هي التي تضمن السيطرة والتحكُّم بالولايات، وليس عهداً قد يكون لا قيمة له؛ إذْ لم يُقرُّه سُلطان مصر والمُلُوك الآخرون من بني أيُّوب، بل ورُبَّما المُلُوك المُجاورون من خارج البيت الأيُّوبي. لكنَّ الذي لم يُقدِّره غازي بشكل صحيح هُو قُوَّة حُلفائه، فالمُعظَّم لم يستطع التحرُّك من دمشق بعد أن هدَّده الكامل والأشرف أنَّهم سيقصدونه، ويأخذون دمشق إنْ تحرَّك منها[1]، أمَّا مُظفَّر الدِّين؛ فقد تحرَّك من إربل نحو المَوصل وهي في حلف الأشرف، فحاصرها "عشرة أيَّام بلا طائل، ولمَّا لم يتحرَّك أحد عاد"[2].

فشلت خُطط المُعظَّم ضدَّ الأشرف في الجزيرة، فغازي كان أمره هيِّناً، وانتهى عصيانه بفشله السريع، أمَّا مُظفَّر الدِّين كوكبري؛ فهُو بعيد نسبياً، ولم يستطع أن يُحقِّق أيَّ نجاح ضدَّ المَوصل حليفة الأشرف، لذلك؛ امتدَّت أنظار المُعظَّم نحو قُوَّة كبيرة في الشَّرْق هي الدولة الخَوَارزميَّة، التي كانت قُوَّاتها تتراجع غرباً نحو بُلدان الجزيرة تحت ضغط تقدُّم التَّتار، فاتَّصل المُعظَّم بالخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي طالباً التحالف معه ضدَّ الأشرف وحُلفائه في الجزيرة.

وبعد توثيق التحالف بين المُعظَّم والخوارزمي طلب المُعظَّم منه منازلة خِلاط، أكبر مُدُن مملكة الأشرف، ليشغله عن التفكير بمُهاجمة دمشق، فتحرَّك الخوارزمي عام **623 هـ 1226م**، نحو خِلاط، وحاصرها أربعين يوماً[3]. وأمام قُوَّة الخوارزمي الكبيرة فضل الأشرف أسهل الطُّرُق، فذهب إلى أخيه المُعظَّم، وأظهر له الخُضُوع، "وسأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خِلاط . . فبعث المُعظَّم، ورحَّل الخوارزمي"[4].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 422.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 422.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 284.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، أحداث عام: 623/ هـ، 20 / 384، ـ ويقول ابن العديم: "كان الأشرف في دمشق . . . فوردت الأخبار بنُزُول خوارزم شاه على خِلاط، ومُحاصرتها، .. فوافق الأشرفُ أخاه على ما طلبه منه، ورحَّل خوارزم شاه عن خِلاط". (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 661)، ونحنُ نُرجِّح أن يكون الأشرف قد توجَّه إلى دمشق بعد حصار الخوارزمي لِخلاط.

اتِّفاق الملك الأشرف والملك الكامل عقب نصر دمياط:

ذهب الملك الأشرف إلى مصر لنجدة أخيه الكامل بعد احتلال الفرنج لدمياط، مع أنهما كانا على تباعد في الرأي والمصلحة، فقد كان ذهاب الملك الأشرف تحت ضغط وإلحاح أخيه الملك المُعظَّم، الذي كان على أتمّ اتِّفاق وتفاهم معه. ولكنْ؛ بعد عودة الملك الأشرف من مصر انقلبت المُيُول، وبان للعيان اتِّفاق الملك الأشرف مع الكامل لتحييد الملك المُعظَّم عن الساحة.

عام **618** هـ **1221**م، عادت المُلُوك الأيُّوبيَّة وجُيُوشهم بعد انتصارهم في واقعة دمياط، وبقي الملك الأشرف عند الكامل، ولم يشرْ أيٌّ من مُؤرِّخي أحداث هذه الفترة إلى أيِّ مباحثات، أو اتِّفاق جرى بين الأخوَيْن، ممَّا أدَّى لتبديل مواقفهما تجاه بعضهما، وتجاه بقيَّة الأخوة أبناء العادل. ولكن مُجريات الأحداث تدلُّ على أن مباحثات سرِّيَّة ـ وغالباً على انفراد ـ بين الكامل والملك الأشرف قد جرت، وأن اتِّفاقات سياسيَّة وعسكريَّة عدَّة قد تمخَّضت عنها تلك المباحثات، وإن كنَّا لا نعرفها بالتحديد، لكنَّ خُطُوطها قُرئَتْ من خلال تصرُّفات الأخوَيْن السِّياسيَّة والعسكريَّة اللاحقة.

وكان لذلك الاتِّفاق غير المُعلَن نتائج على غاية من الأهمِّيَّة في الشَّام والجزيرة. كان أوَّل عمل قام به الملك الأشرف فور عودته من غُزاة دمياط إلى الجزيرة في العام نفسه **618** هـ **1221**م، هُو انتزاع الرقَّة من يد الأمجد محمود بن قُطب الدِّين، وكان قد عوَّضه بها بدلاً عن سنجار، وأقام الملك الأشرف في الرقَّة[1]، ولا ندري لِمَ قام بهذا العمل؟ وفي هذا الوقت بالذات؟ إلَّا أن يكون قد بيَّت نزع الرقَّة منه قبل سفره إلى دمياط، وبعد فراغه من خطر الفرنج، وانشغاله بهم، عاد، واستردَّها.

أصداء التحالف في الجزيرة:

عندما شعر الملك المُعظَّم بالتقارب بين أخوَيْه، قدَّر أنَّه سيدفع من مملكته ونُفُوذه ثمنَ هذا التقارب، فبدأ يتلمَّس طُرُقاً للرَّدِّ على تحالف أخوَيْه، وبالتَّأكيد؛ فكَّر الملك المُعظَّم بكُلِّ من حوله من المُلُوك، وكانت الساحة أمامه كما يلي:

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 105.

1 ـ إخوته الآخرون: مُعظمهم أصحاب قلاع وبُلدان صغيرة، ولا يُشكِّلون إلَّا قُوَّة تأثير بسيطة، ما عدا أخيه المُظفَّر غازي صاحب خِلاط، فاتَّصل به، وحَسَّن له الخُرُوج على الملك الأشرف، والانضمام إليه، ولا ندري بما وعده! فهل وعده بمُلك الجزيرة بعد إزاحة الملك الأشرف؟! وفي الحقيقة؛ يجب أن يكون الوعد بهذا المُستوى، فغازي وَلِيّ عهد الملك الأشرف[2]، وصنيعته، ويعرف أنَّه سيخلفه بعد موته؛ إذْ لا وارث له، ومع ذلك، جعله الوعد يُقدم على الخُرُوج عليه.

2 ـ مُلُوك بني أيُّوب وابن عمِّهم المُجاهد: وكانوا كُلُّهم محالفين للأشرف، ويداً واحدة معه[3]:

3 ـ صاحب حلب الملك العزيز مُحمَّد طفل صغير ووصيّه طَغْريل مُتَّفق بشكل كامل مع الملك الأشرف.

4 ـ في حماة الملك النَّاصر قلج أرسلان مُتحالف مع الملك الأشرف، الذي يضمن له مُلكه، فقد اغتصب حقَّ أخيه المُظفَّر في ملك حماة بعد موت أبيه.

5 ـ الملك المُجاهد صاحب حمص، كان من أفضل حُلفاء الكامل، وأقواهم، يُطلعه الكامل على مُراسلاته[4]، ويُشاوره[5]، ولا تنقطع هدايا الكامل إليه[6].

إذاً؛ على الملك المُعظَّم أن يلتفت خارج البيت الأيُّوبي من أجل تأمين دعم قوي يكسر عنه طوق أخوَيْه من الشمال والجنوب، فامتدَّت أنظاره نحو مُظفَّر الدِّين كوكبري بن زين الدِّين كجك صاحب إربل، فالمودَّة بينهما سابقة.

وكان كوكبري قد طلب من الملك المُعظَّم عام **622** هـ **1225**م، إرسال ابنه ووَلِيّ عهده النَّاصر داود ليُقيم لديه في إربل[7]، فاعتمد الملك المُعظَّم على وُجود ابنه في بلاط المُظفَّر، وأرسل له

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 147.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 261.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 262، والمنصُوري، ابن نظيف، 157+ 258.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 110.

عام 623 هـ 1226م، رسولاً يشرح حال الشَّام، ويعرض عليه التحالف معه[1]، وعاد الرسول بجواب الرسالة، التي عرفنا أنَّها كانت بالمُوافقة نتيجة للأحداث اللاحقة. كما قام الملك المُعظَّم بمُراسلة الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، وطلب منه التحالف ضدَّ الملك الأشرف، فوافق، واتَّفقا على ذلك[2].

واتَّفق الملك المُعظَّم مع أكبر قُوَّة خارجية كانت تلوح في الأُفُق الشمالي الشرقي وهي الدولة الخَوَارزميَّة، فقد راسل السُّلطان جلال الدِّين، وحالفه، ونتيجة للخوف من قُدُوم جلال الدِّين إلى المنطقة تحرَّكت القُوَّة الخارجيَّة الثَّانية، وهي دولة سلاجقة الرُّوم، فحالف سُلطانها كَيْقُبَاذ الملك الأشرف[3].

واتَّضح في المنطقة معالم حلفَيْن كبيرَيْن، الأوَّل: دبَّره ورتَّبه الملك المُعظَّم، وأكبر قُوَّة فيه الدولة الخَوَارزميَّة، ومعهم مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، والمسعود صاحب آمد والمُظفَّر غازي صاحب خِلاط.

أمَّا الحلف الثَّاني؛ فهُو حلف انتظم فيه مُعارضو الحلف الأوَّل، وفيه ـ حُكْماً ـ الملك الكامل وأخاه الملك الأشرف، وحليف الملك الأشرف القديم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، وانضمَّ إليهم كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم.

بدأ التحرُّك العملي لحلف الملك المُعظَّم، بإعلان المُظفَّر شهاب الدِّين غازي العصيان على أخيه الملك الأشرف في خِلاط، فسار إليه الملك الأشرف، وحاصره، وأنزله من قلعتها بالأمان، فاستردَّها منه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط[4].

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 124، ـ الرسول هُو الشّرف بن عنين الشاعر المعروف بالهَجَّاء الدمشقي.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203
4 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 273، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 134، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 138، ـ حيثُ يقول ابن واصل: "وهذه مكرمة للبيت الأيُّوبي، لم يكن مثلها لأحد من المُلُوك قبلهم، وخُصُوصاً آل سلجوق، فإذا ظفر أحد منهم بأخيه أو ابن عمِّه الخارج عليه، إمَّا أن يوسطه بالسيف، أو يخنقه بوتر القوس، وأحسن أحواله أن يعتقله، ويُضيِّق عليه، إلى أن يموت كمداً".

أمَّا مُظفَّر الدِّين كوكبري؛ فقد سار من إربل بجُيُوشه، وألقى الحصار على المَوصل، وكان فيها بدر الدِّين لُؤلُؤ حليف الملك الأشرف[1]، ومُعظم جنده في نجدة الملك الأشرف الذي كان يُحاصر أخاه المُظفَّر في خِلاط، فحاصر كوكبري المَوصل عشرة أيَّام، ثُمَّ رحل عنها، بعد أن علم بسُقُوط خِلاط بيد الملك الأشرف[2].

أمَّا الملك المُعظَّم؛ فقد وصله رسول كوكبري بخُرُوجه إلى المَوصل، وُفقاً للاتِّفاق، طالباً منه التحرُّك لأخذ مُدُن الشَّام، فقاد الملكُ المُعظَّمُ جيشَهُ، وتوجَّه إلى حمص، وكانت في غاية القُوَّة، فلم ينل منها طائل[3]، وأوعز الملك الأشرف إلى حليفه الرُّومي كَيْقُبَاذ ليتحرَّك صوب آمد، ويُحاصرها، فَسَيَّرَ كَيْقُبَاذ صوبها عسكرَهُ، فاحتلُّوا قلعة الكختا[4]، فراسلَ صاحبُ آمد الملكَ الأشرف، وأعلنَ الطاعةَ، وللمرَّة الثَّانية؛ يعود صاحب آمد عن مواقفه، فطلب الملك الأشرف من علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الكفّ عن آمد ورد ما أخذ منها، فرفض، وأدَّى الأمر إلى اشتباك بين عساكر الملك الأشرف القادمين لنجدة آمد وعساكر كَيْقُبَاذ، فانتصرت عسكر سلاجقة الرُّوم، واحتلُّوا حصناً جديداً لآمد هُو حصن منصُور[5].

وبالمُقابل؛ طلب الملك المُعظَّم من حليفه الخوارزمي مُهاجمة خِلاط، فحاصرها الخوارزمي أربعين يوماً. ولمَّا قصد الملكُ الأشرفُ الملكَ المُعظَّمَ، والتقاه في دمشق، أرسل الملكُ المُعظَّمُ إلى الخوارزمي يطلب منه ترك حصار خِلاط، فأجابه، ورحل عنها[6]. فلماذا لم يوافق الرُّومي حليفه الملك الأشرف، ولم يرحل عن آمد، بينما وافق الخوارزمي على طلب حليفه الملك المُعظَّم، ورحل عن خِلاط ؟!

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 134.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.
4 - قلعة الكختا: من بلاد الجزيرة كانت تتبع آمد، وهي قلعة عالية البناء لها بساتين ونهر، تبعد عن ملطية مسيرة يومَيْن. (تقويم البُلدان، أبو الفداء، 263).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203، ـ حصن منصُور: من ثُغُور الجزيرة، يحاذي الفُرات، وينحدر النهر الأزرق من شماله الغربي. (بُلدان الخلافة الشَّرْقيَّة، كي لسترانج، ترجمة: بشير فرنسيس، 215).
6 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 284، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 136، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 661.

إن الرُّومي كان يُحقِّق انتصارات، ويستولي على حُصُون، في ظلٍّ وضع مثالي من الفوضى في الجزيرة، وتضارب المصالح، التي صبَّتْ كُلُّها ضمن سياسته التوسُّعية في الجزيرة، كما كان يُدرك - تماماً - ضعف الملك الأشرف عن مُواجهته، وخاصَّة بعد أن توزَّعت قُوَّاته ما بين الجزيرة؛ حيثُ ثبَّت هُجُوم الخوارزمي قُوَّاتِ الملك الأشرف في خِلاط، وبين حماية حمص وحماة من هُجُوم الملك المُعظَّم عليهما[1].

بينما نجد أن الخوارزمي قد قبل لأنَّه واجه مصاعب كبيرة في خِلاط، فرغم دُخُوله ربض البلدة، فقد واجهتْهُ مُقاومة عنيفة، كلَّفتْهُ خسائر كبيرة، هُو في غنى عنها[2]، كما أنَّه كان غير مُطمئنٍّ لخُطُوطه الخلفية، فخلفه التَّتار في الشَّرق،وهُو يُريد أن يتفرَّغ لهم بأقصى سُرعة، لذلك؛ اغتنم طلب الملك المُعظَّم، ورحل ببعض الكرامة من أمام خِلاط.

نتيجة لتعقُّد الوضع السِّياسي والعسكري في شمال الشَّام اتَّفق الملك الأشرف والملك المُعظَّم على اللقاء، وأن "يرحل كُلٌّ منهما عن الموضع الذي يُحاصره"، فالتقيا في القريتَيْن، وسار الملك الأشرف مع الملك المُعظَّم حتَّى دخلا دمشق[3].

ويبدو من هذه الأحداث وتطوُّراتها أن الملك الأشرف هُو صاحب فكرة الاجتماع " قصداً لقطع مادَّة الشَّرِّ "[4]، وهُو الذي سار إلى الملك المُعظَّم، وذهب معه إلى عاصمته دمشق، وأظهر الملكُ المُعظَّمُ السرورَ بذلك، وزيَّن البلد[5]، ولكنْ؛ هل هُو مسرور بلقاء أخيه؟ أم بحُصُوله عليه كالأسير بأيسر الطُّرُق؟ " فحاله في الباطن بخلاف ما أظهر، والرُّسُل مُتردِّدة بينه وبين خوارزم شاه .... وصار بينهما اتِّحاد كُلِّيٌّ "[6]، وفي عام 623 هـ 1226م "كان الملك الأشرف في دمشق كالأسير...

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 461.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125، - القريتَيْن: بلدة في البادية جنوب شرقي حمص.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

فوردت الأخبار بنُزُول خوارزم شاه على خِلاط، ومُحاصرتها... فوافق الملكُ الأشرفُ أخاه على ما طلبه منه" [1]، فأطلقه، وعاد الملك الأشرف للجزيرة.

المرحلة الرابعة:

بدأت بوفاة المُعظَّم عام 624 هـ 1227م، وأَخْذ الأشرف دمشق، وتسليمه بعض مُدُن الجزيرة للكامل عام 626 هـ 1229م. لم يكن النَّاصر داود بن المُعظَّم يملك مُؤهِّلات والده، فبعد أن خلفه في حُكْم مملكة دمشق، عرض عليه الأشرف الانضمام إلى حلف الشَّام ضدَّ الكامل، فأبى، وانحاز إلى الكامل[2]. لكنَّ الكامل كشف سريعاً عن أطماعه بدمشق، وسار نحوها عام 625 هـ 1228م، فاستنجد داود بعمِّه الأشرف، فسارع إليه مع المُجاهد، ولكنَّهما بدل دُخُول دمشق، أو الإقامة حولها للدفاع عنها، التقيا الكامل، وعقدا مؤتمر العوجا، الذي تقرَّر فيه نزع دمشق من داود، وتسليمها للأشرف، مُقابل تسليم الأشرف للكامل عدَّة بُلدان في الجزيرة، منها: الرقَّة، والرُّهَا، وغيرها[3].

وتمتاز هذه المرحلة بنزوع الأشرف إلى حياة الترف والدعة بدمشق، وتحوُّل القُوَّة الكُبْرَى في الجزيرة من الأشرف إلى الكامل، الذي كانت مُشكلته مع الجزيرة هي مُشكلة المسافة والبُعْد عنها، وغالباً ما كانت تسبقه الأحداث إليها.

وكان الكامل قد أرسل إلى فريدريك يعده بالقُدْس إن حضر لنصرته ضدَّ أخيه الملك المُعظَّم، ولكن أيَّام الملك المُعظَّم لم تطلْ، فقد تُوفِّي عام 624 هـ 1227م، وخلفه ولده النَّاصر داود في دمشق، ممَّا سهل مهمَّة الملك الأشرف والكامل في أَخْذ مملكته. ففي سنة 625 هـ 1228م، تحرَّك الكامل من مصر "وأرسل داود يستدعي الملك الأشرف من بلاده الشَّرْقيَّة.... ودخل الملكُ الأشرفُ دمشقَ، فأُعجب بها، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه"[4]، بينما وثق داود بالملك الأشرف، "لمَّا خدعه بعذوبة لسانه، فَسَيَّره إلى الملك الكامل، معتمداً في إصلاح أُمُوره عليه، فلم يألُ جهداً أن ساق

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 661.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 125.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 350.

الحصار"[1]. ورُبَّما كان الأمر قد تقرَّر مُسبقاً بين الملك الأشرف والكامل، وأرادا تطبيقه ضدَّ الملك المُعظَّم، فلمّا مات، طبَّقاه ضدَّ ابنه داود، فأخذا منه دمشقَ، ونَفَّذا الاتِّفاق.

وفي عام **626 هـ 1229م**، تسلَّم الملكُ الأشرفُ دمشقَ، وأعطى للكامل - عوضاً عنها - حَرَّان، والرُّهَا، ورأس عين، والرقَّة، والموزر، وبذلك؛ دخل الكاملُ عالمَ الجزيرة الشَّاميَّة من أوسع أبوابه، وأصبح القُوَّة السِّياسيَّة والعسكريَّة الأكبر في البلاد الجزرية، بعد أن تخلَّى الملك الأشرف له عن مواقعه بها. ويبدو أن الملك الأشرف "اقتنع بدمشق، واشتغل باللهو والملاذ "[2]، وأهمل أُمُور الجزيرة، ولكن الغريب في الأمر أنَّه - في الوقت نفسه - أخذ موقع زلبيا من أخيه الحافظ، وأمر بعمارة قلعة فيه[3]. فهل هي مُحاولة من الملك الأشرف لإثبات الوُجُود في الجزيرة؟!

كان أوَّل مَنْ أسفر عن مطامعه في الجزيرة بعد تبدُّل الأوضاع فيها هُو جلال الدِّين الخوارزمي، فقد هاجم خِلاط، وحاصرها، وحالف الخوارزميَّ، وأنجده، وهُو على حصار خِلاط، كُلّ من صاحب سرماري، وصاحب أرزن الرُّوم[4]. وطال حصار الخوارزمي لِخلاط دُون أن يتحرَّك الملك الأشرف لنجدتها، رُبَّما لأنَّه مشغول بتقرير أمر دمشق، وتأمين ما حولها، ففي الوقت الذي كان فيه الخوارزمي يُحاصر خِلاط كان الملك الأشرف يُحاصر بعلبك[5]، أو - رُبَّما - لأنَّه يعرف مُسبقاً أن لا طاقة له بالخوارزمي دُون تحالف قوي يدعمه، وهذا التحالف لم يتمكَّن من تحقيقه بسُرعة، وإلَّا فكيف نُفسِّر تخلِّيه عن خِلاط المدينة الغنية ذات الموقع الاستراتيجي؟!

وفي عام **627 هـ 1230م**، تمكَّن خوارزم شاه من دُخُول خِلاط بخيانة من القائد المُكلَّف بحراسة أحد الأبواب[6]، ولحنقه من المُقاومة الشرسة التي واجهته "فعل بأهلها ما يفعله التَّتَر "[7]، "فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد، وسبى عسكرُهُ الحريمَ، وباعوا الأولاد كما يُفعَل بالكَفَرَة"[8].

---

1 - الفوائد الجلية، الأمجد حسين بن داود، 219.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 189، حوادث عام 626/ هـ.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 83.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 189.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 294.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 294.

"وبلغ الملك الأشرف أَخْذ الخوارزمي خِلاط، وهُو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتى الرقَّة"، "ثُمَّ سار إلى حَرَّان، وكتب إلى حلب والمَوصل والجزيرة، فجاءته العساكر، ورحل يُريد الرُّوم"[1]، ويبدو أن هذا الدُّخُول القوي لخوارزم شاه إلى مسرح الجزيرة قد أزعج كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، فخلاط مفتاح بلاده[2]. ورُبَّما بسعي من كَيْقُبَاذ ورغبة من الملك الأشرف جَمَعَا جيشاهما، بعد أن وحَّد الخطر المُشترك بينهما[3]، وتمكَّنا من هزيمة جلال الدِّين، واسترجع الملك الأشرف خِلاط[4] عام **628 هـ 1231م** "وهي خراب يباب، ثُمَّ وقعت المُراسلة بينهم، وتحالفوا على ما بأيديهم، ولا يتعرَّض أحدهم لما بيد الآخر"[5].

ومع أن الكامل كان في الرقَّة فإنَّه لم يُشارك في الحَرْب مع الملك الأشرف ضدَّ الخوارزمي، فهل ذلك لمُجرَّد أن خِلاط من أملاك الملك الأشرف؟ وكأن خطر الخوارزمي لن يتعدَّى خِلاط إلى مُمتلكاته في الجزيرة، فقد "رجع الكامل قاصداً مصر "[6]، بلا مُبالاة، وكأن أمر الجزيرة لا يعنيه أبداً.

وبعد استرجاع خِلاط، وكفّ شرّ الخوارزمي بالاتِّفاق معه، والحلف القديم مع الرُّومي، وجد الملك الأشرف أن الوقت قد صفا له، فتخلَّى عن الجزيرة ومشاكلها للكامل، وتفرَّغ للهوه وملذَّاته بدمشق[7]، مُفسحاً المجال لأخيه الكامل للتحرُّك في الشَّام والجزيرة، ومُحاولة تحقيق مشروعه الكبير بضَمِّ الشَّام إلى مصر، وتشكيل مملكة واحدة منها تحت حُكْمه.

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 299.
2 - The Encyclopedia of Islam, vol: IV, p 817
3 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p 128
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 159.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

المبحث الثَّالث

الملك الكامل في الجزيرة

انقسم عهد السُّلطان الكامل في الجزيرة الشَّاميَّة إلى قسمَيْن:

1. مرحلة الوفاق الأيُّوبي والاعتراف بسلطنة الكامل:

بعد أن أخذ الكامل دمشق عام **626** هـ **1229** م، من ابن أخيه النَّاصر داود، سلَّمها لأخيه الأشرف، الذي أعطاه بدلاً عنها عدَّة مناطق في الجزيرة، منها: حَرَّان، والرقَّة، والرُّها، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر[1].

"وبقي للأشرف من البلاد الشَّرْقيَّة: نصيبين، وسنجار، والخابور، وبلاد خِلاط. وكانت مَيَّافارقين بيد المُظفَّر شهاب الدِّين غازي أخيهما، وجعبر بيد أخيهما الآخر الحافظ أرسلان شاه"[2]. وَسَيَّرَ الكاملُ شمسُ الدِّين صوابَ الخادمَ[3]، وفخرَ الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ إلى الجزيرة، يتسلَّمانها من الملك الحافظ، ومن بدر الدِّين قايبا[4]، وكانا ينوبان عن الأشرف فيها.

ولم تمتدّ مُمتلكات الكامل من مصر حتَّى الجزيرة وحسب، بل اعترف به جميع مُلُوك بني أيُّوب سُلطاناً أعظم عليهم، ومرجعاً للبيت الأيُّوبي دُون أن يخرج أيٌّ منهم عن طاعته، وتحقَّق بذلك القسم الأوَّل من مشروع الكامل، وهُو ضَمُّ الشَّام إلى مصر تحت حُكْمه، وهذا الحُلم كان يراود كُلَّ مَنْ شعر بتفوُّقه من مُلُوك بني أيُّوب.

ولتحقيق كامل المشروع تحرَّك الكامل بقُوَّاته من مصر عام **629** هـ **1231**م، بعد أن مهَّد لنجاح مشروعه بسلسلة من المُصاهرات، ربط بها مَنْ يخشى معارضتهم من المُلُوك الأيُّوبيَّة، فقد زوَّج ابنتَهُ فاطمة خاتون من الملك العزيز صاحب حلب[5]، كما زوَّج الكاملُ ابنتَهُ الأُخرى غازية خاتون

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 257.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 257.
3 - الخادم شمس الدِّين صواب العادلي، من كبار مماليك السُّلطان العادل، تُوفِّي عام: 632 هـ 1243م (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 287).
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 177.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

من الملك المُظفَّر صاحب حماة، وفي طريقه مرَّ بالكرك، فعقد لصاحبها ابن أخيه النَّاصر داود بن المُعظَّم على ابنته الثَّالثة عاشورا خاتون. وغطَّى الكامل تحرُّكه العسكري بإظهار هدف يُمكن قبوله في الشَّام، ويُسوِّغ به خُرُوجه بهذه القُوَّة، فقد أعلن أنَّه يُريد انتزاع آمد[1] من يد ملكها المسعود بن الصَّالح محمود.

وكانت آمد مع قُوَّة حُصُونها لا تستحقُّ هذا الجمع العسكري الهائل الذي وصل مع الكامل، والذي قال عنه ابن واصل في أحداث عام **631** هـ **1234**م، ما يلي: "شاهدت من العساكر وكثرتها ما غلب على ظني إنَّه لم يجتمع مثله في الأعصار القريبة منَّا لملك من المُلُوك"[2].

وأثبت صاحب آمد في المحنة التي تعرَّض لها مع الكامل أنَّه غير جدير، لا بالحُكم، ولا بالقيادة، فمع سماعه بتوجُّه مُلُوك بني أيُّوب مُجتمعين مع الكامل ضدَّه، وعزمهم على خلعه، أرسل وزيره شرف العلاء بهدايا للكامل والأشرف في حَرَّان، فاعتُقِل الوزير، والمسعود صاحب آمد لا يحترز، ولا يستعدّ[3].

وينتقد ابن نظيف تصرُّف صاحب آمد الذي لم يُقدِّر حجم الخطر القادم نحوه، فقد أرسل رسولاً إلى الملك المُجاهد ليتوسَّط له عند الكامل، "ولم يبذل إلَّا ذهباً، ولا طلب بعض البلاد، ولا نزل عن شيء . . ولم يزل في قلَّة عقله"[4].

وحاصر الكاملُ مدينةَ آمد بقُوَّات هائلة الحجم والفعَّالية، وهاجمتْها العساكر، ونقبت الأسوار، فطلب أهلُهَا الأمان، فأجابهم الكامل[5]. ونزل صاحبها إلى الكامل، فاعتقله وسجنه في حصن كيفا[6].

1- تنبع أهمِّيَّة آمد من كونها محطَّة تجارية بالغة الأهمِّيَّة بين ثلاث دُول: السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الجزيرة والشَّام، وسلطنة سلاجقة الرزم في الأناضول، ومملكة أرمينيا الصُّغرَى في كيليكيا. ـ راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 460، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 10 / 44.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 74.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 236.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 237.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 237.
6 - ابن دقماق، نُزهة الأنام، أحداث عام 623 هـ مخطوط (المنصُوري، ابن نظيف، 238 ـ 244).

وسلَّم الكاملُ آمدَ لابنه الصَّالح أيُّوب ليكون نائباً عنه فيها[1]، "ورتَّب معه الطواشي شمس الدِّين صواب العادلي، لأنَّه كان من أكبر الخدم العادلية، وأوثقهم عنده، وجعل إليه النقض والإبرام في جميع الأُمُور، والملك الصَّالح معه صُورة"[2]، وقصد ـ بذلك ـ إبعاد أيُّوب عن القاهرة، حيث ترك الكاملُ ابنَهُ الآخر العادل نائباً فيها، ووَليّاً للعهد. وتابع الكاملُ تسلُّمَ القلاع حول آمد3، فصبح بمُواجهة مُباشرة مع سُلطان سلاجقة الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ بن كيخسرو، وكان الصدام بينهما لا يحتاج لأكثر ممَّا هُو قائم فعلاً، فالحُدُود المُشتركة بينهما طويلة ومتداخلة، وفي الحقيقة؛ لم تكن هُناك حُدُود واضحة المعالم، وبالتَّأكيد؛ كان كُلٌّ منهما يُفسِّر هذا الوضع لصالحه، إنْ لم نقل إنَّ كُلاًّ منهما كانت لديه رغبة كبيرة لتعديلها لصالحه، وتبيَّن أن لكُلٍّ منهما مشاريعه الخاصَّة في مملكة الآخر، فالرُّومي كان لا يخفي اهتمامه بالسيطرة على مناطق الفُرات شريان الحياة بين الجزيرة والشَّام، والكامل تكشَّفت مُخطَّطاته لاحتلال بلاد الرُّوم بسُرعة[4].

وكانت المُبادرة الأُولى من كَيْقُبَاذ، الذي اغتنم فُرصة هُجُوم الكامل، وقام باحتلال عدَّة قلاع كانت تتبع لآمد، منها: كركر، وكرفازاك، والسويداء، شراءاً من مُتسلِّميها، فتضاعفت نقمة الكامل على الرُّومي، الذي أحنقه ـ أيضاً ـ بمنعه التُّركمان عن القُدُوم لبيع الميرة لعسكره[5].

وهُنا؛ يُقرِّر الكامل تنفيذ الجُزء الثَّاني من مشروعه الكبير، والهُجُوم على دولة سلاجقة الرُّوم واحتلالها، لنقل إقطاعات مُلُوك الشَّام الأيُّوبيَّة إليها، وضمّ الشَّام ـ بشكل كامل ـ إلى مصر بدولة واحدة، وملك واحد. لكنْ؛ يبدو أن حسابات الكامل كانت غير دقيقة، فإمَّا أنَّه قد بالغ في ثقته بنفسه، بالسيطرة الكاملة على المُلُوك الأيُّوبيَّة، الذين رُبَّما خدعه منهم التفافهم حوله، وتنفيذهم لأوامره، أو سُوء تقديره لقُوَّة خصمه الرُّومي، وبالأخصّ؛ لطبيعة بلاده، وحصانتها، واتِّساعها. ومع أن كُلّ مُلُوك بني أيُّوب قاطبة كانوا مع عساكرهم في خدمته، ولم يتخلَّف منهم سوى العزيز بن

1 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 18، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.
3 - قلاع آمد هي: الجبابرة ـ أكل ـ كركر ـ حصن كيفا ـ كرفازاك ـ قلعة نجم ـ الهيثم ـ باتاسا ـ الجديدة ـ القرشية. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17 و4/ 277).
4 - راجعْ: السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي علاء الدِّين قيقباذ، نورة باذياب، مجلَّة المُؤرِّخ العَرَبي، 1 / 2.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 240 ـ 242.

الظَّاهر غازي صاحب حلب، وذلك لتحالفه وعلاقته المُميَّزة وجيرته بحُدُود مُشتركة طويلة مع صاحب الرُّوم، ومع ذلك؛ فقد أرسل قطعة من عسكره نجدة للكامل[1].

وكذلك تخلَّف صاحب بانياس، فقد تُوفِّي العزيز بن العادل صاحبها عام 630 هـ ـ 1233م، وخلفه ولده الظَّاهر، ثُمَّ مالبث أن تُوفِّي، فخلفه أخوه السعيد ابن العزيز،وهُو طفل[2].

وحضر مع السُّلطان الملك الكامل أخوه الملك الأشرف، فقد كانت هذه الحَرْب بالاتِّفاق معه أوَّلاً، ولتعرُّض الرُّومي لمدينة خِلاط وهي للأشرف. وكذلك كان معه الملك النَّاصر داود بن المُعظَّم صاحب الكَرَك، والملك المُجاهد صاحب حمص، والملك المُظفَّر صاحب حماة، كذلك كان مع الكامل كُلٌّ من إخوته: الملك الصَّالح عماد الدِّين إسماعيل، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، وكذلك كان مع الكامل الملك الزاهر مجد الدِّين بن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب البيرة، وأخوه الملك المُفضَّل موسى صاحب سُمَيساط، وابن أخيهما الملك الصَّالح أحمد بن الظَّاهر صاحب عين تاب، وغيرهم، حتَّى قيل: "إنَّه كان في مُعسكر الكامل ستَّة عشر دهليزاً لستَّة عشر ملكاً"[3].

2. مرحلة الانقسام الأيُّوبي، وحلف الشَّام ضدَّ السُّلطان الكامل:

لكنَّ كُلَّ ذلك لم يغن الكامل شيئاً، فيروي لنا الأمجد حسن بن الملك النَّاصر داود ما حصل بين المُلُوك الأيُّوبيَّة، يقول: "إلَّا أن الكامل ـ فيما بلغني ـ كان قد تفوَّه بما وغر صدور أهله عليه، وسدَّد سهامهم بالتخاذل إليه، وذلك إنَّه قال: أريد أن أجعل البلاد سفقتَيْن، فأضمّ الشَّام إلى مصر، وأُعوِّض مُلُوكه في الرُّوم، فحَذِر كُلّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حتفه بظلفه. فخَبِرت أن المُجاهد انتصب لهذه القضية، فكان ابن بجدتها وشيخ نجدتها، فاجتمع بوالدي وبالملك الأشرف وجماعة من المُلُوك مُقدَّمي النُّجُد، فحذرهم عاقبة التغرير، وقرَّر معهم أن الحزم كُلّ الحزم في التلكُّؤ والتقصير. فتنسَّم الملكُ الكاملُ الأخبارَ، وطار تخيُّله منهم كُلّ مطار"[4].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 76.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75 ـ 76.
4 - الفوائد الجلية، الأمجد حسن بن داود، 218.

ويروي المقريزي الواقعة نفسها، فيقول: "واتَّفق نفور بني أيُّوب من الملك الكامل، سبب أنَّه حفظ عنه أنَّه قال لخواصِّه: إنْ صار لنا مُلك الرُّوم نُعوِّض مُلُوك الشَّام والشرق مملكة الرُّوم بدل ما بأيديهم، ونجعل الشَّام والشرق مضافاً إلى ملك مصر. فحَذَّر من ذلك المُجاهد، وأعلم به الأشرف، وأحضر بني عمِّه وأقاربه، وأعلمهم ذلك، فاتَّفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السُّلطان علاء الدِّين بالميل معه، وخذلان الكامل، وسيَّروا الكُتُبَ بذلك، فاتَّفق وُقُوعها في يد الملك الكامل، فَكَتَمَهَا، ورحل راجعاً"[1].

ونستنتج من النصَّيْن السابقَيْن أن:

1 ـ اتِّفاق النُّصُوص على أن الكامل صرَّح عن مشروعه بضمِّ الجزيرة والشَّام إلى مصر.

2 ـ أنَّه يُريد تعويض المُلُوك من آل بيته بدل ممالكهم في الجزيرة والشَّام بممالك وإقطاعات في بلاد الرُّوم.

3 ـ الملك المُجاهد هُو مَنْ قام بإبلاغ المُلُوك الأيُّوبيَّة بمشروع الكامل.

4 ـ مُوافقة جميع المُلُوك الأيُّوبيَّة على التحالف ضدَّ الكامل ما عدا الملك المُظفَّر صاحب حماة، الذي انتظم في حلفهم ظاهراً، وكان في باطنه مع الكامل[2]. وكان لدى بعضهم دوافع ومبرِّرات للوُقُوف في وجه السُّلطان الكامل، فمثلاً:

أ ـ الملك النَّاصر داود كان ينقم على الجميع سلب دمشق منه، وقد جاءته فُرصة مُواتية للانتقام من مُلُوك بني أيُّوب، فعمل على تفريق كلمتهم.

ب ـ الملك الأشرف كان قد طلب من الكامل الرقَّة لنقص موارده، فلم يجبه، وتَقَوَّل كُلٌّ منهما على الآخر، فحملها الأشرف على الكامل[3].

أمَّا الآخرون؛ فلا مبرِّرات لهم، خاصَّة شيخهم ومُحرِّكهم الفاعل الملك المُجاهد، فقد حصل من الكامل على سلمية، وهي حُلمه القديم.

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 316.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 316.

5 ـ الدور الفعَّال للملك للمُجاهد[1] في هذه القضية، الذي تتَّضح لنا أهمِّيَّته من خلال التساؤلات التي تنشأ عن الخبر الذي نقله، وهي:

أ ـ هل قال الكامل ذلك القول فعلاً؟ عندها نستنتج أن المُجاهد قد وضع الكامل تحت مراقبته الشديدة، وأن له عُيُوناً وآذاناً في حاشية الكامل، وذلك انطلاقاً من طبيعة تكوين المُجاهد، الذي اعتاد الحذر والشكَّ.

ب ـ قد يكون الكامل لم يقلْ ذلك الكلام، وهذا احتمال وارد، فالمُجاهد وحده هُو مصدر الحديث، عندها يُمكن أن نقول إن المُجاهد قد اختلق الحكاية بكاملها لضرب الكامل، الذي تزايدت قُوَّته لحَدِّ الخطر، وبات مُتحكِّماً في مُلُوك الشَّام.

لكنَّ قبول مُلُوك البيت الأيُّوبي لأقوال المُجاهد فوراً وبلا مناقشة، وفيهم أخوة الكامل، يدلُّ إمَّا على الثقة الزائدة بالمُجاهد، وهذا احتمال ضعيف فيما بين أفراد البيت، الذين اعتادوا عدم الثقة بأحد، وخاصَّة الأقرباء، أو على أن نيَّاتهم جميعاً كانت مُتَّفقة على التخوُّف من الكامل وقُوَّته.

ولدينا رواية تُؤكِّد هذا الاحتمال، وتُبيِّن أن المُجاهد قد توقَّع ذلك، دُون أن ينسبه للكامل، فقد ذُكر أن المُجاهد قال للأشرف: "إنْ حَكَمَ الكامل على الرُّوم أخذ جميع ما بأيدينا"[2]، أو أنَّه قال له: "متى أخذ الرُّوم تعبنا به، وبقينا بين يدَيْه يُقلِّبنا كيف شاء"[3].

6 ـ علم السُّلطان الكامل باتِّفاق المُلُوك عليه مُباشرة، إنْ كان بوُقُوع الكُتُب بين يدَيْه، وهذا احتمال ضعيف، أو بواسطة عُيُونه في بلاطات مُلُوك آل بيته، فهذا يدلُّ على تبادل عدم الثقة بينهم، ووضع العُيُون والجواسيس لتنسُّم الأخبار خشية الغدر.

توقَّف السُّلطان الكامل على النهر الأزرق في أوائل بلد الرُّوم أمام الدربند، وبدأت المصاعب تواجهه، ومنها:

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 282.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 122، وكنز الدُّرِّ، ابن آيبك، 7/ 318.

1 ـ وجد أن الرُّومي قد سدَّ في وجهه الدربند، وهُو الممرُّ الوحيد لبلاد الرُّوم، بالتحصينات والحراسة المُحكمة.

2 ـ أُجبر على أن يعسكر في رُقعة ضيِّقة من الأرض، ممَّا أدَّى إلى "قلَّة الأقوات في عسكر الكامل"، وارتفعت الأسعار، فكان الجُندي مُضطرّاً لأن يصرف أكثر ممَّا يكسب، وبالتَّالي؛ يبدأ بالتذمُّر، وإثارة الفوضى.

3 ـ أحسَّ السُّلطان الكامل بتخاذل مُلُوك الأيُّوبيَّة من حوله، وهذا مُثير للرُّعب؛ حيثُ يُمكن أن يُؤتَى من مأمنه، ويُمكن لإخوته وأبناء عمومته أن يكونوا أكبر خطراً من الأعداء عليه.

ويبدو أن السُّلطان الكامل قد شعر باختلاط الأوراق، بعد علمه بانتشار إشاعة نقل المُلُوك الأيُّوبيَّة إلى أرض الرُّوم بعد أَخْذها، وأيقن أن مشروعه بات في مهبِّ الريح، فقرَّر العمل بسُرعة، فرحل نحو أطراف بَهَسْنَا. وجاءته مشورة صاحب خرتبرت كَحَلٍّ مُنقذ عندما عرض عليه دُخُول بلد الرُّوم من جهة بلده، ويبدو أن الكامل ـ بعد أن أصبحت لديه معطيات جديدة حول فساد نيَّة مَنْ معه من المُلُوك ـ لم يعد قادراً على المُجازفة ودُخُول بلاد الرُّوم بنفسه، كذلك لم يردْ أن يُرسل أيّاً من المُلُوك غير الموثوق بولائهم له، بمَنْ فيهم إخوته، ونظراً لثقته بالمُظفَّر صاحب حماة، فقد أمره بالتحرُّك مع ميمنة الجيش إلى بلد الرُّوم عبر خرتبرت، وأرسل معه مملوك والده ورجله الأوَّل شمس الدِّين صواب العادلي، ونخبة أُمراء الجيش المصري كقُوَّة مُتقدِّمة تتألَّف من خمسة وعشرين ألف فارس، وبالتَّأكيد؛ فإن السُّلطان كان ينوي أن يلحق بهذه القُوَّة ومعه كامل الجيش إذا حقَّقت النجاح.

وفي الحقيقة؛ فإن ما تمَّ هُو خُطَّة عسكريَّة جيِّدة، تُؤمِّن دُخُول عمق الرُّوم بقُوَّة استطلاع قتالية، تلتفُّ خلف تحصينات الرُّومي في الدربند، وتُفاجئه، لكنْ؛ يبدو أن سُوء النيات بين القادة أدَّى إلى تسرُّب أخبار القُوَّة المُهاجمة، إن لم نقل إن الأخبار وصلت عبر كُتُب المُلُوك الأيُّوبيَّة إلى الرُّومي، مع طلبهم التحالف معه ضدَّ الكامل[1]، فقد انقضَّ اثنا عشر ألف فارس من عسكر الرُّوم على فرقة المُظفَّر، واضطرُّوهم إلى اللُّجُوء إلى قلعة خرتبرت، بعد أسر عدد كبير منهم.

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369.

ثُمَّ وصل علاء الدِّين بقُوَّاته، وحاصر قلعة خرتبرت مُدَّة أربعة وعشرين يوماً، لم يجرؤ خلالها السُّلطان الكامل على إنجاد القلعة، أو الهُجُوم على قُوَّات الرُّومي لفكِّ الحصار عن المُظفَّر، بل فضَّل السُّلطان الكامل تركَهُ لمصيره، بدلاً من أن يُغامر بمصيره هُو بين فكَّيْ كمّاشة المتآمرين عليه، الذين "تقاعدوا عن القتال، وفسدت نيَّاتهم" من أهل بيته، وبين عدوِّه القوي الشرس علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، "فما أمكنه التحرُّك لقتال كَيْقُبَاذ وفكّ الحصار عن المُظفَّر في خرتبرت"[1]. وكانت الخسارة الكُبْرَى لصاحب خرتبرت، فقد طلب المُظفَّر الأمان، فأُمِّن، وخرج، وتسلَّم علاءُ الدِّين القلعةَ والقلاعَ السبعة التي حولها، وأنهى حُكْمَ الفرع الأرتقي فيها[2]. وتراجع الكامل لأنَّه "لم يرَ المقارعة بأنصار قد تفرَّقت عزماتهم"[3]، ولم يستطع الكامل فعل شيء مع الملك المُجاهد المُدبِّر الحقيقي للتحرُّك ضدَّه، ولا مع الأشرف أقوى مُلُوك الشَّام، فصبَّ جام غضبه على النَّاصر داود، ويصف ذلك الأمجد بن النَّاصر داود بقوله: "ورتَّب فوات تلك المملكة على سعي والدي، فعدَّه عليه أكبر ذنب، فلمَّا فارقه من دمشق آذنه بحرب"[4]، وألزمه بطلاق ابنته عاشوراء، فطلَّقها[5].

وبدا على الساحة وكأن الأُمُور قد انعكست على سعي الكامل، الذي خرج يطلب بلاد الرُّوم ومعه كل مُلُوك بيته، فعاد، وقد انقلبوا عليه جميعاً، وأرسلوا يطلبون منه عدم الخُرُوج إلى الشَّام[6]، ولأن خيوط اللعبة السِّياسيَّة منوطة بشخص الملك في الدُّول الأيُّوبيَّة، فقد كانت تتداخل الأُمُور، وقد يحدث انهيار سياسي وعسكري بحال وفاة الملك، فلا تُوجد مُؤسَّسات سياسيَّة أو عسكريَّة تتابع نهج الملك، الذي كان كخيط السبحة الذي ينظم حبَّاتها، فإذا انقطع تبعثرت، وهذا ما حدث في الشَّام عندما تُوفِّي الملك الأشرف بدمشق عام **635 هـ 1238**م[7].

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 155.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 77/ 81، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 162، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131.
3 - الفوائد الجلية، الأمجد بن داود، 219.
4 - الفوائد الجلية، الأمجد بن داود، 219.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 317.
7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 165.

الفصل الثالث

العلاقات الأيُّوبيّة مع مُلوك الأطراف

المبحث الأوّل

العلاقات الأيُّوبيّة مع الأراتقة

كانت الإمارة الأرتقيّة قد انقسمت إلى فرعَيْن، الفرع الأوّل: في آمد، ومعها حصن كيفا، وكانت السّياسة العامّة لهذا الفرع الأرتقي هي التّحالف مع الأيُّوبيِّيْن. أمّا الفرع الأرتقي الثّاني؛ فكان في ماردين. وكانت مواقف صاحب ماردين ـ على الدّوام ـ مُناهضة للأيُّوبيِّيْن، وهُو مع أيِّ حلف يقوم ضدّهم(1). وكانت هُناك بعض الإمارات الأرتقيّة الصّغيرة مثل السّويداء، ودارا، وهي غير ذات أهمّيّة سياسيّة، أو قُوّة عَسْكَريّة.

1 . ماردين:

تُعدُّ ماردين من أشهر مُدُن الجزيرة، وهي "مبنيّة على جبل كالدَّرَج، بعضه دُون بعض، ولارتفاع البلد ومساكنه لا يعلو فوقه طير، ويُرى السّحاب دُونها"(2)، وبها " قلعة مشهورة على قبّة جبل الجزيرة، مُشرفة على دنيسر، ودارا، ونصيبين"(3).

وقد تملَّك ماردينَ سقمانُ بن أرتق في فترة صراع القادة السّلاجقة على السُّلطة في الجزيرة، وعندما تُوفِّي سقمان عام **498**هـ **1105**م، خلفه ابنه نجم الدِّين إيلغازي، الذي تُوفِّي عام **516**هـ **1122**م. وتولّى بعده ابنه حسام الدِّين تمرتاش، وكان مُعاصراً لنُور الدِّين بن زنكي، ومُحالفاً له، فعندما فتح نُور الدِّين قلعةَ الصَّوَر، سلّمها له. ولمّا تُوفِّي تمرتاش عام **547**هـ **1152**م، خلفه ابنه نجم الدِّين إلبي، ومن بعده؛ تولّى ابنه قُطب الدِّين إيلغازي، الذي تُوفِّي عام **580**هـ، وخلفه ابنه

---

1 - الإمارات الأرتقيّة، عماد الدِّين خليل، 170.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 542.
3 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: ماردين ـ حول وصف المدينة، راجعْ: الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 542 ـ 543.

حسام الدِّين يولق أرسلان وهُو طفل، ولصغر سنِّه كان يتولَّى تدبير دولته نظام الدِّين ألبَقِش، ومعه مملوكه لُؤلُؤ.

في عام **594**هـ **1198**م، أرسل نظام الدِّين البقش[1]، مُدبِّر مملكة حسام الدِّين يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي الأرتقي صاحب ماردين، إلى العادل يستدعيه؛ ليُسلِّمه ماردين، على أنْ يُعوِّضه عنها، فسار العادل بسُرعة نحوها، ولكنَّ نظام الدِّين ندم، ولم يفِ له، فطلب العادلُ النّجدات، فوصله من العزيز في مصر ألف فارس، ومن الظّاهر في حلب خمسمائة، فحاصر العادلُ ماردينَ، واستطاع الاستيلاء على المدينة، وصمدت القلعة[2].

ولوفاة العزيز المُفاجئة ترك العادل ابنه الكامل مُحاصراً قلعة ماردين، وتوجَّه مُسرعاً نحو دمشق[3]، ونتيجة لهذا الوضع؛ وقع الصُّلح بين الأفضل نُور الدِّين صاحب المَوصل وابن عمِّه عماد الدِّين صاحب سنجار، وعزِّ الدِّين صاحب جزيرة ابن عُمر[4]، واتَّفقوا على إنجاد ماردين، وساروا إليها، وهزموا الكامل، الذي رحل عن ماردين، بعد أن كادت تسقط بيده[5].

ولمَّا مات حُسام الدِّين يولق، تولَّى المُلكَ أخاه الأصغر قُطب الدِّين أرسلان، فقتل نظام الدِّين البقش ومملوكه لُؤلُؤ، وانفرد بالحُكْم في ماردين، وأعمالها[6]، حتَّى تُوفِّي عام **601**هـ **1205**م، فتولَّى ابنه المنصور أرتق[7]. وفي سنة **636**هـ **1239**م، اجتمع مماليك أرتق على قَتْل سيِّدهم، فقتلوه وهُو نائم، وولُّوا ابنه الملك السّعيد إيل غازي، وكان محبوساً في قلعة البارعيَّة[8].

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 557.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80، و الرّوضتيْن، أبو شامة، 2/ 234.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 95.
4 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 148.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 102 ، و الباهر، ابن الأثير، 194.
6 - كان يتبع لماردين قلعة البارعيَّة وقلعة الصَّوَر.
7 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 555ـ557.
8 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 558.

2. آمد:

يقول عنها ياقوت: "آمد: بكسر الميم، ما أظنُّها إلَّا لفظة رُوميَّة، بلد قديم حصين، مَبني بالحجارة السُّود على نشز، دجلة تُحيط بأكثره مُستديرة به كالهلال[1].

بعد أن استولى صلاح الدِّين على آمد، سلَّمها إلى صاحب حصن كيفا نُور الدِّين مُحمَّد بن قرا أرسلان، الذي تُوفِّي عام **581** هـ ، فأقرَّ صلاح الدِّين عليها ولده قُطب الدِّين سقمان (**581 – 597** هـ **1185 - 1201**م)[2]. وبعد موت صلاح الدِّين عام **589**هـ **1193**م، قام قُطب الدِّين بإرسال أتابكه الصّلاح قتلغ آبه إلى العادل، يطلب عهداً على آمد، ويخطب إليه ابنته، وكان خائفاً من استرجاع العادل لآمد منه، فهي من الفُتُوح الصّلاحيَّة، وقد وهبها صلاح الدِّين لأبيه نُور الدِّين، فوافق العادل[3]. ثُمَّ أخذ قُطب الدِّين يتصرَّف كالحاكم المُستقلِّ، ويدخل في التّحالفات، ويسعى لتقوية مركزه.

3. حصن كيفا:

يقول عنها ياقوت: "ويُقال كيبا، وأظنُّها أرمنيَّة، وهي بلدة وقلعة عظيمة، مُشرفة على دجلة بين آمد، وجزيرة ابن عُمر من ديار بكر"[4]، وكان حصن كيفا يُضاف لمَنْ يلي ديارَ بكر، وأكثر ما كان مُضافاً إلى آمد. وقد تملَّك سكمان بن أرتق صاحب ديار بكر حصن كيفا، وبعد وفاة سكمان؛ تولَّى الحصنَ ولدُهُ داودُ، ومن بعده؛ ابنه قرا أرسلان، ثُمَّ ولده نُور الدِّين مُحمَّد المُعاصر لنُور الدِّين بن زنكي والمُحالف له[5].

4. خَرْتَبِرْت:

بالفَتْح، ثُمَّ السُّكُون، وفَتْح التَّاء، وباء مكسورة، وراء ساكنة، وهُو اسم أرمني للحصن المعروف بحصن زياد، يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الرّوم، بينه وبين ملطية مسيرة يومَيْن، وبينهما الفُرات[6]. وهي قلعة حولها سبعة من الحُصُون، وقد أسَّس إمارة خَرْتَبِرْت الأرتقيّة عماد الدِّين أبو بكر قرا أرسلان، شقيق حاكم حصن كيفا في ذلك الوقت، وذلك في حُدُود عام **581**هـ **1185**م.

1 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: آمد.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 514 ـ 519.
3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 142.
4 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: كيفا ، ـ وهي ـ اليوم ـ في تُركيا، راجعْ: بُلدان الخلافة الشّرقيَّة، 144.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498.
6 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: خَرْتَبِرْت، و ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 132.

بداية العلاقات بين الأراتقة والدّولة الأيُّوبيَّة:

أثناء حملة الجزيرة عام **578**هـ **1182**م، راسل صلاحُ الدِّين مُلُوكها وأُمراءها، فوافقه نُور الدِّين بن مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي[1] صاحب حصن كيفا، على أنْ يُسلِّم صلاح الدِّين آمد إليه، إذا فتحها. وفي العام نفسه **578**هـ **1182**م، سلَّم حاكم آمد بهاء الدِّين بن نيسان البلدة إلى صلاح الدِّين، الذي وفى بوعده، وسلَّمها إلى نُور الدِّين مُحمَّد[2]، وبعد أنْ تُوفِّي؛ أقرَّ صلاح الدِّين مكانه ولده قُطب الدِّين سكمان[3]، "وذلك بعد أنْ حضر الصّلاح قتلغ أبه في عام **584**هـ **1188**م، وهو أتابك قُطب الدِّين، وأخذ لصاحبه مُلك ديار بكر عهداً، وقد أحضر قُضاة بلاده شُهُوداً، وخطب لصاحبه ابنة العادل، وكان خائفاً على آمد، فهي من فُتُوح السُّلطان، وهبها لأبيه نُور الدِّين بن قرا أرسلان، فأشفق من استرجاعها بعد وفاة والده، ورغب بالمُصاهرة للمُظاهرة "[4].

ولا يخفى أنَّ تدبير أتابك أمير آمد الأرتقي كان يعتمد على عدَّة أُمُور، منها: استعطاف صلاح الدِّين، وتذكيره بالعُهُود القديمة مع والد الأمير، وتوثيق عُرى التّقارب بالمُصاهرة، عن طريق طلب يد ابنة العادل للأمير، فصلاح الدِّين لا تُوجد لديه بنات أو أخوات يصلحنَ للزّواج، والعادل هُو أخوه، ومُستشاره، ووزيره.

وكذلك حرص صلاح الدِّين على توثيق الصّلة وتأكيد العُهُود، فإقراره الأمير الأرتقي على آمد هُو جُزء من سياسة الاستقرار التي انتهجها نحو الجزيرة، فهي عُمقه الاستراتيجي، وهي مصدر المُتطوِّعة للجيش، ومكان الإمداد بالجُنُود، ومصدر عظيم لموارد الدّولة.

واستمرَّت هذه السِّياسة للدّولة الأيُّوبيَّة تجاه الجزيرة حتّى وفاة السُّلطان صلاح الدِّين، الذي كانت جُهُوده وتوجُّهاته الأساسيَّة نحو حرب الفرنج، وبعد وفاته؛ تغيَّرت استراتيجيَّة الدّولة، فقد التفت العادل لتوطيد نُفُوذه، وأخذ ما بأيدي أولاد أخيه من البُلدان، مُنطلقاً من منطقة الجزيرة، التي كانت بها إقطاعاته الكُبرى.

1- حول نسب الأراتقة راجعْ: تاريخ آمد ومَيَّافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكّار، 11/ 262.
2- الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 11/ 484 ـ 493.
3- الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 516.
4- الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكّار، 13/ 142.

العلاقات مع ماردين:

كان أوَّل احتكاك بين الأراتقة والعادل في عام **594**هـ **1198**م، فقد "ورد إلى العادل كتاب النّظام مُدبِّر مملكة حسام الدِّين يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي الأرتقي صاحب ماردين، يستدعيه ليُسلِّمه ماردين"[1]، فسار العادل نحوها، لكنَّ النّظام ندم، وغيَّر رأيه، وتحصَّن في ماردين، فطلب العادل النّجدات من ابن أخيه العزيز صاحب مصر، الذي أرسل له ألف فارس، ومن ابن أخيه الظّاهر صاحب حلب، الذي أرسل له خمسمائة فارس، فتمكَّن العادل من احتلال ربض ماردين، وحاصر قلعتها[2]، واستولى على ولاياتها، ومُدُنها، مثل: رأس عين، ودنيسر.

وشدَّد العادلُ الحصارَ على قلعة ماردين، ولم يبقَ سوى التّسليم، فورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، وتولية أخيه الأفضل مكانه[3]، فقرَّر العادل التّحرُّك نحو دمشق. لكنَّ ضعف القلعة الذي عاينه شجَّعه على مُتابعة حصارها ببعض جُنده مع ابنه الكامل[4]. واغتنم التّحالف الأتابكي فُرصة غياب الكامل، فوحَّدوا قُوّات المَوصل وسنجار وجزيرة ابن عُمر، وتحرَّكوا لإنجاد ماردين، وتمكَّنوا من إجبار الكامل على فكِّ الحصار[5]، ونجت ماردين من الوُقُوع بيد العادل. ووقف في هذه الحرب أمير حصن كيفا الأرتقي على الحياد؛ إذْ لم نسمع له أيَّ نشاط سياسي، أو تحرُّك عَسْكَري.

وبعد فشل الأخوَيْن الظّاهر والأفضل أمام دمشق، وانسحابهم عنها، زاد ذلك في قُوَّة العادل، فلمّا رجع الظّاهر إلى حلب، اتَّصل بحُسام الدِّين يولق صاحب ماردين، واتَّفق معه على تشكيل حلف جزري ضدَّ العادل، لكنَّه فشل بالقيام بأيِّ عمل مُجد لاتِّفاق الفائز بن العادل مع نُور الدِّين صاحب المَوصل.

ولم ينسَ العادلُ ماردينَ، فعندما استقرَّ وَضْعه في مصر ودمشق قام في عام **599**هـ **1202**م بإرسال حملة عسكريَّة يقودها ولده الأشرف إلى ماردين، وطلب النّجدات من المَوصل وسنجار،

1- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80.
2- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80 ، و الرّوضتَيْن، أبو شامة، 2/ 234.
3- الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 58.
4- الباهر، ابن الأثير، 194.
5- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 102، و الباهر، ابن الأثير، 194، و الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 62 ، والعبر، ابن خلدون، 5/ 588 .

فأمدُّوا الأشرف بالعساكر، فسار إلى ماردين، وهزم عَسْكَرَهَا[1]، ثُمَّ حاصرها، ولكنَّ الحصار لم يكن فعَّالاً، ولم يُؤدِّ إلى نتيجة، فتدخَّل الظّاهر غازي بالصُّلح بين ماردين والعادل[2]. فالظّاهر عندما لم يتمكَّن من التَّدخُّل العسكري كان يرغب ـ ضمنيّاً ـ بعدم تملُّك العادل لماردين، حتَّى لا يزداد قُوَّة بها في الجزيرة، لذلك؛ وجد أنَّ الصُّلح في مصلحته أوّلاً، وفي مصلحة ماردين ثانياً، فهو يضمن وُجُودها، وكذلك وجد العادل في الصُّلح مصلحة مُؤقَّتة له، وذلك لعدم تحقيق الأشرف نجاحاً عسكريّاً في مهمَّته. ولكنْ؛ ظهر العادل بمظهر المُنتصر معنويّاً، فقد حمل إليه صاحب ماردين، وُفقاً لبُنود الصُّلح، مائة وخمسين ألف دينار، وخطب له ببلاده، وضرب السّكَّة باسمه، ووعد أن يكون عَسْكَرُهُ بخدمته حين الطّلب[3]. وبدا الظّاهر في تدخُّله بهذا الصُّلح كأنَّه وسيط رخيص، وليس ملكاً يتدخَّل لحلِّ الخلافات، وإقرار السِّلْم، فقد كانت أُجرته على هذه الصَّفقة قرية القرادي، وعشرين ألف دينار، كما ذكر بعض المُؤرِّخين[4]، أو عشرة آلاف دينار ـ فقط ـ كما ذكر بعضهم الآخر[5].

ماردين وسياسة العداء للأيُّوبيين:

ربما لأن آمد كانت إقطاعاً من صلاح الدِّين للأراتقة؛ فقد احتفظت ـ على الدوام ـ بولائها للسِّياسة الأيُّوبيَّة العُليا، أمَّا الإمارة الأرتقيَّة الأُخرى في ماردين؛ فإنها كانت تتبع سياسة معاكسة لها، فقد كانت ـ في الأعم الأغلب ـ تتبع سياسة العداء للأيُّوبيين، حتَّى إنها كانت ـ على الدوام ـ ملجأً للأُمراء الفارِّين من الممالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة الخارجين منهم على الأشرف، فقد استقبل أمير ماردين الأرتقي عام 618هـ 1221م مُبارزَ الدِّين سنقر الصَّلاحي، الذي خالف الأشرف، وخرج عن طاعته[6].

ولكن هذه السياسة العامَّة بالعداء للأيُّوبيين كانت ـ أحياناً ـ تشهد تراجعاً ملموساً، فعندما كان الملك المُعظَّم في الجزيرة عام 618هـ 1221م، استقبله ناصر الدِّين صاحب ماردين في قلعته،

1 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 80.
2 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179.
3 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139، و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 161، والمنصُوري، ابن نظيف، 38.
4 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179، مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 161، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمنصُوري، ابن نظيف، 38.
6 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 134.

وزوَّج كُلٌّ منهما ابنته للآخر، في زواج مُقايضة سياسي، ستبدو نتائجه بعد مُدَّة قريبة، وكان ذلك بمُباركة الأشرف، وإذنه[1].

ولكنَّنا ـ بسُرعة ـ نرى ماردين تعود لعدائها التّقليدي للأيُّوبيَّة، فقد كانت أسرع الإمارات الجزريَّة بالانضمام إلى حلف علاء الدِّين الخوارزمي، ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، الذين ضمُّوا إليهم المُعظَّم الأيُّوبي صاحب دمشق، ضدَّ الأشرف صاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الكُبرى في الجزيرة، وحليفه أخيه الكامل صاحب مصر، وخطب في ماردين لعلاء الدِّين الخوارزمي إشعاراً بسَلْطنته عام 623هـ 1226م، وتحدِّياً لسلطنة الكامل[2].

وفي عام 625هـ 1228م، اضطرَّ الأشرف لاستعراض قُوَّته في الجزيرة، حتَّى عاد صاحب ماردين إلى طاعته، وكدليل على شَكِّ الأشرف به، وليُبقي على الخوف في نفسه؛ رفض أن يحلف له على إقراره في بلاده، مع أن رسول الخليفة قد تدخَّل مُتوسِّطاً في هذه القضيَّة[3]. وقبل أن ينطلق الأشرف في زيارته إلى مصر، وفي العام نفسه 625هـ 1228م، أعطى أوامر واضحة لنُوَّابه في الجزيرة: أخيه الحافظ صاحب جعبر، وعزِّ الدِّين آيبك نائب خِلاط، بأنْ يلتزموا الهُدُوء والحذر مع صاحب ماردين، وأنْ لا يُهاجموه إلَّا إذا بدأهم هُو بالهُجُوم[4]، فينتهز ناصر الدِّين صاحب ماردين الفُرصة، ويشنّ الهُجُوم على أراضي حصن كيفا، فيسلب، وينهب، ويحرق[5]. ولم يكتف بذلك، بل سعى ـ أيضاً ـ لتحريض صاحب الرّوم لغزو الجزيرة وأملاك الأيُّوبيين خاصَّة، وكان الرّومي يستعدُّ لغزو أنطاكية، فأرسل له صاحب ماردين يقول: "ما لمضيِّك إلى أنطاكية معنى. البلاد خالية، والأشرف عند الكامل. . فتُسيِّر إليَّ عسكراً لآخذ لكَ تلك البلاد". فقام الرّومي بالعمل وحده، دون التّعامل مع صاحب ماردين، ونفَّذ بقُوَّاته عدَّة إغارات محدودة في الجزيرة، لم تُسفر عن شيء يُذكَر، وعاد إلى بلاده[6].

1 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 128، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 413 ، و النُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 239.
2 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 159.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 163.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 163.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 165.

وفي عام 626هـ 1229م، وتحت تأثير هذا التّجاهل من الرّومي، وربما لأسباب آنيَّة أقوى، قام صاحب ماردين بقَطْع الخطبة للرّومي في بلاده، وخطب للكامل، وضرب السّكَّة باسمه، اعترافاً بالتّبعيَّة له[1]. ويبدو أن هذا التّحوُّل عن الرّومي، وإعلان الطّاعة للملك الكامل، والسير ضمن بوتقة السِّياسة الأيُّوبيَّة الشّبه مُوحَّدة تحت شعار سلطنة الكامل، استمرَّ حتى عام 629هـ 1232م، عندما حاصرَ الكاملُ آمدَ، وفيها الفرع الأرتقي المُنافس لفرع ماردين، فبدل دعم صاحب ماردين لابن عمِّه في آمد، قام بإرسال مبعوثيه يحملون الهدايا إلى الكامل، ومعهم بعض ممَّا يحتاجه العَسْكَر في الحصار؛ كالخِيَم، والأكسية[2].

وبعد فَتْح آمد عام 630هـ 1233م، قدم على الملك الكامل أولاد صاحب ماردين، ولي العهد وأخوه، للتّهنئة بالفَتْح، فأكرمها الكامل[3]، كُلُّ ذلك يدلُّ على بهجة حُكَّام ماردين بسُقُوط آمد، فالعلاقات بينهما كانت - دائماً - سيِّئة، والتّنافس قائم، وكُلُّ إمارة منهما كانت تسعى لسَلْب الأُخرى بعض مناطقها[4].

ولكنْ؛ مُباشرة بعد سُقُوط آمد تعود ماردين لتبدِّل موقفها من الأيُّوبيَّة، وتنقض تحالفها وطاعتها للكامل، وربما كان ذلك لسُوء تدبير نائب الكامل في آمد ابنه نجم الدِّين أيوب، ففي العام نفسه لسُقُوط آمد تحالف صاحب ماردين الملك السعيد إيلغازي نجم الدِّين مع كَيْقُباذ ملك الرّوم، وقامت قُوَّاتها المُشتركة بالهُجُوم على حرَّان، قاعدة الأشرف في الجزيرة، وعلى الرّها، وعلى الرّقَّة قاعدة الكامل، "وفعلا بالجزيرة ما لا تفعله التّتر"[5].

وفي عام 635هـ 1237م، سارعت ماردين للدُّخول في حلف الشّام، الذي ضمَّ ممالك دمشق وحمص، وسلطنة سلاجقة الرّوم، ومملكة حلب، ضدَّ العادل بن الكامل سُلطان مصر، لكنْ؛ سُرعان ما انسحبت ماردين من هذا الحلف، واتَّفق صاحبها مع الخوارزميَّة، الذين كانوا يعيثون فساداً في الجزيرة، وشاركت قُوَّات ماردين العَسْكَريَّة بهُجُوم مُشترك مع الخوارزميَّة على آمد، التي

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 188.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 237.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 239.
4 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 187.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.

كانت بيد السّلاجقة الرّوم، واحتلّوها[1]. كذلك هاجموا حرَّان، وفيها المُغيث بن أيُّوب، فهرب منهم إلى جعبر، فلحقوه، ونهبوا أثقاله[2]. ممَّا جعل مملكة حلب، التي كانت أكبر المُتضرِّرين من الخوارزميَّة، تتَّخذ موقفاً مُعادياً لماردين حليفة الخوارزميَّة، وقامت بخُطوة عَسْكَريَّة هامَّة، فقد تحرَّك جيش حلب عام 641هـ 1244م، بحملة ضدَّ ماردين، ولكنَّها انتهت بالصُّلح، وأقطع النّاصر الثاني صاحب حلب رأس عين لصاحب ماردين[3]. ويبدو أنَّ صاحب حلب آثر هذا الاتِّفاق الذي يقوم على خسارته لبعض الأراضي لشُعُوره بالخطر الأكبر القادم من الشرق.

وتأكيداً لهذا الاتِّفاق؛ قام النّاصر الثاني بإرسال النّجدات العَسْكَريَّة إلى ماردين، عندما هاجم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل عام 646هـ 1248م، مُمتلكاتها في نصيبين، ودارا، ورأس عين، فقام جيش حلب باحتلال نصيبين، التي كان للمَوصل جُزء منها، وأقطعها لصاحب ماردين، فتدخَّل الخليفة، وأرسل يشفع بصاحب المَوصل لُؤلُؤ، فقبل النّاصر الشّفاعة، وترك له نصيبين، وأعطى صاحب ماردين بدلاً عنها ماكسين، والمجدل، وبعض مناطق الخابور[4]. وفي عام 657هـ 1259م، وبعد اكتساح التّتَّار للعراق، استدعى هُولاكُو الملكَ السّعيدَ صاحبَ ماردين، فاعتذر بمرضه، وأرسل ابنه المُظفَّر قرا أرسلان، ومعه هدايا كثيرة، فلم يعذره هُولاكُو، فأرسل السّعيد إلى النّاصر الثاني يعرض عليه المُشاركة في مشروع مُتكامل للتَّصدِّي للتَّتَّار، وحمل العرض ابن شدَّاد، وأبلغه للناصر الثاني.

قال ابن شدَّاد: "لمَّا أذن لي يشموط - ابن هولاكو - بالعودة، رحلتُ إلى ماردين، واجتمعتُ بالملك السّعيد، قال لي: أنا أُقرض صاحبكم - الملك النّاصر الثّاني صاحب حلب - ثلاثمائة ألف دينار مصريَّة، ويُسيِّر لي ثلاثة آلاف فارس، أقترحهم عليه، ويصل إلى حلب بنفسه، وله عليَّ أنْ أُرحِّل التّتَر عن مَيَّافارقين، فإذا بلغتُ غرضي من ذلك، اتَّفقتُ معه على قَصْد المَوصل، وإخراجها من يد هذا

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 119.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 136.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 138، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 181، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

المُنافق ـ بدر الدِّين لُؤلُؤ، وكان قد اتَّفق مع التَّتار ـ ، فاستحلفتْهُ على ذلك، فحلف، ولَمَّا قابلت الملكَ النَّاصرَ؛ عرَّفتْهُ ما أشار به صاحب ماردين، فلم يحر جواباً''[1].

ومِمَّا نقله ابن شدَّاد نتبيَّن رُؤية سياسية وعَسْكَريَّة تامَّة الوُضُوح لدى السّعيد ملك ماردين، ومشروعاً عَسْكَريّاً مُتكاملاً، ربما كان الأمل الوحيد لخلاص الجزيرة من وُقُوعها تحت نير التَّتار، فقد كانوا يحاصرون مَيَّافارقين، وصاحبها يُبدي بسالة خارقة في المُقاومة، أذهلت التَّتار أنفسهم، وأيّ هُجُوم عليهم يجعلهم بين نارَيْن، ويُقوِّي فُرص النصر. كما يظهر لنا أن السّعيد كان يُدرك أهمّيَّة وُجُود النَّاصر في حلب قريباً من الميدان، وأثَر وُجُوده في تقوية النُّفُوس، وثبات الناس، ويطلب السّعيد: أنْ ينتقي هُو الفُرسان، خشية أنْ يُرسل له الناصر أغراراً، لا يصلحون للمهمَّة العظيمة. كما نجد ثقة كبيرة بالنَّفْس لدى السّعيد، فهُو يتعهَّد بترحيل التَّتار عن مَيَّافارقين، ثُمَّ يضع خُطَّة تالية لذلك؛ وهي: مُطاردة التَّتار حتَّى شمال العراق، وأخذ المَوصل من يد بدر الدِّين لُؤلُؤ عميل التَّتار. ولكن الغريب هو عدم ردّ النَّاصر على هذه الاقتراحات سلباً، أو إيجاباً، ممَّا نعدُّه دليلاً على حَيْرته، وعدم استقراره على رأي بشأن التَّتار. وقاوم السّعيد ـ بجُهُوده الخاصَّة المُنفردة ـ قُوَّات التَّتار المُتدفِّقة، وقد حاصروه في ماردين عام **658**هـ **1260**م، حتَّى سلَّمها لهم ولده المُظفَّر قرا أرسلان في العام التَّالي **659**هـ **1260**[2].

العلاقات مع آمد:

استمرَّ قُطب الدِّين سقمان بن نُور الدِّين مُحمَّد في حُكْم آمد، حتَّى تُوفِّي عام **597**هـ، فتولَّى أخوه الملك الصَّالح ناصر الدِّين محمود[3]، الذي أرسل وزيره ضياء الدِّين بن شيخ السّلاميَّة إلى الملك العادل، في مُخيَّمه على بُحيرة قدس، ليُجدِّد العُهُود معه، ويستحلفه لصاحبه الصالح حتى يقدم عليه بنفسه[4]. واستمرَّ الصالح محمود بسياسة التّقارب مع المَمالك الأيُّوبيَّة، وكانت علاقته جيِّدة جدّاً بالملك الأشرف، ''وكان الأشرف بن العادل يُحبُّه''[5]، وقد زار الصّالح محمود الأشرف أكثر

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.
3 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 170.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 53.
5 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124، والبداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 93.

من مرَّة، رغبة منه في الحفاظ على العلاقات الطَّيِّبة مع الأيُّوبيَّة عامَّة، والأشرف سُلطان الجزيرة خاصَّة. واستمرَّ الصالح بذلك، حتَّى تُوفِّي عام **619**هـ **1222**م[1].

وتولَّى حُكْم آمد من بعده ابنه الملك المسعود رُكن الدِّين مودود[2]، وخالف المسعود سياسة أبيه المُوالية للملك الأشرف، فخرج عن طاعة الأيُّوبيين، ومُخالفتهم، وانتمى إلى جلال الدِّين الخوارزمي، فحالفه، وخطب له، وأخذ المسعود بالهُجُوم على أطراف مَيَّافارقين، وفيها المُظفَّر غازي أخو الأشرف، وأعلن العداء السّافر للكامل والأشرف ولحليفه علاء الدِّين الرّومي.

وفي عام **623**هـ **1226**م، اتَّفق مع المُعظَّم صاحب دمشق، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وانضمَّ لحلفهم مع الخوارزمي، مُقابل تحالف علاء الدِّين كَيْقُباذ والأشرف والكامل، فطلب الأشرف من علاء الدِّين مُهاجمة آمد، فسيَّر عساكره نحو بلادها، وفتح عدَّة حُصُون تابعة لآمد، فخاف المسعود، وراسل الأشرف، مُعلناً العودة إلى التّحالف معه، مُقابل أنْ يكفَّ علاء الدِّين عن بلاده، ويُعيد ما أخذ من حُصُونها. فوافق الأشرف، وراسل لعلاء الدِّين بذلك، فرفض ''فأرسل الأشرف عساكره لمساعدة صاحب آمد، الذي جمع، وسار إلى عَسْكَر الرّوم وهُم يحصرون حصن ألكختين من بلاد آمد، فهُزم، وجُرح، واستولى عَسْكَرُ علاء الدِّين على ألكختين، وهي من أمنع الحُصُون[3]، ويبدو أن نجدة الأشرف للمسعود لم تكن قوية بما يكفي لهزيمة الرّومي، فمُعظم عساكر الأشرف توجَّهت نحو حمص لنجدتها ضدَّ هُجُوم المُعظَّم صاحب دمشق[4].

وفي عام **625**هـ **1228**م، قبل أن يُسيِّر الأشرف إلى الشام، أعطى تعليماته لأخيه الحافظ في جعبر، ونائبه عزّ الدِّين آيبك في خِلاط، بأنْ يُنجدوا صاحب آمد إذا هاجمه علاء الدِّين كيقباد[5].

ولَمَّا استقرَّ الأشرف بدمشق، مُبتعداً عن الجزيرة ومشاكلها، يبدو أن المسعود صاحب آمد قد شعر بالراحة، وترك نفسه على سجيَّتها، فقد كان كثير الوَلَع بالنِّساء[1]، وأخذ بالتّعرُّض لنساء

1 ـ الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 412 ـ وقد ذكره أبو شامة في ذيل الرّوضتَيْن ضمن وفيات عام 617، لكنَّه رجَّح أنْ تكون وفاته 619هـ (ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124).
2 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202 ـ 203.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 163.

الرّعيَّة، حتَّى نُسب إلى الفُسق[2]، وهذا ما أعطى الكاملَ المُبرِّر لإظهار أطماعه بضمِّ آمد لأملاكه الجزريَّة، التي أخذها من الأشرف بدل دمشق. فكتب الكامل إلى الخليفة المُستنصر بالله يشكو إليه المسعود، ويُعدِّد معايبه، ويُركِّز على تعرُّضه لحريم الرّعيَّة، ويستأذنه في حصار آمد، وأخذها[3].

وفي عام 629هـ؛ تحرَّك الكامل بجُيُوشه من مصر إلى الشّام، فانضمَّ إليه الأشرف، وسارا نحو الجزيرة، فشعر الملك المسعود صاحب آمد بالخطر، وعرف أنَّه هو المقصود بهذا التَّحرُّك، فأرسل وزيره شرف العلاء مُحمَّلاً بالهدايا للكامل والأشرف، فاحتجزوه حتَّى قبل التّعامل مع الكامل ضدَّ مليكه صاحب آمد، فأخذ يُضلِّله بكُتُبه كي لا يحترز. وسار الكامل إلى آمد ومعه مُلُوك وأُمراء الأيُّوبيَّة، وتابع المسعود مساعيه السِّياسيَّة، فأرسل إلى الملك المُجاهد، وهو شيخ الأيُّوبيَّة، ليتوسَّط له عند الكامل.

وأرسل صاحب ماردين الأرتقي نجدة عَسْكَريَّة للكامل ضدَّ قريبه المسعود صاحب آمد، ولَمَّا بدأ الحصار والهُجُوم على الأسوار طلب أهلها الأمان[4]، فقد كانوا مُبغضين لصاحبهم لسُوء سيرته، فتخلّوا عنه، وتمنّوا زوال مُلْكه[5]، ثُمَّ عرض المسعود التّسليم مُقابل إقطاع بمصر، فوافق الكامل، وسُلِّمت آمد وقلعتها[6]، ووصل إلى الكامل ـ وهُو على حصار آمد ـ رسول الخليفة المُستنصر حاملاً إليه التّقليد[7]، ممَّا يعني مُوافقته على أَخْذ آمد، كما وصلته هدايا صاحب ماردين الأرتقي "تقرُّباً ومُصانعة "[8]، الذي شعر بالخطر يقترب منه، فحاول التّقرُّب من الكامل، واسترضاءه. ونزل المسعود إلى مُعسكر الكامل، فأكرمه، وطلب منه تسليم القلاع الأُخرى، فكتب له إقراراً بها ما عدا حصن كيفا، "قال: ما هُو لي، ولا في حُكْمي". فتسلَّم الكاملُ بعضَ القلاع، وسيَّر قطعة من جيشه إلى حصن كيفا، وفاوض مَنْ في الحُصن، فلم يقبلوا، فضيَّق الكامل على صاحب

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 520.
2 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 521.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 236 ـ 237.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 117.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 523.
7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.
8 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 243.

آمد، وعذَّبه[1]، وفي عام 630هـ 1233م، سار الأشرف إلى حصن كيفا، ومعه صاحب آمد مُقيَّداً، وطلب من النُّوَّاب تسليمه، فسلَّموه الحصن[2] بعد تعذيب المسعود أمامهم[3]. وولَّى الكامل ابنه الصالح نجم الدِّين أيُّوب على آمد وقلاعها[4]، وسار راجعاً نحو مصر، ومعه صاحب آمد؛ حيثُ أَقْطَعَهُ هُناك، وأحسن إليه[5].

ولم يطل الأمر بالملك المسعود حتَّى اعتقله الملك الكامل، وسجنه، مُدَّعياً أنَّه يتَّصل بسلاجقة الرُّوم، ويتآمر معهم ضدَّه[6]، وعندما تُوفِّي الكامل عام 635هـ 1238م، قام ابنه العادل بإطلاق سراح المسعود، فتوجَّه إلى الشام، وأقام عند صاحب حماة الملك المُظفَّر، الذي أكرمه، حتَّى انفصل عنه مُتوجِّهاً إلى الشّرق، واتَّصل هُناك بالتَّتار، فقتلوه طمعاً بما معه من المال[7]، وبسُوء تصرُّفه وسُوء أخلاقه هَدَمَ الملكُ المسعود ما بناه أجداده الأراتقة في آمد خلال قرن ونصف من الزّمان، فقد تلاشت قُوَّة حُصُون آمد وكيفا أمام تخلِّي الرّعيَّة عنه، ومُباركة الخليفة، وتصميم الكامل[8].

وتحوَّلت آمد إلى ولاية أيُّوبيَّة، تُحكَم مباشرة هي وقلاعها من قبَل نجم الدِّين أيُّوب ابن السُّلطان الكامل، وبعد وفاة والده عام 635هـ 1238م، استقلَّ أيُّوب بإمارة ماردين والبلاد الجزريَّة، التي كانت لوالد الكامل حتَّى عام 636هـ1239م؛ حيثُ بادل ابن عمِّه الجواد، فأخذ منه دمشق مقابل الرّقَّة وسنجار وعانة، فترك أيُّوب الجزيرة، وتوجَّه إلى دمشق[9]، وجعل ابنه المُعظَّم تُورانشاه نائباً عنه في آمد وكيفا.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 241.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 246 ـ 247.
3 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 145.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 224، والمنصُوري، ابن نظيف، 244 ، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 159.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17، والنُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 250 ـ وينفرد ابن نظيف بالقول: "سار صاحب آمد إلى دمشق، وشرى داراً وبُستاناً". (المنصُوري، ابن نظيف، 244)، ويبدو أنَّه وَهم في هذا، أو أنَّه فعل ذلك أوَّلاً، ثُمَّ سار إلى مصر.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 265 ، والنُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 250.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 159، وذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17.
8 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 186.
9 - زُبدة الحَلَب، ابن العديم، 498.

وعندما شعر كيخسرو سُلطان سلاجقة الرّوم بالظُّروف المُلائمة لتوسُّعه تحرَّك صوب آمد، واحتلَّ بعض قلاعها، وحاصرها، وكان بها المُعظَّم تُورانشاه، الذي جاءته نجدة الخوارزميَّة بعد إيقاعهم بصاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ، وبعد مُناوشات مع عَسْكَر الرّوم اضطرُّوهم للانسحاب عن آمد[1].

لخوارزميَّة عنه، عاد غياث الدِّين كيخسرو إلى حصار آمد، وشدَّد الضّغط عليها، فتركها تُورانشاه، وتوجَّه إلى حصن كيفا، فسقطت المدينة بيد كيخسرو، ودخلتْها عساكر سلاجقة الرّوم[2]. وأقام المُعظَّم تُورانشاه في حصن كيفا، حتَّى خرج منه إلى سلطنة مصر بعد وفاة والده أيُّوب عام 647هـ 1249م، واستناب في حصن كيفا ولده الملك الأوحد عبد الله ابن تُورانشاه.

ولمَّا دخل التَّتار إلى الجزيرة جاء الأوحد إلى هُولاكُو، وقدَّم له هديَّة، فأبقى عليه الحصنَ[3]. واستمرَّت آمد بيد سلاجقة الرّوم حتَّى سنة 655هـ 1257م؛ حيثُ قصدها ناصر الدِّين مُحمَّد بن المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، لعلمه بمُكاتبة بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل لأهلها من أجل تسليمها له، فكتب ناصر الدِّين إلى الملك السّعيد صاحب ماردين، وشرح له الموقف، وطلب نجدته، فأجابه. فتقدَّمت عساكر مَيَّافارقين إلى آمد، وهزموا عَسْكَرَ الرّوم بها، واستولوا عليها[4].

وفي عام 657هـ 1259م، نزل هُولاكُو أمام آمد، وطلب من سيف الدِّين بن علي نائب الكامل صاحب مَيَّافارقين في آمد أنْ يُسلِّمها له، فوافق، وقام هُولاكُو بتسليمها إلى عزّ الدِّين وأخيه رُكن الدِّين ابنَيْ غياث الدِّين سُلطان سلاجقة الرّوم، اللَّذَيْن تولّيا حُكْم البلاد، بعد مصرع أبيهما غياث الدِّين كيخسرو إثر هزيمته عام 641هـ 1243م أمام التَّتار[5]، ولمَّا اقتسما البلاد؛ كانت آمد لرُكن الدِّين قلج أرسلان "ونُوَّابه بآمد مع نُوَّاب التَّتار"[6].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 343.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526.

العلاقات مع خَرْتَبِرْت:

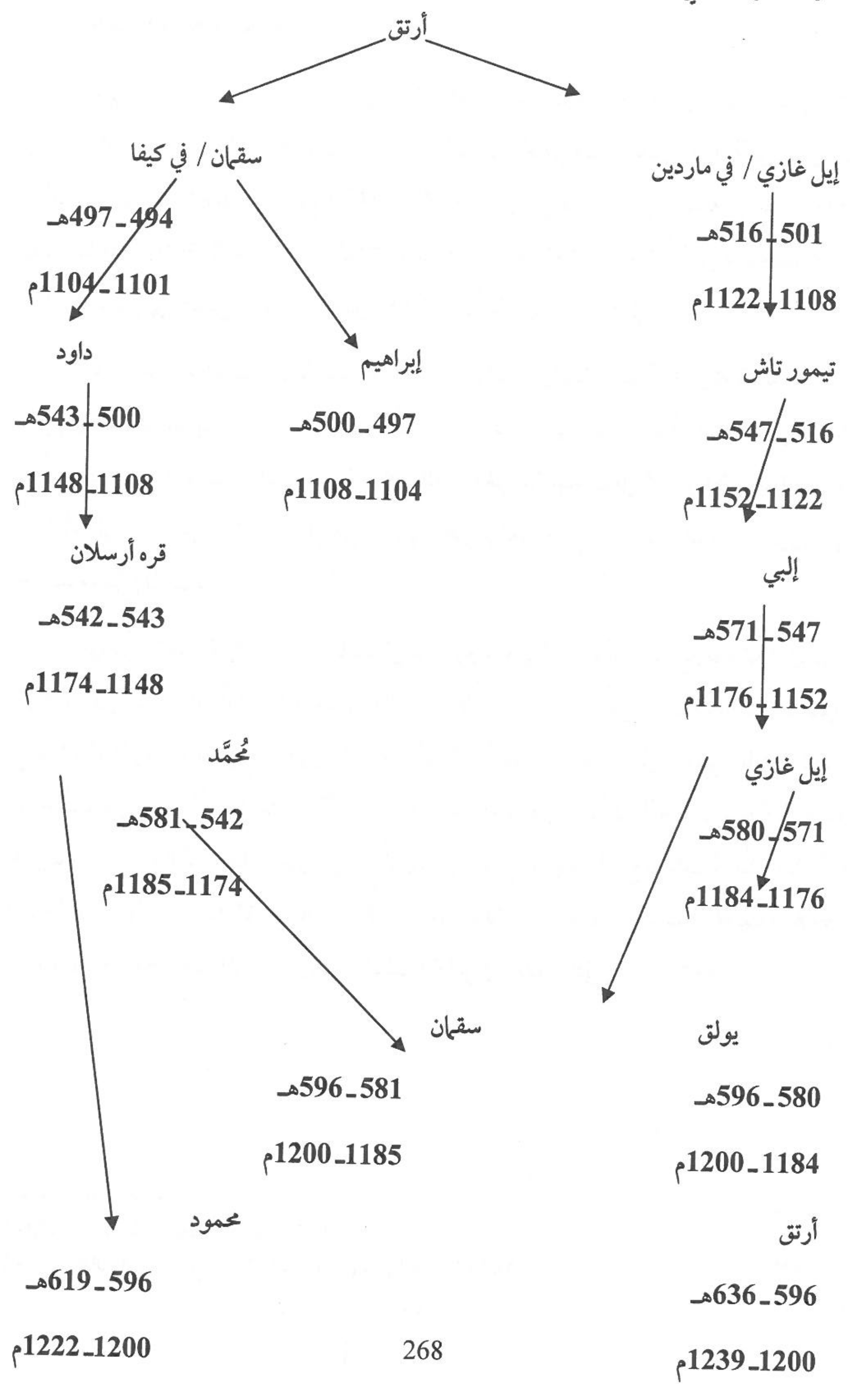
ولم يكن لهذه الإمارة دور يُذكَر في أحداث الجزيرة بسبب صغرها، وتطرُّفها نحو الشّمال[1]، وربما كان أهمّ أدوار هذه الإمارة هُو دعوة صاحبها للملك الكامل عندما تعذَّر عليه عُبُور الدّربند للهُجُوم على بلاد سلاجقة الرّوم عام 631هـ 1234م، ليعبر من درب أمام حصنه، ولكنَّ قُوَّات كيقباد سُلطان سلاجقة الرّوم هزم الفرقة الأيُّوبيَّة، التي أرسلها الكامل بقيادة المُظفَّر صاحب حماة، ولمَّا التجأ المُظفَّر إلى حصن خَرْتَبِرْت حاصره كَيْقُبَاذ، ثُمَّ أطلقه بعد أن استولى عليها[2].

وكنتيجة للعلاقات بين السّلطنة الأيُّوبيَّة وإمارات الأراتقة نجد أنَّ الأراتقة قد حالفوا الأيُّوبيين مُنْذُ دُخُولهم إلى الجزيرة الشّاميَّة، وسلَّم صلاح الدِّين مدينة آمد - بعد أنْ فتحها - إلى واحد من أُمرائهم، وصاهره، فقد كانت سياسة صلاح الدِّين الجزريَّة تهدف إلى تحقيق الاستقرار فيها، وربط أُمرائها بتبعيَّة مُباشرة، ليحصل على الدَّعْم المادّي والعَسْكَري، خاصَّة الجُند، ليتقوَّى على الحرب، ويتفرَّغ للجهاد.

ولكنَّ الأُسرة الأرتقيَّة كانت تنقسم إلى عدَّة فُرُوع، منها: فرع آمد التّابع بولائه للأيُّوبيَّة، وفرع ماردين المُهادن، أو المُعادي لهم حسب الظُّرُوف، فقد لعبت ماردين على حبال التّحالفات، طوراً مع سلاجقة الرّوم ضدَّ الأيُّوبيَّة، وطوراً آخر مع الأيُّوبيَّة ضدَّ سلاجقة الرّوم، إلى أنْ قضى الملك الكامل على حُكْمهم في آمد، واحتلَّها، عندها؛ أعلنت ماردين العداء السّافر، وسعت للتّحالف مع كُلِّ عدوٍّ للأيُّوبيَّة، حتى جاء التَّتار، فكانت ماردين من المُدن القليلة التي ضربت أروع الأمثلة في المُقاومة. أمَّا فرع خَرْتَبِرْت الأرتقي؛ فقد كان يُسيطر على قلعة صغيرة لم تكن ذات بال، ثُمَّ استولى عليها سلاجقة الرّوم نتيجة ولاء صاحبها للأيُّوبيَّة، ودَعْمه للملك الكامل في هُجُومه على بلاد السّلاجقة.

1 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 187.
2 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 1/ 131، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 162.

المُلوك الأراتقة في ماردين وحصن كيفا



المبحث الثَّاني

العلاقات الأيُّوبيَّة مع الأتابكة

لقد عُرِفَتْ ـ في عصر الدُّويلات ـ عدَّة دُول باسم الأتابكية، منها: دمشق، والمَوصل، وحلب، وأرمينيا، وأذربيجان، وفارس، ولورستان، وكرمان[1]، وغيرها. وقامت هذه الدُّول على أنقاض الدولة السلجوقية، فقد اعتمد السلاجقة في حُكْمهم على عدد من القادة الأتراك، ولربطهم بالدولة وبالأسرة الحاكمة كان السُّلطان السلجوقي يعهد بتربية واحد من أولاده للبعض منهم، وقد يُزوِّجه أمّ الطفل مُطلَّقة السُّلطان[2]، أو يكتفي برعايتهم لأولاده. فعندما قام السُّلطان السلجوقي محمود بتولية عماد الدِّين زنكي على المَوصل عهد إليه السُّلطان بتربية ابنيه ألب أرسلان وفروخ شاه، مع أنَّه لم يُزوِّجه بأيٍّ من زوجاته السابقات، ومع ذلك؛ فقد عُرِف باسم أتابك[3].

أتابكة المَوصل والجزيرة:

عندما قُتل الشهيد عماد الدِّين زنكي على حصار جعبر، تجاوز الصدمة العنيفة في المُعسكر رجلان، الأوَّل هُو جمال الدِّين مُحمَّد بن علي أكبر مُستشاري عماد الدِّين، الذي سارع إلى سيف الدِّين غازي بن عماد الدِّين زنكي، وطلب منه التَّوجُّه نحو المَوصل، القاعدة الأساسية للدولة، لتنصيبه خليفة لوالده[4]، بينما كان الرجل الثَّاني هُو شيركوه بن شاذي، الذي اصطحب نُور الدِّين محمود الابن الثَّاني لعماد الدِّين إلى حلب، ونصَّبه فيها[5]، ومنها امتدَّت سيطرة نُور الدِّين على الشَّام، ثُمَّ مصر. وبموت نُور الدِّين؛ خلفه ابنه إسماعيل، الذي لم يكن ـ في الحقيقة ـ يملك أيَّ فُرصة أمام شخصية مُتميِّزة مثل شخصية القائد صلاح الدِّين، فما إنْ تُوفِّي إسماعيل شابَّاً حتَّى كانت الشَّام ومصر كُلّها بيد صلاح الدِّين، وزال الفرع الشَّامي، ليبقى فرع المَوصل الأتابكي، ويستمرّ.

---

1 - راجِعْ كتاب:

The Mohammedan dynasties, Lane-Poole.

2 - أعطى تاج الدولة تتش حمص إلى جناح الدولة حسين، وجعله أتابك لابنه رضوان بعد أن زوَّجه أمّ رضوان تركان خاتون. (بغية الطلب، ابن العديم، 6/ 2806).

3 - أتابك لفظ تركي من مقطعَيْن: أتا أو أطا ومعناها أب، وبك معناها أمير.

4 - الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 122، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 113.

5 - الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 122، والروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 120.

في أوّل الأمر طمع سيف الدِّين غازي بن قُطب الدِّين مودود، في بلاد عمِّه نُور الدِّين، وهاجم الجزيرة[1]، لكنْ؛ بعد توجُّه صلاح الدِّين لأَخْذ حلب من إسماعيل بن نُور الدِّين، أدرك غازي أهمِّيَّة تلاحمه مع حلب، فما بعدها إلَّا المَوصل، لذلك أرسل نجدة قويَّة لها بقيادة أخيه عزّ الدِّين مسعود[2]. ولمَّا تُوفِّي إسماعيل بن نُور الدِّين أوصى بحلب لسيف الدِّين غازي صاحب المَوصل، وطلب منه أخاه عماد الدِّين زنكي أن يأخذ منه سنجار، ويُعطيه حلب، فوافق[3]، ولمَّا أخذ صلاح الدِّين سنجار عاد، وبادل عليها عماد الدِّين مُقابل حلب[4].

وفي عام **480** هـ **1087**م، استقلَّ والي إربل زين الدِّين أبي سعيد يُوسُف ينالتكين بن زين الدِّين علي بن بكتكين، وكَاتَبَ صلاحَ الدِّين، وانحاز له، مُقِرَّاً بسلطنته، فكتب له منشوراً ببلاده[5]، وهكذا خرجت إربل عن المَوصل، ممَّا أضعف موقف عزّ الدِّين مسعود، الذي خلف أخاه، وقوى جانب صلاح الدِّين. كذلك التجأ إلى السُّلطان صلاح الدِّين صاحب جزيرة ابن عُمر[6] معزّ الدِّين سنجر شاه بن سيف الدِّين غازي بن مودود، وكان يحثُّه على قصد المَوصل[7].

بدأت العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة الأيُّوبيَّة مع أتابكة المَوصل وسنجار أيَّام صلاح الدِّين، الذي كان يعدُّ أنَّه وريث رسالة عماد الدِّين ونُور الدِّين بالتحرير والتوحيد، لذلك هاجم المَوصل، وبلادها، وأخذ منهم حلب، أمَّا سيف الدِّين غازي وأخوه عزّ الدِّين مسعود وأبناؤهم من بعدهم،

---

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 231 ـ 234، والباهر، ابن الأثير، 175، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 5، وسنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 167.
2 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 186.
3 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 185.
4 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 209.
5 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 249.
6 - يقول ابن خلكان: " أكثر الناس يقولون جزيرة ابن عُمر، ولا أدري مَنْ ابن عُمر؟ وقيل إنَّها منسوبة إلى يُوسُف بن عُمر الثقفي أمير العراقَيْن، ثُمَّ أني ظفرت بالصواب في ذلك، وهُو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال المَوصل بناها وهُو عبد العزيز بن عُمر، فأُضيفَتْ إليه. ورأيتُ في بعض التواريخ ابني عمر أوس وكامل، ولا أدري ـ أيضاً ـ منْ هما، ثُمَّ رأيتُ في تاريخ ابن المُستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن الأثير أنَّه من جزيرة أوس وكامل ابني عُمر بن أوس الثعلبي. (وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1 / 494 ـ أوردها عبَّاس العزَّاوي في كتابه: التعريف بالمُؤرِّخين).
7 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 250.

فيرون أنَّهم أصحاب الدولة كُلّها، وما صلاح الدِّين إلَّا تابع مُتمرِّد، استولى على تركة سيِّده، وحرمهم منها، وقد عبروا عن هذا الموقف غداة موت صلاح الدِّين.

ولم يُقيِّض لدولة أتابكة المَوصل بعد وفاة سيف الدِّين غازي شخصية قويَّة مثل شخصية العادل الأيُّوبي يلُمُّ أطرافها، فاستمرَّت انقساماتها، وخلافاتها، وصراعها السِّياسي الدائم، بل والعسكري في بعض الأحيان. وكانت التجزئة أمراً واقعاً لا رادَّ له بعد وفاة كُلِّ سُلطان قوي له عدَّة أبناء، أو حتَّى أُمراء، أو قُوَّاد أقوياء. فبحسب نظام الإقطاع العسكري السلجوقي يكتسب صاحب الإقطاع حقَّه مدى الحياة، وله حقُّ التوريث لأبنائه، وعلى هذا النظام قامت دُول الأتابكيات، وكان هُو سبب انقسامها، وضعفها.

العلاقات الأيُّوبيَّة الأتابكية في عهد العادل:

كان أتابكة المَوصل وسنجار يجاورون الأملاك الأيُّوبيَّة في الجزيرة التي كان فيها إقطاع الملك العادل، وهُو كبير البيت الأيُّوبي بعد وفاة أخيه صلاح الدِّين. ويبدو أن عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل أراد اغتنام فُرصة موت صلاح الدِّين، فتناسى خلافاته مع أخيه عماد الدِّين صاحب سنجار، وجمعا عسكرهما، وراسل مسعودُ مُلُوكَ الأطراف، وشكَّل تحالفاً قوياً ضدَّ الأيُّوبيَّة [1].

وتشكَّل حلف سياسي عسكري قلَّما شهدت مثله الجزيرة، من المعارضين للبيت الأيُّوبي، ومن الطامعين بعد وفاة عميد هذا البيت، فانضمَّ إلى هذا التحالف بكتمر صاحب خِلاط، الذي كان يضمر العداء لصلاح الدِّين ولأسرته، كذلك انضمَّ له صاحب ماردين، الذي كان أوَّل المُتحرِّكين عسكريَّاً، فحاصر حصن الموزر، وكان صلاح الدِّين قد اقتطعه من ولاية ماردين، وألحقه بالرها، وسارت قُوَّات التحالف تقصد الرُّهَا، وهي أكبر بُلدان الجزيرة وقتها، "وأرسلوا للعادل: أن اخرج من بلادنا"[2]. إنَّه الحقّ القديم يُطالبون به الآن، فالبلاد ـ في اعتقادهم ـ هي مُلك لجَدِّهم عماد الدِّين زنكي، قد ورثوها منه، وما صلاح الدِّين إلَّا مُغتصب لإرثهم الشرعي.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9 / 227، ـ إن رواية ابن الأثير، الذي يعيش في بلاط المَوصل، تُظهر أن قائد هذا التحالف هُو عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل. (الكامل في التاريخ، 9 / 227)، بينما يعدُّ ابن واصل أن هذا التحالف كان بقيادة بكتمر أمير خِلاط، الذي كان يكره صلاح الدِّين. (مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 16)، راجعْ أيضاً: مملكة حلب، كمال بدور، 141.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

ويبدو أن عزّ الدِّين في تردُّده قد أضاع عدّة شهور في مُفاوضات مع مُلُوك الأطراف ليُوحِّدهم ضدَّ الأيُّوبيَّة[1]. ويذكر ابن الأثير تفاصيل مُهمَّة عن طبيعة التحرُّك الأتابكي ضدَّ العادل؛ فيقول:

"لمَّا بلغ عزّ الدِّين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب المَوصل وفاة صلاح الدِّين جمع أهل الرأي من دولته، وفيهم مُجاهد الدِّين قايماز كبير دولته، والمُقدَّم على كُلِّ مَنْ فيها، وهُو نائبه فيهم، واستشارهم فيما يفعل، فسكتوا، فقال أخو مجد الدِّين أبو السعادات المبارك: أرى أن تخرج مُسرعاً جريدة فيمَنْ خفَّ من أصحابك وحلقتكَ الخاصّ، وتتقدّم إلى الباقين باللحاق بكَ إلى نصيبين، وتُكاتب أصحاب الأطراف: مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وسنجر شاه، وابن أخيكَ صاحب جزيرة ابن عُمر، وأخيكَ عماد الدِّين صاحب سنجار، تُعرِّفهم أنكَ قد سرتَ، وتطلب المُساعدة، فمتى رأوكَ قد سرتَ خافوكَ، وإن أجابكَ أخوكَ إلى المُوافقة، والإبْدَّأت بنصيبين، فأخذتَها، ثُمَّ سرتَ إلى الخابور وهُو له، فأقطعته، وتركتَ مُقابل أخيكَ عسكراً يمنعه من الحَرَكَة، أو قصدتَ الرقَّة وتأتي حَرَّان والرُّهَا، فليس فيها مَنْ يحفظها، فإن العادل قد أخذهما من ابن تقي الدِّين، ولم يُقِمْ فيهما ليُصلح ما لهما. وليس وراءكَ ما تخاف عليه، فإن بلدكَ عظيم لا يُبالي بكُلِّ مَنْ وراءكَ. فقال مُجاهد الدِّين: المصلحة أن تُكاتب أصحاب الأطراف، وتأخذ رأيهم، وتستميلهم، فقال أخي: سيُشيرون بترك الحَرَكَة، لأنَّهم لا يُريدون أن يقوى هذا السُّلطان، وسيغالطونكم مادامت البلاد الجزرية فارغة، فإذا جاء مَنْ يحفظها يجاهرونكم بالعداوة، ولم يتكلَّم أكثر خوفاً من مُجاهد الدِّين[2]".

فإذا تجاوزنا مُحاولة ابن الأثير تعظيم رأي أخيه أبي السعادات مُستشار عزّ الدِّين، فإنَّنا لا نستطيع إلَّا الإقرار معه أنَّنا أمام ملك مُتردِّد يُؤثر السلامة، ولا يُحبُّ المُغامرة، فخُطط أبي السعادات تبدو أنَّها تدبير مُحكَم، لكنَّ مُجاهد الدِّين ـ رجل دولة المَوصل القوي ـ كان يُفضِّل التأنِّي حتَّى يتمّ استجلاء موقف بقيَّة الأطراف، كي لا تجازف المَوصل بتحرُّك قد يُكلِّفها الكثير. وفي الحقيقة؛ لم يكن العادل ليحتاج من أعدائه لأكثر من هذه الحكمة والتأنِّي ليُرتِّب أُمُوره؛ حيثُ عاجلهم برسالة تخبرهم بموت أخيه صلاح الدِّين، واتِّفاق الكلمة على ابنه الأفضل، وأنَّه ـ أيْ العادل ـ مُدبِّر دولته، وأنَّه قد سار في "عسكر جَمٍّ لقصد ماردين"، التي تعرَّض صاحبها لبعض قُرى العادل، "فظنُّوه حقّاً،

1 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14/ 338.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 73.

ففتروا عن الحَرَكَة. ولمَّا سيَّروا الجواسيس علموا أنَّه في ظاهر حَرَّان مائتي خيمة لا غير، فتحرَّكوا"[1]. "ولمَّا علم العادل بمسيرهم نحو بلاده، استنجد بعساكر الظَّاهر والأفضل"[2]، لأنَّه لا يملك القُوَّة لدفعهم، خاصَّة أن الأُمُور السِّياسيَّة والعسكريَّة كانت ماتزال غائمة بعد فُقدان السُّلطان صلاح الدِّين، ولم تختبر بعد وحدة البيت الأيُّوبي، ولا مدى فاعلية قواهم.

فنزل عزّ الدِّين دينسرَ، "ونزل العادل حَرَّان. ولمَّا اقترب عزّ الدِّين من الرُّهَا ومعه أخوه، كان العادل قريباً منهم"[3]، وقد وصلتْهُ النجدات من حلب، ومن دمشق[4]. مع ذلك؛ طلب العادلُ الصُّلحَ "على أن تكون البلاد الجزرية: الرُّهَا، وحَرَّان، والرقَّة، وما معها، بيده على سبيل الإقطاع من عزّ الدِّين، فلم يُجبه إلى ذلك[5]".

لكنَّ المرض سُرعان ما داهم عزّ الدِّين مسعود، وأجبره على العودة نحو المَوصل، تاركاً جيشه مع أخيه عماد الدِّين لإكمال المهمَّة التي خرجا من أجلها؛ وهي احتلال الجزيرة، لكنَّ عماد الدِّين قرَّر الصُّلح مع الملك العادل، رُبَّما لأنَّه كان مسالماً في طبعه، لَيِّن العريكة، يُؤثر السلامة، أو لأن مرض أخيه جعله يُفكِّر في مشاكل البيت الأتابكي، ورأى أن عودته نحو سنجار غدت ضرورية، ومهما كان الأمر فقد قرَّر الصُّلح، وكان ذلك يصبُّ في مصلحة العادل. فاضطرَّ صاحب ماردين للتضرُّع، وتشفَّع إلى العادل، فعفا عنه. ولم يُضيِّع العادلُ الفُرصة، واستغلَّ وُجود النجدات معه، فأمر الظافر ـ وهُو بعسكر دمشق ـ أن يُحاصر سروج، وأمده، ففتحها. ثُمَّ تحرَّك العادل نحو الرقَّة، فتسلَّمها، وأعطاها إقطاعاً إلى ابن أخيه الظافر قائد نجدة دمشق[6]، وكانت هي وسروج لعماد الدِّين صاحب سنجار[7]. كذلك استولى العادل على بلد الخابور[8] جميعه، وفرَّقه إقطاعاً على المُلُوك الذين معه، مثل:

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 100.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
3 - يقول ابن الأثير واصفاً العادل عند اقتراب قُوَّات الأتابكة منه: "فخاف خوفاً عظيماً". (الكامل في التاريخ، 12 / 100)، ورُبَّما كان هذا الخوف من إضافات ابن الأثير ليرضي سادة المَوصل، الذين كتب في ظلِّ رعايتهم، وإلَّا فما أدراه بخوف العادل، وإنْ كان قليلاً، أو عظيماً، علماً أنَّه لا داعي لخوف العادل، فقد وصلتْهُ نجدات قويَّة.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 601.
5 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14 / 939.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
7 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 203، والفَتْح القِسِّي، العماد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 13/ 436.
8 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 13 / 436.

صاحب حماة، وصاحب حمص[1]. إن هذا التوزيع للإقطاعات لابُدَّ أن العادل كان يقصد منه استمالةَ أُمراء ومُلُوك بني أيُّوب، وتقريبهم إليه، ولم يكن يقصد منه توزيع إقطاع عسكري حقيقي، بدليل استرجاعه - فيما بعد - لكُلِّ الإقطاعات التي وزَّعها في هذه المرحلة المُبكِّرة من مُلكه.

كان هذا أوَّل احتكاك عسكري بين الأيُّوبيَّة وأتابكة المَوصل، وقد تمَّ بعد وفاة صلاح الدِّين مُباشرة بتحرُّك أتابكي نحو الرُّهَا، التي تتبع للعادل، وفي هذا الصراع، وقف البيت الأتابكي مُوحَّداً مُقابل البيت الأيُّوبي، الذي خاض أوَّل امتحان له في الوحدة ضدَّ خطر خارجي؛ حيثُ أمدَّ كُلَّ أبناء صلاح الدِّين عمَّهم بالجُيُوش، ولكنَّهم لم يتوقَّعوا أن السياسة الأيُّوبيَّة الجزرية - بعدها - ستُصبح صدى لصراعاتهم في الشَّام.

الأتابكة وأولاد العادل، نُوَّاب الجزيرة :

في عام **598** هـ **1202**م، وبعد استتباب الأمر للعادل في الشَّام ومصر، سحب ابنَهُ الكبير ووَلِيَّ عهده الكاملَ مُحمَّد من الجزيرة، وولاه مصر، وولَّى العادلُ ابنَهُ المُعظَّمَ عيسى دمشقَ، ومعها سُورية الجنوبية، وولَّى ابنَهُ الأشرفَ مُوسى على مُعظم مُمتلكاته الجزرية، و كانت قاعدتها حَرَّان، ووضع معه أخاه الأوحد في ولاية مَيَّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس[2]. من هذا التوزيع؛ نستطيع أن نستنتج الأولويات في سياسة العادل، فيبدو واضحاً أن آخر اهتماماته هي الجزيرة، بينما يُركِّز - بشدَّة - على مصر، فهي القاعدة الأساسية لحُكم بني أيُّوب، ثُمَّ تليها الشَّام.

ولأن العادل كان يرغب بالحفاظ على مكاسبه في الجزيرة، وبالتَّالي؛ على دولته، فقد سعى جاهداً لتحقيق نوع من السِّلْم المحليِّ في الجزيرة، خاصَّة في بداية عهده، وحاول أن يتجنَّب أيَّ مُغامرة عسكريَّة قد تقلب الوضع كُلَّه في وجهه، وكانت نصائحه لأولاده في الجزيرة تدلُّ على ذلك، خاصَّة أنَّه كان يشكُّ في تصرُّفات ابن أخيه الظَّاهر غازي في حلب. ويبدو أن فشل صلاح الدِّين مرَّتَيْن أمام المَوصل كوَّن لدى العادل فكرة خاطئة عن قُوَّة الأتابكة، ولم يُدرك ما آل إليه الحال بعد كُلِّ تلك السنوات والتغيُّرات في المَوصل.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 85 - 59.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.

ولكن الظُّرُوف كانت تصبُّ في مصلحة العادل، فقد وقع الانقسام ضمن البيت الأتابكي، ففي عام **594** هـ **1198**م، ونتيجة لتعدِّيات قُطب الدِّين صاحب سنجار على قرى تتبع المَوصل، قام أمير المَوصل نُور الدِّين، واحتلَّ نصيبين، وهي من أملاك سنجار[1]. فراسل قُطب الدِّين الملك العادل، وكان بدمشق، وبذل له الأموال ليُنجده، ولاحت فُرصة نادرة للعادل تجعله يدخل وسط البيت الأتابكي بدعوة من أحد أفراده، فلم يتردَّد، وجمع قُوَّة كبيرة، وتحرَّك نحو الجزيرة.

في هذه الأثناء، كان نُور الدِّين قد انسحب من نصيبين، وعاد للمَوصل بسبب وباء تفشَّى في عسكره، فاستعادها قُطب الدِّين، لكنَّ العادل - كعادته - أراد أن يستغلَّ وُجُود الجيش معه في الجزيرة، فتوجَّه نحو ماردين، التي كان مُدبِّر المملكة فيها قد دعاه ليتسلَّمها مُقابل عوض[2]، ولكنَّه لم يفِ للعادل[3]، وتحصَّن في ماردين، فهاجمها العادل، واستولى على ربضها، وحاصر القلعة[4]، واستمرَّ بحصارها، حتَّى دخلت سنة **595** هـ **1199**م. وكان من المُتوقَّع أن لا تصمد القلعة طويلاً أمام قُوَّات العادل، ومعه قُوَّات أيُّوبية كبيرة، لكنَّ حَدَثاً ما لم يكن بالحسبان، وقلب الموازين مرَّة أُخرى، إنَّما - الآن - داخل البيت الأيُّوبي، فقد ورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، واستدعاء أخوه الأفضل ليتربَّع مكانه على عرش القاهرة. وبدأ الخطر - الآن - يلوح من جانب حلب وصاحبها الظَّاهر بن صلاح الدِّين، الذي أخذ يُدبِّر لأَخْذ دمشق من عمِّه العادل، فكان من مصلحته أن يُثبته على حصار ماردين، فاتَّصل الظَّاهر بأتابكة المَوصل واتَّفق مع نُور الدِّين أميرها، ليتحرَّك نحو ماردين لمنع سُقُوطها، وبذلك ضمن منع العادل من الحَرَكة نحو الشَّام. وعندما خرج الأفضل من مصر طالباً دمشق أرسل إلى نُور الدِّين يطلب التحالف معه، والمُساعدة ضدَّ العادل[5].

وأخذ البيت الأيُّوبي بالانقسام، وعاد البيت الأتابكي للتجمُّع ضمن تحالف شمالي كبير، فكان معهم الظَّاهر الأيُّوبي ملك حلب، وصاحب ماردين. فالعادل - الآن - في وضع عسكري حرج، وأملاكه غنائم سهلة لِمَنْ يتصدَّى لها. وتحرَّك جيش نُور الدِّين من المَوصل، ومعه قُطب الدِّين مُحمَّد

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9 / 246.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 234.
4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 349.
5 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 351.

من سنجار، ومعزّ الدِّين سنجر شاه من جزيرة ابن عُمر، واتَّجهوا صوب ماردين، التي ترك العادل قلعتها تحت الحصار بقيادة ابنه الكامل مُحمَّد، وأسرع هُو صوب دمشق، التي كانت جُيُوش أيُّوبية الشَّام ومصر تتحرَّك نحوها لحصارها، لكنَّ العادل تمكَّن من دُخُول دمشق، والثبات فيها.

واستطاع جيش الأتابكة هزيمة الكامل عند ماردين، فتراجع أمامهم، وكانت الفُرصة سانحة أمام التجمُّع الأتابكي وحُلفائهم لإعادة احتلال الجزيرة، وكانت نيَّة نُور الدِّين المُتابعة لأَخْذ حَرَّان[1]، لكنَّه ـ فجأة ـ يُقرِّر الانسحاب نحو قاعدته في المَوصل مُحتجَّاً بمرضه[2]، ويبدو أن حقيقة الأمر هي خلافه مع الظَّاهر الذي يذكر ابن الأثير بأنَّه كان بسبب طلب الظَّاهر الخطبة والسّكَّة في المَوصل[3]، إن هذا السبب حتَّى وإنْ ذكره ابن الأثير فهُو مشكوك فيه، خاصَّة في ظلِّ هذا الظرف، فخطر العادل مازال قائماً. ويبدو لنا السبب الأكثر احتمالاً لعودة نُور الدِّين وانسحابه من مشروع التكتُّل ضدَّ العادل هُو عدم تطبيق الظَّاهر لبُنُود الاتِّفاق معه، فقد اتَّفقا على أن تكون لنُور الدِّين سروج والرقَّة، ولكن الظَّاهر قام بإقطاع سروج إلى الأمير سيف الدِّين بن علم الدِّين بن جندر قائد القُوَّة الحلبية لدعم التحالف الأتابكي ضدَّ العادل[4]، فقد تبيَّن نُور الدِّين حقيقة نواياه، وأدرك أن الظَّاهر يُريد استغلال كره الأتابك للعادل، وتجنيدهم ضدَّه، مُستفيداً من إيقاظ أحلامهم باستعادة الجزيرة. وجاء تنبُّه نُور الدِّين لذلك في الوقت المُناسب، ممَّا مكَّن العادل من الاحتفاظ بدمشق، ولذلك نعتقد أن موضوع الخطبة والسّكَّة لم يكن ذا بال لدى نُور الدِّين، فهي شيء شكلي، ويُمكن أن يكون مرحلياً يتمُّ التَّخلِّي عنه عند اللزوم، خاصَّة إذا عرفنا أن نُور الدِّين كان قد سبق وعرض الخطبة والسّكَّة في بلاده على الظَّاهر عندما طلب التحالف معه ضدَّ العادل عام **606 هـ 1209م**، أثناء هُجُوم العادل على سنجار، والاعتراف به سُلطاناً على كلِّ بلاد الأتابكة[5]. كما أن قُطب الدِّين مُحمَّد صاحب سنجار كان يخطب فعلاً للعادل ببلاده[6]. هُنا؛ تبدو لنا السياسة الأيُّوبيَّة في الجزيرة ـ بشكل جلي ـ كصدى لسياستهم في الشَّام.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
2 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 196، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 3/ 145.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.
6 - المُختصر، أبو شامة، 3/ 105.

وبعد طرد الأفضل من مصر، وخلع المنصُور بن العزيز عن عرشها عام **596 هـ 1200م**، انفرد العادل بملك مصر، ولم يبقَ في ساحة المُواجهة ضدَّه من أولاد أخيه سوى الظَّاهر في حلب، الذي أيقن أنَّه يكون سيكون التالي في أطماع عمِّه العادل، فعاد الظَّاهر لإحياء الحلف الشمالي من جديد، لحماية ظهره في الجزيرة والشرق، ليتفرَّغ للصراع المُقبل مع عمِّه العادل. اتَّصل الظَّاهر بنُور الدِّين أتابك المَوصل، وحُسام الدِّين يولق صاحب ماردين، "وتحالفوا، وحلفوا"[1]، وظهرت فائدة هذا الحلف للظاهر عندما تحرَّك لحصار دمشق عام **597 هـ 1201م**؛ حيثُ طلب من نُور الدِّين مُهاجمة مُمتلكات العادل في الجزيرة، فتحرَّك نُور الدِّين من المَوصل ومعه ابن عمِّه قُطب الدِّين صاحب سنجار، وانضمَّ إليهما صاحب ماردين، وقصدوا رأس عين، وفيها الفائز بن العادل نائباً عن أبيه.

وهُنا ـ أيضاً ـ يُكرِّر نُورُ الدِّين انسحابَهُ بحُجَّة تفشِّي المرض بين قُوَّاته، ولكن الاحتمال الأقوى لانسحابه هُو تواتر الأخبار من دمشق عن اختلاف الظَّاهر وأخيه الأفضل ورجحان كفَّة عمِّهما العادل في صراعهم معه على دمشق. وليحمي نُور الدِّين ظهره خلال انسحابه، وليُعوِّض تورُّطه الثَّاني، وانخداعه بوُعُود الظَّاهر، قام بعقد الصُّلح مع الفائز بن العادل، ثُمَّ انسحب نحو المَوصل، لينهار التحالف الشمالي مرَّة أُخرى[2]، ممَّا مكَّن الفائز للتفرُّغ في الجزيرة، فقلب الآية، وبدلاً من ضغط الحُلفاء على العادل في الجزيرة لتسليم دمشق أخذ الفائز بالهُجُوم على مُمتلكات حلب لتخفيف الضغط العسكري عن دمشق، فهاجم بالس ومنبج، ولمَّا تصدَّى له المبارز أقجا قائد جند حلب هزمه الفائز، وأمعن بنهب إقطاعات قادة جند حلب المُحاصرين لدمشق، حتَّى يشغل أفكارهم. ولكنَّ كُلَّ هذه الحَرَكَة للفائز في الجزيرة لم تكن إلَّا الجُزء الأوَّل في خُطَّته، التي سهَّلها له فشل التحالف الحلبي الأتابكي، فالجُزء الثَّاني، وهُو الأهمّ، كان التحاق الفائز مع جند الجزيرة بوالده العادل المُرابط في نابلس لإنقاذ دمشق المُحاصرة.

وبعد أن استتبَّ الأمر للعادل داخل البيت الأيُّوبي، بإقصاء الأفضل وخُضُوع الظَّاهر، غدا العادل السُّلطان الأعظم للأيُّوبية، فله الخطبة والسّكَّة في كُلِّ إمارات الشَّام، وبيده مُدُن عدَّة من الجزيرة، إضافة إلى تملُّكه مصر ودمشق وجنوب الشَّام. وكان الأمر على العكس من ذلك داخل

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 354، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 120، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.
2 - الباهر، ابن الأثير، 196، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 126، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 34.

البيت الأتابكي، فقد عادت الخلافات الأتابكية من جديد عام **600** هـ**1203**م؛ إذْ قام قُطب الدِّين مُحمَّد بالانتماء للعادل واللُّجُوء لحمايته بإعلان الخطبة والسّكّة له في سنجار، ورُبَّما كان ذلك نكاية بأمير المَوصل نُور الدِّين، أو خوفاً من مطامعه، التي سُرعان ما تبدَّت بهُجُومه على نصيبين، واحتلالها(1)، فأمر العادلُ ابنَهُ الأشرف الذي أولاه حُكْم أملاكه في الجزيرة، وابنه الأوحد صاحب مَيَّافارقين، بالتحرُّك لنجدة صاحب سنجار، فسارا ومعهما نجدة صاحب حلب، فهزموا نُور الدِّين الذي هرب لا يُصدِّق بنجاته إلى المَوصل(2)، فالانقسام الأتابكي - الآن - يواجهه تجمُّع أيُّوبي.

الانقلاب في توجُّهات المَوصل السِّياسيَّة:

يبدو أن نُور الدِّين صاحب المَوصل قد أيقن - بعد تلك التجربة - أنَّ أيَّ تحرُّك ناجح يجب أن يكون بدعم وتأييد العادل، الذي أصبح القُوَّة الكُبْرَى في المنطقة، وفي الوقت نفسه؛ كان العادل يرى من مصلحته تفريق مُلُوك البيت الأتابكي، والدُّخول بينهم؛ ليتمكَّن من السيطرة عليهم كما فعل مع أولاد أخيه، ففي عام **605** هـ **1208**م، طلب العادل مُصاهرة نُور الدِّين، وخطب ابنته لأحد أولاده(3)، وسعى لإقامة تحالف معه، واتَّفقا على اقتسام الممالك الأتابكية الأُخرى؛ بحيث يأخذ العادل سنجار وهي لقُطب الدِّين ابن عمِّ نُور الدِّين، ويأخذ نُور الدِّين جزيرة ابن عُمر، وهي لمحمود بن سنجر شاه(4). وجاءت الفُرصة للعادل تسعى، فقد هاجم الكرج مملكة خِلاط، واحتلُّوا أرجيش(5)، وكانت للأوحد بن العادل، الذي استصرخ أباه(6)، فأعلن العادل التعبئة ضدَّ الكرج، "وكتب إلى البلاد بطلب العساكر، وأظهر أنَّه يُريد قصد الكرج"(7)، وكان ذلك ملائماً لإخفاء العادل حقيقة نواياه ضدَّ سنجار، ولم يُظهر اتِّفاقه مع صاحب المَوصل، لمنع قُطب الدِّين صاحبها من الاستعداد، وأخذه على غرَّة من جهة، ومن جهة أُخرى؛ لمنع الأُمراء الأيُّوبيِّين، الذين قدَّر العادل أنَّ

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 286، - أمَّا ابن نظيف؛ فيقول: إن خُرُوج العادل كان بسبب ما وصل إليه من تحالف أتابك المَوصل والظاهر مع جميع الشرقيين. (المنصُوري، 57).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 183.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

أَخْذَهُ لسنجار قد لا يُعجبهم، من التآمر عليه، بينما لا يُشكِّل التصدِّي المُعلَن للكرج أيَّ خطر عليهم، بل على العكس، فالعدوُّ كافر، وهذا جهاد لا يستطيع أيٌّ منهم أن يتخلَّف عنه.

وسارع العادل إلى حَرَّان، وطلب أن يكون التجمُّع عليها(1)، فوصله ولده الأوحد صاحب أخلاط مع عسكره، وولده الأشرف بقُوَّات الجزيرة، والمنصُور صاحب حماة، والمُجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، والصَّالح صاحب آمد مع عسكرهم، كما وصلت عساكر الظَّاهر صاحب حلب، وصاحب السويداء وصاحب دارا بقُوَّاتهم(2)، والأطرف في الأمر وُصُول عسكر المنصُور صاحب سنجار(3). وعندما وصل العادل رأس عين بلغه انسحاب الكرج(4)، وذلك " أن الكرج لَمَّا عرفوا بحركته، خافوا، وكرُّوا عائدين إلى بلادهم(5). فالتفت العادل لتحقيق هدفه الرئيس، ولابُدَّ أنَّه قد حار في أمره، فكيف يتوجَّه نحو سنجار لأَخْذها وقُوَّات أميرها قُطب الدِّين معه في حملته؟! وكيف يُبرِّر ذلك أمام المُلُوك والأُمراء من آل بيته؟! فلم يجد أفضل من إعلان الغضب على قُطب الدِّين؛ لأنَّه تخلَّف عن الحُضُور بنفسه، واكتفى بإرسال قُوَّاته، وقال: إنَّه "تجدّد له قصد سنجار لتخلُّف صاحبها عن وُصُوله بنفسه"(6)، مع أن الظَّاهر غازي - أيضاً - لم يصل بنفسه، فالأمر مُبيَّت، وأساس جمع الجُيُوش هُو قصد سنجار، وعلى الغالب؛ فإن تحرُّك الكرج جاء عَرَضاً، فأحسن العادل استغلاله. وأعلن العادل أنَّه سيتوجَّه لمعاقبة صاحب سنجار أوَّلاً، وأرسل إليه يطلب تسليم سنجار مُقابل عوض، فرفض ذلك(7). وفي عام **605** هـ **1208**م، كان العادل يتحرَّك صوب سنجار، وفي طريقه أخذ نصيبين والخابور، ثُمَّ "نصب المجانيق، وقاتل سنجار، وأشرف على أَخْذها عنوة(8)".

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 57.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 75 - 58.
4 - زبدة الحلب، ابن العديم، 2/ 630.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 192.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 57.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 191.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 95 - 58.

عندما حاصر العادلُ سنجارَ كان نُور الدِّين صاحب المَوصل يهمُّ بإرسال نجدة عسكريَّة له مع ولده الظَّاهر عزّ الدِّين مسعود لتنفيذ الاتِّفاق المُسبق بينهما، وإذْ برسول مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، الذي كانت له وُجهة نظر أُخرى، فقد شعر بأنَّ العادل قُوَّة كُبرَى في جُوارها خطر شديد عليه، وعلى المَوصل، فأنفذ رسوله إلى صاحب المَوصل، وشرح وُجهة نظره، وعرض عليه التحالف لإنقاذ سنجار، التي ستكون حاجزاً أمام أطماع العادل بممالكهم. هُنا؛ أدرك نُور الدِّين أنَّه استقدم أكبر الأخطار نحو حُدُوده، وخاف مغبَّة ما بعد سيطرة العادل على سنجار[1]، ورُبَّما كان مُظفَّر الدِّين كوكبوري حاكم إربل هُو مَنْ نمَّى هذا الخوف في نفس نُور الدِّين من خلال كُتُبه المُتواترة عليه، والتي يعرض فيها المُساندة، ويدعوه للتصدِّي للعادل، وتشكيل تحالف ضدَّه، فوافق نُور الدِّين، وراسلا الظَّاهر في حلب، فوافق، وانضمَّ إليهم، مع أن قُوَّة كبيرة من جيشه كانت مع العادل على سنجار. وأظهر غازي سبباً غير حقيقي لتبرير خُرُوجه على عمِّه، فقال: إن العادل قد تصرَّف بقرية القرادي التابعة لماردين، والتي حصل عليها الظَّاهر نتيجة عقد الصُّلح بين العادل وصاحب ماردين[2]، وبالطبع؛ فدوافعه الحقيقيَّة لا تخفى على أحد، فقُوَّة العادل في الشمال ستكون ضدَّه أيضاً، والظاهر لديه شكٌّ دائم بنوايا عمِّه، خاصَّة بعدما فعله بأخَوَيْه الأفضل والعزيز[3]. وراسل الحُلفاء الخليفة ليشفع لدى العادل بصاحب سنجار[4]، وما ذلك إلَّا لزيادة الضغط على العادل، وعَزْله سياسياً.

وأرسل مُظفَّر الدِّين إلى العادل يشفع في صاحب سنجار، "فلم يقبل، وقال: لا يجوز لي في الشرع تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد، وترك خدمة الأجناد، وفي مصلحة الجهاد"[5]، فكانت حُجَّته هي المصلحة العامَّة، التي لا يُراعيها صاحب سنجار وفساده وإتلافه للأموال العامَّة، كما اتَّهمه بالتقصير بحقِّ الجيش، وبواجب الجهاد، إنَّما تهمة كبيرة وحُجَّة مُسوّغة في

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.
3 - يُضيف ابن العديم سبباً آخر لا نعتقد بصحَّته، وهُو أن الحُلفاء قد وعدوه بالسَّلْطَنَة، وأنْ تكون الخطبة والسكَّة باسمه في بلادهم، (زُبْدَة الحَلَب، 2/ 630).
4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 355.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.

ذلك الزَّمان. وكان ردُّ مُظفَّر الدِّين أنْ أفسد جماعة من عسكر العادل[1]، بأنْ استمالهم بالأموال والوُعُود بإقطاعات، ففسدت نيَّاتهم عن مناصحة العادل بالقتال معه، وهذه طريقة للتعامل كانت شائعة جدَّاً، فمُعظم الجُند جاهز سلفاً للاتِّفاق مع مَنْ يدفع أكثر.

واستمرَّ حصار العادل لسنجار حتَّى عام **606** هـ **1209**م، فطلب صاحبها قُطب الدِّين مُساعدة ابن عمِّه نُور الدِّين صاحب المَوصل، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، ولمَّا كان العادل قد رفض الشفاعة بسنجار، فتحرَّكا بعساكرهما نحوه[2]. كذلك خرج الظَّاهر من حلب بقُوَّاته، وأرسل للعادل يشفع بصاحب سنجار، وقال لرسولَيْه: "إنْ لم يقبل الشفاعة، فأعلماه أني خارج إلى بلاده، وأنْ يأمرا عسكر حلب أنْ يُفارقوه إلى المَوصل، أو إلى حلب"[3]، وأرسل يُغري المُجاهد صاحب حمص، والمنصُور صاحب حماة بالعادل، فكانت الضربة القاسمة لوحدة البيت الأيُّوبي واجتماعه في القتال على سنجار، فتخاذل قُوَّاد العادل عن القتال، وتآمر مُلُوك الأيُّوبيَّة الذين معه، لا سيما المُجاهد الذي كان يُدْخِل من جانبه الأقوات إلى سنجار[4]، وغالباً؛ فقد كانت للمُجاهد دوافعه الخاصَّة ضدَّ العادل، ولم يتصرَّف بذلك من أجل الأتابكة، أو بتحريض الظَّاهر له[5].

وفي هذه الأثناء، أرسل الخليفةُ النَّاصر رسولَهُ أبو نصر هبة الله بن المبارك بن الضحَّاك، وهُو أُستاذ داره، والأمير آقباش، وهُو من خواصِّ مماليك الخليفة، للشفاعة بصاحب سنجار، وترك حصارها[6]. فلاحت فُرصة الخلاص من هذا المأزق للعادل، فأظهر قبول وساطة الخليفة، ووافق شريطة احتفاظه بنصيبين والخابور[7]، ويُضيف ابن الأثير شرطاً آخر له، هُو دُخُول سنجار في حلفه8، ورُبَّما كتب ابن الأثير ذلك تسويقاً لمواقف صاحب المَوصل المُستقبلية ضدَّ سنجار

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.
2 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 355.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 196.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.
5 - راجعْ: مملكة حمص الأيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 167.
6 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 355، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197، - بينما يقول أبو شامة: " وأرسل الخليفة ابن الضحَّاك أُستاذ داره آقباش الناصري يشفع إلى العادل" (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 67)، وهذا خلط بين الشخصيَّتَيْن، رُبَّما كان ذلك بسبب خطأ في النسخ.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.
8 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 302.

وصاحبها، فموضوع التحالف شيء غير مضمون، إن لم يكن عن رغبة صادقة ومصلحة حقيقيَّة، لذلك لا نعتقد أن العادل قد اهتمَّ كثيراً بشرط كهذا.

وقفة مع تحرُّكات الحُلفاء ضدَّ العادل في حصار سنجار:

1 ـ تدخَّل الظَّاهر غازي في حصار سنجار مدفوعاً بمصالحه وعدائه القديم للعادل، ولخشيته من تزايد نُفُوذ عمِّه في الشمال، فأوفد رسولَيْن للعادل بمهمَّة علنية، يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، وبمهمَّة سرِّيَّة لتبليغ القُوَّات الحلبية في جيش العادل كي تعود إلى حلب، وأعلن أنَّه نقض اتِّفاقه مع العادل؛ لأنَّه احتلَّ قرية قرادي، ولم تكن القرية ذات بال، ولكنْ؛ وفي الحقيقة، كان الظَّاهر يفتش عن سبب.

2 ـ اتَّصل الحُلفاء بالملك المُجاهد صاحب حمص، الذي كان على رأس قُوَّاته على حصار سنجار مع العادل، واستمالوه، فالمُجاهد ـ أيضاً ـ يهمُّه أن لا تتَّسع مملكة العادل، فقد يتفرَّغ له بعد أن شاهد تصرُّفه مع أولاد أخيه، وهم الأقرب له، "فأخذ المُجاهد ـ بدلاً من القتال على سنجار وتشديد الحصار عليها من جهته ـ يُدخل إليها الأغنام، وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يُقاتل عليها"[1]، وكذلك اقتدى به غيره من الأُمراء المُحاصرين لسنجار[2].

3 ـ توحَّدت ـ بشكل غير مُتوقَّع ـ قُوَّات مُظفَّر الدِّين كوكبوري مع قُوَّات نُور الدِّين، ثُمَّ تحرَّكا نحو سنجار، بعد أن أرسلا يشفعان لصاحب سنجار، ورفض العادل[3].

4 ـ ويبدو أن تزايد أنصار الحلف الشمالي ضدَّ العادل، وتخاذل أصحابه، وتفرُّقهم، وتدخُّل الخليفة بقُوَّة بإرساله شخصيَّة مُهمَّة في السِّفارة إلى العادل هو بهاء الدِّين بن الضحَّاك أُستاذ دار الخلافة، يقول ابن الأثير حول إنفاذ مثل هذا الرسول: "وناهيكَ بهذا شرفاً وجلالة وقدراً لنُور الدِّين عند أمير المُؤمنين؛ إذْ يُنفذ مثل أُستاذ داره[4]، ومعه الأمير آقباش من خواصِّ مماليك الخليفة"[5]، فاضطُرَّ العادل لقبول الوساطة، وفكّ الحصار عن سنجار[6].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 286.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.
3 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 355.
4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 355.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 287.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 59، والباهر، ابن الأثير، 196، ـ ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

5 ـ إن قبول العادل لوساطة الخليفة ما هُو إلَّا مخرج حفظ به ماء وجهه، فقد أيقن بفشل الحصار، وتأكَّد من تخاذل بني أيُّوب من حوله، وأن الأُمُور تكاد أن تنقلب عليه، فكانت وساطة الخليفة إنقاذاً له بالدرجة الأُولى.

ونستنتج من كُلِّ ذلك أن البيت الأتابكي بعلاقاته السِّياسيَّة والعسكريَّة لم يكن مُكافئاً للبيت الأيُّوبي، لا من حيثُ القُوَّة والتأثير، ولا من حيثُ وحدة البيت الأتابكي، فلم يكن لهم وزن إقليمي مُؤثِّر قادر على إحداث تغيُّرات جذرية في شمال العراق والجزيرة، حتَّى في حال استغلالهم لخلافات البيت الأيُّوبي، ونجد ـ على الدوام ـ أن مُعظم أُمراء الأتابكة يخضعون لسُلطان الأيُّوبيَّة، ويدعمونهم بالنجدات، ويخطبون لهم وينقشون اسمهم على السكَّة في بلادهم، في مُعظم هذه المرحلة من الزمن. إلَّا أن عهد التفوُّق الأيُّوبي الكامل، والانفراد بالزعامة، قد تمَّ بوفاة نُور الدِّين أرسلان شاه صاحب المَوصل عام **607** هـ **1210**م، واقتسام طفلَيْه الصغيرَيْن مملكته[1]، وبدء وصاية بدر الدِّين لُؤلُؤ مملوك أرسلان شاه[2] على المَوصل. وبأبسط الطُّرُق زالت عقبة كأداء من أمام الملك العادل، وتحقَّق له الاطمئنان والراحة على حُدُوده الشَّرْقيَّة[3].

العلاقات مع الأتابكة في عهد الأشرف:

بعد موت السُّلطان العادل **615** هـ **1218**م، كان الصُّلح بين الأيُّوبيَّة والأتابكة، الذي عُقد على أسوار سنجار مايزال قائماً، وحاول الملك الأشرف وهُو أقوى مُلُوك شمال الشَّام أن يحافظ على علاقاته مع الأتابكة ومُلُوك الأطراف على أساس ذلك الاتِّفاق، لكنَّ مُستجدَّات الأُمُور سبقتْهُ. ففي العام نفسه تُوفِّي عزّ الدِّين مسعود بن أرسلان شاه صاحب المَوصل[4]، فتحرَّك عماد الدِّين زنكي بن أرسلان شاه صاحب قلاع الحميدية وعقر وشوش، واستولى على عدد من قلاع المَوصل، ولمَّا تصدَّى

---

1 - تولَّى في المَوصل عزّ الدِّين مسعود بن نُور الدِّين أرسلان شاه، وكان عمره عشر سنين. وتولَّى أخوه الأصغر عماد الدِّين زنكي قلاع: عقر الشوش والحميدية.
2- بدر الدِّين لُؤلُؤ: ابن عبد الله، الملك المسعود أبو الفضائل الأتابكي الرُّومي، مملوك أرمني اشتراه أرسلان شاه، وتمكَّن عنده، حتَّى وثق به، فولاه الوصاية على ابنه. ترجمته في: الباهر، ابن الأثير، 23، والكامل، ابن الأثير، 12 / 238، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4 / 171، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2 / 126.
3 - الأيُّوبيُّون في شمال الشَّام والجزيرة، محمود ياسين التكريتي، 152.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 114.

له لُؤلُؤ الوصي على أمير المَوصل الصغير نُور الدِّين أرسلان شاه ابن عزّ الدِّين مسعود، هزمه عماد الدِّين بدعم ومُساعدة فعَّالة من مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، فلم يجد لُؤلُؤ أمامه إلَّا الالتجاء إلى الأشرف[1].

أرسل الأشرف إلى كوكبوري يُذكِّره بمُعاهدة سنجار، ويُهدِّده، لكنَّ كوكبوري لم يلتفت لتهديده، فالأخبار كانت قد تسرَّبت بأنَّ الفرنج قد هاجموا مصر، وأنَّهم أخذوا دمياط، وأن الأيُّوبيَّة بكاملهم مشغولون بالدفاع عن مرتكز حُكْمهم في مصر. وهذا ما شجَّع مُلُوك الأطراف الآخرين على تشكيل حلف مُعادٍ للأشرف في شمال الشَّام، واتَّفقوا على طاعة عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، وخطبوا له على منابر بلادهم. وانضمَّ إلى الحلف كُلٌّ من: صاحب آمد، وصاحب ماردين[2].

ولكنْ؛ مع كُلِّ الظُّرُوف الصعبة التي قامت في وجه الأشرف، فقد أرسل نجدة عسكريَّة قويَّة إلى لُؤلُؤ، مكَّنته من هزيمة عماد الدِّين عام **616 هـ 1219م**، عند قلعة العقر، فهرب إلى إربل مهزوماً، واستعاد لُؤلُؤ قُوَّته في المنطقة، وَسَيَّرَ نجدةً قويَّة مع ابنه إلى الأشرف، الذي أراد أن يضرب بلاد الفرنج في الساحل ليُخفِّف ضغطهم على الكامل في مصر. وتحرَّك كوكبوري من جديد، وضغط على المَوصل، وتمكَّن من هزيمة لُؤلُؤ، الذي هرب، ودخل المَوصل[3]. وازداد ضغط كوكبوري على الأشرف، فقد راسل بعض أُمرائه، واستمالهم، فتركوا الأشرف، والتحقوا به، ومنهم ابن المشطوب. وعندما أخذت قُوَّة التحالف تزداد وتبرز ضدَّ الأشرف، انهار هذا الحلف فجأة، فقد تُوفِّي زعيمه كيكاوس، واستغلَّ الأشرفُ الفُرصة، ففاوَضَ صاحب آمد، فتخلَّى عن الحُلفاء، وانحاز للأشرف مُقابل حُصُوله على مدينة حاني وجبل جور[4]. وسارع أعضاء الحلف لإعلان ولائهم للأشرف.

وتحرَّك الأشرف بقُوَّاته نحو المَوصل؛ لينهي أمر إربل، وفي الطريق؛ تلقَّاه صاحب سنجار محمود فروخ شاه، وطلب منه استلام سنجار وتعويضه الرقَّة بدلاً عنها، فأخذها الأشرف، وزال منها

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 335 ـ 337.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 342.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 91.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 342.

حُكْم الأتابك نهائيَّاً[1] عام **617 هـ 1220م**[2]، وتابع الأشرف مسيرته، وقُرب المَوصل جاءته رُسُلُ الخليفة للتوسُّط بالصُّلح، ورُسُلُ كوكبوري بإعادة القلاع للمَوصل، فقبل الصُّلح، وعاد[3].

وهُنا نُلاحظ أنَّه بغياب أي استراتيجية دينيَّة كانت أو وطنية للممالك في علاقاتها السِّياسيَّة والعسكريَّة يبرز دور القائد الملك، وهُو غالباً ما يتحرَّك وُفقاً لمطامعه الشخصية، وأهوائه، وإذا مات، فقد تنقلب سياسة الدولة رأساً على عقب، وتنهار الاتِّفاقيات والأحلاف كما حصل عند موت كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم.

العلاقات الأيُّوبيَّة مع المَوصل بعد زوال حُكْم الأتابكة:

نتيجة لعدم ظُهُور شخصيَّات قويَّة، وللخلافات وطمع الإخوة وأبناء العمّ بمُمتلكات بعضهم البعض، زال الحُكْم الأتابكي من المَوصل وسنجار. فقد تسلَّم الأشرف سنجار عام **617 هـ 1220م** "عفواً بلا تعب"، بينما عجز أبوه العادل عنها، ومعه جميع مُلُوك البيت الأيُّوبي، فقد بادلها صاحبها محمود فروخ شاه بن قُطب الدِّين بالرقَّة، لكنَّ الأشرف ما لبث ـ بعد ذلك ـ أن أخذ منه الرقَّة أيضاً[4]. وفي عام **621 هـ 1224م**، أظهر بدر الدِّين لُؤلُؤ أن ناصر الدِّين محمود ابن عزّ الدِّين مسعود قد مات، واستولى على حُكْم المَوصل، الذي كان بيده فعليَّاً مُنْذُ وفاة عزّ الدِّين مسعود عام **615 هـ 1218م**[5].

وكان الملك الأشرف مايزال يُمثِّل أكبر قُوَّة أيُّوبية في المنطقة، وتوجُّهاته السِّياسيَّة تلتقي مع توجُّهات الظَّاهر في حلب، ومع سياسة أخيه المُعظَّم في دمشق، ومع اعتراف الأشرف الاسمي بالسَّلْطَنَة لأخيه الكامل ملك مصر، إلَّا أنَّه كان مبايناً له في الباطن[6]. لكنَّ الأشرف تحوَّل عن

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 343.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، موسوعة 20/ 239، ومفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 73، ـ بينما هي سنة 616 هـ لدى ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 12 / 343.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 242، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 333 ـ 346.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 73.
5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 91.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 246.

سياسته هذه، وتحالف مع أخيه الكامل ضدَّ أخيه المُعظَّم، بعد عودتهم من معركة دمياط 618 هـ 1221م، التي تجمَّع فيها البيت الأيُّوبي بكامله ضدَّ الفرنج، وحقَّقوا نصراً عظيماً عليهم.

ولمَّا وجد المُعظَّم نفسه مُحاصراً بين أخوَيْه: الأشرف في الشمال، والكامل في الجنوب، تحرَّك صوب الجزيرة، وبدأ يُفتِّش عن حُلفاء ليتقوَّى بهم من جهة، وليشغل بال الأشرف بهم من جهة أُخرى. وكان أوَّل حُلفائه هُناك هُو مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، ففي عام 623 هـ 1226م، أرسل إليه المُعظَّم في هذا الشأن مع الشرف بن عنين الشاعر الدمشقي المعروف بالهجَّاء، وعاد منه بجواب الرسالة[1]، ولتأكيد التحالف، وتعبيراً عن نجاحه، أرسل المُعظَّم عيسى ابنه النَّاصر داود إلى إربل ليُقيم في بلاط مُظفَّر الدِّين[2]. وكذلك تمكَّن المُعظَّم من توثيق تحالفه مع صاحب ماردين وغيره من أُمراء الجزيرة[3]، الذين كانوا يخشون تزايد قُوَّة الأشرف في شمال الشَّام.

وتمخَّض تحالف المُعظَّم مع مُظفَّر الدِّين عن خُطَّة هُجُومية تتمُّ بوقت واحد؛ حيثُ يُهاجم كُلٌّ منهم البلاد المُجاورة له، فتوجَّه مُظفَّر الدِّين نحو المَوصل، وتوجَّه المُعظَّم نحو حماة وحمص[4]، لكنَّ ضغط الكامل والأشرف على المُعظَّم جعله يتراجع نحو دمشق دُون تحقيق أيِّ فائدة[5]. ولعدم نجاح المُعظَّم في الشَّام فشل مُظفَّر الدِّين، وارتدَّ عن المَوصل.

المَوصل تستردُّ سنجار:

تُوفِّي الملك المُعظَّم بن العادل عام 624 هـ 1227م، وخلفه في دمشق ابنه النَّاصر داود، وفي عام 625 هـ 1228م، قام كُلٌّ من: الكامل ملك مصر والأشرف صاحب الجزيرة بحصار دمشق، وعندما احتلاَّها أخذها الأشرف مُقابل تسليمه عدَّة مواضع في الجزيرة للكامل، منها: الرقَّة، والرُّهَا، وسنجار[6]. فوضع الملك الكامل ابنةَ العادل ولياً لعهده في مصر، وولَّى بلاد الجزيرة لابنه الصَّالح أيُّوب.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 124.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 110.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 125، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 257.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 140، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 473.

في عام 635 هـ 1238م، بعد وفاة الأشرف أخذ الكامل دمشق من الصَّالح إسماعيل، الذي تولاَّها بوصية من الأشرف[1]. وبعد ذلك؛ بأشهر قليلة تُوفِّي الكامل، فاستقلَّ ابناه، كُلٌّ منهما بما تحت يده، وولَّى أُمراء الكامل ابن أخيه الجواد يُونُس بن ممدود بن العادل نائباً بدمشق، عن العادل بن الكامل سُلطان مصر[2]. وعجز الجواد عن القيام بأمر دمشق، وخاف من العادل؛ لأنَّه لم يُقرَّه في نيابتها، فبادل الصَّالح أيُّوب على دمشق بالرقَّة وسنجار، وعانة[3]، وأقام الجواد في سنجار، وطلب معاضدة لُؤلُؤ حاكم المَوصل، فأجابه مُضمراً له الخديعة والغدر، ولاطفه، حتَّى تمكَّن من الاستيلاء على سنجار، وطرده منها[4]، وهكذا عادت سنجار إلى مملكة المَوصل في ظلِّ دولة بدر الدِّين لُؤلُؤ[5]، الذي خلف أتابكة المَوصل الزنكيين، والذي كانت سياسته وعلاقاته مع الأيُّوبيِّين استمراراً لعلاقة الأتابكة، وقد فرض ذلك الاستمرار موقع المَوصل، ومصلحة القائم بدولتها أيّ كان.

وفي عام 646 هـ 1248م، في عهد الملك النَّاصر الثَّاني صاحب حلب، استغلَّ بدر الدِّين لُؤلُؤ صراع النَّاصر مع أيُّوب على حمص، فاحتلَّ حصَّة حلب من نصيبين، ونهب عدَّة مناطق تابعة لها، مثل: دار، ورأس عين، فأرسل النَّاصر جيشه، وهزم لُؤلُؤاً، واستعاد نصيبين بالكامل، بما فيها حصَّة المَوصل، فسارع لُؤلُؤ إلى الخليفة ليُرسل إلى النَّاصر مُتوسِّطاً بالصُّلح بينهما، فتنازل النَّاصر عن نصيبين، التي كانت مصدر الخلافات بين الطرفَيْن، مُقابل مبلغ سنوي من المال يدفعه لُؤلُؤ[6]، وفي الحقيقة؛ يُمكن أن يُفسَّر هذا التنازل من قبل النَّاصر، وهُو الطرف الأقوى، برغبته للتفرُّغ لحرب

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 317، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 493.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 389، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498
4 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 30.
5 - حكم لُؤلُؤ المَوصل مُدَّة خمسين عاماً، ولمَّا قدم التَّتار عاهدهم، وحالفهم، وقاتل معهم، وقابل هُولاكُو عدَّة مرَّات، وكان هُولاكُو يثق به، فسلَّمه عدَّة بلاد، وتُوفِّي لُؤلُؤ عام 659 هـ 1261م، عن ستَّة وتسعين عاماً، ففوَّض هُولاكُو مُلكَه إلى ابنه الملك الصَّالح، الذي كان قد زوَّجه ابنة جلال الدِّين الخوارزمي، وانتفض الصَّالح على التَّتار، وحالف بيبرس سُلطان مصر، فأمدَّه بالجُنُود، لكنَّ زوجته راسلت التَّتار، فهاجموا المَوصل، وبعد صُمُود بطولي، قتلوه شرَّ قتلة.(جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، 327 ـ 332).
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 138، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وتاريخ ابن الوردي، 2/ 264، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

أيُّوب القادم بجُيُوش مصر لحصار حمص، وانتزعها منه[1]. ثُمَّ عاد بدر الدِّين لُؤلُؤ ليستغلَّ انشغال النَّاصر الثَّاني بحربه ضدَّ المماليك في مصر، فاحتلَّ جزيرة ابن عُمر عام 649 هـ 1251م، واعتقل الملكُ المسعودُ آخرَ مُلُوك الأتابكة الزنكيين فيها، مُنهياً هذه الدولة إلى الأبد[2].

وفي النِّهاية؛ نُلاحظ أنَّه بعد أن فَقَدَ الأتابكةُ الأملَ باسترداد الشَّام، التي كانوا يعدُّونها ميراثهم الشرعي من نُور الدِّين، وبعد عدَّة معارك غير مُجدية مع صلاح الدِّين، وتسلّمه حلب منهم، هادنوه، ودعموه في جهاده ضدَّ الفرنج، ولكنْ؛ بعد موت صلاح الدِّين حاول الأتابكة الانقضاض على أخيه ووريثه في الجزيرة الملك العادل، وجمعوا جُيُوشهم، وحالفوا أُمراء الجزيرة، لكنَّهم - في النتيجة - عادوا حُلفاء مُقرِّين بخُضُوع اسميٍّ للعادل، ولابنه الأشرف، وصحيح أن دولة الأتابكة عاصرت الدولة الأيُّوبيَّة، ولكنَّها لم تكن - في يوم من الأيَّام - نـدَّاً لها، ولم تُشكِّل أيَّ خطر عليها، فقد كان الأتابكة مُنقسمين مُتحاربين، مُتحاسدين، مُتباغضين، لا يليقون بميراث عماد الدِّين الزنكي ونُور الدِّين محمود. ولذلك سارت دولتهم من ضعف إلى أضعف، حتَّى استولى عليها مملوك لهم هُو بدر الدِّين لُؤلُؤ.

المُلُوك الأتابكة:

في المَوصل:

1 - قسيم الدولة آق سنقر: ت 487 هـ 1094م.

2 - عماد الدِّين زنكي: 521 - 541 هـ 1127 - 1146م.

3 - سيف الدِّين غازي: 541 - 544 هـ 1146 - 1149م.

4 - قُطب الدِّين مودود: 544 - 565 هـ 1149 - 1169م.

5 - سيف الدِّين غازي: 565 - 576 هـ 1169 - 1180م.

6 - عزّ الدِّين مسعود: 576 - 589 هـ 1180 - 1193م.

1 - مملكة حلب، كمال بدور، 145.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 238.

7 - نُور الدِّين أرسلان شاه: 589 - 606 هـ 1193 - 1210م.

8 - عزّ الدِّين مسعود: 606 - 615 هـ 1210 - 1218م.

9 - نُور الدِّين أرسلان شاه: 615 - 616 هـ 1218 - 1219م.

10 - ناصر الدِّين محمود: 616 - 630 هـ 1219 - 1233م.

في سنجار:

1 - عماد الدِّين زنكي: 511 - 593 هـ 1117 - 1197م.

2 - قُطب الدِّين مُحمَّد: 539 - 616 هـ 1179 - 1219م.

3 - عماد الدِّين شاهنشاه: 616 هـ 1219م.

4 - جلال الدِّين محمود فروخ شاه: 616 - 617 هـ 1219 - 1220م.

في جزيرة ابن عُمر:

1 - معزّ الدِّين سنجر شاه: 576 - 605 هـ 1180 - 1208م.

2 - محمود بن سنجر شاه: 605 - 639 هـ 1208 - 1241م.

3 - المسعود بن محمود: 639 - 649 هـ 1241 - 1251م.

القسم الرَّابع

العلاقات الدّوليَّة للممالك الإسلاميَّة

الفصل الأوَّل

العلاقات الخارجيَّة

لدولة الخلافة العبَّاسيَّة

المبحث الأوَّل

صحوة الخلافة العبَّاسيَّة

انتعشت الخلافة العبَّاسيَّة بعد تفتُّت دولة السلاجقة، واضمحلالها، فقد تخلَّصت من تسلُّط سلاطين السلاجقة، وتحكُّمهم فيها، وخلافاتهم، وحُروبهم، التي عطَّلت البلاد، وأودتْ بالعباد. وصحيح أن منصب الخليفة ظلَّ على الدوام مرجعية دينيَّة وشرعية لا يُستغنَى عنها لأيِّ حاكم مُسلم، فإن قُوَّة هذه الشرعية كانت تتعلَّق بشخصية الخليفة، وقدرته على تجسيد منصبه، وغالباً؛ كان الخُلفاء العبَّاسيون في هذه المرحلة المُتأخِّرة من دولتهم غير جديرين باسم الخلافة، وغير مُؤهَّلين لتمثيل الشرعية العُظْمَى للدُّول الإسلاميَّة كافَّة، فتحوَّلت الخلافة إلى رمز، وصارت السُّلطة الحقيقيَّة بيد الأُمراء المُتغلِّبين، بما عُرِفَ باسم: إمارة الاستيلاء[1]، لذلك ارتفعت بعض الأصوات تُطالب بتوحيد الخلافة والسَّلطنة بيد السُّلطان المُسيطر[2].

ومع عودة السُّلطة للخليفة في بغداد، غدا منصب الخلافة يعني ـ فيما يعنيه ـ حاكم أواسط العراق، وهي المناطق التي تتبع لبغداد، وهي قابلة للزيادة والنُّقصان. وفي عام **575** هـ **1179**م، تولَّى عرش الخلافة العبَّاسيَّة الخليفة النَّاصر لدين الله أحمد أبو العبَّاس بن الخليفة المُستضيء، وكان الخليفة النَّاصر يتمتَّع بشخصية قويَّة، فتمكَّن من إعادة الهيبة لمنصب الخلافة، وأعاد السيطرة على عدَّة مناطق لم يمتدّ إليها نُفوذ الخُلفاء مُنْذُ زمن طويل. "وكان النَّاصر قد ملأ القُلُوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم"[3].

---

1 - الأحكام السُّلطانية، الماوردي، 31.

2 - غياث الأُمم في التياث الظّلم، الجويني ـ إمام الحرمين، 226.

3 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 405.

"واستولى مع العراق على إقليم خوزستان، وغيرهما من الأطراف، وملك همذان، وأصفهان"[1]. وكان للخليفة النَّاصر "أصحاب أخبار في العراق، وسائر الأطراف، يُطالعونه بجُزئيات الأمُور، وكُلّيّاتها"[2]. وأمضى "الخليفة النَّاصر مُدَّة حياته في عزَّة وجلالة وقمع للأعداء، وكان شديد الاهتمام بمصالح الملك ... واستمرَّ خليفة سبعاً وأربعين سنة"[3].

وفي عهد الخليفة النَّاصر؛ عظم شأن سُلطان الخَوَارزميَّة علاء الدِّين مُحمَّد بن تكش، الذي أراد أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من نُفُوذ في بغداد، بعد أن استولى على دولتهم، فطلب من الخليفة أن تكون له دار السَّلطنة في بغداد مع شُحنة من العساكر فيها، فرفض الخليفة، ممَّا أزَّم العلاقة بينهما، فقام الخوارزمي بالطعن بصحَّة ولاية الخليفة، وحصل على فتوى بخَلْعه، ونوى تنصيب خليفة في بلاده، والتوجُّه لنزع خليفة بغداد بالقُوَّة، وتحرَّك بالفعل نحوه، واحتلَّ عدَّة مناطق تابعة للخليفة، لكنَّه ـ بسبب ظُرُوف خارجة عن إرادة الطرفَيْن ـ فشلت حملته على بغداد، وعاد نحو الشَّرق.

وكان سلاطين الخَوَارزميَّة، علاء الدِّين ومن بعده ابنه جلال الدِّين، يدَّعون بأنَّ الخليفة النَّاصر قد راسل التَّتار، وأنَّه هُو الذي حسَّن لهم غَزْوَ بلاد الخَوَارزميَّة، وأَطْمَعَهُم فيها[4]، ويقول ابن واصل ـ بعد ذكْره لهذا الخبر ـ: "فإنْ كان صحَّ ذلك، فقد قدَّر الله ـ تعالى ـ انقطاع الدولة بهم"، فهُو لا يُؤكِّد ولا ينفي، بل يُذكِّر بالنتيجة، فإنْ كان ذلك صحيحاً، فإن التَّتار هُم مَنْ قضى على الدولة العبَّاسيَّة، وأزالوها من الوُجُود.

بينما يُؤكِّد ابن آيبك ـ نقلاً عن صاحب كتاب تاريخ بغداد ـ الواقعة بحذافيرها، يقول: "قال ابن واصل صاحب تاريخ بغداد: شهدت على جماعة من سراة الناس من أرباب دولة بغداد – كلّ يذكر ويتقلّد في ذمته ـ أن الإمام النَّاصر كَتَبَ إلى التَّتار يستدعيهم إلى البلاد، ويُهوِّن عليهم العُبُور إلى

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 170.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 163.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 74.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 170.

الأقاليم، ويُصغِّر عندهم أمر السُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، كُلُّ ذلك خوفاً منه؛ لئلا يحضر إلى بغداد، وتعود الخلافة كما كانت أيَّام بني سلجوق"[1].

أمَّا ابن الأثير؛ فيُلمِّح إلى ذلك تلميحاً، مُتحاشياً ذكْر الخليفة، يقول وهُو يتحدَّث عن أسباب خُرُوج التَّتار: "وقيل في سبب خُرُوجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممَّا لا يُذكَر في بُطُون الدفاتر.

فكان ما كان ممَّا لستُ أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر"[2]

ثُمَّ يصرح ابن الأثير بما أحجم عنه أوَّلاً، فيقول: "وإنْ كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنَّه هُو الذي أَطْمَعَ التَّتَر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهُو الطَّامَّة الكُبْرَى، التي يصغر عندها كُلُّ ذنب عظيم"[3].

ومع أن ابن الأثير يذكر ما نسبه العجم أو الخَوَارزميَّة إلى النَّاصر دُون أن يُؤكِّد، أو ينفي، لكنْ؛ يظهر أنَّه يميل لتصديقه لمُجرَّد عودته لذكْر الأمر، وإلَّا لنفاه عن الخليفة، ولمَّا شدد في تبيان فظاعة هذا العمل. وتكرَّرت الاتِّهامات زمن الخليفة المُستعصم؛ حيثُ اتَّهم كثير من المُؤرِّخين الوزير ابن العلقمي بالتعامل مع التَّتار، وتسهيل دُخُولهم إلى بغداد[4].

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 217.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 362
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440.
4 - راجعْ تفصيل ذلك في معرض دفاع حسن الأمين عن ابن العلقمي (الغزو المغولي، 89 ـ 106).

المبحث الثَّاني

تنظيم الفُتوَّة

لعب نظام الفُتُوَّة دوراً كبيراً في العلاقات الدّوليَّة بين الخلافة العبَّاسيَّة والعديد من الممالك الإسلاميَّة، وعلى الخصوص الممالك الأيُّوبيَّة، وذلك من خلال الهدف السِّياسي البعيد، الذي حاولت الخلافةُ العبَّاسيَّة الوُصُولَ إليه عبر تنظيم الفُتُوَّة، وهُو إعادة فرض سيطرتها على تلك الممالك بأُسلُوب جديد.

يقوم نظام الفُتُوَّة ـ أساساً ـ على مكارم الأخلاق، فهُو: "أنْ تُقرِّب مَنْ يُبغضكَ، وتُكرِم مَنْ يُؤذيكَ، وتُحسن إلى مَنْ يُسيء إليكَ"، وهذه أُمُور حسنة مطلوبة، سُمِّيَتْ فُتُوَّة أم لم تُسمَّ[1]، وقد شهد هذا النظام ذروة مجده مع الخليفة العبَّاسي النَّاصر لدين الله. "كان الخليفة النَّاصر شابّاً مرحاً"[2]، وبالتَّأكيد؛ كان يمتلئ بالحيوية والرجولة، "والناس يتهيَّبون لُقياه"[3]، فانعكست قُوَّة شخصيَّته على قُوَّة منصب الخلافة، والتمس النَّاصر طريقة جديدة لتقوية نُفُوذه على الممالك الإسلاميَّة المُختلفة، التي تدين له بنُفُوذ معنوي، وليس له عليها أيُّ تأثير سياسي حقيقي، فسعى لتزويد منصب الخلافة بسُلطة أُخرى غير سُلطة الشرعية، تتمثَّل بسُلطة اجتماعيَّة سياسيَّة أخلاقية، تُؤدِّي ـ بحال انتشارها ـ إلى التفاف الجميع حول منصب الخلافة، الذي يرأس هذه السُّلطة، أو المُنظَّمة الجديدة، بغَضِّ النظر عن الاختلافات المذهبية للأتباع، ورأى أن ذلك يتحقَّق من خلال تنظيم الفُتُوَّة[4].

لم تكن الفُتُوَّة أمراً جديداً في الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، فهي معروفة كتنظيم مُنذُ زمن ليس بالقريب، وقد تجلَّت فيها رُوح الفُرُوسيَّة العَرَبيَّة، ومكارم الأخلاق العَرَبيَّة الإسلاميَّة. وتعود بعض الأقوال بالفُتُوَّة إلى عهد الرسول (ص) الذي ألبس الإمام عليّ لباس الفُتُوَّة، وممَّا يُقال: إنَّ هذا اللّباس أُنزل على النّبي في صُندُوق، ويستدلُّون على ذلك بالآية: يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري

1 - الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 250.
2 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 14 / 74.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 14 / 74.
4 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.

سوأتكم ، ويذكرون تسلسلاً يمتدُّ من الإمام عليّ، إلى أنْ يصل إلى الخليفة النَّاصر لدين الله، الذي أحيا نظام الفُتُوَّة[1].

وكان صاحب الفُتُوَّة في بغداد أيَّام الخليفة النَّاصر هُو الشَّيخ عبد الجبَّار، فأحضره الخليفة، "وأعطاه خمسمائة دينار، وخلع عليه، وعلى ولده، وكان شيخاً حسناً، له أتباع كثيرون"[2]. ممَّا يعني أنَّه تنازل للخليفة عن منصب رئيس الفتيان، وما قام به الخليفة النَّاصر ـ بعد ذلك ـ هُو عملية إعادة تنظيم ورعاية لهذه المنظمة، فجعله ذلك رجلها الأوَّل، ورئيسها، ثُمَّ حدَّد قواعدها، ونشرها، وانتسب إليه في الفُتُوَّة أكابر الناس والمُلُوك. ففي عام **607** هـ **1210**م، طلب الخليفة النَّاصر من كُلِّ مُلُوك المُسلمين أن ينتموا إليه في الفُتُوَّة، ويعدُّونه إمامهم بها، على أن تنتمي رعية كُلٍّ منهم إلى ملكها[3].

نظام الفُتُوَّة:

وقد وُضع للفُتُوَّة شُرُوط خاصَّة يجب أن تنطبق على مَنْ ينتمي إليها، ومنها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، ونصرة المظلوم، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وغيرها من قواعد الأخلاق التي حضَّ عليها الإسلام[4]. وكانت هُناك أُمُور عديدة يُطلَب تطبيقها من المُنتسبين إلى تنظيم الفُتُوَّة، وكُلُّها يُستدَلّ عليها من ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

- طاعة الرؤساء والمُقدَّمين.
- الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر.
- نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف.
- حفظ الجار[5].
- التعاضد والتناصر بين الأعضاء.
- حفظ العهد.

1 - الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 2/ 437.
2 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدَّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 21 / 256.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.
4 - الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 229.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.

ـ كتمان السِّرّ.

ـ صدق اللهجة.

ـ العفّة عن المحارم[1].

وما كُلُّ ذلك إلّا استجماع لمكارم الأخلاق العَرَبيّة، وتعاليم الإسلام في التعامل، ولروح الشجاعة والإيثار[2].

وكان المنتسبون لتنظيم الفُتُوَّة يُسمّون الفتيان، أمّا مَنْ ينضمُّ حديثاً لها؛ فيُدعى بالرفيق، ويُرشِّح الفتى الجديد لقبوله في التنظيم فتيان قدماء، ثُمَّ يقام حفل تنسيب للمُنضمِّين الجُدُد، تُلقى فيه كلمات، تشيد بالفُتُوَّة، وتربطها بتعاليم الإسلام من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة[3].

ويشرب المُنتسبون الجُدُد كأس الفُتُوَّة وفيه ماء وملح[4]، وهُو دليل قبول الأنظمة والتعاليم الخاصّة بالفُتُوَّة. وكان الفتى ـ عند تنسيبه ـ يُلفُّ بملابس رقيقة من الكتّان، أو القطن الأبيض، ثُمَّ يرتدي السروال الخاصّ بالفُتُوَّة، وكان السروال هُو الشعار، أو الزيّ الخاصّ لهذا التنظيم، فجميع الفتيان يرتدون طرازاً خاصّاً ومُوحّداً من السراويل يميزهم عن بقيّة الناس[5]. ثُمَّ توضع على رأس الفتى طاقية صغيرة سوداء، وفوقها قلنسوة من الصوف الأبيض، ويضع على أكتافه قباء، أو عباءة خفيفة، يُلفُّ عليها حزام، يُعلّق به سكّين، أو خنجر، ويلبس في رجله خفَّيْن[6]. ورُبّما كان من أشهر

1 - التاريخ المُظفّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 21 / 258.
2 - النُّظُم الدّبلُوماسيّة، صلاح الدِّين المُنجِّد، 151.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206، ح / 2، ورُبّما كان امتداداً لشرب كأس الفُتُوَّة ما يُعرَف ـ الآن ـ بشُرب النخب.
5 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 89 ـ 143، والجامع المُختصر، ابن الساعي، 225 ـ 233. وفيه منشور الخليفة حول تنظيم الفُتُوَّة، (تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتّي، ترجمة: جُورج حدّاد، 2/ 252)، يقول فيليب حتّي: "إن تنظيم الفُتُوَّة تأثّر ـ على الغالب ـ بمُنظّمات الفُرسان الصّليبيّة"، ولكنّنا نعتقد أن مُنظّمات الفُرسان الصّليبيّة التي كانت نشأتها في بلاد الشّام ما هي إلّا انعكاس وتقليد لتنظيم الفُتُوَّة العَرَبي الإسلامي. كما أن هُناك فارقاً كبيراً بين الفُتُوَّة العَرَبيّة الإسلاميّة وأنظمة الفُرُوسيّة الأُورُبيّة، وهُو أن مكارم الأخلاق التي حرصت عليها الفُتُوَّة كانت تُطبَّق على الجميع، بينما أخلاقيات الفُرُوسيّة الأُورُبيّة كانت لطبقة الفُرسان والنُّبلاء فقط، ولا تطبّق على الطبقات الأدنى. (حضارة ونُظُم أُورُبة، سعيد عاشور، 402). و
Stephenson, Meddle History, P.P: 239-240

6 - مجمع الآداب، ابن الفوطي، 1/ 1184.

حفلات تنسيب المُلُوك لتنظيم الفُتُوَّة هي الحفلة التي أقامها الملك المنصُور صاحب حماة عام 622 هـ 1223م، وأقام الخطبة فيها قاضي حماة سالم بن نصر الله والد المُؤرِّخ ابن واصل[1].

وعندما استكمل الخليفةُ النّاصر تنظيمَهُ الجديد نظرياً، بدأ بتسيير رُسُله إلى مُلُوك المُسلمين، طالباً منهم الانتماء إليه عبر نظام الفُتُوَّة، وقد قبل الجميع ذلك، وانتسبوا للخليفة النّاصر[2]، فهذا لا يُنقص من مُلكهم شيء، وما سُلطة الفُتُوَّة إلّا سُلطة معنوية، لذلك لم يتخلّف منهم أحد. وقد "لبس السُّلطان العادلُ سراويلَ الفُتُوَّة للخليفة النّاصر"[3]، وكذلك أولاده الملك المُعظّم والملك الكامل والملك الأشرف، ولبسها المُجاهد صاحب حمص، والملك الظّاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب حلب، وكذلك أرسل لباس الفُتُوَّة إلى كيخسرو سُلطان الرُّوم[4]. واعتقد الخليفة النّاصر بذلك أنّه قد جمع الأُمّة حوله، وبالفعل؛ فقد أسبغت الفُتُوَّة مزيداً من الهيبة على منصب الخليفة[5]، فقد كان الملك الذي ينتسب إلى الخليفة يتبعه كُلُّ أركان دولته وأكابر بلاده. ولكن اهتمام الخليفة النّاصر بتنظيم الفُتُوَّة جعله يعتقد أنّها كُلّ ما يربطه بمُلُوك المُسلمين، حتّى إنّه لم يُبصر أعظم المخاطر التي تحيق بهم، ففي عام 615 هـ 1218م، وصلت رُسُلُ الخليفة النّاصر إلى الملك الكامل[6] وهُو مُرابط على دمياط أمام قُوّات الفرنجة التي احتلّت المدينة، وأخذت تتقدّم باتّجاه القاهرة، "فظنّ الناس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فتبيّن أنّه لأجل رمي البُنْدُق، وكونه يُريد أن يكون هُو قبْلته، فتعجّب الناس من إمام العصر، وهمّته"[7]. فكأن الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البُنْدُق ليُقاوم جحافل الفرنج الزاحفة على مصر.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 164.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14 / 74.
4 - نكت الهميان، الصفدي، 91، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4/ 1248.
5 - راجعْ: الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.
6 - في عام 606 هـ، وصل أمر الخليفة النّاصر إلى شمس الدِّين بن البعلبكي قاضي فتيان دمشق بالتوجُّه إلى مصر ليشدَّ الملك الكامل فُتُوَّة للخليفة. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشّاميّة، سُهيل زَكّار، 20 / 134).
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 75.

من نشاطات الفُتُوَّة:

وكان من اهتمامات الفتيان الرمي بالبُندُق، وتدريب الحمام، وقد تفنَّن الناس في ذلك سواء الأُمراء أو المُلوك[1]. وفي العصر الأيُّوبي كان الرمي بالبُندُق[2] قد شاع في مُعظم أنحاء الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وهُو رياضة رمي وتدريب على التسديد، ويُستخدم للرمي على الطُّيُور من أجل الصيد، أو الرياضة. وكان الخليفة العبَّاسي النَّاصر لدين الله قد منع رمي البُندُق إلَّا لِمَنْ ينتمي له[3]، وكذلك منع اللعب بالطُّيُور الهوادي أو المناسيب[4]، وتربيتها، إلَّا أن تكون من طُيُوره، أو من نسلها[5]، ويقول ابن الأثير مُتهكِّماً، مُقارناً الأخطار المُحدقة بالأُمَّة باهتمامات الخليفة: "فكان غرام الخليفة النَّاصر بهذه الأشياء من أعظم الأُمُور"[6].

لقد قصد الخليفة النَّاصر من اهتمامه الكبير بنظام الفُتُوَّة تقوية مركزه وزيادة فاعلية منصب الخليفة، وربط مُلُوك الأطراف والرعايا بشخص الخليفة، من حيثُ كونه زعيماً فعليّاً، إضافة لكونه خليفة وإماماً شرعياً، ولكنَّ كُلَّ ما قام به النَّاصر لتنظيم الفُتُوَّة تهاوى بعد موته، بل ونستطيع القول إن هذا التنظيم كان متهاوياً مُنْذُ قيامه، ورُبَّما كان ذلك بسبب كونه نظاماً يعتمد على شخص الخليفة، فلم يكن للفُتُوَّة جهاز تنظيمي رابط ضابط قادر على الاستمرار بعد غياب النَّاصر، وأرى أن الأهمَّ من ذلك أن النَّاصر أقام نظام الفُتُوَّة على معان رُوحية وأخلاقية فقط، ولم يرتَقِ به إلى قيمة معنوية وواقعية كُبْرَى كانت من أولويات عصره ألا وهي الجهاد، خاصَّة أن الفُتُوَّة كانت تنظيماً شبه عسكري.

1 - نكت الهميان، الصفدي، 91.
2 - البُندُق: مُفردها بُندُقة، وهي لفظة فارسية، وتُسمَّى - أيضاً - الجلاهق أو الجلاهقات. كُرات صغيرة من حجر أو معدن أو طين يُعجَن، ثُمَّ يُشوى، (حول صُنع كُرات البُندُق من الطين راجعْ: السيرة الشَّعْبيَّة للظاهر بيبرس، رواية: الدِّيناري، 81، المكتبة الثقافية، بيروت / بلا)، وتُقذف الكُرات من ماسُورة بواسطة وتر القوس، أو بالنفخ. راجعْ: تاريخ التمدُّن الإسلامي، جُورجي زيدان، 5 / 159، واستُخدمت المزاريق لرمي البُندُق، وهي أنابيب تقذف البُندُقة بالنفخ، وقد تحوَّلت إلى البُندُقيَّة عندما استُخدم البارود فيها.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.
4 - الهوادي: السريعة الاهتداء إلى أبراجها.
- المناسيب: المنسوبة لآبائها؛ أيْ المعروف سلسلة نسبها، وهي نوع من الحمائم التي كانت تُستخدم في البريد، وتُربَّى لهذه الغاية.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

النّبوية:

يبدو بأنَّ تنظيم الفُتُوَّة أصبح له مع الزمن تفرُّعات بأشكال عديدة، رُبَّما كان من أشهرها النبوية، التي يُؤكِّد ابن المعمار بأنَّها إحدى فرق الفُتُوَّة بقوله: "ولم تزل الفُتُوَّة تنتقل، وهَلُمَّ جرّاً، إلى عصرنا هذا، حتَّى تفرَّعت، وصارت بُيُوتاً، وأحزاباً، وقبائل؛ كالرّهاصيَّة، والسّجينيَّة، والخليليَّة، والمولائيَّة، والنبويَّة، لما حدث بينهم من الاختلاف، وكُلٌّ منهم ذهب إلى رأي"[1].

وفي دمشق؛ عُرف أتباع تنظيم الفُتُوَّة بـ"النّبوية"[2]، وهم يدينون بالفُتُوَّة وبأمر الرجولة كُلّها، وكُلّ مَنْ ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه يحزمونه السراويل، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفُتُوَّة برَّ بقَسَمه، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف"[3]. وقد ذكر ابن جُبَيْر أن في مدينة دمشق: "طائفة تُعرَف بالنبويَّة سُنِّيُّون يدينون بالفُتُوَّة وأُمُور الرجولة كُلّها"[4].

وقد انتشرت فرقة النبوية، وتواجد أتباعها بكثرة في شمال العراق، وفي الجزيرة، فعندما صَلَبَ سيفُ الدِّين غازي الأتابكي أحد زعماء النبوية في نصيبين، خرجت النبوية من المَوصل ونصيبين، وتبعهم خَلْق كثير من مُدن الفُرات والخابور، وساروا طالبين صلاح الدِّين"[5]، إنَّه خُرُوج جماعي على حُكْم الأتابكة، والتحاق بخصمهم صلاح الدِّين. ويبدو أن هؤلاء النبوية أنفسهم قد مرُّوا في طريقهم على بلاد الإسماعيليَّة في بزاعة والباب شمال حلب، وارتكبوا المذابح التي ذكرها ابن جُبَيْر في حديثه عن بلدة بزاعة، يقول: "ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة تُعرَف بالباب، وكان يعمرها

1 - الفُتُوَّة، ابن المعمار، 147.
2 - النّبوية: نسبة إلى النُّبُوَّة التي كانت مُرادفة للفُتُوَّة، يقول ابن واصل في معرض حديثه عن الخليفة النَّاصر: "ولبس سراويلات النُّبُوَّة والفُتُوَّة"، (مُفرِّج الكُرُوب، 4 / 164)، - ورُبَّما هي نبوية؛ لأنَّهم كانوا يعتبرون أن تعاليم الفُتُوَّة أخذها الإمام علي (ر) عن النبي مُحمَّد (ص)، فكُلُّ تعاليمها مُستقاة من الأحاديث النبوية الشريفة، وكان صاحبها في ذلك العصر الخليفة النَّاصر، وهُو عبَّاسي من بيت النُّبُوَّة أيضاً.
3 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 252، - وحول ذلك راجعْ: في التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 1/ 128؛ حيثُ يقول: "إن صلاح الدِّين قد لبس سراويل الفُتُوَّة"، وقد وهم في ذلك، فأوَّل مَنْ لبسها من الأيُّوبيِّيْن هُو الملك العادل وأولاده، ثُمَّ بعض مُلُوك بني أيُّوب، ممَّنْ جاء بعد صلاح الدِّين. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 20 / 61).
4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 252 و 167 Urban Life in Syria Nicola Ziadeh, P.
5 - تاريخ آمد ومَيَّافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 11 / 314.

مُنْذُ ثمان سنين قوم من الملاحدة الإسماعيليّة، فطار شرارهم، . . حتّى داخلت العصبية أهل البلاد، . . ووضعوا السُّيوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم، وعجّلوا بقَطْع دابرهم، وكُوِّمَتْ بهذه البطحاء جماجمهم"[1].

وقد اختلف في ترتيب أحرف النبوية[2]؛ حيثُ يجعلها بعضهم البنوية، من الأبناء، وهذا المنحى ضعيف، والأصحُّ ما رآه مُصطفى جواد بقوله: "الصحيح في ضبط هذا الاسم النّبويَّة، نسبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، كالخليليَّة نسبة إلى إبراهيم الخليل، عليه السلام"[3].

الخلافة بعد الإمام النَّاصر:

في عام 622 هـ 1225م، تُوفِّي الخليفة النَّاصر لدين الله، وقيل إنَّ الخلافة قد ماتت بموته[4]، فهُو الذي أعاد الكثير من القُوَّة السابقة لمنصب الخلافة، ولكنَّنا ـ بنظرة سريعة ـ نجد أن الخليفة النَّاصر لم يُحقِّق أيَّ شيء يُذكر عمَّا كان لسلفه، ولا لما سيكون لخلفه من سُلطة على الممالك الأيُّوبيَّة، أو غيرها، التي كانت وستبقى تبعيّتها للخلافة تبعية اسمية، تنحصر بمنح مُلوكها التقليد والخلعة كرمز لشرعية حُكْمهم لبلاد يُسيطرون عليها فعلاً، لا تتوسَّع إلَّا بالحَرْب والقُوَّة، ولا يزول حُكْمهم، أو تتقلَّص ولاياتهم إلَّا بالحَرْب والقُوَّة.

وبعد وفاة النَّاصر؛ تولَّى الخلافةَ ابنُهُ الإمامُ الظَّاهر بأمر الله مُحمَّد، الذي استهلَّ خلافته بإرسال الرُّسُل إلى الممالك الأيُّوبيَّة لتأكيد الخطبة له، والسّكّة باسمه، ثُمَّ ردَّ مُلُوك الأيُّوبيَّة بإرسال رُسُلهم إليه في العزاء بوالده، والتهنئة بولايته[5].

ولكن الظَّاهر لم تطلْ مُدَّة خلافته؛ حيثُ تُوفِّي عام 623 هـ 1226م، وتولَّى بعده ابنه المُستنصر بالله المنصُور أبو جعفر حتَّى وفاته عام 640 هـ 1242م. " فقلَّد أربابُ الرأي ولدَهُ المُستعصم بالله

1 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 224.
2 - نعتقد أن الخلاف نشأ عن خطأ في النسخ، وأن الأصل كان واحداً وهُو النبوية.
3 - مُصطفى جواد، مُقدِّمة كتاب الفُتُوَّة، ص70.
4 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 405
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 116 ـ 118.

عبد الله، واستبدَّ بتدبير الخلافة أربابُ دولته"[1]، وقام أفراد الحاشية بأسوأ دور بالنِّسبَة للخليفة في أسوأ وقت بالنِّسبَة للخلافة، فقد أغروه بجَمْع المال، "والاقتصار على بعض الجُند، وقطع الباقين، ومُسالمة التّتَر، وحمل القطيعة إليهم، ليكفّوا عنه، وقالوا له: هذه الطائفة قد ملكوا مُعظم بلاد الإسلام، ولم يقف أحد من المُلوك قدّامهم، فالحزم مهاداتهم، ومُهادنتهم، وأن يُحمَل إليهم في كُلِّ سنة من المال ما يُرضيهم؛ ليكفُّوا، وينكفوا "[2]، والخليفة المُستعصم ضعيف الرأي، سيِّئ التدبير[3].

فضعفت علاقات الخلافة بالمُلوك الأيُّوبيَّة، وهم آخر مُلُوك الإسلام، ولم تعد الرُّسُل تعبر المسافات بين بغداد ومصر والشَّام. وممَّا زاد التباعد بين الطرفَيْن أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت ـ بشكل عامٍّ ـ تتوجَّه لتجنُّب التّتار وكأنَّها تتعامى عنهم، بينما التّتار يجولون حول بغداد "وشرُّهم مُتزايد والخليفة والناس في غفلة عمَّا يُراد بهم"[4].

حتَّى كان عام 656 هـ 1258م؛ حيثُ داهم التّتار بغدادَ، واستباحوها قتلاً ونهباً وحرقاً، والغريب في الأمر أن عاصمة الإسلام تُنتهَكُ بعد حصار طويل، دُون أن يتقدَّم لنجدتها جُندي واحد، أو متطوِّع واحد، ودُون أن يقوم أحد من المُلوك والأُمراء الأيُّوبيِّيْن بمدِّ يد العون لعاصمة الخلافة، التي كان يستمدُّ منها شرعية وُجُوده في الحُكْم، فهل هُو الدِّين يُوفَّى لتقاعس خليفة بغداد وأُمراء العراق ومُلُوك الشَّرْق الإسلامي عن نجدة الشَّام ومصر عندما داهمها الغزو الفرنجي، وتكالبت عليها الحملات، واحتلَّت قُدْسَ المُسلمين؟ أم هي القطيعة التي نتجت عن التجزئة الطويلة؛ حيثُ غدت هُمُوم المشرق لا تعني المغرب، وهُمُوم الشَّام لا تعني العراق؟! ولكنَّ المُستغرَب في الأمر أن الجميع كانوا يُدركُون أن أيّاً من الأعداء التّتار أو الفرنج كان لن يقف عند حَدٍّ إذا أُتيح له التقدُّم، وبالتَّالي؛ فالخطر يعني الجميع، ومع ذلك كان كُلُّ قسم يكتفي بالأماني الطيِّبة نحو القسم الآخر.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 321.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 322.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 194.
4 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 418.

المبحث الثَّالث

العلاقات الدّبلوماسيَّة بين الأيُّوبيِّين ودولة الخلافة

بدأت العلاقات الفعليَّة بين دولة بني أيُّوب والخلافة العبَّاسيَّة بعد وفاة الملك العادل نُور الدِّين عام 569 هـ 1174م، ودُخُول صلاح الدِّين إلى الشَّام، وضمّها إلى مصر، وتشكيل الدولة الأيُّوبيَّة، وذلك في عهد الخليفة العبَّاسي المُستضيء بالله، الذي لم يهتمّ كثيراً فيمَنْ يُسيطر على الشَّام، ولم يتدخَّل ـ بأيِّ شكل من الأشكال ـ لا ضدَّ صلاح الدِّين، ولا معه، فالخليفة يُرسل التقليد الذي يُمثِّل الشرعية الدِّينيَّة لِمَنْ غلب من الأُمراء، فالسُّلطة ـ فعليّاً ـ بأيدي الأُمراء المُتغلِّبين، والإمارة هي إمارة استيلاء[1]. فأرسل له صلاحُ الدِّين رسالةً مُطوَّلةً من إنشاء القاضي الفاضل، يشرح فيها قيامه بالدولة، وتوحيده للأقطار، وإقامة الخطبة العبَّاسيَّة فيها، وشرح الوضع الدولي من حوله ومُعاناته وانتصاراته، ثُمَّ يطلب من الخليفة التقليد بما تحت يده من البلاد، وما سيُفتح فيما بعد[2]، ويبدو أن الخليفة المُستضيء لم يُرسل التقليد، ولم يمنح الخليفة صلاح الدِّين صفة الشرعية التي طلبها، وبالتَّالي؛ لم تقمْ علاقة سياسيَّة بين الطرفَيْن، وسينتظر صلاح الدِّين حتَّى تولِّي النَّاصر لدين الله منصب الخلافة عام 575 هـ 1179م، فيُرسل له التقليد عام 576 هـ 1180م، وتبدأ العلاقات الرَّسميَّة والفعليَّة بين الدولة الأيُّوبيَّة ودولة الخلافة.

في عام 579 هـ 1183م، عندما كان صلاح الدِّين يُحاصر المَوصل، أرسل إليه الخليفة النَّاصر شيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين عبد الرحيم رسولاً يشفع في المُواصلة، وبعد إلحاح؛ قبل الشفاعة، فسار معه الرسول إلى سنجار؛ حيثُ شهد فتحها[3].

ولكن بعد الانتصارات المُدوِّية على الفرنج وتحرير بيت المَقْدس، ضجَّ العالم الإسلامي باسم صلاح الدِّين، ولابُدَّ أن عديداً من المُقارنات قد أجراها الناس بينه وبين الخليفة النَّاصر، ولشخصية

1 - الأحكام السُّلطانية، الماوردي، 31.
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 90.
3 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 260.

الخليفة القويَّة لم يقبل بوضع مُتدنٍّ أمام قائد عسكري يعدُّه يعمل بتفويض منه، فتوتَّرت العلاقات السِّياسيَّة بين الخليفة وصلاح الدِّين، وأعلن الخليفة أنَّه ينقم عليه عدَّة أُمُور، منها:

1 ـ ما شاع بأنَّ صلاح الدِّين يُريد قلب الخلافة، والاستيلاء عليها.

2 ـ تسمَّى صلاح الدِّين بالملك النَّاصر، وهُو يعرف أن النَّاصر هُو لقب الخليفة، الذي عدَّه تطاولاً عليه، وتشوُّفاً لمنصبه من قبَل صلاح الدِّين.

3 ـ إرسال جُندي بسيط في البشارة بفَتْح القُدْس إلى ديوان الخلافة، بينما جرت العادة إرسال أهمّ شخصيَّات الدولة في الأُمُور الجليلة، ممَّا عدَّه الخليفة تهاوناً بمنصبه، واستصغاراً له.

ثُمَّ قرَّر الخليفة كشف حقيقة نوايا صلاح الدِّين تجاهه، فأرسل تاج الدِّين أخا العماد الأصفهاني، الذي كان في حاشية صلاح الدِّين، لتسهيل مهمَّته في التعرُّف على بواطن الأُمُور، وحمل تاج الدِّين رسالة فيها مُوجبات العتب، فردَّ صلاح الدِّين بأنَّه على الطاعة، مُذكِّراً الخليفة ما قام به من القضاء على الدولة الفاطمية، وردَّ مصر إلى حظيرة الخلافة العبَّاسيَّة، وهزيمته للفرنج، واستنقاذ بيت المَقْدس منهم[1].

ويبدو أن الأمر قد سُوِّي بين الرجلَيْن؛ ممَّا سيُؤدِّي إلى علاقات طيِّبة بين الخلافة وخُلفاء صلاح الدِّين حتَّى انقضاء الدولتَيْن، ولكنْ؛ مَنْ يتمعَّن في بواطن العلاقات بين الخليفة والأيُّوبيين سيُلاحظ أن نسبة كبيرة من الشكِّ كانت تُراود الخليفة في مدى إخلاص المُلُوك الأيُّوبيَّة.

ويبدو أن تقليد الخُلفاء العبَّاسيين للأمراء والمُلُوك المُتحكِّمين في الشَّام، كان مُنْذُ دُخُول الفرنج إليها، يعني تنصيبهم وُلاة حرب وقادة مُجاهدين ضدَّ الغُزاة الفرنج. ورُبَّما لم يكن يُوجد ما ينصُّ على ذلك، لكنَّه الشائع والمُتعارف عليه في ذلك الوقت، فعندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، قام ابنه وخليفته الملك الأفضل بتسيير رسول إلى الخليفة في بغداد يحمل له "لامة الحَرْب التي لصلاح الدِّين، وفرسه، وستَّة وثلاثين درهماً، لم يُخلِّف من المال سواها"[2].

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 121.
2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 409.

إنَّها رسالة واضحة، فسلاح صلاح الدِّين أُعيد إلى الخليفة بعد انتهاء مهمَّته الجهادية، وما خلَّفه من مال أُعيد ـ أيضاً ـ كرمز لولايته الإدارية على البلاد. كذلك الأمر كان يوم وفاة الملك المُظفَّر صاحب حماة في عام **642** هـ **1244**م، فقد حمل قاضي حماة "زرديَّته وسيفه ولامة حربه"[1]، إلى الخليفة المُستعصم، وسار من حماة ـ في الوقت نفسه ـ رسول آخر إلى مصر يحمل إلى السُّلطان الصَّالح أيُّوب سيف الملك للمُظفَّر[2]، إنَّه إعلان بانتهاء المهمَّة لصاحب الشرعية الكُبْرَى الخليفة العبَّاسي، وللسُّلطان الأيُّوبي الأكبر صاحب الشرعية الصُّغْرَى، فقد كان مُلُوك حماة ـ على الدوام ـ مُؤيِّدين للسلاطين الأيُّوبيِّين، مُلتزمين بهم، وقلَّما خرجوا عليهم مثلما كان يفعل مُلُوك حلب ومُلُوك حمص.

وكان الخليفة العبَّاسي، إضافة إلى الشرعية التي تفرضه إماماً وخليفة، ذا مرتبة سياسيَّة ودينية، تجعله أكبر منزلة من كُلِّ المُلُوك، بل إن كُلَّ المُلُوك حاكمين باسمه، يدعون له على منابر بلادهم، وينقشون اسمه مع اسم كُلٍّ منهم على النقود المضروبة في بلاده.

كان الخُلفاء العبَّاسيون غالباً ما يُحاولون استمالة المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيِّين بالهدايا، وغيرها، ففي عام **622** هـ **1225**م "وصل الشَّيخ شهاب الدِّين السهروردي إلى الملك الأشرف بالرقَّة بهدايا وتحف، وأشياء ما سمح خُلفاء بني العبَّاس لأحد من مُلُوك الأطراف بمثلها،من أقوال جميلة وطرف جليلة"[3]، لماذا هذه المُعاملة الخاصَّة من الخليفة النَّاصر للملك الأشرف؟! إنَّه أقوى المُلُوك المُجاورين لشمال دولة الخلافة، وليس له أيُّ مطامع فيها، إضافة إلى التزام بني أيُّوب المطلَق بدعم الخليفة، وإنْ كان ذلك معنوياً فقط، فعلى الدوام كانوا يُجِلُّون هيبة الخلافة، ويعملون على إعلاء شأنها، إضافة إلى الظُّروف المحرجة التي كانت تُحيط بالخليفة النَّاصر في ذلك الوقت، فقد هجم الخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي على خوزستان، وكانت للخليفة، ووصل جُنُوده إلى أعمال بغداد، التي استعدَّت للحصار[4].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 346.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 347.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 110.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 152، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

وتكرَّر ذلك في عهد الخليفة المُستنصر عام **625** هـ **1228**م، فقد "ورد على الملك الأشرف رسول الديوان بهدايا وتحف، وفي الجملة إنعام خمسين ألف دينار أتابكية، وقال له كُلّ قول"، وممَّا قاله: " قد عزمتُ على تسيير الرُّسُل إلى البلاد بأنَّ مَنْ لم يكن في طاعتكَ تركتُ الذمة منه"[1].

وفي هذه المرَّة نجد السبب أكثر وُضُوحاً، فالحاجب علي بن حماد نائب الأشرف في خِلاط كان قد دخل عراق العجم، واستباح مملكة جلال الدِّين الخوارزمي، واستقبله السُّكَّان، وطلبوا منه قُدُوم الملك الأشرف لتسليمه توريز، وغيرها[2]، ولكن رسالة الخليفة كانت أسرع إليه، وفيها الهدايا والمال والقول الجميل، فاضطرَّ الأشرف ـ إزاء هذه المُعاملة المتميِّزة ـ أن يُرسل رُكن الدِّين أمير جاندار بهدية إلى الخليفة يستأذنه بدُخُول بلاد العجم، وعاد الجواب إلى الأشرف من الخليفة يأمره أن لا يتحرَّك من سنجار، فاضطرَّ إلى المكوث فيها بعدما كان قد تجهَّز للسير إلى بلاد العجم، فحرمه بذلك الخليفة من تلك البلاد الواسعة التي لم يسبق لبني أيُّوب أيّ سيطرة فيها[3].

وكان مُلُوك بني أيُّوب يقومون بكُلِّ واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، فعندما تُوفِّي علي ابن الخليفة النَّاصر عام **612** هـ **1215**م، أرسل الخليفة يُعلم مُلُوك بني أيُّوب، "فجلسوا في العزاء، لابسين شعار الحُزن خدمة للخليفة"[4].

ولمَّا تُوفِّي الخليفة الظَّاهر وخلفه ابنه المُستنصر أرسل الملك الكامل وزيره مُعين الدِّين بن الشَّيخ مُعزِّياً ومُهنِّئاً[5].

وكان مُلُوك بني أيُّوب يُجدِّدون الولاء للخُلفاء العبَّاسيين عبر أداء قَسَم الولاء، أو ما كان يُعرَف بالتحليف؛ حيثُ يحلف الملكُ بنصِّ قَسَم طويل يُلزمه بإعتاق عبيده وإمائه، وتطليق زوجاته، والبراءة من الدِّين . . . إنْ أخلَّ بنصرة الخليفة، أو عمل ضدَّه، وفي عام **627** هـ **1230**م، حلف

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 155.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 156 ـ توريز: رُبَّما هي تبريز، أشهر مُدُن أذربيجان (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تبريز).
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 715 ـ 158.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 301.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 344.

الملك الكامل للخليفة المُستنصر في مدينة الرقَّة، بحُضُور رُسُل الخليفة وعلى رأسهم مُحيي الدِّين بن الجوزي، وجميع مُلُوك بني أيُّوب[1].

ولم تنقطع الرُّسُل بين مُلُوك بني أيُّوب وبين ديوان الخلافة، فكان يندر أن يخلو عام من رُسُل تتردَّد برسائل وغيرها مُنذُ أيَّام الملك العادل، فقد أرسل العادل رسالة إلى الخليفة النَّاصر عام 614 هـ 1217م، وعاد جوابها مع الشَّيخ صدر الدِّين بن حمويه[2].

وفي عام 627 هـ 1230م، أرسل الملك الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل برسالة إلى الخليفة المُستنصر، وعاد معه بجواب الرسالة مُحيي الدِّين بن الجوزي[3].

وممَّا يُلاحظ على تبادل الرسائل بين الخليفة ومُلُوك بني أيُّوب أن إسباغ الأهمِّيَّة على الرسالة يُستمدُّ من أهمِّيَّة شخصية الرسول، الذي كان يُنتقَى من أبرز شخصيَّات البلاط، مع تركيز خاصٍّ على كبار الفُقهاء والقُضاة لإلمامهم بأُصول الخطاب، وللاحترام المُتوقَّع حُصُولهم عليه من المُرسَل إليه.

وكان رسول الخليفة ـ في ذهابه وإيابه، في أداء مهمَّته ـ يُقابل المُلُوك الواقعين على طريقه، فعندما سَفَر مُحيي الدِّين بن الجوزي برسالة الخليفة المُستنصر إلى الملك الكامل في مصر عام 629 هـ 1232م، تلقَّاه في حمص الملك المنصُور بن المُجاهد وَليّ عهد مملكة حمص، وهُو في طريق ذهابه، ولمَّا عاد من أداء مهمَّته تلقَّاه الملك المُجاهد بنفسه مع أولاده في مدينة دمشق، بينما تلقَّاه الملك الأشرف عند قارا[4].

وعندما مرَّ شهاب الدِّين السهروردي رسول الخليفة النَّاصر بحلب عام 601 هـ 1205م، يحمل التشريف للملك العادل استُقبل فيها استقبالاً عظيماً، وجلس في مسجدها الجامع للوعظ، وحضر مجلسه كبار رجال حلب[5]، ولابُدَّ أن الاستقبال نفسه كان له في حماة وحمص[6].

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 199.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 307.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 195 ـ 196.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 251 ـ 255 ـ 258.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.
6 - راجعْ : النُّظُم الدِّبلُوماسيَّة، صلاح الدِّين المُنجِّد، 59.

ويبدو أن استقبال رُسُل الخليفة كان يتناسب طرداً مع ما يحمله من خبر مُتوقَّع لمُلُوك الأيُّوبيَّة، فيبلغ الاهتمام به مداه مع حمله لخلع التقليد والتشريف، أو إن كان يسعى في مصلحة مُباشرة لهم. ففي عام 629 هـ 1232م، عندما كان الملك الكامل في الجزيرة بسبب حَرَكَة التَّتار حولها وصله الخبر بوُصُول ابن الجوزي رسولاً من الخليفة المُستنصر، "فأمر بتلقِّي رسول الخليفة، وإتيانه إلى أيِّ موضع كان به، وهذا أوقع إهانة له، فلم يجتمع به إلَّا على السويداء، على السماط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له"[1].

إن اهتمام الكامل بأمر التَّتار، وتقديره لعدم جدوى سفارة رسول الخليفة هي التي أدَّت إلى هذه المُعاملة غير المُتوقَّعة، والتي وصلت إلى حَدِّ الإهانة لرسول الخليفة حسب تقدير المُؤرِّخ ابن نظيف[2].

ولم تكن سفارات الخليفة إلى بني أيُّوب لأُمُور تتعلَّق بالخلافة ودولتها فقط، بل كان قسم كبير من هذه السِّفارات يتعلَّق بأُمُور داخل البيت الأيُّوبي، أو يتعلَّق بأُمُور بين الأيُّوبيِّين ومُلُوك آخرين. فعندما كان الملك العادل يُحاصر سنجار عام 606 هـ 1210م، قدِم هبة الله بن المبارك بن الضحاك رسولاً من الخليفة النَّاصر يطلب منه ترك حصار سنجار، ويشفع في صاحبها[3]، فوافق العادل، وانسحب، وفي الحقيقة؛ كانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل.

وفي عام 623 هـ 1235م، قدم ابن الجوزي رسولاً من الخليفة الظَّاهر إلى الملك المُعظَّم بدمشق، "يطلب منه الرُّجُوع عن حلف الخوارزمي"، ويعرض التوسُّط بالصُّلح بين المُعظَّم واخوته، فرفض المُعظَّم[4]، ولم يكن هذا التدخُّل من الخليفة حرصاً على وحدة البيت الأيُّوبي، أو رغبة في إزالة الخلافات بين مُلُوك بني أيُّوب، بل ضدَّ الخوارزمي جلال الدِّين، الذي كان يُهدِّد الخليفة، ويجتاح مُمتلكاته.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 236.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 236.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 289.
4 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 264.

كذلك في عام 629 هـ ـ 1232م، وصل ابن الجوزي رسول الخليفة المُستنصر إلى الملك الكامل، فصادفه على آمد، وقد فتحها، فهنَّأه، وشفع بصاحبَيْ المَوصل وإربل، فقبل الكامل الشفاعة وحلف لهم(1)، وما كان قبول الكامل بغَضّ الطرف عن تحرُّك بدر الدِّين لُؤلُؤ ومُظفَّر الدِّين كوكبري صاحبَيْ المَوصل وإربل إلَّا للمُشكلات الكثيرة التي كان يتعرَّض لها الكامل في الجزيرة، ورُبَّما كان أهمّها خطر التَّتار، الذي أخذ يلوح في أفق الجزيرة، والدور الكبير الذي يُمكن أن يكون الكامل قد قدَّره للمَوصل ولإربل في مُقاومة هذا الخطر.

ولم يقتصر عمل رُسُل الخليفة على السِّفارة بينه وبين مُلُوك بني أيُّوب، بل تعدَّى عملهم للسِّفارة بين مُلُوك بني أيُّوب أنفسهم، فعندما كان الملك الكامل يُحاصر دمشق عام 635 هـ ـ 1238م "كان السفير بينه وبين الصَّالح إسماعيل لتسليمها الصاحب مُحيي الدِّين أبو المُظفَّر يُوسُف بن الشَّيخ أبي الفرج بن الجوزي رسول الخليفة، الذي حضر ليُوقِّع الصُّلح بين مُلُوك بني أيُّوب"(2).

وفي عام 633 هـ ـ 1236م، عندما ساءت العلاقة بين النَّاصر داود وعمّه الكامل "أرسل الخليفة المُستعصم بالله رسولاً مشربشاً(3) من أكبر خواصّه ليشفع فيه إلى الكامل، وإبقاء بلاده عليه، وقبل الكامل شفاعة الخليفة، وسافر داود إلى الكَرَك، وأقام آمناً، لانتسابه إلى الخليفة"(4).

إن هذا يدلُّ على احترام كبير من قبَل مُلُوك بني أيُّوب لمنصب الخليفة، وحرص كُلّ منهم على اكتساب الخليفة إلى جانب قضاياه الخاصَّة.

ويبدو أنَّه كان للخليفة العبَّاسي رأي في التوسُّط والشفاعة بين مُلُوك بني أيُّوب، ويحدِّد ذلك وُفقاً لمصلحة دولة الخلافة، أو مصلحة منصب الخليفة، فعندما حاصرت قُوَّات الصَّالح أيُّوب دمشق عام 642 هـ، أرسل صاحبها الصَّالح إسماعيل إلى الخليفة "وزيره أمين الدولة إلى بغداد مُستشفعاً بالخليفة المُستعصم بالله، ومُتوسِّلاً إليه ليُصلح بينه وبين ابن أخيه أيُّوب، ثُمَّ رجع من بغداد، ولم يتحصَّل على طائل من رسالته"(5)، فالصالح إسماعيل لم يتذكَّر الخليفة إلَّا عندما أَلْجَأتْهُ الضرورة

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 242.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 379.
3 - مشربش: يلبس الشربوش.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 111 ـ 113.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 341، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376.

إليه، والخليفة المُستعصم لم يشأ أن يُخاطر بالضغط على أيُّوب، وهُو القُوَّة النامية في المَمالك الأيُّوبيَّة، لذلك لم يستجبْ الخليفة للنداء، ولم يتدخَّل.

وكما لم يقمْ خليفة المُسلمين بأيّ ردّ فعل عندما سقط القُدْس الشريف؛ أُولى القبلتَيْن، وثالث الحرَمَيْن بيد الفرنج(1)، فإنَّه كذلك فعل عندما حرَّر صلاح الدِّين القُدْس(2)، وكذلك فعل عندما أعاد الملك الكامل تسليم القُدْس للفرنجة عام 626 هـ، وكأن الكامل كان مُتأكِّداً من عدم مُبالاة الخليفة بقُدْس المُسلمين، فلم يحسب له أيّ حساب، واكتفى بتكليف كاتبه جمال الدِّين الأشرفي بن أبي دبوقة الذي أرسله لتسكين الناس عندما قاموا عليه في الشَّام لتسليمه القُدْس، بالمُرُور على بغداد لإحاطة الخليفة علماً بما جرى(3)، ويكفي بهذه المواقف تعبيراً عن حقيقة سُلطة الخُلفاء على مُلُوك الأطراف، ومنهم بني أيُّوب.

ولذلك نجد أن الخليفة لم يتجاوز الناحية المعنوية في دَعْمه لمُلُوك بني أيُّوب، مُعتمداً على الشرعية التي يُمثِّلها، ففي أشدّ الأزمات التي تعرَّضوا لها لم يُقدِّم لهم إلَّا رُسُلاً تدعمهم بالكلام المعسول، والاعتذار عن عدم إمكانية تقديم شيء آخر، فعندما ضاقت الأُمُور بالسُّلطان صلاح الدِّين وهُو في مُواجهة الفرنج أرسل يطلب المُساعدة من الخليفة النَّاصر، فأعاد الخليفة الرسول طالباً من صلاح الدِّين مُساعدته لأخذ تكريت، يقول القاضي الفاضل في ذلك: "وقف المملوك على كتاب بغداد، والمقصود الذي أرسل من أجله الرسول، وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المُساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها"، ثُمَّ يقول عن الرسول الذي سار إلى بغداد بالرسالة: "ولا شكَّ أنَّه أُنسي الرسالة التي توجَّه فيها، فإنَّا بعثناه يلتمّس لنا نفقة، فالتمسها منا"(4).

وعندما ضاقت الأُمُور بالسُّلطان صلاح الدِّين، وتكالبت عليه قوى الفرنج في معركة عكَّا، "ندب القاضي بهاء الدِّين ابن شدَّاد بالمضي إلى خليفة الوقت الإمام النَّاصر، وإعلامه بهذه الحادثة،

1 - المُنتظم، ابن الجوزي، 17 / 47.
2 - يقول كلود كاهن: " فخليفة مثل النَّاصر، وهُو شخصية مرموقة، كان يبحث عن كُلّ ما يعلي مكانته، كان مثبطاً لعزيمة صلاح الدِّين بإجاباته الفاترة على نداءات الجهاد التي يُرسلها إليه".(الشَّرق والغَرْب، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 194 ـ 195).
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 355.
4 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 19 / 309.

فوعده الديوان بكُلِّ جميل"، وبعد مُدَّة وصل رسول الديوان ومعه حملان من النفط وتوقيع بعشرين ألف دينار، وخمسة من الزرّاقين[1]، فردَّ السُّلطان التوقيعَ[2]، ويحار المرء، فهل هذه هي - حقّاً - إمكانات دولة الخلافة، في عصر صحوة الخلافة مع الخليفة النّاصر، التي تنجّد بها المُسلمون في الشّام في أشرس معاركهم مع الفرنج؟ أم أن الخليفة تعب من عدم الرّدِّ، فبادر بنجدة لا تليق بصاحب قرية؟! المُهمّ في الأمر أن صلاح الدِّين كان يُدرك حقيقة العلاقة مع الخليفة؛ حيثُ قبل ما قدّمه الخليفة على ضعته، وكان ردُّه التوقيع بالمال للحفاظ على خيط العلاقة المعنوي بالخليفة؛ لأن صلاح الدِّين كان مُتأكّداً من أنّه لن يُسدّد.

وتساهم في توضيح حقيقة موقف الخليفة من مُلوك بني أيُّوب هذه المحاورة التي جرت بين الملك المُعظّم صاحب دمشق وابن الجوزي رسول الخليفة الظّاهر، الذي طلب منه ترك التحالف مع الخوارزمي ضدَّ إخوته: "قال المُعظّم: إذا رجعتُ عن الخوارزمي، وقصدني إخوتي، تُنجدوني؟ قال: نعم. قال: ما لكم عادة تُنجدون أحداً، هذه كُتُب الخليفة النّاصر لدين الله عندنا، ونحنُ على دمياط نكتب، ونستصرخ به، فيجيء الجواب: بأنّا قد كتبنا إلى مُلوك الجزيرة، ولم يفعلوا"[3].

وبالمُقابل؛ نجد أن الكامل نفسه، الذي لم يُنجده الخليفة النّاصر على دمياط، عندما استنجد به الخليفة المُستنصر لدفع غائلة التّتار المُتقدِّمين نحو بغداد عام 635 هـ 1238م، جنّد له الفُرسان من ماله الخاصّ، ورفض أن يستخدم أموال الخليفة[4]، وبالفعل؛ فقد وصل إلى بغداد ستُّمائة فارس يقودهم إبراهيم بن خضر بن السُّلطان صلاح الدِّين، ثُمَّ تبعهم عساكر كثيرة يقودها المُظفّر عُمر والملك السعيد ابنا الأمجد صاحب بعلبك، لمُساعدة الخليفة على دفع التّتار[5].

1 - الزرّاق: الرامي بقوارير النفط لإحراق معدّات العدوّ، وسُمِّيَ بذلك لأن النفط كان يزرق بواسطة أنبوبة.
2 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 2 / 314.
3 - النُّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 264.
4 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 21، والسُّلوك، المقريزي، 1 / 380.
5 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 166.

المبحث الرّابع

المُلوك الأيُّوبيُّون وشعارات الشرعية العبّاسيّة

مع انقسام دولة الخلافة العبّاسيّة الفعلي، وسيطرة مُلوك وأُمراء وقادة وزعماء وشُيُوخ وغيرهم على مناطق مُتعدِّدة من جسم الدولة، منها ما كان يُشكّل دُولاً كبيرة جدّاً، ومنها إمارات صغيرة، وأحياناً؛ قلعة أو بلدة لها حاكمها الخاصّ، وهُو يتصرَّف بكُلِّ الشُّؤون السِّياسيّة والعسكريّة والداخلية باستقلالية تامّة، ومع كُلِّ هذا الانقسام بقيت هُناك سُلطة اسمية للخليفة على كُلِّ الدُّول والدُّويلات المُستقلّة، انطلاقاً من أن الخلافة هي منصب ديني، والخليفة هُو إمام المُسلمين ومرجعهم الأعلى دينياً وسياسياً، وأيضاً؛ لأن البلاد بكاملها كانت تابعة لدولة الخلافة، وكُلّ سيطرة على أيّ منطقة منها ليست شرعية، وصاحبها لا يملك الحقّ الشرعي في الحُكم، لذلك كان كُلٌّ منهم مُضطرّاً - بشكل أو بآخر - أنْ يُقرّ بسُلطة اسمية للخليفة في بلاده. وكان خُلفاء بني العبّاس المُتأخِّرون يرضون بهذه السيطرة الاسمية، التي لا تتعدّى ذكْر اسمهم في خطبة الجمعة على منابر المساجد؛ بحيثُ يسبقه اسم الملك المحلّيّ، ونقش اسمهم على العملة التي يسكّها هذا الملك، أو ذاك، ضمن أراضي البلاد، التي كانت - فيما مضى - تُسمّى أراضي الخلافة العبّاسيّة.

وكان هُناك شكل رسمي برُوتُوكُولي لمُوافقة الخليفة التي كانت مضمونة دائماً على أن يشمل بشرعية حُكْم المُلوك المُتنفِّذين في أطراف الدولة، مع أن سُلطاتهم وأراضيهم كانت تقوم على حساب سُلطة وأراضي الخليفة، حتّى لم يبقَ للخليفة إلّا بغداد واسم الخلافة. هذا الشكل الرّسمي لمُوافقة الخليفة كان يلزم لكُلِّ حاكم جديد، بل، ولكُلِّ توسُّع يقوم به، وأحياناً؛ كان بحاجة إلى تجديد سنوي. ونُلاحظ أن مُعظم الخُلفاء المتأخِّرين قد استمرؤا هذه التمثيلية، فكانت رُسُلُهُم تترى إلى مُلوك الأطراف بالمُوافقات الشرعية، التي عُرِفَتْ بعدّة أسماء، منها:

1 - **التقليد:** ويعني التولية، وهي من قلّدتُهُ أمر كذا؛ أيْ وَلَّيْتُهُ عليه[1]، فالتقليد هُو مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحُكْم في بلد، أو بلاد مُعيّنة. وقد حرص المُلوك الأيُّوبيُّون حرصاً كبيراً على أن يتولّى كُلٌّ منهم عمله بمباركة شريفة من الخليفة، تتجلّى بمنحه التقليد

1 - مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُصطفى الخطيب، 109.

لولايته، وإن كان ذلك شكلياً محضاً، ويأتي بعد مُباشرته الولاية الفعليّة بالوراثة، أو بالتغلُّب، ورُبَّما كان هذا الحرص مبعثه إيمانهم وتمسُّكهم بشرعية الحُكْم الدِّيني، أو لكسب الناس بغطاء الشرعية، بعد أن كسبوا السُّلطة فعليّاً، والأغلب أنَّه كان للأمرَيْن اعتبارهما في سياسة المُلُوك الأيُّوبيَّة.

ففي عام **576** هـ **1180**م، وبعد سنوات قليلة من سيطرة السُّلطان صلاح الدِّين على الشَّام، أرسل الخليفةُ النَّاصر رُسُلَهُ تحمل التقليد لصلاح الدِّين إشعاراً بالموافقة على تولِّيه منصب السَّلطنة[1]. وعندما أراد السُّلطان صلاح الدِّين أَخْذ آمد، وضمّها إلى دولته عام **579** هـ **1183**م، كَتَبَ قبل الشروع في الحملة إلى الخليفة النَّاصر يطلب إذنه في قصد آمد، "فوصله تقليد بها"[2]. وفي عام **604** هـ، عندما سيطر العادل على مملكة مصر وعلى دمشق والبلاد الجزرية أرسل أُستاذ داره الذكز العادلي والقاضي خليل بن المصمودي قاضي العَسْكَر إلى الخليفة في بغداد "لطلب التقليد على مصر والشَّام والجزيرة"، فأُكرما، وأُجيبا[3]، وزيادة في التكريم أرسل الخليفة معهما الشَّيخ شهاب الدِّين السهروردي ونُور الدِّين التركي الخليفتي[4]، يحملان من الخليفة إلى العادل "تقليداً بالبلاد التي تحت حُكْمه"[5]، "وقرأ صفي الدِّين بن شكر وزير العادل التقليد الذي أرسله الخليفة على كرسي نُصب له"[6]، ممَّا يُوضِّح لنا بأنَّ التقليد هُو مرسوم سياسي إداري ديني يصدره الخليفة بتولية جُزء من أراضي الخلافة إلى شخص يُذكَر اسمه في التقليد مقروناً بصفات التقدير والتعظيم.

وفي عام **628** هـ **1231**م، وصل رسول من الخليفة بالتقليد إلى السُّلطان الكامل، "وقلّد تقليداً لم يُقلّد به غيره من سائر المُلُوك من بني العبَّاس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصَّالح، ولِمَنْ عيَّنوه"[7]، فقد غدا التقليد منشور تفخيم وتعظيم وزيادة في القول والوصف للملك المُقلَّد، تبلغ حَدَّ الشطط في إغداق الصفات والنعوت عليه.

---

1 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 21 / 256.
2 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 21/ 260.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20 / 122.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 109.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 231.

وبعد أن سيطر الملك الصَّالح أيُّوب بن السُّلطان الكامل عام **643** هـ على مصر والشَّام وصل رُسُل الخليفة، الفلك مُحمَّد بن وجه السبع وجمال الدِّين بن عبد الرحمن بن الجوزي، ومعهما التقليد . . فنصب المنبر، وصعد عليه الرسول، وقرأ التقليد بالدهليز السُّلطاني، والسُّلطان قائم على قدمَيْه، حتَّى فرغ من القراءة"[1]، ومع أن التقليد هُو قرار الخليفة بإقرار ملك من مُلُوك الأطراف على ولاية استطاع مُلْكَهَا فعلاً، فإن المُلُوك الأيُّوبيَّة كانوا يُقدِّرون التقليد حقَّ قدره، فقيام أيُّوب واقفاً على قدمَيْه أثناء قراءة تقليده لدليل كبير على مدى أهمِّيَّة التقليد بالنِّسبَة إليه، فهُو النصُّ الشرعي الذي يُفوِّض إليه حُكْمَ البلاد شرعاً وقانوناً. ولا نستطيع هُنا إلَّا أن نُلاحظ أن مُعظم التَّقاليد كانت تصدر لمُلُوك بني أيُّوب من الخُلفاء بناءً على طلب مُسبق منهم، مع رسول يحمل الهدايا اللائقة[2].

2 - التشريف: أو خلعة التشريف، وهُو جبَّة، أو عباءة بلون أسود، لذلك قد يُسمَّى التشريف الأسود[3]، والسواد هُو شعار بني العبَّاس[4]، وتكون خلعة التشريف مُذهَّبة عادةً، وتُسمَّى التشريف الإمامي[5]، فهي تشريف من الإمام؛ أيْ الخليفة العبَّاسي للشخص المُرسَل إليه. وكان رسول الخليفة يقوم بوَضْع التشريف على أكتاف الملك المُرسَل إليه، بعد قراءة التقليد، فيلبسه، ويسير به في شوارع بلده، أو بين خواصِّه[6]. فعندما وصل إلى السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين التقليد والتشريف من الخليفة عام **576** هـ **1180**م، "ركب النَّاصر بالتشريف"[7]. وفي عام **604** هـ **1208**م، وصل تشريف من الخليفة النَّاصر إلى السُّلطان العادل، وإلى أولاده، ووزيره، "فركب العادل وولداه ووزيره بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثُمَّ عادوا إلى القلعة"[8].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 425، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 352.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.
4 - رُسُوم دار الخلافة، الصابىء، 93.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، 4 / 352، والتاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 256، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.
7 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 256.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 109.

وفي عام 623 هـ 1226م، وصل رسول الخليفة الظَّاهر مُحيي الدِّين بن الجوزي[1]، ومعه تشريفات إلى مُلُوك بني أيُّوب[2]. وفي عام 643 هـ 1246م، بعد أن مَلَكَ الصَّالح أيُّوبُ مصرَ والشَّام، أرسل إلى ديوان الخلافة القاضي ابن أبي عصرون[3] "يلتمس التقليد بالديار المصريَّة والشَّام والشرق والتشريف الإمامي"، فجاء من الخليفة المُستعصم معه "رسول كبير من الديوان، وعلى يده التشريف"، فوصل الرسول وأيُّوب مُخيِّم بالعبَّاسية، "فلبس السُّلطان التشريفَ الأسودَ المُذهَّبَ"[4].

3 - الخلعة: وهي ما يخلعه الخليفة أو الملك على أحد من الناس[5]، وكان خُلفاء بني العبَّاس كثيراً ما يهبون الخلع لأتباعهم. وأنواع الخلع التي كانت تُرسَل إلى مُلُوك بني أيُّوب كانت - غالباً - ما ترافق التقليد، وتكمل التشريف. وهي خلع أصحاب الجُيُوش، ووُلاة الحُرُوب[6]، فمُلُوك بني أيُّوب كانوا وُلاة دار الحَرْب في مُواجهة الفرنج مُنْذُ أن قامت دولتهم. والخلعة - في كثير من الأحيان - كانت تعني مُوافقة الخليفة على تقليد الملك في بلاده، وهي - عادةً - تتكوَّن من عمامة سوداء ورداء فضفاض - عباءة - أسود مُبطَّن، مُوشَّى بالذهب، وسيف مُحلًّى بالفضَّة والذهب، له حمائل مُوشَّاة أيضاً. ثُمَّ يأتي الحملان، وهُو حصان بسرج مُزيَّن.

وكانت هُناك زيادة على هذه الخلع المُتعارف عليها تُزاد لأصحاب الفتوح من القُوَّاد، وهي طَوْق وسوارَيْن من الذهب[7]، وهذه الزيادة أُعطيَتْ لقُوَّاد دولة الخلافة، ولم تُرسَل مع الخلع إلى مُلُوك بني أيُّوب إلَّا نادراً، ففي عام 599 هـ 1203م، أرسل الخليفةُ الخلعَ إلى الملك العادل وأولاده، فلبسوها[8]، ولم يُذكَر أنَّها تضمُّ الطَّوق والسوارَيْن. أمَّا في عام 605 هـ؛ فقد وصل إلى بغداد من

1 - أبو المُظفَّر مُحيي الدِّين يُوسُف بن جمال الدِّين أبي الفرج بن الجوزي.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 175.
3 - عزّ الدِّين بن عبد العزيز بن القاضي نجم الدِّين عبد الرحمن بن أبي عصرون، تُوفِّي في القُدْس عام 643 هـ.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 350 ـ 352، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 377.
5 - مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُصطفى الخطيب، 165.
6 - راجعْ أنواع خلع أصحاب الجُيُوش ووُلاة الحُرُوب في كتاب: رُسُوم دار الخلافة، الصابىء، 93.
7 - رُسُوم دار الخلافة، الصابىء، 93.
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20 / 61.

دمشق قاضي عسكر الشَّام ابن المصمودي[1] رسولاً من الملك العادل، وتسلَّم الخلع للعادل وأولاده، وكان في خلعة العادل الطَّوق والسواران[2]، وأرسل معهم الخليفة الشَّيخ شهاب الدِّين السهروردي رسولاً لحمل الخلعة، واهتمَّ العادل كثيراً بهذه الخلعة، فقد "أرسل العَسْكَر للقاء الرسول، فتلقّوه في الغسولة[3]، وخرج العادل، وتلقَّاه في القصير[4] مع ولدَيْه الأشرف والمُعظَّم، وغُلِّقَت الأسواقُ، وخرج الناسُ كُلُّهم، وكان يوماً مشهوداً"، ثُمَّ جلس العادل بقلعة دمشق، ولبس الخلعة، "وطُوِّق بطَوْق ذهب ثقيل"[5]. إنَّه تقدير كبير من الخليفة النَّاصر للملك العادل، واهتمام أكبر من العادل يدلُّ على مُستوى أهمِّيَّة تقليده بالخلعة والطَّوْق، فقام العادل وأولاده ومُلُوك بني أيُّوب بإغداق الهدايا والتحف على رسول الخليفة، وكانت كبيرة إلى درجة أن الخليفة قد أعرض عنه عند عودته إلى بغداد بهذه الكمِّيَّة من الهدايا[6].

وفي عام 623 هـ 1226م، توجَّه مُحيي الدِّين بن الجوزي رسولاً من الخليفة الظَّاهر إلى مُلُوك بني أيُّوب، فوصل إلى الأشرف أوَّلاً، وكان في الجزيرة، "فأفاض عليه الخلع الإمامية الظاهرية، ثُمَّ وصل حلب، فتلقَّاه الملك العزيز، فألبسه خلعة الخليفة، . . . فركب العزيز بها، وتوجَّه إلى دمشق، وألْبَسَ المُعظَّمَ خلعةَ الخليفة، . . ثُمَّ توجَّه إلى مصر، فَأَلْبَسَ الكاملَ خلعةَ الخلافة المُكمّلة، بالطَّوْق الذهب"[7]، إنَّها خلع بالجملة لمُلُوك بني أيُّوب في الشَّام ومصر، ولكن خلعة السُّلطان الكامل هي الخلعة الوحيدة المُكمّلة بالطَّوق الذهب، فالطَّوْق لم يُعدُّ من شعارات قُوَّاد الفتوح، بل من تمام الخلعة وكمالها التي ينفرد بها سُلطان بني أيُّوب عن المُلُوك الآخرين. وفي عام 628 هـ 1231م، وصل رسول الخليفة إلى السُّلطان الكامل بمصر يحمل الخلع من الخليفة[8]، ونفترض أن هذه الخلعة - أيضاً - كانت

1 - ابن المصمودي: نجم الدِّين خليل الحنفي الحموي، تُوفِّي عام 641 هـ 1243م، (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 348).
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 122.
3 - الغسولة: قرية تقع شمال شرق دمشق، وهي - حالياً - قُرب مطار دمشق الدولي، (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: الغسولة).
4 - القصير: قرية على طريق حمص، شمال دمشق بمرحلة. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: القصير).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 109، والمنصُوري، ابن نظيف، 56.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 20 / 124.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 175.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 231.

تضمُّ الطَّوْق، فقد أصبح حقَّاً مُكتسباً للسُّلطان. وفي عام 643 هـ 1237م، وبعد أن تسلطن الصَّالح أيُّوب، وسيطر على مصر ودمشق، أرسل إلى ديوان الخلافة يلتمس التقليد، فوصله رسول الخليفة، ومعه التقليد والطَّوْق الذهب[1]، فالطَّوْق أصبح حقَّاً ضمن خلعة الخليفة لَمَنْ يتولَّى منصب السُّلطان الأعظم من بني أيُّوب.

وكما كانت المُنافسة على السُّلطة بين آخر سلاطين بني أيُّوب في الشَّام وأوَّل سلاطين المماليك في مصر كانت ـ أيضاً ـ بينهما المُنافسة على خلعة الخليفة، فبعد أن سيطر الملك النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني على الشَّام "أرسل ابن العديم رسولاً إلى الخليفة المُستعصم وصحبته تقدمه جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه"[2]، فالناصر يُريد أن يُؤكِّد شرعية الحُكْم الأيُّوبي الذي آل إليه مُقابل عدم شرعية حُكْم المماليك، الذين استولوا على السُّلطة في مصر، فما كان من المُعزّ أيبك إلَّا أن أرسل شمس الدِّين سنقر[3]، "وصحبته تقدمه جليلة، وسعى في تعطيل خلعة النَّاصر يُوسُف"[4]، فأيبك لم يطلب الخلعة لنفسه، رُبَّما لأنَّه كان يُدرك صُعُوبة مُوافقة الخليفة على ذلك، فحُكْمه في مصر لم يستقرّ بعد، وهُناك مشاكل كثيرة شرعية وعسكريَّة وإدارية مازال قائمة، لذلك كان جُلُّ ما يطمح إليه هُو عدم منح الخليفة الخلعة للناصر يُوسُف.

أمَّا الغريب في هذا الأمر؛ فهُو موقف الخليفة المُستعصم الذي حار فيمَنْ يُرضي من الطرفَيْن، فقد قدَّما هدايا جليلة لا يُمكن أن يُنكَر تأثيرها، ولذلك وجد الخليفة الضعيف الشخصية مخرجاً بأنْ "أحضر سكِّيناً كبيرة من اليشم[5]، وقال لوزيره: أعط هذه السكِّين لرسول صاحب الشَّام، علامة منِّي في أن له خلعة عندي في وقت آخر"[6]، وهذا أمر طبيعي بالنِّسبة للمُستعصم، فهُو لم يشأ أن يدخل في صراع المُلُوك على السُّلطة، فدوره إقرار من يتغلَّب منهم، وعندها تكون الخلعة من حقِّه الطبيعي.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 350، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 425.
2 - عقد الجمان، العيني، 1/ 117.
3 - سنقر الأقرع: من مماليك المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين، فارقه، والتحق بمصر.
4 - عقد الجمان، العيني، 1/ 117.
5 - اليشم: حجر كريم.
6 - عقد الجمان، العيني، 1/ 117.

المبحث الخامس

قضيَّة الملك النَّاصر داود والخليفة العبَّاسي

(وجه آخر للعلاقات بين الأيُّوبيِّيْن والخليفة):

في عام 630 هـ 1233م، تحرَّك الملك الكامل بعساكره من مصر نحو الجزيرة للتصدِّي لهُجُوم سُلطان سلاجقة الرُّوم، وفي طريقه مرَّ على الكَرَك، فاستقبله النَّاصر داود، واتَّفق معه، وقبل الكامل زواج ابنته عاشوراء من داود[1]، ورُبَّما أراد الكامل بهذه العلاقة مع داود تقوية مركزه في الشَّام، ويبدو أن داود لم ينسَ ما فعله عمُّه الكامل؛ حيثُ نزع منه دمشق، وأخذ منه قلعة الشوبك، فاستغلَّ النَّاصر داود فُرصة تآمر المُلُوك الأيُّوبيَّة على الكامل أثناء غزوه لبلاد الرُّوم، فانخرط في حلفهم ضدَّه. وصحيح أن الملك المُجاهد هُو مَنْ حرَّك المُلُوك ضدَّ الكامل، وأبلغهم أنَّه قال: "أريد أن أجعل البلاد سفقتَيْن، فأضمّ الشَّام إلى مصر، وأعوّض مُلُوكه في الرُّوم، فحذر كلّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حتفه بظلفه"، لكنَّ النَّاصر داود الذي "لدغته أراقم بغيهم، وأنفذوا في انتزاع دمشق منه سهام أمرهم ونهيهم، علم أن القلق مُترتِّب على ما يُحاولونه من الفتح، فخلل في سراتهم رأيه الناصح، وفاوضهم مُفاوضة أخذت من قلوبهم بالمجامع، فتنسَّم الملكُ الكاملُ الأخبارَ"[2]، وعلم دور داود في التحريض عليه، ورُبَّما لأنَّه الطرف الأضعف وقعت عليه ثائرة الكامل، فألزمه بطلاق ابنته، وتهدَّده، "فخاف النَّاصر خوفاً عظيماً"[3]، ولشدَّة خوفه من الملك الكامل ترك النَّاصر بلاده عام 633 هـ، وسار إلى بغداد لائذاً بالخليفة المُستنصر[4]. كان لجوء داود لأعتاب الخليفة سابقة لمُلُوك بني أيُّوب، فلم يقصد أيٌّ منهم الخليفةَ فيما قبل، ويبدو أن ما اضطرَّ داود إلى ذلك هُو خوفه الشديد من عمِّه الكامل، خاصَّة أنَّه جرَّب مُعاداته سابقاً، فخرج من معركته معه خاسراً مُعظم بلاده. ولكن الظُّرُوف ـ الآن ـ مُختلفة، فالملك الأشرف ومُلُوك الشَّام مُعادون تماماً للملك الكامل، فلِمَ لَمْ يلجأ النَّاصر إليهم؟ بالتَّأكيد؛ إنَّها تجربته المرَّة السابقة معهم؛ حيثُ أوقعوه بين

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.
2 - الفوائد الجلية في الفرائد النَّاصريَّة ـ سيرة النَّاصر داود، الأمجد حسن بن داود، 218.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 100، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

المطرقة والسندان، فعندما استنجد بعمِّه الملك الأشرف اتَّفق عليه مع عمِّه الآخر الملك الكامل، ونزعوا منه دمشق، لكُلِّ ذلك لم يجدْ داود أمامه إلَّا الخليفة، فقصده مُستجيراً به.

سار النَّاصر داود إلى بغداد مع عدد من خواصِّه، ولمَّا وصل مدينة الحلَّة، وهي تابعة للخليفة، استقبله أميرها شرف الدِّين علي بن جمال الدِّين قشتمر، وأكرمه، وتابع - بعدها - داودُ طريقَهُ إلى بغداد، فأمر الخليفةُ المُستنصرُ حاشيتَهُ باستقباله، وإنزاله بدار الوزارة، وقام النَّاصر بتقديم هدايا نفيسة إلى الخليفة، فيها من التحف والجواهر[1]، "وكان طامعاً بمُقابلة الخليفة، فلم يُؤذَنْ له في ذلك، وطال مقامه في بغداد[2]. ولم يُقصِّر الخليفةُ بحقِّ ضيافة داود وإكرامه، فقد خلع عليه قبا أطلس[3]، وشربوش[4]، وفرساً بمركب ذهب وكنبوش[5]، وأُعطي علماً وجفتاتَيْن[6]، كما أُعطي خمسةً وعشرين ألف دينار، وعدَّة رُؤُوس خيل، وبقج[7] ثياب فاخرة، وشُرِّف أتباعه[8]، ومع كُلِّ ذلك الإكرام لم يوافق الخليفة على استقباله، مُراعاة منه لخاطر الملك الكامل، فبالتأكيد؛ كانت مصلحة الخليفة مع سُلطان بني أيُّوب، لا مع أمير مغضوب عليه، يرتعد خوفاً من سُلطانه. ولكن داود لم ييأس، واستمرَّ بتضرُّعه للخليفة حتَّى يحظى بالمُقابلة، وقد شجَّعه على ذلك أن الخليفة كان قد استقبل مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين صاحب المَوصل، فأنشأ النَّاصر داودُ قصيدةً يمدح فيها الخليفة، ويقارن فيها بين استقبال مُظفَّر الدِّين، والإعراض عنه، وأرسلها إلى الخليفة يستعطفه لمُقابلته[9]، "وأعجبت القصيدة الخليفةَ، وأراد الجمعَ بين المصلحتَيْن، فاستدعاه سرَّاً جَبْرَاً لقلبه، وعدم الجَهْر

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 157.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 100.
3 - قبا: من قباء وهُو ثوب واسع، يُرتَدَى فوق الثياب العادية.
4 - الشربوش: قلنسوة طويلة، شُرح سابقاً.
5 - الكنبوش: ما يُستَر به ظَهْرُ الفَرَس، وكفله، ويكون من خيوط الذهب، أو الصوف المرقوم، ويركب به القُضاة وأهل العلم. (صُبح الأعشى، القلقشندي، 2 / 135).
6 - جفتاتَيْن: غلامان يرتدي كُلٌّ منهما ثوباً من الحرير الأصفر، ويركب كُلٌّ منهما على فَرَس أبيض، ويتقدَّمان الاحتفالات. (تكملة المعاجم العَرَبيَّة، رينهات دوزي، مادَّة: جفته).
7 - بقج: جمع باقجة، وهي تُركية تعني الصُّرَّة. (النُّقُود العَرَبيَّة وعلم النميات، الأب أنستاس ماري الكرملي، 168).
8 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 161 - 162.
9 - مطلع القصيدة: ودان، ألَمَّتْ بالكثيب ذوائبه وجنح الدّجى وحفّ تجول غياهِبُه
(راجعْ القصيدة في: ديوان الملك النَّاصر داود، 221).

رعاية للكامل"[1]. ثُمَّ سَيَّرَ الخليفةُ رسولاً مع النَّاصر ليشفع فيه إلى الكامل، حتَّى لا يتعرَّض لبلاده، وكان الرسول سعد الدِّين حسن بن علي من كبار خواصِّ الخليفة، فتلقَّاه الأشرف والكامل بدمشق، وسار الرسول مع النَّاصر داود ليُلبسه الخلعة في الكَرَك إشعاراً بتكريم الخليفة له، "وأقام آمناً لانتسابه إلى الخليفة"[2]. ويبدو أن هذا ما سعى إليه داود، ولكنْ؛ إلى متى سيستمرُّ أمنه واستقراره في ما بقي له من البلاد؟!

بعد موت الملك الكامل، تنازع ولداه الصَّالح والعادل على السُّلطة، وتمكَّن الصَّالح أيُّوب من أَخذ دمشق، وسار إلى مصر، وفي الطريق؛ تخلَّى عنه جنده وأصحابه لخُرُوج دمشق من يده، فقبض عليه النَّاصر داودُ، واعتقله في الكَرَك، ثُمَّ اتَّفق معه، وأخرجه، وتملَّك الصَّالح أيُّوب مصر، لكنَّه تنكَّر لعُهُوده، فدخل النَّاصر داودُ ضدَّه في حلف الشَّام.

لكنْ؛ بعد هزيمة غزَّة، وأَخْذ أيُّوب لدمشق، وضَغْط ابن الشَّيخ العسكري على داود، وحصاره في الكَرَك، ضاقت الدُّنيا به، فسار من الكَرَك نحو الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني في حلب، معتضداً به، ولاجئاً إليه عام **647** هـ **1249**م، "وكان قد بقي عند داود من الجوهر مقدار كثير[3]، وكان معه من نفائس الجواهر ما هُو كالنجوم الزواهر . . يقوَّم بضرورة البيع بخمسمائة ألف دينار"[4]. ويبدو أن داود خاف أن يطمع النَّاصر يُوسُف بالجوهر الذي معه، "فلم يجد عليه مأمناً سوى دار الخلافة . . فجمع ما عنده من الجوهر الثمين، وسيَّره وداعة إلى الإمام المُستعصم، فلمَّا وصل الجوهر إليهم، سيَّروا بوُصُوله خطاً"[5]، فكان داود كالمُستجير من الرمضاء بالنار؛ حيثُ لن تقع عينه على تلك الثروة التي تصوَّر أنَّها في أكثر الأمكنة أمناً، إنَّها ذمَّة الخليفة. ولم يكن هذا التصرُّف الخاطئ الوحيد الذي ارتكبه داودُ، ويبدو فيه أن الحكمة والتعقُّل قد جانباه، أو أن الشدَّة والخوف

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 106، (راجعْ وقائع المُقابلة بين داود والخليفة في: الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن بن داود، 220).
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 113، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 157، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 162.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.
4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226، - يقول أبو الفداء: "كان يُساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان". (المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179).
5 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226 - 227.

قد شلَّا تفكيره، فقد سلَّم حُكمَ الكَرَك قبل أن يغادرها إلى ابنه الأصغر عيسى، ولقبه المُعظَّم، وجعله نائباً له في مملكته، مُتجاهلاً ولديه الأكبر؛ وهما الأمجد حسن، والظاهر شاذي[1]، فاستغلَّ ولدا داود غيبته، وصغر سنِّ أخيهم المُعظَّم نائب والدهم في الكَرَك، وقاموا بالاتِّفاق مع الصَّالح أيُّوب، وسلَّماه الكَرَك مُقابل أموال وإقطاع لهما في مصر[2]، ولم يطلْ العهدُ بهما، فقد مات أيُّوب بعد أيَّام قليلة، فطُردا من مصر، وخرجا خاسرين كلَّ شيء[3].

ويبدو أن أُمُور النَّاصر داود سارت على عكس ما يرتجي في حلب، فقد قام لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر مملكة حلب بتحريض النَّاصر يُوسُف عليه؛ إذْ يقول الأمجد حسن بن داود في سيرة أبيه: "ولمَّا قصد الملكُ النَّاصر يُوسُفَ مُنتصراً، وجد من كفيل دولته مُتنكّراً"[4]. ففي عام **648** هـ**1250**م، قبض النَّاصر يُوسُف على داود، وسجنه في قلعة حمص[5]، وفي سجن حمص نظم قصيدة في التوسُّل والرجاء[6]، ويُستشفُّ من مضمون القصيدة أنَّه جاء طالباً اللُّجُوء والحماية لدى النَّاصر يُوسُف، فلم يُجبه، بل رماه بإفك القول، وسجنه، ولم يجد في النِّهاية داود إلَّا الله سبحانه يلجأ إليه، ويطلب منه. ولمَّا طال سجنه بقلعة حمص "لم يجد سوى الخليفة ملاذاً، فبعث ولده المُعظَّم عيسى مُستشفعاً"[7]، وكانت استجابة الخليفة على غير ما توقَّع؛ حيثُ "سَيَّرَ معه شفاعة لا يُرجى لمثلها نجاح"[8]، فالرسول شخص عاديّ لا أهمِّيَّة له، ويبدو أن النَّاصر يُوسُف فَهِمَ إشارة الخليفة بأنَّه غير مَعْني بأمر داود، فاعتذر عن إطلاقه من السجن، وتعلَّل باستعداده لحرب المماليك بمصر، وإنَّه يخشى أن يُفسد عليه الأمر في الشَّام.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 215.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 354.
4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 353، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 184.
6 - مطلع القصيدة: إلهي أنت أعلى وأعلم بمحقوق ما تبدي الصدور وتكتم .
(ديوان الملك النَّاصر داود، 260، ـ كذلك انظرْ: عقد الجمان، العيني، 1 / 38).
7 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن،227.
8 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن،227.

وبعد هزيمة النَّاصر يُوسُف أمام المماليك، أوعز داود إلى ولدَيْه الظَّاهر شاذي، والأوحد يُوسُف أن يتوجَّها إلى بغداد ليُذَكِّرا الخليفةَ بقضيَّته، ولكنَّهما رُدَّا من الطريق قبل بُلُوغ بغداد، "وقيل إنَّ النَّاصر طلب ردَّهما، فعادا إلى دمشق"[1]. وكان الخليفة قد أرسل الشَّيخ نجم الدِّين البادرائي[2] رسولاً ليُصلح بين النَّاصر يُوسُف والمماليك، واستطاع ـ فعلاً ـ التوصُّل إلى الصُّلح وإطلاق الأسرى الشُّوام في مصر، فكتب أولاد داود إلى البادرائي وهُو بدمشق عام **651** هـ **1253**م، فرأف بحالهم، وحدَّث النَّاصر يُوسُف بأمر داود، فأطلقه، "مُشترطاً عليه ألَّا يُقيم عنده إلَّا ريثما يتجهَّز للسفر"[3]، ولم يجد داود مكاناً يلجأ إليه بعد إطلاقه من السجن "سوى قصد الخليفة . . . فتوجَّه يؤمّه، في وثوق من الرجاء، معتمداً على ما استودعه من المال والولاء"[4]. ولكن النَّاصر يُوسُف عمَّم على كُلِّ المُلُوك والأُمراء في الشَّام ألَّا يسمحوا لداود بإقامة، ولا يمدُّوه بمُساعدة، وعندما مرَّ داود على الرحبة وفيها الأشرف مُوسى بن المنصُور بن المُجاهد، فبالرغم من أوامر الملك النَّاصر يُوسُف "أرسل إلى النَّاصر داود مركبَيْن مُوسقَيْن دقيقاً وشعيراً"[5]، ولم يكتف بذلك، بل "سَيَّرَ إليه أشياء غير واحدة من جميع ما يحتاج إليه"[6]، وبذلك "قام الأشرف بن المنصُور في خدمته بما يليق بمكارم أخلاقه الزكية"، ولكن هذا تحدِّياً لسُلطان الشَّام النَّاصر يُوسُف، الذي انزعج من الأشرف، "وسقاه من عتبه سهاماً، وسدَّد إليه من تخويفه سهاماً"[7]. وأرسل النَّاصر يُوسُف إلى الخليفة يطلب منه عدم استقبال داود، فردُّوه من عانه، ومنعوه التزوُّد بالمؤن، "وطلب وديعته، فمنعوه إيَّاها"[8]. ويبدو أن الخليفة كان لا يرغب أن يتبنَّى داود، الذي تحوَّل إلى مُشرَّد مشاغب غير مرغوب فيه في بلاده، ولدى سُلطانه النَّاصر، الذي كان الخليفة يُريد أن يحافظ على علاقات جيِّدة

---

1 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن،227.
2 - راجعْ ترجمته في: مبحث المماليك، فصل مقتل المُعظَّم تُورانشاه، من هذا الكتاب.
3 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 228.
4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 228.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186 ـ187، ـ موسقَيْن: ممتلئَيْن.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 23.
7 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 229.
8 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

معه، إضافة إلى أن الخليفة ـ رُبَّما ـ فكَّر أن عودة داود إلى بغداد ستكون ـ بلا شكٍّ ـ لطلب وديعته من الجوهر، فَمَنْعُهُ من الحُضور يعني تَمَلُّكَ الوديعة.

فأقام داود في أزوار الفُرات، ثُمَّ انضمَّ إلى نفر من قبيلة غزية، يتجوَّل معهم في بوادي العراق، ولكن الخليفة ظلَّ قلقاً حيال وُجُوده قريباً من العراق، فطلب من النَّاصر يُوسُف أن يسمح له بالعودة إلى دمشق، فعاد نحوها عام 653 هـ[1]، ومن دمشق توجَّه داود إلى الحجاز، واستشفع بقبر النبي(ص)، وأشهد النَّاسَ على الخليفة الذي لا يردُّ وديعته[2]، وقد أحدثت هذه الحَرَكَة من داود ضجَّة دينيَّة حول الخليفة، الذي سارع بإرسال مَنْ يحاسب داود، فحسبوا عليه ثمن كُلِّ طعام تناوله عندهم، وثمن كُلِّ هدية أخذها بأغلى الأثمان، وأعطوه نزراً يسيراً[3]، وعاد النَّاصر داودُ نحو دمشق، وانتهت به الفاقة والإملاق أن يُقيم مع أولاده في تُربة والده بسفح جبل قاسيون[4].

وفي عام 655 هـ 1257م، عندما كان نجم الدِّين البادرائي رسول الخليفة المُستعصم في دمشق استجار به داود ليصحبه إلى بغداد، فاصطحبه معه إلى قرقيسيا، وشاور عليه، ولكن النَّاصر يُوسُف توصَّل إلى منعه من ذلك، فلم يأذن الخليفة له، فقد كان في شغل شاغل عن داود وعن كُلِّ الشَّام ومُشكلاتها، فالتتار باتوا قريبين من بغداد، وهُولاكُو يُنذر الخليفة، ويتوعَّده طالباً منه أن يمثل أمامه. وعاد داود "على البرِّيَّة، وقصد تيه بني إسرائيل[5]، وأقام مع عرب تلك البلاد"[6]. وفي تيه بني إسرائيل، الذي اعتقد داود أنَّه أصبح فيه بعيداً عن المُتربِّصين به، ظهر له عدوٌّ جديد؛ هُو الملك المُغيث بن العادل الثَّاني، الذي استولى على الكَرَك بعد وفاة الصَّالح أيُّوب. وكان المُغيث مُحقَّاً بقلقه من النَّاصر داود، فهُو صاحب البلاد الشرعي، وقد سلَّمها أولاده غدراً، وكذلك حصل المُغيث عليها غدراً، فخشي المُغيث، واحتاط، وأخذ يُلاطف داود، ويخادعه، حتَّى تمكَّن من القبض عليه،

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 355، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 355.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356، والفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 243، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 191.
4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 244، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 191، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
5 - تيه بني إسرائيل: صحراء سيناء.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 193.

وأخذ يُعدُّ له مطمورة لا يخرج منها حياً[1]، وفي هذه الأثناء؛ كان التَّتار قد أحدقوا ببغداد، فأرسل الخليفة المُستعصم رسوله "يطلب النَّاصر داود ليُقدِّمه على بعض العساكر لمُلتقى التَّتر"[2]، "فوصل الرسول إلى الكَرَك والحفرة تُعدُّ لداود، فأنقذه من ميتة شنيعة، وأخذه معه إلى دمشق"[3]، ويبدو أن الخليفة المُستعصم عندما ضاقت به الحال تذكَّر داود، وتذكَّر إلحاحه وإصراره، وتذكَّر تحريره للقُدْس من الفرنج، بعد أن تسلَّموه من الكامل، ورُبَّما كان داود قد عرض ذلك على المُستعصم في وقت سابق، على الأحوال كُلِّها كان طلبه لداود القشَّة التي يتمسَّك بها الغريق.

مع أن الظُّرُوف لم تسمح لنا لمعرفة مدى ما كان يُمكن أن يقدِّمه داود في مهمَّته للقتال ضدَّ التَّتار، فقد سبق تصاعد الأحداثُ الجميعَ، وسقطت بغدادُ بيد التَّتار، وداود مايزال يستعدُّ بدمشق، ولمَّا سمع رسول الخليفة بهذا الخبر، ترك داود، وترك جميع العساكر وكُلَّ ما جاء من أجله، ومضى لحال سبيله[4]، وشاع بين الناس أن الخليفة هرب من بغداد، ولحق ببعض العَرَب، فقال داود: "لابُدَّ لي من اللحاق به"[5]، ولكن القدر كان يتربَّص بداود بطريقة أُخرى، فقد انتشر بين الناس طاعون مات منه النَّاصر داود عام 656 هـ 1258م، وهُو في قرية البويضاء قُرب دمشق، فأظهر النَّاصر يُوسُفُ الحزنَ عليه، ودفنه في تُربة والده بسفح جبل قاسيون[6].

وفي النتيجة نجد بأنَّ الشَّام ومصر، وهما بلاد السَّلطنة الأيُّوبيَّة، كانتا تُعدَّان جُزءاً من دولة الخلافة العبَّاسيَّة، التي كانت ـ نظرياً ـ ماتزال تشمل العالم الإسلامي، ولكن تبعية مصر والشَّام للخلافة كانت اسمية، فقد قام الحُكَّام الأيُّوبيُّون وغيرهم بمُمارسة الحُكْم في البلاد، وفصلوها فعليَّاً عن دولة الخلافة، ومع ذلك؛ بقي للخلافة هيبتها المُستمدَّة ـ غالباً ـ من سُلطتها الدِّينيَّة، ومن الحاجة إليها لمنح الشرعية للمُتصارعين وللمُغتصبين. وعلى هذا الأساس؛ فقد قامت علاقات متأرجحة بين مُلوك الأيُّوبيَّة من جهة وبين الخُلفاء العبَّاسيين من جهة أُخرى، ولكنَّها اتَّسمت ـ غالباً ـ بصيغ

1 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 215 ـ 216، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195، والفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 217، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.
5 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 123.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

دبلوماسية؛ حيثُ اقتنع الخُلفاء بإقرار حُكّام الشّام ومصر بسيادتهم الاسمية، والدعاء لهم في الخطبة، ونَقْش أسمائهم على السّكَّة، فالخُلفاء العبّاسيون في هذه المرحلة لم يكونوا قادرين على تحقيق ما هو أفضل من ذلك. أمّا الأيّوبيُّون في الشّام ومصر؛ فكانوا يرون في تبعيَّتهم الاسمية للخلافة مكسباً كاملاً بُدّون أيّ تبعات ماديّة، فهم يحصلون على دعم معنوي كبير لسُلطتهم، ويستمدون شرعية لها من شرعية الخلافة. فكانت العلاقات بينهم تُترجَم بتبادل الرسائل، وإيفاد الرُّسل، حاملين أوامر التفويض بالولايات لحُكّامها الجُدُد، وحلَل التشريف لتكريمهم. إضافة إلى أن رُسُل الخليفة كانت ـ في كثير من الأحيان ـ تحضر للتوسُّط بين المُلوك والحُكّام المتنازعين، وحَلّ خلافاتهم. لذلك لم تنقطع الرُّسل بين الخلافة والحواضر الأيّوبيّة خلال هذا العصر. ومع كُلّ ذلك لم يتجاوز الدعم العبّاسي لمُلوك بني أيُّوب الشكلَ المعنوي، حتّى في أشدّ الأزمات التي اعترضتهم، وقبل الأيّوبيُّون ذلك، ولكنْ؛ لا ندري هل كان القبول على أساس أن الخلافة لا تملك أكثر من ذلك؟! أم أنّهم هم لا يُريدون من الخلافة أكثر من ذلك؟!

الخُلفاء العبّاسيون المُعاصرون للحُكْم الأيّوبي

1 ـ المُستضيء بالله الحسن أبو مُحمَّد بن المُستنجد (33).

566 ـ 575 هـ 1171 ـ 1179م.

2 ـ النّاصر لدين الله أحمد أبو العبّاس بن المُستضيء (34).

575 ـ 622 هـ 1179 ـ 1225م.

3 ـ الظّاهر بأمر الله مُحمَّد أبو نصر بن النّاصر (35).

622 ـ 623 هـ 1225 ـ 1226م.

4 ـ المُستنصر بالله المنصُور أبو جعفر بن الظّاهر (36).

362 ـ 640 هـ 1226 ـ 1242م.

5 ـ المُستعصم بالله عبد الله أبو أحمد بن المُستنصر (37).

640 ـ 656 هـ 1242 ـ 1258م.

الفصل الثّاني

العلاقات الدّوليّة للفرقة الإسماعيليّة

المبحث الأوّل

الدعوة الإسماعيليّة[1]

مُنذُ أن استتبّ الأمرُ للفاطميين بمصر أخذوا بنَشْر دُعاتهم في أرجاء الدولة العَرَبيّة الإسلاميّة، يُرَوِّجون للمذهب الشيعي الإسماعيلي بشكل نشط ومُنظَّم، وانتشر الدُّعاة في بلاد المشرق الإسلامي خاصّة، لكسب الأنصار، ولإضعاف نُفُوذ الخلافة العبّاسيّة. ومع امتلاك الفاطميين لقوى عسكريّة كُبْرَى، وامتلاكهم آلاف الدُّعاة وجّهوهم في حرب دينيّة تُواكب حُرُوبهم السِّياسيّة والعسكريّة ضدّ العبّاسيين، فالنتيجة لم تكن في صالحهم، فقد استعاد المذهب السُّنّيُّ فاعليّته، وأخذ الفاطميُّون بالتراجع سياسياً ومذهبياً.

وللحقيقة؛ لم يكن النصر عبّاسياً، فمع الحَرْب المعنوية التي شنّها العبّاسيون ضدّ الخُلفاء الفاطميين باتّهامهم بادّعاء النسب العلوي، وبأنّهم لا يمتُّون للعرب بأيّ صلة[2]، ومع كُلّ الاحتياطات الأمنية التي اتّخذوها ضدّ دُعاتهم، فقد كان النصر سلجوقياً؛ إذْ واكب المدّ الفاطمي، تدفّق قبائل التُّرك نحو أراضي الدولة العبّاسيّة، وبما أنّهم أسلموا حديثاً، واتّبعوا مذهب السُّنّة، فكان لهم اندفاع المُؤمنين الجُدُد، وبموالاتهم وإخلاصهم للخلافة وسلفيّتهم وتعصُّبهم لعقيدتهم، قاموا

---

1 - سُمَّيَتْ إسماعيليّة لأن أتباعها يعتقدون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن مُحمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحُسَيْن بن علي بن أبي طالب. وسُمِّيَتْ ـ أيضاً ـ باطنية لاعتقادهم ببقاء الإمامة في آل علي، وأن الأرض لا تخلو من إمام مُطلقاً؛ إمّا ظاهر بذاته، أو مستور. وسُمُّوا ملاحده لعدم إقامتهم شرائع الإسلام كما تُطبِّقها الفرَق الأُخرى، وسُمُّوا ـ أيضاً ـ الحشيشية للاعتقاد الشائع بأنّهم كانوا يستخدمون الحشيش المُخدِّر للسيطرة على رجالهم. وعشبة الحشيش هي القنَّب الهندي واسمها بالهندية (بيهانغ)، وبالعَرَبيّة (بنج)، وكان يُستخدم ـ أحياناً ـ كمُخدِّر طبِّيّ. راجعْ: سيرة منكبرتي، النسوي، 51، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 245، وأخبار مصر، ابن ميسر، 2/ 68، والروضتَيْن، أبو شامة، 52 + 198، ودولة النزارية أجداد آغا خان، طه أحمد شرف، 216، والشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، حافظ أحمد حمدي، 86 ـ 88، وتاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، ترجمة: جُورج حدَّاد، 2/ 245. وهُناك مناقشة وافية تتبنّى معنىً جديداً للحشيشية في كتاب: الحشيشية، برنارد، لويس، ترجمة: سُهيل زَكّار، 169 ـ 171.

2 - راجعْ: المواعظ والاعتبار، المقريزي، 2 / 18.

بالتصدِّي للفاطميين عسكريّاً وعقائدياً. كذلك جاءت صدمة الغزو الفرنجي لبلاد الشَّام، التي ساعدت على انبعاث يقظة سُنّيَّة عامَّة، قادها الفُقهاء والمُتصوِّفة، الذين عدُّوا أن الفاطميين سلَّموا البلاد للفرنج، وفاوضوهم على اقتسامها، أو على الأقلِّ؛ تقاعسوا في الدفاع عنها، وهُم حماتها[1].

لكنْ؛ من ناحية أُخرى أدّى دُخول السلاجقة الأتراك إلى سُورية لقيام العديد من المشاكل على كافَّة الصُّعُد، إضافة إلى عجزهم عن التّصدِّي بشكل حاسم للفرنج، ومع وُجود أساس عقائدي شيعي خاصَّة في شمال سُورية، كُلُّ ذلك مهّد لنجاح فرع جديد للدعوة الفاطمية كان ينتقد الدعوة القديمة، لذلك عُرف بالدعوة الجديدة، أو الفرع النزاري، الذي التفَّ حوله عدد لا يُستهان به من الأتباع في الشَّام، فقد انقسم الدُّعاة الفاطميُّون، مُنذُ أيَّام الخليفة الفاطمي المُستنصر؛ حيثُ تشيَّع بعضهم لابنه المُستعلي، وظلَّت مصر مركزهم الرئيس، وانتشر منها هذا الفرع إلى اليمن، وحتَّى الهند؛ حيثُ عُرفت هُناك منهم جماعة البهرة. وتشيَّع بعض منهم للابن الآخر نزار، واتَّخذوا بلاد المشرق ميداناً لهم، وأسَّسوا الدعوة الجديدة، ومنها امتدَّت الدعوة نحو شمال العراق، ومنها إلى سُورية[2].

وقد أسَّس الدعوة الجديدة الداعي الحسن ابن الصبَّاح[3]، الذي جعل في عام **483** هـ **1090**م مقرَّه في قلعة ألموت، الواقعة على إحدى قمَم جبل ألبرز في بلاد فارس. استغلَّ الحسن الصبَّاح الخلافات السِّياسيَّة ليدعم مذهبه الجديد في قلب الشَّرْق الإسلامي، ولأنَّه لم يستطع أن يتغلَّب على الأطراف الأُخرى، فقد غدا طرفاً جديداً من أطراف الصراع، كان له الدور الأكبر في إضعاف قُوَّة الشَّرْق الإسلامي، والتمهيد للسيطرة الخَوارزميَّة، ثُمَّ المغولية عليه.

1 - الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 66 - 67.
2 - حول عقائد الإسماعيليَّة والفَرْق بين الدعوة القديمة والدعوة الجديدة راجعْ كتاب: المِلَل والنِّحَل، الشهرستاني.
3 - حسن الصبَّاح: حسن بن علي بن مُحمَّد الصبَّاح الحميري، الرازي المعروف بالكيَّال، " كان رجلاً شهماً عالماً بالهندسة، والحساب، والنُّجُوم، والسِّحْر، وغير ذلك". وُلد في مدينة قُمْ، بعد أنْ قدم والده إليها من الكُوفة، ثُمَّ تحوَّل إلى الرّيّ، وهُناك تتلمذ حسن على الدّاعية الإسماعيلي أحمد بن عبد الملك بن عطَّاش الطبيب، ثُمَّ طاف البلاد حتَّى وصل مصر، واجتمع بالخليفة الفاطمي المُستنصر بالله، ثُمَّ عاد إلى فارس، وأسَّس دعوته الخاصَّة. (جامع التواريخ - هُولاكُو، رشيد الدِّين، 258، وراجعْ ترجمة الحَسَن بن الصبَّاح في: المُقفَّى، المقريزي، أوردها د. سُهيل زَكَّار ضمن التراجم المُلحقة في كتاب الحشيشية لبرنارد لويس، 371).

ورُبَّما كان من أهمِّ أسباب نجاح الدعوة الإسماعيليَّة في الشَّرْق:

- إلغاء السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان نظامَ البريد الذي كان سائداً في أرجاء الدولة حتَّى ذلك الوقت، ممَّا حَجَبَ أخبارَ النشاط الإسماعيلي عن الوُلاة والقادة السلاجقة[1].

- نشاط مدارس الدعوة الإسماعيليَّة في مصر، وتوجيه دُعاتها - بشكل خاصٍّ - نحو البلاد الشَّرْقيَّة.

- تصدِّي العبَّاسيين والسلاجقة للدُّعاة، والمُبالغة في عُقُوبتهم، ممَّا حول الدعوة نحو السِّرِّيَّة المطلقة، وأصبح لها نظام تعاون وتكاتف فريد، ورُبَّما كان هذا أحد أسباب توجُّههم نحو الاغتيال.

- الصراع القائم بين الخلافة العبَّاسيَّة والسَّلطنة السلجوقية بعد وفاة السُّلطان ملكشاه، فلم يعودوا يهتمُّون للتصدِّي لهم.

- التنظيم الفعَّال الذي قام به الحسن الصبَّاح لأتباعه، فقد قسَّمهم إلى سبع درجات أساسية، وحدَّد لكُلِّ قسم منهم مهمَّات يقوم بها[2]، وهم بالتسلسل:

1 - داعي الدُّعاة. 2 - كبار الدُّعاة. 3 - الدُّعاة. 4 - الرِّفاق. 5 - اللاَّصقون. 6 - الفدائيون. 7 - المستجيبون.

بعد وفاة حسن الصبَّاح عام **518** هـ **1124**م، خلفه داعٍ إسماعيلي آخر من زملائه هُو الكيا بُزُرْكَ أُمِّيد[3]، وبعد وفاته عام **532** هـ **1138**م، خلفه ابنه مُحمَّد بن بُزُرْك حتَّى وفاته عام **557** هـ **1162**م، فتولَّى بعده ابنه حسن بن مُحمَّد الذي أحدث تغيُّراً نوعياً في العقيدة الإسماعيليَّة؛ إذْ أعلن القيامة، وأعفى أتباعه من كُلِّ الشعائر الإسلاميَّة عام **559** هـ **1164**م[4]، ولمَّا مات حسن عام **561** هـ **1166**م، استمرَّ من بعده ابنه مُحمَّد الثَّاني على تعاليم القيامة، إلى أن مات عام **607** هـ **1210**م،

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 7.
2 - A History of Persia, Sykes, p. 55
3 - الكيا: كلمة فارسية تعني: ملك (التيارات الأدبية، مُحمَّد ألتونجي، 165)، وبُزُرْك: فارسية تعني: كبير، وأميد تعني: أمل (المُعجم الذهبي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: بُزُرْك، ومادَّة: أميد).
4 - جامع التواريخ - هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 25، والحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 135.

فخلفه ابنه جلال الدِّين حسن [1]، الذي ألغى القيامة فور تولِّيه، وأعلن إعادة الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة، وفروضها، على المذهب الشافعي[2]، وكان ذلك أيَّام سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب في مصر والشَّام.

حول التقلُّب الدِّيني للإسماعيليَّة:

كانت الفرقة الإسماعيليَّة التي أسَّسها الحسن الصبَّاح، والتي عُرِفَتْ بالدعوة الجديدة، تُعدُّ من فرَق الشيعة المغالية، لكنَّها لم تخرج عن حظيرة الإسلام كُلِّيَّاً، ولكن مرسوم الإمام حسن بن مُحمَّد بن الكيا بُزُرْك أميد، الذي أعلن فيه القيامة؛ أيْ انتهاء الشريعة، وسُقُوط الفرائض، والتحلُّل من المُحرَّمات[3]، وقيل إنَّ حسن اعتمد القيامة، بعد أن نهل من مُعظم العُلُوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسَب إلى أفلاطون، وعلَّم أتباعه ذلك، فلا يبالون في الموت[4]. وبذلك أعلنت كُلُّ الفرَق الإسلاميَّة خُرُوج الإسماعيليَّة من حظيرة الدِّين، وجعلت هذه الفرقة خارج نطاق الإسلام، وبعد أن كانوا يُسمّون بالباطنية أُطلق عليهم اسم الملاحدة[5]، والزنادقة[6].

واستمرَّ عمل الفرقة الإسماعيليَّة الجديدة في فارس وسُورية بالقيام،ة وإيقاف الشريعة طيلة مُدَّة حُكْم مُحمَّد الثَّاني، الذي عيَّن ابنه جلال الدِّين حسن قائماً مقامه بالنَّصّ [7]، ولكن حسن "مُنْذُ صغره كان يعترض على موضوع القيامة"[8]، وبعد أن شبَّ خالف عقيدة أبيه، وأظهر الميلَ للإسلام، "واستقذر قواعد الإلحاد، والإباحة"[9]، وطلب من كافَّة أتباعه -بمَنْ فيهم إسماعيليَّة الشَّام، الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة، وإظهار شعائر الإسلام، وإقامة الحَدِّ على مَنْ ارتكب مُحرَّماً،

1 - جلال الدِّين حسن: تُوفِّي عام 618 هـ، ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 84.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211،
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، وفاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335، وهُناك وصف مُفصَّل لما تمَّ في الاحتفال الذي أقامه حسن بن مُحمَّد في قلعة ألموت لإعلان القيامة، في شهر رمضان عام 559 هـ (الحشيشية، برنارد لويس، 230).
4 - روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 991.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 245.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 176.
7 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.
8 - الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 146.
9 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.

فأجابوه. "وأرسل جلال الدِّين إلى الخليفة النَّاصر يبذل الطاعة، ويستدعي قُضاة وفُقهاء، فأُجيب"[1].

ومع أن هُناك مَنْ يشكُّ بما فعله جلال الدِّين حسن، ويعدُّ إعلانه العودة إلى الإسلام ما هُو إلَّا تظاهر[2]، يُوجد مَنْ يعتقد بصدق ما قام به جلال الدِّين، وكلا الطرفَيْن يُقدِّرون أسباباً لتحوُّل جلال الدِّين عن تعاليم القيامة، ومنها:

1 ـ كان جلال الدِّين "حسن الاعتقاد، . . وكان يكاتب الخليفة والسلاطين سرَّاً، ويُظهر لهم أنَّه يدين بالإسلام"، وأنَّه اعترض مُنْذُ صغره على موضوع القيامة، وكان جادَّاً بالسعي نحو تصالح إسلامي[3].

2 ـ عودة جلال الدِّين لحظيرة السُّنَّة كانت بتأثير أُمِّه، التي كان يرتبط بها بشدَّة، "وهي سُنّيَّة مُؤمنة"، وقد قصدت الحجاز للحجِّ عام 609 هـ 1212م[4]، وأثناء مُرُورها ببغداد نالت من التكريم والاهتمام في العاصمة العبَّاسيَّة من الخاصَّة ومن الخليفة بالذات الشيء الكثير[5]. وكذلك "أُكرمت بطريق مكَّة"[6].

3 ـ رُبَّما كان دافع حسن "عن طريق العناد لأبيه"[7]، فعلاقتهما الشخصية لم تكن على ما يُرام، وعداؤه لأبيه وتآمره المُبكِّر ضدَّه لم يكونا ليخفيا على أحد، إضافة إلى مُراسلته الخليفة العبَّاسي للاتِّفاق معه أثناء حُكْم أبيه.

4 ـ أَمْرُ إلغاء القيامة برُمَّته كان مُجرَّد تظاهر بالعودة إلى حظيرة الإسلام لضرورات مرحلية، وقد حلَّل حسن لنفسه ذلك وُفقاً لمبدأ التقية[8]، فالإسماعيليَّة فرقة باطنية كما هُو معروف. وتُعلِّل

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 157.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 157، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 77، ـ ويُضيف المُوفَّق: "حتَّى شعروا بالخوف لظهور خوارزم شاه بن تكش، فتظاهروا بالإسلام، وأقاموا شعائره". وخوف جلال الدِّين حسن من الخوارزمي يُبرِّر ما قيل بأنَّه " أوَّل مَنْ راسل جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى بلاد الإسلام" . (الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب،150).
3 - الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب،146.
4 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 336، والحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 147.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 211.
7 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81.

عودته لحظيرة الإسلام بأنَّها نتيجة لخوفه من جلال الدِّين خوارزم شاه "فما وجده مُخلِّصاً إلَّا التظاهر بالإسلام وإقامة شعائره"، فقد كان الخليفة النَّاصر يراسل جلال الدِّين باستمرار لإعادة شعائر الإسلام، فيرفض ذلك[1].

ولكنْ؛ يبدو أن نيَّة جلال الدِّين بإعادة التصالح مع مُحيطه الإسلامي هي الاحتمال الأرجح في سبب إلغائه القيامة، لوُجُود دوافع كثيرة اضطرَّته إلى ذلك، منها:

1 ـ العُزلة التي كان يعيشها الإسماعيليَّة في حُصُونهم.

2 ـ انحسار الدعوة الإسماعيليَّة، وعدم انتشارها في مناطق جديدة.

3 ـ الضعف الذي بدأ يدبُّ في كيان الفرقة الجديدة.

4 ـ تراجع فاعلية سلاحها القديم "الاغتيال".

ورُبَّما كان كُلُّ ما سبق من الأسباب مُجتمعة هي ما دفع جلال الدِّين حسن للإقدام على خطوته الانقلابية في العقيدة، والتي كان لها تأثيرات سياسيَّة وعسكريَّة كبيرة في علاقات الإسماعيليَّة في فارس والشَّام، فقد ألزم جلال الدِّين حسن أتباعه، ليس في فارس وحدها، بل وفي الشَّام، بالعودة إلى شعائر الإسلام وُفق مذهب الشافعي السَّائد في ذلك الوقت[2]. وعلى اعتبار أن من شعائر الإسلام طاعة الخليفة، فقد أرسل جلال الدِّين رُسُلَهُ إلى بغداد يُعلمون الخليفة العبَّاسي النَّاصر بالتحوُّل عن القيامة، وتُعلن له الطاعة[3]، فعُرف جلال الدِّين حسن مُنْذُ ذلك الوقت بلقب: (نو مُسلمان)؛ أيْ المُسلم الجديد[4].

1 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 77، ـ وهُنا يُوجد وَهْمٌ وقع به المُوفَّق، فقد قال: " راسل الخليفةُ النَّاصر جلالَ الدِّين حسنَ صاحب ألموت يُراوده أن يعتمد شعار الإسلام من صلاة وصيام وغير ذلك ممَّا رفضوه في زمان سنان، فيرفض". والصحيح أن الرفض لم يكن في زمن سنان، الذي كان في قلاع الشَّام، بل زمن مُحمَّد والد حسن، وهُو إمام الدعوة في ألموت.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 62، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 201، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81، ولُبنان من السُّقُوط بيد الصليبين حتَّى التحرير، عُمر تدمُري، 221.

3 - المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 77، ـ وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 157.

4 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 259.

ونتيجة للوضع الجديد للإسماعيليَّة، بعد عودتها إمارة ضمن البوتقة الإسلاميَّة تتبع للخليفة، وتعترف به، ولو اسمياً، فقد حرَّك جلال الدِّين قُوَّاته العسكريَّة حول مناطقه دعماً للخليفة حيناً، ولمصالحة الخاصَّة أحياناً، وبعد أن كانت الإسماعيليَّة لا تستطيع إلَّا تحريك فدائييها للاغتيالات، أصبحت تُحرِّك الجُيُوش لتحقيق مصالحها. ولمَّا تُوفِّي جلال الدِّين حسن بن مُحمَّد عام 618 هـ1221م[1] خلفه ابنه علاء الدِّين مُحمَّد بن حسن[2]، وكان مسايراً لنهج أبيه في العقيدة.

تأثير العودة إلى الشريعة على إسماعيليَّة الشَّام وعلاقتهم بالأيُّوبية:

عندما ألغى جلالُ الدِّين حسنُ القيامةَ عام 607 هـ 1210م[3]، أرسل إلى أتباعه في قلاع الشَّام يأمرهم باتِّباع شعائر الإسلام[4]، فالتزموا بذلك، وهُنا تتَّضح دقَّة الالتزام من قبَل الإسماعيليَّة الشَّاميَّة بأوامر المركز في قلعة ألموت بفارس، فالوُلاة يُعيَّنون من المركز، والسِّياسيَّة العليا يرسمها المركز، والمُساعدات المالية من المركز عندما تضيق الأحوال، إضافة إلى وُجُود الإمام هُناك، وهُو صاحب الأمر والنهي وُفق المذهب الإسماعيلي. وكُلُّ هذا أمر طبيعي، لكنَّ ما يتعارض معه بشكل مُحيِّر هُو علاقة إسماعيليَّة الشَّام بالفرنج، التي تستحقُّ وقفة طويلة معها، ومع ما تبعها من مُفاوضات قام بها إسماعيليَّة الشَّام مع ملك القُدْس الفرنجي لاعتناق المَسيحيَّة.

هذا الحَدَثُ، بإلغاء القيامة، وعودة الإسماعيليَّة إلى حظيرة الإسلام، الذي عمَّ الآفاق لأهمِّيَّته وغرابته، وصل ـ بالتَّأكيد ـ إلى مسامع الفرنجة في الساحل السوري، فهُناك روايات فرنجية عن تنصُّر

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 114.

2 - وقع ابن الأثير في الوَهْم عندما قال في أحداث سنة 610 هـ: " تُوفِّي جلال الدِّين الحَسَن، وهُو من أولاد الحَسَن بن الصبّاح"، فجلال الدِّين ليس من أولاد الحَسَن بن الصبّاح، بل من أولاد زميله الداعي بُزُرْك أميد.

3 - تمَّ ذلك عام 607 هـ وُفقاً لما ذكره الجويني (تاريخ فاتح العالم، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2 / 335)، وعام 608 هـ وُفقاً لما ذكره ابن الأثير (الكامل 12 / 268)، ولما ذكره ابن واصل (مُفرِّج الكُرُوب 3/ 211)، وعام 609 هـ وُفقاً لما ذكره أبو شامة (ذَيْل الرَّوضَتَيْن 81)، وعام 610 هـ وُفقاً لما ذكره ابن آيبك (كَنز الدُّرر ـ 7 / 176). ولقد اعتمدتُ تاريخ 607 هـ لأنني لاحظتُ أن هُناك خطأ جَغرافياً يصل بالترتيب التصاعدي بين مركز الحَدَث وبين المُؤرِّخين المذكورين، فالعام الأوَّل ما ذكره الجويني في كتاب تاريخ فاتح العالم وهُو قُرب مركز الحَدَث في بلاد فارس، والثاني ابن الأثير وهُو في شمال العراق، ورُبَّما أخذ عنه ابن واصل، والثَّالث أبو شامة في دمشق، والرَّابع ابن آيبك في مصر، علماً أنَّنا نجد كُلَّ تواريخهم صحيحة بحال إذا اعتبرنا أن كُلاً منهم دوَّن الخبر سنة وُصُوله إلى بلده.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 211، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81.

الإسماعيليَّة لا تستقيم إلَّا إذا ربطناها بسماعهم لهذا الخبر، ولكنَّها تبقى موجُودة بقُوَّة لتعدُّد الرُّواة الفرنج المُعاصرين الذين ردَّدوها. يروي روجر ويندوفر مُحاولة الإسماعيليَّة اعتناق المَسيحيَّة في عام 567 هـ 1172م، فيقول: "حصل رئيسهم في هذه الأيَّام على كتاب الأناجيل وكتابات الرُّسُل؛ حيثُ درس المُعجزات المَسيحيَّة، وأفكارها، وهذا ما جعله يتخلَّى عن شرعة مُحمَّد، ويتحوَّل إلى الشرعة الفضيلة للمسيح، وَهَدَمَ المساجدَ، وصلَّى وُفق عادات المسيحيين، وأرسل واحداً من رجاله إلى بلدوين[1] للحُصُول على تكريس المعمودية، لكنَّ فُرسان الدَّاويَة قتلوه، ممَّا ألحق ضرراً بالكَنيسَة"[2].

ويروي هذه القصَّة وليم رئيس أساقفة صُور، مُحاولاً التأكيد على أن طلب التحوُّل قد تمَّ بناء على القناعة التامَّة لشيخ الجبل بتعاليم المَسيحيَّة، يقول: "حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكماً هم كان رجلاً فصيحاً جدَّاً، وحادّ الذكاء، ولامعاً، وكان بحوزة هذا الرجل كُتُبُ الأناجيل والشريعة الرسولية، وقد انكبَّ باستمرار على دراسة هذه الكُتُب، وحاول ـ لمُدَّة من الزمن، وبجهد كبير ـ اتِّباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية"[3]. ويُتابع وليم بأنَّ شيخ الجبل قد علَّم شعبه قناعته الجديدة، وأرسل رسولاً يُدعى عبد الله إلى الملك عموري[4] الأوَّل ملك القُدْس يعرض عليه تلقِّي الإسماعيليَّة التعميد مُقابل إعفائهم من الجزية التي يفرضها عليهم فُرسان الدَّاويَة. ثُمَّ يتحدَّث وليم عن حفاوة الملك الفرنجي بالرسول، والاتِّفاق التامّ بينهما، ولكن؛ أثناء عودة الرسول إلى بلاده لإتمام الصفقة هاجمه فُرسان الدَّاويَة، وقتلوه، فأثار النبأ حفيظة الملك، واعتبر قتل الرسول إساءة شخصية له، ونشب خلاف حادّ بينه وبين الدَّاويَة، لكنَّ وفاة الملك عموري أنهت القضية، مثلما أنهى اغتيال الرسول قضيَّة تحوُّل الإسماعيليَّة إلى المَسيحيَّة[5].

---

1 - يذكر وليم الصُّوري بأنَّ ملك القُدْس الذي اتَّصل به الإسماعيليَّة من أجل التنصُّر هُو: عموري الأوَّل (من تاريخ أعمال أُنجزت فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 367).

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170، و William of Tyre, vol. II, pp. 392 4 - & Burchard, A Description of the Holy Land p, 105

3 - من تاريخ أعمال أُنجزت فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 367.

4 - يذكر روجر ويندوفر بأنَّ ملك القُدْس الذي اتَّصل به الإسماعيليَّة من أجل التنصُّر هُو: بلدوين (وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170).

5 - من تاريخ أعمال أُنجزت فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 369).

ويقول وولتر ماب: "طلب حاكم الحشيشية شيخ الجبل من بطريرك القُدْس تزويده بكُتُب الأناجيل، فأرسلها له مع مُترجم، فاستقبلهم بكُلِّ تشوُّق ورغبة، ثُمَّ أرسل يطلب كَهَنَةً لتسلُّم التعميد الكامل مع قرابين الإيمان، فاعتقل الدَّاويَة رسوله، وقتلوه، خشية أنَّ تحوُّل الكُفَّار قد تقود إلى وحدة السلام، ولمَّا اكتشف شيخُ الجبل الخيانةَ بقي مُلازماً لإيمانه القديم"[1]. كذلك يُردّد حكاية طلب اعتناق الإسماعيليَّة للدِّين المسيحي الراهبُ بورتشارد في روايته لأحداث سُورية[2]. وقد فُسِّر قتل رسول الإسماعيليَّة من قبل الدَّاويَة بأنَّه حرص منهم على الإتاوة التي يحصلون عليها من الإسماعيليَّة، والتي ستضيع عليهم إذا تنصَّروا، فقاموا بهذا العمل[3].

ومع أن أكثر من مصدر فرنجي يُؤكِّد هذه الرواية فإنَّنا لا نستطيع أن نقبلها كمُسلمة، فما الذي يدفع شيخَ الجبل لاعتناق المَسيحيَّة، مع غياب أيِّ مكسب ظاهر له، أو لأتباعه من هذا التحوُّل، إضافة إلى ما نعرفه من التمسُّك الشديد للإسماعيليَّة بمعتقداتهم التي كانوا يُضحُّون بأنفسهم بسُهُولة في سبيلها؟! ذاك يدفعنا للشَّكِّ بهذه الرواية. ثُمَّ إن هذه الحادثة تبدو غير منطقية، خاصَّة في الزمن الذي يُقال إنَّها تمَّت فيه، فلا سابقة، ولا لاحقة، لها من قبَل أيِّ طائفة دينيَّة، إلَّا إذا اعتبرناها ـ وُفقاً لمبدأ التقية ـ مُناورة سياسيَّة من قبَل الإسماعيليَّة، فقد سيطر ـ وقتها ـ نُور الدِّين على الشَّام، وقامت حملة مُنظَّمة من الدولة، يرافقها تأييد شعبي كبير، بالضغط على أتباع الإسماعيليَّة في الشَّام، وكانت قواعدهم منتشرة فيها، فطُردوا من المُدُن، والتجؤوا إلى الجبال السَّاحليَّة، محصورين بين مطرقة نُور الدِّين وسندان الفرنجة، فرُبَّما كان التنصُّر حلاً فكَّر به زعيم الإسماعيليَّة للخُرُوج من وضع صعب، ولكنَّه شيء لم يتمّ على كُلِّ حال. ورُبَّما وُضعت هذه الرواية ونُشرت كَرَدٍّ فرنجي على صدى ما وصل إليهم عن اعتناق الإسماعيليَّة للمذهب السُّنِّيِّ، وولائهم للخلافة العبَّاسيَّة.

---

1 - ما جاء عند وولتر ماب ـ Diomede, P.10، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 389.

2 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

3 - فيليب حتِّي، تاريخ سُورية ولُبنان، ترجمة: جُورج حدَّاد، 2 / 246.

المبحث الثَّاني

الفرقة الإسماعيليَّة في الشَّام

كان أشهر مُقدَّمي الإسماعيليَّة في الشَّام راشد الدِّين سنان[1]، الذي اتَّخذ من قلعة مصياف مقرّاً له، وهُو أوَّل مَنْ أُطلق عليه لقبُ شيخ الجبل، الذي عُرف به كُلُّ الأئمة بعده. ويصف ابن العبري سنان بقوله: "كان سنان مهيباً لدى المُلُوك العَرَب والفرنجة، فقد صنع سكاكين صكّ، على كُلِّ واحدة منها اسم أحد المُلُوك، وعلى مَنْ تُهدى إليه أن يُنجز ما يطلبه منه سنان، ولو كلَّفه حياته، وقد نهل هذا الزعيم الإسماعيلي من جميع العُلُوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسَب إلى أفلاطون، وعلَّم أتباعه هذا المبدأ، ولهذا؛ كانوا لا يُبالون بالموت، واختفى سنان عدَّة مرَّات، ثُمَّ عاد، وكان يُشاع أنَّه مات، واعتقد أتباعه أنَّه حيّ سيعود"[2].

إن أهمِّيَّة نصِّ ابن العبري لا تنبع من دقَّة المعلومات التي يوردها النصّ، بل من كونه استطاع أن يعكس صُورة سنان كما تخيَّلها الناس في ذلك الزَّمان، فممَّا لا شكَّ فيه أن سنان كان من الأشخاص الأكثر هيبة في زمانه، ولكنَّنا لا نعتقد أنَّه كان يُسخِّر المُلُوك لفعل ما يشاء، ونُرجِّح اطِّلاعه على العُلُوم، ومن المؤكَّد اعتناقه لمبدأ تناسخ الأرواح، وهُنا تكمن أهمِّيَّة هذا النصّ، فهُو يُعلِّل اندفاع الإسماعيليَّة للموت بسبب إيمانهم بالتناسخ، وليس كما أُشيع بأنَّ أعمالهم كانت تتمُّ تحت تأثير الحشيش المُخدِّر.

ويبدو أن خلافة إمام إسماعيليَّة الشَّام لم تكن بأيدي الأتباع فيها، فقد كانت تتمُّ بتكليف من المركز في قلعة ألموت، فبعد وفاة سنان في مصياف تولَّى ابنه النَّاصر الفارسي[3]. وفي عام 624 هـ 1227م، كان يتولَّى إمامة الإسماعيليَّة في مصياف شخص اسمه مجد الدِّين، فأرسل إلى علاء الدِّين

1 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 97 - راشد الدِّين سنان: "كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نُور الدِّين، فاجتمع إليه مُحبُّوه كي يقتلوه، حتَّى يرجع إليهم صحيحاً، فلاطفهم، حتَّى تركوه. ولمَّا جاء الأمر من ألموت من الكيا مُحمَّد ليحلّهم من الإسلام، ويُسقط عنهم التكاليف، نزل سنان إلى مصيات في شهر رمضان، فأكل، فأكلوا معه". (تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 80).

2 - روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 441.

3 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 79، وروايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 991، - ويبدو أن سنان كان فارسياً كما يظهر من اسم ابنه: النَّاصر الفارسي.

كَيْقُبَاذ، سُلطان سلاجقة الرُّوم في الأناضول، يطلب منه المبلغ المُقرَّر عليه، وهُو ألفا دينار، فأبى ذلك؛ لأنَّها كانت تُدفَع إلى صاحب ألموت، وأرسل يسأله في ذلك، "فقال له: تحملها إليهم بالشام، فقد عيَّنَّاها لهم ذخيرة، فحملوها"[1]، وهذا يدلُّ على دعم ألموت لقلاع الشَّام ماديّاً وقت الحاجة، وأن مُلُوك المُسلمين بمُعظمهم كانوا يُدارون الإسماعيليَّة بشكل من الأشكال، مثل: التحالف معهم، أو تقديم المُساعدة، أو الهدايا، أو مال مُحدَّد يُدفَع سنوياً. إنَّ دفع هذه الجزية يدلُّ على مدى خوف الحُكَّام والمُلُوك من خناجر الإسماعيليَّة، وعلى أن الأخبار حول اغتيالاتهم قد حوَّلتهم إلى ما يُشبه الأُسطُورة، وإلى أن مُلُوك السلاجقة الرُّوم لم يكونوا قادرين على ضبط أمنهم بين حاشيتهم ومُرافقيهم والمُتَّصلين بهم.

قلاع الشَّام الإسماعيليَّة في العصر الأيُّوبي:

يذكر أن القلاع الإسماعيليَّة في جبال الشَّام السَّاحليَّة كانت في عام 654 هـ 1256م ثمانية قلاع[2]، منها:

1. **مصياف:** أو مصيات، وهي حصن حصين مشهور للإسماعيليَّة بالساحل الشَّامي قُرب طرابلس، وكانت قلعتها مُحصَّنة تحصيناً قوياً يُثير العجب[3]، وقعت تحت سيطرة المغول عام 655 هـ 1260م، ثُمَّ عادت إلى سيطرة الإسماعيليَّة، حتَّى احتلَّها الظَّاهر بيبرس، مُنهياً الوُجُود الإسماعيلي فيها عام 660 هـ 1270م[4]. وهي - اليوم - مركز منطقة تتبع مُحافظة حماة، تقع على السُّفُوح الشَّرْقيَّة لجبال اللاذقية، جنوب غرب حماة 45كم[5].

2. **القدموس:** قلعة حصينة، استولى عليها الإسماعيليَّة عام 506 هـ 1113م، واستخدموها كقاعدة ضدَّ جيرانهم المُسلمين والفرنج على السواء[6]، وهي - الآن - بلدة ومركز ناحية في مرتفعات جبال اللاذقية، تتبع منطقة بانياس، مُحافظة طرطوس[7].

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 145 - 146.
2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 3.
47 - الجَغرافيون والرحَّالة، مُحمَّد عوض، 35.
4 - حول قلعة مصياف راجعْ: ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي والاعتبار، أُسامة بن مُنقذ والمُعجم الجَغرافي للقطر السوري: مادَّة: مصياف.
5 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: مصياف.
6 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 174.
7 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: قدموس.

3 . **العليقة:** قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، منطقة بانياس، جنوب شرق جبلة، جاءت تسميتها من موقعها المُعلَّق على مرتفع جبلي، تُطلُّ العليقة على البحر من بُعد 15 كم، وهي تتحكَّم بالممرِّ الجبلي، الذي يصل حماة ببانياس عبر القدموس. بناها العَرَب نحو 431 هـ ـ 1040 م، احتلَّها راشد الدِّين سنان، وضمَّها إلى قلاع الإسماعيليَّة[1].

4 . **الخوابي:** قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، تبعد 25 كم شمال شرق طرطوس، سُمِّيَت الخوابي لوُجُود خوابي فخارية كثيرة فيها، شيَّدها شيخ الجبل راشد الدِّين سنان مطلع القرن 12 م[2].

5 . **المنيقة:** وهي قلعة تقوم بالقُرب من القدموس[3].

6 . **الكهف:** قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، منطقة الشَّيخ بدر، مُحافظة طرطوس، كانت تكتسب أهمِّيَّتها من إشرافها على أراضي كونتية طرابلس الفرنجيَّة، سُمِّيَتْ بالكهف لأن مدخلها محفور بالصخر[4].

الإسماعيليَّة والاغتيالات في الشَّام:

شهدت سياسة الإسماعيليَّة في الشَّام ـ باعتمادها على الاغتيال كوسيلة لحسم المواقف السِّياسيَّة ـ تبدُّلات كبيرة، ففي بدايات انتشار الإسماعيليَّة في الشَّام، لجؤوا إلى اغتيال كُلِّ مَنْ أمكنهم من القادة، الذين يُمكن أن يقفوا بوجههم، فكان أوَّل ضحاياهم تاج الدولة حسين صاحب حمص، الذي كان أتابك الملك السلجوقي رضوان وزوج أمِّه، فقد قتلوه في حمص عام 496 هـ ـ 1103م، ويُقال إن ذلك تمَّ بتحريض من الملك رضوان لتساهله مع الإسماعيليَّة، وتمركزهم في حلب في ذلك الوقت[5].

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 174، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: العليقة.
2 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: الخوابي.
3 - تُحفة النُّظَّار، ابن بطُّوطة، 76، ونخبة الدهر، شيخ الربوة، 208، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: المنيقة.
4 - الإدريسي، نُزهة المُشتاق، 19، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: الكهف.
5 - تاريخ حلب، العظيمي، 361، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 230.

ثُمَّ اغتالوا مودود، وهُو من أوائل قادة الجهاد ضدَّ الفرنج، بجامع دمشق[1]. وبعد فشل مُحاولتهم اغتيال صلاح الدِّين، ومُحاصرته لهم، والاتِّفاق الذي تمَّ بينهما، تبدَّلت سياستهم كُلِّيَّاً، فقد توجَّهت خناجرهم الفتَّاكة ـ بعدها ـ نحو قادة الفرنج، ولكنْ؛ انتقلت اغتيالاتهم من حيِّز الواقع لتدخل عالم الأُسطُورة، وحكايات السمر المُسلِّية في الليالي، حتَّى إن كلَّ حادثة قَتْل لا يُعرَف مُرتكبها أصبحت تُلصَق بالإسماعيليَّة، ومع الأسف؛ فقد انتقلت هذه العدوى إلى المُؤرِّخين.

فقد أورد المكين جرجس في كتابه أخبار الأيُّوبيِّيْن ما يلي: "استشار الجواد[2] المُجاهد[3] في أمر عماد الدِّين ابن الشَّيخ[4]، فأشار عليه بقتله، فوافقهم الأمير سيف الدِّين علي بن قلج على ذلك، فسيَّروا إلى نُوَّاب الإسماعيليَّة، وقرروا معهم قتله، وأعطاهم الملكُ الجوادُ قرية الرصيف من الشعرا[5]، وحمل إليهم مالاً تقرَّر الأمر عليه، فرتَّبوا نفرَيْن من الفداوية، فقتلوه على باب جامع دمشق، وأشاعوا أنَّهم قتلوه غلطاً، وما كان مقصودهم إلَّا الملك الجواد، فإنَّه يُشبهه"[6]. وكرَّر الرواية المقريزي المُتوفَّى عام 845 هـ فقال: " ورأوا أن أمرهم لا يتمُّ إلَّا بقتل عماد الدِّين، فبعثوا إلى نُوَّاب الإسماعيليَّة في قتله، ودفعوا إليهم مالاً وقُربة ـ والصحيح قرية، فبعثوا فداويَيْن قدما إلى دمشق، فلمَّا خرج عماد الدِّين إلى الجامع، وثبا عليه، وقتلاه، وأشاعا أنهما قد غلطا في قتله، وأن المقصود إنَّما كان قتل الملك الجواد، فإنَّه كان كثير الشبه به"[7].

---

1 - الباهر، ابن الأثير، 18.
2 - هُو: الملك الجواد إسماعيل صاحب دمشق.
3 - هُو: الملك المُجاهد شيركوه صاحب حمص.
4 - هُو: وزير العادل الثَّاني سُلطان مصر .
5 - الشعرا: لم يذكرها ياقوت في مُعجمه، وفي المُعجم الجَغرافي ثلاث إشارات إلى هذا الموقع، الأُولى: جبل الشعرة، في السلسلة التدمرية الشمالية، ولا أعتقد أنَّه المقصود لبُعْده عن مواقع الإسماعيليَّة، ولعدم وُجُود قُرى ومزارع فيه. الثَّانية: قرية الشعرة، في السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، قريبة من القدموس، أحد أهمِّ مواقع الإسماعيليَّة في الشَّام، واحتمال ضعيف أن تكون هي القرية المقصودة لكونها في بلاد الإسماعيليَّة، والاسم للقرية، وليس لما يجاورها. والثَّالثة: شعرة العجايز، وهي قرية قريبة من بلدة معرَّة النعمان، وتقع على جانب مسيل الشعرة، والاحتمال الأرجح أن تكون هي المقصودة، لوُقُوعها على رصيف مسيل الشعرة. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، 4 / 28 ـ 29).
6 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 24.
7 - دُرَر العُقُود الفريدة، المقريزي، 2 / 315.

ومع أنَّنا نعرف أن قتل ابن الشَّيخ لم يكن بحاجة إلى فدائيَّيْ الإسماعيليَّة، فهُو رغم صفته الرَّسْميَّة كنائب للسُّلطان العادل الثَّاني فلا يملك قُوَّة فعليَّة البتَّة، بينما المُجاهد أوَّلاً، والجواد ثانياً، هما أصحاب القُوَّة بدمشق، وتدبير حادثة قتله سهل جدّاً بالنِّسبَة إليهما، ولا يحتاج لفدائيَّيْن، ولا إلى دفع نفقات مالية كبيرة، وقرية ذات خراج. ويُخبرنا ابن تغري بردي الرواية الأقرب للحقيقة، وهي أن المُجاهد "استدعى بعض نصارى قارا[1]، وأمره بقتله"، ونفَّذ الأمر على أنَّه حادث، فقد سُجن القاتل لعدَّة أيَّام، ثُمَّ أُطلق سراحه[2]، ورواية ابن العبري والمقريزي تدلُّنا على أن العديد من حوادث الاغتيال قد أُلصقت بالإسماعيليَّة، وهي إنْ صحَّت فهي دليل على أن الاغتيالات السِّياسيَّة الهادفة للمصلحة الإسماعيليَّة العُليا قد تحوَّلت إلى قتل مأجور لتحقيق ربح، أو مصلحة. ومع كُلِّ ذلك فيبدو أن تهمة الاغتيال، وخاصَّة اغتيال المُلوك، كانت تروق لمُقدَّمي إسماعيليَّة الشَّام؛ إذْ يروي الراهب البريطاني إيف لي بريتون، رسول الملك لويس إلى الإسماعيليَّة: "أن شيخ الجبل كُلَّما ركب، وسار، مشى أمامه مُناد يحمل بلطة، لها حَدٌّ طويل مُغلَّف بالفضَّة، وقد ثبّت عليها عدداً من الخناجر، وهُو ينادي طوال سيره: ابتعدوا عن طريق الذي يحمل في يدَيْه موت المُلوك"[3].

1 - قارا : "قرية كبيرة، وسُكَّانها جميعاً من النصارى". (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قارا)، كانت في العصر الأيُّوبي تتبع مملكة حمص. (مملكة حمص الأيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 296)، وحول قارا راجعْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 14 / 381، ورحلة ابن جُبَيْر، 233،و المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: قارا.

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 314، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640 / 20، والتاريخ الصالحي، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 609.

3 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 171.

المبحث الثَّالث

التحالف بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرقة الإسماعيليَّة

يبدو أن بدايات ضعف شُهرة وقُوَّة الإسماعيليِّيْن كمُغتالين رهيبين قد بدأت مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين، فبعد المَدِّ الإسماعيلي الكبير في الشَّام، وتحكُّمهم في أكبر مُدُنها مثل: حلب، ودمشق، وسيطرتهم على عدد من أمنع قلاعها، أخذت دعوتهم بالضعف، خاصَّة بعد طردهم من المُدُن بثورات شعبية، ومذابح، أودت بالكثير منهم في حلب ودمشق وعدَّة بُلدان شامية، فلم تتكوَّن الدولة الأيُّوبيَّة وتستقرّ إلَّا والإسماعيليَّة مُنكمشون في قلاعهم الحصينة، مُستفيدون من كونهم في جبال وعرة، تقع على حُدُود السيطرة الفرنجيَّة.

لذلك كان لهم أثر ضعيف على سياسة الدُّول الأيُّوبيَّة، التي اختاروا محالفتها مُنْذُ البداية، ومن ناحية أُخرى؛ نجد أن الأيُّوبيِّيْن يدعمونهم سياسياً، ويُدافعون عنهم عسكريّاً، ورُبَّما كانوا يعدُّونهم سدّاً بوجه الفرنج، أو قُوَّة، وإن فقدت الكثير من فاعليَّتها فلا يزال اسمها كبيراً، يستفيدون منها في صراعاتهم الدَّاخليَّة، أو الخارجيَّة. وهذا لا يعني أنَّهم كانوا على هامش السياسة الأيُّوبيَّة تماماً، فالأحداث الدَّاخليَّة للفرقة الإسماعيليَّة قد أثَّرت وتأثَّرت بشكل واضح بعلاقتهم بالقوى المُحيطة بهم، ومنها الأيُّوبيُّون.

اقتصرت العلاقات الأيُّوبيَّة الإسماعيليَّة على علاقة الأيُّوبيِّيْن بإسماعيليَّة الشَّام فقط، ولم يكن لهم أيُّ صلة بإسماعيليَّة فارس. وكان زعيم الإسماعيليَّة في الشَّام ـ أو كما يُسمُّونه صاحب الدعوة، عندما أسَّس صلاح الدِّين الدولة الأيُّوبيَّة ـ هُو راشد الدِّين "سنان بن سلمان"[1]، وكان أصله من حصن الإسماعيليَّة الرئيسي في ألموت[2] بفارس، فرأى منه صاحب الأمر هُناك نجابة وشهامة وعقلاً وتدبيراً، فسيَّره إلى حُصُون الشَّام، فوصلها، وجَدَّ في إقامة الدعوة واستجلاب القُلُوب أيَّام السُّلطان

1 - راشد الدِّين سنان: ابن سلمان بن مُحمَّد البصري، كان يُعلِّم الصبيان في البصرة، كان أعرجاً، وَلِيَ قلاع الدعوة في الشَّام، وأقام في قلعة الكهف، ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العماد، ـ تاريخ البغدادي ورحلته، ـ ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، ـ بغية الطلب، ابن العديم. وقد أورد المستشرق برنارد لويس تفاصيل مُهمَّة عن حياة راشد الدِّين في كتابه: الحشيشية، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، 296.

2 - حول ألموت راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 8 / 140.

نُور الدِّين، واستولى على عدَّة قلاع في الشَّام، وعزم نُور الدِّين على قصده، لكنَّه تُوفِّي قبل ذلك، وأقام سنان حتَّى تُوفِّي عام588 هـ" 1192م[1].

بدأت العلاقات بين إسماعيليَّة الشَّام وبين الأيُّوبيِّيْن في وقت مُبكِّر من عهد السُّلطان صلاح الدِّين، من خلال مُحاولتَيْن لاغتياله: الأُولى عندما كان صلاح الدِّين في عام 570 هـ 1175م، يُحاصر حلب؛ حيثُ اتَّصل الحلبيون بسنان إمام الإسماعيليَّة، ووعدوه بضياع ومال، فأرسل الفداوية لقتل صلاح الدِّين[2]. والمُحاولة الثَّانية أثناء مُحاصرته لإعزاز عام 571 هـ 1176م[3]، لكنَّه نجا منهم في المُحاولتَيْن.

لذلك جعلهم صلاح الدِّين همَّه الأوَّل، وتوجَّه نحو أكبر قلاعهم ومقرّ قيادتهم في مصياف، وألقى الحصار عليها عام 572 هـ 1177م، وكُلُّه عزم على استئصال شأفتهم من الشَّام[4]، فشعر الإسماعيليَّة أنَّهم أمام خطر حقيقي لم يُمكن مُواجهته بالاغتيال، ولن يُمكن لقلاعهم الصُّمُود أمام قُوَّاته، ممَّا اضطرَّهم - على ما يبدو - لأنْ يعقدوا اتِّفاقاً سرِّيّاً، لم يُعلَن أبداً، ورُبَّما كان عدم إعلانه رغبة أيُّوبية لأسباب دينيَّة مذهبية، فهم - نظرياً - حُماة السُّنَّة، وهكذا اتِّفاق يُوقعهم بتناقض ومشاكل يُمكن تجاوزها بكتمانه، لذلك نجد أن كُلّ ما ذكره المُؤرِّخون حول سبب عودة صلاح عن قتالهم، وفكّ حصاره لمصياف: أن شهاب الدِّين الحارمي خال السُّلطان صلاح الدِّين[5]، وكان والي حماة - التي تُعدُّ مصياف من أراضيها - قد توسَّط - بناءً على طلب راشد الدِّين سنان زعيم إسماعيليَّة الشَّام - مع صلاح الدِّين، ففكَّ حصاره عنهم، وصالحهم عام 572 هـ 1177م[6]، وسار عنهم.

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 117.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 419.
3 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق ششن، 210.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 57، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 521 ـ 530.
5 - شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارمي، (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 523).
6 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق ششن، 219، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 59، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 528، وصلاح الدِّين والحَشَّاشون، برنارد لويس، مقالة في مجلَّة الدِّراسات الشَّرْقيَّة والأفريقية.
وLewis. B, Saladin and Assassins

ولكنْ؛ يبدو أن الموضوع لم يكن وساطة عادية لفكِّ الحصار فقط، بل كان اتِّفاقاً عامّاً وشاملاً، سيلتزم به الطرفان ومَنْ يخلفهما زمناً طويلاً، ومع أن مُجريات هذا الاتِّفاق لم تُعلَن، لكنَّها تتَّضح من الوقائع اللاحقة، ومنها:

1 ـ في مُعاهدة صُلح الرملة مع الفرنج اشترط صلاح الدِّين دُخُول بلاد الإسماعيليَّة فيه[1]، وهذا دليل على اتِّفاقه الكامل معهم، وكأن مناطقهم جُزء من بلاده.

2 ـ لم نعد نسمع عن اغتيال، أو حتَّى مُحاولة اغتيال أيِّ أمير أو قائد أيُّوبي من قبَل الإسماعيليَّة، مُنذُ عام 572 هـ 1177م، وحتَّى نهاية الدولة الأيُّوبيَّة. وبالمُقابل؛ لم تُجرَّدْ أيُّ حملة أيُّوبية ضدَّ معاقل الإسماعيليَّة، بل على العكس، دعمت الممالكُ الأيُّوبيَّة هذه المواقعَ كُلَّما تعرَّضت إلى هُجُوم الفرنجة.

3 ـ توجَّهت خناجر الإسماعيليَّة نحو الفرنج، واغتالوا عدداً من مُلُوكهم وأُمرائهم.

وبعد الاتِّفاق بين صلاح الدِّين والإسماعيليَّة أخذت تسوء علاقتهم مع أتابكة حلب، فقد تنكَّر لهم الصَّالح إسماعيل بعد تودُّد، واستولى على قرية حجيرا التابعة لهم، ولـمَّا طالبه سنان بردِّها رفض إسماعيل، فأرسل سنان رجاله، وأحرقوا أسواق حلب[2].

وسريعاً ما عبَّر الإسماعيليَّة عن وفائهم للتحالف مع الأُسرة الأيُّوبيَّة، فبعد وفاة صلاح الدِّين أعلن بكتمر صاحب خِلاط ابتهاجه، وظهر بشعار السَّلطنة، وتلقَّب بالملك النَّاصر "لقب صلاح الدِّين"، وأقام تحالفاً مُعادياً للأيُّوبية مع صاحب آمد، ومع أتابكة المَوصل وسنجار، ولـمَّا تحركت جُيُوش التحالف تدخَّلت الخناجر الإسماعيليَّة لتُنهي حياة بكتمر، وتُنهي معه أخطر تحالف واجه الأُسرة الأيُّوبيَّة في الجزيرة بعد موت صلاح الدِّين[3].

وقد ظهرت جلياً على ساحة الشَّام، ومن خلال الأحداث، آثار الاتِّفاق الضمني بين الممالك الأيُّوبيَّة وبين الإسماعيليَّة في الشَّام، فالعلاقات بينهما كانت أكثر من طبيعية، وممَّا يُشير إلى التحالف بينهما هو سماح مملكة حلب للإسماعيليَّة بإقامة دار للدعوة في بعض البُلدان التابعة لها؛ مثل

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 403.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 1 / 138، والحشيشية، برنارد لويس، 134.
3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 436.

سرمين[1]، ولكن وُجودها في بلدة صغيرة، بعد أن كانت دُور الدعوة في عواصم الشَّام كحلب ودمشق، يدلُّ على انكماش الدعوة الإسماعيليَّة، وتراجعها كثيراً؛ بحيث أنَّها لم تعد تُشكِّل خطراً يُذكر على أُمراء الأيُّوبيَّة، فتساهلوا معها، ورُبَّما عدُّوها حليفاً، إنْ لم ينفع، لا يضرُّ. وفي عام **631 هـ 1234**م، أرسل الملكُ المُجاهدُ أسدُ الدِّين شيركوه صاحب حمص هدية للإسماعيليَّة[2]، وهي - بالتَّأكيد - دليل على علاقات طيبة شاملة.

وفي المحنة التي تعرَّض لها الصَّالح أيُّوب **636 هـ 1239**م عندما سُجن في الكَرَك، فارقه بدر الدِّين قاضي سنجار، فأراد الصَّالح إسماعيل المُستولي على دمشق أن يستخدم بدر الدِّين في رسالة إلى كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، فخان بدر الدِّين الرسالة، وتحدَّث باسم أيُّوب، ولذلك خاف من العودة لدمشق "والتجأ إلى الإسماعيليَّة، وكان مُقدَّم الإسماعيليَّة رجلاً من العجم ورد من ألموت يُقال له تاج الدِّين، فأجاره، ولمَّا طلبه إسماعيل منه مغلطه، وطلب من القاضي اللُّجُوء إلى حماة"[3]. فهل تدلُّ هذه الحادثة على الضعف الذي وصلت إليه قُوَّة الإسماعيليَّة في الشَّام؛ حيثُ لم يجرؤ مُقدَّمهم على مصارحة الصَّالح إسماعيل بأنَّه يحمي القاضي؟! أم أنَّها تدلُّ على أن مُقدَّم الإسماعيليَّة كان يُمارس سياسة أسلافه بالحرص على صداقة كُلِّ الأطراف الأيُّوبيَّة؟! رُبَّما الدلالتان معاً!.

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 251.

المبحث الرَّابع

العلاقات الإسماعيليَّة الخَوَارزميَّة وانعكاسها على الممالك الأيُّوبيَّة

1 - في فارس:

مع أن بحثنا يتعلَّق - بشكل رئيس - بالعلاقات في الشَّام، لكنَّ معرفة أساس العلاقة بين الخَوَارزميَّة وإسماعيليَّة الشَّام يُوجب علينا أن نبدأ بها من فارس :

كان لابُدَّ من أن ينفجر الصراع بين الدولة الخَوَارزميَّة وبين الإسماعيليَّة المتمركزين في بعض المناطق والقلاع الجبلية في فارس، فقد سعت الدولة الخَوَارزميَّة للسيطرة المطلقة في بلاد الشَّرْق الإسلامي، وأزالت كُلَّ القوى المحلِّيَّة، ويبدو أن الإسماعيليَّة كانوا ينحنون أمام العواصف التي تُهدِّد باقتلاعهم، فقد أعلنوا خُضُوعهم للسُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، وأقاموا له الخطبة في بلادهم أيَّام الإمام جلال الدِّين حسن[1].

وعندما بدأت تظهر قُوَّة التَّتار في بلاد الشَّرْق الإسلامي نظر إليهم جلال الدِّين كقُوَّة يُمكن أن يُستفاد منها، فيُقال إنَّه أوَّل مَنْ رَاسَلَ جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى ديار الإسلام[2]، وممَّا يُؤكِّد ذلك أن علاء الدِّين مُحمَّد بن جلال الدِّين حسن قد أرسل بدر الدِّين أحمد رسولاً من طرفه إلى التَّتار، وعلم بذلك جلال الدِّين خوارزم شاه، فأرسل لعلاء الدِّين يسأله في ذلك، فكان جوابه: "إن السُّلطان يعلم أن لنا بلاداً متاخمة للتَّتار، ولابُدَّ لنا من مُداراتهم دَفْعاً للأذى عنها، فإذا ثبت للسُّلطان أن رسالته - أي بدر الدِّين أحمد - كانت في فساد يعود للدولة - الخَوَارزميَّة - فنحنُ المُذنبون في ذلك"[3].

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 340.
2 - الحشَّاشون، لويس برنارد، ترجمة: مُحمَّد العزب، 150.
3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 340.

ومع هذا الاعتذار المُقنَّع ظاهراً، فيبدو أن الإسماعيليَّة كانوا يرغبون في تحطيم قُوَّة الخَوَارزميَّة الذين أطبقوا عليهم، فلم يمض بعض الوقت إلَّا وقد ضُبط رسول لهم يحمل كتاباً إلى التَّتار فيه عدَّة بُنُود، منها: حثّهم على سُرعة الوُصُول[1].

وكان حال الإسماعيليَّة مع الدولة الخَوَارزميَّة في تقلُّب دائم، يميلون مع الدولة أو ضدَّها، حسب قُوَّتها، وضعفها، فخلال غزو المغول للبلاد استغلَّت الإسماعيليَّة حالة الفوضى "فعاثت في البلاد فساداً "[2].

وبعد عودة جلال الدِّين منكبرتي من الهند، وإعادة سيطرته على البلاد، هاجمهم، وضرب بعض حُصُونهم عام **624** هـ **1227**م، ونهب أعمالهم، فانكمشوا في حُصُونهم ثُمَّ أخذوا يتقرَّبون إليه[3]، لكنَّهم عملوا في الخفاء على تحريض أعدائه عليه، وفي مُقدِّمتهم المغول[4]. ففرض عليهم إتاوة سنوية[5] مقدارها ثلاثون ألف دينار[6].

مع ذلك؛ فقد ظلَّت الإسماعيليَّة في قلاعها شوكة في ظهر الدولة الخَوَارزميَّة، تعمل ضدَّها في العَلَن حيناً، وفي الخفاء أحياناً. ويُحمِّل بعض المُؤرِّخين الإسماعيليَّة مسؤوليةَ مُراسلة المغول، وحثّهم على قصد بلاد الإسلام، وتهوين أمر الخَوَارزميَّة عليهم، وأنَّهم سبب نكبة البلاد بالمغول[7]. ولكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل كان المغول - فعلاً - بحاجة إلى مَنْ يستقدمهم إلى بلاد الإسلام، أو يُوجِّههم نحوها؟ يبدو أن ذلك لم يكن ضرورياً، فجنكيز خان كان له مشروعه الخاصّ الطموح بهذا الاتِّجاه.

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 343.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 336.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 217، والدولة الخَوَارزميَّة والمغول، حافظ حمدي، 818 - 191.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 496، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 315.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 495.
6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 336.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 - 495، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 317.

2. في الشَّام:

بعد الهزيمة النهائية لجلال الدِّين خوارزم شاه أمام المغول، ومقتله، تفرَّق جنده في البلاد، لكنَّ مجموعة كبيرة منهم دخلت بلاد الشَّام، وشاركت في أحداثها، وعُرِفَتْ باسم الخَوَارزميَّة، ويبدو أنَّهم لم ينسوا عداءهم القديم للإسماعيليَّة، فأثناء هُجُوم الخَوَارزميَّة على ضواحي حلب "تحرَّكوا إلى سرمين، ونهبوها، ودخلوا دار الدعوة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنَّاً منهم أنَّهم لا يجسرون على قربانها خوفاً من الإسماعيليَّة، فدخلوها ظُهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها"[1].

وبالمُقابل؛ فإن الإسماعيليَّة قتلوا بدمشق رسولَ جلال الدِّين خوارزم شاه عام **628** هـ **1231**م[2]. فطريقتهم بالاغتيال لم يتخلّوا عنها، ولكنَّها لم تعدْ مُوجَّهة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة، ولم تعدْ قويَّة؛ بحيثُ تطال أيَّاً كان، فالسفير الخوارزمي شخص عادي غير مُحترس، ولكنَّها إشارة قويَّة إلى أنَّهم مازالوا موجُودين في الشَّام.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 230.

المبحث الخامس

العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين الإسماعيليَّة والفرنج

في أيَّام حُكْم السُّلطان العادل انتهت الهُدنة العامَّة التي عقدها صلاح الدِّين مع الفرنج، واشترط أن تشمل بلاد الإسماعيليَّة، فكان لابُدَّ من الاحتكاك المُباشر بين الإسماعيليَّة والفرنج، وذلك بسبب المُجاورة، فقد كانت قلاع الإسماعيليَّة في الشَّام تقوم على الحُدُود الفاصلة بين مناطق سيطرة الفرنج في الساحل وبين بلاد المُسلمين في الداخل، فهم اختاروا لها نقاطاً استراتيجيةً على قمم جبال الساحل السوري، بعد طردهم من المُدن الدّاخليَّة[1]. ويبدو أن التساهل الأيُّوبي معهم، والتغاضي عن وُجودهم، بل والحماية والمُساعدات العسكريَّة لهم رغم العداء الدِّيني، فقد نصَّب الأيُّوبيَّة أنفسهم، كما الأتابكة والسلاجقة من قبلهم، حُماة للسُّنَّة، وتشدَّدوا مع أعدائها، وهذا الموقف من الإسماعيليَّة لا نستطيع تفسيره إلَّا بسبب موقع بلادهم وقلاعهم التي تقوم كحَدٍّ فاصل بمُواجهة قلاع الفرنجة، الذين أقاموا على حُدُودهم طائفتَيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة، وهم الأشدُّ تعصُّباً، والأكثر شراسة، على حُدُود بلاد الإسلام. فكأن الإسماعيليَّة وُجدوا في المكان المُناسب الذي يخدم مصالح الإمارات والممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام. ولكن يبدو أن الكفَّة كانت تميل لصالح الاسبتاريَّة والداوية، فسلاح الإسماعيليَّة، الذي أرهب المُلُوك والأُمراء، لم يكن ذا جدوى مع هذه الطوائف، فإذا قُتل لهم سيِّد حلَّ محلَّه آخر، والإسماعيليَّة لا يُضيِّعون رجالهم بلا مُقابل[2]، لذلك رضخ الإسماعيليَّة، ودفعوا المال إلى كُلٍّ من الاسبتاريَّة[3] والدواية[4].

لقد سعت الإسماعيليَّة في الشَّام لإقامة توازن في علاقاتها ما بين الممالك الأيُّوبيَّة من جهة وإمارات الفرنجة من جهة ثانية، فبعد أن أمَّنوا جانب الأيُّوبيِّين في اتِّفاق غير مُعلن، عملوا لعقد تحالفات مع الفرنجة[5]. ولكنْ؛ يبدو أن الفكرة السَّيِّئة للفرنجة عن الإسماعيليَّة هي التي حالت دُون

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114.
2 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 168.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 151، وسيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 168.
4 - ورود التواريخ، فيلكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 ـ 1194، وسيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 168.
5 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114، والحَرَكَة الصَّليبيَّة، سعيد عاشور، 2 / 109.

إتمام ذلك[1]، لكنَّ الإسماعيليَّة ما كفَّت من مُحاولاتها للتحالف مع الفرنج، وللسعي لإقامة علاقات طيِّبة معهم لمُوازنة علاقتهم بالأيُّوبيين، فدعوة مُقدَّم الإسماعيليَّة نصر الفارسي عام **589** هـ **1193**م، للكونت هنري دي شامبين أحد أُمراء عكَّا الكبار لزيارته في مقرِّه، أثناء مُرُوره بطرطوس، والحفاوة في استقباله، واستعراض قلاعه، وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثُمَّ الهدايا الثمينة التي قُدِّمَتْ له[2]، فما كُلُّ ذلك إلَّا بدايات مُبكِّرة لتطلُّع إسماعيلي لعلاقات جيِّدة مع الفرنج، ومُحاولة لكسب وُدِّهم.

وتردَّدت اتِّهامات مُباشرة للإسماعيليَّة أنَّهم نفَّذوا عدَّة عمليات اغتيال لصالح الاسبتاريَّة جيرانهم في جبال الساحل السوري[3]، فعندما اغتالوا ريموند بن بُوهيمند أمير أنطاكية في كَنيسَة طرطوس عام **610** هـ **1213**م[4]، قيل إنَّ ذلك تمَّ بتحريض من الاسبتاريَّة. وعندما اغتيل بطريرك القُدْس عام **611** هـ **1214**م، وهُو المعروف بعدائه للاسبتاريَّة، فاتَّهموا الاسبتاريَّة بتحريض الإسماعيليَّة على قتله[5].

كُلُّ ذلك يدلُّ على مدى الضغط الذي كان الاسبتاريَّة بمقدورهم مُمارسته على الإسماعيليَّة؛ حيثُ يدفعون لهم إتاوات سنوية، ويُنفِّذون عمليات اغتيال لحسابهم، إنَّما ليس ضدَّ الأيُّوبيِّين، فعلى ما يبدو كان التحالف معهم شيئاً مُقدَّساً بالنِّسبَة للإسماعيليَّة، فبعد قَتْلهم لابن أمير أنطاكية هاجم والده بلادهم، ولم يتحرَّك الاسبتاريَّة لنجدتهم، بل رُبَّما اضطرُّوا للتظاهر بدعم بُوهيمند ضدَّهم، بينما تحرَّك المُلُوك الأيُّوبيُّون بكُلِّ حزم من حلب، ومن دمشق، لنجدتهم، وأنقذوهم منه. ومع كُلِّ ذلك؛

1 - راجعْ حول المعتقدات الأُورُبيَّة عن الإسماعيليَّة في العُصُور الوُسْطَى: فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1194، وورود التواريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170، ـ وقد وضع القسُّ الألماني ي ريكاردوس رسالة لملك فرنسا فيليب السَّادس عندما فكَّر بغزو الشَّرْق الإسلامي عام هـ 1332م قال فيها: " أذكر الحشَّاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان، ويتفاداهم، إنَّهم يبيعون أنفسهم، ويتعطَّشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مُقابل أجر.. وهم يُغيِّرون مظهرهم كالشياطين.. وذلك أنَّهم يُحاكون الحَرَكَات والثياب واللُّغات" (الحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 11)، ـ ولذلك أصبحت كلمة حشَّاشين **Assassin** اسماً شائعاً في مُعظم اللُّغات الأُورُبيَّة للاغتيال.
2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8 / 474.
3 - سيطر الاسبتاريَّة على عدَّة قلاع مُواجهة لقلاع الإسماعيليَّة، منها قلعة الحصن (كراك شيفالييه)، وقلعةصافيتا. (البُرج الأبيض).
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 219.
5 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 247.

فقد كانت علاقة الإسماعيليَّة في الشَّام تختلف كُلّيّاً بالنِّسبَة لمُلوك أُورُبا القادمين نحو الشَّرق، أو أُمراء ومُلوك الفرنجة الآخرين.

فعندما قدم الإمبراطُور فريدريك الثَّاني في حملته نحو فلسطين عام 624 هـ 1227م راسله مجد الدِّين مُقدَّم الإسماعيليَّة في الشَّام، ويبدو أنَّه ضمَّن رسالته تهديداً مُباشراً لشخص الإمبراطُور، لذلك سارع بردِّ الجواب مع رسول خاصٍّ، "وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار لحفظ نفسه منهم"، فحلف له مجد الدِّين، وأرسل قميصه أماناً للإمبراطُور[1]،إنَّه مبلغ كبير يدفعه فريدريك، ولكنَّه يدلُّ على خوف أكبر من فتَّاك الإسماعيليَّة. وهذا ما شجَّع الإسماعيليَّة على إرسال رُسُلهم إلى الملك لويس ملك فرنسا عندما قدم إلى الشَّرق؛ حيثُ التقوا به في قُبرُص. يتحدَّث جوانفيل مُرافق الملك لويس عن هذا اللقاء الذي كان حاضراً فيه، فيقول: "وصلت رُسُلُ شيخ الجبل، وقد حمل أحدهم ثلاثة خناجر دخلت شفرة كُلٍّ واحد منها في مقبض الآخر، وقدَّموها للملك شارة للتَّحدِّي إذا لم يتمّ الاتِّفاق، ولفَّ الآخر حول ذراعه قطعة من قماش الكتَّان، وقدَّمها للملك لتكون كفناً له إذا رفض مطالب شيخ الجبل. وقال الرسول للملك: مولاي يسألكَ إذا ما كُنتَ تعرفه؟ فردَّ لويس بأنَّه سمع عنه، فقال الرسول: بما أنكَ سمعتَ عنه، فأنا مُندهش لأنكَ لم تُرسل مبلغاً من المال لتُبقه صديقاً لكَ مثلما يفعل إمبراطُور ألمانيا وملك هنغاريا، وإذا كان هذا لا يوافقكَ، فعليك ترتيب أمر إعفائه من دفع الجزية للاسبتاريَّة والدَّاويَة.

وفي المُقابلة الثَّانية؛ حضر مُقدَّما الاسبتاريَّة والدَّاويَة مع الملك، فتحدَّثا مع الرُّسُل بالعَرَبيَّة، وهدَّدوهم بالقتل، وطلبا منهم المُغادرة، والعودة خلال أسبوعيْن مع هدايا للملك لويس لإرضائه. وفعلاً؛ عادت الرُّسُل في المُهلة المُحدَّدة ومعهم قميص شيخ الجبل، وهُو تعبير عن تقربة للملك، وخاتمه الخاصّ، وعليه اسمه، وهدايا وجواهر وتماثيل من الكريستال رُبطت بها ورود من العنبر بخيوط من ذهب، فقبلها لويس، وأعادهم مع كثير من الهدايا، يرافقهم راهب بريطاني يُجيد العَرَبيَّة هُو إيف لي بريتون، الذي عدَّ أن أهمَّ اكتشاف له في بلاد الإسماعيليَّة هُو أن شيخ الجبل لا يتبع شريعة مُحمَّد (ص)، بل هُو من أتباع عليّ (رض)[2].

1 -المنصُوري، ابن نظيف، 151.
2 -حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 716 ـ 168.

العلاقات العسكريَّة مع الفرنج:

لم تكن علاقات الإسماعيليَّة بالفرنج كُلّها علاقات سياسيَّة؛ إذْ سيطر الاحتكاك العسكري على جانب مُهمٍّ من هذه العلاقات، فقد أغار الفرنج عام 612 هـ 1215م، على بلاد الإسماعيليَّة، وأخذوا منها نحو ثلاثمائة أسير[1]، "ورحلوا عنهم، بعد أن حاربوهم حرباً شديداً، وكان المُتوسِّط في الصُّلح بينهم الملك الظَّاهر[2]. وهذه الغارة ـ كما هُو معروف ـ كانت بسبب قتلهم لابن صاحب إنطاكية، ولم يُنقذ قلعة الخوابي إلَّا تدخُّل الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين صاحب حلب، فقد "خرج بعسكره من حلب مُتوجِّهاً إلى بلاد الإسماعيليَّة ليدفع عنهم الفرنج"، وَسَيَّرَ الظَّاهر أمامه "نجدة إلى الخوابي، فصعدت إليه، وأنفذ إلى الحصن إقامة كثيرة وميرة"، " فرحل الفرنج عن الخوابي[3].

واستمرَّت علاقات الإسماعيليَّة بالفرنجة حتَّى قبيل القضاء على وُجُودهم كُلّيّاً في الشَّام، فيروي متَّى باريس المُؤرِّخ الإنكليزي: أنَّه في عام 637 هـ 1238م، وصلت سفارة إسماعيليَّة إلى أُورُبة تطلب المُساعدة ضدَّ الخطر المغولي، في الحقيقة؛ كانت رسالة تحذير لأُورُبا أكثر منها طلب مُساعدة، فالإسماعيليَّة بعد أن شاهدوا تهاوي الممالك الإسلاميَّة، وكانوا يعرفون ضعف دولة الخلافة وضعف الأيُّوبيَّة في الشَّام. لذلك لم يجدوا أمامهم إلَّا أُورُبا التي مثَّلت آخر أمل لغريق يُدرك قَدَرَهُ جيِّداً، لكنَّه لا يملك إلَّا أن يصرخ طالباً النجدة؛ حيثُ لا أحد يسمع طلبه.

الاغتيالات الإسماعيليَّة لقادة الفرنج:

1 ـ اغتيال كونراد دي منتفرات مركيز صُور وملك القُدْس الاسمي عام 588 هـ 1192م، وقد قيل إنَّ اغتياله تمَّ بطلب من ريتشارد الأوَّل ملك إنكلترا مُقابل مال دفعه للإسماعيليَّة أثناء تواجده في فلسطين، لأن كونراد أوشك أن يتولَّى مملكة القُدْس على غير رغبة من ريتشارد، لكنَّ عميد مقرِّ الكَهَنَة في لندن رالف دي سيتو يُوردُ نصَّ رسالة من شيخ الجبل إلى ليوبولد دوق النمسا، ينفي فيها ـ بشكل جازم ـ تورُّط الملك ريتشارد بالتحريض على قتل الماركيز، ويُقسم شيخ الجبل على

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 172، عام 612 هـ .
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 232.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 219

ذلك، ويقول بأنَّ السبب الحقيقي لاغتياله هُو قتل الماركيز، وسلبه لأموال بعض الإسماعيليَّة[1]. لكنَّ شدَّة النفي، والتبرير غير المطلوب، تجعل الشكَّ يتسرَّب إلى صحَّة هذه الرسالة؛ خاصَّة أنَّها من مرويَّات كاهن إنكليزي قد يهمُّه الحفاظ على نقاء سُمعة مليكه.

وقيل إنَّ اغتياله كان بطلب من صلاح الدِّين، حيثُ خيَّر راشد الدِّين سنان بين قَتْل ريتشارد ملك إنكلترا وبين قَتْل الماركيز مُقابل عشرة آلاف دينار، فلم يُمكن قَتْل ريتشارد، أو "لم يره سنان مصلحة لهم، لئلا يخلو وجه صلاح الدِّين من الفرنج، ويتفرَّغ لهم"[2]. ويُقال أيضاً بأنَّ الإسماعيليَّة قتلوه لأنَّه صادر لهم سفينة مُحمَّلة بالبضائع، ولمَّا طالبوه بها، رفض تسليمها[3].

2 - في عام 613 هـ 1216م، قدمت حملة فرنجية كبيرة العدد من البحر، يقودها همفري أخو ملكة عكَّا، فخشي منه "الملك العادل، فجرَّد له إسماعيلي ضربة خمسة سكاكين فمات، وقتل الإسماعيلي"[4]. وطالما أن فائدة العادل كانت قويَّة في هذا الاغتيال، فيُمكن أن نعدَّ أنَّه تمَّ بتحريض أو بطلب رَسْمي منه، ممَّا يدلُّ على استمرار التحالف الوثيق، وإن كان غير مُعلن بين الأيُّوبيَّة وبين إسماعيليَّة الشَّام.

وكُلُّ هذه الاغتيالات تدل على:

1 - استمرار التعاون بين الأيُّوبيَّة والإسماعيليَّة، حتَّى بعد وفاة صلاح الدِّين وراشد الدِّين.

2 - وُجود تحوُّل جَذْري في موقف الإسماعيليَّة من الاغتيالات، فبعد أن كانت تخريبية مُوجَّهة ضدَّ قادة المُسلمين أخذت تتَّصف بالوطنية لتوجُّهها ضدَّ الفرنج.

دور إسماعيليَّة الشَّام في صراع الأيُّوبيِّيْن ضدَّ الفرنج:

كانت العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين إسماعيليَّة الشَّام وجيرانهم فرنج الساحل الشَّامي تحمل في طيَّاتها الكثير من التناقض، أو بشكل أصحّ؛ كانت العلاقات القائمة بينهما مبنية على المصالح المتبدِّلة دوماً، والمتناقضة أحياناً، ورُبَّما كان هذا النوع من العلاقات هُو سبب تضارب معلومات

1 - تواريخ أُسرة بلانتغنت، رسائل رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 30 / 266.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 78 - 79.

- 3A History of the Crusades, Setton, 11 - 80

وذيل وليم الصُّوري، مخطوطة مكتبة ليون / 228، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8 / 421.

4 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 183

مُؤرِّخي الفرنج عن الإسماعيليَّة، يقول عنهم بورتشارد راهب جبل صهيون: "هُناك مُسلمون اسمهم الحشيشية، يسكنون الجبال وراء طرطوس، ويملكون عدداً من القلاع والمُدُن مع أراض خصبة، ويُقال إن لديهم أربعين ألف مُقاتل، ولديهم مُقدَّم واحد، لا يلي بحقِّ الوراثة، بل بسبب الفضائل الشخصية، واسمه شيخ الجبل، ويُقال إنَّهم من أصل فارسي، وهم مُرعبون لجميع مَنْ حولهم"[1]. إن الوصف الجغرافي الذي يُحدِّده الكاتب الفرنجي صحيح تماماً، وكذلك المعلومات عن تولِّي مُقدَّمهم، فقد كان الإسماعيليَّة مُتاخمين لمناطق السيطرة الفرنجيَّة، حتَّى إنَّه كان هُناك نوع من رسم للحُدُود بين الطرفَيْن، فقد وُجدت أحجار لتعليم الحُدُود الفاصلة، نُقش عليها من جهة الإسماعيليَّة خناجر، ومن جهة الفرنج صلبان[2]. ولكن تعداد مُقاتليهم المذكور فيه مُبالغة هائلة، كما أن الأصل الفارسي ينطبق - فقط - على المُقدَّمين، بينما الأتباع - وإن كانوا خليطاً عرْقياً - فهُم محلِّيُّون.

وفي عام 610 هـ 1213م، توتَّرت العلاقات بين الإسماعيليَّة والفرنج عندما اغتال بعض الإسماعيليَّة ريموند بن بُوهمند الرَّابع حاكم أنطاكية في كَنيسَة طرطوس، رُبَّما كان ذلك باتِّفاق مع الأيُّوبيَّة، أو بطلب منهم، فقام بُوهمند بقيادة حملة كبيرة، وحاصر قلعة الإسماعيليَّة "الخوابي" شرق طرطوس، وبدا أنَّه كان مُصمِّماً على فتحها، والتنكيل بالإسماعيليَّة انتقاماً لابنه. فما كان من الإسماعيليَّة - بعدما لمسوا الخطر المُحدق - إلَّا أن طلبوا مُساعدة الظَّاهر غازي ابن صلاح الدِّين صاحب حلب، ومُساعدة الملك المُعظَّم نائب أبيه العادل في دمشق. هذا الطلب للدعم والمُساعدة لا يُمكن أن يكون بدُون وُجود نوع من مُعاهدات الدفاع المُشترك، ويُؤكِّد ذلك ردُّ الأيُّوبيَّة الحاسم والسريع، فقد خرج الظَّاهر بقُوَّاته من حلب نحو حصن الخوابي لنجدته، وسار المُعظَّم من دمشق، فهاجم بلاد طرابلس، فاضطرَّ بُوهمند لفكِّ الحصار عن قلعة الخوابي، ونجت منه[3]. وفي عام 612 هـ 1215م، عاود الفرنجُ الهُجُومَ على قلعة الخوابي، ولكن وُجود نجدة حلبية فيها مكَّنت الحصن من المُقاومة، واضطرَّ الفرنج لقبول وساطة الظَّاهر غازي، ورحلوا عن الحصن[4].

1 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

2 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 635، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 224.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 229+ 232.

وفي عـام 625 هـ 1228م، قـدم الإمبراطـور فريـدريك الثـاني بحملتـه إلى فلسطين، فراسل الإسماعيليَّة، مُطيِّباً قلوبهم من ناحيته، فأطلعوا حُلفائهم الأيُّوبيِّيْن في حلب على نصِّ الرسالة مع رسولهم منصُور بن يزيد، ونصحوهم بالتحالف مع فرنج الساحل ضـدَّ فريـدريك، ممَّـا يـدلُّ عـلى أن الإسـماعيليَّة كانوا يعرفون أنَّه محروم كَنَسيّاً، وأن فرنج الساحل ضدَّ حملته، ثُمَّ طلبـوا مـن الحلبيـين إعلامهـم إن كـانوا عاجزين عن دفعه، ليُصلحوا أحوالهم معـه[1]. وفي الحقيقـة؛ فهـذا تـصرُّف الحُلفـاء الحقيقيـين، فالاتِّفـاق أو التحالف وإنْ كان غير مكتوب بينهما فلا زال الطرفان مُتمسِّكَيْن به، ويعملون بمقتضاه.

وبشكل عامٍّ؛ كانت قلاع الإسماعيليَّة في الشَّام تُعدُّ إمـارة مُـستقلَّة سياسـياً، وإنْ كانـت تتبـع ـ بشكل أو بآخر ـ لمركز الدعوة في بلاد فارس. وقد حكمت العلاقة بينهم وبين الأيُّوبيَّـة اسـتراتيجية سياسيَّة التزم بها الطرفان بدقَّة، فمُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين عقد الإسماعيليُّون تحالفاً سياسياً عسكريّاً مـع السَّلطنة الأيُّوبيَّة، ممَّا أتاح لهم تلقِّي الدعم العسكري الأيُّوبي عند تعرضـهم لهجـمات الفـرنج، وكـان هذا الدعم فعَّالاً دائماً. وقابله تنفيذ الإسماعيليَّة اغتيالات عدَّة لصالح السَّلطنة الأيُّوبيَّة. وبشكل عامٍّ؛ شكَّلت قلاع الإسماعيليَّة خطَّ مُواجهة أوَّلاً أمام قلاع الاسبتاريَّة والدَّاويَّة في جبال الساحل السوري الشمالي، وكانت العلاقات العسكريَّة فيما بينهم مُتوتِّرة بشكل عامٍّ، لكنَّ علاقاتهم الـسِّياسيَّة بـالفرنج كانت نشطة.

ومُقابل هذا الاستقرار السِّياسي في العلاقات السِّياسيَّة للإسماعيليَّة كان هُناك تخبُّط عقائدي إسماعيلي، فقد ألغى أحد أئمَّتهم الالتزام بالشرع الإسلامي، فازداد توتُّر علاقـاتهم بمَـنْ حـولهم مـن المُسلمين، ثُمَّ أعاد الالتزامَ إمامٌ آخر، ممَّا أدَّى إلى عودة العلاقات بحُدُودها المقبولـة، وهُنـاك روايـات عن مُحاولة اعتناقهم الديانة المَسيحيَّة، ممَّا ألقى ظلالاً قاتمة على انتمائهم للوسط الإسلامي بشكل عـامٍّ، ولمَّا ساءت العلاقات بين إسماعيليَّة فارس والدولة الخَوَارزميَّـة اتُّهمـوا بـدعوة التَّتَـار للـتخلُّص مـن الخطر الخوارزمي، ولمَّا هاجمهم الخَوَارزميَّة اسـتكانوا أمـام العاصـفة، لكـنَّ عاصـفة التَّتَـار اقتلعـت جذورهم من فارس، فانهارت قواهم في الشَّام، وأنهـى الظَّـاهر بيـبرسُ سُـلطان المماليـك وُجُـودَهُم العسكري فيها.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 160.

جدول حُكَّام الإسماعيليَّة

استمرَّ حُكْمهم في قلعة ألموت 177 سنة، من سـنة 477 هـ 1084م، حتَّـى سـنة 654 هــ 1256م، وتولَّى منهم ثمانية حُكَّام:

1 ـ **حسن بن علي بن مُحمَّد الصباح الحميري:** كان داعية إسماعيليَّاً، تـولَّى حُكْـم ألمـوت عام 483 هـ 1090م، تُوفِّي عام 518 هـ 1124م.

2 ـ **الكيـا بُزُرْك أُمِّيد:** كـان داعيـة وزمـيلاً للحـسن الـصباح، تـولَّى الحُكْـم عـام 518 هـ 1124م، أسَّس أُسرة وراثية بتولية ابنه من بعده، تُوفِّي عام 532 هـ 1138م.

3 ـ **مُحمَّد بن بُزُرْك أميد:** تولَّى عام 532 هـ 1138م. تُوفِّي عام 557 هـ 1162م.

4 ـ **حسن بن مُحمَّد:** تولَّى عام 557 هـ 1162م، ادَّعى نسباً إسماعيلياً إلى نـزار بـن الخليفـة الفاطمي المُستنصر، وأعلن نفسه إماماً لفرقته، ثُمَّ أعلن القيامة عام 559 هـ 1164م، تُوفِّي عام 561 هـ 1166م.

5 ـ **مُحمَّد بن حسن:** تولَّى عام 561 هـ 1166م، تُوفِّي عام 607 هـ 1210م.

6 ـ **جلال الدِّين حسن بن مُحمَّد:** المُلقَّب (نو مُسلمان)، ألغى القيامة فور تولِّيـه عـام 607 هـ 1210م، تُوفِّي عام 618 هـ 1221م.

7 ـ **علاء الدِّين مُحمَّد بن حسن:** تولَّى عام 618 هـ 1221م، أُصيب بمـرض الماليخوليـا، اغتيل عام 653 هـ 1255م.

8 ـ **رُكن الدِّين خورشـاه:** تولَّى عام 653 هـ 1255م، قتله المغول مع كُلِّ أفراد أسرتـه 656 هـ 1258م.

الفصل الثّالث

العلاقات الدّوليّة لبعض الدُّول الإسلاميّة

المبحث الأوّل

علاقات الشّام ومصر مع المغرب الأقصى

بدأت هذه العلاقات فعليّاً بقيام دولة صلاح الدِّين في مصر، التي هي بوّابة المغرب العَرَبي، فكان من الطبيعي ـ لسبب، أو لآخر ـ أنْ تتفاعل العلاقات الأيُّوبيَّة مع المغرب سياسياً وعسكريّاً، لكنْ؛ ممّا حدَّ من هذه العلاقات، بل وربَّما جعلها مُستحيلة، هُو مُواجهة كل طرف لعدو مُختلف، شغله تماماً، وجعله يستغرق كلّ اهتماماته في التّصدِّي له، إضافة إلى المُشكلات الدّاخليَّة وصُعُوبات ترسيخ الحُكْم لدى كلّ طرف. كان الطرف الشرقي في الشّام ومصر يتعرّض للعُدوان الفرنجي، بينما كان الطرف الغربي يشهد عُدواناً من نوع آخر، إنّه حرب الاسترداد التي كانت ناشطة في الأندلس وصقلية وامتداداتها نحو شواطىء المغرب العَرَبي، لكنَّ كلّ ذلك لم يمنع من قيام بعض العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين شطرَيْ المشرق والمغرب العَرَبي.

بعد أن أعاد صلاح الدِّين السيطرة على دولة نُور الدِّين وضمّ الشّام إلى مصر، أعاد توزيع ولاته على أطرافها، فاستبدل ابن أخيه تقي الدِّين عمر والي مصر بابنه العزيز، فغضب تقي الدِّين وكاد أن يظهر العصيان، لكنَّه فضل أن يسير بجُنُوده ومماليكه إلى المغرب ليُقيم له فيها مملكة خاصّة. وبالفعل خرج تقي الدِّين وعسكر في الجيزة، وبدأ بالاستعداد وكتب إلى عمّه السُّلطان صلاح الدِّين بذلك.

ويبدو أن الملك المُظفَّر تقي الدِّين كان يعتمد في مشروعه الغربي على قُوَّة استطلاع كان قد أرسلها مُسبقاً بقيادة مملوكه قراقوش[1]، يقول العماد الكاتب: "وكان أحد مماليكه قراقوش من قبل قد سار إلى برقة، وَمَلَكَهَا، وتجاوز إلى أفريقية، وهُو يكتب ـ أبداً ـ إلى مالكه الملك المُظفَّر يرغبه في تلك المملكة، ويقول: إن البلاد سائبة"[2]. ولَمَّا وصلت أخبار حملة تقي الدِّين على المغرب إلى السُّلطان صلاح الدِّين قال: "لَعَمْري؛ إن فتح المغرب مُهمّ، لكنَّ فَتْحَ البيت المُقدَّس أهمّ، وإذا توجَّه تقي الدِّين برجالنا المعروفة ذهب العُمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القُدْس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل"[3]. وفي الحقيقة؛ فإن توجُّه كُلٍّ من الرجلَيْن يناقض استراتيجية الآخر، فصلاح الدِّين سُلطان البلاد، وهدفه الجهاد، وهمُّه طرد الفرنج وتحرير القُدْس، ويرى أنَّه يُمكن ـ فيما بعد ـ التفكير في غير ذلك. أمَّا المُظفَّر تقي الدِّين فباحث عن مملكة يُؤسِّس فيها مُلكاً خاصّاً به، وشجَّعه تقدُّم مملوكه قراقوش التقوي، وأخباره بخُلُوِّ بلاد الغَرْب من قُوَّة مانعة.

لكنَّ صلاح الدِّين لم يتوانَ في هذا الأمر، وأصرَّ على ابن أخيه أن يترك كُلَّ شيء، ويقدم عليه في الشَّام، فامتثل تقي الدِّين للأمر، ولَمَّا قابل عمَّه مُلبِّياً لدعوته أرضاه صلاح الدِّين بإقطاعات كبيرة في الشَّام والجزيرة، ثنته عن التفكير في المغرب، الذي كان ـ في كُلِّ الأحوال ـ مُغامرة تقبل النجاح والفشل[4].

ولكنْ؛ عندما كتب السُّلطان صلاح الدِّين إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء يشرح له أحوال دولته ذكر فتوحات قراقوش مملوك تقي الدِّين ضمن خُطَّة الدولة، وكأنَّها تمَّتْ بدعمه وإشرافه الشخصي، وعدَّدها ضمن أعماله، فقد قال في رسالته التي هي من إنشاء القاضي الفاضل: "ولنا في المغرب، أثر أغرب . . وذلك أن بني عبد المُؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر، وملكهم قد عمر، وجُيُوشهم لا تُطاق،

1 - قراقوش: التقوي، مملوك تقي الدِّين، وهُو غير قراقوش الصلاحي مملوك صلاح الدِّين، ونائبه على القاهرة، والذي شنَّع عليه أهل مصر. ويبدو أنَّه تحرَّك من مصر قبيل وفاة نُور الدِّين، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك بمُوافقة صلاح الدِّين، إنْ لم يكن بدعمه وتوجيهه، وهذا ما دفع ابن خلدون ليقول بأنَّ حملة قراقوش كان من أهمّ دوافعها الوحشة بين صلاح الدِّين ونُور الدِّين. (العبر، ابن خلدون، 6 / 394)؛ أيْ أنَّه كان يمهِّد لمملكة بديلة إذا أقصاه نُور الدِّين عن مصر.

2 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

4 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

وأوامرهم لا تشاق، ونحنُ ـ والحمد لله ـ قد ملكنا ممَّا يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيَّرنا عسكراً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: لُكّ، برقة، قفصة، قسطيلية، وتَوْزَر، كُلُّ هذه تُقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المُستضيء بالله"[1].

وعلى الأرض تمكَّن قراقوش من الاستيلاء بسُهُولة على مُحيط مدينة طرابلس الغَرْب ومُعظم نواحي جبل نفوسة، فتوافدت عليه قبائل العَرَب، وخاصَّة قبيلة رياح، التي خلعت طاعة المُوحِّدين، وساندت قراقوش، فتمكَّن ـ بهذا الدعم ـ من احتلال طرابلس، فقدمت إليه مجموعات أُخرى من القبائل العَرَبيَّة من هلال وبعض سليم، فاصطنعهم، وفرض لهم العطاء، واستبدَّ هُو بحُكْم طرابلس. وكان قراقوش يخطب للخليفة العبَّاسي وللسُّلطان صلاح الدِّين ولمولاه تقي الدِّين[2].

ويبدو أن حملة قراقوش التقوي على المغرب قد انتهت بمُجرَّد إرضاء سيِّده تقي الدِّين بإقطاعات الشَّام، فاستدعى جُنُوده ومماليكه إليه في الشَّام، وعاد مُعظمهم إلَّا مجموعة منهم قد تخلَّفت في المغرب مع أحد قادة الحملة، وهُو مملوك لتقي الدِّين اسمه زين الدِّين بوزبا، فقد تابع بمَنْ رافقه من الجُند تقدُّمه نحو الغَرْب، واستولى على عدَّة بلدات، لكنَّه ـ في النِّهاية ـ هزم أمام قُوَّات ابن عبد المُؤمن سُلطان المغرب، فأسره، ثُمَّ أطلقه، وجهَّزه بما يلزم مع جنده، وسيره لغزو الثُّغُور، فوجده مُقاتلاً شُجاعاً وقائداً مُحنَّكاً، فجعله أحد مُقدَّمي جيشه[3].

ولَمَّا اشتدَّ ضغط الفرنج على عكَّا، ووقف صلاح الدِّين بقُوَّاته أمامها عاجزاً عن إنقاذها، لأنَّه لا يستطيع مُهاجمة الفرنج المدعومين بالأساطيل القويَّة، وقد وصف هذه الحال صلاح الدِّين في إحدى رسائله بقوله: "إنَّهم ـ الآن ـ على عكَّا، يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عدَّة من أمواجه"[4]. ولذلك لم يجد صلاح الدِّين بُدّاً من مُحاولة طلب نجدة سُلطان المغرب يعقوب ابن يُوسُف[5]، فالمُوحِّدون وُفقاً لما قال ابن خلدون: " أقاموا خُطَّة هذا الأُسطُول على أتمِّ ما عُرف، وأعظم ما

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 86 ـ 87.

2 - العبر، ابن خلدون، 6 / 395، راجعْ تفاصيل حُكْم قراقوش لطرابلس في: علاقات المُوحِّدين بالدول النصرانية والدُّول الإسلاميَّة، هشام أبو رجيلة، 143.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 5.

4 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 7 / 627.

5 - المنصُور يعقوب بن يُوسُف بن عبد المُؤمن (580 / 595 هـ 1184 / 1199 م).

عُهد"، ويُضيف ابن خلدون مُتحدِّثاً عن الأساطيل في عهد المنصُور يعقوب، بقوله: "وانتهت أساطيل المُسلمين على عهده في الكثرة، والاستجادة ما لم تبلغه من قبل، ولا من بعد فيما عهدناه"[1].

فكتب القاضي الفاضل نصَّ كتاب الطلب، وحمله إليه عام 586 هـ 1190م، شمس الدِّين عبد الرحمن بن مُنقذ الكناني، وقد ورد في الكتاب تعريفٌ بقُوَّة الفرنج البَحْريَّة، والإمدادات الكبيرة التي تصلهم في البحر، ويسأله السُّلطان صلاح الدِّين: إن كان أُسطُول المغرب مُستعدَّاً وجاهزاً، "فالبدار البدار". ثُمَّ يعتذر السُّلطان عن أفعال قراقوش وبوزبا وغزوهم للمغرب، ويتنصَّل من عملهما[2].

وبالفعل؛ أقلع عبد الرحمن بن مُنقذ على ظهر سفينة من ميناء الإسكندرية في 13 رمضان 586 هـ 1190م، وبعد توقُّف بسيط في طرابلس الغَرْب أقلع منها إلى المغرب الأقصى، فاستقبله الوزير أبو يحيى بن أبي بكر، ثُمَّ قابل السُّلطان يعقوب، الذي تسلَّم الرسالة، وقبل هدية صلاح الدِّين[3].

وبقي ابن مُنقذ في مراكش حتَّى عام 588 هـ 1192م؛ حيثُ غادر إلى صر، ويبدو أنَّه عاد دُون أن يحمل ردَّاً على الرسالة، وبالتَّالي؛ فإن صلاح الدِّين لم يحصل على أيِّ مُساعدة من ابن عبد المُؤمن كما كان يأمل. وقيل إنَّ سبب تجاهل ابن عبد المُؤمن لطلب صلاح الدِّين إنَّه لم يخاطبه برسالته إليه بإمرة المُؤمنين، كما كان أتباعه في المغرب يُخاطبونه[4].

وإذا كان السُّلطان صلاح الدِّين لم يتمكَّن من إثارة اهتمام خليفة المغرب وأُمرائه وقادته بالجهاد المُشترك ضدَّ الفرنجة[5] فإن قضيَّة القُدْس والجهاد المُقدَّس لتحريره قد استثارت كثيراً من عامَّة المغاربة، الذين لم يكونوا بحاجة إلى توجيه رسمي ليندفعوا نحو بلاد الشَّام.

1 - العبر، ابن خلدون، 6 / 528.
2 - راجعْ نصَّ كتاب السُّلطان صلاح الدِّين إلى ابن عبد المُؤمن في : الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 288.
3 - لمعرفة تفاصيل الهدية راجعْ: الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 797.
4 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 298 ـ 300.
5 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 242.

المغاربة في الشَّام[1]:

من المعروف أن المغاربة تدفَّقوا بكثرة على مصر والشَّام في عصر الحُرُوب مع الفرنجة كمجموعات وأفراد، ولأسباب مُختلفة، رُبَّما كان من أهمّها الجهاد في سبيل الله، ممَّا حتَّم قيام علاقات عسكريَّة بين المتطوِّعة المغاربة والفرنجة، ولكنَّنا نُلاحظ أن تلك العلاقات كانت في أضيق شكل، فلا تُوجد إشارات واضحة لدى مُؤرِّخي الحُرُوب مع الفرنجة على اشتراك المغاربة كوحدات مُستقلَّة، أو حتَّى كمجموعات صغيرة مُنفصلة، وكُلُّ ما تمَّ ذكره هُو حوادث فردية، مثل: خُرُوج الشَّيخ يُوسُف بن درباس الفندلاوي المغربي من دمشق عندما حاصرها الفرنج في الحملة الثَّانية عام 543 هـ 1149م، وقتاله لهم رغم شيخوخته، ممَّا أدَّى إلى استشهاده[2].

ويُركِّز الرَّحَّالة المغربي ابن جُبَيْر في مرويات رحلته على دور المغاربة في الحَرْب ضدَّ الفرنجة زمن صلاح الدِّين، ويقول: إن الضرائب التي يتقاضاها الفرنج على مُرُور التُّجَّار المغاربة أعلى بكثير من الضرائب المفروضة على غيرهم، ويُعلِّل ذلك بنكايتهم في الفرنج[3]، وممَّا يُؤكِّد ذلك أن رسول الفرنجة إلى صلاح الدِّين، أثناء حصارهم لعكَّا، جاء ومعه أسير مغربي كهدية، فاهتمَّ به صلاح الدِّين[4].

كذلك يذكر ابن جُبَيْر أن المغاربة البحريين أنجدوا القُوَّة البَحْريَّة التي شكَّلها الأمير لُؤلُؤ لردِّ غزوة الفرنجة في البحر الأحمر، والتي كانوا ينوون الوُصُول فيها إلى المدينة المُنوَّرة[5].

ويبدو أن شُهرة المغاربة بمعاناة البحر قد انعكست عليهم وبالاً على فقرائهم في مصر، فعلى الدوام؛ كان هُناك مَنْ يتعرَّض لهم بالقبض لسدِّ حاجة الأُسطُول، يقول المقرِّي في كتابه نفح الطيب: "وسائر الفقراء لا يتعرَّضون إليهم بالقبض للأُسطُول إلَّا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم

1 - كان "تعبير مغربي" يشمل سُكَّان غرب الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من ليبيا وحتَّى الأندلس.
2 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة : فندلاو وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 298.
3 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.
4 - الفَتْح القِسِّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني،502.
5 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 35.

بمعاناة البحر، وقد عمَّ ذلك مَنْ يعرف معاناة البحر منهم، ومَنْ لم يعرف، فيُحمَل إلى السجن، حتَّى يحين وقت الأُسطُول"[1].

وهذا دليل على أهمِّيَّة دور المغاربة في الحُرُوب ضدَّ الفرنجة، ولكنَّه يبقى دوراً شعبيّاً، وبمُبادرات فردية تلبية لفريضة الجهاد، بينما لم يُجبْ سُلطان المغرب طَلَبَ السُّلطان صلاح الدِّين لدعمه عسكريّاً ضدَّ الفرنج[2].

ويبدو أن المغاربة قد اختصُّوا بإقامة الأسواق للعسكر، فكانوا يُقيمُون مطاعم وحمامات مُتنقِّلة تصاحب تحرُّكات الجُند، وقد قدَّر المقريزي أعدادَ المغاربة الذين يُقيمُون بخدمة الجيش الأيُّوبي بأكثر من ثلاثة آلاف مغربي[3]، وهذا دعم إداري لا يُنكَر لرفاهية الجيش وصحَّته. ورُبَّما لتعاظم دور المغاربة المُتطوِّعة للجهاد، فقد أوقف الملك الأفضل بن السُّلطان صلاح الدِّين حيّاً خاصّاً في مدينة القُدْس، يقع بجوار المسجد الأقصى، لسكن المغاربة، حتَّى صار يُعرَف بحارة المغاربة[4].

وأخيراً؛ نُلاحظ أن الحملة الأيُّوبيَّة قد انطلقت نحو المغرب في وقت مُبكِّر من عهد صلاح الدِّين، وقد احتلَّت حملة تقي الدِّين والي مصر إقليم برقة، واصطدمت بالمُوحِّدين في تُونُس، لكنَّ السُّلطان صلاح الدِّين أمر بسحب الحملة، وتنصَّل منها عندما طلب مُساعدة ابن عبد المُؤمن البَحْريَّة، فتجاهل ابن عبد المُؤمن طلبه، وغالباً كان هذا التجاهل بسبب توجُّهاته الأندلسية وهُمُومه المغربية، وليس لعدم مخاطبته بإمرة المُؤمنين كما تردَّد.

1 - نفح الطيب، المقري، 3 / 111 - 112.
2 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 288.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 94.
4 - الأنس الجليل، العليمي، 2 / 397، والشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 114.

المبحث الثَّاني

العلاقات الخارجيَّة لأُمراء الحجاز

كانت كُلُّ الممالك الإسلاميَّة تُقيم علاقات ضمنية مع الحجاز من خلال فريضة الحجِّ والزيارة التي يقوم بها سنوياً مُسلمو تلك البلاد، ولكنْ؛ انفردت الدولة الأيُّوبيَّة بعلاقات مميَّزة مع الحجاز بسبب أن أرض ممالكها في الشَّام ومصر هي منافذ لمُعظم مناطق العالم الإسلامي نحو الحجاز وهي الأقرب إليه. مع ذلك؛ لم يكن في الحجاز ما يُغري مُلُوك بني أيُّوب للسيطرة عليه، أو مَدّ مُلْكهم إليه، فهُو مسؤولية أمام الأُمَّة الإسلاميَّة أكثر منه مغانم وسُلطة. لذلك؛ حاول الأيُّوبيُّون - ما استطاعوا - أن تظلَّ صلتهم الوحيدة بالحجاز هي قافلة الحجِّ الشَّامي، وقافلة الحجِّ المصري، وتأمين سلامتها بالذهاب والإقامة والإياب.

كان يُسيطر على الحجاز في العصر الأيُّوبي الأشراف العلويُّون؛ حيثُ يحكم منهم في مكَّة المُكرَّمة الفرع الزيدي الحَسَني، وكانت لهم الأهمِّيَّة الكُبْرَى لسيطرتهم على مدينة مكَّة المُكرَّمة والمسجد الحرام والكعبة المُشرَّفة، ووُجُود مناسك الحجّ كلّها في قبضتهم.

أمَّا في المدينة المُنوَّرة؛ فكان يحكم الأشراف من الفرع الحُسَيْني العلوي، وكانت إمارتهم أقل أهمِّيَّة لإمكان استغناء الحُجَّاج عن الزيارة إلَّا لَمْن كانت المدينة المُنوَّرة في طريقهم كحُجَّاج الشَّام، ومع القرابة بين أُمراء مكَّة وأُمراء المدينة، فقد كانت المُنازعات، بل والحُرُوب، شائعة بينهما، لأن كُلاً منهما، وخاصَّة أُمراء مكَّة، يطمع في السيطرة على ما بيد الآخر.

في بدايات العصر الأيُّوبي كان يحكم مكَّة الأمير داود بن عيسى بن مُحمَّد بن أبي هاشم الزيدي الحَسَني العلوي، ويقاسمه في الإمرة أخوه الأمير مكثر، وفي عام 589 هـ تُوفِّي داودُ أميرُ مكَّة المُكرَّمة[1]، فخلفه ابنه الأمير قتادة، الذي كان ذا أطماع شديدة، ويملك شخصية قويَّة تميل إلى السيطرة والتحكُّم[2]، أمَّا في المدينة المُنوَّرة؛ فكان يحكم في بدايات العصر الأيُّوبي الأمير سالم بن قاسم بن مهنا الحُسَيْني العلوي، وكان يرغب بقيام علاقات وُدِّيَّة مع الأيُّوبيِّين ليستفيد من دعمهم لمُواجهة

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 104.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

أطاع أبناء عمّه حُكّام مكّة المُكرّمة، فتوجّه الأمير سالم نحو الشّام عام **590**هـ **1194**م، ساعياً في تحقيق قيام علاقة سياسيّة تُؤدّي إلى دعم عسكري، ولكنْ؛ في غيابه عن المدينة المُنوّرة طمعت العَرَب في غزوها، فاجتمعت أحلاف من القبائل البدويّة التي تُقيم في بوادي الحجاز بزعامة قبيلة زغب، وهاجموا المدينة المُنوّرة، فتصدّى لهم الأمير هاشم بن قاسم، الذي كان يحكم نيابة عن أخيه، فقتلوه، ونهبوا ما تمكّنوا من نهبه[1].

ويبدو أن الأمير سالم لم يحصل على مبتغاه من رحلة الشّام، فالمُلوك الأيّوبيّون مشغولون بمُشكلاتهم الدّاخليّة، وحكم الحجاز من آخر اهتماماتهم. وربّما أدرك ذلك قتادة أمير مكّة المُكرّمة الذي قام عام **601** هـ **1205**م، بقيادة جنده ومماليكه، وهاجم المدينة المُنوّرة للاستيلاء عليها، ولكنّه واجه مُقاومة عنيفة من الأمير سالم، الذي تصدّى له، وهزمه، فهرب قتادة، وتحصّن في مكّة المُكرّمة، فتبعه سالم، وحصره، عندها؛ لجأ قتادة إلى المُؤامرات، فاستمال قادة الأمير سالم، وأطمعهم، ففسدت نيّاتهم على أميرهم، فاضطرّ سالم للرحيل إلى المدينة المُنوّرة[2].

ولم يجد الأمير قتادة مَنْ ينتقم منه إلّا أئمّة المذاهب في مكّة، فقتل إمام الحنفية، وإمام الشافعية، ثُمّ التفت إلى قافلة الحجّ اليمني، فنهبها[3]. وسيتكرّر نهب الحُجّاج العُزّل من قبل أُمراء مكّة، وتَرْكهم لمُواجهة الموت عُراة جياع، كُلّما توجّس أميرها خيفة من أحد، فينتقم من حُجّاج بيت الله الحرام، علماً أنّه الشريف الحسيب النسيب الذي يحكم مكّة بحُكْم قرابته من رسول الله (ص).

وفي زحام يوم النحر لعام **608** هـ **1211**م، قام رجل عراقي بالهُجُوم على شريف من بني عمّ قتادة، وقتله، فقتلوا القاتل، الذي رُبّما كان يُدافع عن شرفه أو ماله من تعدّي هذا الشريف، وهُو أمر كان شائعاً جدّاً، ولكنْ؛ كالعادة بُنيت قصّة كاملة حول عملية القتل هذه، وقيل إنّ القاتل باطنيّ من الإسماعيليّة اندسّ في قافلة الحجّ العراقي بناءً على رغبة الخليفة العبّاسي، وأنّه قتل ابن عمّ الأمير قتادة لشبهه الشديد به، بينما كان المقصود هُو الأمير، فوجدها قتادة فُرصة مُناسبة، وهاجم بجنده وعبيده الحُجّاج العراقيين، وبدأت عملية نهب مُنظّمة لهم. ولم يتمكّن أمير قافلة الحجّ العراقي علاء

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 110.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.
3 - ذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20 / 149.

الدّين مُحمّد بن الأمير ياقوت من التّصدّي لشريف مكّة لكونه صبياً غرّاً، فنصحه الناس بالانحياز إلى موضع الحُجّاج الشاميين، وكان قائد قافلة الحجّ الشّامي الصمصام إسماعيل، ومعه في القافلة ربيعة خاتون بنت أيّوب أُخت السُّلطان العادل.

ولمّا هرب الحُجّاج العراقيون استولى قتادة على أحمالهم وأثقالهم، ولم يترك لهم شيئاً منها، وأرسل جنده وعبيده إلى منى، فضربوا الناس بالحجارة، ورموهم بالنشّاب، وقتلوا منهم، فدخل أميرُ قافلة العراق خيمةَ ربيعة خاتون، واستجار بها، فأرسلت إلى قتادة مع أمير قافلة القُدْس علي بن السلار تقول: "ما ذنبُ الناس؟! قد قتلتَ القاتلَ، وجعلتَ ذلك وسيلة لنهب المُسلمين، واستحللتَ الدماء في الشهر الحرام، وخوّفتْهُ، فطلب مائة ألف دينار لكفّ أذاه عن الناس، فجمعوا له ثلاثين. "وأقام الناس ما بين قتيل وجريح ومسلوب وعريان"، ويُقال إنّه أخذ ما قيمته ألف ألف دينار من الحُجّاج العراقيين، ويُعلّق ابن شدّاد على ذلك بقوله: ولم ينتطح فيها عنزان"[1]. ويبدو أنّه للمصادفة كان ضمن قافلة الحجّ العراقي والدة جلال الدّين زعيم إسماعيليّة فارس في قلعة ألموت، ويُقال إنّها تحمّلتْ دَفْعَ مُعظم الغرامات التي تكبّدتها القافلة[2].

واتّهم قتادةُ الخليفةَ العبّاسيَّ بتدبير مُؤامرة لقتله، وقال: "ما فعل هذا إلّا الخليفة، ولئن عاد أحد من بغداد لأقتلنّ الجميع"[3]. ولكن قتادة عاد، فشعر بعظيم ما فعل من إساءة للخلافة، وعاد يُحاول استرضاء الخليفة، فأرسل جماعة من أولاده وأصحابه إلى بغداد، "فدخلوها ومعهم السُّيُوف مسلولة، والأكفان، فقبّلوا العتبة، واعتذروا"[4]. ويبدو أن أمر الحجاز قد بدأ يثير اهتمام السُّلطان العادل، بعد أن استقرّ له الأمر في الشّام ومصر، ففي عام **611** هـ **1214**م، كان أمير قافلة الحجّ الشّامي الملك المُعظّم بن العادل، فلمّا وصل المدينة المُنوّرة تلقّاه أميرها سالم، واهتمّ بخدمته، فهُو لا زال يحلم بالدعم الأيّوبي ضدّ أُمراء مكّة، وممّا سهّل مهمّة سالم أن قتادة أمير مكّة لم يُحسن استقبال الملك المُعظّم في حجّه، فلمّا عاد المُعظّم أخبر والده العادل الذي أمر بتجهيز قُوّة عسكريّة بقيادة الناهض بن الجرجي توجّهت إلى المدينة المُنوّرة؛ حيثُ استقبلهم الأمير سالم، وقصدوا جميعاً مكّة،

1 - ذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20 / 152.
2 - الحشيشية، برنارد لويس، ترجمة: سُهيل زَكّار، 237.
3 - ذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20 / 152.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 297.

فهرب قتادة منها إلى البادية، ولم يُجرِّب المُقاومة[1]، ولكنَّه سُرعان ما عاد إلى مكَّة بعد تراجع الحملة الأيُّوبيَّة، وجمع مُؤيِّديه، وهاجم المدينة المُنوَّرة عام 612 هـ 1215م، "وحاصروها أيَّاماً، وقطع ثمرها، وكثيراً من نخلها". وتصدَّى له أهل المدينة، وهزموه، فعاد نحو مكَّة[2].

وأيقن الأمير سالم أنَّه لن يستريح ما لم يقضِ تماماً على قُوَّة عدوِّه قتادة أمير مكَّة، وأن ذلك لن يتمَّ إلَّا بالدعم وبالقوى الأيُّوبيَّة، فسار إلى دمشق مُجدَّداً، وعسكر في الكسوة، فجنَّد بعض التُّركمان، وتلقَّى الدعم الأيُّوبي بفرقة يقودها الناهض بن الجرجي نفسه، وقاد سالم قُوَّاته وتوجَّه نحو الحجاز، لكنَّه تُوفِّي في الطريق عام 612 هـ 1215م، فخلفه ابن أخيه المدعو جماز، الذي قاد الحملة، وواصل المهمَّة، وضمَّ إليه في الطريق بعض الأعراب من بني طيء بقيادة حميد بن راجب، وهاجم بجميع مَنْ معه مكَّة، ولمَّا تصدَّى له قتادة تمكَّن من هزيمته، فهرب قتادة إلى قلعة ينبع[3] التابعة له، فتبعه جماز، وحاصره فيها، وبعد سلب المنطقة، ونهبها، عادوا عن الحصار، وغادرت الحملة الشَّاميَّة إلى موطنها، ولمَّا أحصوا غنائمهم في الشَّام وجدوا في الأسرى نساء وصبيان من الأشراف الحَسَنيون والحُسَيْنيون، فلم يستعبدوهم، وسلَّموهم إلى أشراف دمشق؛ ليكفلوهم، ويُعيلوهم مَنْ وقفهم[4].

وفي النِّهاية؛ أدرك قتادة أنَّه سيكون الخاسر الأكبر في صراعه مع أُمراء المدينة، وإنَّه لن يقوى على المُقاومة بوُجود الدعم الأيُّوبي، فحاول أن يُدلي بدلوه في التقرُّب من الأيُّوبيِّيْن، فراسل الملك الكامل صاحب مصر، لأنَّه كان يعرف أن هوى أخيه المُعظَّم صاحب دمشق مع أعدائه في المدينة، وعرض على الكامل أن يُسلِّمه قلعة ينبع، وهي قلعة الميناء الاستراتيجي للحجاز على البحر الأحمر الذي هُو صلتها بمصر، فوافق الكامل، وبالفعل؛ تسلَّم نُوَّابه عام 613 هـ قلعة ينبع، مُقابل أن يحميه من هُجُوم الأمير قاسم بن جماز، الذي تولَّى حُكْم المدينة المُنوَّرة، وكان ينتظر انتهاء مناسك الحجِّ؛ ليُهاجم مكَّة، ويحتلّها بعد أن احتلَّ وادي القرى الغني بنخيله وزرعه، وكان تابعاً لقتادة[5].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 169.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 172.
3 - ينبع: هي ميناء المدينة المُنوَّرة على البحر الأحمر. وقال ياقوت: "هي من المدينة على سبع مراحل، وفيها عُيُون عذاب كثيرة، وهي من أرض تهامة". (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ينبع).
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 89 ـ 90، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 173.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 92.

وبذلك قام نوع من التوازن الاستراتيجي بين أُمراء مكَّة المدعومين من الفرع الأيُّوبي في مصر، وبين أُمراء المدينة المدعومين من الفرع الأيُّوبي في دمشق، واستمرَّ هذا التوازن حتَّى وفاة الأمير قتادة عام 617 هـ 1220م[1]، فتولَّى بعده ابنُهُ حسن، ولمَّا تُوفِّي قتادة كان له من العمر نحو تسعين سنة، وقيل إنَّ ابنه حسن هُو الذي قتله خنقاً، وكان قد قتل عمَّه قبله، ثُمَّ استدعى حسن أخاً له يُقيم في ينبع، فقتله أيضاً[2].

وكان للأمير حسن أخ آخر اسمه راجح يُقيم مع العَرَب بظاهر مكَّة، فلمَّا قدمتْ قافلة الحجِّ العراقي، وكان أميرها آقباش مملوك الخليفة النَّاصر لدين الله، وقد حمل معه الخلع والتقليد من الخليفة إلى حسن بن قتادة، فاتَّصل راجحُ بآقباش، وقال له: "أنا أكبر وُلد قتادة، وطلب توليته على مكَّة"[3]، وتختلف الروايات حول موقف آقباش من راجح، فيقول ابن الأثير: إن أمير الحجِّ العراقي قد وافقه[4]، بينما يقول أبو شامة: إن آقباش لم يُجبه، لكنَّ حَسَن ظنَّ أن آقباش قد ولاه مكَّة[5]. على الحالَيْن كلَيْهما؛ قام الأمير حسن بالخطوة العدائية الأُولى ضدَّ أمير الحجِّ العراقي، فأغلق أبواب مكَّة، ومنع الناس من دُخُولها، فوقعت الفتنة بين الأخوَيْن، وضجَّت الحُجَّاج، فركب آقباش مسالماً ليُسكن الفتنة، ويُهدىء الناس، فتلقَّاه أصحاب حسن، وقاتلوه، فانهزم أصحابه عنه، وقُتل آقباش، وحملوا رأسه إلى حسن، الذي نصبه على المسعى، وهاجم أتباع حسن الحُجَّاج لنهبهم، على مجرى العادة، فتصدَّى لهم المبارز أمير الحجِّ الشَّامي، وخوَّف حسن من غضب الملك الكامل والملك المُعظَّم، فهدأت الفتنة[6].

وبعد استيلاء أطسيس بن الملك الكامل على اليمن، أصبحت الحجاز محصورة بين الأملاك الأيُّوبيَّة. فازداد الاهتمام الأيُّوبي بها. وفي عام 619 هـ 1222م، حجَّ من اليمن الملك المسعود أطسيس بن الكامل، ومعه عدد وافر من الجُند، فانحاز عن طريقه حسن بن قتادة، الذي كان في حالة من

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 402.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 236.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 401.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.

الضعف بعد تفرُّق الأشراف والمماليك عنه، وقام عسكر أطسيس بنهب مكَّة، "حتَّى أخذ الثياب عن الناس"[1]، وتجبَّر أطسيس بقُوَّته، وتحكَّم، فمنع علم الخليفة من الصعود إلى منى، واستهان بحُرمات مكَّة، ويُروى عن جمال الدِّين الحصيري أنَّه قال: "رأيتُ أطسيسَ قد صعد على قبَّة زمزم وهُو يرمي حمام مكَّة بالبُندُق، وغلمانه في المسعى يضربون الناسَ بالسُّيُوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السُّلطان نائم سكران"[2].

ومع كلِّ هذه الشدَّة والتجبُّر فإن الأمن الذي حقَّقه أطسيس لمكَّة كان مفقوداً منها لعقود طويلة خلتْ، فبعد استيلائه عليها؛ توالت على مكَّة التجارات والقوافل، ورخصت الأسعار في أيَّام حُكْمه لها، "ولعظيم هيبته خَلَت الأشرار، وآمنت الطُّرُق والديار"[3].

وبذلك؛ انضوت الحجاز بكاملها تحت السيطرة الأيُّوبيَّة، فالمدينة المُنوَّرة كان صاحبها في تبعية كاملة للملك المُعظَّم صاحب دمشق، وعندما عاد مُؤرِّخ الشَّام أبو شامة من حجِّه عام **621 هـ 1224** سجَّل في ذيل تاريخه إشارة بالغة الدلالة على هذه التبعية، وقد وردت عَرَضَاً وهُو يشيد باهتمام صاحب المدينة بالأمن، فعزا ذلك لتبعيَّته لصاحب الشَّام الملك المُعظَّم[4].

أمَّا مكَّة؛ فقد تبعت ـ بشكل مُباشر ـ إلى مملكة اليمن الأيُّوبيَّة، وقد حلَّ في ذلك الوقت السُّلطان الأيُّوبي الكامل مُشكلة كُبْرَى كان يُعاني منها الحُجَّاج، عندما أتاح دُخُول الكعبة المُشرَّفة لمَنْ أراد من الزُّوَّار، "فقد أرضى بني شيبة سَدَنَة الكعبة بمال، عوضاً عمَّا كانوا يأخذونه بإغلاقه، وفتحه لمَنْ أرادوا"[5].

ثُمَّ تبدَّلت القوى المُتحكِّمة في مناطق جوار الحجاز، فقد تُوفِّي المُعظَّم، واقتسم الملك الكامل وأخيه الأشرف مملكة دمشق، وخلعوا عنها داود بن المُعظَّم، وكذلك استولى ابن رسول على اليمن بعد وفاة أطسيس، فأراد الكامل ـ عندما زحف على الشَّام ـ أن يُثبت وُجُوده في الحجاز، فأرسل عام

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 413.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 253.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 254.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 274.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 279.

629 هـ 1232م، حملة بقيادة فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ إلى ساحل الحجاز ليحمي ينبع، لكنَّ ابن الشَّيخ دخل مكَّة، فلمَّا وصل الخبر إلى الكامل، "فما أعجبه ذلك، وقال: نحنُ أمرناه أن يصل الينبع لا غير، مَنْ أمره بأَخْذ مكَّة؟"[1].

ويبدو أن السُّلطان الكامل لم يكن يُريد إثارة المشاكل في الحجاز، ولا يُريد إلَّا تأمين طريق حجِّ المصريين بالاحتفاظ بميناء ينبع، وكان يُدرك خطر أَخْذ مكَّة، بعد فقده لحُكْم اليمن. وكانت مخاوف السُّلطان الكامل في محلِّها، فقد جمع أمير مكَّة العَرَب، وأمدَّه ابن رسول حاكم اليمن بقُوَّة من جنده، قاموا جميعاً بالهُجُوم على ابن الشَّيخ والقُوَّات الأيُّوبيَّة المُتواجدة في مكَّة، فهربوا من مكَّة إلى ينبع، وكاد ابن الشَّيخ أن يُؤسَر في هذه الموقعة[2]، وبذلك؛ خرجت مكَّة نهائيَّاً من تحت المظلَّة الأيُّوبيَّة. وكذلك خرجت المدينة بالتدريج عن سُلطتهم، خاصَّة بعد مقتل الأمير شيحة بن سالم عام **646** هـ[3]، وتولِّي حُكْم المدينة ابنه الأكبر عيسى بن شيحة[4].

وكمُجمل للعلاقات بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والحجاز نرى أن مملكتَيْ دمشق ومصر الأيُّوبيَّتَيْن قد تنازعتا النُّفُوذ على أشراف الحجاز في مكَّة والمدينة، وتدخَّل مُلُوكها في خلافات الأشراف على السُّلطة، ودعموا بعضهم ضدَّ بعض بالأموال والجُيُوش، حتَّى فرضوا سيطرتهم الكاملة على الحجاز.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 235.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 235.
3 - راجعْ ترجمته في : صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 300، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 473، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 600 ـ 699، أحداث عام 646 هـ.
4 - المُختار، ابن الجزري، 215.

الفصل الرَّابع

العلاقات الدَّوليَّة لسلطنة المماليك

المبحث الأوَّل

طائفة المماليك

المماليك هُم الرقيق الصَّالح للعمل، وغالباً؛ هُم من الفتيان والفتيات الأرقَّاء. فقد كـان الـرِّقُّ نظاماً شائعاً في عالم العُصُور الوُسْطَى، وقد عرفته الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة في وقت مُبكِّر مـن قيامهـا، مـن خـلال مصدر كبير له هُو الأسر. فالأسرى نتيجة طبيعية للعمليـات الحَرْبيَّـة الكُـبْرَى، التـي رافقـت قيـام الدولـة، وكما كان سائداً في عُرْف ذلك الزَّمان، فهُم سيتحوَّلون إلى رقيـق، يُمكـن فـداؤه، أو بيعـه، أو اسـتخدامه، ومع أن الإسلام قد شجَّع ـ بشكل كبير ـ على عتق الرقيق، وجعـل ذلـك زكـاة وصـدقة وكفَّـارة للـذُّنُوب وحسنة كبيرة عند الله، فإن أعداداً كبيرة من الرقيـق كانـت موجُـودة بحُكْـم الواقـع في الدولـة الإسلاميَّة، دخلت القُصُور والبُيُوت للخدمة، ثُمَّ استخدموا في الإدارة، وأخيراً؛ وصلوا إلى الجيش.

كان الخُلفاء العبَّاسيون أوَّل مَن استخدم المماليك بكثرة في قُصُورهم وأعمالهـم الرَّسْـميَّة، كـما استخدموهم مُقاتلين وأُمراء في الجيش[1]، وخاصَّة أيَّام الخليفة المعتصم. وكان المماليك بمُعظمهم من الجنس التركي، وذلك للتجربة العبَّاسيَّة الفاشلة مـع الفُـرْس، ولعـدم اطمئنـانهم لبنـي قـومهم مـن العَرَب. وعندما قامت الدولة الطولونية في مـصر[2]، اعتمـدت عـلى المماليـك، واسـتقدمتهم بأعـداد كبيرة، حتَّى قيل إنَّهم بلغوا 24 ألف مملوك، وكـذلك الأمـر بالنِّسبَة للإخـشيديين والفـاطميين مـن بعدهم، فقد اعتمدوا على المماليك في تكوين جُيُوشهم[3].

ولَمَّا حَكَمَ الأيُّوبيُّون، وهُم أكراد الأصل، توصَّلوا للحُكْم عن طريق الدولة السلجوقية التُّركيَّة، لذلك؛ نقلوا عنها الكثير من عاداتها، ونُظُمها التُّركيَّة المشرقية، وكانـت القاعـدة العامَّـة المعروفـة عـن

---

1 - العلاقات السِّياسيَّة بين المماليك والمغول، فايد عاشور، 11.

2 - الدولة الطولونية: أسَّسها في مصر أحمد بن طولون، وحكمت ما بين: 425 ـ 292 هـ = 868 ـ 905م.

3 - دراسات في تاريخ المماليك، علي إبراهيم حسن، 22.

السلاجقة اعتقادهم بأنّه لا يُمكن للفُرْس ولا للعرب أن يُخلصوا في خدمة الأتراك، فاعتمدوا على وفاء المماليك، الذين تربّوا ونشؤوا عندهم[1]. فمع أن الأيُّوبيّين مُقاتلين أكراداً، كان من المُمكن أن يعتمدوا على بني جنسهم، لكنّهم اعتمدوا كذلك على التُّركمان المُتواجدين بكثرة في الجيش مُنْذُ أيّام الدولة السلجوقية والدولة الزنكية، كما أنّهم بالغوا في شراء المماليك الأتراك واقتنائهم، وكوَّنوا منهم فِرَقاً عسكريَّة، وارتقى منهم لمناصب القيادة والإمارة كُلُّ مَنْ له أهليَّة، أو شُجاعة.

ويُفسِّر ابن خلدون سبب اعتماد الدُّول على المماليك، ويعدّهم نعمة ساقها الله لإنقاذ الدِّين والدولة، فيقول: "حتَّى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبست أثواب البلاء والعجز، ... بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعُّم والتشاغل باللَّذَّات.. من تكاسل الهمَم عن المناصرة .. فكان من لُطف الله ـ سُبحانه ـ أنْ تدارك الإيمان... بأنْ بعث لهم من هذه الطائفة التُّركيَّة.. أُمراء حامية"[2]. فالمماليك ـ برأي ابن خلدون، المُؤرِّخ وواضع علم العمران البشري ـ هُم تلبية لحاجة ماسَّة في الدولة، وتعويض لنقص خطير في المُجتمع. ثُمَّ يُعطي ابن خلدون رأيه في نظام الرقيق الإسلامي ومُعاملة الرقيق، فيقول: "يُجلبون من دار الحَرْب إلى دار الإسلام، في مقادة الرّقّ الذي يكمن اللُّطفُ في طيّه... ثُمَّ يخرج بهم التُّجّار إلى مصر أرسالاً كالقطعان، فيستعرضهم أهل الملك، ويتنافسون في أثمانهم... لا لقصد الاستعباد، إنَّما هُو إكثاف للعصبية.... يُنزلونهم في غُرف الملك، ويأخذونهم بالتربية، ثُمَّ يعرضونهم على الرمي والثقافة، وركض الخيل والمطاعنة، حتَّى تشتدّ منهم السواعد. فإن بلغوا إلى هذا الحَدِّ، ضاعفوا أرزاقهم، ودرجوهم في مراتب الدولة، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب"[3].

إن ما يتحدَّث عنه ابن خلدون لا يدخل تحت وصف الرِّقِّ إلَّا من باب التسمية، وكما قال ليس هُو باستعباد أبداً، بل هُو تَبَنٍّ، طالما القصد منه "إكثاف العصبية". وهُو تربية في أعلى المدارس العسكريَّة والإدارية، تُؤهِّلهم لشغل المناصب في الدولة، حتَّى قيادة الجيش والوزارة، بل وحتَّى الملك والسَّلطنة فيما بعد.

1 - في تاريخ الأيُّوبيّين، أحمد العبادي، 35.
2 - العبر، ابن خلدون، 5/ 441.
3 - العبر، ابن خلدون، 5/ 441.

المماليك الأتراك:

كانت دار الحَرْب ـ الدُّول غير المُسلمة ـ هي مصدر الرقيق إلى دار الإسلام، ومع تنوُّع مصادر الرقيق الذي كان يدخل إلى الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من بلاد الصقالبة ـ من صقلية وجزر المُتوسِّط وجنوب إيطالية وفرنسا ـ، والروم ـ من يونان آسية الصُّغْرَى والبلقان وجزرها ـ، والبلغار ـ من السلاف ـ، والزنوج ـ من أفريقية ـ، وغيرها، فإن الجنس التركي كان هُو المصدر الأكثر دفقاً للرقيق إلى الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وكانوا خاصَّة من قبائل الأتراك الوثنية التي كانت ماتزال تتنقل في أواسط أسيا.

وبدأ بروز العُنصُر التركي في الدولة العبَّاسيَّة إثر استقدام المعتصم للأتراك، وإكثاره منهم حتَّى بنى لهم مدينة خاصَّة هي سامراء، وكان اعتماده عليهم لإبعاد العَرَب والفُرْس، الذين لم يعودوا محلَّ ثقة لدى خُلفاء بني العبَّاس، حتَّى سيطر المماليك الأتراك على الدولة العبَّاسيَّة، وتلاعبوا بخلفائها، واستقدموا الآلاف من بني جنسهم، إلى أن كوَّنوا دولتهم السلجوقية التُّركيَّة، ولم يتركوا للخُلفاء إلَّا الاسم. وبعد انقسام الدولة السلجوقية وانهيارها وقيام الدولة الخَوَارزميَّة ظهر التَّتار، وتحوَّلت شُعُوب وقبائل تركية بمجموعها إلى أسرى، مثل الخطا، والخَوَارزميَّة، والقفجاق، وغيرهم، "فبيعت ذراريهم، وجلبهم التُّجّار إلى الآفاق، فسيق منهم إلى ديار مصر والشَّام في آخر الدولة الأيُّوبيَّة جُمُوع من الشُّبَّان، وأواسط الفتيان، فاشتراهم مُلُوك بني أيُّوب بأنفس الأثمان، ليتجمَّلوا بهم في الموكب، ويعتضدوا بهم في الكتائب"[1].

ومُنْذُ بدايات الدولة الأيُّوبيَّة اهتمَّ مُلُوكها بشراء المماليك، والاختصاص بالنابه والقوي منهم، فبعد موت أسد الدِّين شيركوه ظهرت مماليكه ـ الأَسَديَّة ـ على الساحة، وكذلك ـ الصَّلاحيَّة ـ مماليك النَّاصر صلاح الدِّين. وكان الصراع بين الأَسَديَّة والصلاحية قد امتدَّ حتَّى على منصب السَّلطنة الأيُّوبيَّة، فتأييد فئة منهم أو عدمه هُو الذي يُقرِّر مَنْ سيكون الملك هُنا، أو السُّلطان هُناك. وقد تابع العادلُ سياسةَ أخيه النَّاصر صلاح الدِّين بالاستكثار من المماليك، وتسليمهم أهمَّ المناصب، وكذلك تبعه أبناؤه الكامل والأشرف والمُعظَّم[2]. ولمَّا استتبَّ أمر السَّلطنة للملك الصَّالح أيُّوب

1 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 2.
2 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3، والعبر، ابن خلدون، 5/ 442.

"استكثَرَ منهم، وبذل فيهم الأموال العظيمة، واعتمد عليهم لما جرَّب من نُصحهم وثباتهم حين أسلمه بنو جنسه"[1].

إن نظرة سريعة إلى تركيبة الدولة الأيُّوبيَّة العِرْقية - رُبَّما - تُوضِّح لنا أسباب هذا التّوجُّه نحو اقتناء المماليك الأتراك. فمع أن الدولة الأيُّوبيَّة كُردية بمُلُوكها، وعدد من أُمرائها وقادتها، فإن أيّاً من مُلُوكها لم يتصرَّف على أساس عِرْقي أبداً، بل كُلُّ الوقائع تثبت العكس، فهم لم ينفصلوا عن الأتراك والتُّركمان، الذين شكَّلوا العديد الأكبر من أُمراء الدولة وجُنُود وقادة الجيش، ولم يتكتَّل الأكراد عِرْقياً في مُواجهة أيّ حادثة، حتَّى من الحوادث التي عصفت بدولتهم، بل كانوا مُنقسمين على الدوام، حتَّى إنَّنا بعد عهد السُّلطان الكامل، لا نُلاحظ لهم أيّ وُجُود عسكري، أو سياسي، باستثناء وُجُود الأُسرة الحاكمة، والتي يُمكن أن نقول عنها في هذه المرحلة إنَّها ذات أُصُول كُردية، وهي مُنقسمة مُتصارعة باستمرار على السُّلطة. ورُبَّما كان توقُّف هجرة الأكراد نحو بلاد الشَّام وتقلُّص هجرة التُّركمان بشكل كبير إليها، هو ما دفع مُلُوك الأيُّوبيَّة نحو التعويض بواسطة شراء المماليك الأتراك[2].

وكان التقسيم الغالب لفرَق المماليك العسكريَّة في الدولة وُفقاً لمالكهم، فكانت هُناك:

1 - المماليك السُّلطانية: أو الخاصكية، وهم مماليك السُّلطان القائم في الحُكْم، فهُو أُستاذهم ومُربِّيهم، فيُلازمونه، ويحمونه، ولهم - عادةً - أفضل الرواتب والإقطاعات، ويُرشَّحون للإمارات والإدارات، فهم محلّ ثقة السُّلطان المطلقة.

2 - القرانصة: وهم مماليك السلاطين السابقين، ولهم ترتيبهم في ديوان الجيش، ورواتبهم.

3 - مماليك الأُمراء: حيثُ كان لكُلِّ أمير فرقته العسكريَّة الخاصَّة من المماليك وُفقاً لراتبه، أو حجم إقطاعه.

4 - أجناد الحلقة: وكان جُزء كبير منهم من المماليك، يُسجِّلون في ديوانها، ويتقاضون منه الرواتب، وهم مماليك لمُلُوك وأُمراء سابقين، أو مُتوفِّين، احترفوا الجُندية[3].

---

1 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3.

2 - راجعْ: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 405.

3 - إن مُعظم معلوماتنا عن تنظيم المماليك الإداري والعسكري في العصر الأيُّوبي تعود للعصر المملوكي، مع أنَّنا نعتقد أنَّها اختلفت فيه عن العصر الأيُّوبي اختلافاً بيِّناً.

الصَّالح أيُّوب وفرقة المماليك البَحْريَّة:

جرى السُّلطان الكامل على سُنَّة والده السُّلطان العادل، وقام بتسمية ابنه الأكبر الصَّالح أيُّوب وَليّاً لعهده، وتركه نائباً عنه بمصر، وتوجَّه نحو بلاده في الجزيرة[1]، عندها؛ ظنَّ الصَّالح أيُّوب أن الفُرصة قد جاءته تسعى، وأن عليه أن يُوطِّد مُلكه في مصر، فالكامل قد لا يعود إليها لسبب من الأسباب. فكان أوَّل ما فعله أن اشترى ألف مملوك، فأصبح القُوَّة الكُبْرى في مصر بغياب والده، ممَّا دفع فخر الدِّين بن الشَّيخ الذي رتَّبه الكامل مع ولده الصَّالح "للخوف على نفسه، ومضى إلى خدمة الكامل"[2]، وعندما وصلت هذه الأخبار مسامع السُّلطان الكامل عام 626 هـ 1229م عاد بسُرعة نحو مصر، وأبعدَ ابنَهُ الصَّالح نحو الشَّرق، وولَّى عهده إلى ابنه الآخر العادل[3]. وهُنا؛ نُلاحظ توجُّهاً مُبكِّراً للناصر أيُّوب لاقتناء أعداد كبيرة من المماليك، والاعتماد عليهم. وعندما توصَّل الصَّالح أيُّوب إلى السَّلطنة في مصر والشَّام، كانت هُناك عدَّة طوائف من المماليك كان بإمكانه الاعتماد عليها، وخاصَّة أن منها مَنْ كان سبب مُلكه، فقد قام المماليك الأشرفية[4] عام 637 هـ 1239م، بالقبض على الملك العادل بن الكامل، وسجنوه، واستدعوا الصَّالح أيُّوب لملك مصر[5]. ولكنَّنا نجد أن الصَّالح أيُّوب قد نظر للعملية على أنَّها عملية غدر من المُمكن أنْ تتكرَّر ضدَّه، فقام بتصفية طوائف المماليك السابقة، ففي عام 638 هـ 1240م، قبض على زعماء الأشرفية، وصفَّى جماعتهم، "ونادى مَنْ أخفى أحداً من الأشرفية نُهب ماله، وأُودعوا السُّجُون"[6]، وكذلك فعل بالأمراء الكاملية[7]. "فقد تحقَّق أنَّه لا ينتظم مُلكه إلَّا بالراحة منهم، والاستبدال بهم"[8]، وأخذ بشراء المماليك، "فاشترى من المماليك التُّرك ما لم يشتر أحد من المُلُوك"[9]، حتَّى صاروا مُعظم عسكره[10]، وبالغ في

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 26.

2 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 26.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365.

4 - هُم من مماليك الملك الأشرف بن العادل.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 166.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 405.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 274، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 405.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 274.

9 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 370.

10 - النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 331.

ذلك[1]، ومكّنه القضاء على الأشرفية والكاملية وخدم القصر المُتحكِّمين في الدولة من "تقديم مماليكه، مجازاة لهم على ثباتهم في خدمته، ولزومهم حين فارقه الناس"[2]، فقد تخلَّى عنه القادة والأُمراء والأكراد، وحتَّى حاشيته، والتحقوا بالصالح إسماعيل عندما استولى على دمشق عام 637 هـ 1240م، مستغلاً غياب أيُّوب عنها[3]. وعندما قبض الملك النَّاصر داود على الصَّالح أيُّوب بعد أَخْذ دمشق منه، سجنه في قلعة الكَرَك، "فأقام مماليكه فيها حتَّى خلص من سجنه، فاجتمعوا عليه، وقد عظمت مكانتهم عنده، وكان من أمره ما كان حتَّى ملك مصر، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرَّق عنه الأكراد"[4]، "فأمرهم واحداً بعد واحد، وكُلَّما قطع خبز أمير أعطاه لمملوك من مماليكه، وقدَّمه، حتَّى صار أكثر الأُمراء من مماليكه لاعتماده عليهم، وثقته بهم"[5]. واستخدم الصَّالح أيُّوب مماليكه حرساً ملكياً لأمنه الخاصّ، "فقد رتَّب جماعة من المماليك التُّرك حول دهليزه"[6]، "وذلك لكثرة ما جرَّب من غدر الأكراد، والخَوَارزميَّة، وغيرهم"[7]. ولمَّا اجتمع للصَّالح أيُّوب من المماليك ما لم يجتمع لأحد من قبله من المُلُوك "حتَّى عاد أكثر جيشه مماليكه"[8]، شرع في بناء قلعة على جزيرة الروضة في بحر النيل، وكانت مُتنزَّهاً لوالده السُّلطان الكامل، وأتمَّها في ثلاث سنين، وانتقل ليسكن بها[9]، ونقل معه مماليكه، وأسكنهم بها على طبقاتهم. فأُطلق عليهم اسم البَحْريَّة نسبة لسكنهم في بحر النيل. ويُقدِّر المقريزي أنَّهم كانوا دُون الألف مملوك[10].

وفي الحقيقة؛ لا نستطيع أن نعدَّ أن هُناك سبباً واحداً أو حادثة مُعيَّنة هي التي دفعت الصَّالح أيُّوب نحو جمع أعداد كبيرة من المماليك، فقبل أن يخوض أيّ تجربة سياسيَّة أو عسكريَّة نجد أنَّه

---

1 - العبر، ابن خلدون 5/ 442.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 277.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 173 ـ 175.
4 - الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 90.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 277.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 179.
7 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 370.
8 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 370.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 278.
10 - الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 90.

بمُجرَّد تولِّي نيابة مصر عن أبيه بدأ بشراء أعداد كبيرة من المماليك[1]، وعندما كان نائباً في الجزيرة اصطنع وحالف فرقة الخَوَارزميَّة، وخاضوا معه كُلَّ حُرُوبه، حتَّى تحققت سلطنته في مصر والشَّام[2].

إذنْ؛ نستطيع القول إن الصَّالح أيُّوب ـ مُنْذُ البداية ـ كانت لديه دوافعه وأسبابه حول اقتناء المماليك، والإكثار منهم، والاعتماد عليهم، ويبدو أنَّه كان يمتلك نظريَّته الخاصَّة حول الاستفادة منهم في مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة، وربَّما كان أساس تلك النظرية هُو قناعته المُبكِّرة بفساد الجهازَيْن السِّياسي والعسكري ورجالها في دولة أبيه، ثُمَّ تعزَّزت هذه القناعة بتخلِّي أعوانه عنه بعد أَخْذ دمشق منه، وأكَّدها القبض على أخيه الملك العادل من قبَل حاشيته وحُماته، وإنْ كان ذلك لمصلحته، لكنَّه جعله يشعر بخوف حقيقي من أن تتكرَّر العملية معه، فانتهى به الأمر إلى تسليم مماليكه مُعظم مُرافق الدولة وقيادات الجيش[3]. وهُنا؛ نجد أن ذلك يجعلنا نستحضر دوافع الخليفة العبَّاسي المعتصم لجَمْع المماليك الأتراك، وتمكينهم من التحكُّم بالدولة، ولم يكن في سلطنة الصَّالح أيُّوب شاعراً كدعبل الخزاعي الذي هجا المعتصم بقوله:

لقد ضاع أمر الناس حيثُ يسوسهم   وصيف وأشناس، وقد عظم الخطب
وكلّ تركي عليه مهانة   فأنت له أمّ، وأنت له أب[4]

ولكنْ؛ بالتَّأكيد، كان شعور الناس في القاهرة أيَّام الصَّالح أيُّوب كشعور الناس في بغداد زمن المعتصم؛ حيثُ تلقَّوا من أذى المماليك الأتراك الشيءَ الكثير، فضجُّوا، واحتجُّوا، فبنى المعتصم لمماليكه الأتراك مدينة سامراء، ونقلهم إليها5، وللأسباب نفسها، بنى الصَّالح أيُّوبُ قلعةَ الروضة، وأسكن مماليكَهُ الأتراكَ بها، فكانت كسامراء مدينة عسكريَّة.

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 26.
2 - راجعْ: العلاقات مع فرقة الخَوَارزميَّة في هذا الكتاب.
3 - راجعْ كتاب: قيام دولة المماليك الأُولى في مصر والشَّام، أحمد مُختار العبادي، 94.
4 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 310.
5 - تاريخ الأُمم والمُلُوك، الطبري، 9/ 18، وتاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 311.

توفي الصَّالح أيُّوب عام 647 هـ 1207م، في ظُرُوف سياسيَّة وعسكريَّة غاية في الخُطُورة، فالفرنج يحتلُّون دمياط ثغر الديار المصريَّة، ويضغطون بقُوَّة عسكريَّة كبيرة تجاه القاهرة، لكنَّ الأمل كان بعدد من الرجال مثل فخر الدِّين بن الشَّيخ، الذي تولَّى قيادة الجيش، وابن أبي علي نائب القاهرة، وقُوَّة عسكريَّة مُتأجِّجة لم تُختبَر بعدُ في قتال حقيقي؛ هي مجموعة المماليك البَحْريَّة.

المماليك البَحْريَّة في معركة المنصُورة:

شكَّلت هذه المعركة الحَدَّ الفاصلَ بين الهزيمة والنصر للمُسلمين في حربهم ضدَّ الهُجُوم الفرنجي على مصر، وكان أبطالها ـ بالفعل ـ المماليكَ البَحْريَّة، مماليكَ الصَّالح أيُّوب. فقد هاجم الفرنجُ مُعسكرَ المُسلمين في بلدة المنصُورة، "ولم يشعر المُسلمون المُقيمون بالخيام إلَّا والفرنج معهم، وكبسوا عليهم، وتفرَّق المُسلمون، وكادت تكون كسرة... ثُمَّ أغاث اللهُ المُسلمين بطائفة من المماليك الصالحية المعروفين بالبَحْريَّة... وحملوا على الفرنج حملة مُنكرة، فبدَّدوا شملهم"[1]. ورُبَّما كان استشهاد قائد الجيش فخر الدِّين بن الشَّيخ في تلك المعركة، قد أفسح المجال لتلمع أسماء قادة جُدُد من مُقدَّمي المماليك البَحْريَّة، فقد برز اسم بيبرس البندقداري، الذي قاد الهُجُوم المُعاكس ضدَّ الفرنج، وتسبَّب بنكبتهم الكُبْرَى في المنصُورة.

إن نصر معركة المنصُورة الذي حقَّقه المماليك البَحْريَّة سيكون له دور كبير في شعورهم بأنَّهم قُوَّة كُبْرَى تُسيطر على الجيش بكامله، وأن دورهم قد حان ليُدلوا بدلوهم في تقرير مصير السَّلطنة والوزارة، بعد موت السُّلطان، واستشهاد قائد الجيش، وتولِّيهم إدارة دفَّة المعركة مع الفرنج.

إن قُوَّة المماليك البَحْريَّة وانتصاراتهم تُعيدنا ـ مرَّة أُخرى ـ إلى مُقارنتهم ببني جنسهم مماليك المعتصم، الذين حقَّقوا له انتصارات عظيمة، وجعلوه يُفكِّر بتحقيق ما عجز عنه أسلافه من خُلفاء بني العبَّاس. فقد قام المعتصم مع مماليكه الأتراك بغزو الرُّوم، وأنكى بهم "نكاية عظيمة لم يُسمَع بمثلها لخليفة"، كذلك فكَّر بالسَّيْر إلى الأندلس لاسترجاعها من الأمويين[2].

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376.
2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 223.

المبحث الثَّاني

المماليك وآخر سلاطين الأيُّوبيَّة في مصر

توفي الصَّالح أيُّوب والسَّلطنة تمرُّ بمحنة قاسية، فالفرنج ـ بعد احتلالهم لدمياط ـ يضغطون على قُوَّات الصَّالح، وهم مُصمِّمون على الزحف نحو القاهرة. وفي هذه الأوقات العصيبة تكون البلاد والجيش بحاجة ماسَّة إلى زعيم قوي الشخصية، مهاب الجانب، بقدر ما هُو محبوب. ومع أن الصَّالح قد طال مرضه، ولابُدَّ أنَّه توقَّع الموت، فلم يُوص بخليفة له، ويبدو أن ابنه الوحيد المُعظَّم تُورانشاه[1] كان لا يتمتَّع بثقته، بل رُبَّما كان على غاية الاستياء منه، فتركه شبه مَنْفي في حصن كيفا، وكأنَّه يعيد ما فعله الكامل معه بنفيه إلى بلاد الشَّرق. أمَّا بقيَّة أهله من آل أيُّوب؛ فلم يُجرِّب منهم إلَّا الإساءة والغدر، وخاصَّة ما جرى له منهم في أخذ دمشق منه، وفي سجنه في الكَرَك. فعندما أحسَّ أيُّوب بدنو خطر الموت منه، عند اضطراره للسفر مريضاً إلى الشَّام عام 645 هـ 1247م، ترك وصية من أغرب الوصايا، فقد استدعى حُسام الدِّين بن أبي علي نائبه في القاهرة، وقال له: "إني مسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد، فإنْ حدث لي في سفري هذا مرض، فأعدمه، وولدي تُورانشاه لا يصلح للمُلك، فإنْ بلغَكَ موتي، فلا تُسلِّم البلاد لأحد من أهلي، بل سلمها إلى الخليفة المُستعصم"[2]. إنَّها وصية انتقام من كُلِّ أهله، من أخيه العادل لقتله، حتَّى لا يتمتَّع بالحياة، أو بالحُكم من بعده، ومن ابنه، ومن أهله، ونستطيع أن نُلاحظ هُنا بأنَّ أيُّوب لم يُدرك أنَّه زرع قُوَّة جديدة في الدولة هي التي ستُقرِّر مَنْ سيخلفه، ولن تلتفت إلى وصيَّته أبداً، وكأنَّه لا يعرف أن الخليفة المُستعصم أضعف من أن يتسلَّم إحدى قرى العراق من أمير صغير، فكيف يتسلَّم مصر على ما فيها من القوى والطامعين؟! هذا؛ إنْ كانت هذه الوصية حقيقيَّة.

ولكن المؤكَّد في الأمر أن الصَّالح أيُّوب لم يُؤهِّل خليفة له يتولَّى السَّلطنة من بعده كما فعل السُّلطان العادل بأبنائه، وكما فعل السُّلطان الكامل بالعادل الثَّاني.

1 - تُورانشاه: اسم تركي من مقطعَيْن، توران: الشَّرق، وشاه: ملك، (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 50).
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 375.

قبيل وفاة الصَّالح أيُّوب كانت القوى الظاهرة في سلطنته مُوزَّعة ما بين ابن أبي علي نائب القاهرة، وفخر الدِّين بن الشَّيخ قائد العَسْكَر، ولكنْ؛ بعد موته، ظهرت قوى جديدة على الساحة، فَجَارِيَتُهُ السابقة، التي أصبحت زوجتَهُ، ثُمَّ أرملته، شَجَرُ الدُّرِّ، دخلت - بقُوَّة - حلبة الصراع على السُّلطة، مدعومة بقُوَّة تُطلُّ على الساحة لأوَّل مرَّة هي قُوَّة المماليك البَحْريَّة، وشَجَر الدُّرِّ تُعدُّ منهم.

وكان بديهياً في تلك الظُّرُوف العصيبة للدولة أنَّه ليس من المصلحة إظهار التنافس على الحُكْم، فَمَنْ يتصدَّى لهذا الموقع سيكون أوَّل الأهداف لبقية القوى، ومع أنَّه لم يتمّ تداول عَلَني، أو اتِّفاق مُبرَم بين الأطراف، فقد كان هُناك إجماع على استدعاء تُورانشاه، وتوليته السَّلطنة.

تُورانشاه في مصر:

وصل تُورانشاه إلى مصر، ومعه حاشية صغيرة، لم يُحسن انتقاءها أبداً لمُرافقته إلى كرسي السَّلطنة، فهي قد تليق بأمير حصن صغير في أقصى البلاد، لكنَّها غير مُؤهَّلة، وغير قادرة على مُساندة سُلطان دولة كبيرة تمرُّ بظُرُوف صعبة جدّاً[1].

ولمَّا وصل تُورانشاه المُعسكرَ تسلَّم صلاحيات والده كاملة، وإضافة إلى عدم تأهيله، أو خبرته السابقة، كان مُصاباً بمرض عصبي، وتنتابه حَرَكَات غير إرادية، "فيتحرَّك كتفه الأيمن مع نصف وجهه، وكثيراً ما يولع بلحيته"[2]، ويبدو أنَّه كان به خفَّة، وعدم تعقُّل، أو قُدرة على إدراك أغوار السياسة، فقد جاء برغبة الجميع كحَلٍّ مُؤقَّت للموقف المُتأزِّم، وجاء لا يملك إلَّا حقَّ الوراثة، مُقابل شخصيَّات تملك حقَّ الحُكْم الحقيقي للدولة بقُوَّة الأمر الواقع، فلم يُدرك كُلَّ هذا.

ومع أن الفرنج قد تكفَّلوا بإزاحة أكبر العوائق أمام حُكْم تُورانشاه بقَتْلهم لفخر الدِّين بن الشَّيخ، لكنْ؛ بقيت أمامه عقبات لا يُستهان بها، وهي تتمثَّل بشَجَر الدُّرِّ زوج أبيه، وخلفها المماليك الصالحية، وكأن تُورانشاه قد شعر بالخطر الداهم من قبَل شَجَر الدُّرِّ والمماليك بعد وُصُوله مُباشرة، فجعلهم همَّه واهتمامه، وأخذ يُهدِّدهم، ويتوعَّدهم[3]، لكنَّه - على أيِّ حال - لم يُقدِّر هذا الخطرَ حقَّ قَدْره.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.
3 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 38، وعقد الجمان، العيني، 1/ 23.

وكما اتَّفق الجميع على استدعاء تُورانشاه لتوليته السَّلطنة، اتَّفق الجميع - بعد شهر واحد - على قتله، والتخلُّص منه[1]، وقد نُؤيِّد ابن بيبرس الدَّوادَار بقوله: " أساء تُورانشاه مع مماليك والده التدبير، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه"، ولكنَّنا لا نُؤيِّده عندما يُتابع فيقول: "ولعلَّه - لو أنصفهم - لم تمتدّ أيدي النوائب إليه"[2]، فالمماليك البَحْريَّة، الطائفة العسكريَّة الأكثر شباباً، والمُنظَّمة بشكل جيِّد جدّاً، كانوا سيقتلون أيَّ شخص يستلم السُّلطة، فقد شعر مُقدَّمو المماليك بقُدرتهم العسكريَّة بعد اختبار المنصُورة، وبقُدرتهم على قيادة الجيش والبلاد، فاعتقدوا بأحقِّيَّتهم بالحُكْم، وأهليَّتهم له، فبيبرس البندقداري كان قائد قُوَّة الفُرسان، وهُو صاحب مأثرة المنصُورة، وأقطاي قائد الجيش العام، الذي تصدَّى للقُوَّات الرئيسية للملك لويس، وألحق به خسائر فادحة بعد معركة المنصُورة، وكُلُّ ذلك بعد وفاة أيُّوب، وقبيل وُصُول ابنه تُورانشاه. إن ما أظهره المماليك البَحْريَّة من قُوَّة وجَلَد في هذه المعارك دفعت المُؤرِّخ ابن واصل ليُلقِّبهم بداوية الإسلام، تشبيهاً بفرقة الدواية، أشرس الفرَق المُقاتلة لفرنج الساحل الشَّامي.

كان إلحاح تُورانشاه على شَجَر الدُّرِّ، ومُطالبتها بأموال أبيه وجواهره، فاتحة الشَّرِّ بالنِّسبَة إليه، فهذا العمل ضدَّ أرملة السُّلطان، مهما كانت دوافعه، قد أساء كثيراً لتُورانشاه، وألَّب الناس ضدَّه، وخاصَّة المماليك الصالحية، وأَدْخَلَ سلطنة تُورانشاه في حيِّز الخطر الحقيقي. ولكنْ؛ هل كانت مُطالبته بالمال والمجوهرات لحاجة فعليَّة؛ لدعم الأعمال الحَرْبيَّة مثلاً؟! أم أنَّها كانت لمُجرَّد مُضايقة شَجَر الدُّرِّ؟! ومهما كانت الأسباب، فقد أدركت جدِّيَّة الأمر، ممَّا جعلها تهرب منه إلى القُدْس[3]. رُبَّما كان تُورانشاه يحتاج - فعلاً - للمال الذي احتجنته شَجَر الدُّرِّ، فقد كان من غير المعقول أن يتجنَّى عليها، وخاصَّة أنَّها الساعية الكُبْرَى لاستقدامه من الشَّرق، وتوليته.

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 370.
2 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3.
3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 370.

والمُهِمُّ في الأمر أن عداء المماليك لتُورانشاه لم يكن بسبب شَجَر الدُّرِّ فقط، فمن المعروف أن ولاء المماليك ـ غالباً ـ ينتقل بعد وفاة أُستاذهم إلى ابنه، وهذا ما بدا للوهلة الأُولى، فقد ذهب أقطاي الأكبر[1] بنفسه إلى حصن كيفا لاستقدام تُورانشاه[2]، وفي الطريق؛ وعده تُورانشاه بأنْ يُقطعه الإسكندرية، ولمَّا لم يُنفِّذ ذلك، ثار غَضَبُ أقطاي عليه، فأخذ تُورانشاه يُهدِّده، ويتوعَّده بحَبْسه في الجبِّ، فكتم له الشَّرَّ[3]. وإذا أردنا أن نفتِّش على عذر لتُورانشاه وعدم تنفيذ وعده لأقطاي، فرُبَّما نجد ضيق الوقت، وانشغاله بحرب الفرنج، ورُبَّما كانت البداية إلحاح أقطاي، وتجاهل تُورانشاه.

ولم يكتف تُورانشاه بإثارة عداء أقطاي، بل قام بعمل أخرق آخر؛ حيثُ عزل ابن أبي علي عن نيابة القاهرة[4]، فَفَقَدَ بذلك الشخص الوحيد الذي كان من المُمكن أن يثق به، والثقل المُرجّح الذي كان قد يُؤثِّر كثيراً في صراعه القادم مع مماليك أبيه، الذين قرَّروا الإسراع في قَتْله قبل خُرُوج الفرنج من دمياط، فقد قدَّر المماليك أنَّه لو تمَّ النصر، وانتهت العمليات العسكريَّة، فيُمكن لتُورانشاه عندها التمكُّن منهم، ورُبَّما القضاء عليهم.

فلم يتقرَّب تُورانشاه لمماليك أبيه، ولم يُكرمهم كما كانوا يتوقَّعون منه بعد مُساعدتهم له في تولِّي السَّلطنة، وبعد تحقيقهم النصر على الفرنج، بل على العكس، قَرَّب حاشيته التي رافقته من حصن كيفا، وولاَّهم المناصب، وعزل مماليك أبيه، ثُمَّ أخذ يتهدَّدهم، فاتَّفقوا على قَتْله[5]. لكنْ؛ ألم يشعر تُورانشاه ـ بعد كُلِّ ما فعله مع شَجَر الدُّرِّ والمماليك ـ بالخطر من ناحيتهم؟ إن عدم احترازه يدلُّ على عدم شعوره بالخطر، فلو كان يُقدِّر خطر المماليك حقَّ قَدْره، لاحترز منهم، وخاصَّة مع وُجُود طوائف عسكريَّة أُخرى كان بإمكانه استمالتهم، لكنَّه لم يفعل. كما كان بإمكانه أن يعيد خطوة جَدِّه

1 - أقطاي الجمدار الصالحي، كبير المماليك الصالحية ومُقدَّمهم (دُول الإسلام الشريفة البهية، القدسي، 25)، ـ ترجمته في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 188، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 190، والوافي بالوفيات، الصفدي، 9 / 317، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 24، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 255.

2 - الإعلام والتبيين، الحريري، 97.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.

5 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 38 وعقد الجمان، العيني، 1 / 23

الكامل بالهرب من المُعسكر، وإفشال مُؤامرة المماليك، كما أفشل جَدُّه مُؤامرةَ ابن المشطوب، ولكنَّه ـ أيضاً ـ لم يفعل، حتَّى هاجمه المماليك، وقتلوه، دُون أن تمتدَّ يد واحدة لمُساعدته.

ومرَّة أُخرى؛ يُذكِّرنا قتل مماليك الصَّالح أيُّوب الأتراك لابنه تُورانشاه بقتل مماليك المعتصم الأتراك لابنه المُتوكِّل سنة 247 هـ861 م[1]، لكنَّ العمليتَيْن المُتشابهتَيْن ستكون لهما نتائج مُختلفة، فالمماليك الأتراك في بغداد، مع أنَّهم سيطروا ـ تماماً ـ على الحُكْم، لكنَّهم فضَّلوا القيام به خلف واجهة الخُلفاء، فتلاعبوا بهم، يُقيمُونهم في الخلافة، ويعزلونهم، ثُمَّ يقتلونهم، ويسملونهم كما يُريدون.

أمَّا في مصر، فبعد قتلهم لابن أُستاذهم؛ قاموا بانقلاب عسكري كامل، وتولَّوا السُّلطة مُباشرة عبر تقلُّد أحد قادتهم لمنصب السُّلطان، وأسَّسوا ـ بذلك ـ دولة جديدة، ونظاماً جديداً.

1 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 323، وتاريخ الأُمم والمُلُوك، الطبري، 9 / 227.

المبحث الثَّالث

الانقلاب العسكري للمماليك وتولِّيهم السُّلطة

كان فخر الدِّين بن الشَّيخ يُدرك ـ تماماً ـ أن أيَّام السُّلطان أيُّوب معدودة بسبب مرضه[1]، وأنَّه لا خليفة مُحتمَل له من أهل بيته، وهذا ما جعله يُفكِّر بالوُصُول إلى السُّلطة، إضافة إلى تمكُّنه من السيطرة الكاملة على مُعظم فرَق الجيش، واستمالته لشَجَر الدُّرِّ جارية السُّلطان وزوجته.

أمَّا مَنْ يقفون ضدَّ مُخطَّطاته؛ فقد كان أبرزهم ابن أبي علي نائب السُّلطان في القاهرة، فقد كان كُلّ منهما يترصَّد الآخر، ويخشى انفراده بالسُّلطة. أمَّا فرقة المماليك البَحْريَّة، وهم حرس السُّلطان وقُوَّاته الخاصَّة؛ فلم يكن من المُمكن التكهُّن بموقفهم بعد وفاة السُّلطان، ولذلك؛ دخل فخر الدِّين في لُعبة استدعاء تُورانشاه من الشَّرق[2]، ليخلف والده، استرضاءً لهم، على أمل أنْ يتمَّ استيلاؤه على السُّلطة مرحلياً. لكنَّ واقعة المنصُورة لم تمهله ليُتمَّ ما دبَّر، ومع ذلك؛ فقد استمرَّت الخُطَّة بدونه، لدُخُول أطراف جديدة فيها، كان أبرزها شَجَر الدُّرِّ، التي تكفَّلت بالغطاء السِّياسي للانقلاب، وقُوَّة المماليك البَحْريَّة، الذين كوَّنوا القُوَّة العسكريَّة له، بواسطتهم مُباشرة، وبواسطة فرَق المماليك الأُخرى، وبقيَّة الجُند عن طريق الاتِّفاق المُباشر معهم، أو عن طريق سكوتهم على ما يجري لعدم اهتمامهم، أو أملاً باستغلال الظُّرُوف الناشئة. فكُلّ طرف كانت له حساباته الخاصَّة، لكنَّها كُلّها صبَّتْ ضدَّ مصلحة تُورانشاه، الذي جعل من نفسه هدفاً سهلاً بعدم أهليَّته للقيادة، وعدم تقديره لقُوَّة خصومه، واستهتاره بهم، ولكنْ؛ حتَّى بدُون كُلّ ذلك، فما كان ليتغيَّر من الأمر شيء، فظُرُوف القتال مع الفرنج وتوزُّع السُّلطات وتشكيلة قوى الجيش القديمة والجديدة كُلّها كانت تحتِّم قيام تحرُّك سياسي وعسكري كبير ضدَّ السُّلطة المركزية، وتُشير إلى أنَّه قد حان أوانه، واكتملت أركانه، فهُناك قيَم جديدة، ومفاهيم جديدة، وتكتُّلات وولاءات جديدة، إنَّه انقلاب بكُلّ نواحي الحياة، حتَّى إنَّه بدا أن كُلّ التغييرات قد تمَّتْ في الدولة، ولم يبقَ سوى رأس السُّلطة، فلو لم يمت أيُّوب لهبَّتْ العاصفة في وجهه، وكادت أن تهبَّ لولا مرضه الشديد، فواجهها ابنه الذي سرَّع بهبوبها، لعدم

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 439.
2 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 146.

درايته بالأوضاع المستجدَّة في مصر، ويتحمَّل والده أيُّوب جُزءاً كبيراً من هذه النِّهاية المأسوية التي تعرَّض لها، فقد تركه منبوذاً في أقصى الشَّرق، بعيداً عن أغوار السياسة ومشاكل السَّلطنة، وربَّما لهذا لم يعهد له بولاية العهد.

اغتيال السُّلطان والاستيلاء على السُّلطة:

لقد قرَّر المماليك البَحْريَّة قَتْلَ ابن أُستاذهم لعدَّة أسباب، لكنْ؛ كُلّها يُمكن أن لا تُعبِّر عن الحقيقة في اتِّخاذهم لهذا القرار، وخاصَّة أنَّهم حُماته وحَرَسُهُ كما هُو مفروض، وهذا أقلّ واجباتهم تجاه ابن أُستاذهم وسُلطانهم. والغريب في الأمر أنَّهم هاجموه عَلَنَاً، وفي دهليزه ومجلسه، فقد دخل بيبرس، الذي ظهر مُؤخَّراً في معركة المنصُورة، مع عدد من البَحْريَّة، وضربه بالسيف، فتلقَّاه تُورانشاه بيده، فقطع أصابعه، فارتبكوا، وهربوا[1]. إنَّها رهبة السُّلطان، والغريب في الأمر أن يُهاجَم السُّلطان في مُعسكره، وضمن جنده وحُرَّاسه بهذه السُّهُولة، والأغرب من ذلك أن تُورانشاه بعد هرب المُهاجمين لم يتحصَّن، ولم يهرب، ولم يتَّخذ أيَّ إجراء، ولكنَّنا لا ندري هل حاول، ولم يتمكَّن؟! أم كان كخروف الأُضحيَّة، الذي يعرف الجميع مصيره، ويوافق الجميع على ذَبْحه؟!.

وعاد إليه البَحْريَّة يقودهم مُقدَّمهم أقطاي، فأجهز عليه من بدأ بضربه أوَّلاً، وهُو بيبرس، "ضربه البندقداري بالسيف على عاتقه، فوقع قطعتَيْن"[2]، وهُنا؛ نميل لتأكيد رواية جوانفيل الذي شاهد عملية الاغتيال بنفسه، وقال: إن مَنْ قَتَلَ السُّلطان هُم حَرَسُهُ الشخصي، وقد قُدِّر عددهم بخمسمائة فارس[3]، وهذا يُوضِّح الأمر، فلسيطرتهم على مقرِّ القيادة انفردوا بالسُّلطان، وقتلوه دُون أيِّ مُقاومة. ويُضيف جوانفيل: "إن فارس الدِّين أقطاي شطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده"، وحمله إلى لويس طالباً مكافأته[4]، وغالباً؛ فهذه إحدى مبالغات جوانفيل. والشخص الوحيد الذي حاول التدخُّل لحماية تُورانشاه هُو رسول الخليفة نجم الدِّين البادرائي[5]، الذي استفظع أن يُقتَلَ

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 364.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.
3 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 133 ـ 135.
4 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 135.
5 - البادرائي: (594هـ ـ 1197م + 655 هـ ـ 1257م)، هُو نجم الدِّين عبد الله أبو مُحمَّد، يُنسَب إلى بادراء من قُرى أصفهان، ترسَّل عن الخليفة مرَّات عدَّة، وولي قضاء العراق في آخر أيَّامه. راجعْ ترجمته في: لبّ اللباب، السُّيُوطي، مادَّة: بادراء وطبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

سُلطان المُسلمين بهذه الطريقة، ويبدو أن صوت البادرائي كان من الضعف؛ بحيثُ أن تهديداً بسيطاً من المماليك البَحْريَّة "بإخراق حُرمة الخلافة "[1] كان كافياً لإسكاته.

وإنْ دلَّ هذا التّصدِّي العنيف لرسول الخليفة على شيء، فهُو يدلُّ على عدم احترام كامل من قبَل المماليك للشرعية، فهُو عدم اعتراف ضمنيّ بها، أو جهل بموقعها، وبما تُمثِّله، فلا الشرعية الأيُوبيَّة كان لها قيمة عندهم عندما قتلوا السُّلطان الشرعي، ولا شرعية الخلافة وهي الشرعية الكُبْرَى عندما هدّدوا رسول الخليفة ومُثِّله بالقتل، إنّما رُوح جديدة ومفاهيم جديدة لعصر بدا أنّه يبدأ بهذه الأحداث الجسام.

نتائج مقتل تُورانشاه في الشّام:

1 - في الكَرَك: كان الملك المُغيث فتح الدِّين عُمر بن الملك العادل بن السُّلطان الكامل مسجوناً في قلعة الشوبك، وكان نائب الكَرَك والشوبك الأمير بدر الدِّين لُؤلُؤ الصوابي الصالحي، فقام النائب بعد مقتل تُورانشاه بإطلاق المُغيث، وسلّمه قلعتَيْ الكَرَك والشوبك[2]، وكانتا تتبعان لسُلطان مصر.

2 - في الصبيبة[3]: استغلَّ الملك السعيد حسن بن عُثمان بن السُّلطان العادل بن أيُّوب[4]، ظُرُوف اختلال السُّلطة بعد مقتل تُورانشاه، وهرب من القاهرة، وعاد إلى الصبيبة سنة **648** هـ وكان قد ملكها بعد موت أخيه أيُّوب بن عُثمان، ثُمَّ تنازل عنها للصَّالح أيُّوب، مُقابل إقطاع في مصر[5].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، - إخراق حرمة الخلافة: المقصود بها خَرْق حُرمة الخلافة من خلال التعدِّي على رسول الخليفة، أو قتله، وليس كما فهمها د. أحمد مُختار العبادي بالدعوة لخلافة أُخرى كالمُوحِّدين. (تاريخ الأيُوبيِّيْن، 94)، ونرجِّح أن هذا شيء بعيد جدّاً عن تفكير المماليك في ذلك الوقت.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182

3 - الصبيبة: حصن بناه الملك العزيز عُثمان بن العادل بن أيُّوب وهُو قلعة بانياس. (ترجمته في: مرآة الزَّمان، ابن الجوزي، 8/ 847 - البداية والنِّهاية، ابن كثير 13/ 137 وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 320 والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 281 والدارس، النعيمي، 1/ 549 وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 136.

4 - ترجمته في : ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 207، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 441، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 360، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 13/ 225، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 292، وترويح القُلُوب، الزبيدي، 71.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.

3 - في دمشق: بعد مقتل تُورانشاه كاتب أُمراء البَحْريَّة في مصر أُمراء دمشق لمُوافقتهم وأتباعهم[1]، فلم يُجيبوهم[2]، فقد كانت القيمرية[3] أكبر قُوَّة مملوكية عسكريَّة في دمشق، ولم يكتفوا بعدم مُوافقة البَحْريَّة، بل أرسلوا إلى النَّاصر يُوسُف الثَّاني صاحب حلب وحمص يطلبون منه الحُضُور لتسليمه دمشق، وأيّدهم - بذلك - جمال الدِّين بن يغمور نائب دمشق، واعتقلوا جماعة من أُمراء البَحْريَّة في دمشق[4]، ويبدو أنّهم كانوا قلَّة فيها؛ بحيثُ لم يتمكّنوا من المُقاومة، وتبع ذلك قبض البَحْريَّة على مَنْ كان من القيمرية بمصر.

وإذا حاولنا استقراء أسباب خُرُوج دمشق على بَحْريَّة القاهرة، نجد أن أهمَّ الأسباب هُو التنافر والتحاسد بين طوائف المماليك، وخاصَّة لعلَّة الجنسية، فالبَحْريَّة أتراك، بينما القيمرية أكراد، إضافة إلى أن البَحْريَّة في مصر قُوَّة مُسيطرة بيدها كُلّ المناصب الهامَّة من أيَّام الصَّالح أيُّوب، ويملكون القُوَّة العسكريَّة الأكثر تنظيماً وفعَّالية، بينما تعيش دمشق حالة من توازن قوى بين طوائف عدَّة من المماليك، وغيرهم، فكان من مصلحة أُمراء دمشق استمرار الحُكْم الأيُّوبي، لذلك؛ استدعوا النَّاصر يُوسُفَ من حلب، الذي وجد أن القسم الأوَّل من مشروعه وهُو مُلك الشَّام مُوحَّدة قد تحقّق بيُسر وسُهُولة، فأخذ يستعدُّ لتحقيق القسم الثَّاني، وهُو ملك مصر، وكان يُدرك مدى المخاطر، والصُّعُوبة في ذلك، ولكنَّه كان مدفوعاً بهاجس إعادة الأمجاد الأيُّوبيَّة، ورُبَّما كان لاسمه تأثير في ذلك، فأخذ يُقلِّد جَدَّه وسميّه السُّلطان صلاح الدِّين، الذي لم يكن يملك من مزاياه إلَّا الاسم، لكنْ؛ ممَّا لا يُنكَر له أنّه أعاد توحيد الشَّام من جديد.

ورُبَّما للظروف القاسية المُحيطة بالبيت الأيُّوبي التي أخذت تُهدِّده بالزوال، فقد التفَّ بنو أيُّوب جميعاً حول النَّاصر يُوسُف الثَّاني سُلطاناً للبيت، وطالبوا باسمه مُمثِّلاً للشرعية الأيُّوبيَّة بحُكْم مصر، وإقصاء المماليك عنها.

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.

3 - القيمرية: مماليك أكراد، من قلعة قيمر، وهي بين المَوصل وخِلاط. راجعْ: لبّ اللباب، السُّيُوطي، 112.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 183

وكان من جُملة ما شنَّعه الأيُّوبيُّون على المماليك في مصر ضمن حربهم الإعلامية ضدَّهم، أن المماليك قد أطلقوا لويس ملك فرنسا الأسير طمعاً بالفدية[1]، ولكنْ؛ ما لا يُمكن لأحد نُكرانه هُو اتِّفاق المماليك مع لويس بعد إطلاق سراحه لنصرتهم ضدَّ الملك النَّاصر مُقابل تسليمه القُدْس[2].

المرحلة الانتقالية (مرحلة شَجَر الدُّرِّ):

مع أن السُّلطة أصبحت فعليّاً بأيدي المماليك بعد قتلهم لتُورانشاه، ولعدم وُجُود مُطالب قوي بالعرش، فقد كانوا في حالة من الإرباك، لأن هذا التحوُّل الحادّ لابُدَّ له من مُبرّرات شرعية، ولابُدَّ له من إخراج قانوني يُراعي المظاهر على الأقلّ، فبرزت شَجَرُ الدُّرِّ زوجة السُّلطان الأيُّوبي المُتوفَّى، وهي أُمّ ابنه خليل الذي مات صغيراً، ومن هُنا؛ استمدَّت شرعيَّتها، فَتَسَمَّتْ والدة خليل، وبه وقَّعت الكُتُبَ[3]، وهي - في الوقت نفسه - جارية من طبقة المماليك، وخاصَّة أنَّها كانت المُدبِّرة لمملكة زوجها، وبالفعل؛ فقد قادت الدولة بكفاءة عالية مُنْذُ موته وحتَّى إعلان وفاته رَسْميّاً[4].

فقرَّر المماليك رَفْعَ شَجَر الدُّرِّ إلى سدَّة السَّلطنة، لتكون الرأس السِّياسي للدولة، لما تحمله من شرعية، ولكونها من المماليك. وقد بدت شرعيَّتها ضعيفة جدّاً خاصَّة كونها امرأة، وتمَّ تفادي الأمر بتعيين عزّ الدِّين آيبك - وهُو من مَقدَّمي البَحْريَّة[5] - قائداً للجيش - مُقدَّم العَسْكَر - على أنْ يتزوَّج بشَجَر الدُّرِّ.

وإذا تساءلنا عن سبب عدم تقدُّم أقطاي كبير البَحْريَّة أو بيبرس بطل المنصُورة، فإن الأحداث القادمة ستحمل الإجابة، وتجعلنا نعتقد أن أقطاي كان يطمح بمنصب السَّلطنة، وقد أصبح - فعلاً - السُّلطان غير المُتوَّج، قبل أن يُقتَلَ غدراً[6]، أمَّا بيبرس البندقداري؛ فلابُدَّ أنَّه كان يُدرك أن دوره لم يحنْ بعد، وأن عليه أن يتعلَّم الكثير قبل أن يصل إلى السَّلطنة، وقد وصلها فعلاً،

1 - العُدوان الصليبي، جوزيف نسيم يُوسُف، 3/ 143.
2 - راجعْ نص الاتِّفاقية: العُدوان الصليبي على الشَّام، جوزيف نسيم يُوسُف، 177.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.
4 - دُول الإسلام الشريفة، القدسي، 25.
5 - آيبك: الأمير عزّ الدِّين آيبك الجاشنكير التركماني الصالحي من مُقدَّمي البَحْريَّة، وأوَّل مَنْ تملَّك من الطائفة التُّركيَّة.(زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3، وعقد الجمان، العيني، 34،) - والجاشنكير: هُو الذي يتذوَّق الطعام والشراب قبل السُّلطان، وهُو لفظ فارسي من مقطعَيْن. راجعْ كتاب: صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 460.
6 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 10.

وكأنَّه كان يُخطِّط للأمر من قبلُ، يقول ابن تغري بردي: "تشوَّف إلى السَّلطنة عدَّة أُمراء، فخيف من شرِّهم، ومال الناس إلى آيبك المذكور، وهُو من أواسط الأُمراء، ولم يكن من أعيانهم . . وقالوا: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته"[1].

لم يطلْ عهد شَجَر الدُّرِّ أكثر من ثمانين يوماً في دست المملكة، فالاعتراضات على ولاية امرأة للمُسلمين كانت كثيرة، والمشاكل التي تعرَّضت لها الدولة كبيرة، وأعداؤها في الشَّام النَّاصر والمُغيث يستعدُّون أهلها ضدَّ المماليك في مصر، وعلى رأس كُلِّ هؤلاء الخليفة العبَّاسي المُستعصم، الذي اعترض على ولاية امرأة، فاضطرَّ المماليك البَحْريَّة أن يطلبوا من شَجَر الدُّرِّ التنازل عن السَّلطنة إلى زوجها آيبك ليُرضوا الخليفة، وهُو الشرعية الكُبْرَى الضرورية لهم في تلك الظُّرُوف[2].

لقد كانت ولاية شَجَر الدُّرِّ قنطرة عبرت عليها السَّلطنة من بني أيُّوب إلى المماليك، علماً أن هذه العادات لوراثة العرش عبر امرأة لم يعرفها العَرَب المُسلمون، وهُنا؛ يجب أن نُلاحظ أنَّها تمَّتْ وُفقاً لعادات غريبة، رُبَّما تتوافق مع العادات القديمة لشعوب التُّرك، أو أنَّهم اقتبسوها عن الفرنجة، الذين طال الاحتكاك بهم.

ولكنْ؛ حتَّى يتسلَّم آيبك العرش، فمع أنَّه رجل تبقى هُناك مُشكلة، فهُو مملوك، وهذا شيء جديد لم تعتده الناس بعدُ.

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 4.
2 - بدائع الزهور، ابن إياس، 1/ 278، وراجعْ مناقشة ذلك في: مملكة حلب الأيُّوبيَّة، كمال بدور، 168.

المبحث الرَّابع

الرَّدُّ الأيُّوبي على انقلاب المماليك

استجدَّت أُمُور هامَّة هدَّدت الدولة المملوكية الوليدة، فقد استولى النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني ملك حلب على الشَّام، والتفَّ حوله البيتُ الأيُّوبي، ورفض النَّاصر سياسةَ الأمر الواقع، وأخذ يُطالب باسم الشرعية بحقِّ البيت الأيُّوبي في مُلك مصر، ممَّا شكَّل خطراً حقيقيّاً على المماليك البَحْريَّة، الذين لجؤوا إلى حيلة قديمة، فقد تنصَّل آيبك من السَّلطنة[1]، ورفعوا لمنصب السَّلطنة صبياً صغيراً من بني أيُّوب[2]، هُو مُوسى بن النَّاصر يُوسُف بن أتسز بن الكامل، ولقَّبوه الملك الأشرف، وخطبوا له على المنابر، وسكُّوا العملة باسمه، وعيَّن آيبكُ نفسَهُ أتابكاً له، ومُقدَّماً على العَسْكَر[3]، وما كُلُّ ذلك إلَّا ليُبطلوا ادِّعاء النَّاصر يُوسُف بحقِّه الشرعي بحُكم مصر.

ولكن الأُمُور العسكريَّة تعقَّدت، وبدأت الحلقة تضيق حول البَحْريَّة، فقد تقدَّم عسكر النَّاصر يُوسُف من دمشق، واحتلوا غزَّة، الموقع المُتقدِّم لمصر، وبوَّابة الشَّام، ففرَّ مَنْ كان بها من عسكر مصر عائدين، وعسكروا في الصالحية[4]، وأعلنوا طاعة الملك المُغيث صاحب الكَرَك، وخطبوا له.

إنَّه دليل واضح على اختلاف طوائف المماليك، واحتجاج على تفرُّد آيبك والبَحْريَّة بالسُّلطة، وعملياً؛ هُو هُجُوم مُزدوج لبني أيُّوب باتِّجاه مصر لطرد البَحْريَّة، فطرف منه هُجُوم النَّاصر العسكري، والطرف الآخر انضمام فرقة من الجيش المصري إلى المُغيث، وهي في قلب مصر.

عندها؛ شعر البَحْريَّة بالخطر يُحدق بهم، فأعلنوا أن البلاد للخليفة المُستعصم، ونادوا - بذلك - في القاهرة وبلاد مصر[5].

---

1 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 418.

2 - كان عُمره ستّ سنوات في: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367، - وثماني سنوات في: تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 418، - وعشر سنوات في: النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 5.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367، وبدائع الزهور، ابن إياس، 1/ 1/ 287، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 234.

4 - الصالحية: بليدة شرق القاهرة على طريق الشَّام.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 183.

إنَّها عودة لوصية الصَّالح أيُّوب تناسوها عندما تمكَّنوا من الأمر، وتذكَّروها عندما كادت الأُمُور تفلت من أيديهم، وسيعودون لنسيانها قريباً، وبالوقت نفسه؛ تحرَّك البَحْريَّة عسكريَّاً، فقد شكَّلوا قُوَّة فُرسان كبيرة بقيادة أقطاي، أَنْهَتْ أمر مُتمرِّدي الصالحية، وطردت قُوَّات النَّاصر من غزَّة[1]، ممَّا أثبت نيَّة البَحْريَّة على المُقاومة، وعدم الاستسلام بسُهُولة.

ولكن انتصار المماليك على حامية غزَّة، واستردادهم لها، لم يفتَّ بعضد النَّاصر يُوسُف الثَّاني، فقد حزم أمره، وقرَّر التحرُّك نحو مصر، ويبدو أنَّه أجرى تقويماً للموقف العامّ، فقدَّر موقعه من الأحداث التي تمر بها مصر، ولابُدَّ أنَّه لاحظ كثير من المعوقات أمام مشروعه، منها:

1 - أن البَحْريَّة قُوَّة عسكريَّة لا يُستهان بها، وخاصَّة بعد هُجُوم أقطاي على غزَّة، وامتلاكهم لقادة عسكريين لامعين.

2 - تستُّر البَحْريَّة خلف شرعية الأشرف مُوسى الأيُّوبي.

3 - مُحاولة كَسْبهم للخليفة بإزاحة شَجَر الدُّرِّ عن السَّلطنة، ومُناداتهم بأنَّ بلاد مصر للخليفة، وأنّ المُعزّ أيبك نائبه فيها.

4 - أَفْقَدَ البَحْريَّةُ النَّاصر يُوسُفَ مُؤيِّديه في مصر، بعد القبض على كُلِّ مُوال له فيها.

ولكنْ؛ بالمُقابل، كانت تلوح أمام النَّاصر كثير من المُغريات تدفعه نحو مصر، منها:

1 - أن الشرعية الأيُّوبيَّة - التي انقلب عليها المماليك البَحْريَّة - تُخوِّله الحقَّ في حُكم مصر.

2 - علاقاته الجيِّدة مع الخليفة العبَّاسي، والذي قدَّر أنَّه لن ينخدع بمُحاولة المماليك لاسترضائه.

3 - امتلاكه قُوَّة عسكريَّة رُبَّما لم تجتمع في الشَّام من عقود كثيرة، إضافة إلى وُجُود قائد جيشه لُؤلُؤ الأميني، الذي كان محلَّ ثقة كبيرة في مجال قيادة الجُيُوش، وتحقيق النصر.

4 - اجتمع مع النَّاصر يُوسُف كافَّة أُمراء ومُلُوك البيت الأيُّوبي، في إجماع لتأييد سلطنته، وهذا لم يحصل - من قبلُ - إلَّا نادراً.

5 - أن الأشرف مُوسى - الذي أقامه البَحْريَّة في مصر - ما هُو إلَّا صبي لا يتجاوز السادسة من عمره، وهُو غطاء شرعي شفَّاف لا يخدع أحداً.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 268، وعقد الجمان، العيني، 18/ 320.

ولكنْ؛ في الحقيقة، كانت هُناك أُمُور كثيرة لم يلحظها النَّاصر، وستُفاجئه بها الأحداث المتلاحقة خلال غزوه لمصر، وربَّما سيكون من أهمّها ظُهُور ما يُشبه العصبية المملوكية بشكل عامٍّ، وعصبية مملوكية تركية بشكل خاصٍّ.

سار النَّاصر بجُيُوشه من دمشق قاصداً مصر ومعه آل بيته، فهي حرب البيت الأيُّوبي ضدَّ مُغتصبين ناكرين للجميل، ولحقِّ التربية، ولم يتخلَّف عنه سوى المُغيث، الذي استولى على الكَرَك والشوبك، وأصبحت له مشاريعه الخاصَّة.

وتولَّى قيادة جيش الشَّام شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر المملكة، والذي كان من أكبر الداعين للهُجُوم على مصر، والذي كان يستهزئ بقُوَّات المماليك، ويقول: إنَّه يستطيع أخذ مصر بمائتي امرأة[1].

بعد وُصُول أخبار تحرُّك النَّاصر نحو مصر، اجتمع قادة البَحْريَّة، وقرَّروا التصدِّي لهُجُوم النَّاصر، وتولَّى آيبك مهمات القيادة العسكريَّة بحُكْم موقعه، وكانت استعداداته قد تضمَّنت ـ إضافة إلى تعبئة قُوَّات مصر ـ استخدام عرب الصعيد، مُحاولاً الاستفادة منهم في المعركة، كذلك لجأ إلى الحَرْب النَّفْسية ضدَّ النَّاصر، مُحاولاً الإيقاع بينه وبين إسماعيل، أقوى شخصيَّات بني أيُّوب في الحملة، فأطلق ولدَيْ إسماعيل، وكانا في سجن القاهرة، وأحسن إليهما، وأشاع أنَّه اتَّفق مع أبيهما.

وحدثت المعركة المُتوقَّعة، ولكنْ؛ عكس كُلِّ التوقُّعات كانت أحداثها، فقد صَدَمَ جيشُ النَّاصر جيشَ المماليك بقُوَّة، جعلتهم ينهزمون نحو القاهرة، وخُيِّل للجميع أن النصر قد تمَّ، فانطلقت قُوَّة الجيش الشَّامي الأساسية بقيادة جمال الدِّين بن يغمور تطارد جيش مصر حتَّى أبواب القاهرة؛ حيثُ نصب السرادق السُّلطانية، وانتُظر وُصُول النَّاصر ليدخل عاصمة السَّلطنة، وصادف ذلك يوم جمعة، فخطب الأئمَّة في مساجد مصر ومسجد القلعة باسم الملك النَّاصر، ولكن الملك النَّاصر بقي في مكانه مُرابطاً، ومعه الفُقهاء والقُضاة[2]، ولشُعُوره بعزَّة النصر، فقد نشر أعلامه وسناجقه[3].

1 - عقد الجمان، العيني، 1/ 39.
2 - يقول أبو الفداء عنهم: جماعة يسيرة من المتعمِّمين. (المُختصر، 3/ 184).
3 - عقد الجمان، العيني،1 / 39.

ولكنْ؛ حدث ما لم يكن بحسبان أحد، فقد صادف مُرُور المُعزّ أيبك سُلطان المماليك ومعه قائد جيشه ومُقدَّم البَحْريَّة فارس الدِّين أقطاي مع بضع مئات من فُرسان البَحْريَّة، فشاهدوا سناجق النَّاصر، وليس معه إلَّا حَرَسه الخاصّ، وهم المماليك العزيزية[1]، ولا ندري مَنْ منهم اتَّصل بمَنْ، المُهمُّ بالأمر أن الاتِّصال بين العزيزية والبَحْريَّة قد تمَّ، وباع العزيزية ابن أُستاذهم النَّاصر، وانضمُّوا للبَحْريَّة، فلم يجد النَّاصر أمامه إلَّا الفرار نحو الشَّام؛ لينجو بجلده[2]. يقول جوانفيل، ولا ندري دقَّة مصادره: إن السُّلطان عاد إلى الشَّام مجرُوحاً في رأسه وفي يده[3]،

بذلك أصبح آيبك والبَحْريَّة في حالة جيِّدة من القُوَّة، فقد استردُّوا أنفاسهم، ودُعموا بالعزيزية، وأجبروا النَّاصر على الفرار، فاندفع آيبك مع قُوَّاته باتِّجاه فرقة من جيش النَّاصر كان يقودها مُقدَّم الجيش لُؤلُؤ الأميني، فهزمهم، وأسر لُؤلُؤاً، وضرب عنقه على الفور، وكذلك فعل بضياء الدِّين القيمري أحد مُقدَّمي القيمرية، الذين سلَّموا دمشقَ للناصر[4].

هذه المعركة الغريبة بمُجرياتها تستحقُّ التوقُّف مع بعض أحداثها، وطرح بعض التساؤلات:

1 ـ لماذا توقَّفت القُوَّة الرئيسية للجيش الشَّامي، التي هزمت البَحْريَّة، وطاردتها حتَّى العبَّاسيَّة، ولم تدخل القاهرة، وتُنهي أمر البَحْريَّة نهائيّاً؟! ولو دخلوا القاهرة "لما بقي مع آيبك مَنْ يُقاتلهم" [5].

ولا نجد لهم مُبرِّراً إلَّا أن تكون قد وصلتهم أنباء هروب النَّاصر نحو الشَّام، فاختلفت آراؤهم، وخافوا دُخُولَ القاهرة، علماً أنَّه من المشكوك فيه أن تصلهم الأخبار بهذه السُّرعة.

2 ـ لماذا رابط النَّاصر في الكراع عند أرض المعركة، ولم يتحرَّك خلف جيشه في مطاردته للمهزومين؟! وهُنا؛ لا نجد تفسيراً إلَّا التردُّد والخوف، فربَّما فضَّل البقاء على حُدُود الصحراء للهرب وقت الحاجة، أو دُخُول مصر بعد استتباب الأمر فيها نهائيّاً.

1 - العزيزية: نسبة إلى العزيز مُحمَّد بن غازي، فهُم مماليك والد النَّاصر يُوسُف.
2 - عقد الجمان، العيني، 1/ 40.
3 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 36/ 197.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 185.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 185.

3 ـ لماذا انضمَّ العزيزية للبَحْريَّة، وتركوا ابن أُستاذهم ومُربِّيهم وصاحب الفضل عليهم؟!

يجتهد المقرزي فيُجيب عن هذا السُّؤال بقوله: "كان مع النَّاصر جمع كبير من مماليك أبيه العزيز، وهم أتراك يميلون للبَحْريَّة لعلَّة الجنسية"[1].

أمَّا نتائج المعركة؛ فإن أوَّلها كان تثبُّت حُكْم المماليك لمصر، وتاليها كان توالي الخسائر على النَّاصر، فكان حاله مثل حال الزرافة التي خرجت تطلب قرنَيْن، فعادت بلا أذنَيْن، فبعد عودته للشام مهزوماً، ثار عليه الملك المُغيث، واحتلَّ نابلس في خطوة بدت وكأنَّها مُطالبة بإعادة مملكة النَّاصر داود في الكَرَك، وكأن المُغيث عدَّ نفسه وريثاً شرعياً لها.

---

1 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 374.

المبحث الخامس

صراع المماليك على الحُكْم

مشروع آيبك:

مع أن الصعاب قد عاجلت عزّ الدِّين آيبك، لكنَّه كان يسير في مشروعه للحُكْم على خُطى المُلُوك والسلاطين الأيُّوبيَّة، فقد تربَّى في مدرستهم، وعندما بدأ حُكْم آيبك بالاستقرار في مصر بعد هزيمة النَّاصر، أخذ يستفحل أمر فارس الدِّين أقطاي، الذي التفَّتْ حوله البَحْريَّة، وكثر أتباعه، وأخذ يتصرَّف كأنَّه السُّلطان، ثُمَّ أراد أن يدعم مركزه بغطاء شرعي لا يملكه السُّلطان آيبك نفسه، ورُبَّما كانت هذه الخطوة الأخيرة بتقديره قبل أن يزيح السُّلطان، ويتولَّى عرش المملكة، فقد أرسل أقطاي يخطب ابنة الملك المُظفَّر الأيُّوبي من أخيها الملك المنصُور صاحب حماة، الذي وافق على الخطبة، ورُبَّما كان ذلك تدبيراً أيُّوبياً لتشجيع أقطاي ضدَّ آيبك. عندها؛ طلب أقطاي من آيبك أن يُفرد له مكاناً في قلعة الجبل، ليسكن به مع عروسه[1]، والقلعة مقرُّ السُّلطان ورمزه، ولم يجد آيبك ـ وهُو يرى المُلْكَ ينسلُّ من بين أصابعه ـ سوى الغدر وسيلة للخلاص من أقطاي، فدعاه إلى القلعة، وهُناك؛ رتَّب آيبك مَنْ اغتاله عام 652 هـ، ولمَّا بلغ الخبر البَحْريَّة "أجمعوا أمرهم على التّوجُّه إلى الشَّام"، ففرَّ أُمراؤهم الكبار قاصدين النَّاصر في دمشق[2]، واستنَّ آيبك سُنَّة القَتْل في الصراع على السُّلطة بين المماليك، والتي سيذوق طعمها هُو وكثير من سلاطين المماليك من بعده.

انتهى عام 648 هـ 1250م، بأحداثه الجسام، وحاول النَّاصر يُوسُف أن يتجاوز هزيمته في ذلك العام أمام المماليك المُستولين على مصر، ففي مطلع عام 649 هـ 1251م، أرسل النَّاصر فرقة من عسكره إلى غزَّة، فأعادت السيطرة عليها، واعتقد المماليك أنَّها مُقدِّمة حملة جديدة للناصر على مصر، فخرجوا بجُيُوشهم، وعسكروا في السائح[3]. وهُنا؛ تحرَّك الخليفة المُستعصم، فأرسل رسوله البادرائي إلى الملك النَّاصر صاحب الشَّام، يطلب منه مُصالحة المُعزّ أيبك، وأن يتَّفقا على حرب التَّتار[4].

---

1 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 390.
2 ـ زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 12 ـ 13، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 42.
3 ـ المُختصر، أبو الفداء، 3/ 186.
4 ـ طبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

إذنْ؛ فالخليفة لم يتحرَّك حتَّى دفعه خطر التَّتار إلى ذلك دفعاً، فالصراع بين مُلُوك الأطراف كان ـ دوماً ـ لمصلحة الخليفة؛ لأنَّه يُضعف المُتصارعين، أمَّا الآن؛ فهُو يُريدهم أقوياء لدَعْمه ضدَّ خطر قضى على كُلِّ القوى الإسلاميَّة في الشَّرْق، ولم يبقَ للخليفة من دعم يُفكِّر فيه سوى الشَّام ومصر. وافق النَّاصر يُوسُف على القسم الأوَّل من طلب الخليفة، وهُو الصُّلح مع آيبك، وبالتَّأكيد؛ لم يُفكِّر كثيراً لا هُو ولا آيبك من بعده في القسم الثَّاني، وهُو نجدة الخليفة ضدَّ التَّتار، ويبدو أن النَّاصر قد وَجَدَ في الصُّلح الذي عرضه الخليفة حلاً سهلاً لمُشكلة مُواجهته مع المماليك في مصر، التي كانت تزداد صُعُوبة في كُلِّ يوم، فالمماليك اتَّصلوا بالملك لويس، أسيرهم السَّابق، وكان لا يزال في فلسطين، وطلبوا دعمه ضدَّ النَّاصر، مُقابل تسهيلات كبيرة يُقدِّمونها له في اتِّفاقية الصُّلح. كما كان النَّاصر يعيش في حالة رهاب حقيقي من مجموعات المماليك التي تُؤلِّف قسماً كبيراً من جيشه، وذلك بعد خيانة العزيزية، وهم أقربهم إليه بعد مماليكه. ففي عام 650 هـ 1252م، أرسل النَّاصر يُوسُف رسولاً خاصّاً من قبله، هُو النظام بن المولى لمُرافقة البادرائي رسول الخليفة إلى مصر لعرض شُرُوط الصُّلح على آيبك، الذي استقبل الرُّسُل، ووافق بسُرعة على الصُّلح[1]، فدوافع آيبك للصُّلح ـ أيضاً ـ كانت كثيرة، منها:

1 ـ عدم اطمئنانه للاتِّفاق مع لويس، الذي اكتشف أنَّه يبتزُّه للحُصُول على أكبر قدر من التنازلات، دُون أن يكون قادراً على تقديم أيِّ مُساعدة.

2 ـ قدَّر أن اتِّصاله بلويس قد أثار الشُّعُور المُعادي ضدَّ المماليك في كُلِّ العالم الإسلامي.

3 ـ كما أدرك أن الصُّلح مع النَّاصر بسعي الخليفة هُو اعتراف من الشرعية الصُّغْرَى ـ الأيُّوبيِّين، والشرعية الكُبْرَى ـ الخلافة ـ بحُكْم المماليك لمصر.

وتمَّ الصُّلح على قاعدة اقتسام البلاد؛ بحيثُ يكون للمصريين في الشَّام غزَّة والقُدْس وكُلّ ما هُو جنوبها، وللناصر يُوسُف نابلس وكُلّ ما هُو شمالها، وعادت الرُّسُل من مصر في عام 651 هـ 1253م، ومعهم أسرى معركة الكراع من أُمراء الأيُّوبيَّة وقادة النَّاصر[2]. ويبدو أن إطلاق الأسرى

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 10، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 385، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 186، وعقد الجمان، العيني، 18/ 339، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 415، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 274.

كان أهمّ نتائج هذا الصُّلح، إنْ لم نقل إنَّه كان كُلّها، فقد استمرَّ العداء بين الطرفَيْن، وفي عام 654 هـ 1256م، كان الصراع بين النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام والمُعزّ أيبك المُستولي على حُكْم مصر على أشدِّه، عندها؛ احتاج النَّاصر إلى دعم شرعية الخلافة لتأييد حقِّه وحقِّ البيت الأيُّوبي لمُواجهة آيبك، الذي يعدُّه دخيلاً تسلَّط على الحُكْم، فأرسل النَّاصر إلى الخليفة مع رسوله المُؤرِّخ ابن العديم يطلب منه خلعة، وقد حمل الرسول معه "تقدمة جليلة"[1]. وفهم آيبك مقصد النَّاصر من الخلعة، فعدَّ نفسه لا يقلّ عنه بشيء، وأرسل سنقر الأقرع، وهُو أحد كبار أُمراء المماليك[2]، يحمل هدية لا تقلُّ عن هدية النَّاصر، ولكنَّه لم يطلب خلعه لنفسه، بل طالب بتعطيل خلعة النَّاصر، فحار الخليفة الضعيف في أمره، وبالتَّأكيد؛ لم تكن أشخاص المُلُوك المتنازعين هي التي تُهمُّه، فأمامه في الشَّرْق التَّتار بجحافلهم، وليس وراءه في الغَرْب سوى النَّاصر في الشَّام وآيبك في مصر، فطلب الخليفة من ابن العديم الاعتذارَ للناصر، وأعطاه سكِّيناً مقبضها من الحجارة الكريمة ليُقدِّمها إليه قائلاً: إنَّها "علامة منِّي في أن له خلعه عندي في وقت آخر"، وعاد ابن العديم بدُون خلعة[3]. ومع أن آيبك قد فاز في الصراع مع النَّاصر عند الخليفة، لكنَّه لم يفزْ في الصراع مع القَدَر، ففي عام 655 هـ 1257م، قُتل في أكثر الأماكن أمناً له، فقد قيل إنَّ زوجته شَجَرَ الدُّرِّ قد قتلتْهُ، فأُزيح بذلك من أمام الخليفة العائق الذي يمنعه من إرسال الخلعة للملك النَّاصر، وكسبه إلى صفِّه، في وقت حرج، فسارع الخليفة المُستعصم بإرسال الخلعة والطَّوْق والتقليد، كما جرت العادة تماماً إلى الملك النَّاصر، وقد وصل رسول الخليفة في العام نفسه 655 هـ 1257م، الذي قُتل فيه آيبك، ولكنْ؛ دُون أن يترتَّب على ذلك فائدة تُذكَر للطرفَيْن.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191.
2 - سنقر الأقرع: كان مملوكاً للمُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191).
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191.

المبحث السَّادس

الصراع العسكري بين المماليك والسَّلطنة الأيُّوبيَّة

المماليك البَحْريَّة في الشَّام:

استقبل الملكُ النَّاصر في دمشق عام 652 هـ ـ 1254م، أُمراء البَحْريَّة[1] الفارِّين، الذين حرَّضوه لأَخْذ مصر، مع أنَّه لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض ليتحرَّك معهم[2]، فقاد جيشه من جديد، وعسكر في غور الأردن، وأرسل طلائعه بقيادة المُعظَّم تُورانشاه بن صلاح الدِّين، فاحتلُّوا غزَّة[3]. وبرز آيبك مع قُوَّاته إلى العبَّاسيَّة [4]، ومع كُلّ ما بين الرجلَيْن، فقد أرسل آيبك إلى الملك النَّاصر ينصحه قائلاً: "لا تركنْ إلى البَحْريَّة ما يجيء منهم خير"، فلم يلتفتْ له[5]، وطالبه بردِّ البلاد التي أخذها في فلسطين بالاتِّفاق مع رسول الخليفة، فوافق آيبك. وما هذه المُوافقة إلَّا إقرار بالأمر الواقع، فعسكر النَّاصر كانت حول القُدْس والبَحْريَّة في غزَّة، وقد قام الملك النَّاصر بإقطاع تلك البلاد إلى البَحْريَّة [6]، ليجعلهم بمُواجهة عدوِّهم المُشترك آيبك، وليُدافعوا عن هذه المناطق المكشوفة التي يصعب عليه الدفاع عنها.

وكان آيبك يُقيم مع قُوَّاته في مُعسكر قُرب العبَّاسيَّة مُنْذُ أن تحرَّك النَّاصر وجُيُوشه من الشَّام، ومعه فرقة المماليك العزيزية، التي انضمَّت إلى قُوَّاته، بعد أن خانوا الملك النَّاصر، وكانوا سبب هزيمته في الكراع، ويبدو أن العزيزية قد شعروا بمقدرتهم على التلاعب بمصير المُلُوك، فأخذوا يُدبِّرون للقبض على المُعزّ أيبك، وشعر بتدبيرهم، فاحترس منهم، واستعدَّ لهم، ولمَّا تأكَّدوا من

---

1 - ـ كان ضمن أُمراء البَحْريَّة الفارِّين إلى دمشق: بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وأزدمر السيفي، وسنقر الأشقر، وقلاوون الألفي، وسنقر الرُّومي، وبدر الدِّين بيسري، وسيف الدِّين المستعربي. (المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235).
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.
5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 292، ونهاية الأرَب، النويري، 29 / 434.

افتضاح أمر غدرهم بآيبك، هربوا على عجل من مُخيَّمهم في العبَّاسيَّة، فصادر آيبك كُلَّ ما تركوه[1]، وقبض على بعضهم، فقتل منهم، وسجن الآخرين[2]. وكان هذا بمثابة الإعلان أنَّه لن يكون هُناك أمان لسُلطان أو ملك مع وُجُود طوائف عسكريَّة قويَّة، وأنَّه لا ولاء لهذه الطوائف إلَّا ولاء الخُضُوع للقُوَّة، أو ولاء الطمع بالمكاسب.

ونُلاحظ هُنا أن النَّاصر يُوسُف لم يستفدْ مُطلقاً من أحداث هامَّة جرت في مصر، وكان من المُمكن أن يُوظِّفها بقليل من الدعم لمصلحته وضدَّ حُكْم المماليك، ومنها:

1 ـ تحرُّك العزيزية ضدَّ آيبك في مُعسكر العبَّاسيَّة، ومُحاولتهم القبض عليه، ولكن هذه الحَرَكَة لم تكن بتنسيق مع النَّاصر يُوسُف، ورُبَّما جاءت عَرَضَاً لتنسجم مع رغباته[3]، ولذلك لم يستفدْ منها، كما أنَّه لعدم التنسيق جرى التمرُّد في ظُرُوف كانت لمصلحة آيبك؛ حيثُ تمكَّن من القضاء عليها بسُهُولة. بينما كان تمرُّدهم على النَّاصر في معركة الكراع في توقيت قاتل، أدَّى إلى تغيير مجرى المعركة تماماً[4].

2 ـ قام الشريف حصن الدِّين بن ثعلب زعيم الأعراب في صعيد مصر عام 651 هـ ـ 1253م، بثورة ضدَّ حُكْم آيبك، وتزامن معها عصيان والي الصعيد آيبك الأفرم الذي دعم تحرُّك ثعلب، ومع أن الشريف ثعلب استنجد بالناصر يُوسُف، لكنَّه لم يتدخَّل[5]. وكان من المُمكن أن يستغلَّ النَّاصر تلك الثورةَ أفضلَ استغلال[6].

3 ـ كذلك لم يستغلّ النَّاصر صراعَ آيبك مع مُقدَّم البَحْريَّة أقطاي، الذي كان يُنازع آيبكَ السُّلطةَ، ويتطاول عليه، ويمنعه من الانفراد بالحُكْم، مع تقرُّب أقطاي للبيت الأيُّوبي، وخُطبته لبنت المُظفَّر أُخت المنصُور صاحب حماة الأيُّوبي[7]. والغريب في الأمر هُنا أن آيبك كاتبَ النَّاصر يُوسُف في

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 396، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 30.
3 - يُقال بأنَّ تحرُّك العزيزية كان بإيعاز من الملك النَّاصر. (المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235).
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 396، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 30.
5 - البيان والإعراب، المقريزي، 144، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
6 - ويُعلِّل العبادي عدم تجاوب النَّاصر مع طلب مُساعدة ثعلب بوُجُود رسول الخليفة لديه طالباً الصُّلح مع المصريين. (في تاريخ الأيُّوبيِّين، أحمد مُختار العبادي، 118).
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 388، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 190، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 42.

أمر أقطاي، وطلب رأيه، لكنَّ النَّاصر لم يتدخَّل في الصراع بين المماليك[1]، رُبَّما لعدم تفضيله أيّ منهم على الآخر، مع أن هذا ليس من السياسة في شيء.

الخليفة العبَّاسي يسعى في الصُّلح:

كان أكثر الناس قلقاً لصراع النَّاصر مع مماليك مصر هُو الخليفة العبَّاسي المُستعصم بالله، فالتتار يكتسحون العراق، وطلائعهم اقتربت من بغداد، ولم يبقَ من قُوَّة في العالم الإسلامي يُمكن أن تدعم الخليفة سوى الشَّام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدِّين البادرائي لإعادة الصُّلح، وتثبيته بين النَّاصر يُوسُف والمُعزّ أيبك، وكانت الشُّرُوط الجديدة للصُّلح أن يكون الشَّام بأكمله للناصر، ومصر لآيبك[2]، ويُضيف المقريزي بنداً آخر هُو أن لا يُؤوي النَّاصر يُوسُفُ المماليكَ البَحْريَّةَ الفارِّين في الشَّام[3]. ونعتقد أن هذا البند كان مُهمّاً جدّاً لآيبك في اتِّفاقية الصُّلح، وبدليل النتائج نرى أنَّه ـ رُبَّما ـ كان أوَّل البُنُود، فالبَحْريَّة هُم أكثر ما يخشاه آيبك على مُلكه، وهُو يُدرك أنَّهم سيستمرُّون بالتحريض عليه، ومن أجل تمرير هذا البند الذي لم يكن ليقبله النَّاصر يُوسُف بسُهُولة، فالبَحْريَّة ورقة رابحة بيده ضدَّ آيبك، من أجل ذلك؛ وافق آيبك أن تكون الشَّام بكاملها للناصر يُوسُف. وكان محرجاً للناصر تنفيذ هذا البند من اتِّفاقه مع آيبك، الذي ينصُّ صراحةً على طَرْد البَحْريَّة من الشَّام، فحاول أن يخلق سبباً، فأشاع أنَّه نقل إليه أنَّهم يُريدون أن يفتكوا به[4]. إنَّه سبب مُقنع اختاره النَّاصر، فسُمعة المماليك تجعل من السهل تصديق تبدُّل ولائهم بهذه السُّرعة، لكنْ؛ هل كان ـ فعلاً ـ بإمكان البَحْريَّة الفتكُ بالناصر، بالرّغم من احترازه وحيطته ؟! وإذا كان ذلك مُمكناً، فلمصلحة مَنْ؟! بل، وأين مصلحتهم في ذلك؟! فالناصر أكبر شخصية مُؤهَّلة لتنفيذ انتقامهم من آيبك، ولأبُدَّ أنَّهم ما كانوا ليفرطوا به بتلك السُّهُولة[5].

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 11.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 33، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1 / 12.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 500.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 192.
5 - يقول المقريزي: إن سبب مُغادرة البَحْريَّة لدمشق هُو: وُصُول الخبر بأنَّ الملك النَّاصر قد طلب نجدة التَّتار لاسترجاع مصر من المماليك، وأنَّهم قد سيَّروا إليه عشرين ألف فارس (السُّلُوك، المقريزي، 1 / 500).

بعد أن أشاع النَّاصر كشفه لمُؤامرة البَحْريَّة، طلب منهم مُغادرة دمشق، ولكنْ؛ إلى أين؟ لم يبقَ إلَّا مكان واحد لالتجائهم إليه، مع أنَّه أضعف من أن يُحقِّق لهم الآمال بالعودة مُنتصرين إلى مصر، إنَّه الملك المُغيث عُمر صاحب الكَرَك الجديد. فغادر البَحْريَّة دمشقَ إلى غزَّة، وراسلوا المُغيثَ، وانتموا له. ويبدو أن النَّاصر شعر بالخوف فعلاً من البَحْريَّة، ورُبَّما لم يكن بحسبانه أن ينضمُّوا للمغيث، فأراد إدراكهم قبل وُصُولهم إلى هدفهم، فأرسل خلفهم فرقة من جيشه إلى غزَّة، فكمن لهم البَحْريَّة، وهزموهم، ثُمَّ أمدَّ النَّاصر جيشه، وأعاد الكَرَّةَ، فهزموا البَحْريَّة، واضطرُّوهم للهرب نحو الكَرَك إلى الملك المُغيث، الذي استقبلهم أحسن استقبال، وفرَّق فيهم الأموال الجليلة[1]. وفي الحقيقة؛ أَحْسَنَ المُغيثُ انتهازَ هذه الفُرصة، فالبَحْريَّة أداة جيِّدة يُمكنه استخدامها لتحقيق مشاريعه التوسُّعية، هذه المشاريع التي لم يخلُ من وضعها أيٌّ من مُلُوك آل أيُّوب، وكانت خُطط البَحْريَّة والمُغيث بغاية التطابق، فالطرفان هدفهما مصر. جهَّز المُغيث البَحْريَّة بما يلزمهم، وتحرَّك بجيشه معهم، وساروا إلى مصر عبر غزَّة، فتصدَّى لهم آيبك بجُيُوش مصر، وألحق بهم هزيمة كبيرة[2]، "فهرب المُغيث إلى الكَرَك في أسوأ حال، ونُهبَتْ أثقالُهُ ودهليزُهُ"[3]، وأثناء عودة البَحْريَّة مُنهزمين من مصر عام **656** هـ **1258**م، لم يفتْهُم الهُجُوم على غزَّة، وكانت فيها قُوَّات النَّاصر يُوسُف، الذي عدَّه البَحْريَّة في مصافِّ أعدائهم، ولمَّا تصدَّى لهم قائد الحامية الشَّاميَّة الأمير مجيد الدِّين بن أبي ذكرى هزموه، وأسروه، "وقوي أمر البَحْريَّة، وأكثروا العيثَ، والفساد"[4].

وأثناء تحرُّك البَحْريَّة في جنوب الشَّام، صادفوا في غور الأردن فرقة الشهرزورية[5]، التي كانت قد هربت من العراق تحت ضغط التَّتار، فاتَّفقوا معهم، وتزوَّج بيبرس البندقداري أحد مُقدَّمي البَحْريَّة امرأةً منهم[6]، وذلك لتوثيق الاتِّفاق بالمُصاهرة، فالبَحْريَّة بحاجة إلى قوى داعمة. وهذا التحالف ـ إضافة إلى مُهاجمة حامية غزَّة ـ حرَّك مخاوف النَّاصر يُوسُف، فَسَيَّرَ عساكره نحوهم،

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 193.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 195.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 197
5 - الشهرزورية: فرقة من الأكراد نسبة إلى بلدة شهرزور، (راجعْ: مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: شهرزور)، هربوا من العراق بعد غزو التَّتار، فانضمُّوا للناصر في الشَّام، ثُمَّ تمرَّدوا عليه.
6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

فَهَزَمَت البَحْريَّةُ عسكرَ الشَّام، فركبَ النَّاصر بنفسه، وبكامل ثقل جيشه إليهم، فهربت البَحْريَّةُ إلى الكَرَك، والشهرزورية إلى مصر[1]. ويبدو أن النَّاصر أراد حسم الموقف نهائيَّاً مع البَحْريَّة، فتابع تحرُّكه يدعمه جيش حماة بقيادة الملك المنصُور، فوصلوا الكَرَك، وشدَّدوا الحصار عليها، فخاف ملكها المُغيث، مع متانة حُصُون الكَرَك، وقُوَّة أسوارها، وأراد حلّ القضية سلمياً مع النَّاصر، فطلب الصُّلح، ووافق النَّاصر على شرط أن يُسلِّمه البَحْريَّة، فالبَحْريَّة هُم ما يُريده النَّاصر الآن، وأمر المُغيث يُمكن أن يُؤجّل، فحصاره غير مضمون النتائج. وبلا تردُّد؛ وافق المُغيث على تسليم حُلفاء الأمس[2]، فقد أصبحت البَحْريَّة ورقة خاسرة بيد المُغيث، الذي جرَّبهم أكثر من مرَّة، ولم يُفلحوا، بل رُبَّما عدَّهم سبباً لتوريطه في الهُجُوم على مصر، وما تلا ذلك من خسائر فادحة تكبَّدها. في هذه الأثناء؛ شعر بخُطُورة الموقف أحد مُقدَّمي البَحْريَّة، ورُبَّما كان أذكاهم وأكثرهم أهليَّة للقيادة، وهُو بيبرس البندقداري، الذي يعرف بدقَّة أين يجب أن يكون في كُلِّ ظرف، فتسلَّل من قلعة الكَرَك، ولجأ إلى النَّاصر يُوسُفَ، الذي استقبله، وعفا عنه، وقبض المُغيثُ على بقيَّة البَحْريَّة، وسلَّمهم للناصر، الذي اعتقلهم في سجن قلعة حلب، وبقوا فيه، حتَّى فتح التَّتار حلبَ، وأخذوهم منها[3].

وبعد أن استقرَّ أمر المُعزّ أيبك في حُكْم مصر نتيجة لصُلحه مع النَّاصر يُوسُف، والتخلُّص من أقطاي والبَحْريَّة، قام عام 652 هـ بعَزْل الأشرف السُّلطان الأيُّوبي الصغير، الذي كان "آخر من خطب له من بيت أيُّوب بمصر"[4]، وأعلن آيبكُ نفسَهُ سُلطاناً على البلاد، وهي الخطوة الأهمّ في مشروعه السِّياسي. ومع كُلِّ هذه القُوَّة التي شعر بها آيبك، فقد كان البيت الأيُّوبي يُؤرِّقه، رُبَّما لشُعُوره كمملوك سابق لهم، وهذا ما تُفسِّره ردود أفعاله المتناقضة نحو الأيُّوبيَّة، فبعد أن أنهى كُلَّ سُلطان لهم في أرض مصر، أراد أن يُزيلَ كُلَّ رموزهم منها، فأعفى حُسام الدِّين بن أبي علي الهذباني[5] من مهامِّه، ونزع إقطاعه، وسمح له بالسفر إلى الشَّام[6]، فاستقبله النَّاصر يُوسُف، وخلع

1 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 34.
2 - شفاء القُلُوب، الزبيدي، 433، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 9 / 55.
3 - شفاء القُلُوب، الزبيدي، 433، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 198.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
5 - ترجمته في: ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 384.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 186.

عليه[1]، وأعطاه إمرة خمسمائة فارس[2]. ولكنْ؛ وبعد كُلِّ ذلك فآيبك لا زال يشعر بعدم شرعية حُكْمه، فأراد أن يلجأ لطريقة أُخرى يستمدُّ بها بعض الشرعية، فقرَّر أن يخطب ابنة بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل ووريث البيت الأتابكي، وابنة الملك المنصُور صاحب حماة سليل البيت الأيُّوبي والعائلة التقويَّة الشهيرة فيه[3]، إن تدعيم الحُكْم بالمُصاهرة عادة شائعة، وكانت مُتَّبعة لدى البيت الأيُّوبي. ولكن هذه المُصاهرة بالجملة لم تفهمها شَجَرُ الدُّرِّ زوجة آيبك على حقيقتها السِّياسيَّة، وعدَّتها خيانةً صريحةً لها، وعدم وفاء يُقدِّمه مُقابل السَّلطنة التي قدَّمتها له، فقتلتْهُ ليلاً هي وجواريها، وأظهرت أنَّه مات.

ومع أن رواية القتل تُجمع عليها مُعظم المصادر، ولكنَّه يحقُّ لنا أن نسأل: ألا يُمكن أن يكون آيبك قد مات فعلاً بشكل طبيعي؟ فهذا علمياً وارد، وخاصَّة في ظُرُوف الضغوط الكبيرة التي كان يعيشها سُلطان المماليك داخلياً وخارجياً، ويُؤيِّد هذه الفكرة المُؤرِّخ أبو شامة، وهُو مُعاصر للحادثة، يقول: "ثُمَّ مات هذا التركماني بداره بغتة، ولا يُعلَم سبب موته، وتعصَّب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقَّبوه بالملك المنصُور نُور الدِّين علي، واتَّهموا زوجة التركماني أنَّها قتلته، فأعدموها"[4]. وهُنا؛ لا نستطيع أن نُرجِّح، لكنَّ الموت الطبيعي يبقى احتمالاً قائماً، خاصَّة وأن كلَّ ما أخذه أصحاب آيبك ومماليكه المعزية[5] من دلائل على أنَّه قُتل "أنَّهم فارقوه بالعشيِّ سليماً، وألقوه في الصباح عديماً"[6]، وهذا ليس بالدليل القاطع، فالموت المُفاجئ كثير الحُدُوث، ولا يحتاج لمرض يسبقه، لكنَّها المُفاجأة لأصحابه، وسيادة عقلية التآمر والغدر، وتفسير كلّ الأُمُور على أساسها، ساهمت بإلصاق التُّهمة - التي لا ندري مدى صحَّتها - بشَجَر الدُّرِّ، ممَّا تسبَّب بقتلها على أبشع صُورة.

وبعد مقتل سُلطان المماليك الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك وزوجته شَجَر الدُّرِّ سنة 655 هـ 1257م، أقام مماليكُ آيبك المعزية نُورَ الدِّين علي بن أُستاذهم آيبك مكانه[7]، وكان عمره خمس

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 23.
3 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 19، وعقد الجمان، العيني، 1/ 118.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 387.
5 - المعزية: هُم مماليك الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك، سلطنوا ابنه علي بعد مقتله، وأصبح مُقدَّمهم المُظفَّر قطز أتابكاً له.
6 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 24.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 192.

عشرة سنة، واستمرَّ بالسَّلْطَنَة، حتَّى خلعه المُظفَّر قطز[1]، مُتذرِّعاً بخطر التَّتار، وأن التَّصدِّي لهم يحتاج إلى سُلطان قوي قادر.

كانت كُلُّ تلك الحُرُوب والمُؤامرات والقتل والاغتيالات بين الحُكَّام في مصر والشَّام متزامنة مع هُجُوم التَّتار على العراق، وحصارهم لبغداد بقوى هائلة، كان يسبقها ـ دائماً ـ سُمعة سيِّئة تُبشِّر بأبشع أنواع القتل الجماعي والحرق والدمار، وكأن ما كان يجري في العراق لا علاقة له مُطلقاً بحُكَّام مصر والشَّام، فالخليفة مُحاصر في بغداد، يستغيث، فلا يُغاث، لقد جاء اليوم الذي جعل التَّتار فيه الخليفة المُستعصمَ يُسدِّد ما سلف منه ومن آبائه بحقِّ بلاد الأطراف، التي هاجمها الغُزاة، فلم يُحرِّك الخُلفاء سوى رُسُلهم وخلَعهم وأُمنيَّاتهم الطَّيِّبة. ولكن سُقُوط بغداد عام 658 هـ 1260م، بيد التَّتار كان الصرخة الأخيرة التي أرعبت النَّاصر، وأشعرتْهُ بمصيره المُرتقب، فهُو يعرف أنَّه التالي في حسابات التَّتار، وليس أمامه إلَّا مصر، وفيها أعداؤه المماليك، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك يُسبِّب له حَيْرَة قاتلة.

خرج النَّاصر ليُعسكر بجيشه في برزة، ومعه المنصُور صاحب حماة، وهذا كُلُّ شيء تمكَّن النَّاصر من فعله لمُواجهة خطر التَّتار، الذين اكتسحوا العراق، وتغلغلوا في الجزيرة، ورُبَّما وجد لنفسه عُذراً بأنَّه غير قادر عسكريَّاً على مُواجهة التَّتار، ولكنَّ السُّؤال المُهمّ هُنا: أَ لم يفكِّر بالاتِّفاق والتحالف مع المماليك في مصر ـ ولو مُؤقَّتاً ـ ضدَّ خطر مُشترك داهم؟! أم أن كُرهه لهم وحقده عليهم جعلاه يُضحِّي بنفسه وبالناس وبالبلاد؟! لكنْ؛ ومن طرف آخر، هل كان المماليك في مصر مُستعدِّين لهذا التعاون؟! أم أن حقدهم على النَّاصر وبني أيُّوب أعماهم عن مُلاحظة خطر التَّتار، وأن مصر ستكون واحدة من أهدافهم القريبة بعد الشَّام؟!

وكان آخر ما يحتاجه النَّاصر الثَّاني في مُعسكره ببرزة هُو اكتشافه لتآمر مماليكه الخاصكية ضدَّه، فقد علم أنَّهم يُريدون القبض عليه، وتولية أخيه مكانه، فسارع النَّاصر بالهرب من المُعسكر ليلاً نحو قلعة دمشق، وتحصَّن بها، ولمَّا علم مماليكه بهربه، وافتضاح أمرهم، ساروا نحو غزَّة،

1 ـ قُطز: لفظ مغولي يعني الشّرس، (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 72)، ـ رُبَّما كان الاسم مغوليَّاً، لكنْ؛ من المعروف أن السُّلطان قُطز تركي الجنسية، وهُو ثالث مُلُوك التُّرك بمصر، واسمه محمود ابن ممدود، ويُقال إنَّه قريب جلال الدِّين خوارزم شاه، وقد أُسر في حُرُوب التت، وبيع في دمشق للسُّلطان المُعزّ أيبك. (السُّلُوك، المقريزي، 2 / 741 ـ 435).

يُرافقهم بيبرس البندقداري، الذي اتَّصل من هُناك بالمُظفَّر قطز سُلطان المماليك الجديد في مصر، فدعاه للعودة، وأكرمه[1].

وأخيراً؛ فإنَّنا ـ بشكل عامٍّ ـ نستطيع أن نُلاحظ أنَّه بعدما ازداد اعتماد الأيُّوبيِّيْن على المماليك في الجيش ثُمَّ في الإدارة، وخاصَّة في عهد الصَّالح أيُّوب، ثُمَّ تمكَّن المماليك من تحقيق النصر على حملة لويس في المنصُورة عقب وفاة أيُّوب، أصبحت كلّ الدلائل تُشير إلى تنامي قُوَّة المماليك إزاء ضعف القُوَّة الأيُّوبيَّة، وخاصَّة في الجيش، فكان من الطبيعي أخْذهم السُّلطة بالقُوَّة التي امتلكوها. وكانت العلاقات بين سلطنة المماليك وبقايا الدولة الأيُّوبيَّة في الشَّام مُتوتِّرة على الدوام، وحتَّى نائبة التَّتار لم تكن كافية لتُقنعهم بتوحيد جُهُودهم ضدَّ عدوٍّ مُشترك.

سلاطين المماليك المُعاصرين للحُكْم الأيُّوبي في الشَّام:

1. شَجَر الدُّرّ. أرملة الصَّالح أيُّوب:(648 هـ 1250).
2. الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك:(864 ـ 657 هـ 1250 ـ 1257م).
3. الملك المنصُور نُور الدِّين علي بن آيبك:(655 ـ 657 هـ 7125 ـ 1259م).
4. الملك المُظفَّر سيف الدِّين قُطز:(765 ـ 658 هـ 9125 ـ 1260م).
5. الملك الظَّاهر رُكن الدِّين بيبرس:(865 ـ 676 هـ 1260 ـ 1277م).

1 ـ المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

الفصل الخامس

العلاقات الدّوليّة لمملكة سلاجقة الرُّوم

المبحث الأوَّل

دولة السلاجقة في بلاد الرُّوم

شكَّل السلاجقة واحدة من أكبر الـدُّول الإسـلاميَّة، التـي نتجـت عـن تجزئـة دولـة الخلافـة العبَّاسيَّة. وتعود بدايات الدولة السلجوقية إلى دُقاق أحد زعماء الأتراك، الذي كان يرأس قبيلة قنـق، التي ضمَّت قبائل الغزّ باتِّحاد قبلي[1]، عندما كانوا في نواحي كاشْغَر. وقام ولده سلجوق بـالنزوح إلى إقليم بُخارى المُسلم؛ حيثُ اعتنق مع قبيلته الإسلام السُّنيّ، وأخذ يغزو الـتُّرك الكُفَّـار. ولـمَّا حـاول السُّلطان محمود الغزنوي طَرْدَهُ انتصر عليه، واحتلَّ خراسان عام 431 هـ 1039م، وتابع ابنُهُ طغـرل بك التقدُّم غرباً، حتَّى استدعاه الخليفـة والقـادة الأتـراك إلى بغـداد عـام 447 هــ 1055م، فـسيطر عليها، وتحكَّم بالخليفة الضعيف القائم بأمر الله، الذي استبدل السيادة البويهية بالـسيادة الـسلجوقية، وهُناك؛ اتَّخذ طغرل بك ـ لأوَّل مرَّة ـ لقب سُلطان.

وقد رافق السلاجقةَ في رحلتهم تلك جُمُوعٌ هائلـةٌ مـن الأتـراك والـتُّركمان، تمكَّنـت في عهـد السُّلطان ألب أرسلان[2]، ومن ثَمَّ؛ في عهد ابنه ملكشاه[3]، من تشكيل دولتهم الكُبْرَى، التي امتـدَّت من أفغانستان حتَّى حُدُود دولة الرُّوم البيزنطيين غرباً، وحتَّى عسقلان على حُدُود مصر جنوباً.

وعندما هزم ألبُ أرسلان عام 463 هـ 1071م الجيشَ البيزنطيَّ، في معركة ملاذكُـرد، وأسر الإمبراطُور[4]، انفتحت آسيا الصُّغْرَى بكاملها أمام الأتراك. ولأوَّل مرَّة؛ تتحـرك الحُـدُود التقليديـة بين المُسلمين والبيزنطيين مئات الأميال إلى الغَرْب، ويبدأ الأتراك بعملية احتلال واستيطان مُـستمرَّة،

1 - زبدة التواريخ، الصدر الكبير، 113.
2 - السُّلطان ألب أرسلان: حَكَمَ عرشَ السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 3106 ـ 1072م.
3 - السُّلطان ملكشاه: حَكَمَ عرشَ السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 1072 ـ 1079م.
4 - راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 189.

حتَّى أطبقوا على كامل الأناضول، ومازالوا به حتَّى اليوم، بفضل قيام الدولة العُثمانية[1]. ومثـل كُـلِّ المَمالك الكُبْرَى جاء وقت تجزَّأت فيه مملكة السلاجقة، فاستقلَّ في الأناضول[2] ابنُ عمِّ ألب أرسلان، وهُو سُلَيْمان بن قتلمش بن سلجوق[3]، الذي احتلَّ نيقيه[4]عام 469 هـ 1077م، وجعـل عاصـمته في قونيه[5]عام 477 هـ 1084م. وكان قلج أرسلان[6] بـن سُـلَيْمان هُـو أوَّل مَـنْ تـصدَّى لطلائـع حملات الفرنجة في الأناضول عام 489 هـ 1096[7].

وتوارثت الأُسرةُ المُلْكَ في بلاد الرُّوم، حتَّى كانت وفاة السُّلطان ملك شاه الثَّاني[8]عام 485 هــ 1192م، فتولَّى السَّلطنة غياث الدِّين كيخسرو[9] الأوَّل[10] ابن قلج أرسلان الـثَّاني، ولكنَّـه في عـام 599 هـ 1203م، تعرَّض للهُجُوم من قبَل أخيه رُكن الدِّين سُلَيْمان، الذي حاصره في قونيـة، وأخـذها منه، فهرب غياث الدِّين، "وقصد الظَّاهر غازي صاحب حلب، فلـم يجـد عنـده قبـولاً"، وحـطَّ بـه الرحال ـ أخيراً ـ في القسطنطينيَّة[11]، فأحسن إليـه الإمبراطُـور البيزنطي، وزوَّجـه ابنـةَ أحـد وجهـاء البلاط. ولمَّا استولى الفرنجُ على القسطنطينيَّة عام 600 هـ 1204م، هرب كيخسرو إلى قلعة حَميِّه.

1 - تنتسب الدولة العُثمانية إلى عُثمان بن أَرْطُغْرُل بن سُلَيْمان، الذي أقام مملكته على أنقاض دولة سلاجقة الرُّوم، واستقلَّ في عاصمته يكي شهر، بعد مقتل آخر سلاطينهم بيد التَّتار عام 699 هـ 1300م، ثُمَّ أخذ يتوسَّع في الأناضول. راجعْ كتاب: تاريخ الدولة العلية العُثمانية، مُحمَّد فريد بك المحامي، 117 ـ 118.
2 - الأناضول: مُرتفعات آسيا الصُّغْرَى، وهي ما كان يُعرَف في العصر الأيُّوبي باسم بـلاد الـرُّوم، ونـسبة إليهـا سُـمِّي السلاجقة: سلاجقة الرُّوم، وأحياناً؛ الرُّوم.
3 - حول حياة هذا السُّلطان راجعْ كتاب: The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 43
4 - نيقيه: مدينة في آسية الصُّغْرَى قُرب القسطنطينيَّة.
5 - قونية: مدينة وسط الأناضول، جنوب أنقرة، يقول ياقوت: من أعظم مُدُن الإسلام بـالرُّوم، وبهـا قـبر أفلاطـون،(مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قونية)، والشهير فيها ـ الآن ـ قبر الصوفي والشاعر المولى جلال الدِّين الرُّومـي، صاحب الطريقة المولوية.
6 - حول حياة السُّلطان قلج أرسلان ـ Kilq Arslan راجعْ:
The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 50
7 - راجعْ كتاب: بلاد التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، زبيدة عطا، دار الفكر العَرَبي، القاهرة / بلا.
8 - ملك شاه الثَّاني: سُلطان سلاجقة الرُّوم، حَكَمَ في الفترة ما بين السنوات 1188 ـ 1192م. ـ راجعْ سلـسلة نـسب مُلُوك سلاجقة الرُّوم في الملاحق.
9 - كيخسرو: اسم فارسي من مقطعَيْن: كيا ـ خسرو.
10 - حول حياة السُّلطان KeyhÜsrev راجعْ:
The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 67
11 - اسمها القديم بيزنطة، بنى المدينة الجديدة الإمبراطُور الرُّوماني قسطنطين الكبير، ودشَّنها عام 330 م، فدُعيَتْ باسمه.

وتُوفِّي رُكن الدِّين سُلَيْمان الثَّاني عام **599** هـ **1203**م، فخلفه ابنه قلج أرسلان الثَّالث، ولكن الأتراك الأوج ـ وهم مُعظم قبائل تلك البلاد ـ لم يقبلوا به، واستدعوا غياثَ الدِّين، فدخل قونية عام **600** هـ **1204**م، واستقرَّ بها سُلطاناً لأتراك الأناضول، أو سلاجقة الرُّوم[1].

وفي هذه الفترة التي كانت تسود فيها أجواء الجهاد ضدَّ الفرنجة، ومُحاولات استنهاض همَم المُسلمين للدفاع عن مُقدّساتهم في فلسطين، نُلاحظ عدم وُجُود أيِّ فكرة لدى سلاجقة الرُّوم تخصُّ التضامن الإسلامي، علماً أنَّهم كانوا ـ وقتها ـ قليلي الانشغال بمُحاربة البيزنطيين[2]، وسنُلاحظ أنَّه لن يكون للدِّين أيُّ أثر بعلاقاتهم السِّياسيَّة، أو بتحرُّكاتهم العسكريَّة، التي بُنيت ـ أصلاً ـ على الجهاد ضدَّ البيزنطيين، واستخلاص الأرض منهم، وإعمارها بالأتراك، بل على العكس من ذلك؛ إذْ نجد أن وضعهم على الحُدُود البيزنطيَّة أخذ يسوده السلام، ومُنْذُ تولِّي كيخسرو السَّلطنة، ومع كُلِّ مشاكله مع أبناء البيت السلجوقي، نراه يلتفت للتدخُّل بقُوَّة وفاعلية باتِّجاه الجنوب الشرقي صوب الجزيرة، ومناطق السيطرة الأيُّوبيَّة.

فما هي دوافع كيخسرو في هذا الاتِّجاه؟! يعتقد بعضهم أن حالة الانقسام والتشرذم في الجزيرة، ووُجُود أعداد كبيرة من الأتراك والتُّركمان فيها، هي من أقوى دوافعه[3]، ويعتقد آخرون بوُجُود أطماع اقتصاديَّة لكيخسرو في سُهُول الجزيرة الخصبة، وللوُصُول إلى نهر الفُرات كشريان مُواصلات[4]. ولكنْ؛ قبل أن نُقرِّر يجب أن نُلاحظ أن العُنصُر التركي كان ينتشر في الجزيرة، وفي مساحات واسعة حولها، وصحيح أن إمارات الجزيرة مُتفرِّقة، لكنَّ حُصُونها منيعة، وتنتظم مُعظمُهَا في أحلاف عسكريَّة قويَّة، كما أن المناطق السهلية قليلة في الجزيرة العليا، ونهر الفُرات في أعاليه لا يصلح للملاحة. لكنَّنا نعتقد أن اندفاع كيخسرو بمُخطَّطاته التوسُّعية تجاه الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ حلب، وربَّما الشَّام بكاملها، كان بدوافع أُخرى، مهَّدتْ لها علاقة الوفاق والتقارب مع الإمبراطور

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 200، راجعْ: The Seljuks, Rice , P. 43.50 -

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 233.

4 - السياسة الأمنية، نورة باذياب، 671 ـ 675.

البيزنطي في نيقية، الذي لم يُشكِّل تهديداً لدولة السلاجقة، بقدر ما كان درعاً لها أمام دولة اللاتين في القسطنطينيَّة[1]، التي حرصت على تحقيق نوع من السلام بينها وبين سلطنة السلاجقة[2].

أمَّا الدافع الأكبر لكيخسر؛ فقد تجلَّى بسعيه لتحقيق حالة من التوازن في مملكته، بإقامة جناح شرقي لها يوازن به الجناح الغربي في آسيا الصُّغرَى، سُكَّانياً وعقائدياً وجغرافياً، وإنْ عجز كيخسرو وخلفاؤه عن تنفيذ هذا المُخطَّط، فقد نفَّذتْهُ الدولة العُثمانية، التي خلفت دولة سلاجقة الرُّوم بعد عقود من الزمن.

وهذا يُفسِّر لنا السياسة المُتأرجحة ما بين السِّلْم والحَرْب والتحالف والهُجُوم التي اتَّبعتها دولة سلاجقة الرُّوم مع الممالك الأيُّوبيَّة وممالك الجزيرة عامَّة من جهة، ومع الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة وإمارات الفرنج ودولة الأرمن من جهة أُخرى.

1 -Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 275 + 664

2 -Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 122

المبحث الثَّاني

بداية العلاقات الأيُّوبيَّة مع سلاجقة الرُّوم

عندما كان السُّلطان صلاح الدِّين يُوحِّد مصرَ والشَّام، ويُركِّز اهتمامه على مُحاربة الفرنج وتحرير الأرض، كان سُلطان سلاجقة الرُّوم في الأناضول، قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان[1]، يُوزِّع مملكته على بنيه العشرة، "فقوي كُلٌّ منهم في ثغره، واستقلَّ بأمره، ودبَّ في طبعه حُبُّ الاستيلاء والاستبداد، ومدّ عينيْه إلى ما في يد صاحبه من البلاد"[2].

كان أكبر هؤلاء الأبناء قُطب الدِّين ملكشاه، وهُو صاحب سيواس، "فهاجم قونيه عاصمة أبيه، وقتل أُمراءه، وأبقاه معه كالمُعتقل، واستكتبه أنَّه وَليّ عهده، والقائم بالسَّلْطَنَة معه، ومن بعده، وذهب لحصار أخيه سُلطان شاه في قيسارية، فتمكَّن الأب من الفرار إلى غياث الدِّين كيخسرو صاحب برغلو، فجمع له، وحشد، وسار معه إلى قونيه، فدخلها، ثُمَّ مات، فتولَّى غياث الدِّين فيها"[3].

ويبدو أن أبناء البيت السلجوقي ـ أثناء صراعهم ـ قد طلبوا تدخُّل السُّلطان صلاح الدِّين، فأرسل قاضيَ العَسْكَر ابنَ الفرَّاش يتوسَّط بين السُّلطان قلج أرسلان وأولاده، فتردَّد يُسفر بينهم سنة، وعاد[4]. وبعد وفاة صلاح الدِّين؛ كان يلوح في أُفق الشَّام أن ابنه الظَّاهر غازي صاحب حلب سيُشكِّل أكبر قُوَّة أيُّوبية شمالية، وفي عهده؛ تطابقت السياستان الحلبية والسلجوقية، وغلب على علاقتها التحالف والتعاون. وعندما هدَّد ليون ملك الأرمن أمنَ مملكة السلاجقة، بقُوَّته العسكريَّة وحُصُونه المنيعة، والأهمّ من ذلك تمكُّنه من فتح ميناء بحري على المُتوسِّط لاستقطاب التجارة العالمية[5]، قدَّم الظَّاهر غازي نجدة عسكريَّة قويَّة، فيها عدد من كبار أُمراء حلب، دعمت الجيشَ السلجوقيَّ في هُجُومه على مملكة الأرمن[6].

1 - قال ابن الأثير في أحداث عام 600 هـ: "تُوفِّي رُكن الدِّين سُلَيْمان بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سُلَيْمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب الرُّوم، بعد أن أخذ أنقرة من أخيه، وقتله، فاجتمع الناس على ولده قلج أرسلان بن سُلَيْمان، وكان صغيراً". (الكامل في التاريخ، 12/ 195).
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 426، ـ راجعْ التفاصيل في: بلاد التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، زبيدة عطا، 103.
3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 426.
4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 428.
5 - هُو ميناء إياس على البحر الأبيض المُتوسِّط، وكانت أهمّ أسباب الهجمات السلجوقية ضدَّ مملكة الأرمن هي أسباب اقتصاديَّة، فالتنافس على اجتذاب خُطُوط التجارة بينهما كان على أشدِّه. (السياسة الأمنية، نورة باذياب، 667).
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 187، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 111، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 188، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 112.

وإزاء هذا التحالف سارع ليون ملكُ الأرمن ـ الذي لم يكن غريباً عن معرفة توزُّع القوى السِّياسيَّة في المنطقة، وتناقضاتها ـ فاتَّصل بالملك العادل صاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الأكبر، فوجد العادل بهذا الطلب إقراراً بقُوَّته، وبفاعليَّتها على مُختلف الساحات، فأجابه، وراسل كيخسرو، الذي لبَّى طلبَ العادل، وعقد الصُّلح مع ليون بشُرُوط يستفيد منها كُلُّ الأطراف[1]، وعلى ما يبدو؛ كانت تلبية كيخسرو لطلب العادل توافق مصالحه، فقد حصل على كُلِّ ما يُريده من مملكة الأرمن، فلم يكن في نيَّته القضاء عليها، وهذه سياسة عامَّة سنراه يُطبِّقها مع الإمارات والممالك المُجاورة؛ إذْ يكتفي منها بالتبعية، ودفع الجزية، ورُبَّما يُفضِّلها على الاحتلال المُباشر.

كما أن مصلحة الظَّاهر غازي في تحقيق حالة سلْم مُستقرّ مع مملكة أنطاكية، لـتردِّي أوضاعها الدَّاخليَّة والعسكريَّة، وحتَّى يتفرَّغ لمُخطَّطات عمِّه العادل، قد انعكست على نتائج الحملة المُشتركة السلجوقية الحلبية ضدَّ الأرمن، ونراها واضحة في أحد شُرُوط المُعاهدة معهم؛ وهُو: ردّ الأرمن حصن بغراس للدَّاوية، وأنْ لا يتعرَّضوا لأنطاكية[2]. وإذا تمكَّن كيخسرو من تسوية كُلِّ المشاكل مع إمبراطُور القسطنطينيَّة اللاتيني هنري دي فلاندرز، فإنَّه ـ على ما يبدو ـ اضطرَّ أن يخوض معركة مع ثيودور لارسكارس[3] الإمبراطُور البيزنطي في نيقية، فانتصر كيخسرو، ولكنَّه قُتل أثناء مطاردة المنهزمين[4]. فخلفه أولاده الثلاثة: قلج أرسلان (Kilïj Arslan) أخذ السَّلطنة، وعزّ الدِّين كيكاوس (Kay-KäÜs) في ملطية، وعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ (Kubädh - Kay)[5] في توكات[6]، وسُرعان ما تفرَّغوا للصراع على التركة، ممَّا أربك سياسة الظَّاهر، الذي كان يعتمد على تحالفه مع مملكة السلاجقة بشكل أساسي، فحاول التدخُّل للصُّلح بينهما، لكنَّ جُهُوده كانت بلا جدوى[7].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629، ـ ونجد أن ابن العديم هُو المصدر الوحيد الذي ذكر شُرُوط هذه المُعاهدة.
3 - تدعو المصادر العَرَبيَّة هذا الإمبراطُور باسم الأشكري، تعريباً للقبه لاسكاريس.
4 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 1211
5 - علاء الدِّين قيقباذ الأوَّل: (616 ـ 634 هـ 1219 ـ 1236م)، وقيقباذ اسم فارسي من مقطعَيْن: كيا ـ قباد، وقد ورد الاسم لدى مُعظم المُؤرِّخين العَرَب بالذال المُعجمة، على عادة العَرَب بقلب كُلِّ دال فارسية إلى ذال مُعجمة، لذلك؛ آثرتُ رَسْمَهُ بهذا الشكل. وهُو ألمع سلاطين سلاجقة الرُّوم، قال عنه ابن العبري: " كان ممتازاً بين مُلُوك زمانه بمنظره المخيف، وذكائه المُفرط، وشخصه النّقيّ المُنزَّه عن كُلِّ الأهواء الرديئة، خلافاً لمُلُوك العَرَب المعتادين الانغماس فيها". (تاريخ الزَّمان، ترجمة: إسحق أرملة، 283).
6 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p 121
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 217.

وفي عام 613 هـ 1216م، أثناء اشتداد تخوُّف الظَّاهر غازي من عمِّه العادل، الذي سيطر على مصر ودمشق، وانفرد بأكبر قُوَّة أيُّوبية، راسل الظَّاهر كيكاوسَ بن كيخسرو، فأجابه، وخرج بنفسه يقود الجيش إلى أطراف الجزيرة، ليذهبا بحملة مُشتركة ضدَّ ملك الأرمن، الذي احتلَّ أنطاكية، وهُو ـ في الوقت نفسه ـ حليف للعادل، "فندم الظَّاهر، ورأى أن حفْظَ بيته أَوْلَى، وأن اتِّفاقه مع عمِّه أجمل"[1]، فما الذي جعل الظَّاهر يندم؟! هل هُو الخوف من وُقُوعه تحت سُلطة كيكاوس؟! أم شعر بأنَّه يحالف غريباً ضدَّ سُلطان البيت الأيُّوبي؟!

وفي الحقيقة نجد أن أقرب الاحتمالات إلى فكْر الظَّاهر غازي هُو الهاجس الذي كان يُسيطر على كُلِّ مُلُوك الأيُّوبيَّة وأُمرائهم، وله وجهان: الوجه الأوَّل، حُبُّ التملُّك والسُّلطة والوُصُول إلى السَّلطنة العُظْمَى إنْ أمكن، والوجه الثَّاني، الحفاظ على وحدة البيت الأيُّوبي، الذي يرون فيه ـ بالنتيجة ـ نوعاً من الحماية والأمن المُشترك. فراسل الظَّاهر عمَّه العادلَ يستميله، ويطلب منه أن يحلف له ولوَلِيِّ عهده.

وكان كيكاوسُ يحثُّ الظَّاهر على الخُرُوج، فضاق صدرُ الظَّاهر، فَرَأْيُ عمِّه العادل لم يصلْ بعدُ، فإنْ خرج يكون قد أفسد ما بينه وبين عمِّه، وإنْ رجع عن عزمه يُفسد ما بينه وبين كيكاوس. "وحاول الاعتذار للرومي بوجه جميل، ولشدَّة فكره مرض، ومات"[2]، فلاحت الفُرصة لكيكاوس لاستغلال الظُّرُوف الناجمة عن وفاة الظَّاهر غازي صاحب حلب، ومنها:

1 ـ وُجُود طفل صغير بالحُكْم في حلب.

2 ـ معارضة بعض أُمراء حلب لأتابكية طَغْريل لملك حلب الطفل.

3 ـ حقد كيكاوس على الظَّاهر غازي، فقد عدَّه مسؤولاً عن توريطه بالخُرُوج بحملة عسكريَّة ضدَّ الأرمن، ثُمَّ تخلَّى عنه، والتجأ لحلف عمِّه العادل.

5 ـ انشغال الملك العادل بهُجُوم الفرنج على دمياط، وجهده في تسيير النجدات من الشَّام إلى مصر.

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

6 ـ وُجُود مَنْ يُحبِّذ أتابكية الملك الأفضل لابن أخيه الظَّاهر من أُمراء حلب، والأفضل في طاعته كيكاوس، ويخطب له[1].

"لما مات الظَّاهر، وتولَّى ابنه العزيز وهُو طفل، وقع الطمع في بلاده، وَحَسَّنَ بعضُهُم للمَلك الغالب عزّ الدِّين كيكاوس بن كيخسرو سُلطان الرُّوم قصدَ حلب، وتملُّكها، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنَّه في طاعتكَ، ويخطب لكَ، والناس مائلون إليه"[2].

استدعى كيكاوسُ الأفضلَ من سُمَيساط، وأكرمه، وأقنعه أن يسير معه، ويُكاتب أُمراء حلب ليأخذها له، ويأخذ كيكاوس بلاد الأشرف. وكاتب كيكاوس علمَ الدِّين قيصر مُتولِّي قلعة دربساك، فسار إليه، وجاهر بالعصيان، ووافقه الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، وكذلك نزل إليه نجم الدِّين ألطنبغا الظاهري من بَهَسْنَا، وكان قد عصي بها[3].

وسار كيكاوسُ والأفضلُ فأخذا رعبان، وسُلِّمت للأفضل، ثُمَّ حاصر كيكاوس قلعة بَهَسْنَا[4]، ولَمَّا أخذت تلّ باشر، وهي من مملكة حلب، احتفظ بها كيكاوس لنفسه، "فنفرَ الأفضل، وقال: هذا أوَّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمملكة الأفضل، فلمَّا رأوا ذلك خافوا"[5].

ولَمَّا تحقَّق الأفضل من سُوء نيَّة عزّ الدِّين كيكاوس "أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمُرُور الزَّمان في غير فائدة، لئلا يتحصَّل مقصودة" [6]. وبالفعل؛ فإنَّه خلال الوقت الذي أضاعه كيكاوس، أمام منبج وغيرها، وصلت النجدات إلى حلب، ووصلها الملك الأشرف مُوسى بقُوَّاته

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265 ـ 266، ـ الطنبغا: هي ألتون بفا، لفظة تركية تعني الثور الذهبي، وهُو من أُمراء الظَّاهر غازي، زوَّجه إحدى سراريه، وولاَّه قلعة بَهَسْنَا، فاتَّفق مع كيكاوس، ونزل إليه ليُسلِّمه القلعة، فتسلَّمت زوجته القلعة، وعصيت بها، فعذَّبه كيكاوس أمام القلعة، ثُمَّ قتله، ولم تُسلِّم إليه، وبعد هزيمة كيكاوس؛ تسلَّم نُوَّابُ العزيز القلعةَ، وأنعم على زوجة الطنيغا وأولادها بإقطاع إعزاز (أخبار الأيُّوبيِّيْن ابن العميد، 10).
4 - يقول ابن العميد إن الذي نزل على قلعة بَهَسْنَا هُو كَيْقُبَاذ، (أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 10)، وهذا وَهْم.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 266.

التي كان يُهاجم بها أرضَ الفرنج، عند صافيتا وقلعة الحصن، ليمنعهم من إنجاد الفرنجة النازلين على دمياط[1].

إن حَرَكَة كيكاوس في هذا التوقيت الصعب بالنِّسبَة للأيُّوبية، عام **615 هـ 1218**م؛ حيثُ الفرنج يداهمون دمياط، رُبَّما تكون هي التي دفعت المُؤرِّخ أبو شامة لاتِّهام كيكاوس بتحريض الفرنج على غزو دمياط[2]، فأثناء نُزُول الفرنج على دمياط، واستنفار الكامل، وطلبه النجدة من مُلُوك الشَّام، والعادل في مرج الصفر يجمع العساكر، "ورد الخبر بحَرَكَة الملك الغالب كيكاوس السلجوقي سُلطان الرُّوم إلى البلاد الشَّاميَّة"[3]، وممَّا لا شكَّ فيه أن كيكاوس عرف بغزو الفرنج، واستغلَّ الفُرصة، ولم يُحرِّكه أيُّ وازع ديني لُمساعدة الأيُّوبيَّة، أو حتَّى للوُقُوف على الحياد، بل نجد أنَّه هجم يُريد اقتسام الغنيمة. "وكان كيكاوس يُريد المُلك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصُّل إليه"[4]. ثُمَّ سار كيكاوس، وفتح منبج، وأمام هذا الهُجُوم استنجد طَغْريل أتابك حلب بالعادل، الذي رغم اهتمامه الكبير بنجدة ابنه الكامل ضدَّ الفرنج في مصر، فإنَّه أوعز لابنه الأشرف بالتحرُّك لانجاد حلب، وانضمَّ إليه مانع ابن حديثة أمير العَرَب.

"فلمَّا سمع عزّ الدِّين كيكاوس بذلك، وكان بمنبج، ولَّى منهزماً، وقد ملأ الرعب قلبه، ورحل الأشرف متبعاً له، يتخطَّف أطراف عسكره، فأخذ تلّ باشر، ورعبان، وتلّ خالد، وبُرج الرصاص، وأعطى الجميع لابن أُخته الملك العزيز"[5]. "وسيَّر كيكاوس ألف فارس هُم نخبة عسكره، فوقع عليهم العَرَب، واستباحوهم قتلاً وأسراً، فهرب كيكاوس"[6]. وبعد أن استردَّ الملك الأشرف كُلَّ البلاد عاد دُون أن يستثمر انتصاره، وذلك لوُصُول خبر موت أبيه السُّلطان العادل[7]،

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.
2 - أبو شامة ، ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 112.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.
7 - بغية الطلب، ابن العديم، 1/ 105، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263، والمنصُوري، ابن نظيف، 74.

وفي الحقيقة؛ نستطيع أن نستنتج أنَّه كان هُناك أكثر من سبب لعودة الأشرف عن مطاردة كيكاوس بعد هزيمته، وليس موت العادل فقط، منها:

1 ـ لم تكن الهزيمة كاملة لكيكاوس، فمُقدِّمة جيشه ـ فقط ـ هي التي هُزِمَتْ، ورُبَّما تكون صُورة الرُّعب التي صوَّر بها بعض المُؤرِّخين تراجُعَ كيكاوس مُبالغاً فيها، فالأشرف لم يجرؤ على الاصطدام بجيش كيكاوس، الذي لم تمسّه الهزيمة، بل كان يقوم بأعمال عسكريَّة محدودة خلف خطِّ تراجع كيكاوس، بأنْ يتخطَّف المُتخلِّفين، وأطراف العَسْكَر.

2 ـ الأخبار الواردة من مصر عن أَخْذ الفرنج لدمياط؛ الثغر الاستراتيجي لمصر، وإمكانية تقدُّمهم داخل البلاد المصريَّة، ورُبَّما للشام، ولا أدري ما هُو سند المُؤرِّخ الدمشقي أبو شامة، أو مصادره، عندما اتَّهم كيكاوس بأنَّه "هُو الذي أطمعَ الفرنج في دمياط"؟![1].

وفي عام **611** هـ **1214** م، عوَّض عزّ الدِّين كيكاوس تراجُعَهُ عن الجزيرة وحلب بظفره بعدوِّه القديم الأشكري[2] قاتل أبيه غياث الدِّين كيخسرو، فقد أمسك به جماعة من التُّركمان أثناء خُرُوجه للصيد، وحملوه إلى كيكاوس، ففدى نفسه بأموال طائلة، "وتسليم قلاع وبلاد لم يملكها المُسلمون قبل ذلك قطُّ"[3].

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 113، ـ وقد وهمت د. باذياب؛ حيثُ اعتقدت أن أبو شامة اتَّهم كَيْقُبَاذ،(السياسة الأمنية للسُّلطان كَيْقُبَاذ، د. نوره باذياب، 681)، بينما هُو ـ في الحقيقة ـ قد اَّتهم كيكاوس، مع أن نصَّ أبي شامة واضح؛ إذْ يقول في أحداث عام 615 هـ : "وكانت وفاة كيكاوس في شوَّال، وهُو الذي أَطْمَعَ الفرنج في دمياط". راجعْ: السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الأوَّل، وأثرها على التقدُّم الاقتصادي لبلاده، د. نوره عبد الله باذياب، مجلَّة المُؤرِّخ العَرَبي، العدد الثَّامن، المجلَّد الأوَّل، مارس 2000، اتِّحاد المُؤرِّخين، القاهرة.
2 - اللَّشكري: أو الأشكري هُو يثودور لاسكاريس، ثاني أباطرة البيزنطيين في نيقية، وقد أسَّس هذه الدولةَ الإمبراطُور قسطنطينُ الحادي عشر عام 1204م 600 هـ، عندما استولى اللاتين على القسطنطينيَّة في الحملة الرابعة، وخلفه ثيودور الأوَّل لاسكاريس (4120 ـ 1222). وتمكَّن خلفه ميخائيل الثَّامن عام 1261م، من العودة إلى القسطنطينيَّة، وطرد اللاتين منها.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 225.

المبحث الثَّالث

العلاقات في عهد السُّلطان كَيْقُبَاذ

تبدَّلت سياسة سلاجقة الرُّوم تجاه الأيُّوبيِّيْن بعدما مات كيكـاوس عـام 615 هـ ـ 1218[1]، وخلفه أخوه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ[2]، الذي راسل الملك الأشرف، واتَّفق معه[3]، ضـمن سياسـة حـلِّ المشاكل مع الأقوياء، والتفرُّغ للضُّعفاء. فقد حلَّ كَيْقُبَـاذ مـشاكلَهُ مـع الأشرف، ومع عمِّـه طغـرل شاه[4] صاحب أرزن الرُّوم[5]، وعدل عن سياسة سلفه ذات المُيُول للتوسُّع جنوباً نحو حلـب، ومـدّ أنظاره شرقاً نحو أملاك الأراتقه في آمد. ورُبَّما كان الدافع الكبير وراء سياسة كَيْقُبَـاذ هُـو خوفـه مـن الخطر الخوارزمي، فجلال الدِّين منكبرتي يكتسح ممالك الشَّرْق، ويتقدَّم غرباً، وقـد مـدَّ نُفُـوذه نحـو الجزيرة وأطراف الأناضول بتحالفه مع الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، ضمن حلف ضمَّ المُعظَّم بدمشق، ومُظفَّر الدِّين في إربل[6].

وصادفت تلك السياسةُ هوىً في نفس الأشرف، الذي كان في ذروة صراعه مع أخيـه المُعظَّـم وحُلفائه، وفي عام 623 هـ 1226م، طلب الأشرف من كَيْقُبَاذ أن يقصد آمـد، فوجَّـه إليهـا جيشه، وفتح بعض الحُصُون حولها، ممَّا اضطرَّ صاحبها الصَّالح الأرتقـي أن يـتخلَّى عـن حُلفائـه، ويلتجـئ للملك الأشرف، الذي طلب من كَيْقُبَاذ الكفَّ عن آمد، وردَّ ما أخذ من حُصُونها، ولكن علاء الدِّين كَيْقُبَاذ "امتنع، وقال: ما كُنتُ نائباً للأشرف يأمرني مرَّة، وينهـاني في أُخـرى"[7]، و أراد الأشرف أن يحفظ ماء وجهه مع صاحب آمد، فأرسل إليه نجدة عسكريَّة لمُساعدته في فـكِّ حـصار جيش عـلاء

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 113.
2 - 616 ـ 634 هـ/ 1219 ـ 1236م.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.
4 - مُغيث الدِّين طغرل شاه بن قلج أرسلان.
5 - أرزن الرُّوم: بلدة من أرمينية أهلها أرمن، وهي ـ الآن ـ ولاية ونـواح واسـعة كثـيرة الخـيرات. (مُعجـم البُلـدان، ياقوت الحموي، مادَّة :أرزن الرُّوم)، وهي آخر حَدِّ بلاد الرُّوم من جهة الشَّرْق.(كتـاب الجَغرافيـة، المغـربي، 187)، وبها منبع الفُرات من شرقيها وشمالها. (تقويم البُلدان، أبو الفـداء، 385)، ويُقـال لهـا:(Erzurum) أو أرضروم؛ راجعْ: Pre Ottoman, Clud Cahen, p 125
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202 ـ 203.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203.

الدِّين عن قلعة الكختين، ومـع ذلـك؛ انتـصر جـيش عـلاء الـدِّين، واسـتولى عـسكر الـرُّوم عـلى الكختين[1]، ولم يستطع الأشرف أن يفعل أكثر من ذلك، فمُعظم عساكره قد توجَّهت نحـو حمـص؛ نجدة لها من هُجُوم المُعظَّم[2].

ويبدو أن الأشرف لم يردْ أن يُوسِّع الفجوة مع كَيْقُبَاذ، في وقت لا ينقصه فيه الأعداء، فعاد إلى حَرَّان مُحاولاً تهدئة الأُمُور مع كَيْقُبَاذ، ورُبَّما لم يكن كَيْقُبَاذ نفسه يرغب بفتح جبهة مع الأيُّـوبيِّيْن، مـع أنَّه يُدرك ضعفهم، فتجاوز الأشرف، وتوجَّه إلى سُلطان البيت الأيُّوبي الملـك الكامـل مُبـاشرة. ففـي عام 623 هـ 1226م، قدِم رسول كَيْقُبَاذ بهدية جليلة إلى الملك الكامل[3]، ونستطيع أن نعدَّها تعبيراً عن حُسن النيَّة، ومدّ جسور الصداقة مع الملك الكامل والأيُّوبية عموماً، خاصَّـة؛ بعـد تحقيـق نـصر دمياط. وقد استمرَّت السياسة السِّلْمية التي اتَّبعها كَيْقُبَـاذ، حتَّـى أدَّت إلى قيـام سـلْم قلَّـما شـهدت المنطقة مثيلاً له، ويدُّلنا عليه تجمُّع رُسُل الخليفة، ورُسُل الملك الأشرف، ورُسُل الملك المُعظَّم، ورُسُل الملك المُجاهد، ورُسُل أتابك حلب عام 624 هـ 1227م، في وقـت واحـد، في بـلاط عـلاء الـدِّين كَيْقُبَاذ[4]. ورُبَّما كان من أحد أهمِّ أسباب هذا السِّلْم هُو الخطر الخـوارزمي الـذي يلـوح في الـشَّرْق، ولتأكيد حالة السِّلْم هذه تدخَّل كَيْقُبَاذ حتَّى بين مُلُوك البيت الأيُّوبي، مُحـاولاً منـع الخلافـات بيـنهم، فعندما تحرَّك المُعظَّم نحو حمص في عام 624 هـ 1227م، بعد اتِّفاقـه مـع جـلال الـدِّين الخـوارزمي ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، أرسل كَيْقُبَاذ رسولاً عالي المُستوى هُو المهمنـدار[5] نجـم الـدِّين إلى الملـك المُجاهد يحمل جواب رسالة كان المُجاهد قد أرسلها إلى كَيْقُبَاذ، ويبدو أنَّه ـ بعد الاتِّفاق السَّابق عنده ـ أرسل المُجاهد يُخبره بتحرُّك المُعظَّم ضدَّه، فأوفد المهمندار إلى الملك المُعظَّم، وخلال مُرُوره في حمص نحو دمشق "اجتمع به السُّلطان الملك المُجاهد في جواب رسالته، وفاوضه، وقال: قـد وصـلت مـن صاحبي في قضاء شغلك مع المُعظَّم، وإزالة اعتراضه عـلى جميـع مالـك"، وصـادف وُصُـوله تحـرُّك

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 3/ 344.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 143.
5 - المهمندار: هُو مَنْ يتلقَّى رُسُلَ السُّلطان الواردة، ويُنزلهم في دار الضيافة (صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 459).

طلائع المُعظَّم نحو حماة، وتصدَّى المُجاهد لها، وردَّها خاسرة[1]. وكما كان لعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ مُخطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة الخارجيَّة كانت له ـ في الوقت نفسه ـ مُخطَّطاته ضمن البيت السلجوقي في الأناضول، ففي عام **625 هـ ـ 1228م**، استولى كَيْقُبَاذ على أرزنكان[2]، ثُمَّ بدأ يُحضِّر للهُجُوم على أرزن الرُّوم، وبها ابن عمِّه طغرل شاه بن قلج أرسلان، الذي خاف وأعلن تبعيَّته للملك الأشرف، واستنجد بنائب الأشرف في خِلاط. فسار الأمير حُسام الدِّين بن أبي علي نائب خِلاط بعساكره، التي كان قد جمعها تحسُّباً لحركة كَيْقُبَاذ، فقد كان يُدرك أن الهدف الثَّاني لكَيْقُبَاذ بعد أرزن هُو خِلاط، فتقاعس كَيْقُبَاذ عن قصده، وفشلت مُخطَّطاته[3].

وفي عام **625 هـ ـ 1228م**، اتَّفق الملك الأشرف والسُّلطان الكامل على أَخْذ دمشق من ابن أخيهما داود بن المُعظَّم، ولمَّا تمَّ لهما الأمرُ، تسلَّمها الملك الأشرف مُقابل عدَّة مناطق من الجزيرة تسلَّمها السُّلطان الكامل، فدخل الكامل ـ بذلك ـ ميدان السياسة الجزرية، وأعقب هذا الدُّخول السِّياسي تحرُّك عسكري، كان له نتائج كبيرة على سلطنة الأيُّوبيِّيْن، وعلاقاتهم ببعضهم البعض. وأبعدت تلك التسويةُ الملكَ الأشرف عن ميدان الجزيرة، وجعلتها آخر اهتماماته، وقرَّبت الكاملَ من حُدود سلطنة سلاجقة الرُّوم، ومهَّدتْ لعلاقة تحالف بينه وبين كَيْقُبَاذ، ثُمَّ أعقب التحالف قيام أكبر حملة أيُّوبية على بلاد سلاجقة الرُّوم.

فبعد دُخول الملك الكامل عالم الجزيرة، عام **626 هـ ـ 1229م**، قام صاحب ماردين بإعلان خُروجه عن طاعة كَيْقُبَاذ، وخطب للسُّلطان الكامل في بلاده، وضرب السِّكَّة باسمه[4]. وفي الوقت نفسه كان رسول حُسام الدِّين صاحب أرزن الرُّوم يُرسل هداياه للأشرف، ويعتذر عن تحالفه مع

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 146.
2 - أرزنجان: بلدة طيِّبة مشهورة، كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينية قريبة من أرزن الرُّوم، وغالب أهلها أرمن. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أرزنجان)، وهي تقع على ضفَّة الفُرات اليمنى. (تقويم البُلدان، أبو الفداء، 385)، كان يحكمها بنو منكوجك، وهم أُسرة تركمانية، كوَّنت إمارة لها غرب الفُرات في أرزنجان وعدَّة بلدات حولها، حكمها فخر الدِّين بهرام شاه، ثُمَّ خلفه ابنه علاء الدِّين داود شاه، وظلُّوا يخضعون لسلطنة سلاجقة الرُّوم، حتَّى احتلَّ كَيْقُبَاذ بلادَهُم في عهد داود، الذي كان عالماً بالطِّبِّ والفَلَك، بعيداً عن أُمُور السياسة والحَرْب. راجعْ: ابن بيبي، مُختصر سلجوق نامة، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 143. و
Pre Ottoman, Clud Cahen. p 126
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480 ـ 479.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 188.

كَيْقُبَاذ[1]. إن هذه المواقف المُتردِّدة وغير المُستقرَّة للضُّعفاء في تحالفهم مع الأقوياء كانت تهدف لكسب أكبر قدر من الوقت في الحُكْم، بعيداً عن خطر الاجتياح، فلم تكن لمُعظم الأُمراء في الجزيرة سياسة ثابتة، ولا ولاء دائم، حتَّى مع أقرب الأقرباء، وهُنا ينطبق القول: لا عدوّ دائم، ولا صديق دائم، في السياسة، وإنما مصلحة دائمة.

ولكنْ؛ إن استطاعت هذه السياسة المُتقلِّبة مع القوى الكُبْرَى أن تمنح الضُّعفاءَ بعضَ الوقت، فلن تتمكَّن من منحهم كُلَّ الوقت، في عام **627 هـ ـ 1230م**، انضمَّ صاحب أرزن ديار بكر ـ في آخر تقلُّباته السِّياسيَّة ـ للقُوَّة الوافدة الجديدة المُتمثِّلة بجلال الدِّين الخوارزمي، أثناء غزوه للجزيرة، ولمَّا هُزم الخوارزمي، وهرب، قام الأشرف مُوسى بمُحاصرة أرزن الرُّوم، وفتحها، وأخذ صاحبها، وسلَّمه إلى ابن عمِّه كَيْقُبَاذ، فبقي مسجوناً عنده حتَّى مات في سجنه، وسلَّم الأشرف أرزنَ وجميعَ بلادها إلى نُوَّاب كَيْقُبَاذ[2].

التحالف الأيُّوبي السلجوقي:

وعندما داهم الخطرُ الخوارزميُّ الجزيرةَ عام **627 هـ ـ 1230م**، اضطرَّ الملك الكامل وعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ لتوثيق تحالفهما لمُواجهته، فأرسل كَيْقُبَاذ مَنْ أخذ يمين الكامل على التحالف والمصافاة والنصرة، وكذلك أرسل السُّلطان الكامل رسولَيه: الشهاب أحمد[3]، وجمال الدِّين أبا القاسم عبد الرحمن السكندري[4]، فحلَّفا كَيْقُبَاذ للكامل. وأرسل كَيْقُبَاذ يُخبر الكاملَ أنَّه وجَّه "خمسة عشر ألف فارس إلى أرزنجان، وعشرة آلاف إلى ملطية[5]، وأنَّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلبُ الكامل بذلك، وكان مُهتمَّاً من أمر الخوارزمي"[6]، فقد هاجم جلالُ الدِّين مدينةَ خِلاط، واحتلَّها عام **627 هـ ـ 1230م**، وكانت تتبع للملك الأشرف مُوسى.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 175.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 300، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 299.
3 - الشهاب أحمد: من المُقرَّبين للملك الكامل، تُوفِّي عام 634 هـ ـ 1236م.
4 - الجمال السكندري: تُوفِّي عام 651 ـ 1253م.
5 - ملطية: من بلاد الرُّوم مشهورة مذكورة، وهي تُتاخم الشَّام (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ملطية). وراجعْ: التعريف بالمُصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، 437، وكتاب الجَغرافية، المغربي، 219.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 195 ـ 196.

كان الكامل بحران، وعندما نزل إلى الرقَّة بلغه فيها أَخْذ جلال الدِّين الخوارزمي خِلاط، وبلغ ذلك الأشرف وهُو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتى الرقَّة، فوصلهم رسول كَيْقُبَاذ ومعه نصُّ الرسالة التي وجَّهها إلى جلال الدِّين الخوارزمي، وهي كما دوَّنها ابن نظيف في تاريخه ضمن أحداث عام 627 هـ، قال: "أورد الكمال كيار رسالة الرُّومي التي كان سيَّرها إلى الخوارزميُّ إلى الكامل الأشرف، وهي أنَّه قال له:

المولى من بيت كبير، ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيَّر والدكَ نيَّته، وخبط على نفسه، وآل به الحال إلى ما آل، والآن؛ قد فضَّلتَ هؤلاء بيت أيُّوب، وتجنَّيتَ عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصَّل من سنين، ولهم الإحسان إلى الجُند والرعايا والمُجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقُوَّة، وأنت، فلا أموال، ولا رجال، ولا قُوَّة، وبلادكَ خربة، ونحنُ نعرف حالكَ أكثر منكَ، ولا تظنّ أني عدوّهم، لا، والله، بل صديقهم، ونسيبهم، بما بيننا من الأهلية، والمُصاهرة، واختلاط الدّم، ولعمِّي مُعزّ الدِّين، منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولا شكَّ جرى بيننا قضيَّة عاتبتهم عليها، وعدنا إلى ما كنَّا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحكَ، فتُصالحهم، وتعتدّ بهم أصدقاء، فنحنُ نعرف ما وراءك من الأعداء، يُعينونكَ على عدوِّكَ، ويقع الاتِّفاق، وشأنك وشأن الكرج، وغيرهم، وهذا نُصحي لكَ، فلا تغترَّ بمَنْ يُكاتبكَ، ويحلف لكَ، فكُلُّه زُور، وتدفيع للأوقات، وقد ـ والله ـ قُلتُ جميع ما يلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجواب أنْ قال لرسولي: عُدْ إلى صاحبكَ، والجواب يصل مع قاصدي"(1).

ونُلاحظ على رسالة كَيْقُبَاذ للخوارزمي ما يلي:

1 ـ أنَّها إحدى الرسائل السِّياسيَّة القليلة التي تحتوي موضوعاً بهذه الأهمِّيَّة، ووصلتْ إلينا، أو أنَّه بسبب الترجمة وصل إلينا فحواها، من خلال مُؤرِّخ كان مايزال ـ وقتها ـ يشغل منصب كاتب ووزير الملك الحافظ بن العادل(2)، الذي كان حاضراً مع أخوَيْه الكامل والأشرف أثناء تسليم الرسالة(3).

2 ـ بعد أن تستعرض الرسالةُ واقعَ البيت الخوارزمي، وتُعدِّد مآثرَ البيت الأيُّوبي، وعراقته، يُحدِّد كَيْقُبَاذ موقفَهُ السِّياسي من الأيُّوبيِّين، ونستشفُّ أنَّه يملك خطَّاً استراتيجياً بعيد النظر من خلال وصفه لهذه العلاقة، ولكنَّه ـ للأسف ـ تراجع عنها بعد سنوات قليلة، واشتبك مع الأيُّوبيِّين.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 197 ـ 198.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 174.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 197.

3 ـ الأهمِّيَّة القُصْوَى لهذه الرسالة تتجلَّى باقتراح كَيْقُبَاذ على الخوارزمي صداقةَ الأيُّوبيِّين، لتشكيل حلف يستطيع أن يقف وراء الخوارزمي في مُقاومته للتَّتار، وبالتَّأكيد؛ يكون كَيْقُبَاذ فيه طالما هُو الذي اقترحه.

4 ـ يُنبِّه كَيْقُبَاذ جلالَ الدِّين أن هُناك أعداء خارج الدولة الإسلاميَّة، بإمكانه التوسُّع نحوهم، كالكرج، وغيرهم، بينما لم يتقيَّد كَيْقُبَاذ نفسه بذلك، فقد هاجم مُمتلكات الأيُّوبيِّين، وأمامه البيزنطيون، والكرج.

5 ـ نُلاحظ إدراك كَيْقُبَاذ الواقعَ السِّياسي لأُمراء الجزيرة والشَّام، وصَغَارهم، لتآمرهم، وتحريضهم الأعداءَ على بعضهم البعض، وحلفانهم الأيمان الباطلة. ويُنبِّه جلال الدِّين لعدم الاغترار بأقوالهم، والاعتماد على أكاذيبهم، وسيعود كَيْقُبَاذ بنفسه للعب السياسة معهم، بطريقتهم التي انتقدها، وكأنَّه لا يعرفهم. ويبدو أن كَيْقُبَاذ قد أدرك أن الخوارزمي لن يقبل بما نصحه به، لذلك وجَّه مُباشرة رسالة خاصَّة إلى الملك الأشرف يقول فيها:

"تحضر إلى عندي، لنتَّفق على هذا الذي أضرَّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"، فشاور الملكُ الأشرفُ أخاه السُّلطانَ الكاملَ على ذلك، فوافق(1)، وردَّ الأشرف في جوابه قائلاً لرسول كَيْقُبَاذ: "أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته"(2). وفعلاً؛ اجتمعا بسيواس "وبالغ الأشرف في خدمة الرُّومي؛ بحيثُ أنَّه كان يبوسُ له الأرض، فما يخدمه الرُّومي على ذلك، وتعاظم عنهم الرُّومي تعاظماً زائداً بحماقته"(3). إن هذا التذلُّل من الأشرف والتكبُّر من كَيْقُبَاذ يدلُّنا على الحالة العسكريَّة المتردِّية للأشرف أمام هُجُوم الخوارزمي، وعظيم حاجته لدعم كَيْقُبَاذ، الذي أدرك ذلك، واستغلَّه غاية الاستغلال. لكنْ؛ بما أن الأُمُور بخواتيمها، فقد سار الأشرف وكَيْقُبَاذ بقُوَّاتهما "إلى جهة خِلاط، والتقى الفريقان، فولَّى الخوارزميُّون وجلالُ الدِّين منهزمين"(4)، وتمكَّن الأشرف ـ نتيجة هذا النصر ـ من استعادة خِلاط.

1 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 299.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 203.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 205.
4 - المُختصر، أبو شامة، 3/ 146.

الصراع العسكري بين الأيُّوبيَّة والسلاجقة:

أدَّى التحالف بين الأشرف ومعه الأيُّوبيَّة وبين كَيْقُبَاذ وسلاجقة الرُّوم إلى تحقيق نصر لم يكن ليحلم به أيُّ طرف مُنفرد منهما، وستكون هذه الحَرْب المُشتركة سبباً لحرب قادمة بينهما، فبعد أن اطَّلع أُمراء جند الشَّام - أثناء توافدهم إلى سيواس في بلاد سلاجقة الرُّوم - على قُوَّة السلاجقة، وحصانة معاقلهم، استضعفوها، ووصفوا ذلك للسُّلطان الكامل، الذي وافق ذلك مُخطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة[1]، خاصَّة؛ بعد أن عقد اتِّفاقه مع الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، وأَمن جبهة فرنج الشَّام، وأخذه دمشق، واستتباب الأمر له في الشَّام والجزيرة. وفي الوقت نفسه؛ يبدو أن كَيْقُبَاذ كانت له حساباته الخاصَّة لتقييم الوضع العسكري، فقد شجَّعه زوال الخطر الخوارزمي وملاحقة التَّتار لجلال الدِّين، ورُبَّما أراد كَيْقُبَاذ امتحان قُوَّة الخَوَارزميَّة الذين استخدمهم بعد هزيمة جلال الدِّين، واستغلال غياب الأشرف عن ساحة الجزيرة، وانشغاله بمَلاذِّه في دمشق[2]. وكما هُو مُتوقَّع، فالصدام بين السُّلطان الكامل، بعد امتداد أملاكه إلى الجزيرة، وبين كَيْقُبَاذ الرُّومي، بدأ مُبكِّراً؛ لأن كلاً منهما كان يعتقد أن قُوَّة الآخر خطر مُباشر عليه. فالكامل يعدُّ كَيْقُبَاذ قُوَّة خارجية غريبة عن الجزيرة، يجب إبعادها، وكذلك كَيْقُبَاذ كان يعدُّ الكامل قُوَّة غريبة عن المنطقة، مجالها مصر، وتواجدها في الجزيرة غير مرغوب فيه.

ولمَّا سنحت الأسبابُ المُباشرة للصدام، لم يتوانَ الفريقان عن استغلالها، ففي عام 629 هـ بعد أن فتح الكاملُ آمدَ أخذ يتسلَّم القلاعَ التي حولها، فأفسد عليه كَيْقُبَاذ قلعتَيْ كرفازاك وكرر، فغضب الكاملُ عليه، وطلب وساطة الأشرف، باعتباره حليفاً لكَيْقُبَاذ، فما نفعت وساطته. وازداد حنق الكامل على كَيْقُبَاذ لمنعه التُّركمان من القُدُوم إلى أراضيه لبيع مُنتجاتهم من الأغنام والغلال[3]، ويبدو أن هذا التحرُّك للتركمان كان له مردود اقتصادي كبير على المنطقة.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 74، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 234.
2 - المُختصر، أبو شامة، 3/ 154.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 240 - 242.

وتطوَّرت الأُمور العسكريَّة بشكل خطير عندما هاجم كَيْقُبَاذ عام 630 هـ 1233م، بلدة خِلاط، واحتلَّها، وقام بعمارتها، ونقل إليها الفلاَّحين، وزرعها[1]، وهذا فعل مَنْ يرغب بالاحتفاظ بها. فبدأ القلق في الجزيرة، وخاصَّة بعد أن أخذ كَيْقُبَاذ عدداً من القلاع والمناطق ما بين خِلاط وآمد، وحاصر حَرَّان والرُّهَا والرقَّة، واستولى على مناطق واسعة في الجزيرة[2]، وكان عند كَيْقُبَاذ عدد من أُمراء العَسْكَر الشاميين الفارين، يدلُّونه على المواقع، ويدعمونه بالرأي[3]، إضافة إلى أن تحرُّكه العسكري كان بمُشاركة فعَّالة من حليفه صاحب ماردين[4].

وخاف صاحب خرتبرت من أطماع كَيْقُبَاذ، فأرسل إلى نائب الملك الكامل في آمد الخادم صواب العادلي يطلب تحسين العلاقة بينهما[5]. أمَّا الملك الأشرف، صاحب خِلاط وصاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الأكبر في الجزيرة، الذي كان بعيداً عن الساحة الجزرية، يُقيم في دمشق، ينعم بجنَّاتها وثمارها؛ فعلى ما يبدو شعر بضعفه أمام كَيْقُبَاذ، وأدرك أن الأمر سيكون أكبر من استطاعة قُوَّاته إذا حصل صدام عسكري مُباشر، وحتَّى بعد إنجاده بقُوَّات من مصر سيكون النجاح غير مضمون، ولكنْ؛ يبدو أنَّه قدَّر الخطر السلجوقي حقَّ قدره، ولابُدَّ من أنَّه راسل السُّلطانَ الكاملَ، وشرح له الحال، وخوَّفه من كَيْقُبَاذ، حتَّى قرَّر الكامل التَّوجُّه بقُوَّاته إلى الشَّام، ومنها نحو الجزيرة.

كان التحرُّك السِّياسي لكَيْقُبَاذ يواكب تحرُّكه العسكري، ولا يقلُّ عنه أهمِّيَّة، فنجد أنَّه أرسل عام 631 هـ 1233م، رسولاً إلى الملك المُجاهد في حمص[6]، ومع أن المُجاهد هُو الأكثر قابلية للتفاوض معه لتفشيل الحلف الأيُّوبي، لأنَّه الأبعد في القُربى بين الأخوة أبناء العادل، ولأن تطلُّعاته لا تخفى على أحد، ولكنْ؛ هل هُو الوحيد الذي راسله كَيْقُبَاذ؟ لا نعتقد ذلك، فغالباً كان له تحرُّك سياسي نشط، وأن رُسُلَهُ توجَّهت إلى أكثر من أمير وملك أيُّوبي، ولكن التاريخ لم يُرْزَق بمُؤرِّخ من داخل قُصُورهم يُدوِّن ما حدث كما فعل ابن نظيف الكاتب في بلاط الملك المُجاهد. ومع أنَّنا لم نعرف

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 255.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 255.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 262.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

رِدَّ الملك المُجاهد على كَيْقُبَاذ، فإنَّنا نستطيع أن نتوقَّع أنَّه راوغ، وردَّه بلطف، فقد تحرَّك السُّلطان الكامل نحو الشَّام، وطلب من مُلُوكه وأُمرائه موافاته بقُوَّاتهم للتصدِّي لكَيْقُبَاذ، ولم يتأخَّر الملك المُجاهد عن الالتحاق به.

تمكَّن السُّلطان الكامل في حملته تلك من تحقيق أوسع تحالف سياسي عرفته الممالك الأيُّوبيَّة، وجمع أكبر قُوَّة عسكريَّة لها مُنْذُ موت السُّلطان صلاح الدِّين[1]، وقد تميَّزت النجدات بحُضُور المُلُوك والأُمراء بأنفسهم مع قُوَّاتهم، فاجتمع في عسكره ستَّة عشر ملكاً"[2]، ما عدا العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، الذي وجد نفسه في موقف لا يُحسَد عليه، فقد كان مُحرجاً بين حليفه الرُّومي كَيْقُبَاذ وسُلطان الأيُّوبيَّة الكامل، فأرسل كَيْقُبَاذ للعزيز يقول: "أنا راض منكَ بأنْ تمدَّه بالأجناد والأموال، على أنْ لا تنزل إليه أبداً"[3]، ويبدو أنَّ الكامل ـ أيضاً ـ رضي منه بذلك، فأعفاه من النُّزُول بنفسه[4]، فأرضى العزيز القُوَّتين المُتحاربتَيْن، ولم يخسر أيّاً منهما، فكلاهما مُقدِّر لموقفه.

وبعد تجمُّع الجُيُوش؛ اتَّضح أن السُّلطان الكامل قد اتَّخذ من هُجُوم كَيْقُبَاذ على خِلاط ذريعة لتنفيذ مُخطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة، التي كانت تنقسم إلى قسمَيْن:

ـ الأوَّل: توحيد البيت الأيُّوبي، والاستفادة من قُوَّاته المُجتمعة لإلحاق هزيمة شاملة وكاملة بسلاجقة الرُّوم، وأَخْذ بلادهم.

ـ الثَّاني: بعد تحقيق النصر، الالتفات للمُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّة، والخلاص منهم، ومن مُؤامراتهم وخلافاتهم بضربة واحدة، عن طريق نزعهم عن ولاياتهم في الشَّام والجزيرة، وإقطاعهم بلاد سلاجقة الرُّوم[5].

لكنَّ التخطيط الجيِّد لا يعني ربح المعركة، وخاصَّة إذا جرت الأُمُور بعكس الأمنيَّات، فقد سار السُّلطان الكامل في أوائل عام 632 هـ 1235م، نحو كَيْقُبَاذ، الذي نزل بجيشه على الدربند[6]، "وبنى عليه سوراً، وقاتلوا مَنْ يطلع إليه"[7]، وحفظ كَيْقُبَاذ الطُّرُقات إلى بلاده، وهي صعبة ضيِّقة

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.
6 - الدربند: هُو الممرّ الجبلي الضيِّق، الذي يخترق جبال طوروس، ويُؤدِّي إلى داخل بلاد الأناضول.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674.

جدّاً"[1]، وأحسَّ الكامل بتخاذل حُلفائه، وفساد نيَّاتهم، وكثرة الغلاء في سوق العَسْكَر، وامتناع الدربند[2]، وكلّها نقاط في غير صالحه، وقد تُودي به إلى كارثة، فانتقل من موضعه على النهر الأزرق[3]، إلى أطراف بَهَسْنَا على بُحيرة أنزنيت، فوصل إليه صاحب خرتبرت، وهُو من المُلُوك الأرتقية، وأشار عليه بالدُّخُول إلى بلاد الرُّوم من جهته، فأمر السُّلطان الكامل صاحب حماة الملك المُظفَّر، وهُو ثقته الوحيد، أن يمضي بميمنة الجيش[4]، على أن يتبعهم ببقية العَسْكَر. فتحرَّك الملك المُظفَّر ومعه عدد من الأُمراء، فوصلوا خرتبرت كقُوَّة استطلاع مُتقدِّمة للجيش، الكامل، لكنْ؛ لا ندري كيف كشف كَيْقُبَاذ أمرهم، فكان بانتظارهم اثنا عشر ألف فارس سلجوقي، اضطرُّوهم ـ بعد الهزيمة ـ إلى اللُّجُوء إلى قلعة خرتبرت، وسُرعان ما وصل كَيْقُبَاذ بنفسه، وحاصرهم في القلعة مُدَّة أربعة وعشرين يوماً، ولمَّا يئس الملك المُظفَّر من نجدة السُّلطان الكامل، طلب الأمان، فأمَّنه كَيْقُبَاذ، ونزل إليه المُظفَّر، فأطلقه، واحتلَّ كَيْقُبَاذ قلعةَ خرتبرت، مع ما حولها من القلاع[5].

لقد أمضى الملك المُظفَّر قرابة الشهر مُحاصَراً في خرتبرت، ولم يتحرَّك السُّلطان الكامل لفكِّ الحصار عنه، وبالتَّأكيد؛ كان الكامل يعلم بما آل إليه الأمر في خرتبرت. إن عدم تحرُّك السُّلطان الكامل بكُلِّ ما معه من قُوَّات وحُلفاء وجند لإنقاذ المُظفَّر لا يُفسِّره سوى أمر واحد، وهُو خوفه من حُلفائه الذين معه أكثر من خوفه من عدوِّه، فالمعركة مع كَيْقُبَاذ غير مضمونة، وولاء الحُلفاء من مُلُوك الأيُّوبيَّة مشكوك فيه، بل ويخشى أشدّ الخشية منه، فقد يستغلُّون مُجريات المعركة، أو نتائجها، إنْ لم تكن مرضية للإمساك به، خاصَّة وثقته الوحيد الملك المُظفَّر مُحاصَراً بعيداً، والكامل وحده بين أخوة وأبناء عمّ، ولكنَّهم مُتَّفقون عليه، مُعادون له في الباطن، فلذلك ترك المُظفَّر يُواجه مصيرَهُ بنفسه، أو ضحَّى به مُكْرَهاً، وعاد الكامل بشبه هزيمة، بعد أن دخل الشتاء، وانكشف له فساد نوايا حُلفائه الأيُّوبيِّيْن، فسارع نحو مصر[6] كاتماً غيظه[7].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 77.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674، ـ النهر الأزرق: وهُو في أوائل بلد الرُّوم، ويسير مُقابل الدربند.
4 - وهي قُوَّات حماة، وُفقاً للتقليد العسكري الأيُّوبي المُتَّبع مُنْذُ أيَّام تقي الدِّين والسُّلطان صلاح الدِّين.
5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 79 ـ 81.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 154، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.

لقد كان الملك المُجاهد هُو الساعي لتفرُّق الكلمة عن السُّلطان الكامل، وهُو الذي أبلغ مُلُوك الأيُّوبيَّة بنيَّة الكامل نقل إقطاعاتهم إلى بلاد السلاجقة، إنْ ملكها[1]، فهُو صاحب مشروع الحذر من قُوَّة الكامل، بل والداعي للتحالف ضدَّه، والجميع بمَنْ فيهم الكامل كان يُدرك أن ما تمَّ كان بفعل المُجاهد[2]، فقد كان له عدَّة دوافع ذاتية للقيام بهذا العمل، فهُو يعتقد أن السَّلطنة كانت من حقِّه، وأن أيَّ تحالف للأيُّوبية ضدَّ أيِّ أحد سيكون هُو ضحيَّته المُحتملة الثَّانية، لكنْ؛ ألا يُمكن أن يكون له دوافع خارجية، مثلاً؛ اتِّصال كَيْقُبَاذ به، وطلبه منه الخُرُوج على الحلف، أو شقّه إنْ أمكن؟! فنحنُ نعرف أن كَيْقُبَاذ أرسل للملك المُجاهد رسولاً استقبله المُجاهد في حمص عام **631** هـ **1234**م[3].

وعلى كلِّ الأحوال؛ صبَّت جُهُود الملك المُجاهد في مصلحة كَيْقُبَاذ في الدرجة الأُولى، الذي اشتدَّ طمعه لفشل الحملة الكُبْرَى عليه، ولتألُّب المُلُوك على السُّلطان الكامل[4].

وبعد انقضاء الشتاء جاء ردُّ كَيْقُبَاذ، فخرج بجُيُوشه إلى الجزيرة، "فاستولى على حَرَّان والرُّهَا والسويدية وقطينا، أخذها ممَّنْ كان بها من النُّوَّاب مخامرة، أو باعوها له بيعاً"[5]، واستولى على الرقَّة، وسبى أهل البلاد مثل الكُفَّار"[6]، وفعل بالجزيرة ما لا تفعله التَّتَر[7]، إنَّه حنقُ كَيْقُبَاذ على التحالف الأيُّوبي ضدَّه، فالسبي في المناطق المُهاجمة لم يكن معروفاً إلَّا من غير المُسلمين، مثل: الكرج، والفرنج، والبيزنطيين، أمَّا حُكَّام المُسلمين؛ فيتنازعون على ملكية الأرض والقلاع والمُدُن فقط، وتكون الرعية تبعاً لَمَنْ غلب.

ولَمَّا بلغ السُّلطان الكامل والملك الأشرف ما فعله كَيْقُبَاذ في ممالكهما توجَّه الكامل بجُيُوشه من مصر عام **633** هـ **1236**م، نحو الجزيرة، والتقى بالأشرف ومعه العساكر الشَّاميَّة، فأخذوا حَرَّان والرُّهَا والسويداء عنوة بالسيف، وتسلَّموا قطينا صُلحاً، وهدموا قلعة الرُّهَا والسويداء، فاستردَّ الكامل كُلَّ ما أخذه الرُّومي[8].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158، والفوائد الجلية، الأمجد حسين بن داود، 217.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 98.
5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.

ونُلاحظ هُنا عدَّة أُمُور، منها: أن السُّلطة الأيُّوبيَّة في الجزيرة أصبحت مرتهنة بوُجُود المُلُوك أنفسهم، وبوُجُود الجُيُوش الكثيفة معهم، فلا النُّوَّاب ولا الحاميات الأيُّوبيَّة يُضمن ولاؤها للملك في غيابه عن الساحة، فكُلُّ ما استولى عليه الرُّومي من الأملاك الأيُّوبيَّة في الجزيرة أخذه بالاتِّفاق مع نُوَّاب الأيُّوبيَّة، بينما نجد أن استرداد الكامل لتلك المواقع كان بالسيف، فالحاميات والنُّوَّاب الرُّوم قاتلوا بضراوة، بينما غادرها كَيْقُبَاذ مع القُوَّة الرئيسية من جيشه إلى المرتفعات والدروب عند تخوم بلاده، فهُو يعرف أنَّه غير قادر على مُواجهة مُباشرة مع بني أيُّوب. كما أن الموقف الرَّسْمي لمُلُوك الأيُّوبيَّة لم يتغيَّر تجاه السُّلطان الكامل، وإنْ تغيَّرت نيَّاتهم، فقد اضطرُّوا للتحرُّك مع السُّلطان الكامل في حملته الجديدة، فكان معه حليفه الوفي الملك المُظفَّر صاحب حماة، ورافقه أخوه الملك الأشرف مُوسى، والملك المُجاهد مع ما في نُفُوسهم عليه[1]. وردّاً على ما قام به كَيْقُبَاذ، من سبي وغيره من الأعمال غير المُتعارف عليها في الحُرُوب بين مُلُوك المنطقة، فقد أمسك الكامل بجند الحاميات والنُّوَّاب الذين تركهم كَيْقُبَاذ، "وأمر بحملهم مُقيَّدين في محاير[2] على الجمال أسارى إلى مصر، واستقبح الناسُ هذه الفعلةَ منه ولم يجر له ولا لأحد من أهل بيته مثلها، وإنما حمله إنْ كان ممتلئاً غيظاً على علاء الدِّين"[3]، فالردُّ غير المعتاد من قبَل كَيْقُبَاذ استدعى ردّاً عليه من قبَل الكامل.

في عام **634** هـ **1237**م، وبعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب ظهر على الساحة الشمالية لحلب أمير تركماني اسمه قنغر، يمتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، مكَّنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، الذي تصدَّى له، "فتخوَّف أُمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرُّومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره برَدِّ ما أخذ، فردَّ بعضه، وانكفَّ عن العيث والفساد"[4]. ومع أن عدداً كبيراً من الأُمراء التُّركمان وغير التُّركمان في ذلك الوقت كان لهم أتباع، وأحياناً؛ بعض القُوَّة الفاعلة، لكنَّ هذه القُوَّة غير العادية لقنغر - التي هزمت جيش حلب - لم تكن لتظهر على أطراف مملكة السلاجقة في ظلِّ واحد من أقوى مُلُوكها، بدُون دعم مُباشر من الملك نفسه، ولم تكن هذه القُوَّة

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 109.
2 - جمع محارة، تُصنَع من الخشب، وتُحمَل على الجمال ليركب عليها المسافر، وهي شقَّتان، على كُلِّ جانب من الجنبَيْن شقّ، يُسمَّى محارة وتَسَعُ شخصاً واحداً. (قاموس الصناعات الشَّاميَّة، مُحمَّد سعيد القاسمي، 420).
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 110.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 - 681.

- مهما بلغت - لتجازف بقتال جيش مملكة قويّة مثل حلب، هي - بالوقت نفسه - حليفة لمملكة الرُّوم، بدُون توجيه ملك الرُّوم نفسه. فماذا كان يُريد - بذلك - من حلب؟ ويبدو لنا أن كَيْقُباذ كانت له عدَّة أهداف من وراء هُجُوم قنغر:

1 - تُشكِّل هذه الإغارةُ قُوَّةَ استطلاع عسكريَّة، اختبرت قُوَّةَ جيش حلب، وبهزيمته تبيَّن ضعفه، وعدم تشكيله أيَّ تهديد عسكري.

2 - بعد موت العزيز لابُدَّ من الضغط على أُمراء حلب، الذين قد يكون لبعضهم آراء لا تصبُّ في مصلحة الوفاق مع مملكة الرُّوم.

3 - إنَّها رسالة واضحة الحروف، قُرئت بسُهُولة من قبَل أُمراء حلب، فأرسلوا بسُرعة إلى كَيْقُباذ، يُذكِّرونه بالعُهُود، ليكفَّ عنهم قنغر، فكفَّه، وردَّ بعض الأسلاب، وأخذ بعضها كأجر لعمله.

4 - أدَّت هذه العملية إلى كُلِّ ما يرغب به كَيْقُباذ، فقد سيَّر له طَغْريل أتابك ملكها الصغير النَّاصر الثَّاني "رسولاً في الباطن، وهُو أوحد الدِّين قاضي خِلاط، فاستحلفه على الموالاة للناصر، والذَّبّ عن بلاده، ودَفْع مَنْ يقصدها. . فبذل الرُّومي من نفسه المُوافقة والنصرة للملك النَّاصر، وكفّ مَنْ يقصد بلاده بأذى"(1).

إن ما تمَّ في الحقيقة هُو وضع حلب تحت وصاية وحماية مملكة سلاجقة الرُّوم، ولكنْ؛ إذا تساءلنا: الحماية ممَّنْ؟ وهل لحلب أعداء يُخشَى منهم؟! نجد أن كلّ الدلائل تُشير إلى أبناء العادل، السُّلطان الكامل والملك الأشرف أصحاب الممالك القويَّة في مصر والشَّام، إنَّه الخوف القديم من والدهم العادل يتجدَّد في كلِّ لحظة ضعف تمرُّ بها مملكة حلب، ويصبُّ ذلك الآن في صالح مملكة سلاجقة الرُّوم القُوَّة المُجاورة الأكبر.

ونتيجة للعداء الذي استفحل بين السُّلطان الكامل والملك الأشرف سعى الأشرف لتشكيل حلف شاميٍّ كبير ضدَّ الكامل، انضمَّ إليه كلُّ المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام، ووسَّعَ الأشرفُ الحلفَ، فاتَّصل بعلاء الدِّين كَيْقُباذ عدوّهم القديم، واتَّفق معه على التحالف ضدَّ أخيه السُّلطان الكامل(2).

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 681.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 167.

المبحث الرَّابع

العلاقات في عهد السُّلطان كيخسرو

في عام 634 هـ 1237م، تُوفِّي علاء الدِّين كَيْقُباذ سُلطان سلاجقة الرُّوم بمدينة قيصرية، ويُخبرنا ابن العديم خبر الشاهد العيان أن أتابك حلب طَغْريل أوفده باسم الملك النَّاصر بن العزيز ليُعزِّي غياث الدِّين كيخسرو بأبيه كَيْقُباذ، "ولتجديد الأيمان عليه على القاعدة التي كانت مع أبيه، فحلفته على ذلك"(1)، فحلب - كما يبدو - حريصة كلّ الحرص على تحالفها مع مملكة سلاجقة الرُّوم، وبالمُقابل؛ نجد كيخسرو يُريد توثيق العلاقة مع حلب بأكثر من التحالف، فسلك طريق المُصاهرة، وطلب يد أُخت الملك النَّاصر ابنة الملك العزيز، على أن يُزوِّج أُخته للملك النَّاصر، وتمَّ العقد على يد المُؤرِّخ ابن العديم، الذي قام بنفسه بإجراء العقد على أُخت كيخسرو وكيلاً للملك النَّاصر(2). واستفادت حلب من هذا الحلف بمُساعدة فعَّالة، قدَّمها لها كيخسرو للتصدِّي لفرقة الخَوَارزميَّة، التي هدَّدت حلب والجزيرة(3).

ولم يكن السُّلطان الكامل بأقلّ حرصاً من مملكة حلب على طلب وُدّ كيخسرو، فاغتنم فُرصة وفاة والده كَيْقُباذ، وأرسل "الفقيه أفضل الدِّين مُحمَّد الخونجي إلى بلاد الرُّوم يُعزِّي غياث الدِّين بأبيه علاء الدِّين كَيْقُباذ المُتوفَّى، وسيَّر معه ذهباً برسم الصدقة، وثياب أطلس برسم أغشية الضريح، وكان ذلك استجلاباً منه له، ليخرجه عن الأشرف"(4). فمملكة سلاجقة الرُّوم هي - الآن - القُوَّة الأكبر على تخوم الممالك الأيُّوبيَّة، وأفراد البيت الأيُّوبي كُلّ منهم له الرغبة بكسبها إلى جانبه، ولكنْ؛ ليست رغباتهم هي المهمَّة، فالمُهمُّ هُو حسابات السُّلطان الرُّومي الجديد، ومع رغبة مَنْ منهم تتوافق.

لم يمض كثير وقت حتَّى أخذ كيخسرو يستغلُّ ظُرُوف حلب أكبر استغلال، فبعد كلّ مُقدِّمات التحالف والمودَّة والمُصاهرة أرسل في العام نفسه 634 هـ 1237م، عزّ الدِّين قاضي مدينة

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 682.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 183، السُّلُوك، المقريزي، 1/ 272، كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 330، عقد الجمان، العيني، 18/ 208.
4 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 319.

دوقات إلى حلب، وكان جيشها مُقيماً على حصار مدينة حماة، فطلب إقامة الخطبة وضرب السّكّة في مملكة حلب باسم كيخسرو، ولم يكن أمام أتابك حلب طَغْريل وأُمرائها إلَّا المُوافقة[1]، وبذلك؛ أُعلنت تبعية حلب رَسْمياً لمملكة سلاجقة الرُّوم. ومع كُلِّ ذلك تبقى تبعية اسمية، لكنَّها كانت كافية وذات معانٍ كبيرة لمُلوك سلاجقة الرُّوم، وخاصَّة ما تعنيه من انفراد حلب عن سلطنة الأيُّوبيِّين، فالسُّلطان الكامل بعيد في مصر، والملك الأشرف يتمتَّع بمناخ دمشق، والقُوَّة الأكبر في شمال الشَّام والجزيرة هي قُوَّة سلاجقة الرُّوم.

بعد أن وقع الخلاف ما بين الملك الأشرف وأخيه الملك الكامل في عام **635 هـ 1238م**، سعى الملك الأشرف لإقامة تحالف شامي ضدَّ السُّلطان الكامل، وحصره في مصر، ثُمَّ فكَّر في توسيع الحلف، فضمَّ إليه كيخسرو صاحب الرُّوم، فكان التحالف الشَّامي -الرُّومي ضدَّ الكامل. وسيتَّضح لنا معنى خوف حلب والتجاء أُمرائها إلى الرُّومي من خلال الأحداث التَّالية، فبعد موت الأشرف، في السنة نفسها **635 هـ 1238م**، تولَّى مملكته بوصيَّة منه الصَّالح إسماعيل، الذي قام بتجديد التحالف الشَّامي، والتحالف الشَّامي الرُّومي، وراسل كيخسرو، وأكَّد على التحالف بينهما[2]. لكنَّ إسماعيل سُرعان ما فقد دمشق، فقد احتلَّها السُّلطان الكامل، الذي كانت خطوته التَّالية ضدَّ حمص، ثُمَّ حلب، عندها؛ طلبت حلبُ النجدةَ، فأمدَّها الرُّومي بفرقة من أَجَلِّ عساكره، وعرض إرسال المزيد، وكاتب كيخسرو السُّلطان الكامل لثنيه عن قصد حلب، فرفض، ونجت حلب بأيسر السُّبُل؛ إذْ مات الملك الكامل وهُو يهمُّ بالمسير إلى حمص عام **635 هـ 1238م**. وفي المُقابل؛ فقد اضطرَّ كيخسرو عام **640 هـ 1243م** أن يطلب النجدة من حلب لصدِّ قُوَّة التَّتار المتقدِّمة نحو بلاده، فأرسلوا له نجدة يقودها ناصح الدِّين الفارسي، شاركت معه في المعركة ضدَّ التَّتار، فهُزموا، وطلب كيخسرو الأمانَ من التَّتار، فأمَّنوه[3].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 690.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.
3 - ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 252، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 32، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 327.

ولم يكتف كيخسرو بصيغة التحالف مع الملك الصَّالح إسماعيل، بل أرسل عام **638 هـ 1241م**، إليه يطلب إقامة الخطبة على منابر دمشق، "فخطب له، وكان يوماً مشهوداً، وحضر رُسُل الرُّوم"[1]، واستمرَّت الخطبة لسُلطان سلاجقة الرُّوم كيخسرو حتَّى عام **640 هـ**؛ حيثُ أُبطلت خطبته من دمشق، وخُطب فيها للصَّالح أيُّوب[2].

وتنفيذاً لمطامع السلاجقة القديمة في الجزيرة استغلَّ كيخسرو الثَّاني وُجُوده في التحالف الموجَّه ضدَّ السُّلطان الكامل، وأرسل عساكره إلى آمد، فحاصروها، وكان بها المُعظَّم تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب بن الكامل، فأنجده أبوه بفرقة الخَوَارزميَّة، الذين طردهم كيخسرو من خدمته، فالتجؤوا إلى أيُّوب، وبعد مُناوشات بسيطة، انهزم عسكر الرُّوم عن آمد[3]. ولمَّا فشل أيُّوب في حملته على مصر، وَفَقَدَ دمشقَ عام **637 هـ 1240م**، وتخلَّت عنه الخَوَارزميَّة، استغلَّ كيخسرو ذلك، ووجَّه قُوَّاته نحو آمد، وتشدَّد في حصارها، فهرب منها تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب نحو حصن كيفا، وتسلَّم عسكرُ الرُّوم آمدَ[4]. لقد حقَّق كيخسرو الثَّاني الحُلم القديم لأجداده بامتلاك آمد، واستخلاصها من حُكْم الأيُّوبيِّين. ولكنْ؛ لن يدوم هذا الحال، فقد عادت آمد إلى الحُكْم الأيُّوبي عام **655 هـ 1257م**؛ حيثُ وجَّه الملك الكامل مُحمَّد بن المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين قُوَّاته، ومعه نجدة من الملك السعيد صاحب ماردين، فهزموا عسكر الرُّوم، واستولوا على آمد، ولكنَّ قَدَرَ هذه البلدة[5] أعاد الرُّوم إليها من جديد، ففي عام **657 هـ 1259م**، عندما نزل عليها هُولاكُو، وتسلَّمها من نائب الملك الكامل، قام بتسليمها إلى أولاد كيخسرو الثَّاني عزّ الدِّين ورُكن الدِّين، ووضع معهم نُوَّاب التَّتار[6].

إن أهمَّ ما يُلاحَظ على العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين سلطنة سلاجقة الرُّوم والممالك الأيُّوبيَّة أن العلاقات السِّلْمية بينهما كانت تسود كُلَّما لاح خطر في الأفق، وأن التحالف بينهما كان يتمُّ

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 409.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 415.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.
4 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 343.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526.

في حال وُقوع الخطر، وخاصَّة الخطر الذي يخشى منه السلاجقة، كما كانت الحال في التحالف ضدَّ جلال الدِّين منكبرتي، والتحالف والتعاون العسكري ضدَّ التّتار، فيما عدا ذلك، فالعلاقات - على الغالب - علاقات مُناورات سياسة، حتّى تسنح الفُرصة، فينقضّ السلاجقة على المُمتلكات الأيُّوبيَّة، كما فعل السلاجقة باحتلال خِلاط، وغيرها، أو تتحرَّك الجُيُوش الأيُّوبيَّة ضدَّ سلطنة السلاجقة تُحاول احتلال بلادهم، كما فعل السُّلطان الكامل الأيُّوبي.

وبالرغم من أن الدِّين الإسلامي يجمع بين سلاجقة الرُّوم والأيُّوبيين، فإن السلاجقة لم يدعموا جهاد الأيُّوبيِّيْن ضدَّ الفرنجة، بل على العكس، حاولوا استغلال هجمات الفرنجة لاحتلال مواقع لهم في بعض المَمالك الأيُّوبيَّة، حتّى إنّه اتُّهم بعض سلاطين السلاجقة بأنّهم أطمعوا الفرنج لأَخْذ أرض المُسلمين في مصر[1].

وبالتّالي؛ لم نلحظ أنّه كان للدِّين أيُّ أثر في العلاقات بين السلطنتَيْن.

وفي النتيجة؛ نستطيع القول بأنَّ سلاجقة الرُّوم لم يساهموا بقيام جبهة تضامن إسلامي ضدَّ الفرنجة، ولم يُشاركوا الأيُّوبيِّيْن في الجهاد ضدَّ أعداء الدِّين المُشترك، ولم يُلاحَظ على تحرُّكاتهم السِّياسيَّة والعسكريَّة أنّها مدفوعة بأيِّ أثر ديني، مع أن دولتهم - أصلاً - قامت للجهاد ضدَّ البيزنطيين، بل على العكس من ذلك، فقد مدَّ سلاطينهم أعينَهُم للسيطرة على الجزيرة الشّاميَّة، ورُبّما - من خلالها - على الشّام، تاركين جهاد البيزنطيين خلفهم، ولا ندري إن كان ذلك لصُعُوبة التقدُّم على تلك الجبهة؟ أم لمُوازنة الجناح الأناضولي للدولة بجناح شامي؟

وكانت لسلطنة السلاجقة علاقات سياسيَّة مُتميِّزة مع مملكة حلب الأيُّوبيَّة، فهي الجار المُباشر لهم، وقد بدأت تلك العلاقات بمُحاولة السلاجقة احتلال حلب، وانتهت بمُعاهدات ومُساعدات عسكريَّة ومُصاهرات بينهما. أمّا علاقة السلاجقة ببقية المَمالك الأيُّوبيَّة؛ فقد بدأت عدائية؛ حيثُ تمَّ تبادل الهجمات العسكريَّة. بعد ذلك؛ تحسَّنت العلاقات بين السلاجقة والأيُّوبية؛ بحيثُ أدَّت للتحالف بينهما ضدَّ الخطر الخوارزمي.

---

1 - يقول أبو شامة إن كَيْقُباذ هو الذي أطمع الفرنج في دمياط، (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 113).

بعض سلاطين سلاجقة الرُّوم

- سُلَيْمان بن قتلمش بن سلجوق: 471 - 479 هـ 1077 - 1086م.

1 - قلج أرسلان بن سُلَيْمان: 485 - 500 هـ 1092 - 1107م.

2 - ملك شاه بن قلج أرسلان: 500 - 510 هـ 1107 - 1116م.

3 - مسعود بن قلج أرسلان: 510 - 551 هـ 1116 - 1156م.

4 - قلج أرسلان الثّاني: 551 - 584 هـ 1156 - 1188م.

5 - ملك شاه الثّاني: 584 - 588 هـ 1188 - 1192م.

6 - كيخسر الأوّل بن قلج أرسلان الثّاني: 588 - 596 هـ 1192 - 1200م.

7 - سُلَيْمان الثّاني بن قلج أرسلان: 596 - 599 هـ 1200 - 1203م.

8 - قلج أرسلان الثّالث بن سُلَيْمان: 599 - 600 هـ 1203 - 1204م.

9 - كيكاوس الأوّل: 607 - 616 هـ 1210 - 1219م.

10 - كَيْقُباذ الأوّل: 616 - 633 هـ 1219 - 1236م.

11 - كيخسرو الأوّل/ ثانية : 600 - 607 هـ 1204 - 1210م.

12 - كيكاوس بن كيخسرو: 607 - 616 هـ 1210 - 1219م.

13 - كَيْقُباذ بن كيخسرو: 616 – 633هـ 1219 – 1236م

14 - كيخسرو الثّاني بن كَيْقُباذ: 633 - 644 هـ 1236 - 1246م.

15 - كيكاوس الثّاني بن كيخسرو الثّاني: 644 - 655 هـ 1246 - 1257م.

الفصل السَّادس

العلاقات الدّوليّة للمملكة الخَوارزميّة

المبحث الأوَّل

الدولة الخَوَارزميَّة، وبداية العلاقات مع الممالك الأيُّوبيَّة

الدولة الخَوَارزميَّة:

بينما كانت الممالك الأيُّوبيَّة في مطلع القرن السَّابع الهجري، الثَّالث عشر الميلادي، تتصارع على النُّفُوذ، وأعداؤهم التقليديون فرنج الساحل الشَّامي قد دخلوا في مرحلة سكون لانشغال أُورُبة عنهم بمُشكلاتها الدّاخليَّة، وكان أقصى ما يطمحون إليه هُدنة مع جيرانهم المُسلمين، تُتيح لهم التفرُّغ لجمع الثروات، وصلت من بلاد الشَّرق إلى حُدُود الجزيرة قُوَّة عسكريَّة جديدة هي جيش الخَوَارزميَّة.

ينتسب الخوارزميُّون إلى خوارزم[1] وهُو اسم للدولة والأرض، ومنه أُطلق على مُلُوكهم اسم خوارزم شاه. ينتمي الخوارزميُّون إلى الجنس التركي، الذي غلب على مُعظم أجزاء آسيا الوُسْطَى[2]، "وفي وُجُوههم أثر التُّرك، وفي طباعهم أخلاق التُّرك"[3].

1 - خوارزم: أرض شاسعة خصبة على نهر جيحون ـ أمودريا ـ، وهي مُوزَّعة ـ اليوم ـ بين جمهوريَّتَيْ تركمانستان وأوزبكستان، ونسبة إليها أطلق العَرَب اسمَ بحر خوارزم على بُحيرة آرال. ويقول ياقوت الحموي: إن خوارزم اسم تركي يعني لحم وحطب.(مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوارزم)، ويعترض الدُّكتُور إحسان حقّي في تحقيقه لكتاب الدولة العلية العُثمانية على معنى التسمية، ويقول إن الأصحَّ أنَّها تعني آكِل الحَرْب؛ أيْ: المستميت في الحَرْب.(الدولة العلية العُثمانية، مُحمَّد فريد، تحقيق: إحسان حقّي، ح/ 3، ص/ 61).

2 - الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 13.

3 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوارزم، وراجعْ: آثار البلاد، القزويني،520.

ينتسب مُلُوك خوارزم إلى أنوشتكين، وهُو مملوك تركي للأمير السلجوقي بلباك، اشتراه من بلاد الغور في أفغانستان[1]، وقدَّمه للسُّلطان ملكشاه، فأصبح ساقياً عنده[2]، وترقَّى في خدمته، حتَّى أصبح شحنة لخوارزم[3].

وفي عام **490** هـ **1097**م، أرسل أنوشتكين ابنَهُ قُطب الدِّين مُحمَّد إلى مدينة مرو لتلقّي العلم، فاتَّصل هُناك بحاكم خراسان السلجوقي، الذي عيَّنه والياً على خوارزم، ولقَّبه خوارزمشاه[4]، ثُمَّ أقرَّه في عمله الأمير سنجر السلجوقي[5]، فتمكَّن مُحمَّد من تثبيت مُلكه، وتأسيس الأُسرة الخَوَارزميَّة الحاكمة[6].

وبعد موت قُطب الدِّين عام **521** هـ **1127**م، خلفه ابنه أتسز، الذي خرج عام **530** هـ **1136**م، عن طاعة السلاجقة، وخاض صراعاً طويلاً مع سنجر، انتهى بخُضُوعه إليه، وطلب العفو منه، فوافق، وأعاده إلى بلاده[7].

وبعد وفاة أتسز، خلفه ابنه إيل أرسلان[8]، الذي أنهى ـ عملياً ـ سُلطانَ السلاجقة على العراق[9]. وتُوفِّي إيل أرسلان عام **589** هـ **1193**م، فخلفه أخوه علاء الدِّين تكش، الذي خاض عدَّة معارك مع الخطا[10]، وطالب سُلطان الخَوَارزميَّة أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من سُلطة في بغداد[11].

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10/ 267.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 322.

3 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 1/ 255.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير،10/ 267.

5 - حبيب السير، خواندمير، 2/ 629.

6 - عُرِفَتْ هذه الأُسرة باسم خوارزمشاه، وقد حكمت ما بين 490 هـ 627 هـ 1097م ـ 1230م.

7 - نهاية الأَرَب، النويري، 26/ 385.

8 - أحداث التاريخ الإسلامي، ترمانيني، 3/ 1/ 398.

9 - راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 513.

10 - الخطا: أقوام من العرْق التركي، موطنهم سهوب أواسط آسيا، وكانوا بدواً يسكنون الخيام.

11 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 63.

ويعتقد عبَّاس إقبال أن ردَّ فعل الخليفة النَّاصر كـان باستعداء الغـوريين عليـه، وأن تحـالف الخليفة مع جلال الدِّين الحَسَن الثَّالث صاحب قلاع الإسماعيليَّة كان مُوجَّهاً ضدَّه[1].

وكـان لـتكش ولـدان، الأوَّل: غيـاث الـدِّين، وقـد استولى عـلى عـراق العجـم، وكرمـان وفارس[2]، والثاني: جلال الدِّين منكبرتي[3]، وهُو الابن الأكبر لتكش[4]، والذي احتلَّ غزنه عاصمة الدولة الغورية عام **613** هـ **1216**م[5]، وأسقطَ اسمَ الخليفة العبَّـاسي مـن الخطبـة والـسّكَّة بفتـوى عدم أهليَّته، وعيَّن بدلاً عنه أحد أبناء الحُسَيْن بن علي خليفة للمُسلمين[6].

وهُناك إشارات إلى أن الخليفة العبَّاسي اتَّخذ أسوأ ردٍّ فعل ضدَّ منكبرتي؛ حيثُ يعتقـد الـبعض أن الخليفة النَّاصر رَاسَلَ جنكيز خان، وحثَّه عـلى التحـرُّك غربـاً نحـو بـلاد الإسـلام؛ للقـضاء عـلى الخوارزمي[7].

بداية العلاقات الأيُّوبيَّة بالدولة الخَوارزميَّة:

كان أوَّل احتكاك دبلوماسي على مُستوى عـالٍ بـين دولـة الخَوارزميَّـة ودولـة الملـك العـادل الأيُّوبيَّة قد جرى عام **615** هـ؛ حيثُ وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل وهُو بمرج الصُّفَّر، ومع أن ظُرُوف العادل لم تكن عادية، فالفرنج يضغطون عليه في فلسطين، ثُمَّ نزلـوا عـلى دميـاط ثغـر مصر، ومع ذلك؛ فقد بعث بجواب رسالة الخوارزمي مع جمال الدِّين مُحمَّد الدولعي خطيـب الجـامع الأمـوي بدمـشق، ومعـه قـاضي العَـسْكَر نجـم الـدِّين ابـن عـلي الحنفـي، وقـد وصـلا همـدان،

1 - تاريخ إيران، عبَّاس إقبال، تعريب: مُحمَّد علاء منصُور، 332.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 136.
3 - منكبرتي: تعني هبة السماء، أو مبعوث السماء (Heaven sent) انظرْ: **History of Bookhara, Vambery. P, 134**
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير،10/ 105
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير،10/ 105، ونهاية الأرَب، النويري، 27/ 214.
6 - ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 4/ 2/ 1085.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 39، وراجعْ مناقشة ذلـك في: مبحـث العلاقات مع دولة الخلافة من هذا الكتاب.

فوجدا الخوارزمي قد واجه هزيمة قاسية أمام التَّتَار، فسارا إلى قُرب بخارى، واجتمعا بولـده جـلال الدِّين[1]، وأثناء الاجتماع؛ أخبرهما جلال الدِّين بوفاة الملك العادل[2].

ومع أن رسالة خوارزم شاه للعادل بقيت سرِّيَّـة، وتـشتَّت أمـرُ الدولـة الخَوَارزميَّـة بـالهُجُوم الـصاعق للتَّتَـار عليهـا، ثُـمَّ مـات مُحمَّـد خـوارزم شـاه، فـإن أحـداً لم يـذكر فحـوى الرسـالة، أو غاية الخوارزمي من إرسالها، لكنَّنا نستطيع أن نُقـدِّر ذلـك، فـالخوارزمي كـان - وقتهـا - يخـوض صراعاً مريراً مع الخليفة، ويُطالبه بنُفُوذ السلاجقة على الخلافة باعتباره وريثهم، وإنْ كان بشكل غـير شرعي، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فقد كان خلفه في الشَّرْق جحافل التَّتَار، وقد جرَّب قدراتهم القتالية، ومُثابرتهم.

ولذا؛ نعتقد أن مُراسلته مع العادل كانت لتأمين عمق استراتيجي له في صراعاته المُتعدِّدة، وممَّا يُؤكِّد ذلك أن ابنه جلال الدِّين منكبرتي - بعد هزائمه المتوالية أمام التَّتَـار - لجـأ إلى الجزيـرة الـشَّاميَّة، ودخلها غازياً أوَّلاً، ثُمَّ لاجئاً ثانياً.

ولكن خوارزم شاه - رُبَّما - لم يكن يعرف بأنَّ حال العادل ليست بأفضل مـن حالـه، فـالفرنج يُهاجمون من فلسطين، وهُو يتراجع أمامهم نحو دمشق، ثُمَّ نزلوا في ثغر الديار المصريَّة دميـاط، وهـذا ما أهمَّه لدرجة الموت، وكان ذلك بعد أيَّام قليلة من مُقابلة رسول الخورازمي، وتسيير رسـولَيْه إليـه، اللَّذَيْن - بالتَّأكيد - حمـلا النوايـا الطيِّبـة لا غـير. لكـنْ؛ مـع انعـدام النتـائج المُبـاشرة لهـذا الاتِّـصال الدبلوماسي الأوَّل، فقد ترتَّب عليه - على ما يبدو - نتـائج بعيـدة وعلاقـات مُتناقـضة مـا بـين سـلْم وحرب بين جلال الدِّين منكبرتي بن علاء الدِّين خوارزم شاه وبين الأشرف بن العـادل والمُعظَّـم بـن العادل فيما بعد. وخاصَّة عندما تحرَّك منكبرتي غرباً، رُبَّـما مـدفوعاً بـضغط التَّـتَر، فاحتـلَّ أصـفهان،

1 - النُّجوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 223.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار،20/ 210.

واستولى على خوزستان، وهي للخليفة العبَّاسي النَّاصر، ثُمَّ زحف نحو بغداد مُحاولاً احتلالها[1]، "وَفَعَلَ أشنعَ ما يفعله التَّتَر"[2].

ثُمَّ تردَّدت رُسُلُ جلال الدِّين، السُّلطان الجديد للدولة الخَوارزميَّة، إلى الملك الأشرف بن العادل، وإلى مُعظم مُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام[3].

وفي عام 621 هـ 1224م، كانت العلاقات بين الممالك الأيُّوبيَّة تعاني من أزمة حادَّة وانقسام شديد، فقد اتَّفق الملك الكامل صاحب مصر مع أخيه الملك الأشرف صاحب الجزيرة على أخيهما الملك المُعظَّم صاحب دمشق، وضغطا عليه، ممَّا اضطرَّه للتفكير بحليف قوي، وكانت أخبار انتصارات جلال الدِّين منكبرتي وتقدُّمه السريع نحو العراق تُدوِّي في المنطقة، فاعتقد المُعظَّم أنَّه وجد به الحَلَّ لمشاكله مع إخوته.

وعندما كان منكبرتي في أذربيجان بعث إليه المُعظَّم محتسب دمشق صدر الدِّين البكري[4]، ورتَّب معه "رجلاً صوفياً من خانقاه السُمَيساطي يُقال له الملق"[5]، ورُبَّما لم يكن المُعظَّم واثقاً من استجابة منكبرتي له، وقبوله التحالف معه، فلم يُرسل له وزيراً، ولا قاضياً، بل أرسل المحتسب مع الصُّوفيَّة، واخترع له قصَّة لتمويه سفارته، فقد كان الجراد يغزو أطراف دمشق، فأعلن أنَّهم سيذهبون إلى أذربيجان لإحضار ماء من عين فيها، فتتبَّع الماء طُيُور السمرمر التي تصل دمشق معه، وتلتهم الجراد. ومع أن الجوّ العامّ كان يسمح بتصديق هكذا رواية، فإن الأمر لم يخف على المُهتمِّين، الذين أدركوا أن المقصود هُو الاتِّصال بمنكبرتي المُتواجد في أذربيجان. وعاد رسول المُعظَّم يحمل أفضل الأخبار له، فقد وعده منكبرتي بالتحالف والدعم، وأرسل له خلعة وفَرَساً، ففرح المُعظَّم

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 136.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 215.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 150.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 253.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 273.

بذلك، ولبس الخلعة، وركب الفَرَسَ يشقُّ شوارع دمشق، وكان إذا حلف يحلف برأس السُّلطان جلال الدِّين[1]. "وهذه كانت أوَّل علاقة بين الخوارزمي جلال الدِّين وبين البيت الأيُّوبي"[2].

وفي عام 622 هـ 1225م، تقدَّم منكبرتي باتِّجاه بغداد، وفتح دقوقا القريبة منها، وَكَتَبَ إلى حليفه المُعظَّم يقول: "تحضر أنتَ ومَنْ عاهدني، واتَّفق معي، حتَّى نقصد الخليفةَ، فإنَّه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكُفَّار إلى البلاد"، فردَّ المُعظَّم: "أنا معكَ على كُلِّ أحد، إلَّا الخليفة، فإنَّه إمام المُسلمين"[3]. ويبدو أن الخليفة استشعر الخطر من زحف الخوارزمي، وأراد أن يفتَّ بعضده، ويُبعد عنه حُلفاءه؛ وأهمّهم المُعظَّم، فأرسل إليه عام 623 هـ 1226م، مُحيي الدِّين بن الجوزي رسولاً، وإرسال هذه الشخصية الهامَّة يدلُّ على أهمِّيَّة المهمَّة بالنِّسبَة للخليفة، فقال ابن الجوزي للمُعظَّم في رسالته: "المصلحة الرُّجُوع عن هذا الخارجي إلى إخوتكَ، ونُصلح بينكَ وبينهم"، قال المُعظَّم: "إذا رجعت عن الخوارزمي، وقصدني إخوتي، تُنجدوني؟ قال: نعم"، فردَّ المُعظَّم: "ما لكم عادة تُنجدون أحداً"[4]. وفي هذه الأثناء؛ كانت "الرُّسُل لا تنقطع بين المُعظَّم وخوارزم شاه جلال الدِّين[5]، وعندما تأكَّد الملك الكامل من تحالف أخيه المُعظَّم مع جلال الدِّين منكبرتي "خاف من ذلك، وكاتب الإمبراطُور ملكَ الفرنج، في أن يقدم إلى عكَّا؛ ليشغل سرّ أخيه المُعظَّم عمَّا هُو فيه"[6]. إن صراع الأخوة أبناء العادل نتيجة لجوئهم للتحالف مع الغرباء أودى بالمنطقة لتكون مجال مطامع مُلُوك الشَّرق والغَرْب، فمنكبرتي الخوارزمي والإمبراطُور فريدريك الثَّاني الفرنجي سيجدان فُرصتها المُناسبة للمُطالبة بحُقُوق لهم في الجزيرة والشَّام نتيجة وُعُود أبناء العادل المُختلفين المتنازعين، الذين ضحُّوا بالبلاد من أجل ضرب بعضهم البعض، فمنكبرتي أخذ خِلاط وعدَّة بلاد أُخرى في الجزيرة، وفريدريك أخذ القُدْس، ممَّا سيُؤدِّي إلى نتائج مُستقبلية، غاية في الخُطُورة.

1 - مرآة الجنان، اليافعي، 43.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 43 ـ 36.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 277.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 284.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 137.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 713 ـ 138.

المبحث الثَّاني

العلاقات بين الملك الأشرف وجلال الدِّين منكبرتي

بشكل مُفاجئ؛ ساد السلام بين جلال الدِّين منكبرتي وبين الخليفة المُستنصر، فاعترف منكبرتي بشرعية الخليفة، وخطب له على منابر دولته[1]. وكان منكبرتي - في الحقيقة - مُضطرًّا لهذا الصُّلح؛ بسبب ضغط التَّتار الشديد عليه، ولعدم تقبُّل أهل خراسان والعراق لحُكْم الخَوارزميَّة، فهُم يعدُّونهم خارجين على السلاجقة، عُصاة للخليفة[2]، إضافة إلى عصيان أحد أُمراء منكبرتي، الذي اضطرَّ للسير نحوه باتِّجاه الشَّرق، قبل أن يستفحل أمره[3]، كلّ ذلك أجبر منكبرتي على ترك مشاريعه في العراق ضدَّ الخليفة. أمَّا المشاريع الأهمّ، التي اضطرَّ لتركها أيضاً؛ فهي مشاريعه في الجزيرة والشَّام؛ حيثُ كان يأمل أن يمدَّ نُفُوذه إليها بالتعاون مع حُلفائه هُناك. وكان منكبرتي قد اتَّفق مع الملك المُعظَّم صاحب دمشق، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وصاحب آمد، وأمير كيفا، ووزَّعوا الأهداف التي يجب مُهاجمتها، فكان لمُظفَّر الدِّين الهُجوم على المَوصل، واحتلالها، وللمُعظَّم الهُجوم على حمص وحماة، واحتلالها، أمَّا جلال الدِّين منكبرتي؛ فيقصد مدينة خِلاط، ويحتلّها، وبذلك يضربون الملك الأشرف صاحب خِلاط وحُلفاءه أصحاب المَوصل وحماة وحمص[4]. وفي الحقيقة؛ كان جلال الدِّين منكبرتي هُو الذي يملك القُوَّة الضاربة للحلف، فلمَّا اضطرَّ للعودة نحو بلاده الشَّرقيَّة انحلَّ الحلف، ولم يترتَّب أيُّ نتيجة عن التحرُّك العسكري لحُلفائه في الشَّام والجزيرة، مع أن مُظفَّر الدِّين هاجم المَوصل، والمُعظَّم هاجم حمص وحماة، لكنَّ غياب الخوارزمي وتحرُّك الأشرف السريع مع حليفه كَيْقُبَاذ كفلا بإفشال الهُجومَيْن، وانسحاب صاحب آمد وصاحب كيفا من الحلف، وعودتها لولاء الأشرف[5].

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 280.

2 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 129.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.

4 - مُفرِّج الكُروب، ابن واصل، 4/ 176.

5 - حول تضارب مواقف الأميرَيْن الأرتقيَّيْن صاحب آمد وصاحب كيفا، راجعْ: (الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 179 - 181).

وبعد صُلح منكبرتي مع الخليفة لم يبقَ أمامه مجال للحركة إلَّا باتِّجاه الشمال، نحو بلاد الكرج، وبالتَّأكيد؛ كان منكبرتي يُدرك أنَّه سيكون وجهاً لوجه - بعد هُجُومه على الكرج - مع مملكة سلاجقة الرُّوم، ومع الممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة، لذلك؛ أوفد القاضي مُجير الدِّين عمر ابن سعد الخوارزمي رسولاً إلى علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، ومن ثَمَّ؛ إلى مُلُوك الشَّام، يُخبرهم بنيَّة السُّلطان جلال الدِّين بالجهاد ضدَّ الكرج، ويطلب منهم العون والمُساعدة ضدَّ أعداء الإسلام[1]. ويبدو أن كُلَّ المُلُوك الذين خاطبهم رسول منكبرتي كان لهم الرأي نفسه، والتساؤل نفسه: متى كان منكبرتي يهتمُّ بالإسلام وجهاد أعدائه؟! ورُبَّما كانت أجوبتهم دبلوماسية لرسوله، لكنْ؛ في الواقع، لم يترتَّب أيُّ نتائج ملموسة على مُبادرة منكبرتي هذه، وغالباً كان يتوقَّع ذلك، فقد أسرع بالزحف إلى بلاد الكرج، واستولى على عاصمتهم تفليس[2]، وأصبح - بذلك - على حُدُود الجزيرة الشَّاميَّة، وعلى احتكاك مُباشر بالممالك الأيُّوبيَّة فيها. ويبدو أنَّه "قد عزم على قصد بلاد الشَّام، لكنْ؛ صرفه الله عنها"[3]، وفي الحقيقة؛ انصرف منكبرتي عن غزو الجزيرة والشَّام لأن جُيُوش التَّتار كانت قد اقتحمت بلاده الشَّرقيَّة.

وبعد فتح جلال الدِّين منكبرتي عاصمة الكرج تفليس، ترك بها حامية قويَّة بقيادة وزيره شرف الملك، فَقَلَّتْ عليهم الميرةُ، فخرجوا عام 623 هـ 1226م، من تفليس نحو أرزن الرُّوم، فنهبوا منطقتها، وأخذوا من الغنائم الشيءَ الكثيرَ، وكان طريق عودتهم على أطراف خِلاط، فاعترضهم نائب الأشرف فيها الحاجب حُسام الدِّين علي، وأوقع بهم، واستردَّ كُلَّ ما نهبوه. فخاف الوزيرُ شرفُ الملك، وأرسل إلى جلال الدِّين يحثُّه على العودة، ويُحذِّره مغبَّة التأخير للانتقام من الحاجب علي. فعاد جلال الدِّين نحو خِلاط، وحاصرها، واحتلَّ الربض، وَنَهَبَتْهُ عساكر الخَوارزميَّة. لكنَّ أهل خِلاط استماتوا في القتال، ووقف الحاجب علي يُقاتل أمامهم، حتَّى ردُّوهم، ثُمَّ اشتدَّ البرد، ونزل الثلج، فرحل جلال الدِّين عن خِلاط[4].

---

1 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 144.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 211.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 339.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 455 - 461.

وكان جلال الدِّين منكبرتي عندما احتلَّ أذربيجان قد تزوَّج زوجة ملكها السَّابق أوزبك، وهي ابنة السُّلطان السلجوقي طغرل، وكانت مُتحكِّمة في البلاد خلال عهد زوجها أوزبك، فأهملها جلال الدِّين، ونزع منها صلاحياتها السابقة، وندب للنيابة عنه في خوي[1] شرف الدِّين الباخرزي، الذي أراد التحكُّم ببنت طغرل، "ونزل بدارها، واستخرج دفائنها، وخزائنها، وطلبت اللحاق بالسُّلطان، فأبى"[2]، فنقمت عليه، واتَّفقت مع أهل مدينتها خوي، واتَّصلوا بنائب الملك الأشرف في خِلاط الحاجب حُسام الدِّين علي، واستدعوه ليتسلَّم البلاد. "وكان شرف الملك معتقداً بخُلُوِّ الجوِّ، فورد الخبر بقُرب الحاجب بالعساكر الشَّاميَّة، فولَّى صوب تبريز، وخلَّى أذربيجان، فوصل الحاجب علي"[3]، وملك خوي وما جاورها من الحُصُون والبُلدان، وذلك في عام **624 هـ-1227م**، وقويت شوكته هُناك، ولو أقام في أذربيجان لَمَلَكَهَا بالكامل، لكنَّه قرَّر العودة إلى خِلاط، واصطحب معه زوجة جلال الدِّين ابنة السُّلطان طغرل[4].

وكان ردُّ الخوارزمي سريعاً، فبعد عودة الحاجب علي من خوي، قام شرف الملك الباخرزي وزير ونائب السُّلطان جلال الدِّين بالهُجُوم على قلعة شمران[5] التي كانت للملك الأشرف، وحاصرها[6]. ويُخبرنا صاحب سيرة منكبرتي عمَّا جرى في هذا الحصار، فيقول: "فإذْ بأصوات الكوسات[7]، وإذْ بأعلام صفر وراءها أعلام حُمر، فولَّى شرفُ المُلك منهزماً، وترك مُعسكره. وسار الطلبُ وراء شرف المُلك... ثُمَّ أنجد السُّلطانُ شرفَ المُلك... وسار يطلب الحاجبَ علي، فالتقيا، وهُزم الحاجب، وقُتل تاجُ المُلُوك بن العادل، وغنم شرف المُلك مُعسكرهم، وَسَيَّرَ الغارات"[8]. مع تعادل القُوَّتَيْن، من حيثُ نتائج الوقائع، فإن القُوَّة الأيُّوبيَّة هي الأفضل، فالحاجب عليّ هُو نائب

1 - خوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوي).
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 825 ـ 259.
3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 260.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.
5 - شمران: قال ياقوت: شميران بلد في أرمينية، وشميرام حصن بأرمينية، (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، 3/ 365).
6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 269.
7 - الكوسات: صنجات نحاس، (صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 9ـ 13)، ـ النقارات: طبول صغيرة (صُبح الأعشى، القلقشندي، 3/ 475).
8 - سيرة منكبرتي، النسوي، 270 ـ 275.

للأشرف، وبدون دعم مُباشر من سيِّده، تمكَّن من تحقيق انتصارات كبيرة بالنِّسبة لإمكاناته العسكريَّة ولموقعه السِّياسي، بينما كانت القوى الخَوَارزميَّة تحتاج لدعم السُّلطان المُباشر، أو لقسم من جيشه، لتُحقِّق أيّ انتصار، وما ذلك إلَّا لأن الدولة الخَوَارزميَّة تُقاتل في أراض شبه مُعادية، حتَّى في المناطق التي تُسيطر عليها، وهي دولة مُجهدة استنزفها التَّتار، وطاش حجر سُلطانها.

وبعد هذه الصراعات الجانبية بين الباخرزي نائب جلال الدِّين، والحاجب علي نائب الأشرف كان لابُدَّ من تصعيد الموقف، وخاصَّة عندما لمس جلال الدِّين هدوءاً ملحوظاً على جبهته مع التَّتار، فقاد جُيُوشه، وتوجَّه نحو الجزيرة. وكانت أوَّل بُلدان الجزيرة التي احتلَّها منكبرتي هي ماردين، وعندما دخلها، دوَّت أخبار قُوَّته الوحشية وأفعاله التي لم يفعلها إلَّا التَّتار، في كل أنحاء الشَّام[1]، وامتدَّت أطماعه نحو الجزيرة كلّها، ورُبَّما الشَّام من بعدها، لما لمسه من ضعف القوى الأيُّوبيَّة فيها، وتفرُّق كلمتهم، ومُحالفة المُعظَّم له ضدَّ أخوَيْه الكامل والأشرف، وخاصَّة أن الأشرف قد أزال بيدَيْه شوكه طالما وقفتْ في حلق أطماع منكبرتي بعَزْله الحاجب علي عن خِلاط، واعتقاله فيها.

وممَّا شجَّع منكبرتي أكثر على اقتحام الجزيرة وُجُود أُمراء فيها، كاتبوه، وحالفوه، مثل صاحب سر ماري، وصاحب أرزن الرُّوم، اللَّذَيْن قدَّما له النجدات العسكريَّة، وأمدَّاه بما يلزم من المعدَّات والمؤن[2]، عندما حاصر مدينة خِلاط.

ألقى جلالُ الدِّين منكبرتي الحصارَ على مدينة خِلاط، وهي للملك الأشرف، فقاومت حامية المدينة حصارَ الخوارزمي لفترة طويلة نسبياً[3]، دُون أن يتحرَّك صاحبها الملك الأشرف، الذي رُبَّما كان مشغولاً بأُمُور دمشق، أو أنَّه كان يأمل بفشل الحصار، أو بفكِّه عن طريق التحرُّك السِّياسي، فقد أنزل نائب خِلاط عزّ الدِّين آيبك رسولاً إلى جلال الدِّين يبذل له الخُضُوع والطاعة، ويُخبره أن الملك الأشرف "ما أمره بالقبض على الحاجب إلَّا لإساءته الأدب مع السُّلطان، والتخطِّي إلى بلاده من غير أمر صدر إليه، وها هو قد ولاَّني خِلاط مأموراً بطاعة السُّلطان، واتِّباع مُراده". وبالغ رسول عزِّ

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 339.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 83، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 84.
3 - قاومت مدينةُ خِلاط حصارَ الخوارزمي عشرة أشهر .(تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 78).

الدِّين آيبك بمُلاطفة السُّلطان، فلم يلتفتْ إلى كُلِّ ذلك، وقال له: "إن أردتَ مَرضاتي، فابعث إليَّ الحاجبَ علياً"، ولمَّا عاد الرسول إلى عزّ الدِّين، قام بقتل الحاجب عليّ مُباشرة[1].

ونحنُ نعرف أن الحاجب علي عندما حقَّق انتصاراته على الخَوَارزميَّة، وأحضر بنت طغرل زوجة الخوارزمي ابتهج الأشرف، وعدَّ ذلك من انتصاراته. وما قاله رسول عزّ الدِّين نائب خِلاط المُحاصرة حول اعتقال الحاجب علي هُو استغلال لظرف اعتقاله، وقد أدرك الخوارزمي ذلك، فلم يهتمّ كثيراً، وطلب الحاجب علي، ولكنْ؛ هل كان يرمي من طلبه الانتقام منه بنفسه؟! أم كان يعرف أن طلبه سيُؤدِّي إلى قتله؟!

كذلك ورد إلى جلال الدِّين منكبرتي - وهُو على حصار خِلاط - رسولان من ديوان الخليفة المُنتصر، وطلبا فكَّ الحصار، فلم يوافق جلال الدِّين، "واستنكر ذلك، وقد حان فتحها، فقالا: نخاف أن تعجز عنها، وترحل، فبإشارة الديوان يكون الأمر أفضل"[2]. ورُبَّما استرضاءً للخليفة الذي كان جلال الدِّين يحرص - في ظُرُوفه تلك - على عدم إغضابه، ولكي يُمرِّر عدم استجابته لطلب الخليفة، أرسل إليه يسأله أنْ يُنعم عليه بلباس الفُتُوَّة. وكان الخليفة مُهتمّاً بنشر تنظيم الفُتُوَّة، وخاصَّة بين المُلوك، فتسلَّم طلب جلال الدِّين منكبرتي نقيب الفُتُوَّة في دار الخلافة جلال الدِّين عبد الله بن المُختار، فرغَّب الخليفة بذلك، فأجابه، وسارت الرُّسُل باتِّجاه منكبرتي، ومعهم "التشاريف والخلع، فوصلوا والخوارزمي على أخلاط، مُحاصراً لها، فألبسوه الفُتُوَّة، وتشاريف الخلافة" عام 626 هـ1229م[3]. ونسي الخليفة أمر خِلاط بالكامل، فالأمر سيَّان إنْ كانت مع الأشرف، أو كانت مع الخوارزمي، والمُهمُّ عنده أنَّه زاد عدد المُلوك الذين ألبسهم سراويل الفُتُوَّة، وهي عنوان الطاعة له، أمَّا الخوارزمي؛ فلا الخليفة، ولا نظام الفُتُوَّة، كانا يعنيان له أكثر من مواقف، يُريد أن يُوجِّهها لصالح مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة.

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 299.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 307.
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 296.

وبعد مُقاومة ضارية وصبر طويل أظهرته مدينة خِلاط، تآمر بعض الأُمراء مع منكبرتي، وساعدوه على دُخُول المدينة[1]، عام 627 هـ[2]. ويُقال إن مَنْ تآمر على تسليم خِلاط للخوارزمي هُو: ابن مُحسن دلدرم[3]، ورفيقه[4]. ولحُنق منكبرتي من المُقاومة التي أبدتها خِلاط "فعل بأهلها ما يفعله التَّتَر"[5]، " فقتل مَنْ وجده من أهل البلد، وخرَّبها، وسبى الحريمَ، واسترقَّ الأولادَ، ونهبَ الأموالَ، وجرى على أهلها ما لم يُسمَع بمثله"[6]. وقام جلال الدِّين بالقبض على مُجير الدِّين يعقوب وتقي الدِّين عبَّاس شقيقَيْ الأشرف، وأعدم عزَّ الدِّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط؛ إذْ سلَّمه لمملوك للحاجب عليّ ليقتله انتقاماً لأُستاذه. كما أخذ زوجة الأشرف ابنة إيفاني ملك الكرج "وكان أبوها قد زوَّجها للملك الأوحد بعد أسره أمام خِلاط، وبعد موت الأوحد تزوَّجها أخوه الملك الأشرف، وضمَّها منكبرتي إلى حريمه انتقاماً لأَخْذ الحاجب علي زوجته من خوي"[7]، ودخل بها جلال الدِّين تلك الليلة[8].

وبعد أن استقرَّ منكبرتي في خِلاط لم ينسَ الخليفة، فقام بتسيير تقي الدِّين عبَّاس بن العادل وشقيق الأشرف، في قيوده إلى بغداد هدية إلى الخليفة. وفي بغداد؛ أُزيلت عنه القيود، وأكرمه الخليفة، وبقي عنده حتَّى كُسرَ الخوارزمي[9].

إن كلَّ ما قام به منكبرتي في خِلاط ليدلّ على أكثر من الوحشية والتهوُّر، إنَّه دليل على عدم امتلاكه لعقلية القائد السِّياسي، أو رجل الدولة، رُبَّما كانت تلك الوحشية قد تولَّدت في نفسه نتيجة لكُلِّ الظُّرُوف التي عاشها، وخاصَّة في كفاحه المرير ضدَّ التَّتار. أمَّا هديَّته للخليفة؛ ففيها مسحة من الاستخفاف ببني أيُّوب، أكثر ممَّا فيها تقدير للخليفة.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 309.
3 - دلدرم: اسم تركي أصله: بيلدرم؛ أيْ البرق.
4 - المَنصُوري، ابن نظيف، 85.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.
7 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 158.
8 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 79.
9 - المَنصُوري، ابن نظيف، 200.

المبحث الثَّالث

العلاقات الخَوارزميَّة مع قوى الجزيرة الشَّاميَّة

عندما دخل جلالُ الدِّين خوارزم شاه إلى عالم الجزيرة الشَّاميَّة، بما يُمثِّله جيشه من قُوَّة كُبْرَى، أدَّى ذلك إلى إعادة تشكيل التكتُّلات السِّياسيَّة والعسكريَّة التي كانت سائدة قبل وُصول الخوارزمي، ولاح في الأفق انقسام أصحاب القوى في الجزيرة الشَّاميَّة بين حلفَيْن كبيرَيْن، هما:

آ. حُلفاء الخوارزمي:

1. **رُكن الدِّين جيهان شاه بن طغرل:** صاحب أرزن الرُّوم، وابن عمّ علاء الدِّين كَيْقُباذ[1]، وقد كانت بينه وبين قيقباذ عداوة مُستحكمة، ممَّا جعل علاء الدِّين يخاف من هذا التحالف[2]، وقد حضر رُكن الدِّين جيهان شاه بنفسه إلى عند جلال الدِّين وهُو يُحاصر خِلاط، وأمدَّه بعساكره، وبالمعدَّات اللازمة للحصار[3]. وبعد دُخُول جلال الدِّين خِلاط جاء إليه جيهان شاه، وأعلمه "باتِّفاق مُلُوك الشَّام والرُّوم عليه، وقال: الرأي مُبادرتهم قبل أن يجتمعوا، فصوّب السُّلطان رأيه"[4].

2. **حُسام الدِّين خضر الأصيلي**[5]: صاحب سر ماري، وكان حُسام الدِّين يتلاعب على حبال السياسة، فيُظهر لجلال الدِّين أنّه معه، ومن جُملة أتباعه، وكذلك يفعل مع الأشرف[6]. وعندما حاصر جلال الدِّين خِلاط قدم إليه بنفسه، وبجنده، ومعه آلات لدعم الحصار، فأكرمه الخوارزمي بعد فتحه خِلاط، وأعطاه بلدة أرجيش، والأل[7]. وكان حُسام الدِّين يعتقد أنّه ـ بذلك ـ سيحفظ إمارته من الطرفَيْن المتنازعَيْن، وبالتَّأكيد؛ فإن حُسام الدِّين كان يُبرِّر لنفسه ذلك بضعفه أمام القوى الكبيرة المُتصارعة حوله، ولكنَّه لم يُفكِّر بأنَّ أمره سينكشف لهما معاً، فقد أرسل الحاجب علي نائب

1 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، وسيرة منكبرتي، النسوي، 329.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 185.
4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 329.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 219.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 666.
7 - الأل: بلدة بالجزيرة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: الأل)

الأشرف في خِلاط كتاب صاحب سر ماري حُسام الدِّين وطيّه كتاب وزير الخوارزمي الواصل إليه، ولابُدَّ أن حُسام الدِّين بنفسه هُو الذي سلَّم الكتاب للحاجب علي بُرهاناً على مودته، ويُؤكِّد فيه وزير الخوارزمي شرف الملك[1]: بأنَّ جلال الدِّين "لا شكَّ ولا شُبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشَّام"[2]. وأرفق معها رسالة منكبرتي نفسه؛ حيثُ يُؤكِّد عزمه على غزو الأرمن والشَّام لولا إعاقة الفتَن الدَّاخليَّة في بلاده[3]، وأنَّه حالما ينتهي منها سيتوجَّه نحو الأرمن والشَّام[4].

كذلك أرسل صاحب سر ماري ابنَهُ إلى عند الملك الحافظ، وهُو نائب الأشرف في الجزيرة، فأكرمه الحافظ، لكنْ؛ عندما حضر الأشرف لاسترداد خِلاط من الخوارزمي، قبض على حُسام الدِّين خضر، وعلى ابنه، وحملهم إلى دمشق[5]، وذلك جزاءً لتحالفه مع الخوارزمي. بعد ذلك؛ حاول جلال الدِّين منكبرتي أن يتودَّد إلى السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُباذ، فأرسل له رسولاً يحمل هدايا قيِّمة، فلم يأبه له الرُّومي، فابن عمِّه صاحب أرزن الرُّوم عند الخوارزمي، وهُو لا يأمن منه. كما يبدو أنَّه كان يعرف أن الخوارزمي لا يحفل بحلف، ولا بمُوالاة إلَّا وُفقاً لمصالحه.

ب. الأيُّوبيَّة وحُلفاؤهم:

كان أكبر مُلُوك الأيُّوبيَّة وهُو السُّلطان الكامل "مُهتمَّاً من أمر الخوارزمي"[6]، الذي دخل عالم الجزيرة بقُوَّة بعد احتلاله لمدينة خِلاط، فقد أشرف على الشَّام، وقُوَّته لا تخفى على أحد، لذلك؛ ركَّز الكاملُ جُهُودَهُ من أجل التحالف مع الرُّومي علاء الدِّين ضدَّ الخوارزمي[7]، وكان هذا رأي الملك الأشرف، وهُو المَعْني بالأمر، فخلاط من أملاكه، وكانت القُوَّة المُعادلة للخوارزمي هي قُوَّة الرُّومي علاء الدِّين كَيْقُباذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، فرغب الكامل بالتحالف معه، آملاً منه النجدة في صراع مُرتقَب ضدَّ الخوارزمي[8]. أمَّا كَيْقُباذ؛ فإنَّه كان مُهتمَّاً لأمر الخوارزمي رُبَّما أكثر من الأيُّوبيَّة، فقد أزعجه دُخُول

1 - شرف الملك: خواجا جيهان علي بن أبي القاسم، تُوفِّي عام 628 هـ 1231م.
2 - راجعْ نصَّ الرسالة في: المنصُوري، ابن نظيف، 169.
3 - راجعْ نصَّ الرسالة في: المنصُوري، ابن نظيف، 170.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 172.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 219.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 196.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 196.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 273.

الخوارزمي مسرح الجزيرة، وأَخْذ خِلاط، وهي مفتاح بلاده، لذلك عدَّ أن تحالفه مع الأيُّوبيَّة، بغَضِّ النظر عن كُلِّ المواقف السابقة، أمر مصيري بالنِّسبَة إليه، فقد "خاف أن يأخذ بلاده"[1].

وفي عام 627 هـ 1230م، أرسل الرُّومي رسوله إلى الملك الكامل، الذي كان مُقيماً في الرقَّة، يُحلِّفه على التعاهد والتعاضد. وبالمُقابل؛ أرسل الملك الكامل كُلاً من: الشهاب أحمد[2]، والجمال الكندري[3]، لتحليف الرُّومي[4]. والغريب في الأمر هُو تضارب الأخبار عن موقف علاء الدِّين كَيْقُباذ من جلال الدِّين منكبرتي ومن بني أيُّوب، ويبدو من هذه الأخبار أن الرُّومي لم يكن قد حزم أمره بعد، وأنَّه يُلاطف الطرفَيْن، ويتودَّد لهما على السواء، فقد أورد النسوي أنَّه قد وصلت للسُّلطان جلال الدِّين رسالة من علاء الدِّين كَيْقُباذ صاحب الرُّوم يغريه بمُعاداة بني أيُّوب، ويعده بالمُساعدة عليهم، ويقول فيها: "إنَّه كان اشتغل في سنته تلك بمَنْ يُتاخمه من الكَفَرَة، ففتح لهم عدَّة حُصُون، كما أن السُّلطان اشتغل بالتتار، فردَّهم على أعقابهم، ولم يبقَ - الآن - إلَّا صرف الهمَم إلى هؤلاء الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية"، وبالغ في ذكر الصفات السَّيِّئة لبني أيُّوب حتَّى قال: "ورجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[5]. وفي الحقيقة؛ إنْ صحَّت هذه الرسالة، فهي تحريض شديد من الرُّومي، وإغراء واضح له لقتال الأيُّوبيَّة، وذمّ لهم بلغ حدّه الأقصى باعتبار قتالهم هُو الجهاد الأكبر، فمَنْ يُقاتلهم يُثاب أكثر ممَّنْ يُقاتل التَّتار، أو الفرنجَ، على حدِّ قول الرُّومي. وفي الوقت نفسه؛ يصل إلى الرقَّة الكمال كيمار رسول علاء الدِّين كَيْقُباذ صاحب الرُّوم يحمل صُورة عن الرسالة التي كان قد سيَّرها إلى جلال الدِّين الخوارزمي، وسُلِّمَتْ الرسالة بمحضر من المُلُوك الأيُّوبيَّة: الكامل، والأشرف، والحافظ، ولديهم رسول الخليفة مُحيي الدِّين بن الجوزي، وممَّا جاء في الرسالة: "لقد تجنَّيتَ على بيت أيُّوب، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصَّل من سنين... ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد... وأنت، فلا أموال، ولا رجال، وبلادكَ خربة... ولا تظنَّ أني عدوّهم، لا؛ والله،

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 291.
2 - شهاب الدِّين: هُو أحد المُقرَّبين من الملك الكامل، تُوفِّي عام 634 هـ 1236م.
3 - جمال الدِّين أبو القاسم عبد الرحمن الكندري، فقيه ومُدرِّس في مدرسة الشافعية بمصر، تُوفِّي 651 هـ 1283م.
(الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 185).
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 195.
5 - سيرة منكبرتي، النسوي، 278.

بل صديقهم ونسيبهم بما بيننا من الأهلية والمُصاهرة"[1]. إزاء هذَيْن النَّصَّيْن يحار الباحث في أيّهما كان الرُّومي صادقاً؟ رُبَّما في كلَيْهما، فلكُلٍّ واحد كَتَبَ ما يُرضيه، وما يُحقِّق له مصالحه الشخصية عند مُتلقِّي الرسالة في الوقت نفسه. ورُبَّما كان موقف الرُّومي المُعادي للأيُّوبية قبل أن يأخذ الخوارزمي خِلاط، فقدَّم عرضه للخوارزمي، ويبدو أن عرضه لم يلقَ أذناً صاغية من الخوارزمي، ولم يلتفت إليه، لذلك؛ عندما احتلَّ خِلاط عدَّ إن الخطر قد أصبح على بابه، فاندفع الرُّومي نحو الأيُّوبيَّة ليتحالف معهم. وألحَّ الرُّومي في طلب الملك الأشرف الذي كان في دمشق "حتَّى قيل إنَّه في يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف منه خمسة رُسُل"[2]، فتشكَّلت نُواة الحلف المُواجه لحلف جلال الدِّين الخوارزمي من الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك الأشرف صاحب دمشق، ولكُلٍّ منهما مُدُن وبلاد في الجزيرة تتبع إليه، واتَّفق معهم حُلفاؤهم التقليديون: صاحب المَوصل مُظفَّر الدِّين، والممالك الأيُّوبيَّة في حلب، وحماة، وحمص.

وكان طلب كَيْقُباذ من الأشرف: أن "تحضر إلى عندي، لنتَّفق على هذا الذي أضرَّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"[3]. لقد كان الرُّومي يُدرك تماماً أنَّه غير قادر على مُواجهة الخوارزمي بقُوَّاته الخاصَّة، ولذلك ألحَّ على التحالف مع بني أيُّوب، وخاصَّة الملك الأشرف، فهُو يعرف إمكاناته العسكريَّة وقدرته القيادية. ومع أن الاتِّفاق يصبُّ في مصلحة الأشرف تماماً، فقد شاور أخاه الكامل، فقال الكامل: إن في الاتِّفاق مع الرُّومي مصلحة لنا، وأخذ الكامل معه سبعة آلاف فارس، وغادر الرقَّة إلى مصر[4]. فلماذا غادر الكامل ساحة المعركة المُتوقَّعة؟ ولماذا ابتعد إلى مصر؟! مكتفياً بإسداء النُّصح لأخيه الأشرف بالاتِّفاق مع الرُّومي، هل هي ثقة بأخيه؟! أم عدم اكتراث؟! يبدو أن تقييم موقف الكامل ليس بالأمر السهل، فانسحاب الكامل بجنده نحو مصر لابُدَّ أنَّه لأمر عظيم تراءى له، أو أنَّها غاية المصلحة الضيِّقة؛ حيثُ سار إلى مصر ليكون في قاعدة سلطنته بعيداً عن النتائج، التي قد لا تكون في مصلحة الأيُّوبيَّة في الشَّام.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 198.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.
4 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.

وإذا حاولنا أن نُفتِّش على تبرير لحركة الكامل بالانسحاب، فرُبَّما نقول إنَّه اطمئنَّ بعدما أرسل الرُّومي يُخبره: "أنَّه سيَّر خمسة عشر ألف فارس إلى أزربيجان، وعشرة آلاف إلى ملطية، وإنَّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك"[1]. على كلِّ الأحوال؛ سار الأشرف إلى حَرَّان بسبعمائة فارس، وأقام بها ينتظر وُصُول عساكر الشَّام ليلتحق بحليفه الرُّومي[2]، ووصلت النجدات إلى الأشرف في حَرَّان؛ حيثُ بلغ عدد فُرسان الأشرف خمسة آلاف فارس، ومنهم عسكر دمشق، والجزيرة، وحلب، وحماة، وكان يقود عسكر حمص الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد[3]. فسار الأشرف من حَرَّان بجموعه، والتقى بحليفه الرُّومي مع عسكره قُرب سيواس، وسارا نحو خِلاط[4].

معركة ياصجمن 627 هـ :

جمع الأشرفُ عسكرَ الجزيرة والشَّام، فكان معه بحُدُود خمسة آلاف فارس "من الشجعان، وكُلٌّ منهم قد جرَّب الحَرْب، ومُقدَّمهم أمير من أمراء عسكر حلب يُقال له عزّ الدِّين عُمر بن علي الهكاري، من الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة"[5]. وكان مع علاء الدِّين كَيْقُبَاذ حوالي عشرين ألفاً من المُقاتلين[6]. وفي أثناء الاستعدادات؛ حضر إلى منكبرتي رُكن الدِّين جيهان شاه صاحب أرزن الرُّوم، وأعلمه "باتِّفاق مُلُوك الشَّام والروم عليه، وقال: الرأي مُبادرتهم قبل أن يجتمعوا، فصوَّب السُّلطان رأيه، واتَّفقا . . منتظرين حَرَكَة العسكرين أيهما تحرَّك أوَّلاً، ساقا إليه قبل اتِّصاله بصاحبه"[7]. وللحقيقة؛ فهذه خُطَّة جيِّدة، وكان من المُمكن أن تُؤدِّي إلى اختلاف جذري في نتيجة المعركة، لكنْ؛ "مَرَض السُّلطان مرضاً شديداً، وسقط على الفراش، وتواترت كُتُبُ رُكن الدِّين مُحرِّضة على المعركة، والسُّلطان في شُغل عنها، وبعد أن خفَّ عنه المرض ساق، وبعض عساكره في الشَّرق وبعضها في حصار بعض القلاع"[8]. إن الأيَّام التي أمضاها السُّلطان جلال الدِّين مريضاً

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 195.
2 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.
7 - سيرة منكبرتي، النسوي، 329.
8 - سيرة منكبرتي، النسوي، 330.

كانت أيَّاماً ذهبية للحُلفاء، فقد أكملوا استعداداتهم، والتقى الجيشان بسيواس، وما إنْ سمعوا بحَرَكَة الخوارزمي حتَّى تحرَّكوا، والتقوا بعسكره في مرج ياصجمن[1]، وأطلَّت العساكر الأيُّوبيَّة والرُّومية عليهم في المرج وهم مُعسكرين، بينما جيش الحُلفاء بأتمِّ أهبَّة واستعداد، وكان الرُّومي هُو الدبندار[2]، وقُوَّات الرُّوم تُشكِّل الميمنة والميسرة، أمَّا القُوَّات الأيُّوبيَّة؛ فهي بقيادة الأشرف، وتُشكِّل القلبَ، وكُلٌّ منهم له بعض الأجنحة، فكان صاحب خرتبرت الأرتقي من أجنحة الرُّومي، "وكان مع الرُّومي من الخلائق ما طبق الأرض، وملأها من التُّركمان، والأرمن، والفرنج، والمُسلمين، وغيرهم". والملك المنصُور صاحب حمص كان من أجنحة الأشرف، "وقد عمل عملاً عظيماً هُو وأصحابه، وفقد جماعة منهم دُون باقي جميع السلاطين"، أمَّا عسكر حلب؛ فكان في وسط القلب. وكانت العَرَبان قد حضرت مع الأشرف، وهي لكونها قُوَّات خفيفة جدَّاً، فهي التي تبدأ المطاردة، ويسوق خلفها باقي العَسْكر[3]. والتقى الجمعان "فانكسرت الخَوَارزميَّة، ووقع منهم في واد خلق كثير، فهلكوا"[4]، "وولَّى جلال الدِّين منهزماً، وتفرَّقت عساكره، وتمزَّقت"[5]. وقبض كَيْقُبَاذ على ابن عمِّه، رُكن الدِّين جيهان شاه بن أَرْطُغْرُل صاحب أرزن الرُّوم، وسجنه[6]، ويُقال إنَّه قتله[7].

ويشرح لنا الجويني مُجريات هذه المعركة الغريبة، مُبرِّراً هزيمة جلال الدِّين منكبرتي أمام تحالف الأشرف وكَيْقُبَاذ برواية لا تفتقد إلى التماسك، يقول: "كان جلال الدِّين قد دهمه المرض، فبرز من محنته، وامتطى جواده، ولأن صحَّته مازالت واهنة لم يُحسن التمسُّك بزمام جواده، فانطلق الجواد على غير هُدى، فقالت الخاصَّة: يجب أن ينال السُّلطانُ راحتَهُ، فعادت الرايات، وحين رأت صُفُوف الميمنة والميسرة ذلك ظنُّوا أن السُّلطان انهزم، فتراجعوا، بينما ظنَّ جيش الخصوم هذا التراجع حيلة

1 - يا صجمن: هُو من أعمال أذربيجان، ذكره ابن الأثير باسم: باسي حمار، (الكامل في التاريخ، 12/ 490).
2 - الدبندار: الذي يضرب الطبل (صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 13)، ونستنتج من السياق أنَّها تعني القائد العامّ، الذي يتحرَّك الجميع بأمره.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 206 ـ 209.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 309.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298، ـ يروي ابن واصل حادثة تدلُّ على اختلال عقل جلال الدِّين بعد هزيمته. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298).
6 - تاريخ التتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، والمنصُوري، ابن نظيف، 212.
7 - سيرة منكبرتي، النسوي، 331.

من السُّلطان، ليسوقهم إلى الصحراء، فلم يلحقوا به[1]، ولو ساق الرُّومي والأشرف خلف الخوارزمي لتمكّنوا من إبادة قُوَّاته، "بل ظنُّوا أن له عدَّة أمكنة، لأنَّه انكسر من غير قتال فقالوا: هذه خديعة، ما نثق بكسرته"[2]، ونستدلُّ من ذلك أنَّها كانت معركة غير حاسمة، ولم يتمّ فيها قتال حقيقي، أدَّت ظُرُوف مرض منكبرتي إلى تراجع جيشه، دُون استثمار عسكري لهذا التراجع من قبل الأشرف وحليفه كَيْقُبَاذ، ممَّا مكّن الخوارزمي من إعادة جمع قُوَّاته، ثُمَّ سار إلى خِلاط، ومنها إلى أذربيجان[3]. ويقول ابن نظيف: إنَّه بعد هزيمة الخوارزمي هُم الأشرف عُبُور بلاد العجم وراءه، وظلَّ ـ تارةً ـ يُقدم، وتارة يُحجم[4]. ولكنْ؛ في الحقيقة، حتَّى لو كانت نتيجة المعركة حاسمة تماماً، وهزيمة الخوارزمي كاملة، ما كان الأشرف ليُقدم على هذه الخطوة لأسباب كثيرة، منها:

1 ـ عندما احتلَّ الحاجب على بلاد أذربيجان لم يتمكَّن من الإقامة فيها طويلاً، بل غادرها مُسرعاً، مع أنَّه قدمها بمُوافقة أهلها.

2 ـ لم يكن الرُّومي ليسمح بهذا التوسُّع للأشرف، ممَّا يعني قُوَّة كُبْرَى قُرب حُدُوده، وبالتَّالي؛ لن يدعمه، إذا لم يمنعه أصلاً من دُخُول بلاد الشَّرق.

3 ـ تتشكَّل قوى الأشرف العسكريَّة، إضافة إلى قُوَّاته، من عساكر المَمالك الأيُّوبيَّة: حلب، وحمص، وحماة، وغيرها، ولا يُمكن أن تسير هذه القُوَّات بهذه الحملة لبُعد قواعدها، ولحاجتها لأوامر جديدة.

4 ـ إن الأشرف يعرف جيِّداً ما يواجهه الخوارزمي من متاعب من أهل البلاد، وأهمّ من ذلك من التّتار المُتحفِّزين في الشَّرق.

5 ـ أمَّا إذا كان المقصود بعُبُور الأشرف هُو حملة للمطاردة فقط؛ فهي غير مأمونة الجوانب، وفائدتها العسكريَّة قليلة.

ولكُلِّ ذلك نعتقد أن ما فكّر به الأشرف هُو مُجرَّد أقوال تخدم الحَرْب المعنوية، ويُؤيِّد ما نذهب إليه مُحاولة الأشرف المُباشرة للصُّلح مع الخوارزمي.

1 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 84.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 211.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 490، ـ وقيل بأنَّ الخوارزمي تابع مسيره إلى خوي. (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 491).
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 214.

نتائج المعركة:

بعد المعركة مُباشرة تحرَّك الأشرف نحو خِلاط، فاسترجعها[1]، عام 628 هـ ـ 1231م[2]، وهي خراب يباب[3]. والغريب في الأمر أن جميع الأطراف المُتحاربة المُنتصرة: علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الرُّومي، والأشرف مُوسى الأيُّوبي، والمهزومة: جلال الدِّين منكبرتي الخوارزمي، جميعهم مالوا للصُّلح، وبدؤوا بمُفاوضات ومُراسلات للاتِّفاق فيما بينهم، والتحالف على أن يبقى بيد كُلٍّ منهم ما يملكه من البلاد، ولا يتعرَّض أحدهم لما بيد الأخر[4]، فما هي دوافع هذا الصُّلح بالنِّسبَة لكُلِّ الأطراف؟

1 ـ بالنِّسبَة لجلال الدِّين منكبرتي، كان وضعه لا يحتمل مثل هذه الهزيمة، وإنْ لم تكن حاسمة، "فقد ضعف جلال الدِّين، وقويت عليه التّتار"[5]، لذلك؛ مال للصُّلح، وهُو من مصلحته بالدرجة الأُولى.

2 ـ أمَّا بالنِّسبَة للأشرف؛ فإن بوادر خلافه مع أخيه الكامل كانت قد بدأت فعلاً، ولابُدَّ إن انسحاب الكامل، وعدم دعمه للأشرف في معركة مصيرية مع الخوارزمي كان بداية ذلك الخلاف.

3 ـ أمَّا علاء الدِّين كَيْقُبَاذ؛ فالمعركة ضدَّ الخوارزمي بالنِّسبَة إليه كانت معركة وقائية، لإبعاده عن حُدُوده، كما أن له مُحاولات سابقة للتحالف مع الخوارزمي، وحتَّى إنَّه سعى لتوجُّهها ضدَّ بني أيُّوب.

ويقول النسوي صاحب سيرة منكبرتي: إن الأشرف هُو الذي ابتدأ بطلب الصُّلح والتحالف مع جلال الدِّين، وإنَّه وسَّطَ شرفَ الملك وزير جلال الدِّين في إتمامه، وأرسل له يقول: "إن سُلطانك سُلطان المُسلمين، وسندهم، والحجاب دونهم، فهلا ترغبه في جمع الكلمة... وأنا ضامن السُّلطان من جهة كَيْقُبَاذ، وأخي الكامل"، وتردَّدت الرُّسُلُ بينهم، حتَّى وافق السُّلطان جلال الدِّين على الصُّلح[6].

بينما يقول ابن نظيف: إن الملك الأشرف أرسل لجلال الدِّين يطلب حسن مُعاملة الأسرى، فردَّ عليه منكبرتي بطلب الصُّلح، وقال من جُملة رسالته: "فإن اخترتُم الصُّلح، بسم الله"[7]. ويُتابع

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 159.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 491.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.
6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 333.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 215.

ابن نظيف: بأنَّ الأشرف قد ردَّ عليه برسالة جاء فيها: "بلادنا قد خربتْ، فصُلحنا على أيِّ شيء يكون؟ فإنْ أردتَ ذلك، فانزل عن هذه البلاد"[1]، وهذا يُؤكِّد أن جميع الأطراف كانت ترى في الصُّلح مصلحة لها، وخاصَّة أن خطر التتَار - وهُو خطر أكبر - قد أخذ يقترب من الساحة، والجميع على يقين بأنّهم سيُواجهونه.

وفي عام 627 هـ 1230م، أخذ خواجا جيهانُ وزيرُ جلال الدِّين منكبرتي المُبادرة، وطلب رسولاً يصل إليه من عند الأشرف والرُّومي ليتباحث معه. فسيَّروا إليه المُظفَّرَ غازي، فتباحث معه، وعاد ومعه رسول، فأمر الأشرفُ العساكرَ والمُلُوك وعسكرَ الرُّومي أن يلبسوا، ويتجمَّلوا، وأن يقف بيد يدَيْه أكابر الأُمراء، ثُمَّ أحضر الرسول فسمع رسالته، وصرفه، "واتَّفق الرأي على إرسال الجواب مع الحكيم سعد الدِّين[2] لأنَّه يعرف بالعجمي"[3]، والمُهمُّ في الأمر أن المباحثات بينهما أثمرت. وفي عام 628 هـ 1231م، سار الملك الأشرف إلى خِلاط ليُقابل فيها رُسُلَ جلال الدِّين، إنَّها لفتة ذات مغزى كبير أن يستقبل الأشرف رُسُلَ الخوارزمي في بلد كانوا قد احتلُّوه، واسترجعه الأشرف منهم، ممَّا سيُشكِّل ضغطاً نفسياً على رُسُل الخوارزمي لمصلحة الأشرف. وفعلاً، وصل إلى خِلاط وفدُ الخَوَارزميَّة، يرأسه الوزير خواجا جيهان، وبرفقته الحكيم سعد الدِّين رسول الأشرف، وحلف لهم الأشرف على الاتِّفاق[4].

وتسارعت الأحداث؛ فبشكل مُفاجئ، وصل إلى جلال الدِّين منكبرتي خبرُ عُبُور القائد التتاري جورماغون نوين لنهر أموية[5]، فالتتار قد سمعوا بهزيمته "وكان الملاعين لَمَّا بلغهم عود السُّلطان من الرُّوم بجَمْع مُفرَّق، وشمل مُبدَّد مُمزَّق، اغتنموا ضعفه، وطلبوه"[6]، وقيل: بأنَّ مُقدَّم

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 216.

2 - الطبيب سعد الدِّين بن عبد العزيز بن المُوفَّق ت عام 644 هـ 1246م، راجعْ ترجمته في: طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 3/ 314.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 222، - يُعرَف بالعجمي: أيْ يتكلَّم اللُّغة الفارسية.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 224.

5 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 85، وتاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 430.

6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 348.

الإسماعيليَّة في ألموت هُو مَنْ أطلعهم على حال جلال الدِّين، وطلب منهم الهُجُوم عليه"[1]. ولم يجدْ جلال أمامه من حلٍّ سوى الاستنجاد بالأشرف والرُّومي ومُلُوك الجزيرة والخليفة.

استنجاد جلال الدِّين بالأشرف:

عندما أيقن جلال الدِّين منكبرتي بسُوء موقفه أمام التتَار، وأن المعارك القادمة ستُحدِّد وُجُوده، ووُجُود دولته، وأنَّه غير مُستعد لها، بدأ يُطلق صيحات الاستغاثة وهُو شبه مُتأكِّد من عدم جدواها. كانت القوى التي يُمكن أن تدعم جلال الدِّين في ذلك الوقت محدودة وبعيدة نسبياً، وبعضها غير قادر، أو غير مُهتمٍّ بتقديم المُساعدة، أو أنَّه ناقم عليه.

فصاحب الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُباذ كان مُعادياً لجلال الدِّين، لأنَّه "جرَّد ستة آلاف فارس، فأغاروا على خرتبرت وأزربيجان وملطية، لما كان ينقم على علاء الدِّين كَيْقُباذ، وتحريشه إيَّاه بكُتُبه المتتابعة بخلاط، ثُمَّ ميله عنه إلى الأشرف"[2]. ومع كُلِّ ذلك؛ فقد أرسل جلال الدِّين إلى كَيْقُباذ يطلب نجدته، فلم يردّ عليه[3]، وكذلك كَاتَبَ الخليفة العبَّاسي المُنتصر بالله في بغداد[4]، ولكن الخليفة، رغم تحسُّن علاقته بجلال الدِّين، فلا يُمكن أن يكون قد نسي تجريد جلال الدِّين الحملات ضدَّه، وحتَّى إذا رغب بإنجاده فهُو غير قادر، وإذا أنجده فعلاً، فنجدته لن تكون ذات جدوى، لضعف حال الخليفة.

وفي الحقيقة؛ كان الملك الوحيد القادر على تقديم نجدة تستطيع أن تدعم جلال الدِّين بشكل جدِّيّ هُو الملك الأشرف بإمداد من أيُّوبية الشَّام وأخيه الكامل في مصر. لذلك قام جلال الدِّين بإرسال مُجير الدِّين يعقوب بن الملك العادل، "وكان قد أسره عندما احتلَّ خِلاط"، إلى أخيه الأشرف، وحمله رسالة تتضمَّن الاستغاثة الأخيرة من دولة مَقْضي عليها، ومَلك انتهى أمره، وقال له:

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، حوادث عام 628، وجامع التواريخ - تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 44.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372

3 - ابن العبري، تاريخ مُختصر الدُّول، 340، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 86.

4 - تاريخ التتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 161.

"أعلمه أن الشَّرق طار شراره... وليس يردُّهم إلَّا اجتماع الأُمَّة، واتِّفاق الكلمة، وهيهات: هل من راق، وقد بلغت التراق"[1].

ويبدو أن جلال الدِّين كان مُتأكِّداً من عدم جدوى الاستنجاد بأحد، وأنه ترضية لخواطر بعض قادته قام بذلك، يقول البَسَوي: "وأجمعوا على الاستنجاد بالملك الأشرف مُوسى على التَّتار، وكان جماعة من الجبناء يُشيرون على السُّلطان بذلك، وهو يُخالفهم باطناً، والسُّلطان يُتابع رُسُلَهُ للملك الأشرف مُستنجداً، والعقل يُنكر ذلك مُستبعداً، وهيهات، إن الضغينة إذا تمكَّنت من القُلُوب تلبث، ورُبَّما تُورَّث، إن المستعين على العدوِّ بذي ثائرة كالمستجير من الرمضاء بالنار"[2]. وحتَّى لا يُضطرَّ الأشرف إلى مُواجهة الرُّسُل، فقد ترك الشَّام، وتوجَّه إلى مصر، يتفرَّج بها، ويتسلَّى، ولم يسمح رجاله لرُسُل جلال الدِّين بالوُصُول إلى دمشق، فمكث الرُّسُل بحَيْرَة من أمرهم، ولكن موقف الأشرف كان قد وضح لهم، فأرسل مُختصَّ الدِّين - أكبر رُسُل جلال الدِّين - رسالة إليه، يُبلغه اليأس من نجدة الأشرف له، وأن الأشرف لن يرجع من مصر حتَّى ينجلي موقف جلال الدِّين مع التَّتار، وأنهى رسالته بقوله: "فلينظر السُّلطان في شغله غير مُنتظر جواب رُسُله"[3]. عند ذلك؛ يئس جلال الدِّين من نجدة الأشرف، وكلَّف البَسَوي بالترسُّل إلى مُلُوك الجزيرة الآخرين، لطلب حُضُورهم مع عساكرهم، ويُخبرنا البَسَوي عن هذه المهمَّة، فيقول: "فأرسلني إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن العادل، أستحضره بنفسه و عسكره، ومَنْ حوله من المُلُوك مثل صاحبَيْ آمد وماردين، وقال: عند حُضُورهم لا حاجة لنجدة الملك الأشرف. وقال لي: قُلْ للمُظفَّر، هَلُمَّ لي مُساعداً..."[4]. ويبدو أن هذا الطلب - أيضاً - قام به جلال الدِّين بدُون قناعة بفائدته، يقول البَسَوي: "ولمَّا خلا المجلس قال لي: نحنُ لا نشكُّ في هؤلاء، أبداً، لم يُنجدونا، ولا تنفع الشكوى إلى غير راحم، إن هؤلاء - يعني التُّرك من أُمرائه - يُطمعون أنفسهم فيما لا يكون، تسويلاً بكواذب الظنون، وقد شوَّشوا علينا بهذا الطمع وجه تدبيرنا، فاخترتُكَ لهذه الرسالة، لترجع من المبعوث إليه باليأس، الذي لا رجاء بعده،

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 355.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 370 - 371.
3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.
4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.

ولا تأميل عنده"[1]، وهذا دليل على حالة اليأس القاتل التي وصل إليها جلال الدِّين، والتي ستُؤدِّي إلى فشله الكامل.

ومع ذلك؛ فقد سافر البَسَوي إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن الملك العادل في مَيَّافارقين، فاعتذر له بقلَّة عسكره، وأنَّه نائب لإخوته، وحذَّره من صاحبَيْ آمد وماردين، وطلب منه اختبارهما؛ ليعلم نفاقهما. وكان آخر الحوار بينهما أنْ قال البَسَوي للمُظفَّر: "لابُدَّ من حالتَيْن؛ إمَّا للسُّلطان، وإمَّا عليه، وأيّ منهما كانت تعقبكما ندامة، فإنْ كانت للسُّلطان وقعدتُم عن نصرته، فإنْ بذلتم خزائن الأرض لمرضاته لم تنفع، وإنْ كانت عليه، فستذكرونه حين تبلون بمُجاورة التَّتار، فردَّ المُظفَّر: كلام لا أشكُّ في صحَّته، ولكنني محكوم علي"[2]. إنَّها - إذن - السياسة الأيُّوبيَّة غير المُعلنة، والتي تقضي بترك جلال الدِّين لمصيره أمام التَّتار، انتقاماً من مواقفه السابقة ضدَّهم ومن أَخْذه خِلاط، وخوفاً من مطامعه ببلادهم. ولكنَّهم لم يُقدِّروا مدى قصر نظر تلك السياسة، التي ستنعكس عليهم بالويل والثبور، ولو بعد حين، فهل - فعلاً - كان مُلُوك الأيُّوبيَّة الأشرف والكامل لا يُقدِّرون خطر التَّتار حقَّ قدره؟! أم أن معلوماتهم عن التَّتار وخُططهم كانت قليلة أو مُضلِّلة؟! مهما تكن الأسباب فإن بني أيُّوب قد دفعوا ثمن ذلك الموقف غالياً جدّاً، فقد أنهى التَّتار حُكْمَهم ودولتهم إلى الأبد.

آخر المعارك:

بعد حساب دقيق للموقف السِّياسي أجراه جلال الدِّين تبيَّن له أنْ لا أحد سيتقدَّم لنجدته، وبتقييم الموقف العسكري استنتج أنَّه غير قادر على مُواجهة التَّتار، وتأكَّد أنَّهم مُتَّجهون نحوه، ويقصدونه بالتحديد، فسار بمَنْ معه من العَسْكَر نحو الجزيرة، ولمَّا اقترب من خِلاط، أرسل إلى نائب الملك الأشرف فيها: "ما جئنا للحرب، ولا للأذى، وإنما خوف هذا العدوّ حملنا على قصد بلادكم"[3]، ورُبَّما أمل جلال الدِّين أن يضع مُلُوك بني أيُّوب ونُوَّابهم تحت الأمر الواقع، بنقل معركته مع التَّتار إلى ديارهم، ولكنَّه - نتيجة لخوفه وتحرُّكه على شكل هارب، وليس بشكل قائد يتحرَّك في أرض معركة - أهمل الاستطلاع والكمائن والحراسة، فبينما كان مُعسكراً عن أطراف آمد

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372 - 373.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 337 - 374.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

"كبس التَّتَر جلالَ الدِّين ليلاً، فهرب في نفر يسير من أصحابه، ونهب التَّتَر المُعسكرَ، وقتلوا مَنْ ظفروا به، والباقي ولُّوا منهزمين، وتمزَّقوا كلّ ممزّق"[1]، وسار جلال الدِّين هارباً باتِّجاه مَيَّافارقين، فوصل إلى قرية صادفه فيها رجل كُردي، فقتله انتقاماً لمقتل أبيه وأخيه من قِبَل عسكر جلال الدِّين[2]، ولمَّا علم الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بذلك طلب الكُرديَّ، فقتله[3]، ودفن جُثَّة جلال الدِّين، وأخفى قبره[4]، إنَّه الجميل الوحيد الذي قدَّمه بنو أيُّوب إلى جلال الدِّين؛ حيث إنَّهم لم يرغبوا بحمايته، أو أنَّهم عجزوا عن حمايته حياً، فحموه ميتاً من انتقام شنيع كان سيقوم به التَّتار، وتمثيل بشع بجُثَّته، لولا مُبادرة المُظفَّر بإخفائها.

وتفرَّق مَنْ نجا من عسكر جلال الدِّين في كُلِّ وجه من وُجُوه الأرض نحو نصيبين، والمَوصل، وسنجار، وإربل، وغيرها، "فتخطَّفهم المُلوك والرعايا، وطمع فيهم كُلُّ أحد حتَّى الفلاح والكُردي والبدوي"[5]، وقصد الجُزء الأكبر من فلول الجيش بلاد سلاجقة الرُّوم، فاستخدمهم علاء الدِّين كَيْقُباذ، وضمّهم إلى جيشه[6]، وتوجَّه خال جلال الدِّين مع جماعة من الجيش إلى مَيَّافارقين، فاستقبلهم شهاب الدِّين غازي، أمَّا زوجة جلال الدِّين وحاشيته وخدمه، ومعهم بعض العَسْكَر؛ فمضوا إلى حَرَّان، فأمَّنهم الأمير صواب نائب الملك الكامل فيها، ثُمَّ غدر بهم[7]، "فأخذ مالهم، وسلاحهم، ودوابّهم"[8]. فهل كان هذا انتقام بني أيُّوب؟! أم أنَّه كلّ ما استطاعوا تقديمه لذكرى السُّلطان جلال الدِّين منكبرتي.

الخَوَارزميَّة ونظرية السّدّ في وجه التَّتار:

ردَّد كثير من المُؤرِّخين أن الدولة الخَوَارزميَّة كانت سدّاً في وجه التَّتار، يمنعهم من التقدُّم غرباً باتِّجاه قلب الدولة الإسلاميَّة، حتَّى إن بعضهم قد وهم، ولم يُميِّز بين الدولة الخَوَارزميَّة وبين

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 321، وراجعْ تفاصيل الحادثة في: سيرة منكبرتي، النسوي، 378.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 321.
3 - ابن العميد، أخبار الأيُّوبيِّيْن، 18، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 303.
4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 383
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 325.
7 - ابن نظيف، المنصُوري، 157، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 302.
8 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

فرقة الخَوَارزميَّة، التي عاثت فساداً في الجزيرة والشَّام، وتأسَّف للقضاء عليهم، وعدَّ ذلك تهديداً للسَّدِّ، الذي كان قائماً في وجه التَّتار. وقد وردت هذه الفكرة في رسائل جلال الدِّين منكبرتي إلى مُلوك الإسلام، عندما استنجدهم على التَّتار، بأنَّه يستطيع إذا أنجدوه أن يُقيم بهم سدّاً في وجه التَّتار، فمن جُملة ما عرض عليهم قوله: "فإن وليت استحالت عليكم مُناهضته، وإني أستطيع أن أجعل بكم سدَّ الإسكندر"[1]. وقد ذكرت الفكرة ذاتها، لكنْ؛ كان جلال الدِّين هو نفسه السَّدَّ بين المُسلمين وبين التَّتار، "وإنَّه إذا ارتفع هو من البَيْن يعجزون عن مُقاومتهم، وإنَّه كسد الإسكندر يمنعهم عنهم"[2]، وردَّد هذه الفكرة عديد من المُؤرِّخين، فابن واصل - مثلاً - يقول في معرض حديثه عن جلال الدِّين: "وكان سدّاً بيننا وبين التَّتَر، فبهلاكه؛ تمكَّنت التَّتَر من العراق والروم والجزيرة، والتطرُّق إلى الشَّام"[3]، ونسب ابن كثير في ترجمته لجلال الدِّين منكبرتي إلى الملك الأشرف قوله: "هُو سدّ بيننا وبين التَّتار، كما أن السَّدّ بيننا وبين يأجوج ومأجوج"[4]، مع أنَّه من المُستبعد صدور هذا القول عن الأشرف، نظراً لموقفه من جلال الدِّين قبل هُجُوم التَّتار الأخير عليه، وبعده. ويروي ابن تغري بردي: إنَّه لمَّا قتل جلال الدِّين منكبرتي "دخل جماعة على الملك الأشرف يُهنِّئونه بموته، فقال: تُهنِّئوني به، وتفرحون!! سوف ترون غبّه، والله لتكوننَّ هذه الكسرة سبباً لدُخُول التَّتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلَّا مثل السّدِّ الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج. فكان كما قال الأشرف"[5]. وهُنا - أيضاً - هي أقوال مُستبعدة عن الأشرف بدليل مواقفه السابقة لمقتل جلال الدِّين، واللاحقة، وغالباً؛ هي أقوال تردَّدت، ونُسِبَتْ إليه بعد هُجُوم التَّتار على الشَّام، ثُمَّ تسرَّبتْ إلى كتابات المُؤرِّخين.

ويُحتَمل أن فكرة السّدّ الخوارزمي في وجه التَّتار لم يكن مصدرها جلال الدِّين، ولم يُفكِّر بها، ورُبَّما كانت من أفكار كُتَّاب ما بعد الاجتياح التتاري للشام، فقد نشر النَّسَوي مُعظم رسائل جلال

1 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 85.
2 - تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 431.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 323.
4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 9/ 13.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 276.

الدِّين، التي يستنجد بها مُلُوك الإسلام، ولا نجد بها أيّ إشارة لفكرة السّدّ[1]، والنَّسَوي المُؤرِّخ هُو المُستشار والكاتب الخاصّ لجلال الدِّين منكبرتي، كذلك لا نجد إشارة لفكرة السّدّ عند ابن نظيف، فهُو مُعاصر للأحداث، مُطّلع عليها، وقد أورد مقتطفات من رسائل جلال الدِّين تخلو من هذه الفكرة[2]. ويبدو من نُصُوص رسائل جلال الدِّين أنّها كانت شفهية، ولم تكن مكتوبة، فعندما أراد جلال الدِّين أن يُبلغ الأشرف بخُطُورة الوضع أمام التّتار أحضر مُجير الدِّين يعقوب بن العادل، "فأوصى إليه أن يمضي إلى الملك الأشرف، وليُعلمه...."[3]، وهذا يُوضِّح أن الرسالة كانت شفهية، ويُؤكِّد ذلك نصُّ ابن نظيف؛ حيثُ يقول: "لمّا تحقّق الخوارزمي قصدَ التّتَر له أطلق مُجير الدِّين بن الملك العادل، وقال له: نفسكَ لكَ ، فتُعَرِّف أخاكَ الأشرف بالتّتَر"[4].

والرسائل الشفوية يُمكن أنْ تُنقَل، وتتناقل، بأشكال مُتعدِّدة، فبأحسن الأحوال قد تكون فكرة السّدّ وردت عَرَضَاً في إحداها.

أمّا فكرة السّدّ الخوارزمي بوجه التّتار بحَدِّ ذاتها؛ فنرى أنّها معكوسة تماماً، فالخوارزمية ـ مُنْذُ قيام دولتهم ـ قد حطّموا السّدّ الحقيقي الذي كان يُمكن أن يردَّ التّتار، أو أن يصمد بوجههم، وذلك من خلال ما يلي:

1 ـ كان السُّلطان مُحمَّد خوارزم شاه مُحارباً قديراً، لكنّه لم يهتمّ بسياسة المُلك وإصلاح أمر الرعية، كان مُستبدّاً بحُكْمه، مُتعصِّباً لرأيه، لا يهمُّه إلّا توسيع دولته.

2 ـ أغلبية الجيش الخوارزمي كانت من مُرتزقة الأتراك من عشائر القفجاق ومنقلي، لا يجمعهم تنظيم سليم، وهدفهم المُفضَّل هُو الغارات والنهب.

3 ـ قضاء خوارزمشاه على دولة الخطا ـ القراخطائيين ـ التي كانت حاجزاً أمام التّتار[5].

1 - راجعْ: سيرة منكبرتي، النسوي، 834 ـ373.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 277.
3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 355.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 722 ـ 228.
5 - عندما اتّجه خوارزمشاه إلى الخطا قال له الحكماء: إنّا سمعنا من آبائنا أن وراء جيش الخطا عشّاً للنحل، وهُو جيش يأجوج، وكانوا يقصدون به جيشَ التّتار، فلا تستفزّ عشَّ النحل هذا. إلّا أن طمع السيطرة على العالم أصمَّ آذانَ السُّلطان عن هذه النصائح، فمضى، وهزم خان الخطا، واستولى على بلاده. (مجمع الأنساب، مُحمَّد بن علي شبانكاره أي، 314).

4 ـ خُرُوج جلال الدِّين على الخليفة، وحملته الفاشلة عليه.

5 ـ قسوة جلال الدِّين الفائقة، وسلوكه الدموي.

6 ـ الخوف والتردُّد المسيطران عليه، ممّا كان يمنعه من اتّخاذ قرارات سريعة ومُناسبة.

7 ـ ظُلم الخوارزميِّين لرعاياهم، واستنزافهم اقتصادياً لتمويل حُرُوبهم التوسُّعية، إضافة إلى أن رعاياهم يعدُّونهم مُغتصبين للمُلك، خارجين على شرعية الخليفة، ممّا دفع كثيراً من القبائل والجماعات للانضمام إلى التّتار[1].

8 ـ لم يُبقِ الخوارزميةُ على أيِّ مملكة، أو مُلك مُستقلٍّ، من كاشغر حتّى العراق، فلم يعد في كُلِّ تلك البلاد مَنْ له القُدرة على مُواجهة التّتار، يقول ابن الأثير: "إن هؤلاء التّتَر إنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه مُحمَّد كان قد استولى على البلاد، وقتل مُلُوكها، وأفناهم، وبقي هُو ـ وحده ـ سُلطان البلاد، فلمّا انهزم منهم لم يبقَ مَنْ يمنعهم، ولا مَنْ يحميها"[2].

9 ـ يُؤكِّد كاتب مُتأخِّر هُو ابن عرب شاه فكرة تحطيم الخَوَارزميّة للسّدّ، الذي كان في وجه التّتار، ليحول بينهم وبين الدولة العَرَبيّة الإسلاميّة، يقول: "أمّا أخبار السُّلطان قُطب الدِّين[3]؛ فإنّه تملَّك عراقَي العَرَب والعجم، واستولى على غالب الممالك بالقهر، ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التّتار المُسلمين قراجغتاي وعُبّاد الأوثان، واسترقَّهم قهراً وقسراً، فكانوا شُعُوباً وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مُقاتل[4]، وكان هؤلاء التّتار متاخمين بلاد أنزار، وهي حدُّ ممالك السُّلطان، وهُم سدٌّ عظيم بين المُسلمين وبين جنكزخان، فغزاهم السُّلطان، وأبادهم، فارتفع السّدُّ من البين، وانهدم الفاصل بين الجانبَيْن، واتّصلت المملكتان، ودقَّت في مملكة السُّلطان قُطب الدِّين البشائر. وكان في نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العُلماء، فاجتمعا، وأقاما العزاء، فسُئلا عن موجب هذا البكاء، وإنما الناس في فتوح وهناء، فقالا: أنتم تعدُّون هذا الثلم فتحاً، وتتصوَّرون هذا الفساد صُلحاً، وإنما هُو مبدأ الخُرُوج، وتسليط العُلُوج، وفتح سدّ ياجوج وماجوج، ونحنُ نُقيم

1 - راجعْ حول كلِّ تلك الأسباب: تاريخ التّتار، عبّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 126 ـ 129.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 361.
3 - قُطب الدِّين: السُّلطان قُطب الدِّين مُحمَّد بن أنوشتكين مُؤسِّس الدولة الخَوَارزميّة، وأوّل مَنْ لُقِّب خوارزمشاه.
4 - الذي قضى على هؤلاء هُو السُّلطان علاء الدِّين تكش بن قُطب الدِّين، والمقصود هُنا هُو شعب الخطا.

العزاء على الإسلام والمُسلمين"(1). وهُنا - أيضاً - نعتقد بأنَّ هذا الاستنتاج كـان مُتـأخِّراً، وقـد تمَّـتْ صياغته على طريقة الحكايات لاستخلاص العبر، وما يهمُّنا فيه هُو إدراك الرأي العامّ الـشَّعْبي لـدور الدولة الخَوَارزميَّة في فتح طريق التَّتار.

ولكـنْ؛ للحقيقـة، فـإن الدولـة الخَوَارزميَّـة لم تخـرج في علاقاتهـا الـسِّياسيَّة، أو العـسكريَّة، لا في الحَرْب، ولا في السِّلْم، عن رُوح العلاقات التي كانت سائدة في عـصرها، ولا نـستطيع أن نُلقي باللوم في أيِّ شيء حصل إلَّا على العصر بأكمله، وعلى كُلِّ مَنْ عاش فيه، فهـذه أخلاقيـات العـصر، ومنها كان سلوك مَنْ عاش فيه. وقد بدأت العلاقات بين الدولة الخَوَارزميَّة والـسَّلطنة الأيُّوبيَّـة مُنْـذُ أيَّام الملك العادل، ولمَّا دفع التَّتار الخوارزمية نحو الغَرْب دخلوا معترك الصراع على النُّفُوذ في الجزيـرة الشَّاميَّة. وخاصَّة؛ عندما تحالف الملك المُعظَّم بن العادل مع جلال الدِّين منكبرتي سُلطان الخَوَارزميَّـة ضدَّ أخويه، وانعكس ذلك على العلاقات الأيُّوبيَّة مع الخليفة العبَّاسي، الذي كان في حرب مع جـلال الدِّين، ممَّا جعل الخليفة يتدخَّل مع المُعظَّم لمنع تحالفه مع عدوِّه جلال الدِّين، وجعل الكامل يـردُّ عـلى هذا الحلف بالتحالف مع الإمبراطُور فريدريك، هـذا التحـالف الـذي نـتج عنـه انتكاسـة كُـبْرَى في سياسة الجهاد الأيُّوبيَّة بتسليم الملك الكامل مدينة القُدْس إلى فريدريك.

انتهى الجُزء الأوَّل، ويليه الجُزء الثَّاني؛ وهُو بعُنوان:

العلاقات الآسيويَّة الأُورُوبيَّة

---

1 - فاكهة الخُلفاء، ابن عرب شاه، 486 - 487.

لمحة إلى المُؤلِّف

د. مُنذر مُحَمَّد الحايك:

- دُكتُوراه في تاريخ العرب والإسلام.
- عُضو دائم في اللِّجان العلميَّة، ومُنسِّق لأعمال المُؤتمرات التَّاريخيَّة والأثريَّة في جامعة البعث.
- رئيس سابق للجمعيَّة التَّاريخيَّة السُّوريَّة.
- أُستاذ مادَّة التَّاريخ في كُلِّيَّة الآداب، جامعة البعث (1992-2002).
- باحث مُشارك في العديد من المُؤتمرات الدَّوليَّة في الجامعات السُّورية والعَرَبيَّة.
- له أكثر من عشر مُؤلَّفات في التَّاريخ، والآثار، والتُّراث الشَّعبي.
- نَشَرَ عشرات البُحُوث التَّاريخيَّة، والأثريَّة، والاجتماعيَّة في المجلَّات العَرَبيَّة المُتخصِّصة.
- حَصَلَ على كثير من شهادات التَّقدير من عدَّة جامعات، ومراكز دراسات، وهيئات ثقافيَّة سُوريَّة، وعَرَبيَّة، وأجنبيَّة؛ تقديراً لنشاطاته الثَّقافيَّة، ومُشاركاته العلميَّة.

حقيقة الحال؛ إنَّ العمل الذي أقدِّم له ، وأعدَّه د مُنذر الحايك، من أهمِّ ما كُتب بالعربيَّة حديثاً حول الحُروب الصّليبيَّة،وأشهد أنَّه عالج جوانب هذه الحُروب بنجاح، ودقَّة، ولولا أنَّه تملَّك في ذهنه - بوضوح - صُورة جميع جوانب هذا الموضوع لما حالفه النَّجاح.

لقد أوضح - مُنذُ البداية - أنَّ قيام الإسلام، ونجاح حَرَكة الفُتُوحات الكُبرى ، قسم عالم البحر المُتوسِّط الى عالمَين مُتصارعَين:واحد مُسلم، وآخر مسيحي، وفي العالم المسيحي؛ كان للكَنيسة الكاثوليكيَّة نُفُوذها الكبير؛ لذلك استجاب الأوروبيُّون لنداء البَابَا، فحملوا الصَّليب، وتوجَّهوا - على شكل أمواج بشرية - يُريدون القُدس.

إنَّ العمل الذي قام به باحثنا، والذي أقدِّم له اليوم، يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتَّقصِّي، وشكَّل لديَّ بارقة أمل في أنَّ الضّعف اللامحدود الذي ألمَّ بدراسات التَّاريخ الإسلامي في جامعة دمشق ،سوف يجري تداركه في حمص، وربَّما في حلب، وهذا الضَّعف المأساوي مَرَدُّه إلى أنَّ المُعيدين - الذين جرى تعيينهم في العقدَين الماضيَين لم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي ، وهذا - بالفعل - أمر مُحزن، لابُدَّ من إيجاد حلٍّ له .

الذي أتمنَّاه أنْ يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدُّكتُور مُنذر الحايك - والذي أقدِّم له - بدايةً لمزيد من الأبحاث في ميدان الحُرُوب الصّليبيَّة، والميادين الأُخرى في تاريخ العرب والإسلام .

له أتمنَّى التوفيق والنجاح، والحمد لله، أوَّلاً وآخراً، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّه المُصطفى، وعلى آله وصحبه، وسلَّم.

أ. د. سُهيل زَكَّار

AL - AWA'EL

pixel studio design 2450733
www.pixelstudiosy.com